

تيسير الكبير الرحمن

في تفسير كلام المَنَّان

تأليف
العلامة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي

قدّم له

فضيلة الشيخ
عبد الله بن عبد العزيز بن عقيّل
فضيلة الشيخ
محمد الصالح العثيمين

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة
عبد الرحمن بن معاذ اللومحوت

طبعة جديدة محققة عنه نسخ مخطئة مع زيادات
طبع لأول مرة

مؤسسة الرسالة

$$\frac{17}{13}$$

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



للطباعة والنشر والتوزيع

وعلى التوزيع
شمارع عينات في خزانة
مكتبة الشريعة
فلسطين : ٩٩٩-٩٩٩
البحر : ٩٩٩-٩٩٩
عمان : ٩٩٩-٩٩٩
مكة : ٩٩٩-٩٩٩

Resalah
Publishers

Tel: 31/9819 - 31/9112
Fax: (3611) 31/9612
P.O. Box: 117480
Beirut - Lebanon

Email:

resalah@resalah.com

Web Location:

<http://www.resalah.com>

جميع الحقوق محفوظة للناس

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٠ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تفسير الكبرياء الحبيب

في تفسير كلام المثنان

تأليف
العلامة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
١٣٠٧ هـ - ١٣٧٦ هـ بحمد الله تعالى

قدم له

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة
عبد الرحمن بن معاذ اللويحي

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمات

مقدمة فضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيـل.

مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين.

مقدمة المحقق.

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وجعله هدى وبرهاناً لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقبض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر وذلك بتفسيره المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو استطراد أو ذكر قصص أو إسرائيليّات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرأها مهما كان مستواه العلمي فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافاً لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد منّ الله عليّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهاً في حلقات الدروس في مسجد الجامع بعنيزة، كما أنني ممن أشار عليه بطبعه فطبع الجزء الخامس فقط في حياته عام ١٣٧٥هـ في المطبعة السلفية بمصر، وبعد ذلك تشاورنا في طبع بقيته، وساهمت في ذلك أيام كنت قاضياً في عنيزة فطبع باقيه بعد وفاته في عامي ٧٦ و ٧٧، وبعد تمام طبعه تداوله النامس بالقراءة والتدريس، ودرسناه لإخواننا وأبنائنا الطلاب وحصل بذلك خير كثير وقرأه أئمة المساجد على جماعاتهم لوضوح عباراته. وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى لا يخلو كل منها من ملاحظة أو مؤاخذه.

ولما صارت طبعاته بهذه المثابة مع حاجة الناس إليه سمت همة ابنتنا الشيخة الفاضلة: عبد الرحمن بن معلل اللويحي الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى طبعه على هامش المصحف الموجه كل جزء (٢٠) صفحة مراعيّاً في كل صفحة وضع ما يتعلق بتفسيرها. وقد عرض عليّ النماذج الأولى لهذه الطبعة فأعجبني، وسررت بها جداً مؤملاً أن تكون هذه الطبعة خير معين على فهم كتاب الله تعالى، والاعتناء به تلاوة وحفظاً وفهماً، لأنه بهذا الصنيع يقرب الاستفادة لتالي القرآن لسهولة

التناول وسرعة الرجوع إلى تفسير الآية من نفس الصفحة بدلاً من الرجوع إليها من كتب التفسير البعيدة. كما أنه سيعتني بتصحيح الأصل وجودة الطبع، فأسأل الله أن يشكر للابن الشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق هذا الصنيع المبارك وأن يجزيه أفضل الجزاء وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء وأن يتغمد الجميع ومؤلف التفسير برحمته إنه جواد كريم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرر في ٩/٢٧/١٤١٦ هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة حيث استنبط منها خمسين حكماً وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وقارئه إنه كريم جواد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه محمد الصالح العثيمين

في ١٥ / رمضان ١٤١٦ هـ

1. The first part of the paper is devoted to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

and

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

مقدمة المحقق

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن إنزال القرآن الكريم على هذه الأمة منة عظيمة؛ لأنه سبيل الهداية، وطريق السلامة من الضلال والغواية: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾.

ولكن الاستفادة الحقة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتديراً، وفهماً: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ ومن سبل ذلك التدبر، والفهم: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم؛ فإن من كمال حفظ الله عز وجل لهذا الذكر الحكيم أن فيض له جهابذة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ فألفوا في ذلك كتباً بسطوا فيها ألفاظ القرآن، وأبانوا ما يعسر فهمه، وفصلوا ما جاء فيه من القواعد والكلييات، ودفعوا التعارضات المتوهمة، وبيّنوا مراجع الضمائر، وعينوا المعاني المرادة إذا احتمل الكلام أوجهاً متعددة وكانوا طرائق قدداً في عنايتهم بهذا الكتاب العظيم حتى جاء شيخ مشايخنا العلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي رحمه الله فجعل جل عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحاً في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعانته على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الصرفة، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني، وبيان المراد إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد من الله علي بالناية بهذا التفسير، ومحبة صاحبه رحمه الله وقراءة التفسير وإقرائه، والنصح بقراءته، ومن الله عليّ بالناية بطبعه في مجلد واحد يهدم الحواجز النفسية الصادة عن قراءته في مجلداته السبعة التي كان عليها في أشهر طبعاته السابقة، وكان الهم منصرفاً إلى ذلك، ولم يكن الذهن ملتفتاً إلى طبعات الكتاب وما فيها من أخطاء حتى هاتفتني بعض أفاضل طلبة العلم من المشايخ الكرام كان منهم: فضيلة الدكتور: عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد البدر، وفضيلة الدكتور: خالد بن عثمان السبت، حيث جرت مهاتفات معهما ومقابلة للشيخ: عبد الرزاق كانت فاتحة خير للاهتمام بالتفسير وينسخه المخطوطة، وطبعاته فتبين أن في الطبعات عواراً كثيراً، وأن التفسير لم يخرج حتى الآن على الصورة التي تركها الشيخ - رحمه الله - وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل تاريخي لكتابة الشيخ لهذا التفسير، وما وقع من طباعته، فرأيت أن أعرض الأمر مفصلاً في هذه المقدمة حتى يستبين الأمر للقارئ الكريم، ويرى ما يمكن أن يفعله الكتييون والناشرون في الكتب.

تأليف الشيخ للتفسير:

بدأ الشيخ - رحمه الله - تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ وأنهاء في عام ١٣٤٤هـ.

وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً.

والذي يقرأ التفسير يحسب أنه لا يمكن لمن كان في هذا السن أن يكتبه إذ يمثل كتابة عالمٍ ناضج متمكن من العلم وآلاته، واسع الاطلاع ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾.

وقد كتب نسخة واحدة ثم أمر من ينسخ له نسخة أخرى، وبالتتبع والسؤال يبدو لي أنه لم ينسخ من التفسير إلا هاتان النسختان: نسخة الشيخ - رحمه الله - والنسخة التي أمر النساخ بنسخها.

وابتغاء توضيح الأمر أبين تفاصيل متعلقة بهاتين النسختين مع وصف لهما:

النسخة الأولى:

هذه النسخة هي التي كانت في حوزة الشيخ وملكه، وهي في جملتها كما سيظهر بخط الشيخ - رحمه الله - وهذا وصف لها:

تتكون هذه النسخة من تسعة أجزاء، جعلها الشيخ رحمه الله في تسعة مجلدات:

المجلد الأول:

وقد كتب على غلافه (المجلد الأول من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده، وابن عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي)^(١) وفوقها بخط الشيخ - رحمه الله - وبحرف صغير (هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقوله: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ وفي وسط الصفحة وبخط الشيخ أيضاً: «شرعت في هذا التفسير المبارك غرة شهر () سنة ١٣٤٢ هـ أرجو الله أن يتمه بنعمته».

وهذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - وعليه هوامش وتعديلات بخطه أيضاً، ويقع في (١٥٠) صفحة، في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً أوله المقدمة، ثم تفسير الفاتحة إلى تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ الآية (١٢٩) من سورة آل عمران.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٩٢) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير الآية (١٣٠) من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعكم تفلحون﴾ وآخره: آخر تفسير سورة الأنعام.

المجلد الثالث:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢١٤) صفحة في كل صفحة (٢٥) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة الأعراف، وآخره آخر تفسير سورة هود.

المجلد الرابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٦) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة يوسف، وآخره آخر تفسير سورة الإسراء.

(١) يلاحظ أن هذه العبارة كتبت على طرة كل مجلد بعد ذكر رقمه، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، ففي طرة المجلد الثاني جاءت العبارة هكذا: (المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين... أمين) وفي المجلد الثالث: (المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن لجامعة الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي).

(٢) الكلمة غير واضحة في الأصل والذي يبدو أنه شهر صفر أو محرم لأن الشيخ أتم هذا الجزء في نهاية شهر ربيع الأول.

المجلد الخامس:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الكهف وآخره آخر تفسير سورة النمل.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ: محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل - رحمه الله - أتم كتابته في ٢٤ رجب سنة (١٣٤٥هـ) وهو خط جميل، ولكنه كثير الأخطاء، ويفصل بين جزئي الكلمة في سطرين، ويكثر هذا منه مما يربك القارى.

وعلى هذا الجزء هوامش وتعديلات بخط الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - ويقع في (١٤٢) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة القصص، وآخره آخر تفسير سورة الصافات.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٥٣) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله: تفسير سورة (ص) وآخره: آخر تفسير سورة الفتح.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٤٦) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً، أوله أول تفسير سورة الحجرات، وآخره آخر تفسير سورة القيامة.

المجلد التاسع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٥٠) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الإنسان، وآخره آخر تفسير سورة الناس.

النسخة الثانية:

المجلد الأول:

وقد كتب عليه: (المجلد الأول من تيسير الكريم المثنان في تفسير القرآن لمعلقه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين) وهكذا كتبت هذه العبارة أو قريباً منها باختلاف يسير على طرة كل مجلد.

وفي وسط الصفحة ما يلي: (تنبيه: اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثنان» ثثنى فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها).

وكثير من هذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - إلا الصفحات ما بين الصفحة (٣٦) والصفحة (٩٦) فهي بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله - وبداية المجلد ونهايته كالنسخة الأولى.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ علي الحسن العلي البريكان، وبداية المجلد ونهايته مثل النسخة الأولى، وللشيخ

عبد الرحمن السعدي رحمه الله عليه تصويبات مما يدل على أنه قرأه ويقع في (١٧٧) صفحة في كل صفحة (٣١) سطرًا تقريباً.

المجلد الثالث:

وقد نسخ هذا المجلد ناسخان بدأ الأول بنسخ اثني عشرة صفحة ولكن خطه سقيم، وأخطاه كثيرة ولذلك كتب الشيخ رحمه الله بخطه على الصفحة الثانية: (الصحائف الأولى من هذا الجزء خطها سقيم، الأمل الثاني فيها عند تصحيحها) ثم نسخت الصحائف التالية إلى آخر الجزء بخط مغاير أمثل من الخط الأول، ولم يكتب على هذا الجزء اسماً للناسخين.

ويقع هذا الجزء في (١٥٢) صفحة كل صفحة (٣١) سطرًا. وبداية المجلد ونهايته كمثيله في النسخة الأولى.

المجلد الرابع:

وهذا الجزء بخط الشيخ سليمان الحمد البسام وللشيخ عبد الرحمن السعدي عليه بعض تصويبات بخط يده رحمه الله ويقع في (١٠٣) صفحات في كل صفحة (٢٨) سطرًا وبداية المجلد ونهايته كما في النسخة الأولى.

المجلد الخامس:

وهذا المجلد هو الذي بعث به الشيخ رحمه الله للطباعة أول الأمر. وكتب الشيخ بخط يده المقدمة التي طبعت مع هذا الجزء أول ما طبع، وهي مقدمة أثبتتها في هامش هذه الطبعة عند أول تفسير سورة الكهف، وهذا المجلد نقل عن خط الشيخ المؤلف رحمه الله وليس عليه اسم كاتبه، وقد ألحق الشيخ رحمه الله به أصول من أصول التفسير، وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن ورودها ويحتاج إلى معرفتها) وهي بخط الشيخ رحمه الله وقد جعلتها ملحقة بهذه الطبعة في آخر التفسير. وفي آخر الجزء فهرس لمحتوياته، ثم نقل للخطاب الموجه من الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله وقد أרך في ٣١/٢/١٣٧٤ هـ ونص الخطاب تجده في هذه المقدمة وعدد صفحات هذا المجلد (٢١٤) صفحة في كل صفحة من صفحات هذا الجزء (٣٠) سطرًا، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل ثم بعدها أصول من أصول التفسير وتفسير الأسماء الحسنى.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ رحمه الله وبدايته من أول سورة القصص ونهايته بنهاية تفسير سورة الصافات. وعدد صفحات هذا الجزء (١٥٤) صفحة في كل صفحة ما بين (٢٥-٢٨) سطرًا وبدايته ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ: سليمان بن حمد العبد الله البسام رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (١٢٢) صفحة في كل صفحة (٢٢) سطرًا، وبداية الجزء ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (٢٠١) صفحة..

ويبدأ من أول تفسير سورة الحجرات وينتهي بتفسير سورة الناس.

وبهذا فإن هذه النسخة تحتوي على ثمانية أجزاء بينما النسخة الأخرى على تسعة أجزاء.

هذا عن نسخ التفسير المخطوطة وأما طباعته فقد كانت فاتحتها طباعة الجزء الخامس منه، إذ بعث الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من النسخة (ب) مؤرخة في ١٣٧٤ هـ / ٢ / ٣٠. وقد نقلت من خط الشيخ بخط مغاير هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم، حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سبق جواب كتابكم الآمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه وقع النظر على الاقتصار على طبعه فجعلنا له مقدمة وخمنا بأصول وكميات من أصول وكميات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأحببت أن يكون الاختيار لجنابكم في اختيار من يتولى طبعه، إما محب الدين الخطيب أو الشيخ حامد أو من ترجع وتحثه على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصروف، وقد وصيت الشيخ: عبد الله المحمد العوهلي يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه وأرجو الله أن يثيكم الثواب الجزيل، ويشكر مساعيك ويجزيك عنا أفضل الجزاء فانت طال عمرك عوض النفس في كل شيء والله الموفق والسلام.

محبتك^(١) عبد الرحمن الناصر السعدي

وتنبه الطابع على طبع خاتمة

الأصول وكميات التفسير للحاجة الشديدة إليها

وقد أبان الشيخ - رحمه الله - عن مقصوده من أفراد هذا الجزء بالطباعة في المقدمة التي كتبها لهذا الجزء^(٢) فقال: وقد تكرر علي السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه والحواء لما يروونه من الفائدة الكبيرة فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه). وقد طبع هذا المجلد عام ١٣٧٥ هـ، ثم بعث الشيخ - رحمه الله - ببقية أجزاء الكتاب للشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - فأنم طباعة الكتاب كله، فطبع الكتاب في عام ١٣٧٦ هـ، وقبل وفاته بشهر تقريباً بعث إلى شيخنا عبد الله بن عقيل رسالة قال فيها: (التفسير مثل ما ذكرت لك، وصلني منه الجزء الأول عدة ملازم من زمان، وبعد ذلك ما جاءنا عنه خير)^(٣) وبعدها بعشرة أيام بعث برسالة أخرى قال فيها: (أفيدكم وصلني ملازم أيضاً من الجزء الثاني، وبقية الجزء الأول من التفسير، ويذكر الشيخ نصيف أنهم إن شاء الله مجتهدون في إنجازه، يسر الله ذلك وسهله)^(٤). وبهذا يتبين أن الشيخ رحمه الله لم ير الكتاب كاملاً ويبدو أنه لم يبد ملاحظات على ما طبع منه، إذ توفي بعد رسالته السابقة بشهر تقريباً.

وتتميز هذه الطبعة أولاً بالسبق الزمني فإنها أول الطبوعات، وهي أصل جميع الطبوعات السابقة فليس هناك طبعة إلا وكان أصلها عائداً إلى هذه الطبعة. وهي بذلك أسلم من غيرها، وأقل في الأخطاء والتصحيقات والتحريفات، وهذا لا يعني جودتها، وموافقتها للأصل، إذ ثم ملاحظ لا بد من بيانها:

(١) تصحفت الكلمة في النسخة إلى: (محمد)، لأن الخطاب فيما يظهر منقول عن كتابة الشيخ - رحمه الله - فهو بخط مغاير لخط .

(٢) انظر نص المقدمة عند أول تفسير سورة الكهف من هذه الطبعة.

(٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٦).

(٤) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٨).

الملحظ الأول:

التصرف في طريقة الشيخ في تفسير الآيات، حيث يعتمد الشيخ - رحمه الله - إلى ذكر الآيات أحياناً، وأحياناً يقول إلخ القصة، إذا كانت قصة من القصص وأحياناً يورد كلاماً في سياق التفسير لا يقصد به ذكر الآية فيغير المصححون ذلك فيقومون بإيراد الآيات كاملة، ويغيرون كلامه ويشطبون في المخطوطة، ويضعون الآية أو الآيات بدلاً منه.

ومن أمثلة ذلك:

إن الشيخ رحمه الله أورد قصة قارون هكذا: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) إلى آخر القصة فشطب المصححون على قوله: (إلى آخر القصة)، وأوردوا الآيات كاملة، وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

وكذا عند إيراد قصة لوط في سورة العنكبوت حيث أورد الآيات من قوله تعالى: ﴿وَلوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمَفْسُودِينَ﴾ فأتموا الآيات إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

الملحظ الثاني:

التصرف في تقسيم الكتاب، حيث قسم الشيخ التفسير إلى ثمانية أجزاء في إحدى النسخ وتسعة في الأخرى، وكانت النسخة التي اعتمدت عليها المطبعة السلفية في ثمانية أجزاء ينتهي الأول منها بنهاية تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في سورة آل عمران (١٢٩) فجعلوا نهاية الجزء بنهاية تفسير سورة آل عمران، وكتبوا في نهاية الجزء (تم المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ويليهِ المجلد الثاني وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين)^(١) وليس الأمر كما قالوا بل تقسيم النسخة التي اعتمدها على خلاف ما ذكروا.

الملحظ الثالث:

الزيادات، لقد زاد القارئون على هذه الطبعة في التفسير زيادات وإن كانت يسيرة إلا أنه لم يتم الإشارة إليها لا في المقدمة، ولا في مواضع الزيادات فمن ذلك:

١- زيادة رقم الجزء من أجزاء القرآن الكريم قبل بدايته فقبل بداية الجزء الثالث كتبوا عنواناً في وسط الصفحة (الجزء الثالث)^(٢) وكذا عند الجزء الرابع وليس في النسخة المخطوطة شيء من ذلك، ولم يشير إلى كونها ليست من كلام الشيخ رحمه الله.

٢- زيادة جملة: (قوله تعالى) أو: (قال تعالى) في مواضع كثيرة ومن أمثلة ذلك زيادتها في أول سورة النساء مع أن عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ الكلام بذكر الآيات المفسرة بعد البسملة^(٣).

٣- زيادة قوله من ديارهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ الآية، حيث قال الشيخ: (ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه) فزادوا جملة من ديارهم فصار النص

(١) (١/٢٨٨).

(٢) (١/١٤٩).

(٣) المخطوطة ب (٢/٢٣) وطبعة السلفية (٢/٣).

هكذا: (ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم).

٤- ومن أمثلة ذلك قال رحمه الله: (أي (و) أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة (شعياً) فأمرهم).
فعدل النص حتى صار بزيادته هكذا: (أي: (و): أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة أخاهم شعياً الذي أمرهم).

وبعدها بقليل قال الشيخ (فكذبوه) فأخذهم عذاب الله فعدلت فصارت (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي: عذاب الله^(١).

وهذا كثيراً جداً، وبعض التصرف تصرف مقبول في الأصل؛ للحاجة إليه، أو لخطأ في سياق الكلام، إما يعود الضمير المذكور على مؤنث أو نحو ذلك، وإما ينقص أو نحوه، ولكن هذا التصرف وإن كان مقبولاً في الأصل إلا إنه لم ينبه عليه، ولم يشر المصحح إلى شيء من التغيير.

الملحظ الرابع:

التصحيح في بعض الجمل تصحيحاً خاطئاً - بل ظاهر الخطأ - ومن ذلك:

١- قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾: (﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى).

وقد جاء التعديل عجيباً من العجب حيث غيرت عنه إلى عند أو كلمة (عرفاً) إلى (عرفات) فجاء النص هكذا: (بأن كان عند مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عند عرفات فهذا الذي يجب عليه الهدى)^(٢).

وقد تتابعت كل الطباعات مقلدة هذا الخطأ.

٢- ومن التعديل ما يكون بدون مسوغ ظاهر أو بمسوغ من وجهة نظر المصحح دون إشارة للتعديل ومثال ذلك:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ الآية، (وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ فاتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله). غيرت كلمة زعم إلى: (أخبركم أنه من عند الله)^(٣).

الملحظ الخامس:

بعض الأخطاء الظاهرة مثل:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

(فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة) هكذا في المخطوطتين وجاء في طبعة السلفية (فالشرك لا يغفره الله بالتوبة)^(٤) وهذا خطأ شنيع، وعلى ذلك تتابعت الطباعات^(٥).

وبعد ظهور هذه الطبعة بسنتين طبع التفسير طبعة أخرى عن طريق المؤسسة السعيدية، التي كلفت الأستاذ

(١) ينظر الطبعة السلفية (٤٣/٦)، والمخطوطة ب (٣٣/٦).

(٢) المخطوطة ب (٨٢)، طبعة السلفية (١١٧/١).

(٣) انظر ص ٢٨ من المخطوط (ب) من الطبعة السلفية (٢٧/١).

(٤) (١٣٨/١).

(٥) ينظر طبعة النجار (٢٨٧/١).

محمد زهري النجار بتصحيح الكتاب، والنجار يوصف بأنه من علماء الأزهر، وله بعض الأعمال الأخرى كتصحيحه لكتاب الأم للشافعي، وهذه الطبعة طبعة تميزت بأنها أضحت الطبعة المعتمدة لسائر طبعات التفسير بعدها بل اعتمدت طبعها الرئاسة العامة للافتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك لإحسانهم الظن في المؤسسة ومصححها، ولقد تبين لي جملة من الملاحظات تظهر غوار تلك الطبعة أذكر هنا جملة منها:

الملحظ الأول:

اعتماد هذه الطبعة اعتماداً كلياً على الطبعة السلفية، دون الإشارة إلى ذلك في مقدمة الطبعة، وهذا الاعتماد جعل الملاحظ المذكورة سابقاً على الطبعة السلفية تصدق على هذه الطبعة أيضاً، بل قد زادت طبعة النجار الأمر فجمعت إلى ذلك ملاحظ أخرى أشد وأخطر، ولو أن الطبعة السلفية صورت بدل أن يعهد بتصحيحها إلى النجار لكان الأمر أهون.

الملحظ الثاني:

التصرف في مواقع الآيات من التفسير:

لقد جرت عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ فيذكر الآيات التي يريد تفسيرها كاملة ثم يشرع في تفسيرها مجزأة عقب ذلك، وفي بعض الأحيان يقوم رحمه الله بذكر الآيات إذا كانت قصصاً للأنبياء فيقول إلى آخر القصة، وفي أحيان قليلة يغفل ذكر الآيات كاملة فيشرع في تفسيرها مباشرة، وعلى ذلك يجري سياق التفسير، ولكن النجار عمد إلى جعل الآيات في أعلى الصفحة، وجعل بينها وبين التفسير خطأ ثم حذف الآيات في التفسير، ومن هنا يأتي اضطراب السياق في بعض الأحيان فيضطر إلى حذف بعض الكلمات أو الإضافة أو نحو ذلك.

الملحظ الثالث:

التصرف بالزيادة:

إن من أعجب ما عمل النجار أن زاد في التفسير ففي بعض المواضع ترك الشيخ - رحمه الله - تفسير بعض الآيات سهواً، فيقوم النجار بتفسيرها من عنده.

وفي مواضع أخرى تكون النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة السلفية ناقصة؛ لأن الناسخ تجاوز الآيات فيقوم النجار من قبله بتفسير هذه الآيات. وهذه المواضع كثيرة جداً تصل في بعض المواقع إلى صفحات، وفي بعضها إلى أسطر، وفي أخرى إلى كلمات، وهذه أمثلة لها:

١- سقط من النسخة الخطية (ب) تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة وهي قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ وبناء على سقوطها من النسخة سقطت من الطبعة السلفية فجاء النجار ففسر الآية من عنده، وبدأ بمعاني المفردات، ورجع إلى جملة مراجع؛ كالقاموس والصحاح، وتفسير ابن كثير، ولم يشر إلى أن الكلام من كلامه، وليس من كلام الشيخ - رحمه الله - وقد وقع هذا في صفتين ونصف من طبعته ابتداء من منتصف الصفحة (٢٥٢) من المجلد الأول إلى نهاية ص (٢٥٤)، والقارى للكلام يعلم أنه ليس من كلام الشيخ - رحمه الله - لأن الشيخ لا ينقل من مصادر، وإنما يفسر بما فتح الله عليه كما قرر ذلك في أول الكتاب.

٢- ومن الزيادات الطويلة التي زادها النجار زيادته في تفسير الآيات رقم (١٠٥ - ١٠٧) من سورة الأنعام حيث تجاوزها الشيخ فلم يفسرها ففسرها النجار في الصفحات ذوات الأرقام (٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢) من

الجزء الثاني، ولم يشر إلى التصرف، وظاهر من أسلوبه أنه ليس أسلوب الشيخ حيث أتى ببعض الإعرابات والمعاني اللفظية ثم ذكر المعنى الإجمالي. ومن عجيب أمره أنه في الصفحة (٤٤٩) تصرف تصرفاً يسيراً بأن قدم كلمة على أخرى، وأشار في الهامش إلى ذلك التصرف، ولم يشر إلى تصرفه بزيادة ثلاث صفحات.

٣- في تفسير الآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الحج سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم ٥٦ فجمع بينهما وبين هذه الآية فكتب «فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم»، ثم فسر الآية على وفق ما كتب، فعمد النجار إلى تغيير التفسير وزيادة طويلة يصل مجموعها إلى صفحة ونصف الصفحة تقريباً^(١) ولم يشر إلى شيء من التعديل.

٤- ومن الزيادات العجيبة أن الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - أورد قوله سبحانه: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ من الآية رقم (٢٩) من سورة الدخان، في سياق تفسيره للآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون، مستشهداً بها، ولكن يبدو أن النجار ظنها من السورة نفسها ففسرها تفسيراً من عند نفسه ونسبها إلى الشيخ، ولم يعلق، ولم يبين أنه من كلامه، وهذه الزيادة تقع في صفحة تقريباً^(٢).

ومن عجيب حاله أنه يعلق أحياناً في الهامش على زياداته وكأنها تعليق على كلام الشيخ رحمه الله^(٣).

الملحظ الرابع:

الحواشي والتعقيبات:

لقد قام النجار بتعقيب الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير ووضع هامش لتلك التعقيبات فتعدى مهمته، وتجاوز طوره، فراح يعلق على هذا التفسير القيم بآراء بعدت عن الصواب، وجانب الحق في أجلى معانيه مما شوه به هذا الكتاب، وأساء إلى المؤلف، وغش القراء، وأضل الناشئة كما أنه اعترض على المؤلف، ورد أقواله بآراء من عنده لم يوفق فيها إلى الحق والصواب، مع أنه ليس من حقه ذلك، ولا من مهمته أن يعترض على المؤلف فيما اختاره، وإنما مهمته هي تحقيق النص وتصحيحه^(٤).

(والذي في أول الكتاب من هذه التعقيبات اعتراضات بسيطة على عبارة، أو لفظة أو نحوها، أما الذي في وسطه وآخره فهي اعتراضات وخيمة تحريف لكلام الله، وغلو في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وتنقص للعلماء وكذب عليهم)^(٥).

ولقد كان في معظم تعليقاته متهماً للشيخ وأسلوبه وهذه بعض تعبيراته التي تظهر ذلك قال: (والعبارة قلقة كما ترى)^(٦)، (العبارة مبهمه تحتاج إلى إيضاح)^(٧)، (العبارة فيها شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال)^(٨)، (وفي العبارة غموض كما ترى)^(٩).

(١) انظر طبعة النجار ٣٠٨/٥، ٣٠٩، وقارنه بما في هذه الطبعة.

(٢) ينظر طبعة النجار (٣٥٠/٥).

(٣) ينظر طبعة النجار (٢٥٤/١).

(٤) الشيخ محمد سليمان البسام: كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (٧).

(٥) المصدر السابق (٩).

(٦) (١٠٤/١).

(٧) (١٥٩/١).

(٨) (٢٤٠/١).

(٩) (٣٤٦/١).

ولقد أبان الشيخ محمد بن سليمان البسام عوار تلك التعقيبات بياناً شافياً في رسالة مستقلة عنوانها: (كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وذكر أمثلة كثيرة دالة على أخطاء النجار فيما زعمه من أخطاء وقع فيها الشيخ - رحمه الله - وأكتفي بالإحالة على تلك الرسالة الماتعة، ففيها نقد علمي قوي لأخطاء ظاهرة وقع فيها النجار وأشير هنا إلى ثلاث تعقيبات فقط أبين من خلالها شيئاً يسيراً من سوء صنيع النجار، وأما التعقيبات التي تحتاج إلى نقد علمي فأحيل فيها إلى رسالة الشيخ محمد البسام.

١ - وقوع النجار في الخطأ ثم تخطئة الشيخ رحمه الله به:

قال الشيخ - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: «فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره» «أي نكاحاً صحيحاً ويطأها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق) هكذا في النسختين وفي الطبعة السلفية التي اعتمد عليها النجار، ولكنه أسقط (إلا) فصارت العبارة: «لأن النكاح الشرعي لا يكون صحيحاً» وهذا فعله، وليس فعل الشيخ - رحمه الله - ثم قال النجار في الهامش قوله: «لأن النكاح الشرعي الخ» في العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: «لأن النكاح الشرعي الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء» فأخطأ النجار ثم خطأ الشيخ، وعدل خطأ الشيخ بزعمه.

٢ - إقحام تعليقات لا محل لها فمن ذلك. قال الشيخ - رحمه الله - «والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة». قال النجار: (وفي هذا المعنى قال صاحب جوهرة التوحيد:

ومن يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوض لربه»

٣ - الاستدراك في غير محله: قال الشيخ - رحمه الله - «فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة». قال في الهامش قوله: «فالشكر فيه بقاء النعم». الخ» عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود»^(١) فكانه خطأ الشيخ في اختيار اللفظ وليس هذا بخطأ بل الأمر واسع في اختيار اللفظ المناسب.

الملحظ الخامس:

سوء توزيع النص

حيث قام بإعادة توزيع النص إلى فقرات وعمد إلى أن تكون تلك الفقرات قصيرة جداً وعليه فقد فرق أجزاء الجملة بين الأسطر، وقطع الكلام عن سياقه إذ نجد فعل الشرط في سطر وجوابه في آخر، والمعلول في سطر وتعليقه في آخر، ولذلك تضخم التفسير جداً مع أن صفحاته يمكن أن تكون أقل من ذلك بكثير، والله أعلم بالهدف من وراء ذلك التضخيم.

إن هذه الملاحظ ليست إلا أمثلة دالة على أن عمل النجار لم يكن عملاً أميناً على هذا التفسير.

وبمجممل هذا العرض يتضح أن التفسير لم يخرج بصورته التي كتبها الشيخ - رحمه الله - إذ جميع الطبعات كانت نسخاً مكرورة عن طبعة النجار، التي اعتمد فيها صاحبها على الطبعة السلفية، والطبعة السلفية اعتمدت على النسخة الثانية التي لم تكن بخط الشيخ وكان فيها بعض النقص وبعض التحريف من النسخ.

ولما كان الأمر بهذه الصورة التي تظهر الحاجة الماسة إلى إخراج هذا التفسير المبارك إخراجاً علمياً مصححاً كما أراده الشيخ رحمه الله فقد عمدت إلى العمل ثلاث سنين في هذا الكتاب راجياً أن يكون العمل

سأداً للثلثة ومبرئاً للذمة.

العمل الذي قمت به:

لقد من الله علي بأمر لم يتوفر لمن اعتنى بهذا التفسير من قبل وهو الحصول على النسخة (أ) التي كانت بحوزة الشيخ - رحمه الله - وتحت نظره ومحل عنايته إلى أن توفي، وهي في الجملة أسلم من النسخة (ب) التي كانت أصل جميع الطبعات، ولما بدأت في العمل كان الهدف الذي سعت إليه جاهدًا هو: إخراج التفسير كما كتبه الشيخ - رحمه الله - دون تعديل أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وعلى ذلك قمت بما يلي:

أولاً: نسخ التفسير كما هو ويتضمن ذلك: إثبات الآيات المفسرة كما كتبها الشيخ - رحمه الله - فحين يورد الآيات كاملة، أو ردها كاملة كما فعل، وحين يورد جزءاً منها ويقول: إلخ القصة، أثبتتها على هذا الوجه، وحين تفرق النسختان أطبق قواعد المقابلة التي سأينها لاحقاً بحول الله، وقد راعيت في النسخ ما يلي:

١- توزيع النص توزيعاً جيداً، بحيث يكون تقسيم فقرات الكلام وأجزائه متصلاً بمعانية، واجتهدت ألا أقطع السياق الواحد بين فقرتين مختلفتين، وأن أبداً تفسير الآية أو الآيات من أول السطر.

٢- ترقيم الآيات المفسرة في بداية تفسيرها، وهذا لم يكن من عمل الشيخ - رحمه الله - ولكن وجدته مهماً لأجل سهولة معرفة مواضع الآيات.

٣- تصحيح بعض الأخطاء الإملائية الظاهرة التي لا تخفى على الشيخ - رحمه الله - ولكنها سبق قلم.

ولقد حرصت على عدم التدخل في التفسير والتعديل فيه بأي وجه من الوجوه إلا في ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون الخطأ في الآيات فهنا أثبت الصواب ولا ألفت إلى الخطأ، ولكن في بعض الأحيان يحدث أن يكون قلم الشيخ سبق إلى آيات في غير السورة، أو في السورة نفسها، وليست في ذلك الموضع، ثم يفسر الآيات التي كتب، فأثبت الصواب في الآيات، وأبقي التفسير كما هو، وأشير إلى ما عملت في الهامش.

الثانية: أن يكون الخطأ ظاهراً، ولا يمكن أن يقبل به المؤلف - رحمه الله - فهنا أثبت التعديل الذي أراه صواباً، وأشير في الهامش إلى ما في الأصل من خطأ، أو سبق قلم.

الثالثة: أن يكون التعديل طفيفاً كأن يكون تعديلاً في ضمير فيقول: (خالقهما) والصواب (خالقها) أو العكس أو يقول (التي) والصواب (الذي) ونحو ذلك، فهنا أصوب الكلام، وأشير في أحيان يسيرة إلى ما عملت، خاصة وأن الشيخ - رحمه الله - (كان سريع الكتابة، ويكتب بخط دقيق، وبدون نظارة، لكنه على قاعدة صحيحة^(١)) وكانت جل عنايته بالمعاني، ولذلك قال في رسالة للشيخ عبد الله بن عقيل - حفظه الله - (فحسن الإملاء والجري مع المعاني أولى من اعتبار حسن الخط، فذاك أهميته بالنسبة لحسن الإنشاء قليلة)^(٢).

ثانياً - المقابلة:

وابتغاء توضيح الأمر أبين ما قمت به في نقاط:

أولاً: اعتمدت النسخة (أ) وجعلتها أصلاً لأمر:

الأول: أن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله -.

والثاني: أنها النسخة التي كانت بيد الشيخ - رحمه الله - إلى حين وفاته.

(١) الشيخ عبد الله بن عقيل: الأجوبة النافعة (المقدمة) (٧).

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٦٧).

الثالث: أنها سالمة من التعديل والشطب اللذين وقعا من النساخ أو الطابعين أو المصححين بعكس النسخة (ب) فإن هذه النسخة سلمت للمطبعة السلفية، فكان المصححون للطبعة يعدلون عليها ويشطبون، بل تجد على هوامشها أسماء (عمال الصف) فنجد اسم (محمود) أو فلان منهم وذلك لتوزيع العمل عليهم، بينما النسخة (أ) لم تمسها الأيدي بشطب أو تعديل.

الرابع: سلامة هذه النسخة من الخروم والنقص لأن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - بينما النسخة (ب) كتب معظمها بخطوط النساخ فوقع فيها بعض النقص والخروم.

الخامس: أنها أجود كثيراً من النسخة الأخرى في إملائها بينما تجد في النسخة (ب) أخطاء ظاهرة.

ثانياً: يلاحظ أنني ذكرت في وصف النسختين أن معظم النسخة الأولى كان بخط الشيخ - رحمه الله - وأن النسخة الثانية في جملتها بخطوط النساخ وهذا توضيح تفاوت الكتابة على التفصيل مع بيان ما قمت به حيال ذلك التفاوت:

١- أجزاء كانت في النسختين بخط الشيخ - رحمه الله - وذلك مثل كثير من المجلد الأول، والمجلد الثامن، والتاسع، وفي هذه الأجزاء يلاحظ وجود الاشكالات الآتية:

(أ) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد فسر الآيات من قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٣٨، إلى نهاية تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٢٩ تفسيراً جديداً فليس ما في النسختين متوافقاً بل هو متغاير من حيث الألفاظ والصياغة والأسلوب وكان الشيخ - رحمه الله - كتب ذلك مرتين، ولم يكن هناك احتمال لأن يكون الكلام ليس بكلامه، لأن ما في النسختين بخطه - رحمه الله - وروح الكلام وأسلوبه هو ذات أسلوب الشيخ - رحمه الله - وقد قلبت النظر بين خيارات عدة، وكان ما استقر الرأي عليه أن أجعل في صلب التفسير ما كان في النسخة (أ) وهي النسخة التي توفي الشيخ - رحمه الله - وهي في بيته، وأما ما في النسخة (ب) وهو المطبوع في طبعات الكتاب السابقة فقد جعلته في ملحق في آخر التفسير.

(ب) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد الثامن من بداية سورة الحجرات وحتى نهاية التفسير نسخ التفسير بخطه نسخة ثانية، ولكنه كان يعدل في الألفاظ ويزيد في الكلمات وينقص منها، ولذلك تفاوت حجم المقابلة بين بعض أجزاء الكتاب بشكل واضح، حيث تجد فروقاً كبيرة بين النسختين في أجزاء ولا تجد إلا اليسير من الفروق في أجزاء أخرى.

(ج) أن بعض الأجزاء كانت في النسخة (أ) بغير خط الشيخ - رحمه الله - وفي النسخة (ب) بخط الشيخ - رحمه الله - كما في المجلد السادس وهنا كثرت الأخطاء في النسخة (أ) وقلت في (ب) فاستفدت من (ب) في المقابلة وجعلت جل اعتمادي عليها إذ هي أصح لولا ما عابها من تعديلات مصححي المطبعة السلفية عليها.

ثالثاً: الزيادات: جاءت زيادات في إحدى النسختين عن الأخرى وقد جعلت الزيادات بين قوسين مركنين [] وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: الزيادات التي في الأصل على (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، دون إشارة في الهامش إلى شيء.

الثاني: الزيادات التي في (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: زيادة في ب، وهذا النوع من الزيادات يكثر في الأجزاء التي كانت بخط الشيخ - رحمه الله - في النسختين كليهما.

الثالث: الزيادات التي جعلتها لاقتضاء السياق وعدم استقامته بدونها فقد جعلتها بين قوسين مركنين وأشرت إلى الزيادة في الهامش بقولي: (زيادة يقتضيها السياق).

وبعد، فيلاحظ إنني لم أثبت تخريج الأحاديث في الكتاب، لأن ما في الكتاب من الأحاديث ليس بالكثير، ومعظم ما نقل - رحمه الله - هو من صحيح البخاري ومسلم، كما لم أفهرس فهرسة تفصيلية، لأن الفهرسة التي يمكن أن يستفاد منها هي الفهرسة الموضوعية للفوائد الإيمانية، والتربوية، والسلوكية، والعلمية، ونحوها التي في الكتاب، وإذا نظرنا إلى الفهرسة بهذا الاعتبار فإن الكتاب يحتاج إلى فهرسة كبيرة وطويلة جداً يمكن الاستغناء عنها بقراءة الكتاب لمزيد الاستفادة، وأما الفهارس التفصيلية للآيات والأحاديث والأعلام أو القبائل . . ونحوها، فإن طبيعة التفسير لا تدل على الحاجة لذلك، وإن عمل على هذا التفسير فإنما هذا العمل نوع من التزويد والتكثُر لا حاجة له.

وبعد فهذا الجهد الذي بذلت وهو جهد استغرق ثلاثة أعوام قرأت فيها التفسير قراءة مقابلة ثلاث مرات واجتهدت في إخراج التفسير على أتم الوجوه - قدر الإمكان - وما كان لي أن أصل إلى هذا لولا فضل الله عز وجل فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

ثم الشكر من بعد لمن كان عوناً لي في إخراج هذا التفسير بأي وجه من أوجه العون وأخص بالذكر صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين الشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل. وفضيلة والدي الكريم الشيخ معلا اللويحق، والمشايخ الفضلاء الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي أعانني على الحصول على النسخة الثانية (ب) لمخطوط التفسير، وأبدى من جميل الملاحظات ما كان عوناً لي على ضبط العمل، والدكتور خالد السبت، الذي كانت مهاتفاته بداية حفز لإعادة العمل في التفسير، والشيخ صالح الهبدان، والشيخ عبد الرحمن الراجحي، والشيخ محمد الخضير، والاخوة الذين عملوا معي في المقابلة فأَمْضَوْا وقتاً طويلاً في سبيل ذلك، وبذلوا جهداً لا أنساه في إعانتني الشيخ إدريس حامد محمد، والشيخ تراوري مامادوا، والأخ فيصل بن طلع المطيري فللجميع مني الشكر والعرفان والدعاء بالتوفيق والتسديد.

وأسأل الله المغفرة عما وقع من تقصير، واستمد منه العون فهو وحده المستعان.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتب

عبد الرحمن بن معلا اللويحق المطيري

بعد عشاء ليلة الثامن والعشرين

من شهر ذي القعدة عام ١٤١٩هـ

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثنى) تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها^(١).

(١) هذا التنبيه جعله الشيخ - رحمه الله - على غلاف المجلد الأول فصدرت به التفسير كما فعل - رحمه الله - .

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الخلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل.

وجعله برحمته هدى للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها^(١). وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهيه، وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، فهو هادٍ لدار السلام، مبين لطريق الوصول إليها، وحاثٌ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر عنها، وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كَتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، فبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين^(٢) الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها، ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي: يُتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأنزله^(٣) بهذا اللسان لنعقله وتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، وتبصرة وتذكراً، وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها.

وكان حقيقةً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقْصِرٍ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. [بقطع النظر عن المراءد]^(٤).

(١) في ب: وأسقامها.

(٢) في ب: وأنزله..

(٣) في ب: بتميز.

(٤) زيادة من هامش ب، مشطوبة من أ.

وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدوهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منَّ الباري عليَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة [بنا] أحبيت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما ييسر، وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعوذة للسالكين، ولأقيدة خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجأهم الله عن المسلمين خيراً.

والله أرجو، وعليه أعتد، أن ييسر ما قصدت، ويذلل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله، فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العيم، إنه جواد كريم. اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فقد تم بحمد الله

هذا الكتاب في شهر ربيع الأول سنة ١٤٢٠

بإذن الله تعالى

والله اعلم بالصواب

والحمد لله

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فقد تم بحمد الله

هذا الكتاب في شهر ربيع الأول سنة ١٤٢٠

بإذن الله

والله اعلم بالصواب

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

والحمد لله

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فقد تم بحمد الله

هذا

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

والحمد لله

فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من
بدائع الفوائد
لابن القيم رحمه الله تعالى^(١)

[قال: فصل] التَّكْرَةُ في سياق النفي تَعْمُ، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِنَّمَا تَرِيْنُ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾. وإذا أُضِيفَ إليها «كل» نحو ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، ومن عمومها بعموم المقتضى ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلَّى باللام من قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ﴾ (وكتابه)^(٢).

وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، وعموم الجمع المحلَّى باللام من قوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخرها. والمضاف من قوله: ﴿كُلُّ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَ وَكِتَابُهُ وَرَسُولُهُ﴾.

وعنوم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظِلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، [وقال] ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، وقوله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾، وقوله: ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلَوْا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هذا إذا كان الجواب طلياً مثل هاتين الآيتين.

فإن كان خبراً ماضياً، لم يلزم العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾.

وإن كان مستقبلاً، فالتزموا ردَّ العموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد لا يعلم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

(١) جاءت هذه الفوائد في: أ بعد تفسير سورة الفاتحة، وقد كتب الشيخ - رحمه الله - في هامش النسخة: (حق هذه المقدمة أن تتقدم على الفاتحة).

(٢) كتبت الكلمة مرتين مرة بالإنفراد، ومرة بالجمع، وجاء في هامش ما نصه: (قرأ أهل البصرة وحقق (وكتبه). وقرأ الآخرون (وكتابه) على التوحيد).

فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب، من ذمّه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب بالمعجل أو الآجل.

ويستفاد كون النهي للتحريم، من ذمّه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله. ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكثب، ولفظة «على»، ولفظة: حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل.

وقوله: «لا ينبغي» فإنها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلاً وشرعاً. ولفظة «ما كان لهم كذا وكذا» و «لم يكن لهم»، وترتيب الحد على الفعل، ولفظة «لا يحل» و «لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزيكي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والجرم والإثم والمؤاخذه، والإخبار بأنه يغفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإلتهام على من حرّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل من قبلنا، غير ذام لهم عليه. فإن اقترن بإخباره مدح، دلّ على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

فصل

وكل فعل عظّمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحبّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبة أو لثواب عاجل أو آجل^(١)، أو نصبه سبباً لذكره لعبد، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله^(٢) بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قرية، أو أقسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها^(٣)، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به، فهو دليل على مشروعته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفى محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لدم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبيث^(٤)، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثمياً، أو سبباً لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربتة، أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفح أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخيث أو احتقار، أو نسب إلى الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظلماً أو بغياً، أو عدواناً أو إثمياً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا

(١) في ب: أو لثواب عاجلاً أو آجلاً.

(٢) في ب: وإثارتها.

(٣) في ب: بالخبيث.

(٤) في ب: فاعله.

إلى الله من فاعله، أو جاهرُوا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخبيّة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بخرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعله في الآخرة، أو تيرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرّن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما^(١) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله «هل أنت منتو» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة «قتل من فعله»، أو «قاتل الله من فعله»، أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكّيه»، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبّه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قبض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاغة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: «لم تصدون عن سبيل الله من آمن»، «لم تلسون الحق بالباطل»، «ما منعك أن تسجد»، «لم تقولون ما لا تفعلون» ما لم يقترون به جواب من المسؤول^(٢) فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرده من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروهه، فأكثر ما يستعمل في المحرّم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالمحقق^(٣) منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا أكل متكئاً». وأما لفظة «ما يكون لك» و «ما يكون لنا» فاطرده استعمالها في المحرّم، نحو «ما يكون لك أن تكبر فيها»، «ما يكون لنا أن نعود فيها»، «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و «إن شئت فافعل» و «إن شئت فلا تفعل»، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: «ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين» ونحو «وبالنجم هم يهتدون». ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوجوه.

فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبرة» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: «وإن تعجب فعجب قولهم» وقوله: «بل عجب ويسخرون». وقوله: «وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله». وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله». ويدل على حسن المنع منه قدرأ، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم».

(٣) في ب: فالمحقق.

(١) في ب: عنه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بعد.

(٢) في ب: من السؤال.

فائدة

نفى التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾.

وقد يأتي بين الجزائين كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقريب، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمع، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم^(١) احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكيرة.

ومنها: أن يكون شاهداً على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

(١) في ب: نظر إلى.

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقاباً معجلاً.

ومنها: أن فيه حثاً للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله.

وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عاملها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن مَنْ فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.

وقد حث تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى^(١) أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإضرار على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساد، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبده ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعيد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: «آمنت بالله» من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص، نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت^(٢) له ذلك المعنى وكماله وعمومه، ونزهه^(٣) عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة

(١) في ب: أن يثبت.

(٢) في ب: وينزهه.

بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله. فأخبره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أممهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيماناً بهم، ومحبة لهم، وتعظيماً لهم، وتعزيزاً وتوقيراً.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم يذكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون^(١) مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم وبسببهم.

فقيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه.

وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى!!

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصيل للمؤمن^(٢) الأسوة والقدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى. والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمته والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً.

فلو أراد إنسان^(٣) أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله^(٤)، وغير

(١) كذا في ب، وفي أ: المؤمن.

(٢) في ب: للمؤمنين.

(٣) في ب: الإنسان.

(٤) في ب جاءت الجملة هكذا (ما في كثير من التفاسير من الأغلاط التي ينزه عنها كلام الله) وقد شطبت هذه الجملة، وكتب الشيخ - رحمه الله - في الهامش بدلاً عنها ما يلي (كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوق الخلل الكثير).

ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك. ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها.

ولا سبيل إلى امتثالها، [أو اجتنابها،^(١)] إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها [أو تركها]^(٢) وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل. فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهي عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه، امتثالاً لأمر الله، واجتناباً لنهييه، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعوه، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أحوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه^(٣).

ومنها: أن العلم بذلك^(٤) حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفضعة.

وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحيرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة، والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقليّة.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: إيمان العبد به.

(٤) في ب: أن معرفة ذلك.

المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كثرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقيسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأيته بينه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه^(١) لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها، وتكريمهم وتعليه أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات^(٢) على الصلاح، والمحرمات مشتملات^(٣) على المفساد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباء منثوراً.

ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في [كل] موارد، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعاً عظيماً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) كذا في ب، وفي أ: به أنه.

(٢) في ب: مشتملة.

(٢) في ب: مشتملة.

تفسير الفاتحة وهي مكية

﴿١-٧﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ * وَلَا الضَّالِّينَ» أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعُمُّ جميع الأسماء [الحسنی]، «الله»: هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة لما انتصف به من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال، «الرحمن الرحيم»: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأتباعه ورسله، فهو لاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلم^(١) نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي انتصف بها، المتعلقة بالرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم [به] كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

«الحمد لله»: [هو] الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. «رب العالمين»: الرب: هو المربي جميع العالمين - وهم من سوى الله - بخلقه لهم، وإغذاؤه لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى. وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقههم له، ويكملهم لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته الخاصة.

فدلّ قوله: «رب العالمين» على انفراده بالخلق والتدبير والنعم، وكمال غناه، وتما فخر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

«مالك يوم الدين»: المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويشيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم خيراً وشرها، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعذله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلق، حتى [إنه] يستوي في ذلك اليَوْمُ الملوك والراعياء والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصّه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

وقوله: «إياك نعبد وإياك نستعين» أي: نخصّك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعلوم يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدّم^(٢) العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده،

و «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، و «الاستعانة»: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصوداً بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم» أي: دلّنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنّته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً: فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: «صراط الذين أنعمت عليهم» من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، «غير» صراط «المغضوب عليهم» الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط «الضالين» الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد

(٢) في ب: وتقديم.

(١) في ب: فله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ۝ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

وَالَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

الهدايان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية [تامة].

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك، فقال: «الذين يؤمنون بالغيب»، حقيقة الإيمان: هو التصديق الثام بما أخبر به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحواس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم تره ولم تشاهده، وإنما يؤمن به بخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يُميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسوله، فالؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصورة لم تهتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومَرَجَتْ أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب [الإيمان بـ] جميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، [وما أخبر به الرسل من

وقوله: «ذلك الكتاب» أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين، ف «لا ريب فيه» ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا يد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: «هدى للمتقين»، والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال: «هدى» وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم.

وقال في موضع آخر: «هدى للناس» فعظم، وفي هذا الموضع وغيره «هدى للمتقين» لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى، التي حقيقتها: اتخاذ ما بقي سخط الله وعذابه بامتنال أوامرہ واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقانا» فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم

احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فنضمت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: «رب العالمين»، وتوحيد الإلهية، وهو أفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: «الله» ومن قوله: «إياك نعبد»، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتنا لنفسه، وأثبتنا له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ «الحمد» كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» لأن ذلك متنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: «مالك يوم الدين»، وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرة والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع [والضلال]. في قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: «إياك نعبد وإياك نستعين» فالحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة البقرة وهي مكية

١-٥ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * تقدم الكلام على السملة، وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها السيكت عن التعرض لمعانها، [من غير مستند شرعي] مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها.



ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتفقونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿وَيُقيمون الصلاة﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنياً بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان^(١) من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن الثقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأتى بـ «من» الدالة على التبعية، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزء يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل يستفدونهم بإنفاقه، ويستفيع به

(١) كذا في ب، وفي أ: وباطنها.

(٢) في ب: للعبد.

(٣) في ب: بجميع الكتب.

(٤) في ب: بالكتب السماوية كلها.

إخوانهم. وفي قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم، وإنما هي رزق الله الذي حوّل لكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعديمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بحجده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بالكتب^(٣) السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزيور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية^(٤)، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، و «الآخرة»: اسم لما يكون بعد الموت، وخَصَّهُ بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان

الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، و «القيين»: هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿على هدى من ربهم﴾ أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهداية [الحقيقية] إلا هدايتهم، وما سواها [عما خالفها]، فهو^(٥) ضلالة.

وأتى بـ «على» في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ «في» كما في قوله: ﴿وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هَدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لأن صاحب الهدى مستعمل بالهدى، مزتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محترق.

ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح [هو] الفوز بالمطلوب والنجاة من المربوب، حضر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبيل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك؛ فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقاً، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم، المعاندين للرسول، فقال:

﴿٦٦-٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم، أي: اتصفوا بالكفر، وانصغروا به، وصار وصفاً لهم لازماً لا يزدعهم عنه رادع، ولا ينفع فيهم وعظ، إنهم مستمرون على كفرهم، فسواء عليهم أُنْذِرْتَهُمْ، أم لم تُنْذِرْهُمْ لا يؤمنون، وحقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه، فهو لا الكفار لا تفيدهم

(٥) في ب: فهي ضلالة.

يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه المفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وهاقتهم لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿في قلوبهم مرض﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش [المعاصي] وفعلها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فقل في آثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

خاصم فجّر.

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر^(١) وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل^(٢) من في المدينة عن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفاً وخداعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضاً عن كثير من فجورهم [قال تعالى]: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ فوصفهم الله بأصل النفاق، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ فإنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما توطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً ويطن خلافة، لكي يتمكن من مقصوده عن خداع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن^(٣) هذا من العجائب؛ لأن المخادع إما أن ينتج خداعه ويحصل ما يريد^(٤)، أو يسلم لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم^(٥) يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم، [شيئاً] وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا

الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكان في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنت لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يعون ما يتفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي: غشاء وغطاء وأكثت تمنعها عن النظر الذي يتفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل، فقال: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهروهم الإسلام وباطنهم الكفر، فقال:

﴿٨ - ١٠﴾ ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ وأعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية النفاق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية: «وإذا

(٦) في ب: وذلك أن.

(٤) في ب: ويحصل له مقصوده.

(٥) في ب: عاد خداعهم على أنفسهم

فكانهم.

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت

وقعة بدر.

(٢) في ب: فذل.

(٣) في ب: وهذا.

مستهزؤون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يقيق المكر السيء إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزأه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يسُلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزأه بهم يوم القيامة أنه يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفيء نور المنافقين، وبُقيوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، ﴿ينادونهم ألم نكن معكم، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم الآية.

قوله: ﴿ويمدهم﴾ أي: يزيدهم ﴿في طغيانهم﴾ أي: فجورهم وكفرهم، ﴿يعمهون﴾ أي: حاثرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم:

﴿١٦﴾ ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ أولئك، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات الذين اشتروا الضلالة بالهدى أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان^(١٠) النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة، رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فيش التجارة، وبش الصفقة صفقتهم^(١١).

وإخرباً لها عما خلقت له.

﴿١٣﴾ ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، بزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوه إلى النسخة؛ وفي ضمنه^(٨) أنهم هم العقلاء أرباب الحجة والنهي.

فردَّ الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه^(٩): جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة مطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجاء، مُعرفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه [وفي] دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على [الصحابة] والمؤمنين وصادقة عليهم، فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة والأقوال الفارغة.

ثم قال تعالى: ﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون هذا من قولهم بالستتهم ما ليس في قلوبهم، [وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن

﴿١١ - ١٢﴾ ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ أي: إذا بُي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاة الكافرين ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية من يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية^(١)، فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ حصر للإصلاح في جانبهم. وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ فإنه لا أعظم فساداً^(٢) من كفر بآيات الله، وصّد عن سبيل الله، وخسّادع الله وأوليائه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساداً؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً، لأنه يتضمن فساداً^(٣) ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات، بما^(٤) يحصل فيها من الآفات بسبب^(٥) المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمّر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدّر لهم^(٦) الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيّاً بالفساد فيها،

(٩) كذا في ب، وفي أ: النسقة.

(١٠) في ب: الأموال.

(١١) في ب: وهذه صفقتهم فيش الصفقة.

(٥) في ب: التي سبها.

(٦) في ب: عليهم.

(٧) في ب: لزعمهم.

(٨) في ب: وفي ضمن ذلك.

(١) ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فساداً.

(٣) في ب: لأنه سبب فساد.

(٤) في ب: لما.



الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ، اسْتَوْقَدُوا نَارَ الْإِيمَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تَكُنْ صِفَةً لَهُمْ، فَانْتَفَعُوا بِهَا^(٣) وَحَقَّقَتْ بِذَلِكَ دِمَاؤَهُمْ، وَصَلَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَحَصَلَ لَهُمْ نَبْعٌ مِنَ الْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ^(٤) إِذْ هَجَمَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ، فَسَلِمَهُمُ الْإِنْتِفَاعُ بِذَلِكَ النُّورِ، وَحَصَلَ لَهُمْ كُلُّ هُمْ وَغَمٌ وَعَذَابٌ، وَحَصَلَ لَهُمْ ظَلْمَةُ الْقَبْرِ وَظَلْمَةُ الْكُفْرِ وَظَلْمَةُ التَّنَاقُ، وَظَلَمَ^(٥) الْمَعَاصِي عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَلْمَةُ النَّارِ [وَبِئْسَ

القرار] فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى [عَنِهِمْ: ﴿صَمٌّ﴾ أَي: عَنْ سَمَاعِ الْخَيْرِ، ﴿بُكْمٌ﴾ أَي: عَنْ التَّنَطُّقِ بِهِ، ﴿عُمِّيٌّ﴾ عَنْ رُؤْيَا الْحَقِّ، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْحَقَّ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوهُ، فَلَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، بِخِلَافٍ مَنْ تَرَكَ الْحَقَّ عَنْ جَهْلِ ضَلَالٍ، فَلِئَنَّهُ لَا يَعْقِلُ، وَهُوَ أَقْرَبُ رَجُوعاً عَنْهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يَعْنِي: أَوْ مِثْلَهُمْ كَصَيِّبٍ، أَي: كَصَاحِبِ صَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يَصُوبُ، أَي: يَنْزِلُ بِكَثْرَةٍ، ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾: ظَلْمَةُ اللَّيْلِ، وَظَلْمَةُ السَّحَابِ، وَظَلْمَةُ الْمَطَرِ، ﴿وَرُوعٌ﴾: وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذِي يَسْمَعُ مِنَ السَّحَابِ، ﴿وَيُوقِقُ﴾: وَهُوَ الضَّوْءُ [اللامع] الْمَشَاهِدُ مَعَ^(٦) السَّحَابِ، ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ الْبَرْقُ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ﴿مَشَافِئِهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أَي: وَقَفُوا.

فَهَكَذَا حَالُ^(٧) الْمُنَافِقِينَ، إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَيُرْوِعُهُمْ وَعِيدُهُ وَتُرْجِعُهُمْ

وَإِذَا كَانَ مِنْ بَذَلٍ^(٨) دِينَاراً فِي مَقَابِلَةِ دَرَاهِمٍ خَاسِراً، فَكَيْفَ مِنْ بَذَلِ جَوْهَرَةٍ وَأَخْذِ عَنْهَا دَرَاهِمًا؟ فَكَيْفَ مِنْ بَذَلِ الْهَدْيِ فِي مَقَابِلَةِ الضَّلَالَةِ، وَاخْتَارَ الشَّقَاءَ عَلَى السَّعَادَةِ، وَرَغِبَ فِي سَافِلِ الْأُمُورِ عَنْ أَعَالِيهَا^(٩)؟ فَمَا رُبِحَتْ تِجَارَتُهُ، بَلْ خَسِرَ فِيهَا أَعْظَمَ خَسَارَةً. ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمَيِّنُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ تَحْقِيقٌ لِضَلَالَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْصِلْ لَهُمْ مِنَ الْهَدَايَةِ شَيْءٌ، فَهَذِهِ أَوْصَافُهُمُ الْقَبِيحَةُ. ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَهُمُ الْكَاشِفَ لَهَا غَايَةَ الْكُشْفِ، فَقَالَ:

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ صَمٌّ بِكُمْ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِشْوَافُ فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَي: مِثْلَهُمُ الْمُنَافِقِينَ لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً، أَي: كَانَ فِي ظَلْمَةِ عَظِيمَةٍ وَحَاجَةٍ إِلَى النَّارِ شَدِيدَةٍ فَاسْتَوْقَدَهَا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ تَكُنْ عَنْده مَعْدَةٌ، بَلْ هِيَ خَارِجَةٌ عَنْهُ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ النَّارُ مَا حَوْلَهُ، وَنَظَرَ الْمُحِلُّ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْخَوَافِ وَأَمْنِهَا، وَانْتَفَعَ بِتِلْكَ النَّارِ، وَقَرَّتْ بِهَا عَيْنُهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهَا، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِ، فَذَهَبَ عَنهُ النُّورُ وَذَهَبَ مَعَهُ السَّرُورُ، وَبَقِيَ فِي الظُّلْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالنَّارِ الْمَحْرَقَةِ، فَذَهَبَ مَا فِيهَا مِنَ الْإِشْرَاقِ، وَبَقِيَ مَا فِيهَا مِنْ

وَعُودِهِ، فَهُمْ يَعْزُضُونَ عَنْهَا غَايَةَ مَا يُمْكِنُهُمْ، وَيَكْرَهُونَهَا كَرَاهَةً صَاحِبِ الصَّيْبِ الَّذِي يَسْمَعُ الرَّعْدَ، وَيَجْعَلُ^(٨) أَصَابِعَهُ فِي آذَانِهِ^(٩) خَشْيَةَ الْمَوْتِ، فَهَذَا تَمَكَّنَ لَهُ^(١٠) السَّلَامَةُ. وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَأَنَّى لَهُمُ السَّلَامَةُ، وَهُوَ تَعَالَى مُحِيطٌ بِهِمْ، قَدْرَةٌ وَعِلْمًا، فَلَا يَفُوتُونَهُ وَلَا يَعْجِزُونَهُ، بَلْ يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، وَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا أَثَمَ الْجَزَاءِ.

وَلَمَّا كَانُوا مَبْتَلِينَ بِالصِّمَمِ وَالْبَكْمِ وَالْعُمَى الْمُعْتَوِي، وَمَسْدُودَةً عَلَيْهِمْ طَرِيقَ الْإِيمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أَي: الْحَسِيَّةَ، فَفِيهِ تَحْذِيرٌ لَهُمْ وَتَحْوِيفٌ بِالْعُقُوبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِيَحْذَرُوا، فَيَرْتَدُّعُوا عَنْ بَعْضِ شَرِّهِمْ وَتَفَاقَهُمْ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَلَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَمَنْ قَدْرَتُهُ أَنَّهُ إِذَا شَاءَ شَيْئًا فَعَلَهُ مِنْ غَيْرِ مَنَاعٍ وَلَا مَعَارِضٍ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا رَدٌّ عَلَى الْقَدْرَةِ الْقَائِلِينَ بِأَن أَعْمَالَهُمْ غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَن أَعْمَالَهُمْ مِنْ جَمَلَةِ الْأَشْيَاءِ الدَّاخِلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا

(٨) فِي ب: فَيَجْعَلُ.

(٩) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: أَذْنُهُ.

(١٠) فِي ب: رُبَّمَا حَصَلَتْ لَهُ.

(٤) فِي ب: هُمْ كَذَلِكَ.

(٥) فِي ب: وَظَلْمَةُ.

(٦) فِي ب: مِنْ.

(٧) فِي ب: حَالَةٌ.

(١) فِي ب: يَذِلُّ.

(٢) فِي ب: وَتَرَكَ عَلَيْهَا.

(٣) فِي ب: مَا سَتَّضُوا بِهَا مَوْقِفًا

وَانْتَفَعُوا فَحَقَّقَتْ.



﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والسما : [هو] كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كالجوب والثمار من نخيل وفواكه [وزروع] وغيرها، ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾ به ترتزقون وتقوتون، وتعيشون وتشكهنون.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: نظراء وأشباهاً من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبسونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مذبزون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في العبادة^(٣)، فكيف تعبدون معه إلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفة.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقراً بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سنخه وعذابه، لأنكم أنتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين

صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه ثم قال تعالى:

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، فقال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهاهنا أمر نصّف، فيه الفصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم^(٤)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأناكم بكتاب زعم أنه من عند الله، وقلتم أنتم أنه تقوله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرزون عليه من أعوانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم^(٥) على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدّة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي إنما تنقد

ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون * هذا أمر عام لكل^(١) الناس، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ثم استدلل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتتفجعون بالأبنية والزراعة والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع^(٢) الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

(١) في ب: لجميع.

(٢) في ب: وجه.

(٣) في ب: ولا في الألوهية والكمال.

(٤) هكذا في أ، وفي ب: شطب قوله [بأفصحكم ولا بأعلمكم] وفي هامش النسخة بخط المؤلف جملة أخرى هي (من جنس آخر) فتكون الجملة هكذا (ليس من جنس آخر).

(٥) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد وهذا العرض.



بأفضل الأسباب.

وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها [وثمراتها]، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشـرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسأل الله أن يجعلنا منهم (١).

﴿٢٦- ٢٧﴾ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا أَيُّ مَثَلٍ كَانَ «بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا» لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكأن في هذا جواباً لمن أنكروا ضرب الأمثال في الأشياء الحفيرة، واعتراض على الله في ذلك، فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ فَيَتَفَهَمُونَهَا وَيَتَفَكَّرُونَ فِيهَا. فَإِنْ عَلِمُوا مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ عَلَى وَجْهِ التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضرها عبثاً، بل لحكمة بالغة ونعمة سابعة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون

ويتحIRON، فيزدادون كفراً إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة [وضلالة] وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة [ورحمة] وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فaut بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى (٢) فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسول الله؛ الذين صار الفسق وصفهم، فلا يغنون به بدلاً، فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان، كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج عن الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الآية].

ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه (٣)؛ والذي بينهم وبين عباده (٤)؛ الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق.

العيب الغلاني» ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عُرِبَ متحجبات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعيل والأدب القولي والفعل، ومطهر خلقهن من الخيض والنفاس والمنى، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألتسهن عن كل كلام قبيح.

ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المبشـر والمبشـر، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمبشـر: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشـر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشـر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق،

(٣) في ب: وبين ربهم.

(٤) في ب: الخلق.

(١) في ب: نسأل الله من فضله.

(٢) في ب: ثم ذكر حكمته وعدله في إضلال من يضل.

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبة وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الرالدين والأقارب والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق^(١) التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوها ونبدوها وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق والقطيعة، والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض.

فـ ﴿أولئك﴾ أي: من هذه صفته ﴿هم الخاسرون﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفریطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي [كان] العبد يصدّد تحصيله وهو تحت إمكانه.

﴿٢٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميّتكم عند استكمال أجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون،

فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه وتديبره وبزه، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيلق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحقاقة؟^(٢) بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه، وتحافوا عذابه وترجوا ثوابه.

﴿٢٩﴾ ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ أي: خلق لكم برأ بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للارتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة^(٣) دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن [تحريمها أيضاً] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيهاً لنا.

وقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ وهو بكل شيء عليم.

﴿استوى﴾: تردد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» و«ارتفع»، وذلك إذا عديت بـ «على» كما في قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾^(٤)، «لستوا على ظهوره» وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عديت بـ «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السموات ﴿فسواهن سبع سموات﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها، وهو بكل شيء عليم. فـ ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾، و «يعلم ما تسرون وما تعلنون» يعلم السرّ

وأخفى. وكثيراً ما يقرن بين خلقه للمخلوق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير﴾ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿٣٠-٣٤﴾ ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتعمل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴿قالوا سيحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر^(٥)، أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿اتعمل فيها من يفسد فيها﴾ بالمعاصي ﴿ويسفك الدماء﴾ [و] هذا تخصيص بعد تعميم، لبيان [شدة] مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعل في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي: ننزهك التنزيه اللاتق بحمدك وجلالك، ونقدس لك، يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي:

(٤) في ب: أورد آية أخرى هي: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.
(٥) في ب: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله.

(١) في ب: بحقوقهم.

(٢) في ب: وسفه كبير، بل.

(٣) في ب: الكريمة.

تظهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونظهرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إني أعلم من هذا الخليفة﴾ ما لا تعلمون؛ لأن كلامكم بخسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والنسائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته لخلقه، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم^(١) من الخير والشر بالامتحان، ولتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه، ف﴿علم آدم الأسماء كلها﴾ أي: أسماء الأشياء، ومن هو مسمى بها، فجعله الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصعة، والمصغر كالقصبة.

﴿ثم عرضهم﴾ أي: عرض المسميات ﴿على الملائكة﴾ امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟

﴿فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ في قولكم وظننكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿قالوا سبحانك﴾ أي: نُبِّهْنا عن الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك، ﴿ولا علم لنا﴾ بوجه من الوجوه، ﴿ولا ما علمتنا﴾ إياه، فضلاً منك وجوداً،

﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعتراهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فحيث قال الله: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها. ﴿فلما أنباهم بأسمائهم﴾ تبيين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة، ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى، ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أي: تظهرون ﴿وما كنتم تكتمون﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً، وعبودية لله تعالى، فامتلأوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إلا إبليس أبى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿أسجد لمن خلقت طيناً﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه، فتبينت حيث شذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكليماً يقول ما شاء ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه التسليم، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما

جهلوا، وتبهيهم على ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداءً، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وإفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلامنا فيها الشجرة حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴿لما خلق الله آدم وفضلته، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما يسكنن الجنة والأكل منها﴾ ﴿ورعدا﴾ أي: واسعا هنيئاً، ﴿حيث شئتما﴾ أي: من أي أضناقت الشمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾، وأنت لا تظلم فيها ولا تضحي.

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاءً لأو حكمة غير معلومة لنا^(٢)، ﴿فتكونا من الظالمين﴾ دل على أن النهي للتحريم، لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما، ويزين لهما تناول ما نهيأ عنه، حتى أزلهما، أي: حملهما على الزلل بتزيينه، ﴿وقاسمهما﴾ بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ فاعتزاً به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة.

أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه:

﴿وأوفوا بعهدي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسله وإقامة شرعه، ﴿أوف بعهديكم﴾ وهو المجازاة على ذلك.

والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة [وآتيتم الزكاة وأمنتم برسلي] إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشية أوجبت له خشية امتثال أمره واجتناب نهيه.

ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ وهو القرآن الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاء به المرسلون، فأنتم أول من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ إشارة إلى أنك إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم:

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبيشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبت ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب

والاجتناب للنهي، ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

فرتب على اتباع هداي أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف، فنفاهما عن اتباع هداي، وإذا اتفقا حصل ضدهما وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداي وإذا اتفقا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداي، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداي فكفر به وكذب بآياته.

ف ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها، ولا يفترون عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمة عليهم وإحسانه، فقال:

﴿٤٠ - ٤٣﴾ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهديكم وإياي فارهبون﴾ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرين ولا تشتتوا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتُموا الحق وأنتم تعلمون﴾ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴿يا بني إسرائيل﴾ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من

﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يجتد ويجهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ وأفتنخذه وذريته أولياء من دونه وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً.

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض، فقال: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: مسكن وقرار، ﴿ومتاع إلى حين﴾ انقضاء أجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقت لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكناً حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

﴿٣٧﴾ ﴿فتلقى آدم﴾ أي: تلقف وتلقن، وألهم الله ﴿من ربه كلمات﴾ وهي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فتاب﴾ الله ﴿عليه﴾ ورحمه ﴿إنه هو الثواب﴾ لمن تاب إليه وأتاب.

وتوبته نوعان: توبيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرحيم﴾ بعباده، ومن رحته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿كرر الإهباط ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدينكم من رضائي، ﴿فمن تبع هداي﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامثال للأمر

بعض ما أنزل إليه فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله: ﴿أُولَ كَافِرٍ﴾ أبلغ من قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِهِ﴾ لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمأكّل، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها.

﴿وَأَيُّ﴾ أي: لا غيري ﴿فَاتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده، أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْبَسُوا﴾ أي: تخلطوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وكتتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتّم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو

من دعا جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهرأ وباطناً ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ مستحقيها، ﴿وَارْكعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿وَارْكعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والخال: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأسمى العقل^(١) عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجب: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك

أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الآخر، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون * يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون * أمرهم الله أن يستعينوا في أمرهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلة فلا يتسخطها، فبالصبر وحس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشراح صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلاً واقتداراً، وإيماناً به وبقائه.

ولهذا قال: ﴿الذين يظنون﴾ أي: يستيقنون ﴿أنهم ملاقو ربهم﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونقّس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهولاء لهم التعيس المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن ببقاء ربه، كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

ثم كرّر على بني إسرائيل التذكير بنعمته، وعظاً لهم وتحذيراً وحثاً. وخوفهم بيوم القيامة الذي ﴿لا تمزي﴾ فيه، أي: لا تغني ﴿نفس﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿عن نفس﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿شيئاً﴾ لا كبيراً ولا صغيراً، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه، ﴿ولا يقبل منها﴾ أي: النفس، شفاعة لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه، وكان على السبيل والسته، ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي: فداء ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب﴾ ولا يقبل منهم ذلك ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي: يدفع عنهم المكروه، فنفي الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقله: ﴿لا تمزي نفس عن نفس شيئاً﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿ولا هم ينصرون﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقل^(١) به النافع.

﴿ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب من يملكه يعوض كالعدل، أو غيره كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالخلقين، لعلهم أنهم لا يملكون له مقال ذرة من النفع، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع ويدفع المضار، فيعبده وحده

لا شريك له، ويستعينه على عبادته.

﴿٤٩ - ٥٧﴾ ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ ﴿وإذ أعددنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم لعلكم تهتدون﴾ ﴿وإذ قال موسى لقوميه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾ ﴿وإذ قلتم يا موسى لن تؤمنننا حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل، فقال: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ أي: من فرعون وملئه وجنوده، وكانوا قبل ذلك ﴿يسومونكم﴾ أي: يولونهم ويستعملونهم، ﴿سوء العذاب﴾ أي: أشدّه بأن كانوا يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، أي: فلا يقتلونهن، فأنتم بين قتيل ومذل بالاعمال الشاقة، مستحيين على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة، فمن الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم.

﴿وفى ذلكم﴾ أي: الإنجاء ﴿بلاء﴾ أي: إحصان ﴿من ربكم عظيم﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليه التوراة المتضمنة

﴿فلما أبطأ بها جبراً وأما يا أيها الذين آمنوا فليست هذه الآية من سورة القصص﴾ ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ ﴿وإذ أعددنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم لعلكم تهتدون﴾ ﴿وإذ قال موسى لقوميه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾ ﴿وإذ قلتم يا موسى لن تؤمنننا حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل، فقال: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ أي: من فرعون وملئه وجنوده، وكانوا قبل ذلك ﴿يسومونكم﴾ أي: يولونهم ويستعملونهم، ﴿سوء العذاب﴾ أي: أشدّه بأن كانوا يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، أي: فلا يقتلونهن، فأنتم بين قتيل ومذل بالاعمال الشاقة، مستحيين على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة، فمن الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم.

للنعم العظيمة والمصالح العظيمة، ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده، أي: ذهابه.

﴿وأنتم ظالمون﴾ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرماً وأكبر إثماً.

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً، فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله.

﴿وإذ قلتم يا موسى لن تؤمنننا حتى نرى الله جهرة﴾ وهذا غاية الظلم والجرأة على الله وعلى رسوله، ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ إمام الموت، أو الغشية العظيمة، ﴿وأنتم تنظرون﴾ وقوع ذلك، كل ينظر إلى صاحبه ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾

ثم ذكر نعمته عليهم في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق، فقال: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن﴾ وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجيل والكمأة والخبز وغير ذلك، ﴿والسلوى﴾ طائر صغير يقال له السماوي، طيب اللحم، فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم

لنا ما تنبت الأرض من بقلها أي : نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ، «وقشائها» وهو الخيار «وفومها» أي : ثومها ، والعدس والبصل معروف ، قال لهم موسى «أستبدلون الذي هو أدنى» وهو الأطمعة المذكورة ، «بالمال الذي هو خير» وهو المن والسلوى ، فهذا غير لائق بكم ، فإن هذه الأطمعة التي طلبتم ، أي مصر مبطموه وجدعوها ، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم ، فهو خير الأطمعة وأشرفها ، فكيف تطلبون به بدلاً ؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه ، جازاهم من جنس عملهم ، فقال : «وضربت عليهم الذلة» التي تشاهد على ظاهر أبدانهم «والمسكنة» بقلوبهم ، فلم تكن أنفسهم عزيزة ، ولا لهم همم عالية ، بل أنفسهم أنفس مهينة ، وهمهم أردأ الهمم ، «وبأواؤا بغضب من الله» أي : لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا ، إلا أن رجعوا يسخطه عليهم ، فبشتت الغنيمة غنيمتهم ، وبشتت الحالة حالتهم .

«ذلك» الذي استحقوا به غضبه «بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله» الدالات على الحق الموضحة لهم ، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم ، وبما كانوا «يقتلون النبيين بغير الحق»

وقوله : «بغير الحق» زيادة شناعة ، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق ، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم .

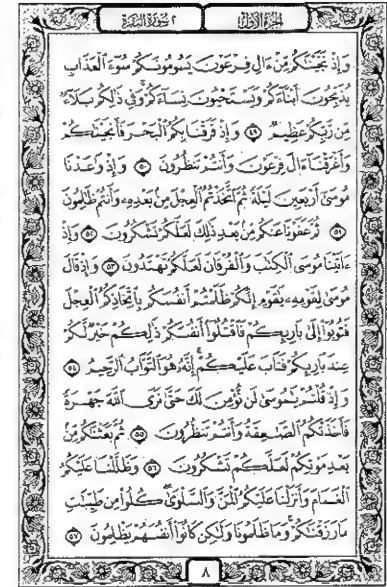
«ذلك بما عصوا» بأن ارتكبوا معاصي الله «وكانوا يعتدون» على عباد الله ، فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً ، فالعقبة ينشأ عنها الذنب الصغير ، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير ، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك ، فنسأل الله العافية من كل بلاء .

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن ، وهذه الأفعال

فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلو «قولا غير الذي قيل لهم» فقالوا بدل حطة : حبة في حنطة ، استهانة بأمر الله واستهزاء ، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبدلهم للفعل من باب أولى وأحرى ، ولهذا دخلوا يزحفون على أديبارهم ، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم ، قال : «فأنزلنا على الذين ظلموا» منهم «رجزاً» أي : عذاباً «من السماء» بسبب فيسقم ويغيهم .

«٦٠» «وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين» استسقى أي : طلب لهم ماء يشربون منه ، «فقلنا اضرب بعصاك الحجر» إما حجر مخصوص معلوم عنده ، وإما اسم جنس ، «فانفجرت منه اثنا عشرة عينا» وقبائل بني إسرائيل اثنا عشرة قبيلة ، «قد علم كل أناس» منهم «مشربهم» أي : معلمهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين ، فلا يزاحم بعضهم بعضاً ، بل يشربونه متهئين لا متكبرين ، ولهذا قال : «كلوا واشربوا من رزق الله» أي : الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب ، «ولا تعثوا في الأرض» أي : تخربوا على وجه الإفساد .

«٦١» «وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقشائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأواؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» أي : واذكروا ، إذ قلتم لموسى على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها : «لن نصبر على طعام واحد» أي : جنس من الطعام ، وإن كان كما تقدم أنواعاً ، لكنها لا تتغير ، «فادع لنا ربك يخرج



ويقضيتهم» «كلوا من طيبات ما رزقناكم» أي : رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين ، فلم يشكروا هذه النعم ، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب .

«وما ظلمونا» يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين ، كما لا تنفع طاعات الظالمين ، «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فيعود ضرره عليهم .

«٥٨-٥٩» «وإذا قلنا ادخلوها هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوها الباب سجداً وقولوا حطة تغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين» «فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون» ، وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه ، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً ووطناً وسكناً ، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد ، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل ، وهو دخول الباب «سجداً» أي : خاضعين ذليلاً ، وبالقول وهو أن يقولوا : «حطة» أي : أن يخط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرتة .

«تغفر لكم خطاياكم» بسؤالكم المغفرة ، «وسنزيد المحسنين» بأعمالهم ، أي : جزاء عاجلاً وأجلاً ، «فبدل الذين ظلموا» منهم ، ولم يقل

الأجر العظيم والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن.

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم، لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء.

وذلك والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضاً ذكر بني إسرائيل خاصة يومهم الاختصاص بهم. ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويحول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهّر عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى يُوبِّخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * أَيْ: وَادْكُرُوا إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَهُوَ الْعَهْدُ الثَّقِيلُ الْمَوْكَّدُ بِالتَّخْوِيفِ لَهُمْ، بِرَفْعِ الطُّورِ فَوْقَهُمْ^(١)، وَقِيلَ لَهُمْ: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ» مِنَ التَّوْرَةِ «بِقُوَّةٍ» أَيْ: بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ، وَصَبْرٍ عَلَى أَوْامِرِ اللَّهِ، «وَادْكُرُوا مَا فِيهِ» أَيْ: مَا فِي كِتَابِكُمْ بِأَنْ تَتْلُوهُ وَتَتَعَلَّمُوهُ، «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» عَذَابَ اللَّهِ وَسَخَطَهُ، أَوْ لِتَكُونُوا مِنْ

المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت إليهم لقوائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبيّن الله من أحوال سلفهم التي قد تفرزت عندهم، ما يبيّن به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة عن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين!!

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثاً من الجميع؛ لأن ما يعمل به بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمل من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم يتكروها، والراضي بالعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

﴿٦٢﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى حَاكِمًا بَيْنَ الْفِرْقِ الْكِتَابِيَّةِ: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين، الصحيح أنهم من جملة فرق النصاري، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وصدّقوا رسوله، فإن لهم

(١) كذا في ب، وفي آ: برفع الطور



أهل التقوى.

فبعد هذا التأكيد البليغ «توليتهم» وأعرضتم، وكان ذلك موجباً لأن يحمل بكم أعظم العقوبات، ولكن «لولا» فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فجعلناهم نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين * الَّذِينَ أَيْ: وَلَقَدْ تَقَرَّرْ عِنْدَكُمْ حَالَةُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ * وَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ قِصَّتَهُمْ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ: «وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ» الْآيَاتِ.

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم، أن غضب الله عليهم وجعلهم «قردة خاسئين» حقيرين ذليلين.

وجعل الله هذه العقوبة «نكالاً» لما بين يديها، أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغ خبرها من هو في وقتهم، «وما خلفها» أي: من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عاداهم فلا يتفنون بالآيات.

القتيل ببعضها، أي: بعضو منها، إما معين أو أي: عضو منها، فليس في تعيينه فائدة، فضربه ببعضها فأحياء الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه وهم يشاهدون ما يدل على إحياء الله الموتى، ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتتجزرون عن ما يضركم.

﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة، ﴿من بعد ذلك﴾ أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعمة العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها كالـحجارة﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والبرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أو أشد قسوة﴾ أي: إنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل». ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وإن من الحجرة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾، فبهذه الأمور فضلت قلوبكم، ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رهبهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب

وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿انتخذنا هزوا﴾ فقال نبي الله: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾، فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزاء بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا: ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي: ما سنها؟ قال إنه يقول: إنها بقرة لا فارض﴾ أي: كبيرة ولا بكر﴾ أي: صغيرة ﴿عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ واتركوا التشديد والتعنت.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها، قال إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ أي: شديد تسر الناظرين من حسنها.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾ فلم نهد إلى ما تريد ﴿وإننا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول: إنها بقرة لا ذلول﴾ أي: مذلة بالعمل، ﴿تشير الأرض بالحرثة، ولا تسقي الحرث﴾ أي: ليست بساقية، ﴿مسلمة﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لا شية فيها﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي: بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضاً إليها، ﴿فذبحوها﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات، ﴿وما كادوا يفعلون﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا



٦٧ - ٧٤﴾ وإذ قال موسى

لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا انتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإننا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلاً وادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلقتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة،

يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة.

فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتلة الذين تعينهم^(١) الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرج من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: ﴿أَقْتُونُونِ بَعْضُ الْكِتَابِ﴾ وهو فداء الأسير، ﴿وَتَكْفُرُونَ بَعْضُ﴾ وهو القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأمور واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجل من أجل. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ أي: أعظمه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختراروا النار على العار، فلماذا قال: ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات، ﴿وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ أي:

عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذي ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله ورجاءاً لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله إلى عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ المواعيث عليكم ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فتعوز بالله من الخذلان.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾ هذا استثناء لثلاث يومهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون * وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا

يدفع عنهم مكروه. ﴿٨٧﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَتَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كليمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسول الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم، ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وأترتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ يَلْ لَعْنَةُ اللَّهِ لِكَفْرِهُمْ قَلِيلًا مَا يَأْمُرُونَ﴾ أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غُلْفٌ، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلماذا قال تعالى: ﴿يَلْ لَعْنَةُ اللَّهِ لِكَفْرِهُمْ﴾ أي: أنهم مطردون ملعونون بسبب كفرهم، قَلِيلًا الْمُؤْمِنُ مِنْهُمْ، أو قَلِيلًا إِيْمَانُهُمْ، وكفرهم هو الكثير.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فيأثروا

واستجابة، ﴿قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: صنع حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشريهاً^(٢) بسبب كفرهم.

﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنتم تدعون الإيمان وتمتدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله لما غاب عنكم موسى، نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمتهم بالقول ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتهم، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فيس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسل الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

﴿٩٤-٩٦﴾ ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْدَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴿وَلْتَجِدْهُمْ أَحْرَضَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فَتَمْنُوا الْوَيْدَ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير

ورغم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بَعْضُ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا رداً شافياً، وألزمهم إلزاماً لا محيد لهم عنه، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيماً عليه.

فلم تؤمنوا بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا لتعصب واتباع للهوى لا للهدى؟

وأيضاً فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم، يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيته، ثم يأتي هو لبنته وحجته فيقبح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن كفراً بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴿أَي: بِالْأَدْلَةِ الْوَاضِحَاتِ الْمُبَيِّنَةِ لِلْحَقِّ﴾ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴿أَي: بَعْدَ بَجَائِهِ﴾ وأنتم ظالمون ﴿فِي ذَلِكَ لَيْسَ لَكُمْ عَذْرُ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ أي: سماع قبول وطاعة

بغضب على غضب وللكاثرين عذاب مهين ﴿أَي: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى يَدِ أَفْضَلِ الْخَلْقِ وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، الْمُشْتَمِلِ عَلَى تَصْدِيقِ مَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَةِ، وَقَدْ عَلِمُوا بِهِ وَيَقْنُوهُ، حَتَّى إِنْهُمْ كَانُوا إِذَا وَقَعَ^(١) بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ حُرُوبٍ، اسْتَنْصَرُوا بِهَذَا النَّبِيِّ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِخُرُوجِهِ، وَأَنَّهُمْ يَقَاتِلُونَ الْمُشْرِكِينَ مَعَهُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا الْكِتَابُ وَالنَّبِيُّ الَّذِي عَرَفُوا كُفْرًا بِهِ، بَغْيًا وَخَسَدًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ غَضَبًا بَعْدَ غَضَبٍ، لَكثْرَةِ كُفْرِهِمْ وَتَوَالِي شَكْهِمْ وَشُرْكِهِمْ.

ولهم في الآخرة عذاب مهين، أي: مؤلم موجع، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به وكتبه وبرسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعابهم.

﴿٩٣-٩٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْْمَنُ بِمَا آخِزُوا وَمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن، استكبروا وعتوا، و ﴿قَالُوا نُوْمَنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقاً، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله.

وأما التفريق بين الرسل والكتب،

(١) في ب: على أنهم إذا كان وقع.

(٢) في ب: وشربها.

بذلك كفر بالله وآياته، وعداوة لله
ولرسوله وملائكته، فإن عداوتهم
لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من
عند الله من الحق على رسل الله.

فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

﴿٩٩﴾ ﴿وَلَقَدْ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾
يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحججة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغاً عظيماً، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخروج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوَكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا
نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا فيه التعجيب ^(١) من
كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على
الوفاء بها.

ف «كَلِمًا» تفيد التكرار، فكَلِمًا وجد
العهد ترتب عليه النقض، ما السبب
في ذلك؟ السبب أن أكثرهم
لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي
أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق
إيمانهم لكانوا مثل من قال الله فيه:
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا
عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

﴿١٠١-١٠٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبًى
فَرِيقٍ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ
وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *
وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ
سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنِ
الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسُ السَّحَرُ
وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ
وَمَازُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ
يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ
مِنْهُمَا مَا يَفِرُقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا
هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَذَّانُ اللَّهُ
وَيَعْلَمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ

(۲) فی ب: وحقیقۃ.

علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من
 خلاق ولبس ما شروا به أنفسهم لو
 كانوا يعلمون * ولو أنهم أمئوا واتقوا
 لمشية من عند الله خير لو كانوا
 يعلمون ﴿١٠١﴾ أي : ولما جاءهم هذا
 النزول الكريم بالكتاب العظيم بالحق
 الموافق لما معهم ، وكانوا يزعمون أنهم
 متمسكون بكتابهم ، فلما كفروا بهذا
 الرسول وما جاء به ﴿١٠٢﴾ نبذ فريق من
 الذين أوتوا الكتاب كتاب الله ﴿١٠٣﴾ الذي
 أنزل إليهم ، أي : طرحوه رغبة عنه
 وراء ظهورهم ﴿١٠٤﴾ وهذا أبلغ في
 الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من
 الجاهلين ، وهم يعلمون صدقه ،
 وحقه ﴿١٠٥﴾ ما جاء به .

ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به فلم ينفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم يتفق ماله في طاعة الله، أنفق في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي

حجة .

استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

﴿وليس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علماً يثمر العمل ما فعلوه .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا زاعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين : ﴿راعنا﴾ أي : راع أحرارنا ، فيقصدون بها معنى صحيحاً ، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً ، فانتهزوا الفرصة ، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك ، ويقصدون المعنى الفاسد ، فتهدى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب ، فقيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم ، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ ، التي لا تحتمل إلا الحسن ، وعدم الفحش ، وترك الألفاظ القبيحة ، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق ، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن ، فقال : ﴿وقولوا انظرنا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور ، ﴿واسمعوا﴾ لم يذكر المسموع ليعلم ما أمر باستماعه ، فيدخل فيه سماع القرآن ، وسماع السنة التي هي الحكمة لفظاً ومعنى واستجابة ، وفيه الأدب والطاعة .

ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم المرجع ، وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين ، أنهم ما يودون ﴿أن ينزل عليكم من خير﴾ أي : لا قليلاً ولا كثيراً ﴿من ربكم﴾ حسداً منهم ، وبغضاً لكم أن يحتصمكم بفضلهم ، فإنه ﴿ذو الفضل العظيم﴾ . ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم ، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فله الحمد والمنة .

﴿١٠٦ - ١٠٧﴾ ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين ، والسحر الذي يعلمه الملكان ، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين ، وكل يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفساد السحر ، فقال : ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ ومع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرها ، لأن الله قال في حقهما : ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة ، وأنه يضر بإذن الله ، أي : بإرادة الله ، والإذن نزعان : إذن قدرتي ، وهو المتعلق بمشيئة الله ، كما في هذه الآية ، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير ، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير ، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد ، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة ، فأخرجوها عن قدرة الله ، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة ، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي ، كما قال تعالى في الحمر والميسر : ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فهذا السحر مضرة محضة ، فليس له داع أصلاً ، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة ، أو شرها أكبر من خيرها .

كما أن المأمورات إما مصلحة محضة ، أو خيرها أكثر من شرها . ﴿ولقد علموا﴾ أي : اليهود ﴿لن اشتراه﴾ أي : رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة .

﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾ أي : نصيب ، بل هو موجب للعقوبة ، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً ، ولكنهم



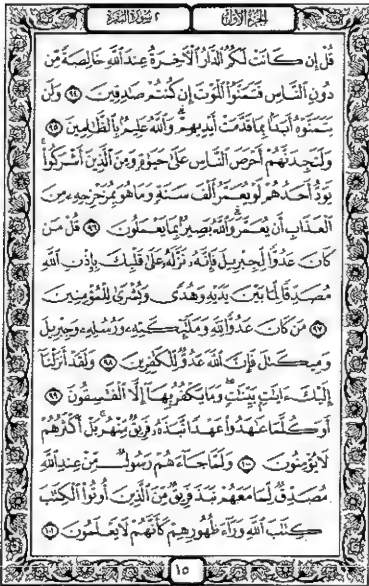
بالذل للعبيد ، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نسبوا كتاب الله اتبعوا ما تلو الشياطين وتخلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر ، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله ، وبه حصل له الملك العظيم .

وهم كذبة في ذلك ، فلم يستعمله سليمان ، بل نزهه الصادق في قوله : ﴿وما كفر سليمان﴾ أي : بتعلم السحر ، فلم يتعلمه ، ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ بذلك .

﴿يعلمون الناس السحر﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم ، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق ، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر .

﴿وما يعلمان من أحد حتى ينصحا ، و يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر﴾ أي : لا تتعلم السحر فإنه كفر ، فينهانه عن السحر ، ويغيرانه عن مرتبته ، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال ، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام . وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم



١٥

حتى يأتي الله بأمره.

ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفي الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾**.

ثم أمرهم [الله] بالاشتغال في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجوده عنده وافرأموفاً قد حفظه **﴿إن الله بما تعملون بصير﴾**.

﴿١١١ - ١١٢﴾ **﴿وقالوا لئن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** * يلي من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون **﴿أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وخدمهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدعى عكس ما ادعى بلا برهان**

قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل * ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير **﴿ينهى الله المؤمنين أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم﴾** **﴿كما سئل موسى من قبل﴾** والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرننا الله جهرة﴾**.

وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾** فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**. ويقرهم ^(١) عليه، كما في قوله: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾** و **﴿يسألونك عن اليتامى﴾** ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: **﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾**.

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال أنهم **﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾** وسعوا في ذلك، وأعملوا المكاييد، وكيدهم راجع عليهم، [كما] قال تعالى: **﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وأكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾** وهذا من حسدكم الصادر من عند أنفسكم.

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح

تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير **﴿النسخ: هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض﴾**.

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ من آية **﴿أو نسيها﴾** أي: نسيها العباد، فنزيلها من قلوبهم، **﴿نات بخير منها﴾** وأنفع لكم **﴿أو مثلاً﴾**.

قدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول، لأن فضله تعالى يزداد خصوصاً على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل.

وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته، فقال: **﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾** * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض **﴿فيذا كان مالكا لكم، متصرفاً فيكم تصرف المالك البير الرحيم في أقداره وأوامره ونواهي، فكما أنه لا حجب عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام. فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرة، فما له والاعتراض؟﴾**

وهو أيضاً ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم من حيث لا يشعرون بلفظه.

﴿١٠٨ - ١١٠﴾ **﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من**

فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقت كما أخبر. واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد. لهم خزي في الدنيا أي: فضيحة كما تقدم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾. بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾.

وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿١١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: ﴿والله المشرق والمغرب﴾، خصهما بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغارها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.

﴿فأينما تولوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا.

وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه، فهو وجه الله إن الله واسع عليم، فيه

بعضاً، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم. فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويعكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتلأ أوامر ربه واجتنب نواهيه، ومن عذاهم فهو هالك.

﴿١١٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسُيِّئَ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمياً، ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات.

﴿وسعى﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿في خرابها﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها وتقديرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة. فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعاً وقدرأ، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً، حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى، سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه. وهكذا كل من اتصف بوصفهم،



لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان علم كذبهم بتلك الدعاوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس بآمانيتكم ودعاويكم، ولكن ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أي: أخلص لله أعماله، متوجهاً إليه بقلبه، ﴿وهو﴾ مع إخلاصه ﴿محسن﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم. فلهم أجرهم عند ربهم وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب.

ويفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

﴿١١٣﴾ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضاً، وكفر بعضهم

إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن الله وجهاً لا تشبیه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، علم بسرائركم ونياتكم.

فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿١١٦-١١٧﴾ «وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون»، «وقالوا أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: «اتخذ الله ولداً»، فسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه.

﴿سبحانه﴾، أي: تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله. فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ومع زده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بل له ما في السماوات والأرض﴾، أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالممالك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده، مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسنجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام - وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص: وهو قنوت العبادة.

فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى:

﴿وقوموا لله قانتين﴾.

ثم قال: ﴿بديع السماوات والأرض﴾، أي: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق.

﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه.

﴿١١٨-١١٩﴾ «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بنا الأيات لقوم يوقنون * إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم»، أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا، كما كلم الرسل. «أو تأتينا آية»، يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك» الآية وقالوا: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة﴾، الآيات وقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾، الآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعتت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾.

فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، وأندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾، فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة.

فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إنا أرسلناك﴾، والثالث دخل في قوله: ﴿بالحق﴾.

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للآديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد غمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقرضوا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملأ، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فيمجد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للنظرين، فمن عرفها وسبر أحواله، عَرَفَ أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بشيراً﴾ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية، ﴿نذيراً﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي.

﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿١٢٠﴾ «ولن ترضى عنك اليهود

جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السنيديّة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟

ودلّ مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قبضه ركناً من أركان الإسلام، خاطئاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدنيوية والدينية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَوَجَعَلْنَاهُ أَمْنًا﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمون أشد الاحترام، ويحسدونهم قاتل أبيه في الحرم فلا يبيحه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدنيوية والدينية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَوَجَعَلْنَاهُ أَمْنًا﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾ أي: معبداً، أي: اقتدوا به في شعار الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أوحينا إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والتكفر والمعاصي، ومن الرجز والنجاسات

إبراهيم ربه بكلمات فأنمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين * وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمثاً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدهنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود * فبشر إبراهيم أن يكون له ولدان فبشره إسماعيل عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتحنته بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليبتين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان، من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره ويزكو عمله، ويخلص ذنبه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام.

فأنتم ما ابتلاه الله به وأكمل ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الشناء الدائم والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى نبيه.

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباده، الله، ومحبتة أن يكثر فيهم المرشدون، فله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية.

فأجابته الرحيم اللطيف، وأخبره بما مانع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آله الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على

ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير * يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاء إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِن هُدَىٰ اللَّهُ الْبَشَرَ لَلَّهِ الْبَازِغَاتُ بِيهِ هُوَ الْهَدَىٰ﴾ الهدى

وأما ما أنتم عليه فهو الهوى، بدليل قوله: ﴿وَلِئَن تَابَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخله في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا هُم أَتَابَعُوا مَا جَاءَهُم مِنَ الْكِتَابِ وَمَنْ يُكْفَرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُم الْخَاسِرُونَ﴾ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون *

يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومن عليهم به مئة مطلقة، أنهم يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون خلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، لا من قال منهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه﴾

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَنْ يُكْفَرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُم الْخَاسِرُونَ﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿١٢٤ - ١٢٥﴾ ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ

شقاق فيسكفيهم الله وهو السميع العليم» أي: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به - يا معشر المؤمنين - من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا الله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله «فقد اهتدوا» للصراط المستقيم، الموصول لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، «والهدى» هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم والضلal عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالشقاق: هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاققة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، فكفك الله شرمهم.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجل بعضهم، وشردهم كل مشرد.

ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

﴿١٣٨﴾ «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون» أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومجبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام

عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدئ ولا هملًا.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا الخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم ينصدق الآخر ويشهد له بالحق، من غير تحالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سير أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عمومًا وخصوصًا، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: «ونحن له مسلمون» أي: خاضعون لعظمته، متقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو «له» على العامل، وهو «مسلمون».

فقد اشتملت هذه الآية الكرمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى تخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدياً ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿١٣٧﴾ «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في

﴿وما أنزل إلينا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة» فيدخل فيه الإيمان بما تضمنته كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمنته ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

﴿وما أنزل إلى إبراهيم﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا، وخصوصًا ما نص عليه في الآية لشرفهم، ولإتيانهم بالشرائع الكبار فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: «لا نفرق بين أحد منهم» أي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به، وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم.

وفي قوله: «وما أوتي النبيون من ربهم» دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع.

وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: «ومن ربهم» إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل

أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴿١٣٨﴾ وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أنتم أعلم أم الله﴾ فانه يقول: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً.

فلماذا أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتاج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلاته لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم. ولهذا قال تعالى:

﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بل والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعذبا وأخبر لهم جزاءها، فيس الجزاء جزاؤهم، ونسبت النار مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها.

فيفيد ذلك الوعد والوعيد،

وقال: ﴿ونحن له عابدون﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صيغة لهم ملازماً.

﴿١٣٩﴾ ﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ المحاجة: هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق في المسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقسم الحجة على المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحداً، ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وإياكم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفرق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا يتنازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿١٤٠﴾ ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى قل

للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور، فلهذا قال - على سبيل التعجيب المنقهر للعقول الزكية -: ﴿ومن أحسن من الله صيغة﴾ أي: لا أحسن صيغة من صيغته^(١).

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صيغة الله وبين غيرها من الصيغ، فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتحلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصادق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القوي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فعجالة الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبده، فقسه بعيد كفر بربه وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فانصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخذاع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده.

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صيغة من صيغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقيس صيغة من انصاع بغير دينه.

وفي قوله: ﴿ونحن له عابدون﴾ بيان لهذه الصيغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، لأن «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحرص.

(١) كذا في ب، وفي أ: من صيغته.

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فاطراف داخلية تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأئبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يظهرون الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينحسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً، بل أباحوا ما دبر ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأنها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناخ، وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكملته، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال أفضلها.

ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا «أمة وسطاً» [كاملين] ليكروا «شهداء على الناس» بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود، فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصم غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شكك في فضلها، وطلب مركزاً لها فهو أكمل الخلق نبهم ﷺ، فلهذا قال تعالى: ﴿ويكون الرسول

مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفه، ولا يلقي له ذهنه. ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم» الآية، «إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا» وقد كان في قوله «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به.

ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها عما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قل﴾ لهم مجيباً: «الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلية التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلا شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبله داخلية تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمنجزة ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم، معترض على فضل الله خنداً لكم وبغياً.

ولما كان قوله: «يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: «يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام» ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنه الله عليها، فقال:

والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنی بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

﴿١٤١﴾ ثم قال تعالى: «تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون» تقدم تفسيرها، وكررها لقطع التعلق بالخلقين، وأن المول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وأبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿١٤٢-١٤٣﴾ «سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» قد اشتملت الآية الأولى على: معجزة، وتسليية، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المسأل حكم الله دينه.

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو سنة ونصف - لما الله تعالى في ذلك من الحكم التي تشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: «ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها» وهي استقبال بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم

عليكم شهيداً

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأسم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وسطاً﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿ولتكونوا شهداء على الناس﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

﴿١٤٣﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كتب عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولاً، ﴿إلا لنعلم﴾ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثواباً ولا عقاباً، لتتمام عدله وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن من يتبع الرسول ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور مندب، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيد ذلك إيماناً وطاعة للرسول.

وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق واتبع هواه، فإنه يزداد كفراً إلى كفره، وحيرة إلى حيرته، ويدل بالحنة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها.

﴿ولإن كانت﴾ أي: صرفك عنها

﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة إلا على الذين هدى الله فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركناً من أركان الإسلام، وهادماً للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك، وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن آمن بالله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطالان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان، فسبحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحض المؤمنين وتظهر صدقهم، وكأن في هذا احترازاً عما يقال إن قوله: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه﴾ قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها.

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي: شديد الرحمة بهم

عظيمها، فمن رآفته ورجته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن يميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها.

﴿١٤٤﴾ ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شرقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وجهك﴾ ولم يقل: «بضرك» لزيادة اهتمامه، ولأن تقلب الوجه مستلزم لتقلب البصر.

﴿فلنولينك﴾ أي: نوجهك لولائتنا إياك، ﴿قبلة ترضاها﴾ أي: تحبها وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضا، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان، ﴿وحيثما كنتم﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي: جهته.

ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها، فرضها وتقبلها، وأنه إن أمكن استقبال عنها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، ولما ذكر تعالى فيما تقدم المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجذونه في كتبهم، فيعترضون عناداً وبعياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب.



احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركون، فإنه لو بقي مستقبل بيت المقدس لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجادلون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم وأنه من ملة إبراهيم وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟

فباستقبال الكعبة^(٢) قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركون، وانقطعت حججهم عليه.

إلا ما ظلم منهم، أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها، ولا يلقي لها بال، فلماذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ لأن حججتهم باطلة، والباطل كاسمه تخذول، تخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي أصل^(٣) كل خير، فمن لم يخش الله لم ينكف عن معصيته، ولم يمثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيها فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلماذا بسطها الله تعالى وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعاً، أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فَوَلِّهَا﴾ وجعلها: والأمة عموماً في قوله: ﴿فَوَلُّوا﴾ وجعلها.

المسارعة إلى الخير وينشطها، ما رتب الله عليها من الشواب، قال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ إن الله على كل شيء قدير، فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

ويستدل هذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وأدائها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية!!

﴿١٤٩ - ١٥٠﴾ «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون» * ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون» أي: «ومن حيث خرجت» في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم «فول وجهك شطر المسجد الحرام» أي: جهته.

ثم خاطب الأمة عموماً، فقال: ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ وقال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ أكده بـ «إن» واللام، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل التشبيهي لا الامتثال.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقال هنا: «لئلا يكون للناس عليكم حجة» أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم

بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير» أي: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة وصيام وزكوات^(١) وحج وعمرة وجهاد، ونفع متعد وقاصر.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على

(١) في ب: وزكاة.

(٢) في ب: القبلة.

(٣) في ب: رأس.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب، ومنها قوله: «وإنه للحق من ربك» فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: «وإنه للحق من ربك»

ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتُمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة، قال: «ولأنتم نعمتي عليكم»

فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته، ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً».

فلله الحمد على فضله، الذي لا نبلغ له عدأ، فضلاً عن القيام بشكره، «ولعلمكم مهتدون» أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى - من رحمته - بالعباد، قديس لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القميص ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما

اتضح الحق تضاحاً ظاهراً، فلله الحمد على ذلك.

﴿١٥١ - ١٥٢﴾ «كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإقامها بالشرائع والنعم المتممة، ليس ذلك ببدع من إحساننا، ولا بأوليه، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فابلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه.

«يتلو عليكم آياتنا» وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم البقيني.

«ويزكيكم» أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتركيبتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادر، وغير ذلك من أنواع التزكية.

«ويعلمكم الكتاب» أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، «والحكمة» قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها.

فيكون - على هذا - تعليم السنة داخل في تعليم الكتاب، لأن السنة تبين القرآن وتفسره، وتعبّر عنه، «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين،

لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ وبسببه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهذا قال تعالى: «فاذكروني أذكركم» فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضله ما تواظأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبته وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال: «واشكروا لي» أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعتراضاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم» وفي الإتيان بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر نعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضده الكفر، نهى عن ضده، فقال: «ولا تكفرون» المراد بالكفر هاهنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عاماً، فيكون الكفر أنواعاً كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿١٥٣﴾ «يا أيها الذين آمنوا استمعوا بالصبر والصلاة إن الله مع

يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين *

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البذني من المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح والاستبشار^(٣)، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور^(٤) خضر ترد أنهار الجنة، وتأكُل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش. وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي قتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد: «أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون».

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفساً نفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكيّثت بذلك النصوص.

﴿١٥٥ - ١٥٧﴾ «ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك

في قوله تعالى: «وهو معكم أينما كنتم» وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم للتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفاً، وداعياً يدعو به إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿١٥٤﴾ «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» لما ذكر تبارك وتعالى، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور^(٥)، ذكر نموذجاً عما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشقته في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفتت الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون.

فالشهداء «أحياء عند ربهم

الصابرين» أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية «بالصبر والصلاة» فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فلها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرح المراءة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشاق خصوصاً إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه، واللجأ إليه والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه «مع الصابرين» أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة، وملكة بمعونته وتوقيفه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي عيته ومعونته ونصرة وقربه، وهذه «معية عظيمة»^(٦) للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرفاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما

(٣) في ب: وهو الاستبشار.

(٤) في ب: طير.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: الأحوال.

عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴿١٥٧﴾ أخبر تعالى أنه لا بد أن يتبلى عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها عنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله يضيغ إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيتبلى عباده ﴿بشيء من الخوف﴾ من الأعداء ﴿والجوع﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاههم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

﴿ونقص من الأموال﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق وضياع، وأخذ الظلمة للأموال، من الملوك الظالمة وقطاع الطريق، وغير ذلك.

﴿والأنفس﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿والثمرات﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر؛ ببرد أو بَرَد، أو حرق، أو آفة سماوية من جراد ونحوه.

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبة، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحerman، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له [السخط الدال على شدة نقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن

التسخط قولاً وفعلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امثال أمر الله وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وبشّر الصابرين﴾ أي: بشّرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما بما تقدم ذكره.

﴿قالوا إنا لله﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمحاليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي أرحم عبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجع إليه من أقوى أسباب الصبر.

﴿وأولئك﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عليهم صلوات من ربهم﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿ورحمة﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم

من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطئ النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب.

﴿١٥٨﴾ ﴿إن الصفا المروءة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ يخبر تعالى أن الصفا والمروءة وهما معروفان ﴿من شعائر الله﴾ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم».

﴿فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

ودل بتقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش وفي

عمره، بخلاف الطواف بالبيت فإنه يشرع مع العمره والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿ومن تطوع﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿خيراً﴾ من حج، وعمره، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿فهو خير له﴾ فدل هذا على أنه كلما ازداد الغنى من طاعة الله، ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل.

﴿فإن الله شاكر عليم﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده السير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتثل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شيئاً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، بمن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجودها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿١٥٩ - ١٦٢﴾ ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ إلا الذين تابوا وأصلحو وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ خالدون فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿من البينات﴾ الدلالات على الحق المظهرات له، ﴿والهدى﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتُموه، فمن نبذ ذلك وجع بين المفسدين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يلعنهم الله﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحته.

﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزله الله، مضاد لأمر الله

مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها وهذا يطمسها ويعميها^(١)، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إلا الذين تابوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاعاً، وعزموا على عدم العودة، ﴿وأصلحو﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً، حتى يبين ما كتمه، ويبيد ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محبوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التواب﴾ أي: الرجاء على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعيم بعد المنع إذا رجعوا، ﴿الرحيم﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأتابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفًا وبرًا، هذا حكم التائب من الذنب.

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه ولم يتب عن قريب، فأولئك ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا، ﴿خالدون فيها﴾ أي: في اللعنة أو في العذاب والمعنات^(٢) متلازمان.

﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتدرون.

﴿١٦٣﴾ ﴿والهكم إليه واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ خير تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إله واحد﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له

(١) في ب: وهذا يسعى في طمسها

وإخفائها.

(٢) في ب: وهما متلازمان.

شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفؤ، ولا مثل ولا نظير، ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه **«الرحمن الرحيم»** المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عَزَف عباده نفسه بصفاته وآلانه، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وأن من أظلم الظلم وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق^(١) من تراب برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوي، الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبين أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع [جميع] النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

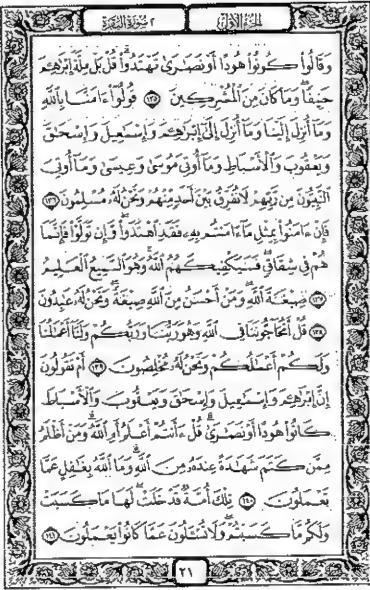
﴿١٦٤﴾ ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال: **«إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبِشَيْءٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ**

السَّخَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته، وسائر صفاته، ولكنها **«لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»** أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي **«خلق السموات»** في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد.

وفي خلق **«الأرض»** مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها، والاعتبار. ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبين قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضرووراتهم وحاجاتهم. وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشؤون عباده، **«و»**

في **«اختلاف الليل والنهار»** وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونواب. كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفة الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به، وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويُعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم،



واخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

«و» في **«الفلك التي تجري في البحر»** وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها.

ثم سخر لها هذا البحر العظيم، والرياح التي تحملها بما فيها من الزكاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنظم معاشهم.

فمن الذي ألهمهم صنعها وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر تجري فيه بإذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذي خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته،

هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه ضامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿١٦٥ - ١٦٧﴾ ثم قال تعالى: «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ﴿١٦٥﴾ إذ تبرز الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وأروا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴿١٦٦﴾ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرزوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴿١٦٧﴾» ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبرز أهيئها الناطقة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن «من الناس» مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أنداداً لله، أي: نظراء ومثلاء، يساووهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان هذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد

فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دمه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وخراساتهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع^(١) أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي «تصريف الرياح» باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً ودبوراً، وبين ذلك، وتارة تشير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلتحقه، وتارة تدبره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب.

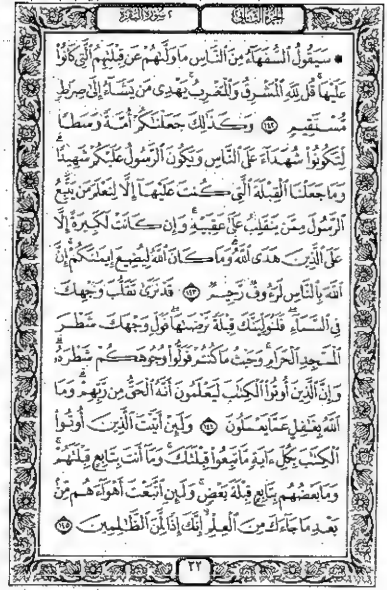
فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنواب، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع ومحبة وإنابة وعبادة؟

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والنهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته أمسكه عنهم، فيتزله رحمة ولطفاً، ويصرفه عناية وعظماً، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه، والطف امتناته!!

أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا بيرة، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره وعفوه وصفحه، وعيم لطفه؟

فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في



وحضعت لجبروته. وغاية العبد الضعيف، أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم.

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ وهو المطر النازل من السحاب.

﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها.

أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟ ﴿وبث فيها﴾ أي: في الأرض ﴿من كل دابة﴾ أي: نشر في أطوار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع.

يتمنوها، حنقاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرؤوا منهم والذنب ذنبهم، فأسن المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قُضي الأمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعْدَتْكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ﴾.

﴿١٦٨ - ١٧٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلِ اتَّبِعْنَا آلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ كَانُوا قَوْمًا لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب وثمار وفواكه وحيوانات، حالة كونها ﴿حَلَالاً﴾ أي: محللاً لكم تناولها، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معيناً على محرم.

﴿طَيِّباً﴾ أي: ليس بخبيث كالهيئة والدم ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طريقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السواحب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم،

ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوُصل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول تبيحتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالذون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربّه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالِهِمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

وحيثئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من متبوعيههم، بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيئات، فأت الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلورردوا لعادوا لما نهبوا عنه، وإنما هو قول يقولونه وأما

مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه، وفي قوله: ﴿اتَّخِذُوا﴾ دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمَوْهُمْ أَمْ يَنْتَبِهُنَّ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فالمخلوق ليس نداً لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً، سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل الثام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشْدَّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحيوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحيوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصددهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم.

﴿إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: لعلوا علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فيتبين لهم في ذلك اليوم

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء.

فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل ونبد الحق. أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء أنه من أسفه السفهاء.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم. هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المتفجعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إتمامه باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به الرسلين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً» لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله فلم يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينقر النعم المفقودة وينزيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ

وَالْأَخْرُوفَ. الَّذِي كُلُّ الْفَلَّاحِ بِطَاعَتِهِ، وَكُلُّ الْفَوْزِ فِي خِدْمَتِهِ، وَجَمِيعُ الْأَرْبَاحِ فِي مَعَامَلَتِهِ الْمُنْعَمُ بِالنَّعْمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الَّذِي لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ الشَّرِّ، أَمْ تَتَّبِعِ دَاعِي الشَّيْطَانِ الَّذِي هُوَ عَدُوُّ الْإِنْسَانِ، الَّذِي يَرِيدُ لَكَ الشَّرَّ، وَيَسْعَى بِجَهْدِهِ عَلَى إِهْلَاكِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ الَّذِي كُلُّ الشَّرِّ فِي طَاعَتِهِ، وَكُلُّ الْخُسْرَانِ فِي وَلَايَتِهِ، الَّذِي لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ خَيْرٍ. ثُمَّ أُخْبِرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ؛ إِذَا أُمِرُوا بِاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ - مِمَّا تَقَدَّمَ وَصَفَهُ - رَغِبُوا عَنْ ذَلِكَ، وَقَالُوا:

﴿بَلْ تَتَّبِعِ مَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فاكفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فابأؤهم أجهل الناس وأشداهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان متصفاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَتَّبِعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنَدَاءٍ، صَمٌّ بِكُمْ عَمِّي فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لما تبين تعالى عدم انقيادهم لما جاء به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي يتبع لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً يتفهمهم، فلهذا كانوا صملاً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكماً فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوتة الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أفتح الأشياء وأعظمها مفسدة، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءُ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تنهاه قبحه، كالزنا وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبلخل، ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله ندأ، وأوثاناً تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الضف من المخلوقات للعلّة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معان اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبدلون مكرهم وخداهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فليحظر العبد نفسه مع أي: الداعين هو، ومن أي: الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية

والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها؟ ١١٩ ﴿ذلك﴾ المذكور، وهو مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية، من أباهما واختار أسوأها.

﴿بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأيضاً في قوله: ﴿نزل الكتاب بالحق﴾ ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، أو الذين حرقوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لفي شقاق﴾ أي: محادة، ﴿بعيد﴾ عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بتخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكافرين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يظهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة. ثم ترجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق المرجح للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة

ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها. أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محظور اضطر له الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن [قله الحمد والشكر أولاً وآخرأ، وظاهراً وباطناً].

﴿١٧٤ - ١٧٦﴾ ﴿إن السذجن يكتبون ما أنزل الله من الكتاب ويشترتون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴿ذلك﴾ بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴿هذا وعيد شديد لمن كتب ما أنزل الله على رسله، من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله، أن يبينوه للناس ولا يكتُموه، فمن تعرض عنه بالحطام الدنيوي ونبذ أمر الله، فأولئك﴾ ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴿لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، ﴿ولا يزكيهم﴾ أي: لا يظهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى،

عليكم الميتة وهي ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرّة لردائها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرراً^(١)، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسماك البحر، فإنه جلال طيب.

﴿والدم﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى.

﴿وما أهل به لغير الله﴾ أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طيبات﴾ فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: ﴿حلالاً طيباً﴾ كما تقدم.

وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفاً بنا وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا ﴿فمن اضطر﴾ أي: ألجئ إلى الحرّم بجوع وعدم، أو إكراه، ﴿فغير باع﴾ أي: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، ﴿ولا عاد﴾ أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيع له اضطراراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، فلا إثم [أي: جناح] عليه، وإذا ارتفع الجناح^(٢) رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة، فقال: ﴿إن الله غفور رحيم﴾.

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة

(١) في ب: مرض.

(٢) في أ: (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب، وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).

والمخاصمة، والله أعلم.

﴿١٧٧﴾ «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» يقول تعالى: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب» أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك.

«ولكن البر من آمن بالله» أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص.

«واليوم الآخر» وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت.

«والملائكة» الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ، «والكتاب» أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنته من الأخبار والأحكام، «والنبيين» عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

«وآتى المال» وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال «على حبه» أي: حب المال، بين به أن المال مغرب للنفوس، فلا يكاد يخرج العبد.

فمن أخرج مع حبه له تقريباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال

يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر.

وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه.

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك. من الأقارب الذين تتوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاضدون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاضد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم واحتجهم. ومن يتامى الذين لا كاسب لهم وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمة [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقده أبائهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل، فمن رحم يتيم غيره رجم يتيمه.

«والمساكين»: وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه وبما يتيسر، «وابن السبيل»: وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته، ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها.

«والسائلين» أي: الذين تعرض لهم حاجة من الخواصج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرض جناية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنياً «وفي الرقاب» فيدخل فيه العتق والإعانة

عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة.

«وأقام الصلاة وآتى الزكاة» قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

«والموفون بعهدهم إذا عاهدوا» والعهد: هو الالتزام بالزام الله أو إلزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله أكرم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجهاها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والنذور، ونحو ذلك.

«والصابرين في البأساء» أي: الفقر، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره.

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم.

فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

«والضراء» أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح وزناخ ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله [تعالى].

«وحين اليأس» أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجِلاد يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتساباً، ورجاء لشواب الله [تعالى] الذي منه النصر والمعونة التي وعدّها الصابرين.

«أولئك» أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقته الإنسانية، فأولئك هم «الذين صدقوا» في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم، «وأولئك هم المتقون»؛ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضيماً ولزوماً، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهو لا هم الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الديني والأخروي، مما لا يمكن تفصيله في [مثل] هذا الموضوع.

«١٧٨ - ١٧٩» «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم» ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون» يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بأنه فرض عليهم «القصاص في القتلى» أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعنوم المؤمنين،

فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه، إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، وتمكينه^(١) من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بين تفصيل ذلك، فقال: «الحر بالحر» يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، «والأنثى بالأنثى» والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله: «الأنثى بالأنثى» مع دلالة السنة، على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله: «القصاص» ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بالولد، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جداً من الولد له.

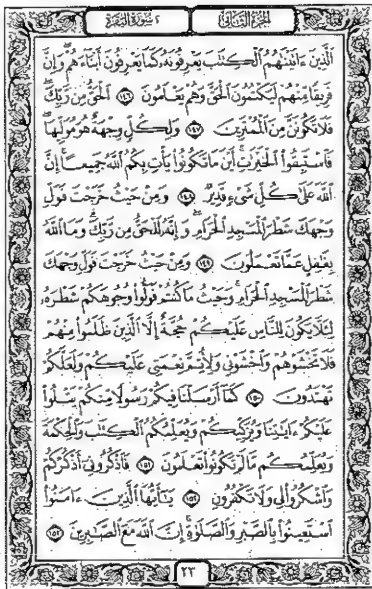
وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة.

وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعذوه، والعبد بالعبد، ذكر أو كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد، لكونه غير مساو له، والأنثى بالأنثى، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم، فلم يميز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهاذا قال: «فمن عفي له من أخيه شيء» أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص وتحجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار

(٢) في ب: بالإحسان.

(١) في ب: ويمكنه.



الدية إلى الولي.

فإذا عفا عنه وجب على الولي [أي: ولي المقتول] أن يتسبع القاتل «بالمعروف» من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يخرج.

وعلى القاتل «أداء إليه بإحسان» من غير مطلق ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فكل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالتسابع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان^(٢).

وفي قوله: «فمن عفي له من أخيه» تريق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجاًناً.

وفي قوله: «أخيه» دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلمها، وإنما يتقص بذلك إيمانه.

وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: «فمن اعتدى بعد ذلك» أي:

عن الجور والجنتف، وهو الميل بها عن خطأ، من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبrette ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليه إثم، كما على مبدل الوصية الجائزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غص من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح ساعده الله، غفور لميتهم الجائز في وصيته إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحون ويتعاطفون، فدللت هذه الآيات على الخث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائزة.

﴿١٨٣ - ١٨٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُخَبِّرُ تَعَالَى بِمَا مِنْ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، أَنَّهُ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامَ، كَمَا فَرَضَهُ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، لِأَنَّهُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَوَامِرِ الَّتِي هِيَ مُصْلِحَةٌ لِلخَلْقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

وفيه تشييط لهذه الأمة بأنه ينبغي

لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمصارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصتكم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: ﴿لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، ليعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

ثم سهل تسهلاً آخر، فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وذلك للمشفقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾

أي: يطيقون الصيام ﴿فِدْيَةٌ﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتماً فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾

ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر لأوقيل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير فدية عن كل يوم مسكين^(١)، وهذا هو الصحيح^(٢).

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام.

فلما قرره وبين فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

ولما كان النسخ للتخفيف بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضاً منسوخة، [فقال] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تسير، ويسهلها أشد^(٣) تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية

(٣) في ب: أبلغ تسهيل.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) ظاهر أن المراد عن كل يوم طعام

مسكين.

وتضيئوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه.

وفيه: دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد.

وفيه: أيضاً دليل على أنه يجوز أن يذكره الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يذكره الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق.

﴿ثُمَّ﴾ إذا طلع الفجر ﴿أَتَمُّوا الصِّيَامَ﴾ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ وهو غروب الشمس ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست بإباحته^(١) عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثنائه بقوله: ﴿وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أي: وأنتم متصرفون بذلك، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله [تعالى]، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد.

ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس.

وفيه أن الوطء ممن مفسدات الاعتكاف.

﴿تِلْكَ﴾ المذكورات - وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المذخور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حُدُودِ اللَّهِ﴾ التي حذها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أبلغ من قوله: ﴿فَلَا تَفْعَلُوهَا﴾ لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة

الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

﴿١٨٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَنَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ كان في أول فرض الصيام، يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينام، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به.

﴿فَتَنَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته - موجباً للإثم ﴿وَعَقَا عَنْكُمْ﴾ ما سلف من التخنون.

﴿فَالآنَ﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ وطأ وقبلة ولماً وغير ذلك.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح.

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها

السهولة في أصله. وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات. وهذه جملة لا يمكن تفصيلها لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

﴿وَلْتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ﴾ وهذا - والله أعلم - لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببغضه، رفع هذا الزوم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله [تعالى] عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

﴿١٨٦﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرشاد

إليه .

والعبد مأمور بترك المحرمات ،
والبعد منها غاية ما يمكنه ، وترك كل
سبب يدعو إليها ، وأما الأوامر
فيقول الله فيها : ﴿ تلك حدود الله
فلا تعتدوها ﴾ فينهى عن مجاوزتها .

﴿ كذلك ﴾ أي : بين [الله] لعباده
الأحكام السابقة أتم تبين ، وأوضحها
لهم أكمل إيضاح .

﴿ يبين الله آياته للناس لعلهم
يتقون ﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه ،
وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه ، فإن
الإنسان قد يفعل المحرم على وجه
الجهل بأنه محرم ، ولو علم تحريره لم
يفعله ، فإذا بين الله للناس آياته ، لم يبق
لهم عذر ولا حجة ، فكان ذلك سبباً
للتقوى .

﴿ ١٨٨ ﴾ ﴿ ولا تأكلوا أموالكم
ببينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام
لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم
وأنتم تعلمون ﴾ أي : ولا تأخذوا
أموالكم ، أي : أموال غيركم ، أضافها
إليهم ؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب
لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله كما
يحترم ماله ؛ ولأن أكله مال غيره مجزئ
غيره على أكل ماله عند القدرة .

ولما كان أكلها نوعين : نوعاً بحق ،
ونوعاً بباطل ، وكان المحرم إنما هو
أكلها بالباطل ، قيده تعالى بذلك ،
ويدخل في ذلك أكلها على وجه
الغصب والسرقة والخيانة في ودیعة أو
عارية ، أو نحو ذلك ، ويدخل فيه أيضاً
أخذها على وجه المعاوضة ، بمعاوضة
محرمه ، كعقود الربا والقمار كلها ، فإنها
من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس في
مقابله عوض مباح ، ويدخل في ذلك
أخذها بسبب غش في البيع والشراء
والإجارة ، ونحوها ، ويدخل في ذلك
استعمال الأجراء وأكل أجرتهم ،
وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم
يقوموا بإجابه ، ويدخل في ذلك أخذ
الأجرة على العبادات والتقربات التي
لا تصح ، حتى يقصد بها وجه الله

تعالى ، ويدخل في ذلك الأخذ من
الزكوات والصدقات والأوقاف ،
والوصايا لمن ليس له حق منها ، أو فوق
حقه .

فكل هذا ونحوه من أكل المال
بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه من
الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع
وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع ،
وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة
غلبت حجة الحق ، وحكم له الحاكم
بذلك . فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً
ولا يحلل حراماً ، إنما يحكم على نحو
ما يسمع ، وإلا فحقائق الأمور باقية ،
فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة
ولا شبهة ، ولا استراحة .

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة
وحكم له بذلك ، فإنه لا يحل له ،
ويكون أكلاً مال غيره بالباطل والإثم
وهو عالم بذلك . فيكون أبلغ في
عقوبته وأشد في نكاله .

وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن مؤكله
مبطل في دعواه ، لم يحل له أن يخاصم
عن الخائن ، كما قال تعالى :
﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ .

﴿ ١٨٩ ﴾ ﴿ يسألونك عن الأهلة قل
هي مواقيت للناس والحج وليس البر
بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر
من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها
واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ يقول (١)
تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ جمع
هلال ، ما فائدتها وحكمتها ؟ أو عن
ذاتها ، ﴿ قل هي مواقيت للناس ﴾ أي :
جعلها الله تعالى بلطفه ورحمته على هذا
التدبير يبدو الهلال ضعيفاً في أول
الشهر ، ثم يتزايد إلى نصفه ، ثم يشرع
في النقص إلى كماله ، وهكذا يعرف
الناس بذلك مواقيت عباداتهم من
الصيام ، وأوقات الزكاة ، والكفارات ،
وأوقات الحج .

ولما كان الحج يقع في أشهر
معلومات ، ويستغرق أوقاتاً كثيرة ،
قال : ﴿ والحج ﴾ وكذلك تعرف بذلك
أوقات الديون المؤجلات ، ومدة

(٢) في ب : ليس من البر .

(١) في ب : فقلوه .



الإجازات ، ومدة العدد والحمل ، وغير
ذلك مما هو من حاجات الخلق ، فجعله
تعالى حساباً يعرفه كل أحد من صغير
وكبير ، وعالم وجاهل ، فلو كان
الحساب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا
النادر من الناس .

﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من
ظهورها ﴾ وهذا كما كان الأنصار
 وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم
يدخلوا البيوت من أبوابها ، تعبدوا
بذلك ، وظناً أنه بر ، فأخبر الله أنه ليس
ببر (٢) ، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم ،
وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله
ولا رسوله ، فهو متعبد ببدعة ،
وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما
فيه من السهولة عليهم ، التي هي قاعدة
من قواعد الشرع .

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي
في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان
من الطريق السهل القريب ، الذي قد
جعل له موصلاً ، فالأمر بالمعروف
والناهي عن المنكر ، ينبغي أن ينظر في
جالة المأمور ، ويستعمل معه الرفق
والسياسة التي بها يحصل المقصود أو
بعضه ، والمتعلم والمعلم ينبغي أن
يسلك أقرب طريق وأسهله ، يحصل به
مقصوده ، وهكذا كل من حاول أمراً
من الأمور وأثناء من أبوابه وثابر عليه ،



فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

﴿واتقوا الله﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام، بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المهرب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

﴿١٩٠ - ١٩٣﴾ ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ وقاتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾

هذه الآيات، تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوي المسلمون للقتال أمرهم الله به، بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال

(١) في ب: ويستدل في هذه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: بالشهر الحرام.

﴿في سبيل الله﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتنة بين المسلمين.

﴿الذين يقاتلونكم﴾ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال.

والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتل، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار [ونحوها] لغير مصلحة تعود للمسلمين.

ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوا، فإن ذلك لا يجوز.

﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا، في كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة ثم استثنى من هذا العموم قتالهم عند المسجد الحرام، وأنه لا يجوز إلا أن يبدؤوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله، والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمة وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يزكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن يكون الدين لله، تعالى فيظهر دين الله [تعالى]، على سائر الأديان،

ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال، ﴿فإن انتهوا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أي: فليس عليهم منكم اعتداء إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

﴿١٩٤﴾ ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يقول تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا بهداء، فيكون فيه تطيب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكماله.

ويحتمل أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام (٢) فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج وعلى هذا فيكون قوله: ﴿والحرمات قصاص﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه، ومن قاتل في الشهر الحرام قاتل، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد ولم يكن له حزمة، ومن قتل مكافئاً له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة، [من الإنفاق عليه] فإنه يجوز أخذه من ماله.

وإن كان السبب خفياً كمن جحد دين غيره، أو خانته في وديعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المائلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس في الغالب لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿١٩٥﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٦﴾ يَأْمُرُ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ فِي سَبِيلِهِ، وَهُوَ إِخْرَاجُ الْأَمْوَالِ فِي الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى اللَّهِ، وَهِيَ كُلُّ طَرِيقٍ الْخَيْرِ مِنْ صَدَقَةٍ عَلَى مُسْكِينٍ، أَوْ قَرِيبٍ، أَوْ إِتِّفَاقٍ عَلَى مِنْ تَجِبُ مَوْتُهُ.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإيتفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهادٌ بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازة، فبالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على سباق النفقة، فالنفقة له كالزواج، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإيتفاق في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارباً

لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصول إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغزير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر خوف، أو محل مسيعة أو حيات، أو يصعد شجراً أو بنياناً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة (١) الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجناه بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم وإزالة شدائهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، وتحول ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام فالجهاد، ذكر أحكام الحج

فقال:

﴿١٩٦﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ

فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحملوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنت من فمتم بالحج ففدية من صيام أو نسك فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب يستدل بقوله [تعالى]: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ على أمور: أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ».

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلاً.

الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله وهو الحصر، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ أي: منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدى، وهو سبغ بدنة، أو سبغ بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه لما صدقهم

المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدى، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتن، ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر بحلق أو غيره، لأن المعنى واحد، من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في بقية الشعر.

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدى محله، وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدى لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدى، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض يتنفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو صدقة على ستة مساكين^(١)، أو نسك ما يجزىء في أضحية، فهو خير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو التطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفع.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَمْتَمْتُمْ﴾ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَمَنْ مَتَعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ بأن توصل بها إليه، وانفع بتمتعه بعد الفراغ منها.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليه ما تيسر من الهدى، وهو ما يجزىء في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتع بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج، ومثلها القرآن لحصول النسكين له.

وبدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة التمتع، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدى أو ثمنه ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمره، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ «منى» ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع، «وسبعة إذا رجعتم» أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من وجوب الهدى على المتمتع ﴿لَنْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فني جميع أموركم، بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه الأمور، واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم وتحمل على ترك الواجبات.

﴿١٩٧﴾ ﴿الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يخبر تعالى أن ﴿الحج﴾ واقع في «أشهر معلومات» عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس.

وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته، معروفة بينهم.

والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً. ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام [الحج] قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيده.

وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتين.

والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام. والجidal وهو: المارة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج: الذل

(١) في ب: أو إطعام ستة مساكين.

ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿٢٠٤ - ٢٠٦﴾ «ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهادر»

لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه، فقال: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا» أي: إذا تكلم راق كلامه السامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه «يشهد الله على ما في قلبه» بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعله.

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلهذا قال: «وهو ألد الخصام» أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقايخ الصفات، ليس كاخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سجيتهم.

﴿وإذا تولى﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عنك «سعى في الأرض ليفسد فيها» أي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض «ويهلك الحرث والنسل» فالزروع والثمار والمواشي تلتف وتنقص وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، «والله لا يحب الفساد» وإذا كان لا يحب الفساد فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكملها، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحث عليه.

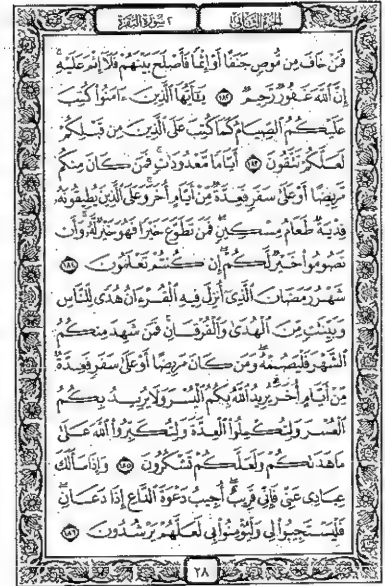
﴿٢٠٣﴾ «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون» يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم ضياعها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله»

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، وليس ببعيد.

﴿فمن تعجل في يومين﴾ أي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني «فلا إثم عليه، ومن تأخر» بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد «فلا إثم عليه» وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أباح كلا الأمرين، فالتأخر أفضل لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم، والمتأخر فقط قيده بقوله: «لمن اتقى» أي: اتقى الله في جميع أموره وأحواله الحرج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان أجزاء من جنس العمل.

﴿واتقوا الله﴾ بامتنال أوامره واجتناب معاصيه، «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده،



الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميغ يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: «من يقول ربنا آتنا في الدنيا» أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهوته، وليس له في الآخرة من نصيب لرغبته عنها، وقصر همهته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماهم ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين.

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيئ واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقربه العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة.

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف، والنار،

وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتشر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلق، وينزل الباري [تبارك] تعالى: ﴿فِي ظِلِّهِ مِنَ الْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباديه بالقضاء العدل.

فتوضع الموازين، وتشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهناك بعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء والتزول والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالاتها على مذهبهم الباطل، أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر

فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، وإن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه نيته.

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم. ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ بِالنِّبَاتِ﴾ أي: على علم ويقين ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر^(٣) الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

﴿٢١٠﴾ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب. يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النايدون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين،

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها المزكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحقق والمبطل من الناس بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتركيتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و﴿أَخَذْتَهُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناسحين.

﴿فَحَسِبْ جَهَنَّمَ﴾ التي هي دار العاصين والتكبرين، ﴿وَلَيْسَ الْمَهَادُ﴾ أي: المستقر والسكن عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الشواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياً بالله من أحوالهم.

﴿٢٠٧﴾ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوا طلباً لمرضاة الله ورجاء لشوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوا، وأخير برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم^(٢).

﴿٢٠٨ - ٢٠٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ *

(١) في ب: والتكبر.

(٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من: ب، وقد قام التجار بتفسير الآية من عند نفسه انظر طبعة التجار (١/٢٥٢ - ٢٥٤) ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -.

(٣) في ب: العزيز المقام.

حساب فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، وبحة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.

﴿٢١٣﴾ **﴿كان الناس أمة واحدة**

فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾

(أي: كان الناس) [أي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلاق ويقىموا الحجة عليهم، وقيل بل كانوا^(١) مجتمعين على الكفر والضلال

والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم **﴿مبشرين﴾** من أطاع الله بشمات أنطاعات، من الرزق والقوة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة.

﴿ومنذرين﴾ من عصى الله بشمات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار.

﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق﴾ وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما.

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا

تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقر بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر يذل النعمة، وأما من شكر الله تعالى وقام بحقوقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿٢١٢﴾ **﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾**

يجز تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ولم يتقادوا لشعره، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها وعظموا من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين واستهزأوا بهم، وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه، فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه، وصبره ما لا يكون لغيره.

وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: **﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾** فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور.

والكفار تحتهم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدي الذي لا ينتهي له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين: ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولأن تال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: **﴿والله يرزق من يشاء بغير**

على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن الله ذاتاً لا تشبهها الذوات، فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبت الله لنفسه وأثبت رسوله، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتته وما نفيت، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً، فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيت لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيت إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيت.

والحاصل أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً ما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمقول.

﴿٢١١﴾ **﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾** يقول تعالى: **﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾** تدل على الحق وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها.

بل كفروا بها وبدلوا نعمة الله كفرة، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله

(١) زيادة في هامش ب، لم يحدد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن هذا محلها، ولهذا وليسق الكلام يكون آخره هكذا (وقيل بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي كان الناس) مكرراً.



حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه وبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴿٢٠٠﴾ ولا تنكحوا النساء المشركات ﴿٢٠١﴾ ما دمن على شركهن حتى يؤمن ﴿٢٠٢﴾ لأن المؤمنة ولو بلغت من الذميمة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا

الكتاب﴾ ﴿٢٠٣﴾ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴿٢٠٤﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه.

ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة من خالفهما في الدين، فقال: ﴿وَأُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجز التزوج مع ﴿٢٠٥﴾ أن فيه مصالح كثيرة فالحلطة المجردة من بناب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ دليل على اعتبار الولي [في النكاح].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَبَيْنَ آيَاتِهِ﴾ أي: أحكامه وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيرجب لهم ذلك التذكير لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامثال لما ضيعوه.

في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً ﴿٢٠٦﴾ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام النيامي خوفاً على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألو النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال النيامي بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر بالنيامي، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى البنية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي خرج وأثم، و «الوسائل لها أحكام المقاصد».

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المأكول والمشرب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله [تعالى] وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وإلا ف «لو شاء الله لأعتكم» أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك فخرجتم، وشق عليكم وأثمتم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ أَعْلَمُ الْقُوَّةَ الْكَامِلَةَ وَالْقَهْرَ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، ولكنه مع ذلك «حكيم» لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لا بد له من حكمة عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتمام حكمته ورجحته.

﴿٢٠٧﴾ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبكم ولا تنكحوا المشركين

كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق عمرة.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم. ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفاً لنا [بما يشق] ﴿٢٠٨﴾ بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا وإخواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه، قال: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها، فتفرقوها، وفي الآخرة وبقياتها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

﴿٢٠٩﴾ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ إن الله عزيز حكيم ﴿٢١٠﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خير المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: رغبة وألفة ومودة.

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وحل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان.

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا الترتيب، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين، وكرامته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعته، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد يجمع الشروط.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق والواجبات مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحقة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع

إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها لمثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق.

وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم.

ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور، كالإيراث ونحوه.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدهن حيزتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات^(٢) يدل على أن المراد بها الحرة.

﴿٢٢٩﴾ ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْتَدُوا بِتِلْكَ حَدُودِ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حَدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يُطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضاربتها طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن ﴿الطَّلَاقُ﴾ أي: الذي تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَانٍ﴾ ليمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشنتين فيما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة، فلماذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته، ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلماذا قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ لَا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ﴾ وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفقرة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

﴿تِلْكَ﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي: ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدي منه إلى الجرام، فلم يسعه ما أحل الله؟ والظلم ثلاثة أقسام:

ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

﴿٢٣٠ - ٢٣١﴾ ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا

(١) في ب: ونحوهما.

(٢) في ب: الآية.

تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لمتعدها ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم * يقول تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ أي: الطلقة الثالثة ﴿فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي: نكاحاً صحيحاً ويطؤها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق.

ويشترط^(١) أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني رغباً ووطئها ثم فارقتها وانقضت عدتها ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أن يتراجعا﴾ أي: يجدا عقداً جديداً بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي.

ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أن يقيما حدود الله﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عسرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من

الأمر، خصوصاً الولايات الصغار والكبار، نظر في نفسه^(٢)، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم وإلا أحجم.

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام العظيمة، قال: ﴿وتلك حدود الله﴾ أي: شرائعه التي حددها وبينها ووضحها.

﴿يبينها لقوم يعلمون﴾ لأنهم هم المتفوعون بها، النافعون لغيرهم.

وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصاً بهم، وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده، معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ أي: طلاقاً رجعيّاً بواحدة أونتين.

﴿فبلغن أجلهن﴾ أي: قاربن انقضاء عدتهن.

﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أي: إما أن تراجعوهن وتيتكن القيام بحقوقهن، أو تركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿ولا تمسكوهن ضراراً﴾ أي: مضارة بهن لمتعدها، في فعلكم هذا الحلال، إلى الحرام، فالحلال: الإمساك بمعروف^(٣)، والحرام: المضارة، ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم تجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزواً، أي: لعباً بها، وهو التجزؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله من رحته جعل له واحدة بعد واحدة، وفقاً

به وسعياً في مصلحته. ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ عموماً، باللسان ثناءً وحداً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله، ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي: السنة، اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورجبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعزفكم أنفسه ووقائعه في أولياته وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمه الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يعظكم به﴾ أي: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو التهذيب، فالحكم به يزول الجهل، والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع التهيب يوجب الرهبة.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ فللهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإلتقان والإحكام، التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان [فله الحمد والمنة].

﴿٢٣٢﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من التزوج به حقاً عليه وغضباً، واشتمزازاً لما فعل من الطلاق الأول.

وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإيمانه يمنعه من العضل، فإن ذلك أزكى لكم وأطهر وأطيب مما يظن

(٢) في ب: أن ينظر.

(٣) في ب: بالمعروف.

(١) في ب: ويتعين.



النكاح وغيره، فهو جائز للباين، كأن يقول لها: إني أريد الزوج، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه.

وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ، عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ هذا التفصيل كله في مقدمات العقد.

وأما عقد النكاح فلا يحل حتى يبلغ الكتاب أجله أي: تنقضي العدة.

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ أي: فأنزوا الخير ولا تنزوا الشر، خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه.

﴿واعلموا أن الله غفور﴾ لمن صدرت منه الذنوب فتأب منها، ورجع إلى ربه ﴿حليم﴾ حيث لم يعاجل العصاة على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

﴿٢٣٦﴾ ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْقَفْظِ قَدْرَهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ليس عليكم يا معشر الأزواج جناح وإثم بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها، فإنه يتجبر بالمتعة، فعليكم أن تمتعوهن بأن تعطوهن شيئاً من المال، جبراً لخواترهن: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر﴾ أي: المعسر ﴿قدره﴾.

وهذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: ﴿مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ﴾ فهذا حق واجب على المحسنين ليس لهم أن يخسوهن.

فكما تسببوا لتشوهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن

جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمتنع عما لا يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب عليه.

﴿٢٣٥﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيما عرضتم به من خطبة النساء أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة، أو المبانة في الحياة، فيحرم على غير مبينتها أن يصرح لها في الخطبة، وهو المراد بقوله: ﴿ولكن لا تواعدوهن سرّاً﴾ وأما التعريض فقد أسقط تعالى فيه الجناح.

والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حزم خوفاً من استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء لحق زوجها الأول بعدم مواعدها لغيره مدة عدتها.

وأما التعريض، وهو الذي يحتمل

فيه، فعليهم في مقابلة ذلك المتعة، فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارعه ورحمته!! ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون!!، فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر.

ثم ذكر حكم المفروض لهن، فقال:

﴿٢٣٧﴾ ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يُعْفُوهُنَّ أَوْ يُعْفُوا الَّذِي يَبْدُوهُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه.

هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومساحة، بأن يعفو عن نصفها لزوجها، إذا كان يصح عفوها، ﴿أو يعفو الذي يبدو عاقدة النكاح﴾ وهو الزوج على الصحيح^(١)، لأنه الذي يبدو حل عقدته؛ ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة، لكونه غير مالك ولا وكيل.

ثم رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحصاءاً موجباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يحمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق والغض بما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله يجاز المحسنين بالفضل

(١) جاء في هامش ما نصه: (هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي يبدو عاقدة النكاح هو الولي الأقرب، وهو الأب، هو الأصح لمساعدة اللفظ له والمعنى كما هو ظاهر للمتدبر).

وفي هامش ب زيادة بخط المؤلف هي: (وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة).

والكرم، ولهذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثم قال تعالى :

﴿٢٤٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَتوفُونَ مِنْكُمْ

وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا

إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ

مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي :

الأزواج الذين يموتون ويتركون

خلفهم أزواجاً فعليهم أن يوصوا

﴿وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير

إخراج﴾ أي : يوصون أن يلزم من بيوتهم

مدة سنة لا يخرج منها ﴿فإن خرجن﴾

من أنفسهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها

الأولياء ﴿فيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ

مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي : من

مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك

وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة

بما قبلها وهي قوله : ﴿وَالَّذِينَ يَتوفُونَ

مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وقيل لم تنسخها

بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر

وعشر واجبة، وما زاد على ذلك فهي

مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق

الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على

أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح

عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل

الحول، فلو كان لزوم المسكن واجباً لم

ينف الخرج عنهم.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ

مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

كذلك بين الله لكم آياته لعلكم

تعقلون﴾ أي : لكل مطلقة متاع

بالمعروف حقاً على كل متق، جبراً

لخاظرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه

المتعة واجبة على من طلقت قبل

المنيس، والفرس سنة في حق غيرها

كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها،

وقيل إن المتعة واجبة على كل مطلقة

احتجاجاً بعموم هذه الآية، ولكن

القاعدة أن المطلق محمول على المقيد،

وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل

الفرس والمنيس خاصة، ولما بين تعالى

هذه الأحكام العظيمة المشتملة على

﴿٢٣٨-٢٣٩﴾ ﴿حَافِظُوا عَلَى

الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ

قَانِتِينَ﴾ فإن خفتكم فرجالاً أو ركبانا

فإذا أمتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم

تكونوا تعلمون﴾ يأمر بالمحافظة على

الصلوات عموماً وعلى الصلاة

الوسطى، وهي العصر خصوصاً،

والمحافظة عليها أداؤها بوقتها

وشروطها وأركانها وخشوعها وجميع

ما لها من واجب ومستحب،

وبالمحافظة على الصلوات تحصل

المحافظة على سائر العبادات، وتفيد

النهي عن الفحشاء والمنكر خصوصاً إذا

أكملها كما أمر بقوله : ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ

قَانِتِينَ﴾ أي : ذليين خاشعين، ففيه

الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن

الكلام، والأمر بالحشوع، هذا مع

الأمين والطمأنينة ﴿فإن خفتكم﴾^(١) لم

يذكر ما يخاف منه ليشمل الخوف من

كافر وظالم وسبع، وغير ذلك من أنواع

المخاوف، أي : إن خفتكم بصلاتكم على

تلك الصفة فصلوها ﴿رجالاً﴾ أي :

على أقدامكم، ﴿أو ركبانا﴾ على الخيل

والإبل وغيرها، ويلزم على ذلك أن

يكونوا مستقبل القبلة وغير مستقبلها،

وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على

وقتها حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال

بكثير من الأركان والشروط، وأنه

لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه

الحالة الشديدة، فصلاها على تلك

الصورة أحسن وأفضل بل أوجب من

صلاها مطمئناً خارج الوقت ﴿فإذا

أسنتم﴾ أي : زال الخوف عنكم

﴿فاذكروا الله﴾ وهذا يشمل جميع أنواع

الذكر ومنه الصلاة على كمالها وتمامها

﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾

فإنها نعمة عظيمة ومنة جسيمة،

تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر ليعني

نعمته عليكم ويزيدكم عليها، ثم قال

وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال : ﴿كذلك بين الله لكم آياته﴾ أي : حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها، ثم قال تعالى :

﴿٢٤٣-٢٤٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرِ

الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ

إِنَّ اللَّهَ لِلذِّكْرِ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ

النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ وقاتلوا في

سبيل الله واعلموا أن الله سميع

عليم﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضاً

حسنًا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله

يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ يقص

تعالى علينا قصة الذين خرجوا من

ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم،

بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من

وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج

السلامة من الموت، ولكن لا يغني

حذر عن قدر، ﴿فقال الله لهم موتوا﴾

فماتوا ﴿ثم﴾ إن الله تعالى ﴿أحياهم﴾

إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم

ولطفاً وحلماً، وبياناً لآياته خلّقه

بأحياء الموتى، ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) من هنا بدأ الاختلاف بين النسخين، وقد أشرت إليه في المقدمة بشيء من التفصيل وقد أثبت التفسير المأخوذ من النسخة ب في



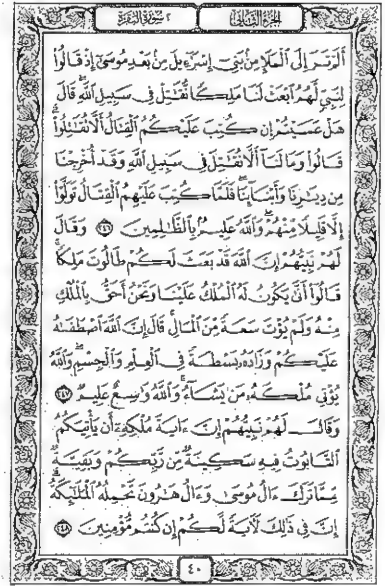
لذو فضل ﴿أي: عظيم﴾ على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿فلا تزيدهم النعمة شكراً، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقيل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي: فأحسنوا نياتكم واقتصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئاً، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت وخروجهم، بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصاً في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى، ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾. الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المتفق ونيته ونفع نفقته والحاجة

اليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذه الوهم بقوله: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عن من يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فلماذا قال ﴿وليه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي تتركها أوامر الله. وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى أعياناً في هذه الدار. وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحاجة إليه، من تسميته قرضاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

﴿٢٤٦-٢٤٨﴾ ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم وبقيّة مما ترك آك موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ يقص تعالى على نبيه قصة الملا من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملا بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام

فقالوا له ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ أي: عين لنا ملكاً ﴿نقاتل في سبيل الله﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلمهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من بينهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة قال لهم نبيهم ﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ أي: لعلمكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتندوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألحنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذرائعنا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقو توكيدهم على ربهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ فجنبوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، وأستول على أكثرهم الخور والجبن ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فجازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلماذا قال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم ﴿مجيئاً لطلبته﴾ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فكان هذا تعييناً من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي: كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه. ومع هذا فهو



وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجعوا إليهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن الحق كلما عورض وأوردت عليه شبه ازداد وضوحاً وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب. ومنها: أن العلم والرأي: مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، ويفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها. ومنها: أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم «وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا» فكانه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: «ولما برزوا للجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين» فهزمهم بإذن الله. ومنها: أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز. ومنها: أن من رحمة وسنة الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعاثه عليها، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٣﴾ «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ

شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد» يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيجائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحفيدة والأفعال السنيذة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كعيسى الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين «وأتينا عيسى ابن مريم البينات» الدالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه «وأيّدناه بروح القدس» أي: بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل أيده بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله «ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات» ولكن اختلفوا فممنهم من آمن ومنهم من كفر فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال «ولكن الله يفعل ما يريد» فإذا تهيأت مشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية. فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل

لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك فلهذا قال تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه «ولكن الله ذو فضل على العالمين» حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكتنهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها، ثم قال تعالى «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق» أي: بالصدق الذي لا ريب فيها التضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور «وإنك لمن المرسلين» فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفة والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقاً ونبيه صادقاً الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتيمان وعيوب مزربية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحية، فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجملة كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٥﴾ وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ عِبَادَهُ أَنْ أَمْرَهُمْ بِتَقْدِيمِ شَيْءٍ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ، مِنْ صَدَقَةٍ وَاجِبَةٍ وَمُسْتَحَبَةٍ، لِيَكُونَ لَهُمْ ذَخْرًا وَأَجْرًا مَوْفَرًا فِي يَوْمٍ يَحْتَاج فِيهِ الْعَامِلُونَ إِلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ، فَلَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَوْ افْتَدَى الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَيَفْتَدِي بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبِلُ مِنْهُ، وَلَمْ يَنْفَعِهِ خَلِيلٌ وَلَا صَدِيقٌ لَا بَوَاجَهَةَ وَلَا شَفَاعَةَ، وَهُوَ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ يُنْصَرُّ الْمُبْطِلُونَ وَيُحْصَلُ الْخِزْيُ عَلَى الظَّالِمِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَتَرَكُوا الْوَاجِبَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ وَتَعَدُّوا الْحَلَالَ إِلَى الْإِحْرَامِ، وَأَعْظَمَ أَنْوَاعَ الظُّلْمِ الظُّلْمُ بِاللَّهِ الَّذِي هُوَ وَضَعَ الْعِبَادَةَ الَّتِي يَتَعَيَّنُ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ فَيَصْرِفُهَا الْكَافِرُ إِلَى خَلْقٍ مِثْلِهِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى:

﴿٢٥٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٦﴾ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَعْظَمُ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجْلَاهَا، وَذَلِكَ لِمَا اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وزدا للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربِّه، ممثلاً لأوامره مجتنباً لنواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستمرة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدر، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله بما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسنة النعاس ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدبر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض فلهذا قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه،

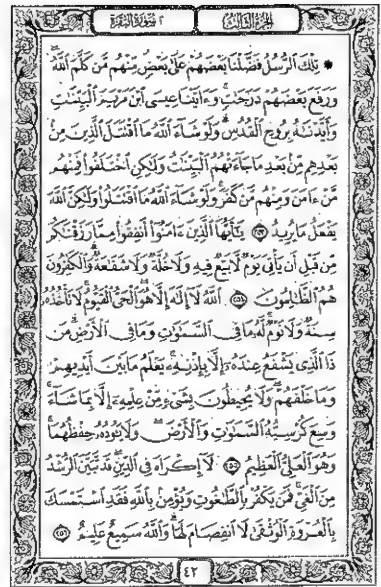
فالشفاة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أو أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدىء الشافع قبل الإذن، ثم قال ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا يدل على كمال عظمتهم وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتها وعظمته من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ أي: يثقله ﴿حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي تتضائل عند عظمتهم جيوت الجبابرة، وتضغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفرداتها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات الغلابة، ثم قال تعالى:

وخص منه الأحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحاج: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإتاما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصاً فيكون قد أماته، ويستحيي شخصاً فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلاً عن كونه حجة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾ أي: عياناً يقربه كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿فأت بها من المغرب﴾ وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقاً في دعواه، فلما قال له أمراً لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحاً يقدر في سبيله ﴿بهت الذي كفر﴾ أي: تحير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبتل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بل يبيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، ولا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدلت بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهراً متصرفاً فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على

منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبعون عنه بدلاً ولا يشركون به أحداً، قد اتخذوه حبيباً وولياً، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومنّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله ولياً والوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤذونهم إلى المعاصي أژاً، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الخسرة، فلهمذا قال تعالى: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

﴿٢٥٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بقول تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ أي: إلى جرائته وتحامله وعناده ومجافته فيما لا يقبل التشكيك، وما حله على ذلك إلا ﴿أن آتاه الله الملك﴾ فطغى وبغى ورأى نفسه متزئناً على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بأنواع التصرف،

﴿٢٥٦-٢٥٧﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبين أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالوفق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سبيء القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس له حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المخاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان التمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي ﴿لا انفصام لها﴾ وأما من عكس القضية فكفر بالله وأمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل ماله إلى الجحيم ﴿والله سميع عليم﴾ فيجازي كلا



قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ وهنا قال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاهما إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كمثل حبة أثبتت سبع سنابل في كل سنبلة منه حبة﴾ وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتستقام النفس مدعنة للإنفاق ساعية بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجلية، ﴿والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء﴾ أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال التقوى وحلها ونفعها ووقوعها في موقعها، ويحتمل أن يكون ﴿والله يضاعف﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿من يشاء﴾ فيعطيهم أجرهم بغير حساب ﴿والله واسع﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاطمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو ﴿عليم﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته. ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم

أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه ويطلب منه مقابلته، ولا أذية له قولية أو فعلية، فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندمع عنهم الشر لأنهم عملوا عملاً خالصاً لله سالماً من المفسدات ﴿قول معروف﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿ومغفرة﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضاً بترك المؤاخذه، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسداً لها محرماً، لأن المنه الله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمن بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضاً فإن المان مستعبد لمن يمن عليه، والدل والاستبعاد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، ﴿والله غني﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿حليم﴾ على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرف لهم الآيات لعلهم يرجعون إليه ويتوبوا إليه، فإذا علم

تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيدهم المثالات أنزل بهم عقابه وحرهم جزيل ثوابه.

﴿٢٦٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلهم كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ينهى عباده تعالى لطفاً بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى وفيه أن المن والأذى يبطل السيئة تبطل الأعمال على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ولا تجهروا به بالقول فتهزون على أصصكم وجملثكم﴾ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابليها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضيع العمل سدى، وقوله: ﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنه والأذى مبطلان لأعمالكم، فقصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمראה الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وجميعه غير مشكور، فمثلهم المطابق لحاله ﴿كمثل صفوان﴾ وهو الحجر الأملس الشديد عليه تراب فأصابه وابل ﴿أي: مطر غزير﴾ فتركه صلداً ﴿أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وضدته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رأى الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح

لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الزبالة الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهاذا ﴿لَا يقدرون على شيء﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لخلق مثلهم، لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً وأنصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهاذا قال: ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

﴿٢٦٥﴾ ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير﴾ هذا مثل المنفقين أموالهم على وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله﴾ أي: قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقربيه ﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرجة له النفس سخيية به، لا على وجه التردد وضعف النفس في إخراجها وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان إما أن يقصد الإنسان بها عمدة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمته وتردد، فهو لا سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتاً من أنفسهم، فمثل نفقة هؤلاء ﴿كمثل جنة﴾ أي: كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، من الاجتنان وهو الستر، لستر أشجارها ما فيها، وهذه الجنة ﴿بربوة﴾ أي: محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وآخره، فثماره أكثر الثمار وأحسنها، ليست يمحل نازل عن الرياح والشمس، ف﴿أصابها﴾ أي: تلك الجنة التي بربوة ﴿وابل﴾ وهو المطر الغزير ﴿فأنت أكلها ضعفين﴾ أي: تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك، وحصول الماء الكثير الذي ينميها ويكملها ﴿فإن لم

يصبها وابل فطل﴾ أي: مطر قليل يكفيها لطيب منبتها، فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمي له ما أنفق أتم تنمية وأكملها والمنمي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها، فيالله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمة وتراحم عليه كل أحد، والحصل الاقتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتا وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع المسرات والفرجات، ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهداً في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقن العبد ذلك حق اليقين وبإشراق الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت هم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازه عليه أتم الجزاء ثم قال تعالى:

﴿٢٦٦﴾ ﴿أيودأخذكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ وهذا المثل مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالاً تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاءً وقوتاً وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها^(١) الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن

الله في الدنيا ﴿أيسرأخذكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾

العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونه له، بل هم كل عليه، ونفقتهم ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملاً لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباءً منثوراً، ووجد الله عنده فوفاه حساباً.

والله سريع الحساب فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية خسارته ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل ليكن ذلك عظيماً وخطره جسيماً، فلهاذا أمر تعالى

وَأَمَّا الْبِرُّ بِرَبِّكَ فَانْهَىٰ عَنْ الْبَلَاءِ ۚ قَالَ أَتَقْتَرُونَ
قَالَ بَلَىٰ ۖ وَهَكَذَا كَانَ فَعْلُنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأَوَّلَ مُبَدَّلِ الْأَعْيُنِ
فَصَبْرٌ عَلَيْهِ لِيَلْجَأَ فِرْعَوْنُ إِلَىٰ جُنْدِي ۖ وَأَنَّا نَمُوتُ
أَعْيُنُهُنَّ أَبْصَارُهَا خَافٌ ۖ وَأَنَّا رَبُّكَ أَتَمُّ بِهِ
مَثَلُ الَّذِينَ يَقُولُونَ آمَنُوا بِاللهِ كُلَّ حَبِثَةٍ لَّيْسَ
بِشَيْءٍ سَائِلٍ فِي كُلِّ سَأَلَةٍ فَإِنَّهُ يَخَافُ اللهُ وَيُغْنِي
لَهُمُ الْبِرَّ وَسِعَ عَلَيْهِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ آمَنُوا
فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَمُوتُونَ ۖ مَا لَكُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا
أَنَّهُمْ جندٌ بِرَبِّهِمْ وَأَخَافُ عَلَيْهِمْ ۖ وَأَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ۝
• قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى
وَأَنَّهُ يُخَيِّلُ ۝ يَتْلَاهَا الْبُرُكُ ۖ مَا مَوْزُونٌ لَا يَطْلُو
صَدَقَتِكَ الْإِنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُتَّقَىٰ تَالِيَةً
الْأَيْنِ وَلَئِنْ وَرَدَ اللهُ الْآخِرَ فَتَدْبِرُكَ سَلَامٌ عَلَيْكَ
رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِلَّا فَتَكُنْ بِسَلَامٍ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا ۖ وَاللهُ لَا يُغْنِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝

بالتفكر وحث عليه، فقال: ﴿كذلك
يبين الله لكم الآيات لعلكم
تتفكرون﴾.

﴿٢٦٧ - ٢٦٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنَمُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ الشَّيْطَانُ يُعَذِّبُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يُعَذِّبُكُم مَغْفِرَةٌ مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض فكما من عليكم بتسهيل تحصيله فانفقوا منه شكراً لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، واقتصاداً في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمساءة ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمشثوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويغفوكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحاً لكم، بل

هذا غاية الغش ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يعذكم مغفرة﴾ لذنوبكم وتطهيراً لعبوبكم ﴿وفضلاً﴾ وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانسراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيقها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه لأنه ﴿واسع﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عليم﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فينظر العبد نفسه إلى أي: الداعين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أموراً عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من الثقلين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله ﴿أخرجنا لكم﴾ فمن أخرجته له وجبت عليه ومنها: أن الأموال المدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصب ونحوها إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربحها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نصابها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدوراً عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الرديء ينهى عن إخراجه ولا يجرى في الزكاة ثم قال تعالى:

﴿٢٦٩﴾ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن شاء الله وآتاه الله

الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً وأي: خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهم! وفيه تخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية وتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم فعملوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهذا قال تعالى ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾

﴿٢٧٠﴾ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ وللظالمين من أنصار ﴿ وهذا فيه المجازاة على النفقات، واجبتها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسم، وإن لم يتفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوف ما أوجبه على نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء فى غير موضعه، واستحق

[illegible]

الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١٠﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴿١١﴾ فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله وإن يتيمم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ﴿١٢﴾ وإن كان ذو عسرة فظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١٣﴾ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿١٤﴾ يخبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مآلهم وشدة منقلبهم: أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم ﴿١٥﴾ إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴿١٦﴾ أي: يصزره الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متزقعين لعظيم النكال وعسر الوبال، فكما تقلبت عقولهم و ﴿١٧﴾ قالوا إنما البيع مثل الربا ﴿١٨﴾ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿١٩﴾ لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴿٢٠﴾ أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعفت أراؤهم، وصاروا في هيئتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم انتظامها وانسلاّب العقل الأدنى عنهم،

قال الله تعالى راداً عليهم ومبيناً حكمتهم العظيمة ﴿وأحل الله البيع﴾ أي : لما فيه من عنوم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه ، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكنسية حتى يرد ما يدل على المنع ﴿وحرم الربا﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة ، الربا نوعان : ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة ، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال ، سلم ، وربا فضل ، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً ، وكلاهما محرم بالكتاب والسنة ، والإجماع على ربا النسيئة ، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة ، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها فممن جاءه موعظة من ربه ﴿أي : وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قبضه الله لموعظته رحمة من الله بالموعوظ ، وإقامة للنخبة عليه﴾ فأنتهى عن فعله وانزجر عن تعاطيه ﴿فله منا سلف﴾ أي : ما تقدم من العناملات التي فعلها قبل أن تبليغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة ، دل مفهوم الآية أن من لم يتنه جوزي بالأول والآخر ﴿وأمره إلى الله﴾ في مجازاته وفيما يستقبل من أموره ﴿ومن عاد﴾ إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة ، بل أصر على ذلك ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله ، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك ، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه ، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار ، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحاً للخلود فيها بقطع النظر عن كفره ، ثم قال تعالى : ﴿يحق الله الربا﴾ أي : يذهب بركته ذاتاً ووصفاً ، فيكون سبباً لوقوع الألفاظ فيه ونزع البركة عنه ، وإن أنفق



الاربع والأربعون والخامس والأربعون: السادس والأربعون أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ السابع والأربعون أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تشجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: ﴿فإنه فسوق بكم﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق. الشامن والأربعون: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾. التاسع والأربعون أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس قبلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حكيم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده. وقوله تعالى:

﴿٢٨٣﴾ ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه أثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ أي: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتباً يكتب بينكم ويحصل به التوثيق ﴿فرهان مقبوضة﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثيق، ودل أيضاً على أن الزامن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهن به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن غرضاً عن الكتابة في توثيق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهن به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثيق جاز حضراً أو سفراً، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة

شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: ﴿ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا﴾ السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السأمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من أشبه وشك في شهادته لم يجوز له الإقدام عليها بل لابد من اليقين، الأربعون: قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضراً يحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضاً بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للمفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وهذان هما

المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، التاسع والعشرون أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المراتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم. الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿فاشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ والعبد البالغ من رجالنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكراً كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المراتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فتذكر إحداها﴾ الأخرى الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان

إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه، فما كان صاحب الحق آمناً من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعل من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وليتق الله ربه﴾ في أداء الحق ويحازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿ولا تكتموا الشهادة﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتمتها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخير الصدق ويغير بضده وهو الكذب، ويرتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يكتمها فإنه أثم قلبه﴾ والله بما تعملون عليم. وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دينهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والنزاعات، وانتظام أمر المعاش، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصى ثناء عليه.

﴿٢٨٤﴾ ﴿الله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ هذا إخبار من الله أنه لا ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكأنوا ملكاً له وعبيداً، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وهو بهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسبححاسبهم على ما أسروه وأعلنوه، ﴿فيغفر لمن يشاء﴾ وهو لمن أتى بأسباب الغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيئته وتقديره وجزائه.

﴿٢٨٥﴾ ﴿أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتزييه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع حيلة وتفصيلاً، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله ﴿وقالوا سمعنا﴾ ما أمرتنا به ونهيتنا ﴿وأطعنا﴾ لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا ﴿غفرانك﴾ أي: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من العيوب ﴿وإليك المصير﴾ أي: المرجع لجميع الخلائق فتجزئهم بما عملوا من خير وشر.

﴿٢٨٦﴾ ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ لما نزل قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها

• وإن كسرت على سفر ولا تجدوا كتاباً فإين منبوبة
 فإن آمن بعضكم ببعض فالقول الذي أوتيت أمتهم وسبق
 الله رسوله ولا تكلموا بالشهادة من يكتمها فإنه
 لآثم قلبه والله بما تعملون عليم
 أنتنوب وتاتي الأوتين وإن شيدوا ما في أنفسكم
 أوتيتهم بما يسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب
 من يشاء والله على كل شيء قدير
 يا أيها الذين آمنوا ولا تؤاخذوا بما كنتم تكلمون
 وكنتنوب ورسله لا تقربون أحد من رسله وقالوا
 سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير
 لا تكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها
 ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا
 ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا
 ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا
 وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين

مؤاخذون به، فأخبرهم هذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي: أمراً تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالى ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحماية عن الضرر، فالحق تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغیره، وفي الإتيان بـ «كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بـ «اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمل به ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين، معه وأن كل عامل سيجازى بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطبق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ

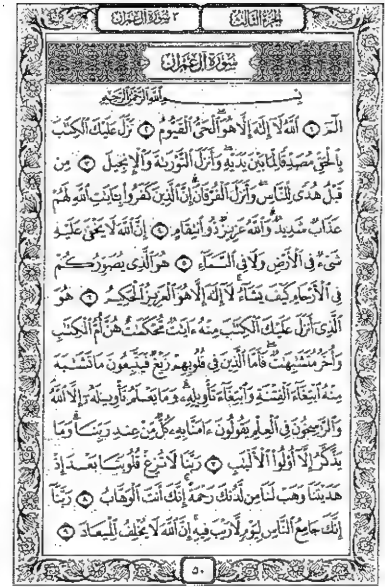
فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح، ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته بهم أن نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب، وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه «مصدقاً لما بين يديه» من الكتب السابقة، فهو المزي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعالى «وأنزل القرآن» هدى للناس، الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله «وأنزل الفرقان» أي: الحجج والبينات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جلية ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلها قال «إن الذين كفروا بآيات الله» أي: بعد ما بينها ووضحها وأزاح العليل «لهم عذاب شديد» لا يُقَدَّر قدره ولا يدرك وصفه «والله عزيز» أي: قوي لا يعجزه شيء «ذو انتقام» عن عصاه «إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جلية وخفية، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدينها بالطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، فلها قال

ربنا ومليكنا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فتعمك دارة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاموا أهل دينك ونبدوا أمرك، فأنصرنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتغذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة التصاري وإبطال مذهبيهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

﴿١ - ٦﴾ «يسم الله الرحمن الرحيم ألم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم * افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بالروحية، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التأمل والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المشتملة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام «القيوم» الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره



أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا». والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فتركه نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغصوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه معفو عنه، وكذلك لا يبحث من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفساً أو مالا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. «ربنا ولا تحمل علينا إصرار» أي: تكاليف مشقة «كما حملته على الذين من قبلنا» وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها «ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به» وقد فعل وله الحمد «واعف عنا وأغفر لنا وارحمنا» فالعفو والغفرة يحصل بهما دفع المكروه والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور «أنت مولانا» أي:

﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقبيح، وذكر وأنثى ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيوميته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

﴿٧-٩﴾ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أماناه كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ * ربنا لا نزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب * ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ فهو مشتمل على غاية الإتقان والإحكام والغدل والإحسان ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله ﴿منه آيات محكمات﴾ أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هن أم الكتاب﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، ﴿و﴾ منه آيات ﴿آخر متشابهات﴾ أي:

يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالخاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد التشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قسدهم الغنى والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المتشابه ﴿ابتغاء الفتنة﴾ لمن يدعونهم لقولهم، فإن المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله ﴿وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله﴾ للمفسرين في الوقوف على ﴿الله﴾ من قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿والراسخون في العلم﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إلا الله﴾ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للتأويل عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله ﴿الرحمن على العرش﴾ [استوى] (١) فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم،

والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيةها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيةها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيةها، فيجب علينا الوقوف على ما حدثنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشبهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكملون المعنى إلى الله فيؤمنون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الراسخون﴾ على ﴿الله﴾ فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون ﴿كل﴾ من المحكم والمتشابه ﴿من عند ربنا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض (٢): وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم يحمل المتشابه، علموا يقيناً أنه مزدود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع المتشابه قال ﴿وما يذكر﴾ أي: يتعظ بمواعظ الله ويقل نصحه وتعليمه إلا ﴿أولوا الأبواب﴾ أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تخته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

(١) سقطت كلمة استوى من الأصل وأضفتها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفي تنبيه على الأصل الكبير وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم يحمل المتشابه علموا يقيناً أنه مزدود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يبين لي محلها إلا أن الأقرب أنها هنا.

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون ﴿ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي: لا تملأها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافنا عما^(١) ابتليت به الزائغين ﴿وهب لنا من ليلتك رحمة﴾ أي: عظيمة توقفنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جنودك جميع البريات.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنك لا تخلف الميعاد﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه وردّ لتشابهه إلى محكمه، بقوله ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمة المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

﴿١٠ - ١٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ كذاب

أَلْ فَرَعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا

بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب * قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد * قد كان لكم آية في فتنتين التقاتلة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يروهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار * يخبر تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ فيوم القيامة يندو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿ويدأ لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال وأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظملاً والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود

والنصارى، وسيفعل هذا تعالى لعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبئس المهاد مهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم، ﴿قد كان لكم آية﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿في فتنتين التقاتل﴾ وهذا يوم بدر ﴿فتة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وأخرى كافرة﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورتاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلهذا قال ﴿يروهم مثليهم رأي العين﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله ﴿رأي العين﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزمهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطلّة، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والمعد لحزم بأن غلبة هذه الفتة القليلة لتلك الفتة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفائته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

﴿١٤ - ١٧﴾ ﴿زَيْنَ لِّلنَّاسِ حَبِ الشَّهَوَاتِ مِنَ النَّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ قل أولئك من ذلكم للذين اتقوا

(١) في الأصل: ممن، ولعل الثواب ما أثبت.



المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبحر، ففيه دليل على أن من لم يضل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهادته تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تركيبتهم وتعديليهم، وأنهم أمتاء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال: ﴿قَاتِلُوا

بالبسطة﴾ أي: لم يزل متصفاً بالبسطة في أفعاله وتدبيره بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة العقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فأما الأدلة العقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقديره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة العقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصورة للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره أفراداً بالنعم ودفع النعم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي يتفرد بدفعها وإن أحداً من الخلق لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، يتقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جداً، ومن الأدلة العقلية أيضاً على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفيعاً ولا ضرراً، ولا تنصر غيرهما ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئاً، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة

من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المذنبات الناقصات الضم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لعلية يعتبر بها المعتبرون فيعملون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحیی من حي عن بيته، ويهلك من هلك عن بيته فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحث عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغياً بينهم، وظلماً وعدواناً من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم الشنب الأكبر الموجب أن يتبعوا

الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلهذا قال تعالى ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصاً من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند حاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام، عليه أن يقول لهم: قد أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴿أي: أنا ومن اتبعني قد أقررتنا وشهدتنا وأسلمنا وجوهنا لرنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزينا بيطلانه، ففي هذا تأسيس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله اسشهد على توحيد به أهل العلم من عياده ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلتها الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانتهى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة، فلهذا قال ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ من النصارى واليهود ﴿والأمة﴾ مشركي العرب وغيرهم ﴿أسلمتم فإن أسلموا﴾ أي: بمثل ما أمنتكم به ﴿فقد اهتدوا﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وإن تولوا﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلهذا قال ﴿والله بصير بالعباد﴾

﴿٢١-٢٢﴾ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق

ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبست أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوحيدهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنائيات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله ما أجزأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

﴿٢٣-٢٥﴾ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقرم الناس به وأسرعهم انقياداً لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعالهم، فيصينا



من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرتهم على معاصي الله هو قولهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ افتروا هذا القول فظنوه حقيقة فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم منتهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وإفراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلهذا قال تعالى ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي: كيف يكون حالهم وخيم ما يقدّمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما كسبت وجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

﴿٢٦-٢٧﴾ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج



وأعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة لمديره لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

﴿٢٨ - ٣٠﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير * قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير * يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد * وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة الكافرين بالحببة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد على ذلك فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالاة الله وموالاة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ فمن وإلى - الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور الله ويفتوا أوليائه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصدقتهم، والميل إليهم

واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وعذ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ الآية وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وتعز من تشاء﴾ بطاعتك ﴿وتذل من تشاء﴾ ببعصيتك ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتكم وقدرتكم ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضيء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته وزحمته ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا

الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يقول الله لنبيه ﷺ: قل اللهم مالك الملك، أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصرف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد البارئ تعالى بها، فقال: ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سيزرع الملك من الأكاسرة والقيصرة ومن تبعهم ويؤتبه أمة محمد، وقد فعل الله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب مستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج»: وأما قوله: ﴿إلا أن تقوا منهم تقاة﴾ قال مجاهد: لا مصانعة، والتقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في «الصحیح» عن النبي ﷺ: «من رأى منكراً منكراً» الخ، فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه، ولا يقتل، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وتكتمان الدين شيء، وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبيحه الله إلا لمن أكرهه الخ.

يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

﴿٣٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ بِأَعْمِ الْأَوَامِرَ، وَهُوَ طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ الَّتِي يَدْخُلُ بِهَا الْإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ، وَمَا هُوَ مِنْ فُرُوعِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، بَلْ يَدْخُلُ فِي طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ اجْتِنَابُ مَا هُوَ عَنْهُ، لِأَنَّ اجْتِنَابَهُ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ هُوَ مِنْ طَاعَتِهِ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي: أَعْرَضُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَلَيْسَ ثُمَّ أَمْرٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ إِلَّا الْكُفْرَ وَطَاعَةَ كُلِّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ بَلْ يَبْغِضُهُمْ وَيُبْغِضُهُمْ وَيَعْقِبُهُمْ أَشَدَّ الْعَقُوبَةِ، وَكَانَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَيَانًا وَتَفْسِيرًا لِاتِّبَاعِ رَسُولِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، هَذَا هُوَ الْإِتِّبَاعُ الْحَقِيقِيُّ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿٣٤﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ إِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أَخَافُكَ وَأَنِصُّكَ عَنِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٧﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ يَخْرُجُ تَعَالَى بِاخْتِيَارٍ مِنْ اخْتِيَارِهِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ وَأَحِبَّائِهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ اصْطَفَى آدَمَ، أَي: اخْتَارَهُ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَخَلَقَهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْعِلْمِ

اللَّهُ ﴿يَوْمَئِذٍ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٣٩﴾ يَا وَلِيَّتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٤٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٤١﴾ فَوَاللَّهِ لَتَرَكُ كُلَّ شَهْوَةٍ وَلَذَّةٍ وَإِنْ عَسَرَ تَرْكُهَا عَلَى النَّفْسِ فِي هَذِهِ الدَّارِ أَيْسَرَ مِنْ مَعَانَاةِ تِلْكَ الشَّدَائِدِ وَاحْتِمَالِ تِلْكَ الْقَضَائِحِ، وَلَكِنَّ الْعَبْدَ مِنْ ظِلْمِهِ وَجْهَلِهِ لَا يَنْظُرُ إِلَّا الْأَمْرَ الْحَاضِرَ، فَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ كَامِلٌ يَلْحَظُ بِهِ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَقْدِمُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ عَاجِلًا وَأَجَلًا، وَيَحْجُمُ عَنْ مَا يَضُرُّهُ عَاجِلًا وَأَجَلًا، ثُمَّ أَعَادَ تَعَالَى تَحْذِيرَنَا نَفْسَهُ رَافِقَةً بِنَا وَزَحْمَةً لَثَلًا يَطُولُ عَلَيْنَا الْأَمَدُ فَتَقْسُو قُلُوبُنَا، وَلِيَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ التَّرْغِيبِ الْمَوْجِبِ لِلرَّجَاءِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّرْهيبِ الْمَوْجِبِ لِلْخَوْفِ وَتَرْكِ الذُّنُوبِ، فَقَالَ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فَنَسَأَلُهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْحَذَرِ مِنْهُ عَلَى الدَّوَامِ، حَتَّى لَا نَفْعَلَ مَا يَسْخَطُهُ وَيَبْغِضُهُ.

﴿٣١﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا وَجُوبُ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَعِلَامَاتُهَا، وَنَتِيجَتُهَا، وَثَمَرَاتُهَا، فَقَالَ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أَي: ادْعَيْتُمْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ الْعَالِيَةَ، وَالرَّتَبَةَ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا رَتَبَةٌ فَلَا يَكْفِي فِيهَا مَجْرَدُ الدَّعْوَى، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الصَّدَقِ فِيهَا، وَعِلَامَةِ الصَّدَقِ اتِّبَاعُ رَسُولِهِ ﷺ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فِي أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فَمَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ دَلَّ عَلَى صَدَقِ دَعْوَاهُ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَحَبَّهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ ذَنْبَهُ، وَرَحِمَهُ وَسَدَّدَهُ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَتَاتِهِ، وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ فَلَيْسَ مُحِبًّا لِلَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ مَحَبَّتَهُ لِلَّهِ تَوَجَّبَ لَهُ اتِّبَاعُ رَسُولِهِ، فَمَا لَوْ يَوْجَدُ ذَلِكَ ذَلَّ عَلَى عَدَمِهَا وَأَنَّهُ كَاذِبٌ إِنْ ادَّعَاهَا، مَعَ أَنَّهَا عَلَى تَقْدِيرِ وَجُودِهَا غَيْرُ نَافِعَةٍ بَدُونَ شَرْطِهَا، وَبِهَذِهِ الْآيَةِ يُوزَنُ جَمِيعُ الْخَلْقِ، فَعَلَى حَسَبِ حَظِّهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ

وَالرُّكُونِ إِلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُولَى كَافِرٌ وَلَا يَآئِلٌ مِنَ الْوَلَايَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَسْتَعَانُ بِهِ عَلَى الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ مَصَالِحُ لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (١) أَي: تَخَافُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا مَا تَعْصُمُونَ بِهِ دِمَاءَكُمْ مِنَ التَّقِيَةِ بِاللِّسَانِ وَإِظْهَارِ مَا بِهِ تَحْصُلُ التَّقِيَةُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أَي: فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِمَا يَسْخَطُهُ بِارْتِكَابِ مَعَاصِيهِ فَيُعَاقِبْكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي: مَرْجِعُ الْعِبَادِ لِيَوْمِ التَّنَادِ، فَيَحْصِي أَعْمَالَهُمْ وَيَحْاسِبُهُمْ عَلَيْهَا وَيَجَازِيهِمْ، فَيَأْيَاكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الْقِيَاحَ مَا تَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْعُقُوبَةَ، وَاعْمَلُوا مَا بِهِ يَحْصُلُ الْأَجْرُ وَالْمَثُوبَةُ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ سَعَةِ عِلْمِهِ لَمَّا فِي النَّفُوسِ خُصُوصًا، وَلَمَّا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عُمُومًا، وَعَنْ كِمَالِ قُدْرَتِهِ، فَفِيهِ إِرْشَادٌ إِلَى تَطْهِيرِ الْقُلُوبِ وَاسْتِحْضَارِ عِلْمِ اللَّهِ كُلِّ وَقْتٍ فَيَسْتَحْيِي الْعَبْدَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَرَى قَلْبَهُ مَحَلًّا لِكُلِّ فِكْرٍ رَدِيٍّ، بَلْ يَشْغُلُ أَفْكَارَهُ فِيمَا يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ تَدْبِيرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، أَوْ سُنَّةٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ، أَوْ تَصَوُّرٍ وَبَحْثٍ فِي عِلْمٍ يَنْفَعُهُ، أَوْ تَفَكُّرٍ فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَنِعَمِهِ، أَوْ نَصِيحٍ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَفِي ضَمَنِ أَخْبَارِ اللَّهِ عَنْ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ الْإِخْبَارُ بِمَا هُوَ لَازِمٌ ذَلِكَ مِنَ الْمَجَازَاةِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَمَحَلُّ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهُوَ الَّذِي تَوَقَّى بِهِ النَّفُوسُ بِأَعْمَالِهَا فَلِهَذَا قَالَ ﴿يَوْمَ يُحْجَدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ أَي: كَامِلًا مَوْفَرًا لَمْ يَنْقُصْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَالْخَيْرُ: اسْمُ جَامِعٍ لِكُلِّ مَا يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، كَمَا أَنَّ السُّوءَ اسْمُ جَامِعٍ لِكُلِّ مَا يَسْخَطُ اللَّهَ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدَّلُونَ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أَي: مَسَافَةً بَعِيدَةً، لِعَظَمِ اسْفَهَائِهَا وَشِدَّةِ خَرَابِهَا، فَلْيَحْذَرِ الْعَبْدُ مِنْ أَعْمَالِ السُّوءِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ يَحْزَنَ عَلَيْهَا أَشَدَّ الْحَزَنِ، وَلْيَتَرَكْهَا وَقْتُ الْإِمْكَانِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ﴿يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ

والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾.

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووقفه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتياؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيقات، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم.

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلهم قال تعالى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿ومن آبائهم وإخوانهم وذرياتهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط

مستقيم﴾ ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذه ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً، ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن تحبهم ونقتدي بهم، ونسال الله أن يوفقنا لما نفهم، وأن لا نزال نترى (٣) أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتثوية بشرفهم، قلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملة، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكّركم مخلدة ومناقبهم مؤيدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أي: والددة مريم لما حملت ﴿رب إنى نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل المبارك ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى﴾ كأنها تشوفت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقعاً، ففي كلامها [نوع] (٣) عذر من ربه، فقال الله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم﴾ فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للام تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ دعت لها ولذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم

﴿فتقبلها ربهما بقبول حسن﴾ أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ أي: نبتت نباتاً حسناً في بدنهما وخلقها وأخلاقها، لأن الله تعالى قبض لها زكريا عليه السلام ﴿وكفلها﴾ إياه، وهذا من رفقه بها ليزيها على أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربهما وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربهما ولزمت محرابها أي: مصلاها فكان كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴿أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا﴾ ﴿أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾ فضلاً وإحساناً ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي: من غير حساب من العبد ولا كسب، قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد توارث الأخبار بذلك، خلافاً لمن نفى ذلك، فلما رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاه بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلهم قال تعالى:

﴿٣٨-٤١﴾ ﴿هاتيك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصداقاً بكلمة من الله وسيداً وحصواً ونبياً من الصالحين ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا زمراً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له

(٣) الكلمة غير راضحة في الأصل ويبدو

والله أعلم - أنها كما أثبت.

(١) في الأصل: ومن.

(٢) في الأصل: نزيدي.

دعاه، وبينما هو قائم في غرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أَنْ اللهُ يبشرك ببعثي مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وسيداً﴾ أي: يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيداً يرجع إليه في الأمور ﴿وحضوراً﴾ أي: ممنوعاً من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغلاً بخدمة ربه وطاعته ﴿ونبياً من الصالحين﴾ أي: بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبياً من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى عاقر﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمع، فأخبره الله تعالى أن هذا جازق للعادة، فقال: ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجد من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجلاً لهذا الأمن، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رب اجعل لي آية﴾ أي: علامة على وجود الولد قال ﴿آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ أي: ينحس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجبية، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجد بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي: أول النهار وآخره.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا

مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يا مريم اقتني

الراكعين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ ينوه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت ﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾ أي: اختارك ﴿وطهرك﴾ من الآفات المنقصة ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقاً، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلماذا قالت لها الملائكة: ﴿يا مريم اقتني لربك﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم، ما أمرت به شكر الله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي يقضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم﴾ أي: عندهم ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقتربوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأبهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالته، فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم، فلما أخبرتهم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنتك رسول الله حقاً، فوجب عليهم الانقياد لك وامثال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآيات.

هَذَا مَعَاذَ كَرَامَةِ رَبِّكَ لَوْ كُنْتَ تُدْرِكُ لَيْسَةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَكُنَّ فَكُلُّهُنَّ لِيَّ يُعَذِّبُهُنَّ وَيَغْفِرَ لِيَّ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ لِّعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٤٦﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُبَدِّلُ كَلِمَتَكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا الْمَلَائِكَةُ قَالَتْ إِنَّكِ الْمَكْتُوبَةُ ﴿٤٨﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُبَدِّلُ كَلِمَتَكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا الْمَلَائِكَةُ قَالَتْ إِنَّكِ الْمَكْتُوبَةُ ﴿٥٠﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُبَدِّلُ كَلِمَتَكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا الْمَلَائِكَةُ قَالَتْ إِنَّكِ الْمَكْتُوبَةُ ﴿٥٢﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُبَدِّلُ كَلِمَتَكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٣﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا الْمَلَائِكَةُ قَالَتْ إِنَّكِ الْمَكْتُوبَةُ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُبَدِّلُ كَلِمَتَكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٥﴾

﴿٤٥ - ٥٨﴾ ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا

مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ وبكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنشئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين * ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم



فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفى لهم أجورهم والله لا يحب الظالمين * ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانياً نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله * وجيهاً في الدنيا والآخرة * أي: له الوجهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأنبياء، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيهاً عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربهم، بل هو عليه السلام من سادات المقربين * ويكلم الناس في المهدي كهلاً * وهذا غير

التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربهم، وفي تكليمهم في المهدي آية عظيمة من آيات الله تنتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به * ومن الصالحين * أي: يمين عليه بالصلاح، من مؤمن عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر * والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى: * قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراد: كن فيكون، فمن يقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب، ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال * ويعلمه الكتاب * فمحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصاً لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم الفأظه ومعانيه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله * ويعلمه الكتاب * أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال * اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم

والمراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر له كملاً آخر وفضلاً زائداً على ما أعطاه الله من الفضائل، فقال * ورسولاً إلى بني إسرائيل * فأرسله الله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوه إلى الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبية صدقاً ولهذا قال * أنى قد جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين طيراً، أي: أصوره على شكل الطير * فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله * أي: طيراه روح تطير بإذن الله * وأبرأ الأكمه * وهو الذي يولد أعمى * والأبرص * بإذن الله * وأحبي الموتى بإذن الله وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك آية أعظم من جعل الجماد حيواناً، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان * ومصدقاً لما بين يدي من التوراة * أي: أتيت بنجس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تحالف ولا تناقض، بخلاف من ادعى دعوى كاذبة، خصوصاً أعظم الدعوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبه وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية بعباده، إذ لا يشبه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبداً، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه

يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصياد فيهما من أكمل الخلق، والكاذب فيهما من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال **﴿وَلَا أَهْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾** فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمماً لها ومقررراً **﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة لله **﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾** استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مدبر مخلوق، كما قال **﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾** وقال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ إِلَى قَوْلِهِ﴾** ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم **﴿وَقَوْلِهِ﴾** هذا أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله **﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾** موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، **﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾** أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبین، وهموا بقتله وسعوا في ذلك **﴿قَالَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾** من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله **﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ﴾** وهم

الأنصار **﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾** أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: **﴿أَمَّا بِاللَّهِ﴾** **﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾** أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه أمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقترنت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلهذا قال تعالى هنا **﴿وَمَكْرُوهَ﴾** أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره **﴿وَمَكْرُ اللَّهِ﴾** بهم جزاء لهم على مكْرهم **﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** رد الله كيدهم في نحورهم، فاقبلوا خاسرين **﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾** ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا **﴿فَرَفَعَهُ اللَّهُ﴾** ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالآثم العظيم ينتهم أنه رسول الله، قال الله **﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾** ولكن شبه لهم **﴿وَفِي هَذِهِ آيَةٌ لِلَّذِينَ عَلَى أَعْلَى الشَّجَرِ﴾** واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى **﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى **﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾** ثم قال تعالى: **﴿وَجَاعَلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** وتقديم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع

عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً **﴿فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ هُمُ الْمُتَّبِعِينَ﴾** لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول **﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾** أي: مصير الخلق كلها **﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾** فيما كنتم فيه تختلفون **﴿كُلٌّ يَدْعِي أَنْ الْحَقَّ مَعَهُ وَأَنَّهُ الْمَصِيبُ وَغَيْرُهُ مَخْطِئٌ﴾**، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أي: بالله وآياته ورسله **﴿فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾** أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار **﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾** ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** بالله وملائكته وكتبه ورسوله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشريعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين **﴿فِيُوفِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾** دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطى منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه **﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** بل يبغضهم ويحل عليهم سيخطه وعذابه **﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾** وهذا منة عظيمة على رسوله

الوفاء والخيانة في الأموال، لما ذكر
خيانته في الدين ومكرهم وكنتمهم
الحق، فأخبر أن منهم الخائن والأمين،
وأن منهم ﴿مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بَقَطَّارٌ﴾ وهو
المال الكثير ﴿يُؤَدُّهُ﴾ وهو على أداء ما
دونه من باب أولى، ومنهم ﴿مَنْ إِنْ
تَأَمَّنْهُ بِدَيَّرَا لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ وهو على
عدم أداء ما فوقه من باب أولى
وأخرى، والذي أوجب لهم الخيانة
وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه
﴿لَيْسَ عَلَيْهِمْ﴾ في الأميين سبيل
أي: ليس عليهم إثم في عدم أداء
أموالهم إليهم، لأنهم بزعمهم الفاسد
ورأيهم الكاسد قد احتقروهم غاية
الاحتقار، ورأوا أنفسهم في غاية
العظمة، وهم الأذلاء الأحقرون. فلم
يجعلوا للأميين حرمة، وأجازوا ذلك،
فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله
وكان هذا كذباً على الله، لأن العالم
الذي يحلل الأشياء المحرمة قد كان عند
الناس معلوم أنه يخبر عن حكم الله ليس
بخبر عن نفسه، وذلك هو الكذب،
فلهذا قال ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم إثمًا من
القول على الله بلا علم، ثم رد عليهم
زعمهم الفاسد، فقال ﴿بَلَىٰ﴾ أي:
ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم
في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك
أعظم الحرج وأشد الإثم.

﴿من أوفى بعهده وأتقى﴾ والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جمع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأميون قد عرفوا بوفاء العهود ويتقوا الله وعدم

المؤمنين بما معهم من العلم قاطعاً عنهم العلم، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجباً للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن ﴿الهدى هدى الله﴾ فمادة الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم الحق، أو إشارة، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤثروا من العلم إلا قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لخطئ نياتهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم والله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بامر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فهذا قال تعالى ﴿قل إن الفضل بيد الله﴾ أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿يؤتيه من يشاء﴾ من أتى بأنبيائه ﴿والله واسع﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿عليم﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيخرمه إياه ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالأخرة وهي نعمة الدين وتمماته ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يصفه الواصفون ولا يحيط بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، وزنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً.

﴿٧٥ - ٧٧﴾ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين * إن الذين يشترون بعهده الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم *
يغير تعالى عن حال أهل الكتاب في

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمِمَّنْ آتَى اللَّهَ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ
 لَهُ الْمُلْكُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى الْقُلُوبِ
 ۝ قَدْ يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ مَا لَكُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ سَاءَ
 بِرَبِّكُمْ أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُدْرِكُهُ بَصِيرَاتُ الْبَشَرِ
 بَصَرًا مُبِينًا ۝ تَوَلَّوْا فَعَرَفُوا أَنَّ شَهَادَتَهُ
 بِأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ ۝ يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ
 فِي رُبُّكُمْ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً بَعْدَ
 فَلَا تَعْلَمُونَ ۝ هَذَا مَثَلٌ خَلَقَ حُجَجَةً وَمَا كُنْ بِهِ
 عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوهُمْ وَمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ لِلرُّبُوبِ مَهْدٌ وَلَا أَصْرٌ وَإِنَّا
 وَلَكِنْ كُنَّا حَقِيقًا مُنْشِئِينَ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَشَكِّكِينَ ۝
 إِنَّ أَوَّلَ الْبَاسِ بِالرُّبُوبِ لَكِنَّ الْبَشَرَ وَهَذَا الَّذِي كُنَّا نَسْأَلُ
 وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
 يُضِلُّوكُمْ عَنْ آيَاتِنَا وَلَئِنْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِنَا لَقَالُوا
 الْكِتَابُ لَا يَكُونُ إِلَّا قِيَاسُ الْفُلِّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ

ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾. ثم أخبر تعالى عن ما همت به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَلَكِنْ هُمْ مُنْكَرُونَ﴾ أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه عجباً بأنفسهم وظناً أن الناس سيحسنون ظنهم بهم ويتابعونهم على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن أبأى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا تَوَاسَوْا فِيهِ لَا يَتَّبِعُكُمْ اللَّهُ وَلَا يَزِيدُكُمْ مِنْهُ﴾ أي: لا تتقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، واكتموا^(١) أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالخاصل أنهم جعلوا عدم إخبار

(۱) المراد - والله أعلم :- واكتموا أمرکم عن غیر من تبع دینکم .

الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك .

﴿٧٩-٨٠﴾ «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أي أياهم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون * وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقلوه

«ما كان لبشر» أي: يمتنع ويستحيل على بشر من الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق «أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله» فهذا من أجل المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أفحج الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق

على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرهم إلا بمعالي الأمور وهم أعظم الناس شياً عن الأمور القبيحة، فلهذا قال «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرهم بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل، والباء في قوله «وبما كنتم تعلمون» الخ، باء السببية، أي: بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وستة نبيه، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً» وهذا تعميم بغد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم «أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحد

التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً» ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهو «لا خلاق لهم في الآخرة» أي: لا نصيب لهم من الخير «ولا يكلمهم الله» يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديهم هوى أنفسهم على رضا ربهم «ولا يزكّيهم» أي: يظهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم «ولهم عذاب أليم» أي: موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

﴿٧٨﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللى والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله «لتحسبوه من الكتاب» أي: يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: «ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ



من الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثماً عظيماً وكفراً وخيماً.

﴿٨١-٨٢﴾ «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين» * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنه إن بعث الله رسلاً مصداقاً لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ويأخذوا ذلك على أنفسهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد علم أن محمداً ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ لما قرره تعالى

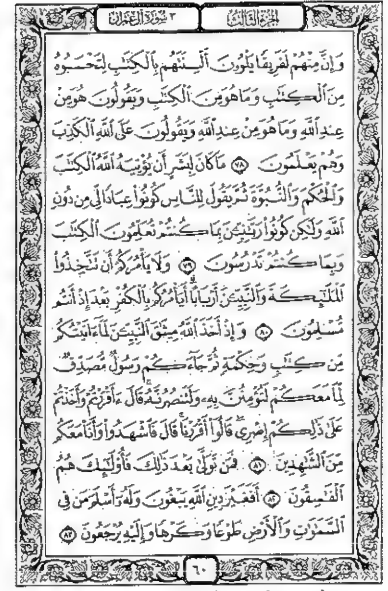
ينظرون ﴿٩٠﴾ أي: لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا بإزالته أو إزالة بعض شدته، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أَعَدَّ الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه.

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أخذهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴿يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتمادي في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ﴿فلما زغوا أزواغ الله قلوبهم﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال ﴿وأولئك هم الضالون﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياداً بالله من حالهم.

﴿٨٤﴾ ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربه لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى.

﴿٨٥﴾ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل، ثم قال تعالى:

﴿٨٦ - ٨٨﴾ ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴿هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعد ما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات﴾ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبغياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم



﴿قالوا أقرنا﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به على الراس والعين ﴿قال﴾ الله لهم: ﴿فاشهدوا﴾ على أنفسكم وعلى أمكم بذلك، قال ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ * فمن تولى بعد ذلك العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿فاولئك هم الفاسقون﴾ فعلى هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

﴿٨٢﴾ ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ أي: يطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن ديناً من دين الله ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ أي: الخلق كلهم متقادون بتسخيره مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المتقادون لعبادة ربه، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسماً لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقدمه تعظيماً لحرمته هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

وأما قوله: «مَنْ» فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفائية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنى يؤل إلى: والله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجباً على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقاً بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: والله حج البيت على المستطيعين، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أول من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان مَنْ هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: «والله على الناس حج من استطاع» وحمله على

باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرأ فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين برهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حميتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يبيحه، ومن جعله حراماً أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، وقد رأيت لابن القيم هاهنا كلاماً حسناً أحببت إيراده لشدة الحاجة إليه قال فائدة: «والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» «حج البيت» مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: «على الناس» لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: «والله» لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون «والله على الناس»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمله. وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخير فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فيبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به إيجاباً وبهم وجوباً وأداء، وهو الحج.

لَنْ تَكُونَ الْبَيْتَ حَتَّى تُفْعَلَ مَا جُئْتُمْ وَمَا تُفْعَلُونَ
وَأَنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * كَلَّ اللَّهُ لَمَّا كَانَ جَلًّا لَيْسَ يَسْتَرْجِلُ
إِلَّا مَا حَرَّمَ لَمْ يَسْتَرْجِلْ عَلَى تَقْدِيرِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُونَ الْوَرِثَةُ
فَلَمْ تَكُنْ إِلَّا وَرِثَةً فَاتَّخَذَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
فِي آفَةِ عَلَى اللَّهِ الْكَوْبَيْنِ بَعْدَ ذَلِكَ كَأَن لَيْتَ هُمْ
الظَّالِمُونَ * فَلَمَّا صَدَّقَ اللَّهُ تَائِبِينَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ حَقِيقًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ آيَةٍ رُفِعَ لِلنَّاسِ لَدَى
بَيْتِهِ مَبَازَاً وَلَهُدَى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ لِّكُلِّ مَقَامٍ
إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ حَكَمًا كَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجَّ الْبَيْتِ
مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ هَرَفَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنْ الْعَالَمِينَ
* فَلْيَتَأَمَّلْ الْكَاتِبُ لِرَدِّكَ رُبَّ بَيْتٍ يَتَأَمَّلُ اللَّهُ وَاللَّهُ
شَهِيدٌ عَلَى الْمُتَعَامِلِينَ * فَلْيَتَأَمَّلْ الْكَاتِبُ لِرَدِّكَ رُبَّ
عَنْ سَبِيلِ الْوَمَنِ آمَنَ تَقْوَاهُ عَمَّا وَابْتَدَأَ شَهِدَ اللَّهُ
يَكْفُلُ عَمَّا تَكُونُونَ * يَا أَيُّهَا الْوَرِثَةُ اسْتَرْجِلُوا طَيْبَةً
وَيَمَانِينَ الْوَرِثَةُ أَوَّلُ الْكَلْبِ رَدُّهُ وَمَعْنَى بَيْتِهِ كَرِيمٌ

«مقام إبراهيم» يحتمل أن المراد به المقام المعروف وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لينان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقاً في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قيل أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبدل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها، ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمناً شرعاً وقدرأ، فالشرع قد أمر الله ورسوله إبراهيم ثم رسوله محمد

هذا القرض العظيم.

وتأمل سر البذل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البذل تقوية المعنى وتأكيده بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين، اعتناء به وتأكيده لشأنه، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحبته وإن لم يطلب ذلك منها، فقال: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ﴾ الخ، فوصفه بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض، الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدام ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه نفس الهدى، الرابع ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية، الخامس: الأمن الحاصل لدخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يعث النفوس على حبه وإن شطت بالزائرين الديار وتناوت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدل على الإعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿وطهر بيتي﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرقاً، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباله وشوقاً إلى رؤيته، فهذه المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم، كما قيل:

يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعني هذا تقرير السهلي، وهذا بعيد جداً بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواه، وهو الوجوب المفهوم من قوله «على الناس»، أي: يجب لله على الناس الحج، فهو حق واجب لله، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها، ففي غاية البعد فتأمل، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما تقول: لله عليك الصلاة والزكاة والصيام.

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي، وهو الأكثر، ولفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نجو ﴿كتب عليكم الصيام﴾ ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ﴿قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أيدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكز السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي: سبيل تيسرت، من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ومن كفر﴾ أي: لعدم إلتزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكد ذلك بذكر اسم «العالمين» عمومياً، ولم يقل: فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التأكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد

باب «يعجني ضرب زيد عمراً» وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)، فلا يصار إليه. وإذا ثبت أن «من» بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى «الناس» كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه هاهنا أمور منها: أن «من» واقعة على من لا يعقل، كالاسم المبدل منه فارتبطت به، ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لقمح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك إذا قلت: رأيت إختوك من ذهب إلى السوق منهم، كان قبيحاً، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن وجل، يريد منها، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضفت إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص، وما حسن حذف المضاف في هذه أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

وأما المجزور من قوله «الله» فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون في موضع من سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل، والثاني: أن يكون متعلقاً بسبيل، فإن قلت: كيف يتعلّق به وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما، كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير، لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد الطواف تداني وأنتم منه الركن أطلب بردما بقلبي من شوق ومن هيمان فتوالله ما ازداد إلا أصابة ولا القلب إلا كثرة الخفقان فياجنة المأوى وبياغاية المنى وبيا منيتي من ذون كل أمان أبت غليات الشوق إلا تقربا إليك فما لي بالبعاد يدان وما كان صدي عنك صدمالة ولي شاهد من مقلتي ولسان دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا فلبى البكا والصبر عنك عصاني وقد زعموا أن المحب إذا نأى سبيلى هواه بعد طول زمان ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا دواء الهوى في الناس كل زمان بلى إنه يبلى والهوى على حاله^(١) لم يبله اللئوان^(٢) وهذا غيب قادة الشوق والهوى بغير زمام قائد وغبان أتاك على بعد الزار ولو نبت مطيته جاءت به القدمان انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

﴿٩٨ - ١٠١﴾ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون * قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون * يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله * أي : الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات التي توجب القطع بموجها والجزم بمقتضاها وعدم الشك

رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم * يربخ تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسوله ، التي جعلها رحمة لعباده يهتدون بها إليه ، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة ، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتوحيجها عما جعلت له ، وهم شاهدون بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة * الذين كفروا وضدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون * فهذا توعدهم هنا بقوله : ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل يحيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيء ، فمجازيكم عليه أشد الجزاء لما توعدهم ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم ثلاثاً يكره بهم من حيث لا يشعرون ، فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وذلك لحسدكم وبغيتهم عليكم ، وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم ، كما قال تعالى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لشباب المؤمنين على إيمانهم ، وعدم تزلزلهم عن إيمانهم ، وأن ذلك من أبعد الأشياء ، فقال : ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ أي : الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات التي توجب القطع بموجها والجزم بمقتضاها وعدم الشك

فيما دلت عليه بوجه من الوجوه ، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين ، الجريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه ، فضلووات الله وسلامه عليه ، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين ، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالاً ، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته وورحمته عن كل شر ، واستعان به على كل خير * فقد هدي إلى صراط مستقيم * موصل له إلى غاية المرغوب ، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله .

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه ، وأن يستمروا على ذلك ويشبوا عليه ويستقيموا إلى المصائب ، فإن من عاش على شيء مات عليه ، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته ، منيباً إليه على الدوام ، ثبته الله عند موته ووزقه حسن الخاتمة ، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود : وهو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى ، وأما ما يجب على العبد منها ، فكما قال تعالى : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً ، يجمعها

(١) في الهامش كتب : أي الهوى .

(٢) في الهامش : (لعل صواب هذا البيت قوله :

بلى إنه يبلى المحب وإنه

وبمراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي :

بلى إنه يبلى المتصبر والهوى

(٣) في الأصل : بأعمالهم ولعل الصواب ما أثبت .

على حاله لم يبله اللئوان

على حاله لم يبله اللئوان



وفعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالا اجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء﴾ يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والافتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وأمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتألفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تألف قلوبهم وموالات بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ أي: قد استحيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فأنقذكم منها﴾ بما من عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي: يوضحها ويفسرها، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لعلكم تهتدون﴾ بمعرفه الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته يقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرياً له ومحبة، وليزيدهم من فضلة وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالا اجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء﴾ يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والافتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وأمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتألفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تألف قلوبهم وموالات بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ أي: قد استحيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فأنقذكم منها﴾ بما من عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي: يوضحها ويفسرها، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لعلكم تهتدون﴾ بمعرفه الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته يقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرياً له ومحبة، وليزيدهم من فضلة وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف

الناجون من المهروب، ثم غاهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ ومن العجائب أن اختلافهم ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالى: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾.

﴿١٠٦ - ١٠٨﴾ ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون * تلك آيات الله تلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين * يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال: ﴿يوم تبيض وجوه﴾ وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله ﴿وتسود وجوه﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة

لكان خيراً لهم ﴿ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله المعادون لأوليائه الله بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعبادة المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبنائهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذية الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأديار فراراً ثم تستمر هزيمتهم ويذوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمثون

﴿ إلا بحبل ﴾ أي: عهد ﴿ من الله وحبل من الناس ﴾ فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستدلون، أو تحت أحكام النصراني وقد ﴿ باؤوا ﴾ مع ذلك ﴿ بغضب من الله ﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً وعدواناً ﴿ ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشهر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والحماية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿ ١١٣ - ١١٥ ﴾ ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستأخرون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾ لما بين تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم،

على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿ وما الله يريد ظملاً للعالمين ﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحد شيئاً من حسناته، ولا يزدني ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

﴿ ١٠٩ ﴾ ﴿ والله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها.

﴿ ١١٠ - ١١٢ ﴾ ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في زعمهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿ ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثلته المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخبر في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامثلت أمر ربه واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿ ولو آمن أهل الكتاب



والسرور والتعظيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى: ﴿ ولقاهم نصره وسرور ﴾ نصره في وجوههم وسرور في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فأما الذين اسودت وجوههم ﴿ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتفريق: ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ أي: كيف أترتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ﴾ فيهنئون أكمل تهنئة وبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يمشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿ ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿ تلك آيات الله نتلوها ﴾ أي: نقصها ﴿ عليك بالحق ﴾ لأن أوامره ونواهيها مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل

بين هاهنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها، فأخبر أنهم لا يستوتون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالى منهم «أمة قائمة» أي: مستقيمة على دين الله، قائمة بما أزمها الله به من الأمور، ومن ذلك قيامها بالصلاة «يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون» وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له «يؤمنون بالله واليوم الآخر» أي: كإيمان المؤمنين إيماناً يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر بحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم «ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية «و» أنهم «يسارعون في الخيرات» أي: يبادرون إليها فيتنهزون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بقوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة «من الصالحين» الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا «من خير» قليلاً كان أو كثيراً «فلن يكفروا» أي: لن يجرموا ويفوتوا أجره، بل يشيهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلهذا قال «والله عليم بالمتقين» كما قال تعالى: «إنما يتقبل الله من المتقين».

﴿١١٦ - ١١٧﴾ «إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» * مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً» بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار، وحنة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

ثم ضرب مثلاً ما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد شديد عرق، فأهلكته زرع، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله فيهم: «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فستفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون» «وما ظلمهم الله» بإبطال أعمالهم «ولكن» كانوا «أنفسهم يظلمون» حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

﴿١١٨ - ١٢٠﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً وثراً ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» * ها أنتم أولاء تحبونهم

﴿١١٦ - ١١٧﴾ «إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» * مثل ما ينفقون في هذه الدنيا كمثل ربح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً» بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار، وحنة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسّكم حسنة نسوهم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط» ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهرهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم «وما تخفي صدورهم أكبر» ما يسمع منهم فلهذا «لا يألونكم خبالاً» أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم قال الله للمؤمنين «قد بينا لكم الآيات» أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية «لعلكم تعقلون» فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يعجل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلى بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلع من باطنه على شيء ولو تعلق له وأقسم أنه من أوليائه قال الله مهيباً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومبيناً شدة عداوتهم «ها أنتم

والمشركون انهم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما راهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن الغنيمة فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، جاءت خبرت المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقطتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاههم الله بها وكفر بها عنهم، وأدأقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة قال الله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة ﴿تَبَوَّءَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: تنزلهم وترتيبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون كل يتكلم بحسب ما في قلبه ﴿عليهم﴾ بنيات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضاً فالله سميع عليهم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره كما قال تعالى لموسى وهارون ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أسمع وأرى، ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما همت طائفتان من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو جارثة كما تقدم ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلماذا قال

المؤمنون: هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واثقوا نصبرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجاً من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واثقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يحبون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرأ يسيراً، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله ﴿وَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلُهَا﴾ وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العدد بالأموال والرجال والعُدَد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجها من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلاً رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلاث الجيش بمن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خمسين رجلاً من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرزوا منه ليأمنوا أن يأتيتهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون



أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله، أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بكتابتكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور، وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضررون إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدرون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فيتنقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿تَسْؤُهُمْ﴾ أي: تنعمهم وتحزنهم ﴿وَأَنْ تَصْبِيحُكُمْ﴾ سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتثقفوا لا يضرركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط، فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضرركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء.

﴿١٢١ - ١٢٢﴾ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّءَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل



من يشاء والله غفور رحيم» لما جرى يوم «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشح رأسه وكسرت رباعيته، قال «كيف يفلح قوم شجبوا نبينهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نبياً له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرده عن رحمة الله «ليس لك من الأمر شيء» إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقائهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضرروها وتسبوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء العيين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الجزية والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أول، ففيها أعظم رد على من تعلق

بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مشقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سبباً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالقاء المفيدة للسيبة، فقال «أو يعذبهم فأعذبهم ظالمون» ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال «والله ما في السماوات والأرض من الملائكة والانس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مدبرون متصرف فيهم تصرف الممالك، فليس لهم مشقال ذرة من الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شره ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه، ويعذب من يشاء» بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذبه على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال «والله غفور رحيم» ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يختصها باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين. تم

السفر الأول من هذا التفسير المبارك يسر من الله وإعانة فله الحمد والشكر والثناء وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه، ويليه المجلد الثاني، أوله قول الباري جل جلاله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة الآية وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثالث وأربعين وثلاث مئة وألف من الهجرة النبوية وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً بقلم جامعته عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

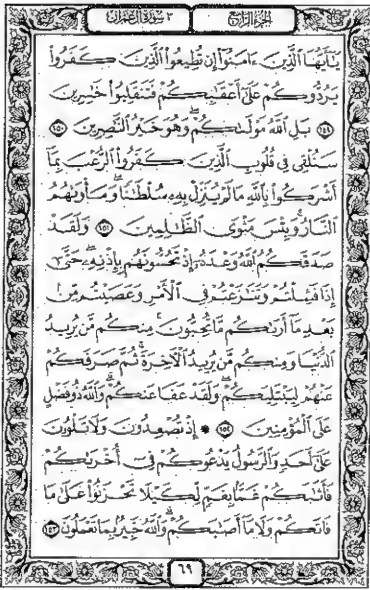
المجلد الثاني من تفسير التكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نعمه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً قال تعالى:

﴿١٣٠ - ١٣٦﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون» * واتقوا النار التي أعدت للكافرين * وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين»

تقدم في مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي



حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن عسروا لم يثقلوا من المعروف شيئاً ولو قل.

﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحق، الموجب للانتقام بالقول والفعل -، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، وينصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿والعافين عن الناس﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه مع السامحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتحلى عن الأخلاق الرذيلة، ومن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

ثم ذكر حالة أغم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال [تعالى]: ﴿والله يحب المحسنين﴾ والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، أو الإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة

ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على العسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن تزيد في المدة، ويزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك، اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد - بذلك - ما في ذمته أضعافاً مضاعفة، من غير نفع وانتفاع.

ففي قوله: ﴿أضعافاً مضاعفة﴾ تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم.

وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه، لأن تركه من موجبات التقوى.

والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ وابتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي، على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها - وخصوصاً المعاصي الكبار - تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار، ويبقى من سنخ الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة، ولهذا قال: ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ بفعل الأوامر امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿لعلكم ترحون﴾.

فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة﴾ الآيات.

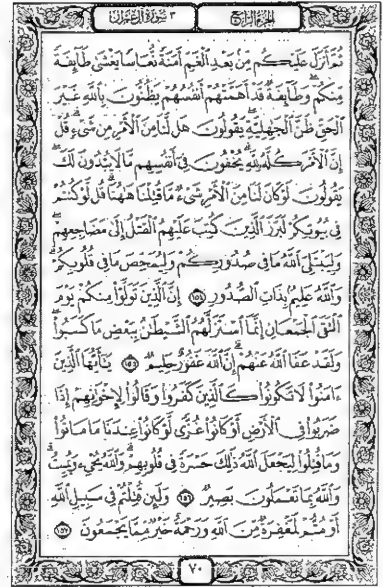
ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السموات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها، ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الذين يتقون في السراء والضراء﴾ أي: في

في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه - أولاً - أن يعرف حده، وما هو الذي أمر به، ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهي عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه، وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي، وهذه الآيات الكريزمات قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله [بها] وحث على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهي حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة «أجد» أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم إذا أسروا واتقوا نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإن تصبروا وتقفوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾.

ثم قال: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم﴾ الآيات.

فكانت النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأجرى، ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة وهي قوله: ﴿أعدت للمتقين﴾ ومرتين مقيدتين، فقال: ﴿واتقوا الله﴾ و﴿واتقوا النار﴾ فقله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أفعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي؛ لأن الإيمان هو العصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو



الخالق [١٧]

فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والتفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل السدي وكف الأذى، وإحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جنائيتهم وذنوبهم، فقال: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم» أي: صدر منهم أعمال [سيئة] (٢١) كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا

(١) زيادة من هامش ب.

قال: «ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون».

«أولئك» الموصوفون بتلك الصفات «جزاؤهم مغفرة من ربهم» تزيل عنهم كل محذور، «وجنات تجري من تحتها الأنهار» فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات، «خالدين فيها» لا يحولون عنها، ولا يغيرون بها بدلا، ولا يغير ما هم فيه من النعيم، «ونعم أجر العاملين» عملوا لله قليلا فأجروا كثيرا.

ف «عند الصباح يحمد القوم السري»، وعند الجزاء يمد العامل أجره كاملا موفرا. وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافا للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: «سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله» فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسوله، وهنا قال: «أعدت للمتقين». ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدينية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

«١٣٧ - ١٣٨» ثم قال تعالى: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين.

وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة «أحد» يعزي تعالى عباده المؤمنين وبسليم، ونجبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتحنوا، وابتلوا المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاولة، حتى جعل الله العاقبة

(٢) زيادة من هامش ب.

للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم الله بنصر رسوله وأتباعهم.

«فسيروا في الأرض» بأبدانكم وقلوبكم «فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكتهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل!!

وحكمة الله التي يمتحن بها عباده، ليلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: «هذا بيان للناس» أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين.

«وهدى وموعظة للمتقين» لأنهم هم المتفكرون بالآيات فتهدى إلى سبيل الرشاد، وتعظمهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم، تقوم [به] عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.

ويحتمل أن الإشارة في قوله: «هذا بيان للناس» للقرآن العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للتائبين عموماً، وهدى وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

«١٣٩ - ١٤٣» «ولا تنسوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام تداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين «وليمحض الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين» أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون» يقول تعالى مشجعاً

ثم ويخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم عن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم، قال الله [تعالى] لهم: ﴿فقد رأيتموه﴾ أي: رأيتم ما تمنيت بأعينكم ﴿وأنتم تنظرون﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿١٤٤ - ١٤٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ويستجزى الشاكرين.

يقول تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثال أمر ربه، فقال: ﴿وسيجزى الله

من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمة بعباده المؤمنين، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم، والله لا يحب الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضاً بدم المنافقين، وأنهم مبعوضون لله، ولهذا ثبتهم عن القتال في سبيله.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين﴾.

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ وهذا أيضاً من الحكم أن الله يمحص بذلك المؤمنين من دنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب، وليمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق، ومن الحكم أيضاً أنه يقدر ذلك، ليمحق الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحقتهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطئ النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تؤول إليه، تنقلب عند أرباب البصائر منحاً يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لعباده المؤمنين، ومقرباً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم: ﴿ولا تمنوا ولا تحزنوا﴾ أي: ولا تنهوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتكم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلمون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والآخري لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال [تعالى]: ﴿وأنتم الأعلمون إن كنتم مؤمنين﴾.

ثم سألهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ فأنتم وإياهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: ﴿إن تكونوا تآلمون فإنهم يألمون كما تآلمون، وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى، لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ هذا أيضاً من الحكم أنه يبتلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسراء، واليسر والعسر، فمن ليس كذلك.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله

الشاكرين ﴿ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال .

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعمهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه ، فقد رئيس ولو عظم ، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه ، إذا فقد أحدهم قام به غيره ، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله ، والجهاد عنه ، بحسب الإمكان ، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس ، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم ، وتستقيم أمورهم .

وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ ، لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجالها بإذن الله وقدره وقضائه ، فمن حُثِمَ عليه بالقدر أن يموت ، مات ولو بغير سبب ، ومن أراد بقاءه ، فلو أتى ^(١) من الأسباب كل سبب ، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله ، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى : ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلق به إرادتهم ، فقال : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ .

﴿ وستجزى الشاكرين ﴾ ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرتهم وعظمتهم ، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر ، قلة وكثرة وحسناً .

﴿ ١٤٦ - ١٤٨ ﴾ ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ * فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴿ هذا تسلية للمؤمنين ، وحث على الاقتداء بهم ، والفعل كفعالهم ، وأن هذا أمر قد كان متقدماً ، لم تزل سنة الله جارية بذلك ، فقال : ﴿ وكأين من نبي ﴾ أي : كم من نبي قاتل معه ربيون كثير ﴾ أي : جماعات كثيرون من أتباعهم ، الذين قد ربّتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة ، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك .

﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ أي : ما ضعفت قلوبهم ، ولا وهنت أبدانهم ، ولا استكانوا ، أي : ذلوا لعدوهم ، بل صبروا وثبتوا ، وشجعوا أنفسهم ، ولهذا قال : ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ .

ثم ذكر قولهم واستنصروهم لربهم ، فقال : ﴿ وما كان قولهم ﴾ أي : في تلك المواطن الصعبة ﴿ إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ والإسراف : هو مجاوزة الحد إلى ما حرم ، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان ، وأن التخلي منها من أسباب النصر ، فسألوا ربهم مغفرتها .

ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر ، بل اعتمدوا على الله ، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين ، وأن ينصرهم عليهم ، فجمعوا بين الصبر وترك ضده ، والتوبة والاستغفار ، والاستنصار بربهم ، لا جرم أن الله نصرهم ، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فاتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ من النصر والظفر

والغنيمة ، ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ وهو الفوز برضا ربهم ، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكبات ، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال ، فجازاهم بأحسن الجزاء ، فلهذا قال : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق ، وبين الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء ، كفعل هؤلاء الموصوفين ^(٢) .

﴿ ١٤٩ - ١٥١ ﴾ ﴿ ثم قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مئوى الظالمين ﴾ .

وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين ، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر ، وهم [قصدهم] ^(٣) ردهم إلى الكفر الذي عاقبه الخيبة والخسران .

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم ، ففيه إخبار لهم بذلك ، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه ، ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده ولياً وناصراً من دون كل أحد ، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدمه أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب ، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم ، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم ، وقالوا : كيف ننصرف ، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزمناهم ولما نستأصلهم ؟ فهموا بذلك ، فالتقى الله الرعب في قلوبهم ، فانصرفوا خائبين ، ولا شك أن هذا من أعظم النصر ، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين : إما أن يقطع

(١) في ب : فلو وقع .

(٢) في ب : المؤمنين .

(٣) زيادة من هامش ب .

طرفاً من الذين كفروا، أو يكتبهم فيقربوا خائنين، وهذا من الثاني.

﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهم الذين لزمو أمر رسول الله ﷺ وثبتوا حيث أمروا.

﴿ثم صرفكم عنهم﴾ أي: بعدما وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، ليتين المؤمنين من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلماذا قال: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث من عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم. إن أصابهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

﴿١٥٣- ١٥٤﴾ ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فألباكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾ ثم أنزل عليكم من بعد القم أمانة نغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاتين قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مصاجعهم ولينبلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال: ﴿إذ تصعدون﴾ أي: تجذون في الهرب ﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن

ثم ذكر السبب الموجب للإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، فقال: ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثم كان المشرك مرعوباً من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذا حاله في الدنيا، وأما في الآخرة فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿وماوهم النار﴾ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج، ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم.

﴿١٥٢﴾ ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما يحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليتبليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ بالنصر، فنصركم عليهم، حتى ولوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً، حتى صرتم سبباً لأنفسكم، وعوناً لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلقت، فمن قائل نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور، فعصيتهم الرسول، وتركتم أمره من بعد ما أراكم الله ما يحبون وهو الانخزال أعدائكم؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من غيره.

فالواجب في هذه الحال خصوصاً، وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله



القتال

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء، وبإشرا الهيجا، بل ﴿الرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي: مما يلي القوم يقول: «إلى عباد الله»، فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقدمه على النفس، أعظم لوماً بتخلفكم عنها، ﴿فألباكم﴾ أي: جازاكم على فعلكم ﴿غماً بغم﴾ أي: غماً يتبع غماً، غم بفوات النصر وفوات الغنمة، وغم بانهزامكم، وغم أناسكم كل غم، وهو سماعكم أن محمداً ﷺ قد قتل.

ولكن الله - بلطفه وحسن نظره لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾، ولا ما أصابكم من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبظتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في ضمن البلياء والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لكيلا

من سلطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذه، وإلا فلو واخذهم لاستأصلهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المكفرة، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه.

ثم إن تاب وأتاب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر منه عيب، فله الحمد على إحسانه.

﴿١٥٦ - ١٥٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْزِلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون * ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تمشرون * ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم، ولا يقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم.

ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاضع وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا للتجارة، أو كانوا غزى أي: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول، وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله، فيؤمنون ويسلمون،

يشمل الأمر القدري، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى.

﴿يُخْفُونَ﴾ يعني المنافقين ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي، ومشورة، ما قتلنا هاهنا * وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ، ورأي أصحابه، وتركه منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم * فالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئا، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة، وليتلى الله ما في صدوركم * أي: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان، * وللمحصى ما في قلوبكم * من وساوس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب، ما به تظهر نجابات الصدور وسرائر الأمور.

﴿١٥٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى عن حال الذين اتهموا يوم «أحد» وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم. فهم الذين أدخلوه عن أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم



تخزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتعرفوا على الصبر على المصائب، وتخفف عليكم تحمل المشقات * ثم أنزل عليكم من بعد الغم الذي أصابكم أمانة ناعسا يغشى طائفة منكم.

ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله، ورضاه الله ورسوله، ومصالحة إخوانهم المسلمين. وأما الطائفة الأخرى الذين «قد أهملتهم أنفسهم» فليس لهم هم في غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم، ويقولون هل لنا من الأمر من شيء * وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر - أي: النصر والظهور - شيء، فأسأوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفصلة والقاضية على دين الله، قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ الْأَمْرُ

فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة .

قال الله رداً عليهم: ﴿والله يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد^(١) بذلك، فلا يغني حذر عن قدر:

﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من ذنابهم، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، وما لهم إليه، فيجازي كلاً بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله!!

﴿١٥٩﴾ ﴿فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن ألت^(٢) لهم جانبك، وخففت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك.

﴿ولو كنت فظاً﴾ أي: سيئ الخلق ﴿غليظ القلب﴾ أي: قاسيه، ﴿لانقضوا من حولك﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ.

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،

ككيف بغيره!؟

أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله.

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان.

﴿وشاورهم في الأمر﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم، وإزالة لما يضير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في خادعة من الحوادث - اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس يستبد^(٣) عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فيذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه بحبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي: المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أولم يتم له مطلوب، فليس يملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً، وأغزرهم علماً، وأفضلهم رأياً -: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ فكيف بغيره!؟



ثم قال تعالى: ﴿فإذا عزمت﴾ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فتوكل على الله﴾ أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه، اللاجئين إليه.

﴿١٦٠﴾ ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فلا غالب لكم﴾ فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيرهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وإن يخذلكم﴾ ويترككم إلى أنفسكم ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده؟﴾ فلا بد أن تتخذوا ولو أعانكم جميع الخلق.

وفي^(٤) ضمن ذلك الأمر بالاستعصار بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الخول والقوة، ولهذا قال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ تقدّم المعمول يؤذن بالحصص، أي: على الله

(٤) في ب: وقد.

(٣) في ب: يستبد.

(١) في ب: المنفرد.

(٢) في الأصل: (لنت).

حسب عمله، والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأسماء الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها.

﴿١٦٤﴾ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ هذه المنة التي امتن الله بها على عباده، أكبر النعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعرفون نسبته، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحاً لهم، مشفقاً عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من الشريك، والمعاصي، والردائل، وسائر مساوئ الأخلاق.

و ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب - هنا - الكتابية، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة.

فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وتما به تنفيذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين، ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بهذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لا يعرفون الطريق الموضّل إلى ربهم، ولا ما يزيكي النفوس ويظهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض

أعدائهم، لأن معرفته بنبوته، مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلُ﴾ أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يأت به حامله على ظهره، حيواناً كان أو متاعاً، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة، ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه، ﴿وَهُمْ لَا يظْلَمُونَ﴾ أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم، وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة.

لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيقه وجزاءه، وكان الاختصار على الغال يرههم - بالمفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿١٦٢ - ١٦٣﴾ ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَا أُوْهِدَ اللَّهُ الْفِتْرَةَ وَكُنَّ لَهُمْ أَرْجَاتُ اللَّهِ يُغَيِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُسْتَوِي مَنْ كَانَ قَصْدُهُ رِضْوَانُ رَبِّهِ، وَالْعَمَلُ عَلَى مَا يَرْضَاهُ، كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، مِمَّنْ هُوَ مَكْبُ عَلَى الْمَعَاصِي، مَسْخُطٌ لِرَبِّهِ، هَذَا لَا يُسْتَوِيَانِ فِي حُكْمِ اللَّهِ، وَحُكْمَةِ اللَّهِ، وَفِي فَطْرِ عِبَادِ اللَّهِ،﴾

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا، لَا يُسْتَوُونَ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿هُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.

فالمبتعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدرجات إلى أسفل سافلين، كل على



توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿١٦١﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلُ﴾ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، الغلول هو: الكتمان من الخنينة، [والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان]^(١) وهو محرم إجماعاً، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغلل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وأشر العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يندسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً، وأطهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم على رسالته، ومعدن حكيمته ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

فيمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من

به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميهم ويشكرهم، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم. وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.

﴿١٧٢ - ١٧٥﴾ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿إِنَّمَا يَخَافُ اللَّهُ الَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ أَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لَا يَمُوتُ عِنْدَ رَبِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حراء الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّمَا يَخَافُ اللَّهُ الَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ أَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لَا يَمُوتُ عِنْدَ رَبِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حراء الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّمَا يَخَافُ اللَّهُ الَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ أَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لَا يَمُوتُ عِنْدَ رَبِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

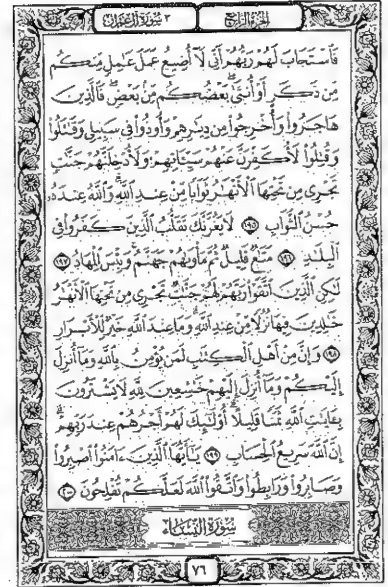
وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وخده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف محمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

﴿١٧٦ - ١٧٧﴾ ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ﴿كَانَ النَّبِيُّ حَرِيصاً عَلَى الْخَلْقِ، مُحْتَجِجاً فِي هِدَايَتِهِمْ، وَكَانَ يَحْزَنُ إِذَا لَمْ يَهْتَدُوا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ من شدة رغبته فيهم، وحرصه عليهم ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضرون وينسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عهده، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه. خذلهم فلم يوفقهم لما وفق له

به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميهم ويشكرهم، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم. وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.

﴿١٧٢ - ١٧٥﴾ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿إِنَّمَا يَخَافُ اللَّهُ الَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ أَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لَا يَمُوتُ عِنْدَ رَبِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حراء الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّمَا يَخَافُ اللَّهُ الَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ أَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لَا يَمُوتُ عِنْدَ رَبِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حراء الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّمَا يَخَافُ اللَّهُ الَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ أَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لَا يَمُوتُ عِنْدَ رَبِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كافينا كل ما أمنا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه تدبير عبادته، والقائم بمصالحهم. ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ أي: رجعوا ﴿بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم، فالتقى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل،



الذي يحذر من فواته، من حين عن القتال، وزهد في الشهادة. ﴿بَل﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أَجْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في دار كرامته.

ولفظ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يَرْزُقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا ﴿قَرْحِينَ﴾ بما آتاهم الله من فضله، أي: مغتربين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنقص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم (١) النعيم والسرور، وجعلوا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يبنى بعضهم بعضاً، بأعظم منها

(١) في السختين: فتم له.

(٢) في السختين: الخائفين له، ولعل الأقرب ما أثبت.



وتتقوا فلکم أجر عظیم ﴿١٧٨﴾ أي : ما كان في حکمة الله أن یترك المؤمنین علی ما أنتم علیہ من الاختلاط وعدم التميز ^(٢)، حتی یمیز الخبیث من الطیب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الکاذب.

ولم یکن فی حکمته أيضاً أن یطلع عباده علی الغیب الذي یعلمه من عباده، فاقترض حکمته الباهرة أن یتلی عباده، ویفتنهم بما به یتميز الخبیث من الطیب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل [الله] رسله، وأمر بطاعتهم، والانتیاد لهم، والإیمان بهم، ووعدهم علی الإیمان والتقوی الأجر العظیم.

فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمین : مطیعین وعاصین، ومؤمنین ومنافقین، ومسلمین وكافرین، لیرتب علی ذلك الثواب والعقاب، ولیظهر عدله وفضله، وحکمته لخلقه.

﴿١٨٠﴾ ﴿١٧٩﴾ ولا یحسبن الذين یسئلون بما آتاهم الله من فضله هو خیراً لهم بل هو شر لهم سیطقون ما یخلوا به یوم القیامة والله یمیلون خیراً ﴿١٨٠﴾ أي : ولا یظن الذين یمیلون، أي : یمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والأجاء والعلم، وغیر ذلك مما منحهم الله، وأحسن إلیهم به، وأمرهم ببذل ما لا یضرهم منه لعباده، فیخلوا بذلك، وأمسكوه، وضنوا به علی عباد الله، وظنوا أنه خیر لهم، بل هو شر لهم، فی دینهم ودنیاهم، وعاجلهم وأجلهم ﴿سیطقون ما یخلوا به یوم القیامة﴾ أي : یجعل ما یخلوا به طوقاً فی أعناقهم، یعذبون به کما ورد فی الحدیث الصحیح، «إن البخیل یمثل له ماله یوم القیامة شجاعاً أقرع، له زبیتان، يأخذ بلهزمتیه یقول : أنا مالنک، أنا کننرک». وثلاً رسول الله ﷺ مصداق ذلك، هذه

أولیاءه ومن أراد به خیراً، عدلاً منه وحکمة، لعلمه بأنهم غیر زاکین علی الهدی، ولا قابیلین للرشاد، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم.

ثم أخبر أن الذين اختاروا الکفر علی الإیمان، ورغبوا فیہ رغبة من یذل ما یحب من المال، فی شراء ما یحب من السلع ﴿لن یضروا الله شیئاً﴾ بل ضرر فعلهم یعود علی أنفسهم، ولهذا قال : ﴿ولهم عذاب أليم﴾ וכیف یضرون الله شیئاً، وهم قد زهدوا أشد الزهد فی الإیمان، ورغبوا کل الرغبة بالکفر بالرحمن ؟! فإله غنی عنهم، وقد قیض لدینہ من عباده الأبرار الأزکیاء سواهم، وأعد له - بمن ارتضاه لنصرته - أهل البصائر والعقول، وذوی الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالی : ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا بئلی علیهم یخرون للآذقان سجداً﴾ الآیات.

﴿١٧٨﴾ ﴿١٧٩﴾ ﴿١٨٠﴾ أنما نملي لهم خیر لأنفسهم إنما نملي لهم لیزدادوا إثماً ولهم عذاب مهین ﴿١٧٨﴾ أي : ولا یظن الذين کفروا ببرهم ونابذوا دینہ، وحاربوا رسوله أن ترکنا إیاهم فی هذه الدنیا، وعدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم خیر لأنفسهم، وحجة منا لهم.

کلا، لیس الأمر کما زعموا، وإنما ذلك لشر یریده الله بهم، وزیادة عذاب وعقوبة إلی عذابهم، ولهذا قال : ﴿إنما نملي لهم لیزدادوا إثماً ولهم عذاب مهین﴾ : فإله تعالی یملي للظالم، حتی یزداد طغیانه، ویترادف کفرانه، حتی إذا أخذه أخذه ^(١) أخذ عزیز مقتدر، فلیحذر الظالمون من الإمهال، ولا یظنوا أن یفوتوا الکبیر المتعال.

﴿١٧٩﴾ ﴿١٨٠﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿١٨٣﴾ ﴿١٨٤﴾ ﴿١٨٥﴾ ﴿١٨٦﴾ ﴿١٨٧﴾ ﴿١٨٨﴾ ﴿١٨٩﴾ ﴿١٩٠﴾ ﴿١٩١﴾ ﴿١٩٢﴾ ﴿١٩٣﴾ ﴿١٩٤﴾ ﴿١٩٥﴾ ﴿١٩٦﴾ ﴿١٩٧﴾ ﴿١٩٨﴾ ﴿١٩٩﴾ ﴿٢٠٠﴾ ﴿٢٠١﴾ ﴿٢٠٢﴾ ﴿٢٠٣﴾ ﴿٢٠٤﴾ ﴿٢٠٥﴾ ﴿٢٠٦﴾ ﴿٢٠٧﴾ ﴿٢٠٨﴾ ﴿٢٠٩﴾ ﴿٢١٠﴾ ﴿٢١١﴾ ﴿٢١٢﴾ ﴿٢١٣﴾ ﴿٢١٤﴾ ﴿٢١٥﴾ ﴿٢١٦﴾ ﴿٢١٧﴾ ﴿٢١٨﴾ ﴿٢١٩﴾ ﴿٢٢٠﴾ ﴿٢٢١﴾ ﴿٢٢٢﴾ ﴿٢٢٣﴾ ﴿٢٢٤﴾ ﴿٢٢٥﴾ ﴿٢٢٦﴾ ﴿٢٢٧﴾ ﴿٢٢٨﴾ ﴿٢٢٩﴾ ﴿٢٣٠﴾ ﴿٢٣١﴾ ﴿٢٣٢﴾ ﴿٢٣٣﴾ ﴿٢٣٤﴾ ﴿٢٣٥﴾ ﴿٢٣٦﴾ ﴿٢٣٧﴾ ﴿٢٣٨﴾ ﴿٢٣٩﴾ ﴿٢٤٠﴾ ﴿٢٤١﴾ ﴿٢٤٢﴾ ﴿٢٤٣﴾ ﴿٢٤٤﴾ ﴿٢٤٥﴾ ﴿٢٤٦﴾ ﴿٢٤٧﴾ ﴿٢٤٨﴾ ﴿٢٤٩﴾ ﴿٢٥٠﴾ ﴿٢٥١﴾ ﴿٢٥٢﴾ ﴿٢٥٣﴾ ﴿٢٥٤﴾ ﴿٢٥٥﴾ ﴿٢٥٦﴾ ﴿٢٥٧﴾ ﴿٢٥٨﴾ ﴿٢٥٩﴾ ﴿٢٦٠﴾ ﴿٢٦١﴾ ﴿٢٦٢﴾ ﴿٢٦٣﴾ ﴿٢٦٤﴾ ﴿٢٦٥﴾ ﴿٢٦٦﴾ ﴿٢٦٧﴾ ﴿٢٦٨﴾ ﴿٢٦٩﴾ ﴿٢٧٠﴾ ﴿٢٧١﴾ ﴿٢٧٢﴾ ﴿٢٧٣﴾ ﴿٢٧٤﴾ ﴿٢٧٥﴾ ﴿٢٧٦﴾ ﴿٢٧٧﴾ ﴿٢٧٨﴾ ﴿٢٧٩﴾ ﴿٢٨٠﴾ ﴿٢٨١﴾ ﴿٢٨٢﴾ ﴿٢٨٣﴾ ﴿٢٨٤﴾ ﴿٢٨٥﴾ ﴿٢٨٦﴾ ﴿٢٨٧﴾ ﴿٢٨٨﴾ ﴿٢٨٩﴾ ﴿٢٩٠﴾ ﴿٢٩١﴾ ﴿٢٩٢﴾ ﴿٢٩٣﴾ ﴿٢٩٤﴾ ﴿٢٩٥﴾ ﴿٢٩٦﴾ ﴿٢٩٧﴾ ﴿٢٩٨﴾ ﴿٢٩٩﴾ ﴿٣٠٠﴾ ﴿٣٠١﴾ ﴿٣٠٢﴾ ﴿٣٠٣﴾ ﴿٣٠٤﴾ ﴿٣٠٥﴾ ﴿٣٠٦﴾ ﴿٣٠٧﴾ ﴿٣٠٨﴾ ﴿٣٠٩﴾ ﴿٣١٠﴾ ﴿٣١١﴾ ﴿٣١٢﴾ ﴿٣١٣﴾ ﴿٣١٤﴾ ﴿٣١٥﴾ ﴿٣١٦﴾ ﴿٣١٧﴾ ﴿٣١٨﴾ ﴿٣١٩﴾ ﴿٣٢٠﴾ ﴿٣٢١﴾ ﴿٣٢٢﴾ ﴿٣٢٣﴾ ﴿٣٢٤﴾ ﴿٣٢٥﴾ ﴿٣٢٦﴾ ﴿٣٢٧﴾ ﴿٣٢٨﴾ ﴿٣٢٩﴾ ﴿٣٣٠﴾ ﴿٣٣١﴾ ﴿٣٣٢﴾ ﴿٣٣٣﴾ ﴿٣٣٤﴾ ﴿٣٣٥﴾ ﴿٣٣٦﴾ ﴿٣٣٧﴾ ﴿٣٣٨﴾ ﴿٣٣٩﴾ ﴿٣٤٠﴾ ﴿٣٤١﴾ ﴿٣٤٢﴾ ﴿٣٤٣﴾ ﴿٣٤٤﴾ ﴿٣٤٥﴾ ﴿٣٤٦﴾ ﴿٣٤٧﴾ ﴿٣٤٨﴾ ﴿٣٤٩﴾ ﴿٣٥٠﴾ ﴿٣٥١﴾ ﴿٣٥٢﴾ ﴿٣٥٣﴾ ﴿٣٥٤﴾ ﴿٣٥٥﴾ ﴿٣٥٦﴾ ﴿٣٥٧﴾ ﴿٣٥٨﴾ ﴿٣٥٩﴾ ﴿٣٦٠﴾ ﴿٣٦١﴾ ﴿٣٦٢﴾ ﴿٣٦٣﴾ ﴿٣٦٤﴾ ﴿٣٦٥﴾ ﴿٣٦٦﴾ ﴿٣٦٧﴾ ﴿٣٦٨﴾ ﴿٣٦٩﴾ ﴿٣٧٠﴾ ﴿٣٧١﴾ ﴿٣٧٢﴾ ﴿٣٧٣﴾ ﴿٣٧٤﴾ ﴿٣٧٥﴾ ﴿٣٧٦﴾ ﴿٣٧٧﴾ ﴿٣٧٨﴾ ﴿٣٧٩﴾ ﴿٣٨٠﴾ ﴿٣٨١﴾ ﴿٣٨٢﴾ ﴿٣٨٣﴾ ﴿٣٨٤﴾ ﴿٣٨٥﴾ ﴿٣٨٦﴾ ﴿٣٨٧﴾ ﴿٣٨٨﴾ ﴿٣٨٩﴾ ﴿٣٩٠﴾ ﴿٣٩١﴾ ﴿٣٩٢﴾ ﴿٣٩٣﴾ ﴿٣٩٤﴾ ﴿٣٩٥﴾ ﴿٣٩٦﴾ ﴿٣٩٧﴾ ﴿٣٩٨﴾ ﴿٣٩٩﴾ ﴿٤٠٠﴾ ﴿٤٠١﴾ ﴿٤٠٢﴾ ﴿٤٠٣﴾ ﴿٤٠٤﴾ ﴿٤٠٥﴾ ﴿٤٠٦﴾ ﴿٤٠٧﴾ ﴿٤٠٨﴾ ﴿٤٠٩﴾ ﴿٤١٠﴾ ﴿٤١١﴾ ﴿٤١٢﴾ ﴿٤١٣﴾ ﴿٤١٤﴾ ﴿٤١٥﴾ ﴿٤١٦﴾ ﴿٤١٧﴾ ﴿٤١٨﴾ ﴿٤١٩﴾ ﴿٤٢٠﴾ ﴿٤٢١﴾ ﴿٤٢٢﴾ ﴿٤٢٣﴾ ﴿٤٢٤﴾ ﴿٤٢٥﴾ ﴿٤٢٦﴾ ﴿٤٢٧﴾ ﴿٤٢٨﴾ ﴿٤٢٩﴾ ﴿٤٣٠﴾ ﴿٤٣١﴾ ﴿٤٣٢﴾ ﴿٤٣٣﴾ ﴿٤٣٤﴾ ﴿٤٣٥﴾ ﴿٤٣٦﴾ ﴿٤٣٧﴾ ﴿٤٣٨﴾ ﴿٤٣٩﴾ ﴿٤٤٠﴾ ﴿٤٤١﴾ ﴿٤٤٢﴾ ﴿٤٤٣﴾ ﴿٤٤٤﴾ ﴿٤٤٥﴾ ﴿٤٤٦﴾ ﴿٤٤٧﴾ ﴿٤٤٨﴾ ﴿٤٤٩﴾ ﴿٤٥٠﴾ ﴿٤٥١﴾ ﴿٤٥٢﴾ ﴿٤٥٣﴾ ﴿٤٥٤﴾ ﴿٤٥٥﴾ ﴿٤٥٦﴾ ﴿٤٥٧﴾ ﴿٤٥٨﴾ ﴿٤٥٩﴾ ﴿٤٦٠﴾ ﴿٤٦١﴾ ﴿٤٦٢﴾ ﴿٤٦٣﴾ ﴿٤٦٤﴾ ﴿٤٦٥﴾ ﴿٤٦٦﴾ ﴿٤٦٧﴾ ﴿٤٦٨﴾ ﴿٤٦٩﴾ ﴿٤٧٠﴾ ﴿٤٧١﴾ ﴿٤٧٢﴾ ﴿٤٧٣﴾ ﴿٤٧٤﴾ ﴿٤٧٥﴾ ﴿٤٧٦﴾ ﴿٤٧٧﴾ ﴿٤٧٨﴾ ﴿٤٧٩﴾ ﴿٤٨٠﴾ ﴿٤٨١﴾ ﴿٤٨٢﴾ ﴿٤٨٣﴾ ﴿٤٨٤﴾ ﴿٤٨٥﴾ ﴿٤٨٦﴾ ﴿٤٨٧﴾ ﴿٤٨٨﴾ ﴿٤٨٩﴾ ﴿٤٩٠﴾ ﴿٤٩١﴾ ﴿٤٩٢﴾ ﴿٤٩٣﴾ ﴿٤٩٤﴾ ﴿٤٩٥﴾ ﴿٤٩٦﴾ ﴿٤٩٧﴾ ﴿٤٩٨﴾ ﴿٤٩٩﴾ ﴿٥٠٠﴾ ﴿٥٠١﴾ ﴿٥٠٢﴾ ﴿٥٠٣﴾ ﴿٥٠٤﴾ ﴿٥٠٥﴾ ﴿٥٠٦﴾ ﴿٥٠٧﴾ ﴿٥٠٨﴾ ﴿٥٠٩﴾ ﴿٥١٠﴾ ﴿٥١١﴾ ﴿٥١٢﴾ ﴿٥١٣﴾ ﴿٥١٤﴾ ﴿٥١٥﴾ ﴿٥١٦﴾ ﴿٥١٧﴾ ﴿٥١٨﴾ ﴿٥١٩﴾ ﴿٥٢٠﴾ ﴿٥٢١﴾ ﴿٥٢٢﴾ ﴿٥٢٣﴾ ﴿٥٢٤﴾ ﴿٥٢٥﴾ ﴿٥٢٦﴾ ﴿٥٢٧﴾ ﴿٥٢٨﴾ ﴿٥٢٩﴾ ﴿٥٣٠﴾ ﴿٥٣١﴾ ﴿٥٣٢﴾ ﴿٥٣٣﴾ ﴿٥٣٤﴾ ﴿٥٣٥﴾ ﴿٥٣٦﴾ ﴿٥٣٧﴾ ﴿٥٣٨﴾ ﴿٥٣٩﴾ ﴿٥٤٠﴾ ﴿٥٤١﴾ ﴿٥٤٢﴾ ﴿٥٤٣﴾ ﴿٥٤٤﴾ ﴿٥٤٥﴾ ﴿٥٤٦﴾ ﴿٥٤٧﴾ ﴿٥٤٨﴾ ﴿٥٤٩﴾ ﴿٥٥٠﴾ ﴿٥٥١﴾ ﴿٥٥٢﴾ ﴿٥٥٣﴾ ﴿٥٥٤﴾ ﴿٥٥٥﴾ ﴿٥٥٦﴾ ﴿٥٥٧﴾ ﴿٥٥٨﴾ ﴿٥٥٩﴾ ﴿٥٦٠﴾ ﴿٥٦١﴾ ﴿٥٦٢﴾ ﴿٥٦٣﴾ ﴿٥٦٤﴾ ﴿٥٦٥﴾ ﴿٥٦٦﴾ ﴿٥٦٧﴾ ﴿٥٦٨﴾ ﴿٥٦٩﴾ ﴿٥٧٠﴾ ﴿٥٧١﴾ ﴿٥٧٢﴾ ﴿٥٧٣﴾ ﴿٥٧٤﴾ ﴿٥٧٥﴾ ﴿٥٧٦﴾ ﴿٥٧٧﴾ ﴿٥٧٨﴾ ﴿٥٧٩﴾ ﴿٥٨٠﴾ ﴿٥٨١﴾ ﴿٥٨٢﴾ ﴿٥٨٣﴾ ﴿٥٨٤﴾ ﴿٥٨٥﴾ ﴿٥٨٦﴾ ﴿٥٨٧﴾ ﴿٥٨٨﴾ ﴿٥٨٩﴾ ﴿٥٩٠﴾ ﴿٥٩١﴾ ﴿٥٩٢﴾ ﴿٥٩٣﴾ ﴿٥٩٤﴾ ﴿٥٩٥﴾ ﴿٥٩٦﴾ ﴿٥٩٧﴾ ﴿٥٩٨﴾ ﴿٥٩٩﴾ ﴿٦٠٠﴾ ﴿٦٠١﴾ ﴿٦٠٢﴾ ﴿٦٠٣﴾ ﴿٦٠٤﴾ ﴿٦٠٥﴾ ﴿٦٠٦﴾ ﴿٦٠٧﴾ ﴿٦٠٨﴾ ﴿٦٠٩﴾ ﴿٦١٠﴾ ﴿٦١١﴾ ﴿٦١٢﴾ ﴿٦١٣﴾ ﴿٦١٤﴾ ﴿٦١٥﴾ ﴿٦١٦﴾ ﴿٦١٧﴾ ﴿٦١٨﴾ ﴿٦١٩﴾ ﴿٦٢٠﴾ ﴿٦٢١﴾ ﴿٦٢٢﴾ ﴿٦٢٣﴾ ﴿٦٢٤﴾ ﴿٦٢٥﴾ ﴿٦٢٦﴾ ﴿٦٢٧﴾ ﴿٦٢٨﴾ ﴿٦٢٩﴾ ﴿٦٣٠﴾ ﴿٦٣١﴾ ﴿٦٣٢﴾ ﴿٦٣٣﴾ ﴿٦٣٤﴾ ﴿٦٣٥﴾ ﴿٦٣٦﴾ ﴿٦٣٧﴾ ﴿٦٣٨﴾ ﴿٦٣٩﴾ ﴿٦٤٠﴾ ﴿٦٤١﴾ ﴿٦٤٢﴾ ﴿٦٤٣﴾ ﴿٦٤٤﴾ ﴿٦٤٥﴾ ﴿٦٤٦﴾ ﴿٦٤٧﴾ ﴿٦٤٨﴾ ﴿٦٤٩﴾ ﴿٦٥٠﴾ ﴿٦٥١﴾ ﴿٦٥٢﴾ ﴿٦٥٣﴾ ﴿٦٥٤﴾ ﴿٦٥٥﴾ ﴿٦٥٦﴾ ﴿٦٥٧﴾ ﴿٦٥٨﴾ ﴿٦٥٩﴾ ﴿٦٦٠﴾ ﴿٦٦١﴾ ﴿٦٦٢﴾ ﴿٦٦٣﴾ ﴿٦٦٤﴾ ﴿٦٦٥﴾ ﴿٦٦٦﴾ ﴿٦٦٧﴾ ﴿٦٦٨﴾ ﴿٦٦٩﴾ ﴿٦٧٠﴾ ﴿٦٧١﴾ ﴿٦٧٢﴾ ﴿٦٧٣﴾ ﴿٦٧٤﴾ ﴿٦٧٥﴾ ﴿٦٧٦﴾ ﴿٦٧٧﴾ ﴿٦٧٨﴾ ﴿٦٧٩﴾ ﴿٦٨٠﴾ ﴿٦٨١﴾ ﴿٦٨٢﴾ ﴿٦٨٣﴾ ﴿٦٨٤﴾ ﴿٦٨٥﴾ ﴿٦٨٦﴾ ﴿٦٨٧﴾ ﴿٦٨٨﴾ ﴿٦٨٩﴾ ﴿٦٩٠﴾ ﴿٦٩١﴾ ﴿٦٩٢﴾ ﴿٦٩٣﴾ ﴿٦٩٤﴾ ﴿٦٩٥﴾ ﴿٦٩٦﴾ ﴿٦٩٧﴾ ﴿٦٩٨﴾ ﴿٦٩٩﴾ ﴿٧٠٠﴾ ﴿٧٠١﴾ ﴿٧٠٢﴾ ﴿٧٠٣﴾ ﴿٧٠٤﴾ ﴿٧٠٥﴾ ﴿٧٠٦﴾ ﴿٧٠٧﴾ ﴿٧٠٨﴾ ﴿٧٠٩﴾ ﴿٧١٠﴾ ﴿٧١١﴾ ﴿٧١٢﴾ ﴿٧١٣﴾ ﴿٧١٤﴾ ﴿٧١٥﴾ ﴿٧١٦﴾ ﴿٧١٧﴾ ﴿٧١٨﴾ ﴿٧١٩﴾ ﴿٧٢٠﴾ ﴿٧٢١﴾ ﴿٧٢٢﴾ ﴿٧٢٣﴾ ﴿٧٢٤﴾ ﴿٧٢٥﴾ ﴿٧٢٦﴾ ﴿٧٢٧﴾ ﴿٧٢٨﴾ ﴿٧٢٩﴾ ﴿٧٣٠﴾ ﴿٧٣١﴾ ﴿٧٣٢﴾ ﴿٧٣٣﴾ ﴿٧٣٤﴾ ﴿٧٣٥﴾ ﴿٧٣٦﴾ ﴿٧٣٧﴾ ﴿٧٣٨﴾ ﴿٧٣٩﴾ ﴿٧٤٠﴾ ﴿٧٤١﴾ ﴿٧٤٢﴾ ﴿٧٤٣﴾ ﴿٧٤٤﴾ ﴿٧٤٥﴾ ﴿٧٤٦﴾ ﴿٧٤٧﴾ ﴿٧٤٨﴾ ﴿٧٤٩﴾ ﴿٧٥٠﴾ ﴿٧٥١﴾ ﴿٧٥٢﴾ ﴿٧٥٣﴾ ﴿٧٥٤﴾ ﴿٧٥٥﴾ ﴿٧٥٦﴾ ﴿٧٥٧﴾ ﴿٧٥٨﴾ ﴿٧٥٩﴾ ﴿٧٦٠﴾ ﴿٧٦١﴾ ﴿٧٦٢﴾ ﴿٧٦٣﴾ ﴿٧٦٤﴾ ﴿٧٦٥﴾ ﴿٧٦٦﴾ ﴿٧٦٧﴾ ﴿٧٦٨﴾ ﴿٧٦٩﴾ ﴿٧٧٠﴾ ﴿٧٧١﴾ ﴿٧٧٢﴾ ﴿٧٧٣﴾ ﴿٧٧٤﴾ ﴿٧٧٥﴾ ﴿٧٧٦﴾ ﴿٧٧٧﴾ ﴿٧٧٨﴾ ﴿٧٧٩﴾ ﴿٧٨٠﴾ ﴿٧٨١﴾ ﴿٧٨٢﴾ ﴿٧٨٣﴾ ﴿٧٨٤﴾ ﴿٧٨٥﴾ ﴿٧٨٦﴾ ﴿٧٨٧﴾ ﴿٧٨٨﴾ ﴿٧٨٩﴾ ﴿٧٩٠﴾ ﴿٧٩١﴾ ﴿٧٩٢﴾ ﴿٧٩٣﴾ ﴿٧٩٤﴾ ﴿٧٩٥﴾ ﴿٧٩٦﴾ ﴿٧٩٧﴾ ﴿٧٩٨﴾ ﴿٧٩٩﴾ ﴿٨٠٠﴾ ﴿٨٠١﴾ ﴿٨٠٢﴾ ﴿٨٠٣﴾ ﴿٨٠٤﴾ ﴿٨٠٥﴾ ﴿٨٠٦﴾ ﴿٨٠٧﴾ ﴿٨٠٨﴾ ﴿٨٠٩﴾ ﴿٨١٠﴾ ﴿٨١١﴾ ﴿٨١٢﴾ ﴿٨١٣﴾ ﴿٨١٤﴾ ﴿٨١٥﴾ ﴿٨١٦﴾ ﴿٨١٧﴾ ﴿٨١٨﴾ ﴿٨١٩﴾ ﴿٨٢٠﴾ ﴿٨٢١﴾ ﴿٨٢٢﴾ ﴿٨٢٣﴾ ﴿٨٢٤﴾ ﴿٨٢٥﴾ ﴿٨٢٦﴾ ﴿٨٢٧﴾ ﴿٨٢٨﴾ ﴿٨٢٩﴾ ﴿٨٣٠﴾ ﴿٨٣١﴾ ﴿٨٣٢﴾ ﴿٨٣٣﴾ ﴿٨٣٤﴾ ﴿٨٣٥﴾ ﴿٨٣٦﴾ ﴿٨٣٧﴾ ﴿٨٣٨﴾ ﴿٨٣٩﴾ ﴿٨٤٠﴾ ﴿٨٤١﴾ ﴿٨٤٢﴾ ﴿٨٤٣﴾ ﴿٨٤٤﴾ ﴿٨٤٥﴾ ﴿٨٤٦﴾ ﴿٨٤٧﴾ ﴿٨٤٨﴾ ﴿٨٤٩﴾ ﴿٨٥٠﴾ ﴿٨٥١﴾ ﴿٨٥٢﴾ ﴿٨٥٣﴾ ﴿٨٥٤﴾ ﴿٨٥٥﴾ ﴿٨٥٦﴾ ﴿٨٥٧﴾ ﴿٨٥٨﴾ ﴿٨٥٩﴾ ﴿٨٦٠﴾ ﴿٨٦١﴾ ﴿٨٦٢﴾ ﴿٨٦٣﴾ ﴿٨٦٤﴾ ﴿٨٦٥﴾ ﴿٨٦٦﴾ ﴿٨٦٧﴾ ﴿٨٦٨﴾ ﴿٨٦٩﴾ ﴿٨٧٠﴾ ﴿٨٧١﴾ ﴿٨٧٢﴾ ﴿٨٧٣﴾ ﴿٨٧٤﴾ ﴿٨٧٥﴾ ﴿٨٧٦﴾ ﴿٨٧٧﴾ ﴿٨٧٨﴾ ﴿٨٧٩﴾ ﴿٨٨٠﴾ ﴿٨٨١﴾ ﴿٨٨٢﴾ ﴿٨٨٣﴾ ﴿٨٨٤﴾ ﴿٨٨٥﴾ ﴿٨٨٦﴾ ﴿٨٨٧﴾ ﴿٨٨٨﴾ ﴿٨٨٩﴾ ﴿٨٩٠﴾ ﴿٨٩١﴾ ﴿٨٩٢﴾ ﴿٨٩٣﴾ ﴿٨٩٤﴾ ﴿٨٩٥﴾ ﴿٨٩٦﴾ ﴿٨٩٧﴾ ﴿٨٩٨﴾ ﴿٨٩٩﴾ ﴿٩٠٠﴾ ﴿٩٠١﴾ ﴿٩٠٢﴾ ﴿٩٠٣﴾ ﴿٩٠٤﴾ ﴿٩٠٥﴾ ﴿٩٠٦﴾ ﴿٩٠٧﴾ ﴿٩٠٨﴾ ﴿٩٠٩﴾ ﴿٩١٠﴾ ﴿٩١١﴾ ﴿٩١٢﴾ ﴿٩١٣﴾ ﴿٩١٤﴾ ﴿٩١٥﴾ ﴿٩١٦﴾ ﴿٩١٧﴾ ﴿٩١٨﴾ ﴿٩١٩﴾ ﴿٩٢٠﴾ ﴿٩٢١﴾ ﴿٩٢٢﴾ ﴿٩٢٣﴾ ﴿٩٢٤﴾ ﴿٩٢٥﴾ ﴿٩٢٦﴾ ﴿٩٢٧﴾ ﴿٩٢٨﴾ ﴿٩٢٩﴾ ﴿٩٣٠﴾ ﴿٩٣١﴾ ﴿٩٣٢﴾ ﴿٩٣٣﴾ ﴿٩٣٤﴾ ﴿٩٣٥﴾ ﴿٩٣٦﴾ ﴿٩٣٧﴾ ﴿٩٣٨﴾ ﴿٩٣٩﴾ ﴿٩٤٠﴾ ﴿٩٤١﴾ ﴿٩٤٢﴾ ﴿٩٤٣﴾ ﴿٩٤٤﴾ ﴿٩٤٥﴾ ﴿٩٤٦﴾ ﴿٩٤٧﴾ ﴿٩٤٨﴾ ﴿٩٤٩﴾ ﴿٩٥٠﴾ ﴿٩٥١﴾ ﴿٩٥٢﴾ ﴿٩٥٣﴾ ﴿٩٥٤﴾ ﴿٩٥٥﴾ ﴿٩٥٦﴾ ﴿٩٥٧﴾ ﴿٩٥٨﴾ ﴿٩٥٩﴾ ﴿٩٦٠﴾ ﴿٩٦١﴾ ﴿٩٦٢﴾ ﴿٩٦٣﴾ ﴿٩٦٤﴾ ﴿٩٦٥﴾ ﴿٩٦٦﴾ ﴿٩٦٧﴾ ﴿٩٦٨﴾ ﴿٩٦٩﴾ ﴿٩٧٠﴾ ﴿٩٧١﴾ ﴿٩٧٢﴾ ﴿٩٧٣﴾ ﴿٩٧٤﴾ ﴿٩٧٥﴾ ﴿٩٧٦﴾ ﴿٩٧٧﴾ ﴿٩٧٨﴾ ﴿٩٧٩﴾ ﴿٩٨٠﴾ ﴿٩٨١﴾ ﴿٩٨٢﴾ ﴿٩٨٣﴾ ﴿٩٨٤﴾ ﴿٩٨٥﴾ ﴿٩٨٦﴾ ﴿٩٨٧﴾ ﴿٩٨٨﴾ ﴿٩٨٩﴾ ﴿٩٩٠﴾ ﴿٩٩١﴾ ﴿٩٩٢﴾ ﴿٩٩٣﴾ ﴿٩٩٤﴾ ﴿٩٩٥﴾ ﴿٩٩٦﴾ ﴿٩٩٧﴾ ﴿٩٩٨﴾ ﴿٩٩٩﴾ ﴿١٠٠٠﴾

(١) فی ب : ثم أخذه.

(٢) فی ب : التميز.

الآية.
فهؤلاء حسبو أن یخلهم نافعهم، ومجد علیهم، فانقلب علیهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم.

﴿ولله میراث السماوات والأرض﴾ أي : هو تعالی مالک الملك، وترد جمیع الأملاك إلی مالکها، وینقلب العباد من الدنیا ما معهم درهم ولا دینار، ولا غیر ذلك من المال.

قال تعالی : ﴿إننا نحن نرث الأرض ومن علیها وإلینا یرجعون﴾ وتأمل کیف ذکر السبب الابتدائی والسبب الغائی، الموجب کل واحد منهما أن لا یبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولاً : أن الذي عنده وفي یده فضل من الله ونعمة، لیس مالکاً للعبد، بل لولا فضل الله علیه وإحسانه، لم یصل إلیه منه شیء، فتمتعه لذلك منع لفضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلی عبیده کما قال تعالی : ﴿وأحسن کما أحسن الله إلیک﴾.

فمن تحقق أن ما بیده، فضل من الله، لم یمنع الفضل الذي لا یضره، بل ینفعه فی قلبه وماله، وزیادة إیمانه، وحفظه من الآفات.

ثم ذکر ثانیاً : أن هذا الذي بید

لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قِبَلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَالَّذِي قُلْتُمْ﴾ بأن أناكم بقربان تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟﴾ أي: في دعواهم^(١) الإيمان برسول يأتي^(٢) بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم وتناقضهم.

ثم سلى رسوله ﷺ، فقال: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسول من قبلك﴾ أي: هذه عادة الظالمين، ودأبهم الكفر بالله، وتكذيب رسول الله وليس تكذيبهم لرسول الله، عن قصور ما أتوا به، أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جاؤوا بالبينات﴾ أي: الحجج العقلية، والبراهين النقلية، ﴿والزبر﴾ أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل.

﴿والكتاب المنير﴾ للأحكام الشرعية، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة، فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسول، الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم، ولا يهيجك شأنهم. ﴿١٨٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿كُلْ نَفْسٌ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها الترهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر. ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ﴾ أي: أخرج، ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن

ظلاماً من الله لهم، فإنه ﴿ليس بظلام للعبيد﴾ فإنه منزّه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبايح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا بذلك، وذكروا منهم «فتاح بن عازوراء» من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ وأقرضوا الله قرضاً حسناً قال: على وجه التكبر والتجهر - هذه المقابلة قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببلد من شأنهم، بل قد سبق لهم من الشائع ما هو نظير ذلك، وهو: ﴿قتلهم الأنبياء بغير حق﴾ هذا القيد يراد به، أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعتهم، لا جهلاً وضلالاً، بل تمرداً وعناداً.

﴿١٨٣ - ١٨٤﴾ «الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتيان بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين» فإن كذبوك فقد كذب رسول من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفتزين القائلين: ﴿إن الله عهد إلينا﴾ أي: تقدم إلينا وأوصى، ﴿ألا نؤمن لرسول، حتى يأتيان بقربان تأكله النار﴾ فجمعوا بين الكذب على الله، وحصر آية الرسل بما قالوه، من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتيهم بقربان تأكله النار، فهم - في ذلك - مطيعون لربهم، ملتزمون وعهده، وقد علم أن كل رسول يرسله الله، يؤيده من الآيات والبراهين، ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفاكاً لم يلتزموه، وباطلاً لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول



العباد كلها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبلبل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثاً: السبب الجزائي، فقال: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر - لم يتخلف من في قلبه مشقة ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الشواب، ولا يرضى بالإسماك الذي به العقاب.

﴿١٨١ - ١٨٢﴾ «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق» ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد يخبر تعالى، عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها، وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم - بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء - ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفتدة، وأن عذابهم ليس

(٢) في ب: يأتيكم.

(١) في ب: دعواكم.



يستطع فعلى جنب، وأنهم **﴿يتفكرون﴾** في خلق السماوات والأرض **﴿أي﴾** ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً، فيقولون: **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه﴾** عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق.

﴿فقنا عذاب النار﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار.

ويتضمن ذلك سؤال الجنة، لأهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم، **﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أضررتني﴾** أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها، ولهذا قال: **﴿وما للظالمين من أنصار﴾** ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ وهو محمد ﷺ، أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه.

﴿فآمنا﴾ أي: أجبناه مبادزة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمئة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وترسل إليه بذلك، أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي من عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام.

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والنياب إلى المات.

ولما ذكرنا توفيق الله إيانهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سأله الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز

عذاب النار * ربنا إنك من تدخل النار فقد أضررتني وما للظالمين من أنصار * ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاعفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * يخبر تعالى: **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب﴾** وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأهم قوله: **﴿آيات﴾** ولم يقل: **﴿على المطلب الفلاني﴾** إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته. وما فيها من الأحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضعها الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من المنافع للخلق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، عن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الألباب بأنهم **﴿يذكرون الله﴾** في جميع أحوالهم: **﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾** وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم

أنت بحق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمّد ويشنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازي بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: **﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾** وقال: **﴿سلام على نوح في العالمين﴾** إنا كذلك نجزي المحسنين. وقد قال عباد الرحمن: **﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾** وهي من نعم الباري على عبده، ومنته التي تحتاج إلى الشكر.

﴿١٨٩﴾ **﴿ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير﴾** أي: هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما، من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿١٩٠ - ١٩٤﴾ **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب﴾** الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا

على ذلك .

والزوجات والقيام به ، لكون الزوجات مخلوقات من الأرواح ، فيبنيهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال ، وأقرب^(١) علاقة .

وقوله تعالى : ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ، هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة .

وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافرين^(٢) لهم ، وهم ضغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم .

فأمر الرؤوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقرّبوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن ، وأن يؤثروهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا ، كاملة موفرة ، وأن لا «تتبدلوا الخبيث»

الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق . «بالتطيب» وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة . ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي : مع أموالكم ، ففيه تنبيه لفتح أكل مالهم بهذه الحالة ، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله . فمن تجرأ على هذه الحالة ، فقد أتى «حوباً كبيراً» أي : إثماً عظيماً ، ووزراً جسيماً .

ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس ، ويجعل بدله من ماله الخسيس . وفيه الولاية على اليتيم ، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ، ثبوت ولاية الوصي على ماله .

وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم ، لأن تمام إيتائه ماله حفظه ، والقيام به بما يصلحه وينميّه ، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار .

﴿٣ - ٤﴾ «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا» * وأتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء

وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك ، وأن الموجب لتقواه لأنه «ربكم الذي خلقكم» ورزقكم ، ورباكم بنعمه العظيمة ، التي من جلتها خلقكم «من نفس واحدة وخلق منها زوجها» ليناسبها ، فيسكن إليها ، وتتم بذلك النعمة ، ويحصل به السرور ، وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم ، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومازركم ، توسلتم لها بالسؤال بالله . فيقول من يريد ذلك لغیره : أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني ؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي . أن لا يرد من سأله بالله ، فكما أعظمتموه بذلك فلتعظموه بعبادته وتقواه .

وكذلك الإخبار بأنه رقيب ، أي : مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكنوتهم ، وسرهم وعلنهم ، وجميع أحوالهم ، مراقباً لهم فيها مما يوجب مراقبته ، وشدة الحياء منه ، يلزم تقواه .

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة ، وأنه يشهم في أقطار الأرض ، مع رجوعهم إلى أصل واحد . ليعطف بعضهم على بعض ، ويرق بعضهم على بعض . وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها ، ليؤكد هذا الحق ، وأنه كما يلزم القيام بحق الله ، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق ، خصوصاً الأقربين منهم ، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به ، وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى ، وصلة الأرحام والأزواج عموماً ، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل ، من أول السورة إلى آخرها . فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة ، مفصلة لما أجل منها ، موضحة لما أهم .

وفي قوله : ﴿وخلق منها زوجها﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج



الذي يخاف من وصول العدو منه ، وأن يراقبوا أعداءهم ، ويمنعوه من الوصول إلى مقاصدهم ، لعلهم يفلحون : يفوزون بالمحبوب الديني والدينيوي والأخروي ، وينجون من المكروه كذلك .

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمراعاة المذكورات ، فلم يفلح من أفلح إلا بها ، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلاق بها أو ببعضها .

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به .

تم تفسير «سورة آل عمران» والحمد لله على نعمته ، ونسأله تمام النعمة .

تفسير سورة النساء وهي مدنية

﴿١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً» افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه ، والحث على عبادته ، والأمر بصلة الأرحام ، والحث

(١) في ب : وأوتق .

(٢) كذا في ب ، وفي أ : الذين فقدت آبائهم الكافلون .

منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴿٤١﴾ وإن خفتم ألا تعدلوا في تأمى النساء اللاتي تحت حجوركم ولولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بهنّ لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، وإنكحوا ﴿٤٢﴾ ما طاب لكم من النساء ﴿٤٣﴾ أي: ما وقع عليهن اختياركم، من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبي ﷺ: «تُكَّحُ المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك».

وفي هذه الآية - أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل وقد أباح له الشارع النظر إلى مَنْ يريد تزوجها، ليكون على بصيرة من أمره. ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال: «مثنى وثلاث ورباع» أي: مَنْ أحب أن يأخذ ثنتين فليفعل، أو ثلاثاً فليفعل، أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمي الله تعالى إجماعاً.

وذلك لأن الرجل قد لا تستدفع شهوته بالواحدة، فأبيع له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعاً، لأن في الأربع غنية لكل أحد، إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن.

فإن خاف شيئاً من هذا، فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه: فإنه لا يجب عليه القسم في ملك اليمين. **﴿ذلك﴾** أي: الإقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين **﴿أدنى ألا تقولوا﴾** أي: تظلموا.

وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحاً - أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطى العبد.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويضمونهن حقوقهن، خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحشهم على إيتاء النساء «صدقاتهن» أي: مهرهن «نحلة» أي: عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تظلموهن أو تبخسوا منه شيئاً. وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكفلة، وأنها تملكه بالعقد، لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك.

﴿فَإِنْ طَبِخَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾
 أي: من الصداق ﴿وَنَفْسًا﴾ بأن سمح
 لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء
 منه، أو تأخيرها أو المعاوضة عنه.
 ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ أي: لا حرج
 عليكم في ذلك ولا تبعة.

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها - ولو بالتجرع - إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك، فليس لعظمتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به.

وفي قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه، كالمرسوخة، وكالفاجرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ وقال: ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

﴿٥٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا
السُّفَهَاءَ أَمْوَالُكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا

لهم قولاً معروفاً السفهاء، جمع «سفيه»، وهو من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمعته، ونحوهما، وإما لعدم رشد كالصغير وغير الرشيد. فنهى الله الأولياء أن يؤثروا هؤلاء أموالهم، خشية إفسادها وإتلافها، لأن الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبدل منها ما يتعلق

وَاللَّهُ يُدْأَنُ يُؤْتِي عَلَىٰكُمْ وَيُؤْتِي الدِّينَ يُعْطِي
الْفُتُورَ أَنْ يُولَىٰ أَسْلَاطًا ۝ يُدْأَنُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ
كُفْرَ وَشُرُوقِ الْإِنْسَانِ مَوَافًا ۝ بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا لَنَا لَوْ أَنَّا لَكُنَّا بِكُمْ بِتَكْمُلِ الْبُطْلَانِ لَا
أَنَّا كُفْرَ عِزَّةٍ عَنْ حُرْمَانِ وَكُفْرَ وَلَا تَقُولُوا الْكُفْرَ
إِنَّهُ لَكُنَّا بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
عَدُوًّا وَلَدًا مُرَوِّفَ تَضْلِيلِهِ نَأْرًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يُسْرًا ۝ إِنَّ جَنَّتِي لَوَ كَيْفَ مَا شَهِدَ عَنْهُ كُفْرَ
عَنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَدَّعَاكُمْ ثُمَّ كَلَّمَ كَيْفَا ۝
وَلَا تَسْتَوُوا بِأَفْضَلِ اللَّهِ بِهِ بِكُمْ عَلَىٰ بَعْضِ الرِّسَالِ
نُصِيبَ وَمَا أَنْتُمْ بِسَوَاءٍ لِكُلِّ نُصِيبٍ وَمَا أَنْتُمْ
وَسَقُولُوا الَّذِينَ قَدْ قِيلُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ شَيْءٍ
يُسْرًا ۝ وَلَئِنْ لَمْ يَنْجِئْنَا لَوْلَا وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ
وَالْأَفْئُورَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْدِيكُمْ فَذُوقُوا
تَضْلِيلَهُمُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ شَيْءٍ قَوِيًّا

بضرورتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، بأن يعدوهم - إذا طلبوها - أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواطرهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار. وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله: **وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ**.

وفيه دليل على أن قول الولي مقبول
فيما يدعيه من التفقة المكتنة والكسوة؛
لأن الله جعله مؤتمناً على ماله، فلزم
قبول قول الأمين.

﴿٦﴾ ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا
بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ
رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا
تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا
وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَن
كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ
فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ
فَاشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
حَسِيبًا﴾

الابتلاء : هو الاختبار والامتحان .
وذلك بأن يدفع لليتم المازر للرشد،
الممكن رشده، شيئاً من ماله،
ويتصرف فيه التصرف اللائق بحالة،
فيتبين بذلك رشده من سقه . فإن



استمر غير محسن للتصرف، لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً.

فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح «فادفعوا إليهم أموالهم» كاملة موفرة. «ولا تأكلوها إسرافاً» أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرّمه الله عليكم من أموالهم.

«وبنداراً أن يكبروا» أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم، التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.

وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال، حال فرصة، فيغتتمونها ويتعجلون ما حرّم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿٧﴾ «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً» كان العرب في الجاهلية - من جبروتهم^(١) وقسوتهم،

لا يورثون الضعفاء، كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقرباء، لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال، والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم، وأقرباؤهم وضعفاؤهم. وقدم بين يدي ذلك أمراً محملاً، لتوطن على ذلك النفوس.

فيأتي التفضيل بعد الإجمال، قد تشوّفت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: «للرجال نصيب» أي: قسط وحصّة «مما ترك» أي: خلف «الوالدان» أي: الأب والأم «والأقربون» عموم بعد خصوص «والنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون».

فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاؤون؟ أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: «نصيباً مفروضاً» أي: قد قدره العلّيم الحكيم. وسيأتي - إن شاء الله - تقدير ذلك.

وأيضاً فهأنا توهم آخر، لعل أحداً يتوهم أن النساء والوالدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: «مما قل منه أو كثر» فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿٨﴾ «وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً» وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب، فقال: «وإذا حضر القسمة» أي: قسمة الموارث «أولو القربى» أي: الأقارب غير الوارثين، بقرينة قوله: «القسمة» لأن الوارثين من المقسوم عليهم. «واليتامى والمساكين» أي: المستحقون من الفقراء. «فارزقوهم منه» أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نصب، فإن نفوسهم متشفوة إليه، وقلوبهم

متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضرهم وهو نافعهم. ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقتين» أو كما قال.

وكان الصحابة رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علماً منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك - لكونه حق سفهاء، أو ثم أهم من ذلك - فليقولوا لهم قولاً معروفاً يردوهم^(٢) رداً جيلاً، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿٩ - ١٠﴾ «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً» إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً» قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر من حضره الموت وأجف في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها، بدليل قوله: «وليقولوا قولاً سديداً» أي: سداداً، موافقاً للقسط والمعروف. وأنهم يأمر من يريد الوصية على أولاده، بما يجون معاملة أولادهم بعدهم.

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يجون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف. «فليتقوا الله» في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملوهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، والزامهم لتقوى الله.

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد

(٢) في ب: يردوهم.

(١) في السختين: جبروتهم.



ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من دونهن من بنات الابن، لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم، فلم يسقطن، لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام مجمعة عليها بين العلماء، والله الحمد.

ودل قوله: ﴿مما ترك﴾ أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت، من عقار، وأثاث، وذهب وفضة، وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمم^(١).

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: ﴿ولأبويه﴾ أي: أبوه وأمه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد أي: ولد صلب أو ولد ابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً. فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

وأما الأب فمع المذكور منهم، لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان

(١) في ب: الذمة.

الولد أنثى أو إنثاء، ولم يبق بعد الفرض شيء - كأبوين وابنتين - لم يبق له تعصيب. وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء، أخذ الأب السدس فرضاً، والباقي تعصبياً، لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعيم، وغيرهما.

﴿فإن لم يكن له ولد، وورثه أبواه، فلأُمه الثلث﴾ أي: والباقي للأب، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم، إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك، على أن الباقي للأب.

وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصبياً المال كله، أو ما أبقّت الفروض، لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالعمريتين - فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي.

وقد دل على ذلك قوله: ﴿وورثه أبواه، فلأُمه الثلث﴾ أي: ثلث ما ورثه الأبوان. وهو في هاتين الصورتين، إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب. فلم تدل الآية على إرث الأم، ثلث المال كاملاً، منع عدم الأولاد حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا.

ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين.

ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن المعهود مساواتها للأب، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فإن كان له إخوة فلأُمه السدس﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم، ذكوراً كانوا

أو إنثاء، وارثين أو محجوبين بالأب، أو الجد [لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله: ﴿فإن كان له إخوة﴾ شاملاً لغير الوارثين بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم^(٢)، ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر، ويشكل على ذلك إتيان لفظ «الإخوة» بلفظ الجمع. وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين.

وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنين، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان. ﴿وكنّا لحكمهم شاهدين﴾ وقال في الإخوة للأم: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾

فأطلق لفظ الجمع والمراد اثنين فأكثر بالإجماع. فعلى هذا لو خلف أم وأباً وإخوة، كان للأم السدس، والباقي للأب، فحجبوها عن الثلث، مع حجب الأب إياهم [إلا على الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث والباقي للأب]^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ أي: هذه الفروض والأنصبة والموارث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك، هو التركة الذي يستحقه الورثة.

وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها شاقاً على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال.

(٢) زيادة من هامش ب وهناك زيادة أخرى في هامش أ وإن لم يبين محلها، لكنها ذات صلة بهذا الموضوع وهي قوله: [وعند شيخ الإسلام إذا كان الإخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم] وبعد كلمة الأم كلمة غير واضحة في الأصل.

(٣) زيادة من هامش ب.

لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل، لا احتمال ظلمنا له. فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿أعدلوا هو أقرب للتقوى﴾. وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور. و﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾. فأتقوا الله ما استطعتم.

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة
الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم
لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر
الصديق رضي الله عنه، وأن الجد
يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم،
كما يحجبهم الأب.

وبيان ذلك: أن الجذاب في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾، إذ قال لبيته ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل ﴿الآية﴾. وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

قَسَمَ اللهُ الْجَدَّ وَجَدَ الْأَبَ أَبًا.
فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْجَدَّ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ،
يَرِثُ مَا يَرِثُهُ الْأَبُ، وَيُحِبُّ مَنْ
يُحِبُّهُ.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن
الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في
ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بني
الإخوة والأعمام وبنيهم، وسائر
أحكام^(٢) الموارث، فنبغي أيضاً أن
يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة
لغير أم.

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن
الصلب، فلم لا يكون الجد بمنزلة
الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن
الأخ، قد اتفق العلماء على أنه يحجب
فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس
مع من يورث الإخوة مع الجد، نص
ولا إشارة، ولا تنبيه ولا قياس
صحيح.

وأما مسائل (الحول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل الموازيت أنصاء،

تعالى: ﴿وَلَكُمْ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ

وأما (الرقيق) فإنه لا يرث ولا يورث، أما كونه لا يورث فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث، فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى ﴿لِلذَّكَرِ

مثل حظ الاثنين ﴿ - ولکم نصف ما ترك أزواجکم ﴾ - ﴿فلکل واحد منهما السدس﴾ ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، فأما الزريق فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له. وأما من بعضه حر وبعضه رقيق، فإنه تتبع بعض أحكامه. فما فيه من الحرية يستحقها ما رتبته الله في الموارث، لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس يقابل لذلك، فإذا كان البعض يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية. وإذا كان العبد يكون محموداً مذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك.

وأما (الخنثى) فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته، أو مشكلاً. فإن كان واضحاً فالأمر فيه واضح.

وَيُشْمَلُهُ النَّصُّ الْوَاردُ فِيهِمْ .

وإن كان أنثى فله حكم الإناث،
ويشملها النص الوارد فيهن.

وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأُم - فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنثويته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين،

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام.

أَلَمْ يَأْتِ الْفِرَاقَ رَغْمُهُمْ فَيَسْأَلُوهُمَا أَمَّا أَتُوبَ الْإِنكِرَ
 وَمَا أَتُوبُ لَمْ يَقُلْ رُبُّهُمَا أَنْ يَسْأَلَا كَرَامَةَ الْكَلْبَيْنِ
 وَقَدْ أَرَادَا أَنْ يَكْفُرُوا بِأُولَئِكَ بِرَدِّ الْبَطْلَانِ لَمْ يُصَلِّهِمْ
 سَكَلًا بَعْدَ ❶ وَأَوَاقِلَ لَهُمْ تَقَارُؤُا مَا أَتُوبُ
 اللَّهُ وَالْأَسْمَاءُ رَأَيْتِ الْفَتَوَيْنِ يَصُدُّونَ عَنْكَ
 صُدُّوا ❷ فَكَفَرُوا إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ
 بِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَجْعَلُونَ لَكَ الْقُلُوبَ
 أَرْوَكَ إِلَّا أَجْعَلُكَ مَوْجُوعًا ❸ أَوَلَيْكَ الْفِرَاقُ
 بِمَا لَمْ يَكُنْ سَاقِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزِلْهُمْ عَنْهُمْ وَطَافَهُمْ وَقُلْ
 لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ❹ وَمَا أَسْأَلُكُمْ مِنْ دَرَجَةٍ
 إِلَّا الْمَعَادَ يُؤْتِيهِ اللَّهُ وَالَّذِينَ هُمْ أَنْ يَطَّلَعُوا اللَّهُ هُمْ
 حَسَابُهُ مَا تَسْتَعْتِدُّوهُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ فَتَقَبَّلْ لَهُمْ رِزْقًا
 وَجَعَلُوا لَهُ الْوَلَدَ أَجْعَلُكَ ❺ فَلَا وَرَبِّكَ لَا أَفْعَلُ قُلْ
 حَقٌّ يَحْكُمُكُمْ فِي مَا تَحْكُمُ بِهِمْ رَبُّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا
 فِي أَنْفُسِهِمْ حَزَنًا إِنْ حَصَبْتُمْ وَاسْأَلُوا اللَّهَ ❻

رتب عليه الإرث. فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بخبرائه».

وهذا ونحوه يعرف أن المخالف
لدين الموروث لا إرث له، وذلك أنه
قد تعارض الموجب الذي هو اتصال
النسب الموجب للإرث، والمانع الذي
هو المخالفة في الدين، الموجبة للمباينة
من كل وجه، فقوي المانع، ومنع
موجب الإرث الذي هو النسب، فلم
يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك
أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين
أولى من حقوق الأقارب الكفار
الذنبية، فإذا مات المسلم انتقل ماله
إلى من هو أولى وأحق به. فيكون قوله
تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ إذا اتفقت
أديانهم، وأما مع تباينهم، فالأخوة
الدينية مقدمة على الأخوة النسبية
المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»:
«وتأمل هذا المعنى في آية المواريث،
وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ
الزوجة، دون المرأة، كما في قوله

(١) في ب: العاقلين.



على حقه، يدخل في هذا التعدي، مع قوله ﴿لَا وَصِيَّةَ لِرِثَالِهِ﴾. ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً، ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك، فيقال: ﴿وَمَنْ يَطُعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيها الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. فمن أدى الأوامر، واجتنب النواهي، فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالتبعية المقيم الذي لا يصفه الراصفون.

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يَدْخُلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائمين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب.

وَمَنْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَعْصِيَةً تَامَةً، يَدْخُلْ فِيهَا الشَّرْكَ فَمَا دُونَهُ،

دخل النار وخلد فيها، وَمَنْ اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مغلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿وَاللَّاكِبِ يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةُ مِنْ نَسَاءِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَامْسُكُوهُنَ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ * واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً﴾ أي: النساء ﴿اللائي يأتين الفاحشة﴾ أي: الزنا، ووصفها بالفاحشة لشنعائها وقبحها.

﴿فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي: من رجالكم المؤمنين العدول. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَامْسُكُوهُنَ فِي الْبُيُوتِ﴾ أي: حبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً فإن الحبس من جملة العقوبات ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَ الْمَوْتُ﴾ أي: هذا منتهى الحبس. ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً غير الحبس في البيوت، وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغاية إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحسن وجلد غير المحسن.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ * ﴿اللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا﴾ أي: الفاحشة ﴿مِنْكُمْ﴾ * من الرجال والنساء ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بالقول والتوبيخ والتعيير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسن ويؤذن.

فالحبس غاية إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه، وعزما على أن لا يعودا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل الدال على صدق التوبة ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: عن آذاهما ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ

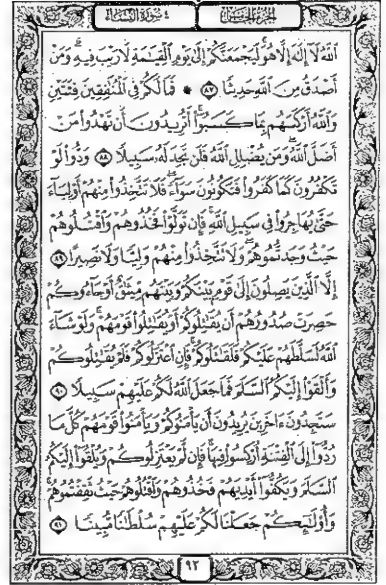
تواباً رحيماً﴾ أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي - من إحسانه - وفقهه للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بيعة الزنا، لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن سباب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة، سترأ لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة.

ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وتبوءى إليه هذه الآية لما قال: ﴿فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾. لم يكف بذلك حتى قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً، من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والخس، قد شرعه الله تعزيراً لحسن المعصية الذي يحصل به الزجر.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ * وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعذنا لهم عذاباً أليماً﴾ توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا - أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمأ منه وجوداً، لمن عمل السوء، أي: المعاصي ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أي: جهالة منه بعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقب عليها. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ * يحتمل أن يكون المعنى: ثم



للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم بل متى «أردتم استبدال زوج مكان زوج» أي: تطليق زوجة، وتزوج أخرى. أي: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج. ولكن إذا «أتيتم إحداهن» أي: المفارقة، أو التي تزوجها «قنطاراً» أي: مالا كثيراً. «فلا تأخذوا منه شيئاً» بل وفروه لهن، ولا تمطلوا بهن.

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر. ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم، ولم ينكره عليهم. فدل على عدم تحريمه لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم^(١).

ثم قال: «أناخذونه بيتاناً وإثماً مبيتاً» فإن هذا لا محل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل، فإن إثمه واضح. وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: «وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وأخذل منكم ميثاقاً غليظاً». وبيان ذلك: أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها، فإذا دخل بها وأفضى إليها، وباشرها المباشرة التي كانت حراماً قبل

ذلك، التي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض، فإنه قد استوفى المعروض، فثبت عليه العوض، فكيف يستوفي المعروض، ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد، والقيام بحقوقها. ثم قال تعالى:

﴿٢٢﴾ «ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً» أي: لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آبائكم، أي: الأب وإن علا. «إنه كان فاحشة» أي: أمراً قبيحاً يفحش ويعظم قبحه «ومقتاً» من الله لكم ومن الخلق، بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه، والأب ابنته، مع الأمر بيره. «وساء سبيلاً» أي: بش الطريق طريقاً لمن سلكه، لأن هذا من عوائد الجاهلية، التي جاء الإسلام بالتزهر عنها والبراءة منها.

﴿٢٣- ٢٤﴾ «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائك وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائك اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً * والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منتهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً» هذه الآيات الكريمة مشتملات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحلات من النساء. فأما المحرمات

في النسب فهن السبع اللاتي ذكرهن الله.

الأم، يدخل فيها كل من لها عليك ولادة، وإن بعدت. ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة، والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم. والعمة: كل أخت لأبيك، أو لجدك، وإن علا. والخالة: كل أخت لأمك، أو جدتك وإن علت، وارثة أم لا. وبنات الأخ، وبنات الأخت، أي: وإن نزلت.

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء، كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل في قوله: «وأحل لكم ما وراء ذلكم» وذلك كبنات العمة والعمة، وبنات الخال والخالة.

وأما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم، والأخت. وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتبيينه على أن صاحب اللبن، يكون أباً للمرتضع فإذا ثبت الأبوة والأمومة، ثبت ما هو فرع عنهما، كإخوتهما وأصولهم وفروعهم^(٢).

وقال النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». فينتشر التحريم من جهة الرضعة ومن له اللبن، كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط. لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين، كما بينت السنة.

وأما المحرمات بالصهر، فهن أربع. حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الإبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين. وأمهات الزوجة وإن علون، فهؤلاء الثلاث يحرم بمجرّد العقد.

والرابعة: الربية، وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجه كما قال هنا «وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن» الآية.

وقد قال الجمهور: إن قوله: «اللاتي في حجوركم» قيد خرج مخرج

(٢) في ب: وأصولهما وفروعهما.

(١) زيادة من هامش پ.

أخذان فإذا أحصن فإن أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴿٢٥﴾ أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات، أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت، أي: الزنا أو المشقة الكثيرة، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات. وهذا بخسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمر الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن.

﴿فإنكحوهن﴾ أي: المملوكات ﴿يأذن أهلهن﴾ أي: سيدهن، واحداً، أو متعدداً.

﴿وأتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي: ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحر، فكذلك يجب للإمة. ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن محصنات ﴿أي: عفيفات عن الزنا﴾ ﴿غير مسافحات﴾ أي: زانيات علانية ﴿ولا متخذات أخذان﴾ أي: أخلاء في السر.

فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة إلا بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان بهن، والعفة ظاهراً وباطناً، وعدم استطاعة طول الخرة، وخوف العنت، فإذا تمت هذه الشروط جاز له تكاثرهن.

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل، لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب. وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا يتكاثرهن وجب ذلك. ولهذا قال: ﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾.

وقوله: ﴿فإذا أحصن﴾ أي: تزوجن أو أسلمن، أي: الإماء فعليهن نصف ما على المحصنات ﴿أي: الحرائر﴾ ﴿من العذاب﴾.

وذلك الذي يمكن تنصيفه، وهو

﴿غير مسافحين﴾ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته، لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زاناً أو مشركاً﴾.

﴿فما استمتعتم به منهن﴾ أي: بمن تزوجتموهن ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع. ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه تقرر عليه صداقيها، ﴿فريضة﴾ أي: إتيانكم إياهن أجورهن، فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده. أو معنى قوله فريضة: أي: مقدرة قد قدرتموها فوجبت عليكم، فلا تنقصوا منها شيئاً.

﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيت به من بعد الفريضة﴾ أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس لهذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم حرمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها، وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم^(١).

﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي: كامل العلم واسع، كامل الحكمة. فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

﴿٢٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيما نكح من فتيانكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فإنكحوهن بإذن أهلهن وأتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات

الغالب، لا مفهوم له، فإن الربية تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان:

إحداهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربية، وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقيم إباحتها.

والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربية، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمته. وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداهما ذكراً والأخرى أنثى، حرمت عليه، فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ومن المحرمات في النكاح المحصنات من النساء ﴿أي: ذوات الأزواج﴾. فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج، حتى تطلق وتنقضي عدتها. ﴿إلا ما ملكت أيما نكح﴾ أي: بالسبي، فإذا سببت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين، بعد أن تستبرأ. وأما إذا بيعت الأمة الزوجة أو وهبت، فإنه لا يفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريدة حين خيرها النبي ﷺ.

وقوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي: الزموا واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب. فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفاً من الله ورحمة، وتيسيراً للعباد.

وقوله: ﴿أن تبغوا بأموالكم﴾ أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم محصنين ﴿أي: مستقين عن الزنا، ومعقنين نساءكم﴾.

(١) زيادة من هامش ب، وزيادة غير واضحة، وقد أتممتها من طبعة السلفية.

وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته يضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فتناسب ذلك، أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته .

﴿٢٩ - ٣٠﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ * وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوَانًا وظُلْمًا فُسُوفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ بَيْنَهُمْ بِالْبَاطِلِ، وهذا يشمل أكلها بالغصب والسرقا، وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة. بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل وليس من الحق .

ثم إنه - لما حرم أكلها بالباطل - أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره .

﴿٣١﴾ «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ * أَي: لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَقْتُلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ. ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك. * إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * ومن رحمته، أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعته وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتب من الحدود .

وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك، وقتل نفسك وقتل غيرك، بعبارة أخصر من قوله: ﴿لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ﴾ وهذه العبارة على مال الغير، ونفس الغير فقط .

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى

يسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده . ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له . فله الحمد والشكر على ذلك .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل الحكمة، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود. ومن حكمته أنه يتوب على مَنْ اقْتَضَتْ حكمته ورحمته التوبة عليه، ويَحْدِلُ مَنْ اقْتَضَتْ حكمته وعدله مَنْ لَا يَصْلَحُ للتوبة .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: توبة تلم شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم. ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا مجربهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والبغاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون ﴿أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ أي: [أَنْ] تنحرفوا عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين .

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعين، وتخيروا أحسن الطريقتين .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: بسهولة ما أمركم به و [مَا] نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع، أباح لكم ما تقتضيه حياجتكم، كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، وكزوج الأمة للحز بتلك الشروط السابقة. وذلك لرحمته التامة

الجلد، فيكون عليهم خمسون جلدة. وأما الرجم فليس على الإماء رجم، لأنه لا يتنصف، فعلى القول الأول إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة .

وعلى القول الثاني: إن الإماء غير المسلمات، إذا فعلن فاحشة أيضاً عزرن .

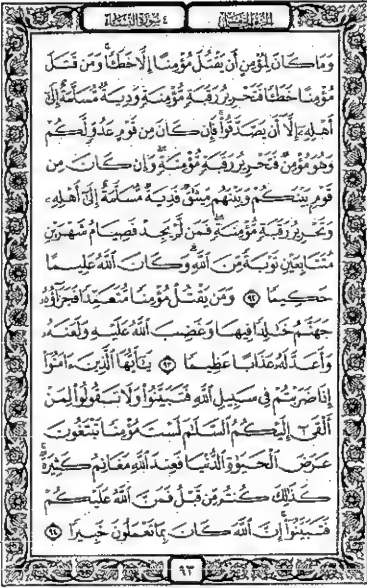
وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين «الغفور الرحيم» لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد، وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة .

ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث. وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما .

﴿٢٦ - ٢٨﴾ «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا * يُخَيِّرُ تَعَالَى بِمَنْتَه الْعَظِيمَةِ، ومنحته الجسيمة، وحسن تربيته لعباده المؤمنين، وسهولة دينه، فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال والحرام، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم، في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشماثلهم الكاملة، وتوفيقهم التام. فلذلك نفذ ما أراده، ووضح لكم، وبين بَيَانًا مَا بَيَّنَّ لِمَنْ قَبْلَكُمْ، وهذاكم هداية عظيمة في العلم والعمل .

﴿وَيُتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يلطف بكم في أحوالكم وما شرعه لكم، حتى تمكثوا^(١) من الوقوف على ما حله الله، والاكتفاء بما أحله، فتقبل ذنوبكم

(١) في ب: تمكثوا.



المشتملة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكباً كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان، كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهما، ما اجتنبت الكبائر».

وأحسن ما حدث به الكبائر، أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

﴿٣٢﴾ «ولا تنموا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً» ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره، من الأمور الممكنة وغير الممكنة. فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والفقن حالة الغنى والكمال، تمنياً مجرداً، لأن هذا هو الحسد بعينه، تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها.

ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلاد إلى الكسل والأمانى الباطلة، التي لا يقترن بها عمل ولا كسب. وإنما المأمور أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يتكل على نفسه، ولا على غير ربه. ولهذا قال تعالى: «للرجال نصيب مما اكتسبوا» أي: من أعمالهم المنتجة للمطلوب.

«ولللنساء نصيب مما اكتسبن» فكل منهن لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه. «واسألوا الله من فضله» أي: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا، فهذا كمال العبد وعنوان سعادته، لا يمن يترك العمل، أو يتكل على نفسه غير مفتقر لربه، أو يجمع بين الأمرين، فإن هذا غفول خاسر.

عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم ومصالحهم، كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم، على الأكل، ومن أخذ ماله، أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات، وأنواع الحرف والإجارات، فقال: «إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم» أي: فإنها مباحة لكم.

وشرط التراضي - مع كونها تجارة - للدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا، لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لقضودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ويأتي به اختياراً.

ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلوماً، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدوراً على تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا، فلا ينفذ عقده.

وفيها أنه تعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد. ثم ختم الآية بقوله: «إن الله كان بكم رحيماً» ومن رحمته أن عصم دماءكم وأموالكم وأصنامكم ونهاكم عن انتهاكها.

﴿٣٠﴾ ثم قال: «ومن يفعل ذلك» أي: أكل الأموال بالباطل، وقتل النفوس «عدواناً وظلماً» أي: لا جهلاً ونسياناً «فسوف نصليه ناراً» أي: عزيمة كما يفيد التذكير «وكان ذلك على الله يسيراً».

﴿٣١﴾ «إن تمحيطوا كباثر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً» وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلا كريماً، كثير الخير وهو الجنة،

وقوله: «إن الله كان بكل شيء عليماً» فيعطي من يعلمه أهلاً لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

﴿٣٣﴾ «ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً» أي: «ولكل» من الناس «جعلنا موالى» أي: يتولونه ويتولاهم، بالتعز والنفرة، والمعاونة على الأمور. «مما ترك الوالدان والأقربون» وهذا يشمل سائر الأقارب، من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالى من القرابة.

ثم ذكر نوعاً آخر من الموالى فقال: «والذين عقدت أيمانكم» أي: حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النفرة والمساعدة، والاشتراك بالأموال، وغير ذلك. وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً.

قال تعالى: «فآتوهم نصيبهم» أي: أتوا الموالى نصيبهم، الذي يجب القيام به من النفرة والمعاونة والمساعدة، على غير معصية الله. والميراث للأقارب الأدين من الموالى.

«إن الله كان على كل شيء شهيداً» أي: مطلعاً على كل شيء، بعلمه لجميع الأمور، وبصره لخرات عباده، وسمعه لجميع أصواتهم.

أهلها إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما
 إن الله كان عليماً خبيراً أي: وإن
 ختم الشقاق بين الزوجين، والمباعدة
 والمجانبة، حتى يكون كل منهما في
 شق، «فابعثوا حكماً من أهله وحكماً
 من أهلها» أي: رجلين متكلفين،
 مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين
 الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق.
 وهذا مستفاد من لفظ «الحكم» لأنه
 لا يصلح حكماً، إلا من اتصف بتلك
 الصفات. فيظن أن ما ينقم كل منهما
 على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما
 يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، فثما
 الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من
 الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع
 والإصلاح فلا يعدل عنه.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن
 اجتماعهما وإصلاحهما، إلا على وجه
 المبادأة والمقاطعة، ومعصية الله، ورأيا
 أن التفريق بينهما أصلح، فبقا بينهما.
 ولا يشترط رضا الزوج، كما يدل
 عليه، أن الله شامها حكمين،
 والحكم يحكم، ولو^(١) لم يرض
 المحكوم عليه، ولهذا قال: «إن يريد
 إصلاحاً يوفق الله بينهما» أي: بسبب
 الرأي: الميمون والكلام الذي يجذب
 القلوب، ويؤلف بين القرينين.

«إن الله كان عليماً خبيراً» أي:
 علماً بجميع الظواهر والبواطن، مطلعاً
 على خفايا الأمور وأسرارها. فمن
 علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام
 الجليلة، والشرائع الجميلة.

«٣٦-٣٨» «واعبدوا الله ولا
 تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً
 وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار
 ذي القربى والجار الجنب والصاحب
 بالجنب وابن السبيل وما ملكت
 أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً
 فخوراً» الذين يبخلون ويأمرون
 الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله
 من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً
 مهيناً» والذين ينفقون أموالهم رياء
 الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر

يختص بها الرجال، ويتميزون عن
 النساء.

ولعل هذا سر قوله: «بما أنفقوا»
 وحذف المفعول، ليدل على عموم
 النفقة. فعلم من هذا كله أن الرجل
 كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده
 عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم
 بما استرعاه الله به.

ووظيفتها: القيام بطاعة ربها،
 وطاعة زوجها، فلها قال:
 «فالصالحات قانتات» أي:
 مطيعات لله تعال «حافظات للغيب»
 أي: مطيعات لأزواجهن حتى في
 الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها وماله،
 وذلك بحفظ الله لهن، وتوقيه لهن،
 لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة
 بالسوء، ولكن من توكل على الله،
 كفاه ما أمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: «واللاتي تخافون
 نشوزهن» أي: ارتفاعهن عن طاعة
 أزواجهن، بأن تعصيه بالقول أو
 الفعل، فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل،
 «ففعظوهن» أي: ببيان حكم الله في
 طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في
 الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن
 انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها
 الزوج في المضجع، بأن لا يضاعفها،
 ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به
 المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح،
 فإن حصل المقصود بواحد من هذه
 الأمور وأطعنكم «فلا تبغوا عليهن
 سبيلاً» أي: فقد حصل لكم ما
 تحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور
 الماضية، والتنقيب عن العيوب التي
 يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

«إن الله كان عليماً خبيراً» أي: له
 العلو المطلق، بجميع الوجوه
 والاعتبارات، علو الذات، وعلو
 القدر، وعلو القهر، الكبير الذي
 لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير
 الذات والصفات.

«٣٥» «وإن خفتم شقاق بينهما
 فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من



«٣٤» «الرجال قوامون على

النساء بما فضل الله بعضهم على بعض
 وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات
 حافظات للغيب بما حفظ الله
 واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن
 واهجروهن في المضجع واضربوهن
 فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً
 إن الله كان عليماً خبيراً يخبر تعال «أن
 الرجال قوامون على النساء» أي:
 قوامون عليهن بالزمام بحقوق الله
 تعال، من المحافظة على فرائضه،
 وكفهن عن المفسد، والرجال عليهم
 أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن
 أيضاً بالإنفاق عليهن، والكسوة
 والسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام
 الرجال على النساء، فقال: «بما
 فضل الله بعضهم على بعض وبما
 أنفقوا من أموالهم» أي: بسبب فضل
 الرجال على النساء، وإفضالهم
 عليهن، ففضيل الرجال على النساء من
 وجوه متعددة: من كون الولايات
 مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة،
 واختصاصهم بكثير من العبادات
 كالجهاد والأعياد والجمع. وبما
 خصهم الله به من العقل والرزانة
 والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله.
 وكذلك خصهم بالنفقات على
 الزوجات، بل وكثير من النفقات

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا﴾ أي: معجباً بنفسه، متكبراً على الخلق. ﴿فَخُورًا﴾ يشني على نفسه ويمدحها، على وجه الفخر والبطر على عباد الله. فهو لا ما بهم من الاختيال والفخر، يمنعهم من القيام بالحقوق. ولهذا ذمهم بذلك، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ﴾ أي: يمتنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من العلم الذي يبتدي به الضالون ويستترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق، فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، فلهذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه وتسبوا في منع غيرهم، من البخل وعدم الاهتمام، أهانهم بالعذاب الأليم، والحزني الدائم. فعباداً بك اللهم من كل سوء.

ثم أخبر عن الثقة الصادرة، عن رياء وسمعة، وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَتَفَقَّحُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ليروهم ويمدحوهم، ويعظموهم، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ليس إنفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله، ورجاء ثوابه. أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير. وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: بشس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه، ويسعى فيه أشد السعي.

فكفكم أن من بخل بما آتاه الله،

خلتهم، وبدفع فاقتهم، والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه.

﴿وَالْجَارُ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: الجار القريب الذي له حقان، حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك ﴿الْجَارُ الْجُنُبُ﴾ أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب باباً، كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة، والدعوة، واللطفة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل.

﴿وَالصَّاحِبُ بِالْجَنبِ﴾ قيل: الرفيق بالسفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقاً، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر، ويشمل الزوجة.

فعل الصاحب لصاحبه، حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودينه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يجب له ما يجب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحة تأكد الحق وزاد.

﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده [ويكرهه وتأنسه] (٢).

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم: فمن قام بهذه الأمور فله الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقيم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا

ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً. يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلاً وإخلاصاً له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

ويتهنى عن الشرك به شيئاً، لا شركاً أصغر ولا أكبر، لا ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل التواجب المتعين لإخلاص العباد لئن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بخقه، أمر بالقيام بحقوق العباد، الأقرب فالأقرب. فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما، واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رجح لك إلا بهما. وللإحسان ضديان، الإساءة، وعدم الإحسان. وكلاهما منهى عنه.

﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ أيضاً إحساناً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحه بقوله أو فعله.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي: الذين فقدوا آباءهم (١) وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم، وبرهم، وجبر خواطرهم، وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية، في مصالح دينهم وديانهم.

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يمولون. فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم، بسد

(١) كذا في ب، وفي أ: الذين فقد آباؤهم.

(٢) زيادة من هامش ب.

يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالسجدة، فإنه لا يمكن السكران من دخوله. وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حذّر تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم، بما يقول السكران. وهذه الآية الكريمة متبوعة بتحريم الخمر مطلقاً، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرّم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه، بقوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ الآية.

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها وليها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين، والتوقى لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

ثم قال: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنباً، إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل، أي: تمرون في المسجد ولا تمكثون فيه، ﴿حتى تغتسلوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم، فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط. ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم

كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيداً﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن من حكم به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أركى الخلق، وهم الرسل على أهمهم، مع إقرار المحكوم عليه؟! فهذا - والله - الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها.

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقربين له لكمال الفضل والعدل، والحمد والثناء. وهنالكَ يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح. ويثقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين.

ولهذا قال: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لو تسوّى بهم الأرض﴾ أي: تبتلعهم ويكونون تراباً وعمداً، كما قال تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾.

﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ أي: بل يقرّون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيههم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

فأما ما ورد من أن الكفار يكتُمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم مغن عنهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق، وشهدت عليهم جوارحهم، حيثئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

﴿٤٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما

وكنتم ما من به الله عليه عاصي آثم يخالف لربه، فكذلك من أنفق وتعبّد لغير الله، فإنه آثم عاصي لربه، مستوجب للعقوبة، لأن الله إنما أمر بطاعته وأمثال أمره، على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب، فللهذا حثّ تعالى عليه بقوله:

﴿٣٩﴾ ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً﴾ أي: شيء عليهم، وأي خرج ومشقة تلحقهم، لو حصل منهم الإيمان بالله، الذي هو الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: ﴿وكان الله بهم عليماً﴾.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزّهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيد لها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحة وكمالاً. ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير. ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من



ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم. وكفى بالله نصيراً. ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم. فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر. ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم، وإيثارهم الباطل على الحق فقال: ﴿من الذين هادوا﴾ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم.

﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً. فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم، التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك.

فهذا حالهم في العلم أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق، وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم ﴿يقولون سمعنا وعصينا﴾ أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد، والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: ﴿اسمع غير فسمع﴾ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره، ﴿وراعنا﴾ قصدهم بذلك

(١) في ب: ذلك.

الرعونة، بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ - لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور - أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلون به ألسنتهم إلى الطعن في الدين، والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم، فلماذا قال: ﴿ليأ بالستهم وطعنا في الدين﴾.

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظروا لكان خيراً لهم وأقوم﴾. وذلك لما تضمنته هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم، بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم، فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه. ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردتهم الله، بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن تطمس وجوهاً فتردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً. يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيمن على غيره من الكتب السابقة الذي قد صدقها، فإنها أخبرت به فلما وقع الخبر به كان تصديقاً لذلك الخبر.

وأيضاً فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً. فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض، دعوى باطلة، لا يمكن صدقها.

وفي قوله: ﴿آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم﴾ حث لهم، وأنهم ينبغي أن

يكونوا قبل غيرهم مبشرين إليه، بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال: ﴿من قبل أن تطمس وجوهاً فتردها على أدبارها﴾ وهذا جزاء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وآثروا الباطل، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، جوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردوها على أدبارها، بأن تجعل في أفئدتهم، وهذا أشنع ما يكون ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ بأن يطردهم من رحمة، ويعاقبهم بجعلهم قردة، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت، ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾. وكان أمر الله مفعولاً كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب، صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرته.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصابب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعاة الشافعين. ومن فوق ذلك كله رحمة التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصابب شيئاً وما لهم يوم القيامة شافعين * ولا صديق حميم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يشرك بالله

فقد افترى إثماً عظيماً أي: افترى جرماً كبيراً، وأي: ظلم أعظم من سوى المخلوق - من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه - فضلاً عن عبده - نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضرر، والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين، إلا فمته تعالى، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟ ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب ﴿إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾. وهذه الآية الكريمة في حق غير الثائب وأما الثائب، فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب.

﴿٤٩ - ٥٠﴾ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون شيئاً * انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً * هذا تعجب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم، من كل من زكى نفسه، بأمر ليس فيه. وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نحن أبناء الله وأحباءه﴾ ويقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ اللَّهُ يَزَكِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتخلي بالصفات الجميلة.

وأما هؤلاء فهم - وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء، وأن الثواب

لهم وحدهم - فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكن نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم، لا يظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئاً﴾. وهذا التحقيق العموم، أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار القليل الذي في شق النواة، أو الذي يقتل من وسخ اليد وغيرها.

قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي: بتزكيتهم أنفسهم، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله. لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم، الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً. وهذا أعظم الكذب، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً. ولهذا قال: ﴿وَكُفِّي بِهِ إِثْمًا مَبِينًا﴾ أي: ظاهرأ بيناً، موجياً للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

﴿٥١ - ٥٧﴾ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً * أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤثون الناس نقيراً * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد اتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً * فممنهم من آمن به فممنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً * إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً * والذين آمنوا وعملوا الصالحات ستدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً * وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث، حلهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة غير الله، أو حكم بغير شرع الله.

فدخل في ذلك السحر والكهانة،

• لَسْتَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَّا مِرَّةً إِلَّا مَنْ أُصِيبَ بِوَجَعٍ أَوْ سِلَاحٍ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَصِياً وَأَن تَشَاءِ اللَّهُ فَمَنْ شَاءَ اللَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْفَ الْحَبْلِ أَلَمَسَ وَلَا نَصْرٌ مِنْهُمْ وَلَا عَصْرٌ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُنَاصِي

وعادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حلهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله - عبدة الأصنام - على طريق المؤمنين، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لأجلهم، بملقأ لهم ومداهنة، وبغض للإيمان: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً. فما أسمعهم وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!! كيف سلوكوا هذا المسلك الوخيم، والزادى الذميمة!! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء، فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسوله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى ضلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال فهل هذا إلا من الهذيان، وضاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وتمرداً ومراغمة للحق،



وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن رحمته، وأحل عليهم نقمته. ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنُ تَجِدْ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي: يتولاه، ويقوم بمصلحته، ويحفظه عن المكازة، وهذا غاية الخذلان.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي: فيفضلون مَنْ شَاءُوا على مَنْ شَاءُوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء الله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: شيئاً، ولا قليلاً. وهذا وصف لهم بشدة البخل، على تقدير وجود ملكهم المشارك للملك الله. وأخرج هذا خروج الاستفهام المقرر إنكاره، عند كل أحد.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء الله، فيفضلون مَنْ شَاءُوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته، من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من

أعطاه من أنبيائه كـ «داود» و «سليمان». فإنعامه لم يزل مستمراً على عباده المؤمنين.

فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله وأخشاهم له!!!

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ، فقال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الآخروي. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ عناداً وبغياً وحسداً، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها، ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿وَكُفِيَ بِهِمْ سَعِيرًا﴾ تسعراً على مَنْ كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى، وغيرهم من أصناف الكفرة.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي: عظمة الزقود، شديدة الحرارة، ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: احترقت بدلتناهم جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب. أي: ليلغ العذاب منهم كل مبلغ. وكما تكرر منهم الكفر والعناد، وصار وصفاً لهم وسجية؛ كرز عليهم العذاب جزاءً وفاقاً، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة العظيمة، والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله، وما أوجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميمة، وما يكون من تناء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾

﴿٥٨-٥٩﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ الأمانات كل ما أوثمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به. فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مخوسة، ولا مطولاً بها، ويدخل في ذلك أمانات الولانيات والأموال والأسرار، والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.

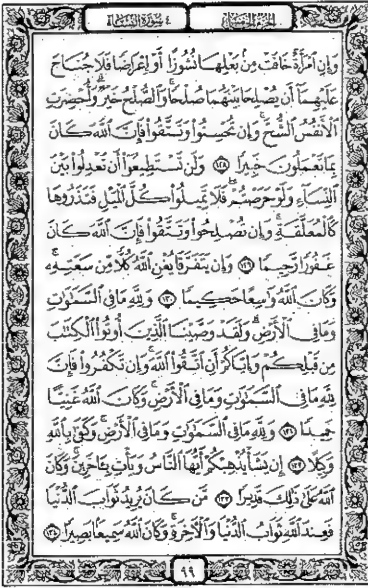
وقد ذكر الفقهاء، على أن مَنْ أوثمن أمانة، وجب عليه حفظها في حرز مثلها. قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلة؛ فلو دفعها لغير ربه لم يكن مؤدياً لها.

﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به. ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾، إن الله كان سميماً بصيراً ﴿وَهَذَا مَدْحٌ مِنَ اللَّهِ لِأَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعيها السميع البصير الذي لا تحفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتنثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والفتن، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة الله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرُوا بغير نصية الله، فإن أمروا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في



إلى الطاغوت وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

والحال أنهم قد أمروا أن يكفروا به فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك. وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: «ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً» عن الحق.

فكيف يكون حال هؤلاء الضالين إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم من المعاصي، ومنها تحكيم الطاغوت؟

ثم جاؤوك معتردين^(١) لما صدر منهم، ويقولون: «إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً» أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى الشخصين والتوفيق بينهما، وهم كذبة في ذلك. فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون».

ولهذا قال: «أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم» أي: من النفاق والقصد السيئ. فأعرض عنهم أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقتروه. وعظهم أي: بين لهم حكم الله تعالى، مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه، «وقل لهم في أنفسهم قولاً بليفاً» أي: انصحهم سراً بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالع في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سراً، ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

٦٤ - ٦٥ «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً

معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول فإن الرسول، لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه، إلى الله وإلى رسوله، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله، فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما؛ أو إيمان، أو تنبيه، أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما.

فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال: «إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها «ذلك» أي: الرد إلى الله ورسوله «خير وأحسن تأويلاً» فإن حكم الله ورسوله، أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس، في أمر دينهم وديارهم وعاقبتهم.

٦٠ - ٦٣ «ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً» وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليفاً يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين. «الذين يزعمون أنهم مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا يريدون أن يتحاكموا

رحيماً * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» يخبر تعالى خبراً في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له. وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين، يتقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين، تعظيم المطيع^(٢) للمطاع.

وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرهم به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطليفاً، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقاً.

وقوله: «بإذن الله» أي: الطاعة من المطيع، صادرة بقضاء الله وقدره. ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان - إن لم يعنه الله - أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقتترف السيئات، أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله فقال: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك أي: معترفين بذنوبهم، باخعين بها.

(١) في النسختين: متعبردين.

(٢) في النسختين: تعظيم المطاع للمطيع، وهو سبق قلم، وقد عدلت في ب عن طريق المطبعة السلفية إلى تعظيم المطاع من المطيع.



﴿فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾
أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها، والشواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك^(١) حتى يسلموا لحكمه تسليماً، بانسراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتهاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن

(١) في ب: هذا التحكيم.

تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العصاة.

﴿٦٦ - ٦٨﴾ ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد ثبثاً﴾ وإذا لايتناههم من لدنا أجراً عظيماً ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ يحذر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس من قتل النفوس، والخروج من الديار، لم يفعلها إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلاحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتخفف عليه العبادات، ويزداد حمداً وشكراً لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به، أي: ما وُظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا همهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد، أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط.

ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: ﴿لكن خيراً لهم﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم، من أفعال الخير، التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول الثبوت والثبات وزيادته، فإن الله يشبث الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي

هو القيام بما وعظوا به، فثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك النواهي، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرهها العبد. فيوفق للثبوت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر.

فيتزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر.

وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألّفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث): قوله: ﴿وإذا لايتناههم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم. وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبة وإشارته والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدي إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا ﴿أي: كل من أطاع الله ورسوله على حسب حاله، وقدر الواجب عليه من ذكر وأنثى وصغير وكبير، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة، ﴿من النبيين﴾ الذين فضّلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم، بإرسالهم إلى الخلق،

عليهم؛ ويبدأ بالأهم فالأهم، والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال - مع قلة عددهم وعددهم، وكثرة أعدائهم - لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام، وفروعي جانب المصلحة العظمى على مادونها، ولغير ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال، غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً﴾ فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي الإسلام، كتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك، خوفاً من الناس وضعفاً وخوراً: ﴿ربنا لم كتبت علينا القتال؟﴾ وفي هذا تضجرهم، واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال، التسليم لأمر الله، والصبر على أمره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ أي: هلاً أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر. ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال، التي فيها التخلف عن القتال فقال: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخر خير لمن اتقى﴾ أي: التمتع بملذات الدنيا وراحتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل على النفوس ويخف عليها، لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها، هان عليها ذلك، فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها، في ذاتها، ولذاتها، وزمانها، فذاتها - كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه - «أن موضع

سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها». ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال، أو دار في الفكر من تصور لذة، فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾. وقال الله على لسان نبيه: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص، الذي لو قوبل بين لذاتها وما يقترب بها من أنواع الآلام، والهموم والغموم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.

وأما زمانها، فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير، وأما الآخرة، فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها، فإذا فكر العاقل في هاتين الدارين، وتصور حقيقتهما حق التصور، عرف ما هو أحق بالإشارة، والسعي له، والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي: اتقى الشرك، وسائر المحرمات.

﴿ولا تظلمون قليلاً﴾ أي: فسيحكم للدار الآخرة، ستجدونه كاملاً موفراً، غير منقوص منه شيئاً.

ثم أخبر أنه لا يعني حذر عن قدر، وأن القاعدة لا يدفع عنه قعوده شيئاً، فقال: ﴿أين ما تكونوا يذرَكُمْ الموت﴾ أي: في أي زمان، وأي مكان. ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي: قصور منيعة، ومنازل رفيعة، وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

﴿٧٨-٨٠﴾ ثم قال: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من

فَمَا تَصِيبُهُمْ يَتَّبِعُهُمْ وَكَفَرُوا بِذَلِكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ آتَاهُمْ سَبْعِينَ مِائَةً أَلْفَ نَفْسٍ مِنْ قَبْلُ قُلْ مَنْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَذِبٌ فَلَا تُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٨﴾ وَيَكْفُرُوا وَلَوْ كُنْتُمْ عَلِيمِينَ ﴿٧٩﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨٠﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨١﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨٢﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨٣﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨٤﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨٥﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨٦﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨٧﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨٨﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٨٩﴾ قُلْ هِيَ تِلْكَ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِي تَصِفُونَ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْبُرُوجِ ﴿٩٠﴾

سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسلاً وكفى بالله شهيذاً * من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفياً * يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل، المعارضين لهم، أنهم إذا جاءتهم حسنة، أي: خصب وكثرة أموال، وتوفر أولاد وضحة، قالوا: ﴿هذه من عند الله﴾ وأنهم إن أصابتهم سيئة، أي: جدد، وفقر، ومرض، وموت أولاد وأحباب قالوا: ﴿هذه من عندك﴾ أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد، تطيروا برسول الله ﷺ، كما تطير أمثالهم برسول الله، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى ﴿إذا جاءتهم الجنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾.

وقال قوم صالح: ﴿قالوا اطيرنا بك ومن معك﴾.

وقال قوم ياسين لرسولهم: ﴿إننا تطيرنا بكم لننزلنا من الجنة﴾ الآية. فلما تشابهت قلوبهم بالكفر، تشابهت أقوالهم وأعمالهم. وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل، أو ليعضه، فهو داخل في هذا الذم الوخيم.

قال الله في جوابهم: ﴿قل كل﴾ أي: من الحسنه والسيئة، والخير والشر. ﴿من عند الله﴾ أي: بقضائه

فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير، ما رتب على طاعة الله، ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن طاعة الله ورسوله، فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلكم مبلغاً ومبيناً وناصحاً، وقد أدبت وظيفتكم، ووجب أجركم على الله، سواء اهتمدوا أم لم يهتمدوا. كما قال تعالى: ﴿فَذَكَرَ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لِّسِتْ عَلَيْهِمْ بِمُحِيطٍ﴾ الآية.

ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهراً وباطناً، في الحضرة والمغيب. فأما من يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام، فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه، ترك الطاعة وأقبل على ضدها، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه من قال الله فيهم: ﴿يَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: يظهرن الطاعة إذا كانوا عندك. ﴿فَإِذَا بَرِزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا وخلوا في حالة لا يطلع فيها عليهم. ﴿بَيْتِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: يتورا وديروا غير طاعتك ولا ثم إلا المعصية.

وفي قوله: ﴿بَيْتِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ﴾ دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة؛ لأن التثبيت تدبير الأمر ليلاً على وجه يستقر عليه الرأي، ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: ﴿وَالَّذِي يَكْتُمُ مَا يَبْيِثُونَ﴾ أي: يحفظه عليهم، وسيجزيهم عليه أتم الجزاء، وفيه وعيد لهم.

ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض، وعدم التعنيف، فإنهم لا يضررونه شيئاً إذا توكل على الله، واستعان به في نصر دينه، وإقامة شرعه. ولهذا قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوائزم

وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه، عن وصول فضل الله وبره.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول الله حقاً بما أيدك بنصره، والمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإذا علم أن الله تعالى، كامل العلم، تام القدرة، عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيدته، ونصره نصراً عظيماً، تيقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.

﴿٨٠ - ٨١﴾ ﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه فقد أطاع الله تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله، وشرعه، ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله أمر بطاعته مطلقاً، فلولاً أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله، لم يأمر بطاعته مطلقاً، ويمدح على ذلك.

وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة:

حق لله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.

وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة.

وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهم وطاعتهم كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.



وقدره وخلقته. ﴿فَمَا لَهُوَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة. ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفهمون حديثاً بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهماً ضعيفاً، وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه. فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك.

وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام، لا يكونون سبباً لشر يحدث، هم ولا ما جاؤوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.

ثم قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أي: في الدين والدنيا ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾ هو الذي من بها ورسرها بتفسير أسبابها. ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ في الدين والدنيا ﴿فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ أي: بذنوبكم وكسبك، وما يغفو الله عنه أكثر.

فإنه تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره



مضية عليهم، أن يثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي: والعلم والنصح، والعقل والبرزانية، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإن رأوا في إداعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك: وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة^(١)، أو فيه مضلة ولكن مضرة تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: «لعلمة الذين يستنبطونه منهم» أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا خصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى مَنْ هو أهل لذلك، ويعمل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مضلة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا؟ فيحجم عنه؟

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ أَيْ: فِي تَوْفِيقِكُمْ وَتَأْدِيبِكُمْ، وَتَعْلِيمِكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، لَا تَبْعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر. فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به، واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿٨٤﴾ «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحُرْضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسْ الذِّينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا» هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه، وقد يقدم في العبد الأمران أو أحدهما، فهذا قال

ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته.

فإنه يعرف بالرب المعنود، وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصل إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والصفة أهلها، الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه [هو] المقصود بانزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كَتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾.

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً. فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند مَنْ أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

﴿٨٣﴾ «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه

لرسوله: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ» أي: ليس لك^(٢) قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك.

«وَحُرْضَ الْمُؤْمِنِينَ» على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

«عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسِ الذِّينَ كَفَرُوا» أي: يقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً. «وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا» أي: قوة وعزة «وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا» بالذنوب في نفسه وتنكيلاً لغيره، فلن شاء تعالى لا تنصر من الكفار بقوته ولم يجعل لهم باقية.

ولكن من حكمته يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطراب والقهر الذي لا يفيد شيئاً.

﴿٨٥﴾ «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا» المراد بالشفاعاة هنا:

(٢) في النسختين: ليس عليك.

(١) في ب: ما فيه مصلحة.

أرکسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً^(١) المراد بالمتألفين المذكورين في هذه الآيات: المتأفقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفرهم، وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققت ذلك منهم **فلا تتخذوا منهم أولياء** وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمناً حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها **فخذوهم واقتلوهم** حيث وجدتموهم^(٢) أي: في أي وقت، وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المتألفين ثلاث فرق:

فرقتين أمر بتركهم وحتم [على] ذلك، إحداهما^(٣) من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حق الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم **حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم** أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: **ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم** فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

فهؤلاء **إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً**.

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: **ستجدون آخرين** أي: من هؤلاء المتألفين. **يريدون أن يأمنوكم** أي: خوفاً منكم **ويأمنوا قومهم كلما زدوا إلى الفتنة أركسوا فيها** أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين

احتراماً لهم، لا خوفاً على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون^(٤) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح اتصافاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: **فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم** أي: المسألة والمواعدة **ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم** حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً^(٥) أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسألة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

﴿٩٧﴾ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليمًا حكيمًا هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريره، وأنه منافي للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبة وموالاة، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي: أذى أشد من القتل؟

وهذا يصدق قوله ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب**

(١) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ، خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: تقتلهم، وفرقة تقول: لا. فأمر الله: «فما لكم في المتألفين فتنة» فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبيث كما تنفي النار خبيث الحديد» وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أحدها.

(٣) في ب: سيقدمون.

بعضكم رقاب بعض». فعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً» لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: «إلا خطأ» فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا متجرى على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً، وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: «ومن قتل مؤمناً خطأ» سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ «من» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «من» في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «من».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التذكير في سياق الشرط، فإن على القاتل «تحرير رقبة مؤمنة» كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيّب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزى عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضع بعته، ويقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزى عتقه، مع أن في قوله: «تحرير رقبة» ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص من استجقت منفعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تحب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد.

«مسلمة إلى أهله» جبراً لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخله فيما

ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: «إلا أن يضدقوا» أي: يتصدق ورثة القاتل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. «فإن كان المقتول من قوم عدو لكم» أي: من كفار حربين «وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة» أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

«وإن كان المقتول من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله» وتحرير رقبة مؤمنة «وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق».

«فمن لم يجد الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، «فصيام شهرين متتابعين» أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحض ونحوهما. وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

«توبة من الله» أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

«وكان الله عليمًا حكيمًا» أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مشقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما

صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله.

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عدها، وجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة: بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ، بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح وكف الفساد ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذراً من تحميلهم^(١)، ويخفف عنهم^(٢) بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القاتل عن مضيتهم، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

«٩٣» «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً» تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القاتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتترزع منه أولو العقول.

فلم يزد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو

(٢) في ب: عليهم.

(١) زيادة من هامش: ب.

مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيقنوا إن الله كان بما تعملون خبيراً يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله، وابتغوا مرضاته أن يتيقنوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشبهة.

فإن الأمور قسماً: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتيقن، لأن ذلك تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتيقن، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبت في هذه الأمور يحصل

فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرو

عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله

ورزاقته، بخلاف المستعجل للأمور في

بدائيتها^(١)، قيل أن يتيقن له حكمها،

فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما

جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في

الآية، لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم

عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال

غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم،

وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فهذا

عاتبهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى

إليك السلام لست مؤمناً تبتغون عرض

الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

أي: فلا يحملنكم العرض الفاني

القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي

فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل

الباقى، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له

إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له

فيها هوى، وهي مضرة له أن يذكرها

ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها،

وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن

في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال

أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم

الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام:

﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله

عليكم﴾ أي: فكما هداكم بعد

ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم،

وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها، خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضداً يذافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية،

وفساد الأخلاق وبغيها مانع من عمل

الطبيعة، وفعل القوة، والحكم للغالب

منهما، وكذلك قوى الأدوية

والأمراض. والعبد يكون فيه مقتض

للصحة، ومقتض للعطب، وأحدهما

يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا

ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من

يدخل الجنة ولا يدخل النار،

وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج

منها، ويكون مكته فيها بحسب ما فيه

من مقتضى المكث في سرعة الخروج

ويطئه. ومن له بصيرة منورة يرى بها

كل ما أخبر الله به في كتابه، من أمر

المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده

رأى: عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته

سبحانه وربوبيته، وعزته، وحكمته،

وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة

ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه،

فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته، كنسبة

الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي

يحرق السيئات، كما تحرق النار

الخطيب، وصاحب هذا المقام من

الإيمان يستحيل إضراره على السيئات،

وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه

من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل

وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه،

وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى

كلامه، قدس الله روحه، وجزاه عن

الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿٩٤﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا

ضربتم في سبيل الله فتيقنوا ولا تقولوا

لن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً

تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله

الإخبار بأن جزاء جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعياداً بالله من كل سبب يبعد عن رحته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكيثر والمعاضي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونها في النار ولو كانوا موحدين. والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم رحمه الله في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضى للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها والخسرات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجنائين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب وموانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

المؤمنين». وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أَمْ يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ الْأَمْثَلُ﴾. ثم قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾. وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمَهَا سَلِيمًا وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقاتلات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال. كما إذا قيل: النصراني خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادقين عن اسميه الكريمين ﴿الغفور الرحيم﴾ ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿٩٧ - ٩٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً. هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه، يوينونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتهم سوادهم، وربما ظاهرتهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ضعفاء مهزومين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم

سبيل الله لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترنت بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصححين»، أن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تَوْثَمُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدح والذم - أحسن لفظاً، وأوقع في النفس.

وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، اجترز بذكر الفضل الجامع للأميرين، لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَيُشْرُ

وَكَمَا أَنَّ الْهَدَايَةَ حَصَلَتْ لَكُمْ شَيْئاً فَكذلك غيركم.

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثله، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتين فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

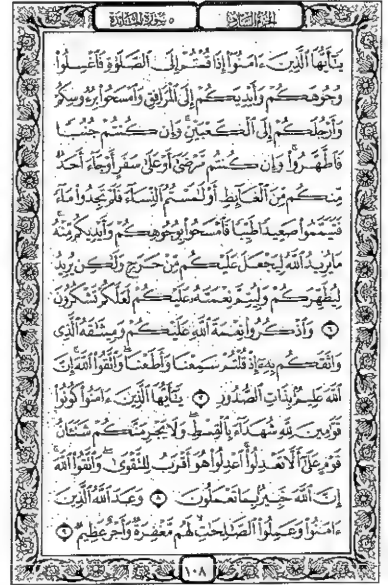
فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأموراً بالتين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تعوداً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويبين الرشد والصواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كلاً ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿٩٥ - ٩٦﴾ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً. أي: لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاثر والقعود عنه من غير عذر.

وأما أهل الضرر كالمرضى والأعمى والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضياً بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

ومن كان عازماً على الخروج في



﴿رحيماً﴾ بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم، ووزقهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك. رحيماً بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله أن لا يحرمانا خيره بشر ما عندنا.

﴿١٠٢-١٠٣﴾ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً * وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وذ الذين كفروا لو يغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة

الخوف، يقول تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ أي: في السفر، وظاهر الآية: [أنه] يقتضي الترخص^(١) في أي: سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخص^(٢) في سفر المعصية، تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره، لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ إلى آخر الآية.

وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران:

أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره.

والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ ولم يقل: أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان:

أحدهما: أنه لو قال: أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط يحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿من الصلاة﴾ يدل ذلك على أن القصر محدود

مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه.

الثانية: أن «من» تفيد التبعية، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضة، لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فيإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: ﴿إن خفتكم الذين كفروا﴾ الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأزمين كليهما، السفر مع الخوف.

ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: ﴿أن تقصروا﴾ قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول.

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي: والله يقول: ﴿إن خفتكم الذين كفروا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أو كما قال.

فعلى هذا يكون هذا القيد أي: به نظراً لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنه ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز

(٢) في ب: الترخيص.

(١) في ب: الترخيص.

قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتتم ما يجب فيها ويلزم، فعملهم ما ينبغي لك ولهم فعله.

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: الذين معك، أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود، ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلْيَصَلُوا مَعَكَ﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظراً للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يشتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلّة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكيد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به

لو صلوا بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هبة في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح، والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمتعتهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتَعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر، من مرض أو مطر، أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر فقال: ﴿وَلَا تُجْنَحْ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾.

ومن العذاب المهين ما أمر الله به جزبه المؤمنين وأنصأ دينه الموحدين، من قتلهم وقتالهم جيشاً تقفوه، ويأخذوهم ويحصرهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

فله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين، وأيدهم بمعونه وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين. وأن الرسول ﷺ يثبت منتظراً للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبته لهم. ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله: ﴿وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُوا فَلْيَصَلُوا مَعَكَ﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَعْتَبُونَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُسَلِّمُوا إِلَيْكُمْ بِاللَّهِ وَقَدْ آتَوْكُمْ بِهِمْ غُلْفًا أَلَمْ تُدْرِكُوا أَنَّهُ إِذَا جُنِبَ غُلْفُكَ الْمَكِيدَةُ ﴿١٠٣﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا وَيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَأْخُذُوا بِحَبْلِ اللَّهِ فَقَالُوا إِنَّ هَذَا يَقُولُ سَوَءَ مَا يَحْكُمُ فَوَسَّيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْبَ وَقَالُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَا قُرْآنٍ مُبِينٍ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْبَرَاءَةَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا وَيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَأْخُذُوا بِحَبْلِ اللَّهِ فَقَالُوا إِنَّ هَذَا يَقُولُ سَوَءَ مَا يَحْكُمُ فَوَسَّيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْبَ وَقَالُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَا قُرْآنٍ مُبِينٍ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْبَرَاءَةَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِيَمْلِكُنَا وَيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَأْخُذُوا بِحَبْلِ اللَّهِ فَقَالُوا إِنَّ هَذَا يَقُولُ سَوَءَ مَا يَحْكُمُ فَوَسَّيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْبَ وَقَالُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَا قُرْآنٍ مُبِينٍ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْبَرَاءَةَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٦﴾

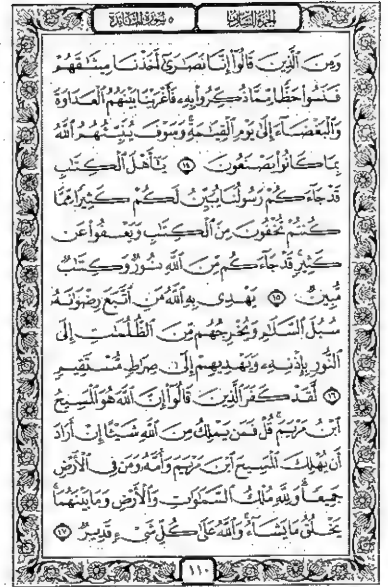
صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكما في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للشمائل.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فادكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائده. منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته، بالإجابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه.

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة. ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه، ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه



كانوا يعاقبون عليها، وعلى سنائر الأحكام في الآخرة.

﴿١٠٤﴾ «ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألون فإنهم يألون كما تألون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً» أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، أي: في جهادهم والمرابطة على ذلك، فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء. بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم.

ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك، فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتما فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا تضعف إلا من توالى عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يبدل مرة، ويدال عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية، وأمال رفيعة، من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة الثامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من قاتل بين العباد، وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: «وكان الله عليماً حكيماً» كامل العلم، كامل الحكمة.

﴿١٠٥ - ١١٣﴾ «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً» واستغفر الله إن الله كان غفوراً

رحيماً * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً * يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً * ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً * ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً * ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً * ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمهت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً يخبر تعالى، أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي: محفوظاً في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل بل نزل بالحق، ومشتتلاً أيضاً على الحق فأخبره صدق، وأوامره ونواهيه عدل «وغت كلمة ربك صدقاً وعدلاً» وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس.

وفي الآية الأخرى: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم». فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس، في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبين جميع الدين، وأصوله وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كليهما، معناه واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد، وفي جميع مسائل الأحكام.

وقوله: «بما أراك الله» أي: لا يهواك، بل بما علمك الله وألهمك، كقوله تعالى: «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى». وفي هذا دليل على عظمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام

من أعظم مقررات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون». فأمر بالإكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحكم.

وقوله: «فإذا اطمانتم فاقموا الصلاة» أي: إذا أمنت من الخوف، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم، فاقموا صلاتكم على الوجه الأكمل، ظاهراً وباطناً، بآركانها وشروطها، وخشوعها، وسائر مكملاتها.

«إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً» أي: مفروضاً في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتاً لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

ودل قوله: «على المؤمنين» على أن الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته، وتتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن

ها أنت تركت أمره كسلاً وتفریطاً، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحمران والخيبة والحسران؟

وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهي من الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتغيت، فإن لذته تنقضي، ويعقبها من التهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي^(٤) يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: مَنْ تَجَرَأَ عَلَى المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفاراً تاماً، يستلزم الإقرار بالذنب والسندم عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده مَنْ لا يخلف الميعاد، بالمغفرة والرحمة.

فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره وإذا غفره، غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عامله بعاقبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن

خافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما يبتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنایات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم، الموجب للعقوبة البليغة.

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي: هيكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما تحذرون^(٢) من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يومئذ يوفيه الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾.

فمَنْ يجادل عنهم، مَنْ يعلم السر وأخفى، وَمَنْ أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟ وفي هذه الآية إرشاد^(٣) إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها.

فيقول مَنْ أمرته نفسه بترك أمر الله

وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم^(١) العلم والعدل، لقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهاء عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلخَائِثِينَ خَصِيماً﴾ أي: لا تخاصم عن مَنْ عرفت خيائته، من مدع ما ليس له، أو منكّر حقاً عليه، سواء علم ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿واستغفر الله﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك، الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿ولا تجادل عن الذين يخاتنون أنفسهم﴾. «الاختيان» و«الخيانة» بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن مَنْ أذنب وتوجه عليه عقوبة، من جد أو تعزيز، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إن الله لا يحب مَنْ كان خواناً أثيماً﴾ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل، للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول» وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون خافة الخلق عندهم أعظم من

(١) في أ: الحاكم.

(٢) في ب: ما يحذرون.

(٣) في ب: الإرشاد.

(٤) في ب: من.

تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة، وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان:

ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب. فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال كما حفظه عن الضلال في الأعمال^(١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، بحالة كل مكر، فقال: «وما يضلون إلا أنفسهم» لكون ذلك المكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم^(٢) إلا الخيبة والخمران والإثم والخسران. وهذه^(٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة» أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة: إمامة السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن.

وأما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

«وعلمك ما لم تكن تعلم» وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى. فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» «ووجدك ضالاً فهدى».

ثم لم يزل يوحى الله إليه ويعلمه ويكمله، حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذر وضوله على الأولين والآخرين،

له ويوقفه للتوبة. وإن صدر منه بتجرته على المحارم، استخفافاً بنظر ربه، وتهاوناً بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من التوفيق للتوبة.

ثم قال: «ومن يكسب خطيئة» أي: ذنباً كبيراً «أو إثماً» ما دون ذلك. «ثم يرم به» أن يتهم بذنبه «بريئاً» من ذلك الذنب، وإن كان مذنباً. «فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً» أي: فقد حمل فوق ظهره بهتاناً للبريء وإثماً ظاهراً بريئاً، وهذا يدل على أن ذلك من كباثر الذنوب وموئقاتها، فإنه قد جمع عدة مفاصد: كسب الخطيئة والإثم، ثم رمي من لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه وإتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك، من العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على من لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاصد التي نسال الله العافية منها، ومن كل شر.

ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه فقال: «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك». وذلك أن هذه الآيات الكريزمات قد ذكر المفسرون، أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو بريء من ذلك.

واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرئ أصحابهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق من وجدته السرقة ببيته، وهو البريء. فهم زسنول الله ﷺ أن يبرئ أصحابهم، فأنزل الله هذه الآيات

عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها للمصراط المستقيم، علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة، وعدول بها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: «ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه» وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر، عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحداً بذنب أخذ، ولا يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: «وكان الله عليماً حكيماً» أي: له العلم الكامل، والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه الذنب، بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء، منع إنايته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيقفر

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في النسختين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمائر.

(٣) في النسختين: وهذا.

والرسول ﷺ يفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله فيجح ضلال المشركين بقوله:

﴿١١٧-١٢١﴾ **﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾** لعنه الله وقال لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليفتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنم لا يجدون عنها محيصاً

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إنثاءً، أي: أوثناً وأصناماً، مسميات بأسماء الإناث، كـ «العزى» و «منة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى. فإذا كانت أسماءها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدتها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها؛ نفعاً ولا ضرراً، ولا تنصر أنفسها بمن يريد بها بسوء، وليس لها أسمع ولا أبصار ولا أفئدة، فكيف يُعبد من هذا وصفه، ويُترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد، والجلال، والعز، والجمال، والرحمة، والبر، والإحسان، والانفراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟! هل هذا إلا من أقبح القبيح، الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف!!

الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه، وعاقب بعذابه وحكمته، وقد استدل بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء، فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾. فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً، أي: عدلاً خياراً، ليكونوا شهداء على الناس، أي: فني كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة، لكونهم عالمين بما شهدوا به، عادلين في شهادتهم، فلما كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء، فردوه إلى الله



مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل. وقوله: ﴿ونصله جهنم﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً. ﴿وساءت مصيراً﴾ أي: مرجعاً له ومالاً.

وهذا الوعيد المرتب^(١) على الشقاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب لا يحصيها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً فمنه ما يغفل في النار ويوجب جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كال تفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن البشر لا يغفره الله تعالى، لتضمنته القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا مته، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم

(١) في ب: المرتب.

ومع ذلك ^(١) لعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة. وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان، الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنة الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله. «إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: «لأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً» أي: مقدراً. علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على مَنْ تولاه، وأثر طاعته على طاعة مولاة.

وأقسم في موضع آخر ليغوينهم «لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين». فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: «ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين».

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله إنه يتخذهم ^(٢)، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: «ولأضلنهم» أي: عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

«ولأمنينهم» أي: مع الإضلال، لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زينة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم، «وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم» «وكذلك زيننا لكل أمة عملهم» قل

هل نبيكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا الآية. وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: «ألم نكن معكم؟» قالوا: بلى. ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور».

وقوله: «ولأمرنهم فليتبكن أدان الأنعام» أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فنته ببعض ذلك على جميعه. وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال. «ولأمرنهم فليغيرون خلق الله» وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوش، والتمص، والتفليج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده جنفاء، مفطورين على قبول الحق وإثارة، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغرون به ما فطر الله عليه العباد، من توحيده، وحيه ومعرفته، فافتستهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والثنايب للغنم المنفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على

هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرمهم ^(٣)، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: «ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً» أي: خسر أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه، وأوبقته معاصيه وخطاياها!! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن مَنْ تولى مولاة وأثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قريب العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: «يعدهم ويمنيهم» أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم. والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر». فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه» الآية. ويخوفهم عند إثارة مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، بما يدخله في عقولهم، حتى يكسبوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: «وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، أولئك ما أوهم جهنم» أي: مَنْ انتقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار. «ولا يمدون عنها حصصاً» أي: خلاصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

﴿١٢٢﴾ ولما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وعد الله حقاً، ومن صدق من الله

(١) في ب: ومع هذا.

(٢) في النسختين: إنهم يتخذهم.

(٣) كذا في ب وفي أ: وفاطرم.

دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم.

وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا، وَهُوَ مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والآذى، و [بعض] ^(١) الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي عما يجزي به على عمله، قيضها الله لطفًا لعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام، مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كَمَنْ لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْدُلُ مَنْ دُونَ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن مَنْ استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المروء، إلا ربه ومليكه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضاً كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى. ولهذا قال: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان.

فالأعمال بدون الإيمان، كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على مرج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ

وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقًا، وخبره حقًا كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمنًا، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

﴿١٢٣ - ١٢٤﴾ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي: ﴿لَيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾. والأمانى: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترون بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها. وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟!

فإن أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى.

وكذلك أدخل الله في ذلك مَنْ ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي: دين كان، لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه. فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل، لأي: ذنب كان ^(٢)، من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل جزاء، قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقبل ومستكثر، فمَنْ كان عمله كله سوءًا، وذلك لا يكون إلا كافراً. فإذا مات من

قبلاً ^(١) أي: ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علماً وتصديقاً وإقراراً. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان.

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح. كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح.

وفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أحل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله.

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المأكول والمشرب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المخرقة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغرة، والأصوات الشجية، والنعيم السابعة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقرينه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم إبطاراً وماتوا من الفرح والخبور، فله ما أحلى ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العليات، ولهذا قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وعد الله حقًا، ومَنْ أصدق من الله قِيلاً.

فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله

(١) في ب: أورد الآية كاملة، بينما في أ، اقتصر على أولها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان.

(٣) زيادة من هامش: ب.

الجنة المشتعلة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ولا يظلمون نقيراً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً بما عملوه من الخير، بل يجدره كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿١٢٥﴾ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم خليلاً ﴿أي: لا أخذ أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

وهو مع هذا الإخلاص والاستسلام محسن ﴿أي: متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسوله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لحواصل خلقه وأتباعهم.

﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ والخلّة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفى بما أمر به وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذ خليلاً، ونوه بذكره في العالين.

﴿١٢٦﴾ ﴿الله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أن له ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

﴿١٢٧﴾ ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكهن والمستضعفين من ولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم فتوى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهياً، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص - بعد التعميم - الوصية بالضعاف من يتامى والولدان، اهتماماً بهم، وزجراً عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن يتامى من النساء. ﴿اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج لينتفع بنمائها، خوفاً من استخراجها من يده إن تزوجها، أو يأخذ من مهرها الذي راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وترغبون أن تنكهن﴾ أي: ترغبون عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

﴿والمستضعفين من الولدان﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث

وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد. ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله.

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية، بتنمية أموالهم، وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يجابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم. وهذا من رحمة تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه، وفقد أيبه.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وما تفعلوا من خير﴾ لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعدداً أو لازماً، ﴿فإن الله كان به عليماً﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العالمين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلًا بحسب عمله.

﴿١٢٨﴾ ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوراً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتقوا فإِنَّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي: إذا خافت المرأة نشوراً زوجها، أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً صالحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو السكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليتها لزوجها أو لغيرها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفراق، ولهذا قال: ﴿والصلح

تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يفرقا﴾ أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يغن الله كلا﴾ من الزوجين ﴿من سمعته﴾ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل. فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على التكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه، ﴿وكان الله واسعاً﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

ولكنه مع ذلك ﴿حكيماً﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عبادته من إحسانه، بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان حرمة عدلاً وحكمة.

﴿١٣١-١٣٢﴾ ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيلاً﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بناليم العذاب. ولهذا قال: ﴿وإن تكفروا﴾ بأن تركوا تقوى الله، وتشكروا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم، وأكثر مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ له الجود الكامل والإحسان

المأمور، وتتقوا بترك المحظور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿١٢٩﴾ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قنذهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطيع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالتفقه والكسوة والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطة ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وإن تصلحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإخبار أنفسكم على فعل ما لا تمواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس، فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمهم.

﴿١٣٠﴾ ﴿وإن يفرقا يغن الله كلا﴾ من سمعته وكان الله واسعاً حكيماً هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا

خير ﴿ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء، إلا إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً. واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونهى على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تعرضوا على قلع هذا الخلق الذي من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والاعتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حيثئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والمواقفة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي: تحسنوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك. ﴿وتتقوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات. أو تحسنوا بفعل

الشامل الصادر من خزائن رحمته، التي لا ينقصها الإنفاق، ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض، أولهم وآخرهم، فسأل كل [واحد] منهم ما بلغت أمانيه، ما بقص من ملكه شيئاً، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء من تدابير ملكه.

ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي، في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقتانهم، ومن عليهم بلطفه وهداهم.

وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد، ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين «الغني الحميد»!! فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على

تنفيذه، وتدبيره وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزّه عن كل نقص.

﴿١٣٣ - ١٣٤﴾ «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا * مِنْ كَانَ يَرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * أَيُّ: هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ الَّذِي لَهُ الْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ وَالْمَشِئَةُ النَّافِذَةُ فِيكُمْ، «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ» غَيْرَكُمْ، هُمْ أَطْوَعُ لِلَّهِ مِنْكُمْ وَخَيْرٌ مِنْكُمْ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّاسِ عَلَى إِقَامَتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ رَبِّهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْزُبُ عَنْهُمْ شَيْئًا إِنْ لَمْ يُطِيعُوهُ، وَلَكِنَّهُ يَمْهَلُ وَيَسْتَلِي وَلَا يَهْمِلُ.

ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية، غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة، فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبها منه، ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به، والافتقار إليه على الدوام.

وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وفي عطائه ومنعه، ولهذا قال: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» ﴿١٣٥﴾ ثم قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، والقوام صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ قَتَلُوا نَفْسًا يَعْزُبُ عَنْهُمْ أَوْ كَافُوا فِي الْأَرْضِ فَأَكْفَأْتُمُ النَّاسَ يَمِينًا وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَتَبْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ عِمْدًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَشُرُورٌ ﴿١٣٤﴾ وَإِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا * مِنْ كَانَ يَرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * أَيُّ: هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ الَّذِي لَهُ الْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ وَالْمَشِئَةُ النَّافِذَةُ فِيكُمْ، «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ» غَيْرَكُمْ، هُمْ أَطْوَعُ لِلَّهِ مِنْكُمْ وَخَيْرٌ مِنْكُمْ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّاسِ عَلَى إِقَامَتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ رَبِّهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْزُبُ عَنْهُمْ شَيْئًا إِنْ لَمْ يُطِيعُوهُ، وَلَكِنَّهُ يَمْهَلُ وَيَسْتَلِي وَلَا يَهْمِلُ.

أحوالكم قائمين بالقسط، الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته.

والقسط في حقوق الآدميين، أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك^(١)، كما تطلب حقوقك. فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من الأخلاق والمكافأة، وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط القسط في المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين، أو أحد المتنازعين، لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي: وجه كان، حتى على الأحباب بل على النفس، ولهذا قال: «شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما» أي: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق، على من كان.

والقيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدل على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه،

(١) في النسختين: الذي عليك.

المنافقين، ساء ظنهم بالله، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولخطوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء، يتعززون بهم ويستصرون.

والحال أن العزة لله جميعاً، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم. وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تحلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية التهيب العظيم من موالاة الكافرين؛ وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاةهم، وبغض الكافرين وعداوتهم.

﴿١٤٠ - ١٤١﴾ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً * الذين يترصبون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً أي: وقد بين الله لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها﴾ أي: يستهان بها. وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها، وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، ففقد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم.

وكذلك المتدعون على اختلاف

أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله، لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقاً، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق، التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حذرها لعباده ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

﴿إنكم إذا﴾ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿مثلهم﴾ لأنكم رضيتهم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلساً يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم، مع القدرة أو القيام مع عدمها.

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة ولا ينفع الكافرين مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكر تحقيق موالاة المنافقين للكافرين، ومعاداتهم للمؤمنين فقال: ﴿الذين يترصبون بكم﴾ أي: ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها، من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم. ﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ليسلموا من القدر والظعن عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفيء، وليتصروا بهم.

﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ ولم يقل فتح، لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون، أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله. فإذا كان ذلك ﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: نستولي عليكم ﴿ونمنعكم من

سَعَوْكُمْ لِكَيْبِ أَسْكَرْتُمْ لَلشُّعْبِ فَإِنَّ جَاهَكُمْ قَاحِرٌ بِهِمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصْرِفُوا عَنْكُمْ فَانْصَرُوا إِلَى اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَاحِلُ الْأَرْضِ لِمِمَّا وَرَدُّوا مِنْهُ فَقُلْتُ تَتَحَبَّبُونَ إِلَيَّْ ذَرْوْنِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْبِبُونِي ﴿١٤٣﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَاحِلُ الْأَرْضِ لِمِمَّا وَرَدُّوا مِنْهُ فَقُلْتُ تَتَحَبَّبُونَ إِلَيَّْ ذَرْوْنِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْبِبُونِي ﴿١٤٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَاحِلُ الْأَرْضِ لِمِمَّا وَرَدُّوا مِنْهُ فَقُلْتُ تَتَحَبَّبُونَ إِلَيَّْ ذَرْوْنِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْبِبُونِي ﴿١٤٥﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَاحِلُ الْأَرْضِ لِمِمَّا وَرَدُّوا مِنْهُ فَقُلْتُ تَتَحَبَّبُونَ إِلَيَّْ ذَرْوْنِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْبِبُونِي ﴿١٤٦﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَاحِلُ الْأَرْضِ لِمِمَّا وَرَدُّوا مِنْهُ فَقُلْتُ تَتَحَبَّبُونَ إِلَيَّْ ذَرْوْنِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْبِبُونِي ﴿١٤٧﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَاحِلُ الْأَرْضِ لِمِمَّا وَرَدُّوا مِنْهُ فَقُلْتُ تَتَحَبَّبُونَ إِلَيَّْ ذَرْوْنِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْبِبُونِي ﴿١٤٨﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَاحِلُ الْأَرْضِ لِمِمَّا وَرَدُّوا مِنْهُ فَقُلْتُ تَتَحَبَّبُونَ إِلَيَّْ ذَرْوْنِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْبِبُونِي ﴿١٤٩﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَاحِلُ الْأَرْضِ لِمِمَّا وَرَدُّوا مِنْهُ فَقُلْتُ تَتَحَبَّبُونَ إِلَيَّْ ذَرْوْنِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحْبِبُونِي ﴿١٥٠﴾

المؤمنين﴾ أي: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع من تنفيذهم، وتزهيدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك مما هو معروف منهم.

﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات.

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي: تسلطاً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفع لسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان. حتى إن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم، ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز الشام من الله، فله (٣) الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

﴿١٤٢ - ١٤٣﴾ ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ مذبذبين

(١) في ب: المنافقين.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: فله.

﴿تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أنذرنا وخذرننا منها؛ وأخبرنا بما فيها من الفساد، فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب.

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً؛ قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل الله عليه سلطاناً مبيناً.

﴿١٤٥ - ١٤٧﴾ «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً * ما يفعل الله

بعبادكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً» يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة،

والتمكن من كثير من أنواع العدواة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحسن. ورتبوا على ذلك خريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا من آمن بالله عليهم بالتوبة من السيئات.

﴿وأصلحوا﴾ له الظواهر والباطن ﴿واعتصموا بالله﴾ والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم. ﴿وأخلصوا دينهم﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لله﴾.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والافتقار، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويؤمن القيامة. ﴿وسوف يؤتي الله

المؤمنين أجراً عظيماً﴾ لا يعلم كنهه المتشاقلين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلو لا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل، ﴿يرأؤون الناس﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أفعالهم، مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله فلهذا

﴿لا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ لا متلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن متلى قلبه بحجة الله وعظمته.

﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين. فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً. أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر. ولهذا قال: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: لن تجد طريقاً لهدايته، ولا وسيلة لترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتنبهها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعبادتهم، وكثرة ذكركم لله تعالى. وأنهم قد هداهم الله ووقفهم للضراط المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختر أيهما أولى به، وبالله^(١) المستعان.

﴿١٤٤﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً» لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن



بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً» يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهره من الإيمان، وأبطنوه من الكفران، ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبيده لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم. وأي: خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان!!

ويدل بمجرد هذه على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورأها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فله ما يصنع الجاهل والخذلان بصاحبه!! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم﴾ إلى آخر الآيات.

ومن صفاتهم أنهم ﴿إذا قاموا إلى الصلاة﴾ إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية، ﴿قاموا كسالى﴾

إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ كَانَ عَقُورًا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم سترة، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعمل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغتينا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿١٥٠ - ١٥٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُرِيدُونَ أَنْ يَفْرُقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكَفِرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيمًا * هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسوله كلهم، وكتبه، وكافر بذلك كله.

وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيهم من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أمانى. فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسوله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسله، لأن ذلك من تمام توليه، ومن عادى أحداً من رسله فقد عادى الله، وعادى جميع رسله كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآيات.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لثلاث يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

وجه كونهم كافرين - حتى بما

بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل الطمع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعتراؤه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديرًا * يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغيض ذلك ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغيضه الله.

ويدل مفهومها أنه يجب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين. وقوله: ﴿لَا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويشتكى^(٢) منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه، وعدم مقابله أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السني والحسن والمباح، أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يبغيض ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَحْفَوْهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل. فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله

إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الخرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً لكل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم. بل قال:

﴿وَسَوْفَ يُوَفِّي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب^(١) عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تدرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلاث يتوهم اختصاص الحكم بالامر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين، مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه، فقال:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان. ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم. وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأى شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع

(١) في ب: يترتب.

(٢) في ب: ويشتكى.

عياناً، واتخاذهم العجل إلهاً يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالقوا القول والفعل. ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة.

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق. ومن قولهم: أنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والخال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه.

وادعاهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، ويصددهم الناس عن سبيل الله، فضدوهم عن الحق، ودعوههم إلى ما هم عليه من الضلال والغي. وبأخذهم السبت والربا مع نبي الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فالأذين فعلوا هذه الأفاعيل، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم، وينقم باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا

وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ويصددهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً * هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والافتراء، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم. وهو أنهم سأله أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مديبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ، «قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً».

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟

بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال، مما يدل على عظمتيه واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به قؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً».

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله

زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: «وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيباً» كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

«والذين آمنوا بالله ورسله» وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. «ولم يفرقوا بين أحد» من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

«أولئك سوف يؤتيهم أجورهم» أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله. ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم، «وكان الله غفوراً رحيماً» يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

١٥٣ - ١٦١ * «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنأ الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم



العدد الكثير والجسم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بياخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؛ وأخلاقهم متفقة؛ ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين؛ ولا بالكاذبين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم، من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم، واستئناساً بسلوكهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ ﴿سلام على إبراهيم﴾ ﴿سلام على موسى وهارون﴾ ﴿سلام على إيل ياسين﴾، إنا كذلك نجزي المحسنين.

فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه. والرسل - خصوصاً هؤلاء المسمون - في المرتبة العليا من الإحسان.

ولما ذكر اشتراكهم بوجبه، ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه أتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف، المزبور

عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبيعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

﴿١٦٢﴾ ولكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنوتيتهم أجراً عظيماً لما ذكر معائب أهل الكتاب، ذكر المدحيين منهم، فقال: ﴿لكن الراسخون في العلم﴾ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأنتم لهم الإيمان التام العام ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾.

وأثمر لهم الأعمال الصالحة، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، اللذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد. وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد.

﴿أولئك سنوتيتهم أجراً عظيماً﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة.

﴿١٦٣ - ١٦٥﴾ ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكماً﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمداً ﷺ ليس ببديع من الرسل، بل أرسل الله قبله من الرسلين

به، فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها، دالة ومقررة لنبوته محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعدد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة، لم يسبها في هذا الموضع، بل أشار إليها، وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق بسبها.

وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قبل موته﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا يفع، إيمان اضطراب، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون خالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قبل موته﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار.

فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً، يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟

وحينئذ لا يشهد إلا بظلال كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشرعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل.

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصددهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا

طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً * لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها وشهدت ملائكته - لزم من ذلك، ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم.

ثم تواعد من كفر بهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم، وصددهم الناس عن سبيل الله. هؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال * قد ضلوا ضلالاً بعيداً * وأي: ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره، فباء بالإثمين، ورجع بالخصارتين، وفاته الهديتان، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم. ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُفْغِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾.

وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم^(١)، فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا * وما ربك بظلام للعبيد *.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: لا يسالي الله بهم ولا يعبا، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿١٧٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة من الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به، فالسبب الموجب هو إخباره

الحمد وله الشكر. ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم، أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦٦﴾ ﴿لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنزله مشتتلاً على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية، ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده.

ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبية على وجه شهادته، وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدق كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه وإستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه، ويوالي نصره، ويحجب دعواته، ويخذل أعداءه وينصر أوليائه، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة، إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكمال إيمانهم وجلالة هذا المشهود عليه.

فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وكفى بالله شهيداً.

﴿١٦٧ - ١٦٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُفْغِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ



الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليماً، أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كلمه الرحمن».

وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصي الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾. فقد جاءكم بشير ونذير.

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضى ربه ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب، فله

فنتفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله، يعيسى عليه السلام.

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، فهداهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصاري قبحهم الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: هو المنفرد بالالهوية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿سبحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس. ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأن ﴿لَهُ﴾ ما في السماوات وما في الأرض، فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فمعدبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً.

لما ذكر تعالى غلو النصاري في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. فترهبهم عن الاستكفاف، وتزبيهم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

أي: فعيسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربه، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والفوز العظيم،

الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿١٧١﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدرة المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصاري في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفع عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: تأموره وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نص على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل الثواب.

وأنه ﴿كَلَّمْتَهُ﴾ التي ﴿الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: من الأرواح التي خلقها، وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام،

بأنه جاءهم بالحق. أي: فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون، وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم، غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغي من الرشد، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته.

وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراط المستقيم. فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله.

وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخير أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم، وديانهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وأجل، فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم، والعمل الصالح، والنزور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه، من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه، لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَلَنْ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الجميع خلقه ومملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق

أي: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرّمهم من فضله، وخلق بينهم وبين أنفسهم، فلم يهدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لِسَ لَه وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْإِثْنَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضْلُوا وَاللَّهُ يُكَلِّمُ شَيْءٍ عَظِيمٍ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَهُ ﷺ أَي: فِي الْكَلَالَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وَهِيَ الْمِثْتُ يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ صِلب ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَي: لَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى، لَا وَلَدٌ صِلب ولا ولد ابن.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد، فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أَي: شَقِيقَةٌ أَوْ لَأْب، لَا لَأْم، فَإِنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ حُكْمُهَا. ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أَي: نِصْفُ مَتْرُوكَاتِ أَخِيهَا، مِنْ نَقُودٍ وَعَقَارٍ وَأَثَاثٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَذَلِكَ مِنْ بَعْدِ الدِّينِ وَالْوَصِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ.

﴿وَهُوَ﴾ أَي: أَخُوهَا الشَّقِيقُ، أَوْ الَّذِي لِلْأَبِ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ وَلَمْ يَقْدِرْ لَهُ إِرْثًا لِأَنَّهُ عَاصِبٌ، فَيَأْخُذُ مَالَهَا كُلَّهُ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ فَرْضٍ وَلَا عَاصِبَ يَشَارِكُهُ، أَوْ مَا أَبْقَتْ الْفُرُوضُ.

﴿فَإِنْ كَانَتَا﴾ أَي: الْأَخْتَانِ ﴿اِثْنَتَيْنِ﴾ أَي: فَمَا فَوْقَ ﴿فَلَهُمَا الثَّلَاثُ مِمَّا تَرَكَ﴾، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً أَي: اجْتَمَعَ الذُّكُورُ مِنَ الْإِخْوَةِ لَغَيْرِ أُمٍّ مَعَ الْإِنَاثِ ﴿فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْإِثْنَيْنِ﴾ مِثْلُ حَظِّ الْأَخْتَيْنِ. فَيَسْقُطُ فَرْضُ الْإِنَاثِ وَيُعْضَبُ إِخْوَتُهُنَّ.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضْلُوا﴾ أَي:

واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴿يَحْتَنُ تَعَالَى عَلَى سَائِرِ النَّاسِ بِمَا أَوْصَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ وَالْأَنْوَارِ السَّاطِعَةِ، وَيَقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَيُوضِحُ لَهُمُ الْحُجَّةَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بِرَهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَي: حُجَجٌ قَاطِعَةٌ عَلَى الْحَقِّ تَبَيَّنَتْ وَتَوَضَّحَتْ، وَتَبَيَّنَ ضِدُّهُ.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سَرِيحُ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وفي قوله: ﴿مَنْ رَبُّكُمْ﴾ مَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ هَذَا الْبَرَهَانِ وَعَظَمَتِهِ، حَيْثُ كَانَ مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي رِبَاكُمْ التَّزْيِيَةَ الدِّينِيَّةَ وَالْدُّنْيَوِيَّةَ، فَمَنْ تَزْيِيَّتُهُ لَكُمْ الَّتِي يَحْمَدُ عَلَيْهَا وَيُشْكِرُ، أَنَّ أَوْصَلَ إِلَيْكُمْ الْبَيِّنَاتِ، لِيَهْدِيَكُمْ بِهَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالرَّوْصُولِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، الَّذِي قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى عِلُومِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَالْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ النَّافِعَةِ، وَالْأَمْرِ بِكُلِّ عَدْلٍ وَإِحْسَانٍ وَخَيْرٍ، وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ ظُلْمٍ وَشَرٍّ، فَالْنَّاسُ فِي ظِلْمَةٍ إِنْ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَنْوَارِهِ، وَفِي شَقَاءٍ عَظِيمٍ إِنْ لَمْ يَقْتَسِبُوا مِنْ خَيْرِهِ.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ أَي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب. ﴿واعتصموا به﴾ أَي: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم. ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ أَي: فسيغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات، ويميز لهم المشويات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ أَي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

فلم يستكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كملاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أَي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفضل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ وَاجِبَاتٍ وَمُسْتَحَبَاتٍ، مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ عِبَادِهِ. ﴿فَيُوفِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾ أَي: الْأَجُوزَ الَّتِي رَتَبَهَا عَلَى الْأَعْمَالِ، كُلِّ بِحَسَبِ إِيْمَانِهِ وَعَمَلِهِ.

﴿ويُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي لَمْ تَنْلَهُ أَعْمَالُهُمْ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَعْمَالُهُمْ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قُلُوبِهِمْ. وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ كُلِّ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَنَاسِكِ، وَالْمَنَاطِرِ، وَالسَّرُورِ، وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، وَنَعِيمِ الْبَدَنِ، بَلْ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلِّ خَيْرٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ رَتَبَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أَي: عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وَهُوَ سَخَطُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ، وَالنَّارُ الْمَوْقَدَةُ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْآفَتَةِ.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أَي: لَا يَجِدُونَ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ يَتَوَلَّاهُمْ فَيَحْصِلُ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ، وَلَا مَنْ يَنْصُرُهُمْ فَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الْمَرْهُوبُ، بَلْ قَدْ تَخَلَّى عَنْهُمْ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَتَرَكَهُمْ فِي عَذَابِهِمْ خَالِدِينَ، وَمَا حَكَمَ بِهِ تَعَالَى فَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مَغِيرَ لِقَضَائِهِ.

﴿١٧٤ - ١٧٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بِرَهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ



وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه، وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكثيره إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز.

وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في «حنين» في «شوال». وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال، فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾ أي: ولا تحلوا الهدي الذي يهدي إلى بيت الله في حج أو عمرة، أو غيرها من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيلة، ولا تقصروا به، أو تحمله ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به.

﴿ولا القلائد﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدي، وهو الهدي الذي يقتل له قلائد أو عرى، فيجعل في أعناقهم إظهاراً لشعائر الله، وحملًا للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة، وليعرف أنه هدي فيحترم، ولهذا كان تقليد الهدي من السنن والشعائر المسنونة.

﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ أي: قاصدين له «يتبنون فضلاً من ربهم ورضواناً» أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرته والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا يتعرضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموا، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا غلى أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم.

والتخصيص في هذه الآية بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صدق من هذه حالة عن الإفساد لبيت الله، كما قال تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: ﴿وإذا حللستم فاصطادوا﴾ أي: إذا حللستم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿ولا يجرمنكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾

أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جنى عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خان.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿ولا تعاونوا على الإثم﴾ وهو التجرد على المعاصي التي يأثم صاحبها، ويخرج «والعدوان» وهو التعدي على الخلق في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد، كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واقفوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من عصاه وتجراً على مجارمه، فاحذروا المحارم لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

﴿٣﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ هذا الذي حولنا الله عليه في قوله: ﴿إلا ما ينل عليكم﴾. واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يجرم ما يجرم إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك وقد لا يبين.

فأخبر أنه حرم «الميتة» والمراد

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في خمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم».

واليوم المشار إليه يوم عرفة، إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذلاً بليغاً، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يسئوا كل السئ من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع - لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ولهذا قال: «فلا تخشوهم واخشون» أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

«اليوم أكملت لكم دينكم» بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ورسوله.

«وأتممت عليكم نعمتي» الظاهرة والباطنة «ورضيت لكم الإسلام ديناً» أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

«فمن اضطر» أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات

وقوله: «إلا ما ذكيتم» راجع لهذه المسائل، من منخقة، وموقوفة، ومتردة، ونطيحة، وأكلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتحقيق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها» [وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة فإذا ذكأها وفيها حياة حلت ولو كانت مبانة الخشوة وهو ظاهر الآية الكريمة^(١)].

«وأن تستقسموا بالأزلام» أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهي قدام ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

فإذا هم أحدهم يسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القدام المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها، فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدين فيعمل به.

فحرّمه^(٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

«ذلكم فسق» الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق، أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

«٣» «اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

بالميتة: ما فقدت حياته بغيز ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضرب بآكلها. وكثيراً ما تموت بعلقة تكون سبباً لهلاكها، فتضرب بالآكل. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسماك، فإنه حلال.

«والدم» أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى. «ولحم الخنزير» وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصاري يزعمون أن الله أحله لهم. أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث.

«وما أهل لغير الله به» أي: ذكر عليه اسم غير الله تعالى، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يقيدها خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى.

«والمنخقة» أي: الميتة بخنق، بيد أو حبل، أو ادخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها حتى تموت.

«والموقوفة» أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً أو حصى أو خشبة، أو هدم شيء عليها، يقصد أو غير قصد.

«والمتردية» أي: الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك.

«والنطيحة» وهي التي تنطحها غيرها فتموت.

«وما أكل السبع» من ذئب أو أسد أو نمر، أو من الطيور التي تفترس البصير، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل.

(١) كذا في ب، وفي أ: كعدمه.

(٢) كذا في النسختين، ولعل الأقرب: فحرم.

السابقة، في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ «في خمسة» أي: جماعة «غير متجانف» أي: مائل «لإثم» بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته «فإن الله غفور رحيم» حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿٤﴾ «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب» يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: «يسألونك ماذا أحل لهم» من الأطعمة؟ «قل أحل لكم الطيبات» وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخائث منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتُ وَيُحْرَمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ﴾.

﴿وما علمتم من الجوارح﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكوه مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقور، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليماً، بأن يترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: «تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم» أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿من الجوارح﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخقة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يباح [هذا بناء على أن الجوارح الثلاث يجرحن الصيد بأنبيائها أو مخالبيها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواشب أي: المحصلات للصيد والمدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم -] (١).

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحت صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلاً، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذموماً، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمداً، لم يباح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقتراب، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾.

﴿٥﴾ «اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين» كرر تعالى إحلل الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب ينتسبون إلى الأنبياء والكتب.

وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم.

وأيضاً فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك، على أنه كان طعاماً، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغضب، ولا من المسلمين.

﴿وطعامكم﴾ أيها المسلمون «حل لهم» أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿و﴾ «أحل لكم» المحصنات «أي: الحرائر العفيفات» من المؤمنات «والمحصنات» من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم «أي: من اليهود والنصارى».

وهذا تخصيص لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾

ومفهوم الآية، أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار، وهو كذلك.

وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يبحن، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقاً، لقوله تعالى: ﴿مَنْ فِتْيَانَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ﴾. وأما المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين، عدم الطول وخوف العنت.

وأما الفاجرات غير العفيفات عن
الزنا فلا يباح نكاحهن، سواء كن
مسلمات أو كاتبات، حتى يتبن لقلوه
تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو
مشركة﴾ الآية.

وقوله: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾
أي: أبحنا لكم نكاحهن، إذا
أعطيتنموهن مهرهن، فمن عزم على
أن لا يؤتيها مهرها فإنها لا تحل له.
وأمر بإتيائها إذا كانت رشيدة تصلح
للإتاء، وإلا أعطاه الزوج لوليها.

وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحد منه شيء، إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرهما. ﴿محضين غير مسانحين﴾ أي: حالة كونكم - أيها الأزواج - محضين لئسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن.

﴿غير مسافحين﴾ أي : زانين مع كل أحد ﴿ولا متخذين أصدقاء﴾ وهو : الزنا مع العشيقات لأن الزناة في الجاهلية ، منهم من يزني مع من كان ، فهذا المسافح . ومنهم من يزني مع خدنه وعبيه . فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة ، وأن شرط التزويج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي: وَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع، فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (وهو في الآخرة من الخاسرين) أي: الذين

خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم
القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية.
﴿٢١﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم
إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم
إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم
وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم
فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على
سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو
لامستم النساء فلم تجدوا ماء
فيمسحوا صعيداً طيباً فامسحوا
بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد
الله ليجعل عليكم من حرج ولكن
يريد ليظهركم وليتم نعمته
عليكم لعلكم تشكرون ﴿٢٢﴾ هذه آية
عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة،
نذكر منها ما يسره الله وسهله.

أحدها: أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخرها. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله:
﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة،
لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي:
بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب. الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إزادة الصلاة.

الناذر: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض والفعل، وقرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو:
ما تحصل به المواجهة من منابت شعر
الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين
والذقن طويلاً. ومن الأذن إلى الأذن
عرضاً.

وَيَدْخُلُ فِيهِ الْمَضْمُضَةُ وَالِاسْتِشْقَاقُ،
بِالْسُّنَّةِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الشُّعُورُ الَّتِي فِيهِ.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ
وَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَخُذُوا زِينَتَكُمْ قُلْ لِلَّهِ الْغَنِيُّ
كَذِبُوا وَصَلُّوا عَنْ سُبُلِ الْكَسْبِ ﴿١٠﴾ لَوْلَا الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْكُمْ لَافْتَحَ اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ دَارُودٌ رَضِيَ
عَنْهُمْ ﴿١١﴾ أَيْنَ مِنْهُمْ ذَلِكَ مَا عَصَوْا وَكَانُوا فَتَنَافُسُونَ
﴿١٢﴾ كَانُوا لَا يَتَنَبَّهُونَ عَنْ مَا يَكْفُرُونَ بِصُلُوبٍ
﴿١٣﴾ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٤﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنُ اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا فَعَلْتُمْ أَفْشَاهُمْ
أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ
﴿١٥﴾ وَلَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ بِإِقْدَارِ مَا فِي يَدَيْهِ
وَأَنَّ اللَّهَ عَاطِدٌ فَهُمْ وَلَيْسَ لَهُ مُقْدِرٌ وَلَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا كَفَرُوا وَتَوَلَّوْا أَفْهَمُ مَوْجِدَةً لِلَّذِينَ
آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا تَصَدَّقُوا ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُمْ
قَرِيبٌ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكِنَّهُمْ غَرُوفٌ ﴿١٦﴾

لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهاها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن
حدهما إلى المرفقين و«إلى» كما قال
جمهور المفسرين بمعنى «مع»، كقوله
تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى
أَمْوَالِكُمْ﴾ ولأن الواجب لا يتم إلا
بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بفتح الرأس .

العاشر: أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح
كيفما كان، بيديه أو إحداهما، أو خرقة
أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق
المسح ولم يقيده بصفة، فدل ذلك على
إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح -
فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم
يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين
إلى الكعيين، ويقال فيهما ما يقال في
الدين.

الرابع عشر: فيها الرد على
الرافضة، على قراءة الجمهور بالنصب،
وأنه لا يجوز مسحهما ما دامت
مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح



لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء .
الرابع والثلاثون : أنه إذا دخل
الوقت وليس معه ماء ، فإنه يلزمه طليه
في رحله وفيما قرب منه ، لأنه لا يقال
« لم يجد » لمن لم يطلب .

الخامس والثلاثون : أن من وجد ماء
لا يكفي بعض طهارته ، فإنه يلزمه
استعماله ، ثم يتيمم بعد ذلك .

السادس والثلاثون : أن الماء المتغير
بالتطاهرات ، مقدم على التيمم ، أي :
يكون طهوراً ، لأن الماء المتغير ماء ،
فيدخل في قوله : « فلم نجد ماء » .

السابع والثلاثون : أنه لا بد من نية
التيمم لقوله : « فتيمموا » أي :
اقصدوا .

الثامن والثلاثون : أنه يكفي التيمم
بكل ما تصاعد على وجه الأرض من
تراب وغيره . فيكون على هذا ، قوله :
« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه »
إما من باب التغليب ، وأن الغالب أن
يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه
واليدين ، وإما أن يكون إرشاداً
للأفضل ، وأنه إذا أمكن التراب الذي
فيه غبار فهو أولى .

التاسع والثلاثون : أنه لا يصح
التيمم بالتراب النجس ، لأنه لا يكون
طيباً بل خبيثاً .

الأربعون : أنه يمسح في التيمم
الوجه واليدان فقط ، دون بقية
الأعضاء .

الحادي والأربعون : أن قوله :
« بوجوهكم » شامل لجميع الوجه وأنه
يعممه ^(٢) بالمسح ، إلا أنه معفو عن
إدخال التراب في الفم والأنف ، وفيما
تحت الشعور ، ولو خفيفة .

الثاني والأربعون : أن اليدين
تمسحان إلى الكوعين فقط ، لأن اليدين
عند الإطلاق كذلك .

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى
الذراعين لقيده الله بذلك ، كما قيده
في الوضوء .

العشرون : أنه يجب تعميم الغسل
للبدن ، لأن الله أضاف التطهر للبدن ،
ولم يخصه بشيء دون شيء .

الحادي والعشرون : الأمر بغسل
ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة .

الثاني والعشرون : أنه يندرج الحدث
الأصغر في الحدث الأكبر ، ويكفي من
هما عليه أن ينوي ، ثم يعمم بدنه ،
لأن الله لم يذكر إلا التطهر ، ولم يذكر
أنه يعيد الوضوء .

الثالث والعشرون : أن الجنب
يصدق على من أنزل المني يقطة أو
مناماً ، أو جامع ولو لم ينزل .

الرابع والعشرون : أن من ذكر أنه
احتلم ولم يجد بديلاً ، فإنه لا غسل
عليه ، لأنه لم يتحقق منه الجنابة .

الخامس والعشرون : ذكر منه الله
تعالى على العباد ، بمشروعية التيمم .

السادس والعشرون : أن من أسباب
جواز التيمم وجود المرض الذي يضره
غسله بالماء ، فيجوز له التيمم .

السابع والعشرون : أن من جملة
أسباب جوازه ، السفر والإتيان من
البول والغائط إذا عدم الماء ، فالمرض
يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول
التضرر به ، وباقيها يجوز العدم للماء
ولو كان في الحضر .

الثامن والعشرون : أن الخارج من
السبيلين من بول وغائط ، ينقض
الوضوء .

التاسع والعشرون : استدلل بها من
قال : لا ينقض الوضوء إلا هذان
الأمران ، فلا ينتقض بلمس الفرج
ولا بغيره .

الثلاثون : استحباب التكنية عما
يستقذر التلظ به ^(١) ، لقوله تعالى :
« أو جاء أحد منكم من الغائط »

الحادي والثلاثون : أن لمس المرأة
بلذة وشهوة ناقض للوضوء .

الثاني والثلاثون : اشتراط عدم الماء
لصحة التيمم .

الثالث والثلاثون : أنه مع وجود
الماء ولو في الصلاة ، يبطل التيمم

الخفين ، على قراءة الجهر في
« وأرجلكم » .

وتكون كل من القراءة ، محمولة
على معنى ، فعلى قراءة النصب فيها ،
غسلهما إن كانتا مكشوفتين ، وعلى
قراءة الجهر فيها ، مسحهما إذا كانتا
مستورتين بالخف .

السادس عشر : الأمر بالترتيب في
الوضوء ، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة .
ولأنه أدخل ممسوحاً - وهو الرأس -
بين مغسولين ، ولا يعلم لذلك فائدة
غير الترتيب .

السابع عشر : أن الترتيب مخصوص
بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه
الآية .

وأما الترتيب بين المضمضة
والاستنشاق والوجه ، أو بين اليمنى
واليسرى من اليدين والرجلين ، فإن
ذلك غير واجب ، بل يستحب تقديم
المضمضة والاستنشاق على غسل
الوجه ، وتقديم اليمنى على اليسرى من
اليدين والرجلين ، وتقديم مسح الرأس
على مسح الأذنين .

الثامن عشر : الأمر بتجديد الوضوء
عند كل صلاة ، لتوجد صورة المأمور
به .

التاسع عشر : الأمر بالغسل من
الجنابة .

(٣) زيادة من هامش : ب .

(٢) في ب : يغمه .

(١) كذا في ب ، وفي أ : فيه .

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلا عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد [وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء] (١).

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزئ أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فامسحوا﴾ ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعِلما، ويزداد شكراً لله وعجبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿٧﴾ واذكروا نعمة الله عليكم

وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴿١﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمة الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبة، وامتلاء القلب من إحسانه.

وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه ﴿وميثاقه﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الذي واثقكم به﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا وتطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهم، ولهذا قال: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتناع، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على يال، ويحرضون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، وأمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿٨﴾ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا ﴿قوامين لله شهداء بالقسط﴾ بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة

والباطنة

وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، واليصدق والعدو.

﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿قوم على ألا تعدلوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وآجلاً.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي: ﴿وعد الله﴾ الذي لا يخلف الميعاد وهو أصدق القائلين - المؤمنين به - ويكتبه ورسله اليوم الآخر، ﴿وعملوا الصالحات﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالغفر عنها وعن عواقبها، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على الحق المين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ الملازمون لها ملازمة صاحب لصاحبه.

﴿١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا

نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٢﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمة العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم - كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسيبهم نعمة - فليعدوا أيضاً إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم الأعداء قد هموا بآمر، وظنوا أنهم قادرون عليه.

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعيدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومتناق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزمتهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ ﴿١٣﴾ فيما نقصهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجزهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم

يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي: رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثاً لهم على القيام بما أمروا به، مطالباً يدعوه.

﴿وقال الله﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إني معكم﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة.

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وآتيتم الزكاة﴾ لمستحقّيها ﴿وآمنتم برسلي﴾ جميعهم، الذين أفضّلهم وأكملهم محمد ﷺ، ﴿وعزمتهم﴾ أي: عظمتهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ وهو الصدقة والإحسان، الضادر عن الصديق والإخلاص وطيب المكسب، فإذا أقمتم بذلك ﴿لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات.

﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ العهد والميثاق المؤكد بالأمان، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه.

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب. فكأنه قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه، أم تكفروا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فما نقضهم ميثاقهم﴾ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات.

الأولى: أننا ﴿لعناهم﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي

هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً.

الثالثة: أنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: ابتلوا بالتفسير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراده الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نسوا حظاً مما ذكروا به﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أساهم الله إياه عقوبة منه لهم.

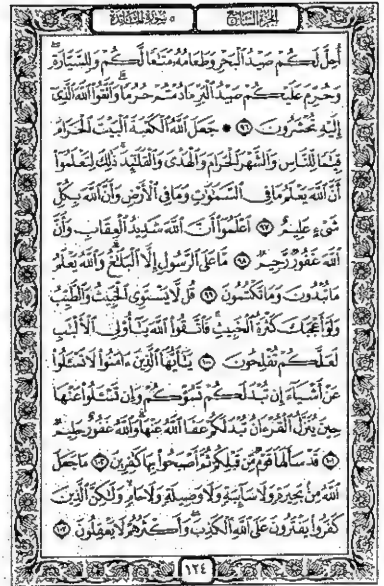
وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستند بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتبهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي: خيانة الله لعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتهمهم [عن] من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإيقاظهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة. وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم.

فكل من لم يرق بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به خطأ، لأنه هو أعظم الخطوط، وما عداه فإنما هي خطوط دنيوية، كما قال تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما



من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح.

قال الله ردأ عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟﴾ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم لآل كون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه^(٢).

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقٍ﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب، ﴿وَلَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: فأى شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة الممالك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿١٩﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فِتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وشدة حاجة إليه.

وهذا ما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية.

وقد قطع الله بذلك حاجتهم، لئلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، فقد جاءكم بشير ونذير ﴿يُبَشِّرُ بِالْثَوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَبِالْأَعْمَالِ الْمُرْجِيَةِ لَذَلِكَ، وَصِفَةِ الْعَامِلِينَ بِهَا. وَيُنْذِرُ بِالْعِقَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَبِالْأَعْمَالِ الْمُرْجِيَةِ لَذَلِكَ، وَصِفَةِ الْعَامِلِينَ بِهَا.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ انقادت الأشياء طوعاً وإذعائاً لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يشيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

﴿٢٠-٢٦﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءً وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة إلى آخر القصة^(٣). لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومنساكنهم، وهي بيت المقدس وما حواله، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليقدّموا على الجهاد فقال لهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾

بقلوبكم وألستمكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة، إذا جعل فيكم أنبياء يدعوكنم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى، ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

﴿وَآتَاكُمْ﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ أي: ترجعوا ﴿عَلَى أَدْبَارِكُمْ، فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ قد

ولا قدرة لهم على ذلك. - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

ومن الأدلة أن ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم [كآدم]^(١).

فنوع خلقته تعالى بمشيئته النافذة، التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

والأين في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا النبوة الحقيقية، فإن هذا ليس

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

ومواجهتهم لنبيهم فيه في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرته لنبيهم، وإعزاز أنفسهم.

وهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد ﷺ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ - حين شاورهم في القتال يوم «بدر» مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: «أذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون» ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون، من بين يدك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.

فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه: قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي: أي: فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء.

«فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين» أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، وذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

«قال» الله عجباً لدعوة موسى: «فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض» أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضاً يتيهون في الأرض، لا يمسكون إلى طريق ولا يسبقون مطمئنين، وهذه عقوبة دينية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها، وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه

خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم. وأخرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحققتكم - بمعصيتكم - من العقاب، فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله. ورسوله: «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين» شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها.

«وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون». وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أئمانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعداً خاصاً.

«قال رجلان من السذجين يخافون» الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم. «أنعم الله عليهما» بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

«ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون» أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون، ثم أمرهم بعدة هي أقوى العدد، فقالوا: «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين».

فإن في التوكل على الله - وخصوصاً في هذا الموطن - تيسيراً للأمر، ونصراً على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، فلم ينتجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: «يا موسى، إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون».

فما أشنع هذا الكلام منهم،

(١) في ب: كتب الآيات إلى قوله تعالى: «فأصبح من التامدين».



المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد آلت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقبها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تتربى بحقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والنذل المانع من السعادة.

ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق، خصوصاً قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها، قال: «فلا تأسف على القوم الفاسقين» أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلماً منا.

«٢٧ - ٣١» «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق» إلى آخر القصة (١). أي: قصص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المعتبرون، صدقاً لا كذباً، وجدلاً لا لعباً، والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين. أي: اتل عليهم نبأهما في حال تربيتهما للقربان، الذي أداهما إلى الحال



المذكورة.

﴿إِذْ قَرَّبْنَا﴾ أي: أخرج كل منهما شيئاً من ماله لقصد التقرب إلى الله، ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ بأن علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم، أن علامة تقبل الله للقربان، أن تنزل نار من السماء فتحرقه. ﴿قَالَ﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسداً وبغياً ﴿لَا تَقْتُلْكَ﴾. فقال له الآخر - مترفعاً له في ذلك - ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فأبى: ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟ إلا أني اتقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبة عليّ وعليك، وعلى كل أجد، وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

ثم قال له غبراً أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا مدافعة فقال: ﴿لَنْ يَسُطَّ إِلَيْكَ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي﴾، ما أنا بياسط يدي إليك لأقتلك، وليس ذلك جناً مني ولا عجزاً. وإنما ذلك لأنني أخاف الله رب العالمين، والخائف لا يقدم^(١) على الذنوب، خصوصاً الذنوب الكبار، وفي هذا تحوير لمن يريد القتل،

(١) في ب: لا يقوم.

وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتحافه. ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ﴾ أي: ترجع إليّ ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني فأني أوثر أن تقتلني، فتبوء بالوزيرين ﴿فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جِزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار. فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويحزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه. ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دنياهم وأخرتهم، وأصبح قد سن هذه السيئة لكل قاتل. ﴿وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة﴾. ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها، لأنه أول من سن القتل». فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يثيرها ليدفن غراباً آخر ميتاً ﴿لِيرِيَهُ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿٣٢﴾ ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنّه القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة، ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه ليس

معه داع يدعو إلى التبيين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الإشارة بالسوء فتجرؤه على قتله، كأنه قتل الناس جميعاً. وكذلك مَنْ أحيا نفساً أي: استبقى أحداً، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحيا الناس جميعاً، لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل مَنْ لا يستحق القتل. ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين:

إما أن يقتل نفساً بغير حق متعمداً في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفاً مكافئاً، ليس بوالد للمقتول. وإما أن يكون مفسداً في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أديانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكشف شرهم إلا بالقتل. وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصلون على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي لا يبقى معها حجة لأحد. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من الناس ﴿بَعَدَ ذَلِكَ﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿إِنَّمَا جِزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم. المحاربون لله ورسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض



فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير * السارق * هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه. وهو من كباثر الذنوب الموجبة لثرب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

وجد اليد عند الإطلاق من الكوع، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وخسمت في زيت لتتسد العروق فيقف الدم، ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:

منها: الخرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من خرز، وخرز كل مال: ما يحفظ به عادة. فلو سرق من غير خرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربح دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه.

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها، فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز

منه، وذلك أن يكون المال خرزاً، فلو كان غير خرز لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه، فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصاً للكتاب.

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد، فقتل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيل: يحبس حتى يموت.

وقوله: «جزاء بما كسبا» أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس.

«نكالا من الله» أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا.

«والله عزيز حكيم» أي: عز وحكم فقطع السارق.

«فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم» فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب. وذلك أن الله ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

٤١ - ٤٤ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنُوا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحُزْفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمِنْ يَرُدَّ اللَّهُ فَتَنَهُ فُلْنِ مَلَكٍ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فَلَاحِقَهُمُ الْهَلَاكُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَاعُونَ

للكذب أكالون للمسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين * وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والزياتيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد خزنه لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر، فأرشدته الله تعالى، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء. فإن هؤلاء لا في العير ولا في النكير. إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا، ولهذا قال مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم - فقال: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾، فإن الذين يؤمنون ويحزنون عليهم، من كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وخاشعاً: أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويزنوا، فإن الإيمان - إذا خالطت بشاشته القلوب - لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يخ به بدلاً.

﴿ومن الذين هادوا﴾ أي: اليهود ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغنى. وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿لم يأتوك﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل وهو تحزيف الكلم عن مواضعه، أي: جلب معانٍ للألفاظ ما أرادها الله. ولا يقصدها، لإضلال الخلق ولدفع الحق، فهؤلاء المتقادون للدغاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا

هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف .

﴿والجروح قصاص﴾
والاقتصاص : أن يفعل به كما فعل .
فمن جرح غيره عمداً اقتص من الجراح جرحاً مثل جرحه للمجروح ، حداً ، وموضِعاً ، وطولاً ، وعرضاً وعمقاً ، وليلعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه .

﴿فمن تصدق به﴾ أي : بالقصاص في النفس ، وما دونها من الأطراف والجروح ، بأن عفا عمن جنى ، وثبت له الحق قبله .

﴿فهو كفارة له﴾ أي : كفارة للجاني ، لأن الأدمي عفا عن حقه . والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه ، وكفارة أيضاً عن العافي ، فإنه كما عفا عمن جنى عليه ، أو عفا من يتعلق به ، فإن الله يعفو عن زلاته وجناباته .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ قال ابن عباس : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، فهو ظلم أكبر ، عند استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له .

﴿٤٦ - ٤٧﴾
يعيسى ابن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة وآتيانه الإنجيل فيه هدى ونور ومصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للممتقين . ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي : وآتينا هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، الذين يحكمون بالتوراة بعبدنا ورسولنا عيسى ابن مريم ، روح الله وكلمته التي أتيناها إلى مريم .

بعثه الله مصداقاً لما بين يديه من التوراة ، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق ، ومؤيد لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية .

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه

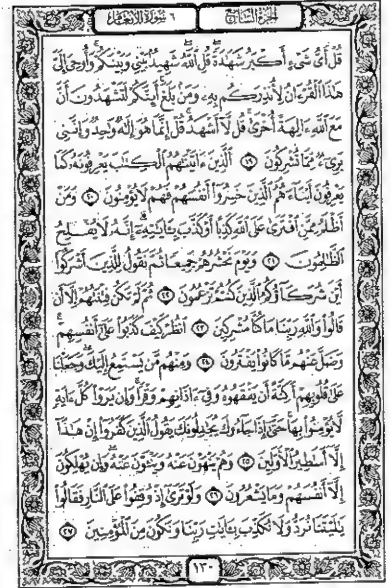
الباطل ، لأجل متاع الدنيا القليل ، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعاده ، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم ، ويعلم أن الله قد استحفظه ما ^(١) أودعه من العلم واستشهده عليه ، وأن يكون خائفاً من ربه ، ولا يمنعه خوف الناس وخشيته من القيام بما هو لازم له ، وأن لا يؤثر الدنيا على الدين .

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون غلباً للبطالة ، غير قائم بما أمر به ، ولا مبال بما استحفظ عليه ، قد أهمله وأضاعه ، قد باع الدين بالدنيا ، قد ارتشى في أحكامه ، وأخذ المال على فتاويه ، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة .

فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة ، كفرها ودفع حظاً جسيماً ، محروماً منه غيره ، فمسالك اللهم علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ من الحق المبين ، وحكم الباطل الذي يعلمه ، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر ، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة ، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه . وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر قد اسحق من فعله العذاب الشديد .

﴿٤٥﴾ ﴿وكتبت عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار . إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس - إذا قتلت - تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة ، والعين تفلح بالعين ، والأذن تؤخذ بالأذن ، والسن ينزع بالسن . ومثل



وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ أي : بسبب أن الله استحفظهم على كتابه ، وجعلهم أمناء عليه ، وهو أمانة عندهم ، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان ، وتعليمه لمن لا يعلمه .

وهم شهداء عليه ، بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه ، وفيما اشبه على الناس منه ، فالله تعالى قد جعل أهل العلم ، ما لم يحمله الجهال ، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا .

وأن لا يقتدوا بالجهال ، بالإخلاد إلى البطالة والكسل ، وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة ، من أنواع الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ونحو ذلك من الأمور ، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا .

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم ، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهمهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، خصوصاً الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم ، ولهذا قال : ﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ فتكتمون الحق ، وتظهرون

وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزىء في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات، التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها سبق.

﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ الأُمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه. ﴿فبينكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ.

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فاحكم بينهم﴾ أو أعرض عنهم.

والصحيح: أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ خير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وأن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ وذو هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿واحذرهم أن يفتنوك﴾ عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي: إياك والاغترار بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه.

﴿فإن تولوا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فاعلم﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أن يصيبهم ببعض

حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لكل جعلنا منكم﴾ أيها الأُمم جعلنا ﴿شرعة ومنهاجاً﴾ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأُمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع. ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ تبعاً لشرعية واحدة، لا تختلف متأخرها ولا مقدمها.

﴿ولكن ليلوكم فيما آتاكم﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويبتلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأُمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مسئولاً على الأمر، إلا بأمرين:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول

أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ولأخل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾.

﴿وآتيناه الإنجيل﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة: ﴿فيه هدى ونور﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، وبين الحق من الباطل. ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ بتثبيتها والشهادة لها والموافقة. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ فأنهم الذين ينتفعون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ، ويرتعدون عما لا يليق.

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابتهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بالحق﴾ أي: إنزالاً بالحق، ومشتماً على الحق في أخباره وأوامره وتواهيه. ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرته به، فصار وجوده مصداقاً لخبرها.

﴿ومهيمناً عليه﴾ أي: مشتماً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل

ذنوبهم ﴿فإن للذنوب عقوبات عاجلة وأجلة، ومن أعظم العقوبات أن يتبلى العبد ويرزق له ترك اتباع الرسول، وذلك لنفسه﴾.

﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي: طبعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿أنحكم الجاهلية يبغون﴾ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلى بالثاني المبني على الجهل والظلم والغنى، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى.

﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ فالوقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿٥١ - ٥٣﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسمعون قبيحاً يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ ويقولون الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴿يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يداً على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون

بضرهم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم.

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعملون. فلو جتتهم بكل آية ما تبعوك، ولا اتقادوا لك. ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن من يدعي الإيمان طائفة توليهم، فقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة، فإننا نخشى أن تصيبنا دائرة ﴿أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافؤونا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - راداً لظنهم السيئ - : ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أو أمر من عنده﴾ يأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا﴾ أي: أضمرنا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالة، ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً،

فيطل كيدهم ويطلت أعمالهم ﴿في الدنيا﴾ فأصبحوا خاسرين ﴿حيث فاتهم مقصودهم، وخضرهم الشقاء والعذاب﴾.

﴿٥٤﴾ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن الله عباداً لمخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهديتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقوام نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله يحبهم ويحبونه﴾. فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. كما أن من لازم^(١) محبة الله للعبد، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والتوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال [عبيدي] يتقرب إلي بالتوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».



ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لثلاث يعجبوا بأنفسهم، ولشكروا الذي من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، من لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿٥٥-٥٦﴾ **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾** لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى من يجب ويستعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾**. فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى. فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن كان ولياً لله فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله كان تمام ذلك تولى من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود، بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقها منهم. وقوله: **﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾** أي: خاضعون لله ذليلون. فإداعة الخصر في قوله: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم. ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾**

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل. ومن صفاتهم أنهم **﴿المؤمنين أعزة على الكافرين﴾** فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم وراقتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسوله - أعزة قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾** وقال تعالى: **﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾** فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويتوافق العبد به في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن. فيجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم. **﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. **﴿وَالْأَخْفَافُونَ لَوْمَةً لَئِيمَةً﴾** بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللاتمين، وتفترق قوته عند عذل العاذلين. وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

(١) كذا في ب، وفي أ: ويبدون إليهم.

فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: **﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾**.

وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة، وإن أديب عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأخر أمره، الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قبلاً.

﴿٥٧-٥٨﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤاً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤاً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾** ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء يحببهم ويتولونهم، ويبدون لهم أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك مواليتهم، ويمشهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره مما

وهذا النوع من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه وكذلك قوله: ﴿وَأُضِلَّ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: وأبعد عن قصد السبيل.

﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقاً ومكراً ﴿وَهُمْ﴾ هم ﴿قَدْ دَخَلُوا﴾ مشتملين على الكفر ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر - وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالاً منهم؟!؟

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم خيراً وشرها.

ثم استمر تعالى يعدد معاصيهم، انتصاراً لقدحهم في عباده المؤمنين، فقال: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ﴿يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: يحرضون، ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين.

﴿وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ﴾ الذي هو الحرام. فلم يكف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على حبب المعاصي والظلم. هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا في غاية الذم لهم والقبح فيهم.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرِّبَايُونُ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ﴾ أي: هلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس، الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة - عن المعاصي التي تصدر منهم، ليحول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبوهم في الخير ويرهبوهم من الشر. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

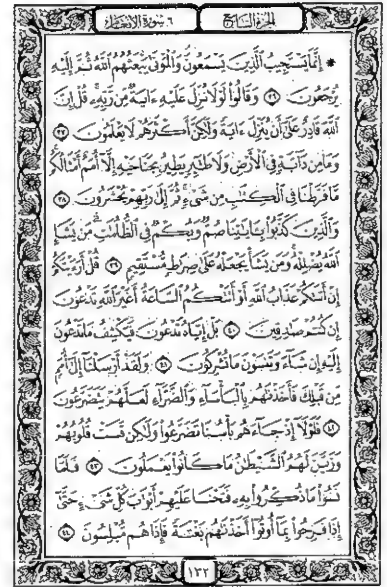
﴿٦٤ - ٦٦﴾ وقال اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل * وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون * وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون * أي: قل يا أيها الرسول: يا أهل الكتاب! ملزمًا لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدحهم فيه قدح يأمر ينغي المدح عليه: ﴿هَلْ تَتَّقُونََنَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله، وبكتبه السابقة واللاحقة، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان فإنه كافر فاسق؟

فهل تنقمون منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين؟! ومع هذا فأكثرهم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون على معاصيه، فأولى لكم - أيها الفاسقون - السكوت، فلو كان عيبكم وأنتم سالمون من الفسق، وهيئات ذلك - لكان الشر أخف من قدحكم فيما مع فسقكم.

ولما كان قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى:

﴿قُلْ﴾ لهم خبراً عن شناعة ما كانوا عليه: ﴿هَلْ أَنْتُمْ بِبَشَرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ الذي نعمتم فيه علينا، مع التنزل معكم. ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدته عن رحمته. ﴿وَعُذِّبَ عَلَيْهِ﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة. ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وهو الشيطان، وكل ما عُبِدَ من دون الله فهو طاغوت. ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شَرُّ مَكَانٍ﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم وأنابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين.



تدعوهم إلى معادتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً، واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً، وذلك لعدم عقلهم وجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول خضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس.

فإذا علمتم - أيها المؤمنون - حال الكفار وشدة معادتهم لكم ولدينكم، فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالاة من اتخذهم هزواً ولعباً، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحقم؟!؟

وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونََنَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ قل هل أنتم بشر من ذلك مشوبة عند الله من لعنه الله وغضب

رجالاً نوحى إليهم. فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة، فلاي شيء اتخذهما النصارى الهين مع الله؟

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا الهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد.

ولما بين تعالى البرهان قال: ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئاً، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وإفترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

﴿٧٦﴾ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين، ﴿مَنْ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، ﴿والله هو السميع﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

﴿العليم﴾ بالظواهر والباطن، والغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلية، فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

﴿٧٧-٨١﴾ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلِ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ لمن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن

بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم توعدهم بقوله: ﴿وَلَنْ يَنْتَهُوا﴾ عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم. ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، عما كانوا يقولونه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عن ما صدر منهم ﴿والله غفور رحيم﴾ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات.

وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾.

ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه، الذي هو الحق، فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: هذا غايته ومنتهى أمره، أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع، إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم، تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

﴿وأمه﴾ مريم ﴿صديقة﴾ أي: هذا أيضاً غايتها، أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء والصديقية، هي العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح. وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبيه، بل أعلى أحوالها الصديقية، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً. وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبيه، لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين، في الرجال كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا

وربكم إنه من يشرك بالله فقد جرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

﴿إنه من يشرك بالله﴾ أحداً من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره. ﴿فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له - وهو العبادة الخالصة - لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

﴿وما للظالمين من أنصار﴾ يقذفهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى، كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء، والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟! قال تعالى - راداً عليهم وعلى أشباههم -: ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ متصف

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح، ما تقدم حكايته عنهم.

وكنلوهم في بعض المشايخ، اتباعاً لـ ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلِ﴾ أي: تقدم ضلالهم.

﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذين هم عليه ﴿وَضَلُّوا عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لَمَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها، ﴿ذَلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سبباً لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أخلت بهم المثلثات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا محارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجباً للعقوبة، لما فيه من المفسدة العظيمة: منها: أن مجرد السكوت، فعل

معصية، وإن لم يباشرها الساكت، فإنه - كما يجب اجتتاب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أن ذلك يجريء العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتُعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشراكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرّون على ما كانوا يقدرّون عليه أولاً.

ومنها: أن - في ترك^(١) الإنكار للمنكر - يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية - مع تكررها - وصورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي: مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله، حلالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟

ومنها: أن السكوت^(٢) على معصية العاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاعتداء بأضراجه وبني جنسه، ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا بالمحبة والموالة والنصرة.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوّتوها

التعظيم المقيم. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالة ربه، وموالة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعياده، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء الشرط. ﴿وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. ومن فسقهم موالة أعداء الله.

ثم قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرِهَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنَّا يَدْخُلْنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أن فائسهم الله بما قالوا جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم وعبتهم، وأبعدهم عن ذلك: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾. فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغياً وحسداً وعداواً وكفراً. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب: منها: أن ﴿مَنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرِهَانًا﴾ أي: علماء مشرّذين، وعبيد في

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

وشراب، وسرية وأمة، ونحو ذلك، فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية. إلا أن تحريم الزوجة فيه بكفارة ظهار، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها نفسه، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه.

﴿٨٩﴾ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم^(١) أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فبان بخلاف ذلك. ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ فكفارتهم أي: كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم

﴿إطعام عشرة مساكين﴾ وذلك الإطعام من أوسط ما تطعمون أهلهم أو كسوتهم أي: كنسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة. ﴿أو تحرير رقبة﴾ أي: عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فمضى فعل واحداً من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه. ﴿فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة فصيام ثلاثة أيام﴾ ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلفتم تكفرها وتحوها وتمتع من الإثم. ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ عن الحلف بالله كاذباً، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ المبينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام. ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون. فعلى العباد شكر الله تعالى على ما من به

من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركون إلى دين الإسلام.

ولما ذكر ثواب المحسنين، ذكر عقاب المسيئين قال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لأنهم^(٢) كفروا بالله، وكذبوا بآياته المبينة للحق.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ واكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحذروه إذا أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء.

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك، ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصباً ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والحيث.

﴿واتقوا الله﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه و مراعاة حقه، فإنه لا يتم إلا بذلك. ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه، من طعام

الصوامع متعددين. والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: ﴿أنهم لا يستكبرون﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقرهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ محمد ﷺ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة ووصحه ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب.

وهم عدول، شهادتهم مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾. فكأنهم ليموا على إيمانهم ومسارعهم فيه، فقالوا: ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي: وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأبي مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجباً للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه.

قال الله تعالى: ﴿فأنا بهم الله بما قالوا﴾ أي: بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين﴾. وهذه الآيات نزلت في النصاري الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالتجاشي وغيره من أمم منهم. وكذلك لا يزال يوجد فيهم

(١) كذا في ب، وفي أ: لأنه.

(٢) في ب كتب الآية كاملة.

عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

﴿٩٠ - ٩١﴾ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ** * **إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** * يَذِمُّ تَعَالَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْقَبِيحَةَ، وَيُخَيِّرُ أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَأَنَّهَا رَجَسٌ. **﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾** أَي: اتْرُكُوهُ **﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾** فَإِنَّ الْفَلَاحَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَرْكِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، خَاصَّصًا هَذِهِ الْفَوَاحِشَ الْمَذْكُورَةَ وَهِيَ الْخَمْرُ وَهِيَ: كُلُّ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ أَي: غَطَاهُ بِسُكْرِهِ وَالْمَيْسِرُ، وَهُوَ: جَمِيعُ الْمَغَالِبَاتِ الَّتِي فِيهَا عَوْضُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، كَالْمَرَاهَنَةِ وَنَحْوَهَا، وَالْأَنْصَابُ، الَّتِي هِيَ: الْأَصْنَامُ وَالْإِنْدَادُ وَنَحْوَهَا، بِمَا يَنْصَبُ وَيَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَالْأَزْلَامُ الَّتِي يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا، فَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ نَهَى اللَّهُ عَنْهَا وَزَجَرَ، وَأَخْبَرَ عَنْ مَفَاسِدِهَا الدَّاعِيَةِ إِلَى تَرْكِهَا وَاجْتِنَائِهَا. فَمَنْهَا: أَنَّهُ رَجَسٌ، أَي: خَبِيثٌ، نَجَسٌ مَعْنَى، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَجَسَةً حَسًّا.

وَالْأُمُورُ الْخَبِيثَةُ عَمَّا يَنْبَغِي اجْتِنَائِهَا وَعَدَمُ التَّنَسُّكِ بِأَوْضَارِهَا.

ومنها: أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، الَّذِي هُوَ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ لِلْإِنْسَانِ.

ومن المعلوم أَنَّ الْعَدُوَّ يَحْذِرُ مِنْهُ، وَتَحْذَرُ مَصَائِدُهُ وَأَعْمَالُهُ، خَاصَّصًا الْأَعْمَالُ الَّتِي يَعْمَلُهَا لِيُوقِعَ فِيهَا عَدُوَّهُ، فَإِنَّهَا فِيهَا هَلَاكُهُ، فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ الْبَعْدُ عَنْ عَمَلِ الْعَدُوِّ الْمُبِينِ، وَالْحَذَرُ مِنْهَا، وَالْخَوْفُ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا.

ومنها: أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الْفَلَاحُ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِاجْتِنَائِهَا، فَإِنَّ الْفَلَاحَ هُوَ: الْفُوزُ بِالْمَطْلُوبِ الْمَحْبُوبِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْمَرْهُوبِ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ مَانِعَةٌ مِنَ الْفَلَاحِ وَمَعُوقَةٌ لَهُ.

ومنها: أَنَّ هَذِهِ مُوجِبَةٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالشَّيْطَانِ حَرِيصٌ عَلَى بَشْطِهَا، خَاصَّصًا الْخَمْرَ

وَالْمَيْسِرَ، لِيُوقِعَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ.

فَإِنَّ فِي الْخَمْرِ مِنْ انْغِلَابِ الْعَقْلِ وَذَهَابِ خِفَافِهِ، مَا يَدْعُو إِلَى الْبَغْضَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ، خَاصَّصًا إِذَا اقْتَرَنَ بِذَلِكَ مِنَ السَّبَابِ مَا هُوَ مِنْ لِبَازِمِ شَارِبِ الْخَمْرِ، فَإِنَّهُ رِيْمًا أَوْ صُلَّ إِلَى الْقَتْلِ. وَمَا فِي الْمَيْسِرِ مِنْ غَلْبَةٍ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ، وَأَخْذُ مَالِهِ الْكَثِيرِ فِي غَيْرِ مُقَابَلَةٍ، مَا هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ.

ومنها: أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ تَصُدُّ الْقَلْبَ، وَيَتَّبِعُهُ الْبَدَنُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، الَّتِي خَلَقَ لَهَا الْعَبْدَ، وَيَهْمُ سَعَادَتَهُ، فَالْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ، يَصُدُّانَهُ عَنْ ذَلِكَ أَعْظَمَ صُدٍّ، وَيَشْتَغِلُ قَلْبَهُ، وَيَذْهَلُ لَهُ فِي الْأَشْتَغَالِ بَيْنَهُمَا، حَتَّى يَمْضِيَ عَلَيْهِ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ.

فَأَي: مَعْصِيَةٍ أَعْظَمَ وَأَقْبَحَ مِنْ مَعْصِيَةٍ تَدْنِسُ صَاحِبَهَا، وَتَجْعَلُهُ مِنْ أَهْلِ الْخَبِيثِ، وَتَرْقَعُهُ فِي أَعْمَالِ الشَّيْطَانِ وَشِبَاكِهِ، فَيَقَادِلُهُ كَمَا تَقَادِرُ الْبَهِيمَةُ الذَّلِيلَةُ لِزُرَاعِيهَا، وَتَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ فَلَاحِهِ، وَتُوقِعُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ؟! فَهَلْ فَوْقَ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ شَيْءٌ أَكْبَرَ مِنْهَا!!

ولهذا عَرَضَ تَعَالَى عَلَى الْعُقُولِ النَّاسِلِمَةِ النَّهْيَ عَنْهَا، عَرْضًا بِقَوْلِهِ: **﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾**. لِأَنَّ الْعَاقِلَ - إِذَا نَظَرَ إِلَى بَعْضِ تِلْكَ الْمَفَاسِدِ - انْزَجَرَ عَنْهَا وَكَفَتْ نَفْسُهُ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى وَعْظٍ كَثِيرٍ وَلَا زَجَرٍ بَلِيغٍ.

﴿٩٢﴾ **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾** طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ وَاحِدَةٌ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ. وَذَلِكَ شَامِلٌ لِلْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالْأَقْوَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الرَّاجِيَةِ وَالْمُسْتَحْبَةِ، الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ خَلْقِهِ، وَالْإِتِّهَاءِ عَمَّا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ كَذَلِكَ.

وهذا الأمر أعم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن، وقوله: **﴿وَاحْذَرُوا﴾** أَي: مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَمَعْصِيَةِ رَسُولِهِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الشَّرَّ وَالْخُسْرَانَ الْمُبِينِ. **﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾** عَمَّا أَمَرْتُمْ بِهِ وَنَهَيْتُمْ عَنْهُ. **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾** وَقَدْ أَدَّى ذَلِكَ. فَإِنْ اهْتَدَيْتُمْ فَلأنفسكم، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَعَلَيْهَا، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يُحَاسِبُكُمْ، وَالرَّسُولُ قَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ وَمَا حُلَّ بِهِ.

﴿٩٣﴾ **﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَالنَّهْيُ الْأَكِيدُ وَالتَّشْدِيدُ فِيهِ، تَمَنَّى أَنَاسٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْلَمُوا حَالَ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَهُمْ يَشْرِبُونَهَا.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ **﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾** أَي: حَرَجٌ وَرَأْمٌ **﴿فِيمَا طَعَمُوا﴾** مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا.

وَلَمَّا كَانَ نَفْسِي الْجَنَاحُ يَشْمَلُ الْمَذْكُورَاتِ وَغَيْرَهَا، قَبِدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: **﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** أَي: بِشَرْطِ أَنَّهُمْ تَارَكُوا لِلْمَعَاصِي، مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إِيمَانًا صَحِيحًا، مُوجِبًا لَهُمْ عَمَلُ الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ. وَلَا فَقْدَ يَتَصَفَّ الْعَبْدُ بِذَلِكَ فِي وَقْتٍ دُونَ آخَرَ. فَلَا يَكْفِي حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيهِ أَجَلُهُ، وَيَدُومَ عَلَى إِحْسَانِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ، الْمُحْسِنِينَ فِي تَقَرُّعِ الْعَبِيدِ، وَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، مِنَ طَعْمِ الْمَحْرَمِ، أَوْ فِعْلِ غَيْرِهِ بَعْدَ التَّحْرِيمِ، ثُمَّ اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَتَابَ إِلَى اللَّهِ، وَاتَّقَى وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ، وَيَرْفَعُ عَنْهُ الْإِثْمَ فِي ذَلِكَ.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْلِيُونَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ**



لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد، في حال الإحرام، فقال: **«يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم»** أي: محرمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإغانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النك العظيم، أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام.

وقوله: **«ومن قتل منكم متعمداً»** أي: قتل صيداً عمداً **«فد»** عليه **«جزاء مثل ما قتل من النعم»** أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئاً من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به. والاعتبار بالمائلة أن **«يحكم به ذوا عدل منكم»** أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش - على اختلاف أنواعه - بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم، ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً ففيه قيمته، كما هو القاعدة في التلقات، وذلك الهدي لا بد أن يكون **«هدياً بالغ الكعبة»** أي: يذبح في الحرم.

«أو كفارة طعام مساكين» أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة المثل من النعم، طعام يطعم المساكين.

قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشتري بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مذب أو نصف صاع من غيره. **«أو عدل ذلك»** الطعام **«صياماً»** أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً. **«لينوق»** بإيجاب الجزاء المذكور عليه **«وبال أمره»** **«ومن عاد»** بعد

أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً لينوق وبالأمر عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام * أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تحشرون * هذا من من الله على عباده، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرأ، ليطيعوه ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، فقال تعالى: **«يا أيها الذين آمنوا لا بد أن يتخبر الله إيمانكم»**

«ليبلونكم الله بشيء من الصيد» أي: بشيء غير كثير، فتكون بحنة يسيرة، تخفيفاً منه تعالى ولطفاً، وذلك الصيد الذي يتبليكم الله به **«تناله أيديكم ورماحكم»** أي: تتمكنون من صيده، ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال: **«ليعلم الله»** علماً ظاهراً للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب **«من يخافه بالغيب»** فكيف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيثيبه الثواب الجزيل بمن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه **«فمن اعتدى منكم بعد ذلك»** البيان، الذي قطع الحجج، وأوضح السبل **«فله عذاب أليم»** أي: مؤلم موزع، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده، وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك،

ذلك **«فيستقم الله منه، والله عزيز ذو انتقام»**.

وإنما نص الله على التعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم التعمد والمخطيء، كما هو القاعدة الشرعية - أن التلغف للنفوس والأموال المخترمة، فإنه يضمنها على أي: حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد. وأما المخطيء فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله. وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالتعمد وهو ظاهر الآية. والفرق بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه الله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الأدميين وأموالهم^(١)]

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري، استثنى تعالى الصيد البحري فقال: **«أحل لكم صيد البحر وطعامه»** أي: أحل لكم - في حال إحرامكم - صيد البحر، وهو الحي من حيواناته وطعامه، وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر **«متاعاً لكم وللسيارة»** أي: الفائدة في إباحته

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلاً منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرح به الآية أنه لا جزاء على غير المعتمد كما لا إثم عليه).

﴿١٠٠﴾ **﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾** أي: **﴿قُلْ﴾** للناس عذراً عن الشر ومترغباً في الخير: **﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾** من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الجيدة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ فأمر أولي الأبواب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب. وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاته الأرباح.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلَ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين، ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آياتهم، وعن حالهم في الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة.

وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أخرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني، فهذه الأسئلة، وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء

ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتتخذ بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية.

قال تعالى: **﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾** ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة. فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة.

وقوله: **﴿وَالْهَدْيِ وَالْقِلَافَةِ﴾** أي: وكذلك جعل الهدى والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدى - قياماً للناس، يتفقون بها ويثابون عليها.

﴿ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدنيوية والدنيوية.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وأن الله غفور رحيم، أي: ليكون هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين، تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والآجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه. فيشمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

ثم قال تعالى: **﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾** وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته وما سوى ذلك، فليس له من الأمر شيء. **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾** فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم.



لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتكم الذين يسرون معكم. **﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾**. ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشياً، لأن الإنسي ليس بصيد. ومأكولاً، فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد. **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** أي: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون. فيجازيكم، هل قمتم بتقواه فيشيكم الشواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

﴿٩٧ - ٩٩﴾ **﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُمَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقِلَافَةَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم. ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبذرون وما تكتمون. **﴿يَجِزِ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الْكُمَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾**. يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصده - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وينسب به تنفق الأموال، وتنقم^(١) - من أجله - الأموال.



يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما.

﴿أو آخران من غيركم﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرها من المسلمين.

﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ أي: سافرتم فيها ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي: فأشهدوهما، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يحبسا ﴿من بعد الصلاة﴾ التي يعظمونها.

﴿فيقسمان بالله﴾ أي: فبما صدقا، وما غيرا ولا بدلا، هذا ﴿إن أوتيتكم﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموهما، فلا حاجة إلى القسم بذلك.

ويقولان: ﴿لا نشترى به﴾ أي: بأيماننا ﴿ثمنا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا. ﴿ولو كان ذا قربي﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إننا إذا﴾ أي: إن كنتمناها ﴿لمن الآثمين﴾.

﴿فإن عشر على أنهما﴾ أي: الشاهدين ﴿استحقا ثمنا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما

خانا ﴿فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾.

أي: فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه. ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ أي: أنهما كذبا، وغيرا وخانا. ﴿وما اعتدينا إننا إذا لمن الظالمين﴾ أي: إن ظلمنا واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها، وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذلك أدنى﴾ أي: أقرب ﴿أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات. ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى. والقصد إلى الضراط المستقيم.

وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين. فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فلمنهم يحلفونهما^(١) بعد الصلاة، أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرأ بذلك من حق يتوجه إليهما.

فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون. وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «عيم الداري» و«عدي بن بداء» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمات على

عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي.

ومنها: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتا.

ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار - عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة - مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين - إذا ارتيب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهم، وأراد الأولياء - أن يؤكدوا عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيذ اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الرية منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة - قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا.

ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون

(١) في النسختين: يحلفونهم.

القرينة - مع أيمانها - قائمة مقام البينة.

﴿١٠٩- ١١٠﴾ «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجيتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب» إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أبدت لك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ياذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين»

فغير تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأحوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم: «ماذا أجيتم» أي: ماذا أجابتكم به أمكم.

و «قالوا لا علم لنا» وإنما العلم لك يا ربنا، فأنت أعلم منا. «إنك أنت علام الغيوب» أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكراً لربك، حيث أنعم عليك نعماً ما أنعم بها على غيرك.

﴿إذ أبدت لك بروح القدس﴾ أي: إذ قويتك بالروح والوحي، الذي طهرك وزكاك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله. وقيل: إن المراد «بروح القدس» جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له، وتثيته في المواطن المشقة.

﴿تكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ المراد بالتكليم هنا، غير التكليم المعهود الذي هو مجرد التكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله.

ولعيسى عليه السلام من ذلك، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، وامتناز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، فقال: «إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً» الآية.

﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة﴾ فالكتاب يشمل الكتب السابقة، وخصوصاً التوراة، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد موسى - بها. ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه.

والحكمة هي: معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه، وحسن الدعوة والتعليم، ومراعاة ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي.

﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ أي: طيراً مصوراً لا روح فيه. فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وتبرئ الأكمه الذي لا يبصر له ولا عين. «والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني» فهذه آيات بينات، ومعجزات باهرات، يعجز عنها الأطباء وغيرهم، أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته.

﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك، إذ جثتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم﴾ لما جاءهم الحق مؤيداً بالبينات الموجبة للإيمان به. «إن هذا إلا سحر مبين». وهموا بعيسى أن يقتلوه، وسعوا في ذلك، فكف الله أيديهم عنه، وحفظه منهم وعصمه.

فهذه من امتن الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، ودعاه إلى شكرها والقيام بها، فقام بها عليه السلام أتم القيام، وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم.

﴿١١١- ١٢٠﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا

وما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١٠﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١١﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١٢﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١٣﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١٤﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١٥﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١٦﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١٧﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١٨﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١١٩﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»
﴿١٢٠﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا ما قدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»

آمنوا» إلى آخر الآيات^(١) أي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعاً وأعواناً. فأوحيت إلى الحواريين أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوجبت إليهم على لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا، وقالوا: آمنا بالله، واشهد بأننا مسلمون، فجمعوا بين الإسلام الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة، والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من التفاف ومن ضعف الإيمان.

والحواريون هم: الأنصار، كما قال تعالى كما قال عيسى ابن مريم^(٢) للحواريين: «من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله».

﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟﴾ أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله، واستطاعته على ذلك. وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافياً للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، وعظّمهم عيسى عليه السلام فقال:

(١) في ب أكمل الآيات إلى قوله: (وهو على كل شيء قدير).

(٢) هكذا في الأصل والمراد بين وهو كما قال الله تعالى حكاية لقول عيسى ابن مريم للحواريين.

فيقول الله هذا الكلام لعيسى . فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سبحانك﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعما لا يليق بك .

﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد، مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و﴿أنت علام الغيوب﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام: في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: ﴿لم أقل شيئاً من ذلك﴾، وإنما أخبر بكلام ينبغي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ فأنا عبد متبع لأمر، لا متجريء على عظمتك، ﴿أن اعبدا الله ربى وربكم﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين لله، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مريب، فكما أنه ربكم فهو ربى .

﴿وكنتم عليهم شهوداً ما دمت فيهم﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به . ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم . ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، فعلمك قد أحاط بالعلومات، وسمعك بالسموعات، وبصرك بالمصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك﴾ أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمه، وفضله وإحسانه عليهم . ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي: اجعلها لنا رزقاً، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقاً.

﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد ميثاقك، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عناداً وظلماً، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد . وأعلم أن الله تعالى وعده أنه سينزلها، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويبدل على ذلك، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصاري، ولا له وجود . ويحتمل أنها نزلت كما وعده الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الإنجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فسوه .

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ . وهذا توبيخ للنصاري الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة،



﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن يتقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً .

فأخبر الحواريسون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وطمئن قلوبنا﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العنانية، فيكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين . كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿قال ولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ . فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق، ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهد لها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال:

(١) في ب: حتى يكون .

ويعلم ما تكسبون* أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، معبدون لربهم خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجلاله، الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصديقون والشهداء والضاحون.

وهو تعالى يعلم سرركم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقر بكم منه، وتذكركم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

﴿٤-٦﴾ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين* فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون* ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين* هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم الملائك، فقال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ لا يلقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أدبارهم.

﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: فسوف يرون ما استهزؤوا به، أنه الحق والصدق، وبين الله للمكذبين كذبهم وإفترائهم، وكانوا يستهزؤون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بل

والجلال عموماً، وعلى هذه المذكورات خصوصاً. فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر. والمعنوي كظلمات الجهل والشك، والشرك والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ثم الذين كفروا بربهم يعدلون* إي يعدلون به سواء، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم ينساوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وذلك بخلق مادتك وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم قضى أجلاً﴾ أي: ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلاً، تمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليهم به رسله.

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكركم. ﴿وأجل مسمى عنده﴾ وهي: الدار الآخرة، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.

﴿ثم﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أنتم تمثرون﴾ أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة مرادها وتنوع طرقها. ووجد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهي: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

﴿٣﴾ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرركم وجهركم

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلو لا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم. ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدره، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قال الله﴾ مبيناً لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدى القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وإفترائهم، وثمره أعمالهم الفاسدة.

﴿الله ملك السماوات والأرض﴾ لأنه الخالق لهما والمذبر لذلك بحكمة القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمرة.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الأنعام وهي مكية

﴿١-٢﴾ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون* هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمثرون* هذا إخبار عن حده والثناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة

وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليين لهم الذي يخلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السالفة فقال:

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن * أي: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين، وأهلكناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن * مكناهم في الأرض ما لم نمكن * لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية

﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحته﴾ فينت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم اللذات، فجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ * من بعدهم قرناً آخرين * فهذه سنة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم بأنهم.

﴿٧-٩﴾ ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبينا عليهم ما يلبسون﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جتهد به، ولا جهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغى، لا حيلة لكم فيه، فقال:

﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم * وتيقنوه﴾ لقال الذين كفروا * ظلماً وعلواً * إن هذا إلا سحر مبين * فأى: بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقله دفعه!!

﴿وقالوا﴾ أيضاً تعنتاً مبنياً على الجهل، وعدم العلم بالمعقول. ﴿لولا

أنزل عليه ملك﴾ أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة.

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب. ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضى الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم، لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم، مع إسهال الله للكافرين والمكذبين، خير لهم وأنفع، فطلبهم لأنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم يطبقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقت قواهم الغانية.

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً * لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك. * وللبينا عليهم ما يلبسون﴾ أي: ولكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق.

فلما جاءهم الحق بطرقه الصريحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا هتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿١٠-١١﴾ ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون * قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يقول تعالى - مسلياً لرسوله، ومصبراً ومتهدداً أعداءه

ومتوعداً. ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ لما جاؤوا أميهم بالبينات كذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به. فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب. ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ فاحذروا - أيها المكذبون - أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيحكم ما أصابهم.

فإن شككتهم في ذلك أو ارتبتم، فسيروا في الأرض ثم انظروا، كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تحذروا إلا قوماً مهلكين، وأما في المثالات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبداهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئاً.

﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررراً لهم وملزماً بالتوحيد: ﴿لمن ما في السماوات والأرض﴾ أي: من الخالق لذلك، الملك له المتصرف فيه؟

﴿قل﴾ لهم: ﴿الله﴾ وهم مقررون بذلك لا يتكرونها، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد!!

وقوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتديريته، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يخلفوا عليهم أبواباً بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها بمعاصيهم وعيوبهم، وقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذا قسم منه،



إلى إخلاص العباد، والحب والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟!

﴿السميع﴾ لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفمن الحاجات.

﴿العليم﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن؟!

﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله:

﴿أغير الله أتخذ ولياً﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة بثولاني وينصرتي؟!

فلا أتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه فاطر السماوات والأرض، أي:

خالقهما ومديرهما. ﴿وهو يُطعم﴾ ولا يُطعمُ؟ أي: وهو الرزاق لجميع

الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن أتخذ ولياً غير الخالق

الرزاق، الغني الحميد؟! ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ لله

بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأي أولى من غيري بامثال أوامر ربي.

﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي: وهيئت أيضاً عن أن أكون من

المشركين، لا في اعتقادهم ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم،

فهذا أفرض الفروض علي، وأوجب الواجبات.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فإن المعصية في

الشرك تجزئ الخلود في النار، وسخط الجبار، وذلك اليوم هو اليوم

الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ فهو

المرحوم، ومن نجاه فيه فهو الفائز حقاً، كما أن من لم ينج منه فهو الهالك

الشقي.

ومن أدلة توحيده، أنه تعالى المنفرد بكشف النصاراء، وجلب الخير

والسراء، ولهذا قال: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ من فقر، أو

مرض، أو عسر، أو غم، أو هم أو نحوه. ﴿فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء

قدير﴾. فإذا كان وجهه النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية

وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج البينة والبراهين، ما

يجعله حق اليقين، ولكن أبي الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على

بعث الخلائق، فأوضحوا في معاصيه، وتجروا على الكفر به، فخسروا دنياهم

وأخراهم، ولهذا قال: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾

﴿١٣ - ٢٠﴾ ﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾ قل

أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعمُ قل إني

أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴿قل إني أخاف

إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ من يصرف عنه يومئذ فقد رحه وذلك الفوز

المبين ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير

فهو على كل شيء قدير﴾ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني

وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أنتم لتشهدون أن مع الله

آلته أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وأني بريء مما تشركون ﴿الذين

آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ اعلم أن هذه السورة

الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقل، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة

المشركين بالله الكاذبين لرسوله

فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، ويتقمع به الشرك. فذكر أن

﴿لله﴾ تعالى ﴿ما سكن في الليل والنهار﴾ وذلك هو المخلوقات كلها،

من آدميها وجنّها، وملائكتها، وحيواناتها وجماداتها، فالكل خلق

مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك، فهل يصح في

عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء المالك، الذي لا ينفع عنده

ولا ضرر؟ ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك، البضار المتنافع؟ أم

العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو

والإلهية.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ فلا يتصرف متهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك

وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو

القاهر وغيره مقهوراً، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وهو الحكيم﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب وعاقب، وفيما خلق وقدر.

﴿الخبير﴾ المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة

التوحيد.

﴿قل﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك -: ﴿أي:

شيء أكبر شهادة﴾ على هذا الأصل العظيم ﴿قل الله﴾ أكبر شهادة، فهو

﴿شهيد بيني وبينكم﴾ فلا أعظم منه شهادة ولا أكبر، وهو يشهد لي بأقراره

وفعله، فيقرني على ما قلت لكم، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض

الآقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ فالله حكيم قدير،

فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً عليه، زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله،

وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دناءة من خالفه

وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدقه بأقراره ويفعله، فيؤيده على ما

إرادتهم للخير ﴿وجعلنا على قلوبهم
أكنة﴾ أي : أغطينا وأغشينا ، لئلا يفقهوا
كلام الله ، فصان كلامه عن أمثال
هؤلاء . ﴿وفي آذانهم﴾ جعلنا ﴿وقرأ﴾
أي : صمما ، فلا يستمعون ما
يقفون عليه .

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾
وهذا غاية الظلم والعناد، أن الآيات
البيّنات الدالة على الحق، لا ينقادون
لها، ولا يصدقون بها، بل يجادلون
بالباطل الحقّ ليحذوه.

ولهذا قال: ﴿حتى إذا جاؤوك
بمجادلونك يقولون الذين كفروا إن هذا إلا
أساطير الأولين﴾ أي: مأخوذ من
صحف الأولين المسطورة، التي ليست
عن الله ولا عن رسله. وهذا من
كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب
الحاوي لأنباء السابقين واللاحقين،
والحقائق التي جاءت بها الأنبياء
 والمرسلون، والحق، والقسط، والعدل
النام من كل وجه، أساطير الأولين؟

﴿٢٦﴾ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ
عَنْهُ وَإِنْ يَهِلْكَونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ﴾ وَهُمْ: أَي: الْمَشْرُكُونَ بِالله،
الْمَكْذُوبُونَ لِرَسُولِهِ، يَجْمَعُونَ بَيْنَ الضَّلَالِ
وَالْإِضْلَالِ، يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ
الْحَقِّ، وَيَحْذَرُونَ مِنْهُ، وَيَبْعُدُونَ
بِأَنْفُسِهِمْ عَنْهُ، وَلَنْ يَضُرُّوا اللهَ
وَلَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِمْ هَذَا شَيْئًا.
﴿إِنْ يَهِلْكَونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾
ذَلِكَ.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ يقول تعالى - خيراً عن حال المشركين يوم القيامة، وإحضارهم النار: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ليوبخوا ويقرعوا، لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفضعة. ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردوا إلى الدنيا. ﴿فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من

المؤمنين * بل بدل لهم ما كانوا يخفون من قبل. **﴿١٠﴾** فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويندو في قلوبهم في كثير من الأوقات. ولكن الأعراض الفاسدة صدهم عن ذلك، وصرفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمانة، وإنما قصدهم أن يدفعا بها عن أنفسهم العذاب.

﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾

﴿وقالوا﴾ منكبين للبعث ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي : ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا ، إلا الحياة الدنيا وحدها . ﴿وما نحن بمعتون﴾

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَفْعَلُوا عَلٰى رَءْسِهِمۡ قَالُ الۡسَٓ هٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلٰى تَكْفُرُونَ﴾ ٣١: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الكافرين ﴿إِذْ يَفْعَلُوا عَلٰى رَءْسِهِمۡ﴾ لرأيت أمراً عظيماً، وهو لا جسيماً، ﴿قَالَ﴾ لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿الۡسَٓ هٰذَا﴾ الذي ترون من العذاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ قالوا: بلى وربنا، فأقروا واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك، ﴿قَالَ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

﴿٣١﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أَي: قَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَحَرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، مَنْ كَذَبَ بِلِقَاءِ اللَّهِ، فَأَوْجِبَ لَهُ هَذَا التَّكْذِيبِ، الْاجْتِرَاءَ عَلَى الْمَحْرَمَاتِ، وَإِقْتِرَافَ الْمَوْبِقَاتِ ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ﴾ وَهُمْ عَلَى أَفْحَحِ حَالٍ وَأَسْوَنِهِ، فَأَظْهَرُوا غَايَةَ النَّدَمِ. وَ ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ وَلَكِنْ هَذَا تَحْسُرُ ذَهَبَ وَقْتُهُ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ. فَإِنْ زَرَهُمْ وَزَرَ يَثْغَلُهُمْ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ، وَلِهَذَا خَلَدُوا فِي النَّارِ، وَاسْتَحَقُّوا التَّأْيِيدَ فِي غَضَبِ الْحَيَارِ.

﴿٣٢﴾ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ﴾

[illegible]

أفلا تعقلون ﴿١﴾ هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهوسم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان.

وأما الآخرة فإنها ﴿خير للذين
يؤمنون﴾ في ذاتها وصفاتها، وبقائها
ودوامها، وفيها ما تستهيه الأنفس وتلذ
الأعين، من نعيم القلوب والأرواح،
وكثرة السور والافراح، ولكنها ليست
لكل أحد، وإنما هي للمؤمنين الذين
يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه
وزواجره ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا
يكون لكم عقل، بها تدركون، أي:
الدارين أحق بالإشارة.

﴿٣٢-٣٥﴾ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يُمِخُّدُونَ﴾ * وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولَ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ * وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَنْخِفَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَاتَّبَعْهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ * أَيْ قَدْ نَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي يَقُولُ الْمَكْذِبُونَ فِيكَ يَحْزَنُكَ وَيَسُوكُ، وَلَمْ

تفجر الأنهار خلالها تفيضاً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ الآيات .

﴿قل﴾ جيباً لقولهم: ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء متقادة لعزته، مذعة لسلطانه؟!

ولكن أكثر الناس لا يعلمون فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها، لعرجوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السبيل، فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقى في القلوب أدنى شك وارتباب، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

﴿٣٨﴾ ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي: جميع الحيوانات الأرضية واليهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم.

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم. وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أجد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

الهدى ﴿ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال﴾ فلا تكونون من الجاهلين ﴿الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا يتزلونها على منازلها.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إنما يستجيب للذين يسمعون﴾ يعني رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك ﴿الذين يسمعون﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الأبواب والأسماع.

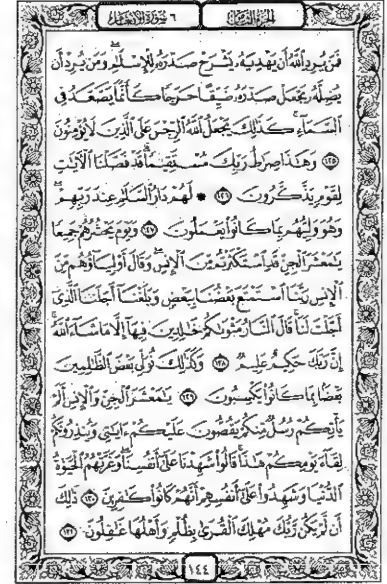
والمراد بالسمع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر. فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول.

﴿والموتى يسمعونهم الله ثم إليه يرجعون﴾ يحتمل أن المعنى مقابل للمعنى المذكور. أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك ولا يتقادون، وموعدهم القيامة، يعثهم الله ثم إليه يرجعون، ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم يتبينهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا متضمناً للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿وقالوا﴾ أي: المكذبون بالرسول تعنتاً وعناداً: ﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة.

كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب،



نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية. فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك وشك فيك ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ لأنهم يعرفون صدقك ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه قبل البعثة الأمين. ﴿ولكن الظالمين بأيات الله يحسدون﴾ أي: فإن تكذيبهم لأيات الله التي جعلها الله على يدك^(١)

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ فاصبر كما صبروا، تظفر كما تظفروا، ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ ما به ثبت فؤادك، ويطمئن به قلبك.

﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾ أي: شق عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

﴿فإن استطعت أن تبغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتهم بآية﴾ أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئاً، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿ولو شاء الله لجمعهم على

(١) السياق يقتضي أن يأتي بخبر إن ومقصود الشيخ - رحمه الله - فإن تكذيبهم... جمود منهم لما علموه حقاً.

علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقته لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد.

ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: جميع الأمم تحشر ويجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمده عليه الأولون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض.

﴿٣٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّوا بِكُم فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّحَالِ الْكَاذِبِينَ﴾ بآيات الله المكذبين لرسله، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى، وأنهم ﴿صُمُّوا﴾ عن سماع الحق ﴿يَكُم﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا بباطل^(١).

﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: منغمسون في ظلمات الجهل والكفر، والظلم، والعناد، والمعاصي. وهذا من إضلال الله إياهم، ف﴿مَنْ يَشَأْ﴾ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴿لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله، العادلين به غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكروب

التي يضطر إلى دفعها، هل تدعون الهتك وأصنامكم، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين.

﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونهم، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وتخلصون لله الدعاء، لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر، فما بالكم في الرخاء تشركون به وتجعلون له شركاء؟ هل دلكم على ذلك عقل أو نقل، أم عندكم من سلطان بهذا؟ بل^(٢) تفترون على الله الكذب.

﴿٤٢ - ٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فِإِذَا هُمْ مَبْسُورُونَ﴾ ﴿فَقَطَّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأمم السالفين والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا وجحدوا آياتنا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب، راحة منا بهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: استحجرت فلا تلبس للحق، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فِإِذَا هُمْ مَبْسُورُونَ﴾

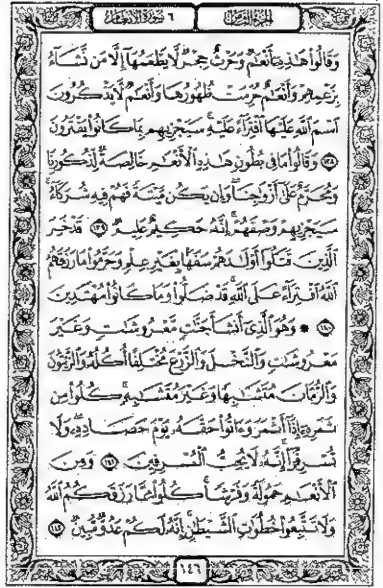
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فِإِذَا هُمْ مَبْسُورُونَ﴾ ﴿فَقَطَّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أي: أيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم وأعظم لمصيبتهم.

﴿فَقَطَّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: اصطلموا بالعذاب، وتقطعت بهم الأسباب. ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين. فإن بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

﴿٤٦ - ٤٧﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرُفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَفُونَ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يخبر تعالى أنه كما أنه المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها، فإنه المتفرد بالوحدة والالهية، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ فبقيت بلا سمع ولا بصر ولا عقل ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك، فلم عبدتم معه مَنْ لا قدرة له على شيء إلا إذا شاء الله.

وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ



بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبل ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ يمنهم العذاب ﴿أي﴾ ينالهم ويذوقونه ﴿بما كانوا يفسقون﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: المقترحين^(١) عليه الآيات، أو القائلين له: إنما ندعونا لتتخذك إلهاً مع الله.

﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أي: مفاتيح رزقه ورحمته. ﴿ولا أعلم الغيب﴾ وإنما ذلك كله عند الله فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة. فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.

﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلي الله بها. ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي: هذا غاييتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿فإذا عرفت منزلي، فلاي: شيء يبحث الباحث معي، أو يطلب مني أمراً لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان بغير ما هو بصدده؟﴾

ولأي: شيء إذا دعوتكم، بما أوحى إلي أن تلزموني أن أدعي لنفسي غير مرتبتي، وهل هذا، إلا ظلم منكم وعناد وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق بين من قبل دعوتي وانقاد لما أوحى إلي، وبين من لم يكن كذلك ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ فتتزلون الأشياء منازلها، وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثارة؟

نصرف الآيات ﴿أي﴾: أنواعها، ونأتي بها من كل فن، ولنتبرر الحق، وتبين سبيل المجرمين. ﴿ثم هم﴾ مع هذا البيان التام ﴿يصدفون﴾ عن آيات الله ويعرضون عنها.

﴿قل أرايتكم﴾ أي: أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة﴾ أي: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات، تعلمون بها وقوعه ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم، بظلمهم وعنادهم. فاحذروا أن تقيموا على الظلم، فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدى.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والذين كذبوا بآياتنا يمنهم العذاب بما كانوا يفسقون. يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين، أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة. والمُنذَرُ والمُنذَرُ به، والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة.

ولكن الناس انقسموا - بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها - إلى قسمين:

﴿فمن آمن وأصلح﴾ أي: آمن

﴿٥١ - ٥٥﴾ ﴿وأنذر به الذين الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين. وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم. وكذلك تفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين. هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما يتفع به ﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما يتفهم ويدعون ما يضرهم. ﴿ليس لهم من دونه﴾ أي: من دون الله ﴿ولي ولا شفيع﴾ أي: لا من يتولى أمرهم فيحصل لهم المطلوب ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء. ﴿لعلهم يتقون﴾ الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه.

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص، رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لذمهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقون لمواالاهم ومحبتهم، وإدنائهم وتقريبهم، لأنهم الصفاة من الخلق وإن كانوا فقراء، الأعزاء في الحقيقة وإن كانوا

(١) زاد هنا في طبعة السلفية قبل كلمة المقترحين: (أن يخاطب) المقترحين.

عند الناس أدلاء.

﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ أي: كل له حساب، وله عمله الحسن وعمله القبيح. ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألأن لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناساً من قريش، أو من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن تؤمن لك وتنبعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإننا نستحي أن ترائنا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك. فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.

﴿وكذلك فتننا بعضهم ببعض، ليقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنياً، وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم وضيعاً، فإذا من الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل عنة للغني والشريف فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمتعه من ذلك مشاركة الذي يراه دونته بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق.

وقالوا محتقرين لمن يروهم دونهم: ﴿هؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾. فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم، قال الله محبباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم. ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنته عليهم، دون من ليس

بشاكر، فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعارضون بهذا الوصف، بخلاف من من الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون. ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيهم ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلام، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهمهم، من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك.

ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإفلاق والندم عليها، من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

فإذا وجد ذلك كله ﴿فإنه غفور رحيم﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به بما أمرهم به.

﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغنى والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه. ﴿ولنستبين سبيل المجرمين﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبان واتضحت أمكن اجتنابها والبعد عنها، بخلاف ما لو كانت مشبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

﴿٥٦-٥٨﴾ ﴿قل إني نهي أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا

من المهتدين﴾ ﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾ ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إني نهي أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة، إلا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال، ولهذا قال: ﴿قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا﴾ أي: إن أتبع أهواءكم ﴿وما أنا من المهتدين﴾ أتبع بوجه من الوجوه، وأما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

وأنا ﴿على بينة من ربي﴾ أي: على يقين مبين، بصحته وبطلان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق. فصديقها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما من الله به عليهم.

﴿ولكنكم أيها المشركون - كذبتم به﴾ وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررت^(١) على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء ﴿إن الحكم إلا لله﴾ فكتمنا أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب، بحسب ما تقتضيه حكمته. فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل وقصص على عباده

(١) كذا في ب، وفي أ: استمرتم.

الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حججهم، ليهلك مَنْ هلك عن بيته، ويحيى مَنْ حي عن بيته ﴿وهو خير الفاصلين﴾ بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فضلاً يحمده عليه، حتى مَنْ قضى عليه، ووجه الحق نحوه.

﴿قل﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعناداً وظلماً، ﴿لو أن عندي ما تستعجلون به لقضى الأمر بيني وبينكم﴾ فأوقته بكم ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الحليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجرأ عليه المتجرؤون، وهو يعافهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار، والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وغير ذلك مما تحتوي أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وما تسقط من ورقة﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقرى، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها. ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ من حبوب الثمار والزرور، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النواكب البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات.

﴿ولا رطب ولا يابس﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ قد حواها واشتمل

العامه، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يستكونون إلا بإذنه، ومنع ذلك فقد وكل بالعباد حفظه من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾. ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ فهذا حفظه لهم في حال الحياة.

﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وهم لا يفرطون﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدر الله وقضاه ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقدير الربانية.

﴿ثم﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر ﴿ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويشبههم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿ألا له الحكم﴾ وحده لا شريك له ﴿وهو أسرع الحاسنين﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبتته في اللوح المحفوظ، ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم، فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة مَنْ ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإزادة؟!.

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونهم بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعافهم

وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع، العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

وجل من إله لا يحصي أحد ثناءه عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿٦٠ - ٦٢﴾ ﴿وهو الذي يثوقكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقتضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسنين﴾ هذا كله تقرير لإلهيته، واحتجاج على المشركين به، وبين أن الله تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المتفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يثوقهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويعيشهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال.

ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم، حتى يستوفوا أجلهم. فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ لا إلى غيره ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

﴿وهو﴾ تعالى ﴿القاهر فوق عباده﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة ومشيئته

ويرزقهم، لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولما قنوا أنفسهم أشد المقت، حيث انقادوا للداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لتكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون * أي: ﴿قل﴾ للمشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى، ملزماً لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروا من توحيد الإلهية * من ينجيكم من ظلمات البر والبحر * أي: شدائدهما ومشقاتهما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعاً بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿لئن أنجانا من هذه الشدة التي وقعنا فيها لتكونن من الشاكرين﴾ لله، أي: المعترفين بنعمته، الراضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يذلوها في معصيته.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب * أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة * ثم أنتم تشركون * لا تفون لله بما قبلتم، وتنسون نعمه عليكم، فأى: يرهان أوضح من هذا على بطلان الشرك، وضحة التوحيد!!

﴿٦٧ - ٦٨﴾ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف تصرف الآيات لعلهم يفقهون * وكذب به * أي: بالقرآن ﴿قومك﴾ وهو الحق الذي لا مزية فيه، ولا شك يعتريه. ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ وإذا رأيتم الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين * وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكري لعلهم يتقون * المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله. فأمر الله رسوله أصلاً، وأمته تبعاً، إذا رأوا من يخوض بأيات الله بشيء عما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك حتى

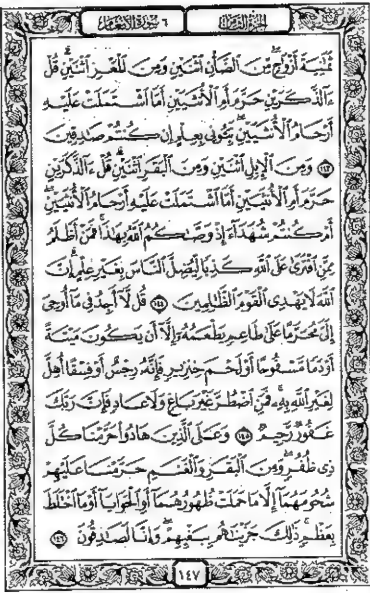
يبرز قلوبهم، لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولما قنوا أنفسهم أشد المقت، حيث انقادوا للداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لتكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون * أي: ﴿قل﴾ للمشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى، ملزماً لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروا من توحيد الإلهية * من ينجيكم من ظلمات البر والبحر * أي: شدائدهما ومشقاتهما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعاً بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿لئن أنجانا من هذه الشدة التي وقعنا فيها لتكونن من الشاكرين﴾ لله، أي: المعترفين بنعمته، الراضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يذلوها في معصيته.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب * أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة * ثم أنتم تشركون * لا تفون لله بما قبلتم، وتنسون نعمه عليكم، فأى: يرهان أوضح من هذا على بطلان الشرك، وضحة التوحيد!!

﴿٦٧ - ٦٨﴾ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف تصرف الآيات لعلهم يفقهون * وكذب به * أي: بالقرآن ﴿قومك﴾ وهو الحق الذي لا مزية فيه، ولا شك يعتريه. ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ وإذا رأيتم الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين * وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكري لعلهم يتقون * المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله. فأمر الله رسوله أصلاً، وأمته تبعاً، إذا رأوا من يخوض بأيات الله بشيء عما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك حتى



يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل، حث على البحث والنظر والمناظرة بالحق ثم قال: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة. ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكري لعلهم يتقون﴾ أي: ولكن ليذكرهم ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى.



لغير الله فهو لعب، فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر، ولا يغتر به، وتنظر حاله، ويحذر من فعاله، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وذكر به﴾ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً، وتجيئاً له، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما ينصر العباد نبياً عنه، وتفصيلاً لأنواعه، وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجريه على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المروء، فذكرها، وعظها، لترتدع وتترجر وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ أي: قبل [أن] تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع. ﴿وإن تعدل كل عدل﴾ أي: تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهباً. ﴿لا يؤخذ منها﴾ أي: لا يقبل ولا يفيد.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الذين أسلوا﴾ أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بما كسبوا﴾ لهم شراب من حميم. أي: ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم. ﴿وعذاب أليم﴾ بما كانوا يكفرون.

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا وترد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى إئتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون * وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب

وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى. وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب^(١)، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

﴿٧٠﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ المقصود من العباد أن يخلصوا الله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه. وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعاً، وجدلاً لا هزلاً، وإخلاصاً لوجه الله لا رياء وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً. بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه، لأن العمل والسعي إذا كان

والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم، مبيتاً وشارحاً لوصف آلهتهم، التي يكفي العاقل بذكر وصفها عن النهي عنها، فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين جزم ببطلانه قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال: ﴿أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ وهذا وصف يدخل فيه، كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر

﴿وردد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله﴾ أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تقضي بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذورشد، وصاحبها ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه، الموصل له إلى مقصده. فبقي ﴿حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعين جاثراً وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي^(٢) متعارضة، دواعي^(٣) الرسالة والعقل الصحيح، والفتنة المستقيمة. يدعونه إلى الهدى والصعود إلى أعلى عليين.

ودواعي^(٤) الشيطان ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والتزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع داعي الهدى في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك. ومنهم من يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي: ليس الهدى إلا الطريق

(١) في ب: كان تركه هو الواجب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: دواع.

(٣) كذا في ب، وفي أ: داع.

(٤) كذا في ب، وفي أ: داعي.

وهذاية^(١) من أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل الذي هو أحدهم.

«ومن ذريته» يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع مَنْ ذكر لوطاً، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم، لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط وإن لم يكن من ذريته - فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك، أبلغ من كونه مجرد ابن له.

«داود وسليمان» بن داود «وأيوب ويوسف» بن يعقوب. «وموسى وهارون» ابني عمران، وكذلك كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل، لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق كذلك نجزي المحسنين بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

«وزكريا ويحيى» ابنه «وعيسى» ابن مريم. «والإسحاق» من هؤلاء «من الصالحين» فني أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم.

«وإسماعيل» بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، وأبو النبي ولد آدم محمد ﷺ «ويونس» بن متى «ولوطاً» بن هاران، أخي إبراهيم. «وكلاً» من هؤلاء الأنبياء والمرسلين «فضلنا على العالمين» لأن درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» فهو هؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله

العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماماً للناس بحسب حاله، ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشي بعلمه في ظلمة ديجوره.

قال تعالى: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» «إن ربك حكيم عليم» فلا يضع العلم والحكمة، إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له.

«٨٤ - ٩٠» «وهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك

نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عبادة ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتله قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين * لما ذكر الله تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب. وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا يدرك لها نظير فقال: «وهبنا له إسحاق ويعقوب» ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين.

«كلاً» منهما «هدينا» الصراط المستقيم في علمه وعمله. «ونوحاً هدينا» من قبل



تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً أي: إلا بمجرد اتباع الهوى. «فأي: الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون».

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين «الذين آمنوا ولم يلبسوا» أي: يخلطوا «إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتنون» الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والبهدياية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام، بما بين به من البراهين القاطعة قال: «ولئك حججتنا آتيناهم إبراهيم على قومه» أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها.

«نرفع درجات مَنْ نشاء» كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، خصوصاً

فِي كِتَابِهِ، أَفْضَلُ مَنْ لَمْ يَقْصُ عَلَيْنَا
نَبَاهُمْ بِلَا شَكٍّ .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِمْ﴾ أي: آباء هؤلاء المذكورين ﴿وَزَيَاتِهِمْ﴾ وإخوانهم ﴿أَي: وَهَدَيْنَا مِنْ آبَاءِ هَؤُلَاءِ وَزَيَاتِهِمْ﴾ وإخوانهم. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ أي: اخترناهم ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ الهدى المذكور
﴿هدى الله﴾ الذي لا هدى إلا هداة .
﴿يهدى به مَنْ يشاء﴾ من عباده ﴿فاطلبوا﴾
منه الهدى فإنه إن لم يهدكم فلا هادي
لكم غيره ، ومن شاء هدايته هؤلاء
المذكورون . ﴿ولو أشركوا﴾ على
القرض والتقدير ﴿لحبط عنهم﴾ ما كانوا
يعملون ﴿فإن الشرك عبط للعمل﴾ ،
موجب للخلود في النار . فإذا كان
هؤلاء الصفوة الأخيار ، لو أشركوا -
وحاشاهم - لحبط أعمالهم ، فغيرهم
أولى .

﴿أولئك﴾ المذكورون ﴿الذين﴾
 هدى الله فيهداهم اقتده ﴿أي﴾ أمش -
 أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء
 الأنبياء الأخيار، وتابع ملتهم. وقد
 امتثل ﷺ، فاهتدى بهدي الرسل
 قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت
 لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع
 العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام
 المتقين، صلوات الله وسلامه عليه
 وعليهم أجمعين، وهذا الملحظ استدل
 بهذه من استدلل من الصحابة، أن
 رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ
دَعْوَتِكُمْ: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾
أَي: لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ مَغْرَمًا وَمَا لَاجِزَاء
عَنْ إِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ، وَدَعْوَتِي لَكُمْ فَيَكُونُ
مِنْ أَسْبَابِ امْتِنَاعِكُمْ، إِنْ أَجْرِي إِلَّا
عَلَى اللَّهِ.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾
يتذكرون به ما يتفهم فيفعلونه، وما
يضرهم فيذرونه ويتذكرون به معرفة
رهم بأسمائه وأوصافه. ويتذكرون به
الأخلاق الحميدة، والطرق المؤصلة

إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق
المفضية إليها، فإذا كان ذكرى للعالمين،
كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم،
فعليلهم قبولها والشكر عليها.

﴿٩١﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَّبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمُتْمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ هذا تشييع على مَنْ نفى الرسالة، [من اليهود والمشرِكين] ^(١) وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حقَّ قدره، ولا عظمه حقَّ عظمته، إذ هذا قذح في حكيمته، وزعم أنه يترك عباده مهملًا، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفى لا أعظم منه امتن الله بها على عباده، وبهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأَي: قدح في الله أعظم من هذا؟!!

﴿قُلْ﴾ لهم - ملزماً بفساد قولهم
وقرهم، بما به يقرون :- «مَنْ أُنْزِلَ
الكتاب الذي جاء به موسى ﴿وهو
التوراة العظيمة﴾ ﴿نوراً﴾ في ظلمات
الجهل ﴿وهدى﴾ من الضلالة، وهادياً
إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو
الكتاب الذي شاع وذاع، وملأ ذكره
القلوب والأسماع. حتى إنهم جعلوا
يتناسخونه في القراطيس، ويتصرفون
فيه بما شاؤوا، فما وافق أهواءهم منه
أبدوه وأظنهروه، وما خالف ذلك
أخفوه وكتموه، وذلك كثير.

﴿وَعَلَّمْتُم مِّنَ الْعِلْمِ الَّتِي سَبَبَ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْجَلِيلَ﴾ «مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ» فَإِذَا سَأَلْتَهُمْ عَنْ مَنْ أَنْزَلَ هَذَا الْكِتَابَ الْمَوْصُوفَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، فَأَجَبَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ .. ﴿قُلِ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ، فَحِينَئِذٍ يَتَضَحَّحُ الْحَقُّ وَيَنْجَلِي مِثْلُ الشَّمْسِ، وَتَقُومُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، ثُمَّ إِذَا أَلْزَمْتَهُمْ بِهَذَا الْإِلْزَامِ ذَرَّوْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي:

[illegible]

اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

﴿٩٢﴾ ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي: ﴿وهذا﴾ القرآن الذي ﴿أنزلناه﴾ إليك ﴿مبارك﴾ أي: وصفه البركة، وذلك لكثرة خيراته وسعة مبراته. ﴿مصدق الذي بين يديه﴾ أي: موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق. ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ أي: وأنزلناه أيضاً لتنذر أم القرى، وهي: مكة المكرمة، بل ومن سائر البلدان. فتحذر الناس عقوبة الله، وأخذة الأمم، وتحذره مما يوجب ذلك. ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه، وانقاد لمراضى الله.

﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي :
يبدؤمون عليها، ويحفظون أركانها
وحدودها وشروطها وآدابها،
ومكملاتها. جعلنا الله منهم -

﴿٩٣ - ٩٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ

وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا، سوى العمل الصالح والعمل السيئ، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسننها وقبحها، وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال. فهي التي تنفع أو تضر، وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعواري خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى:

﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم﴾ أي: أعطيناكم وأنعمنا به عليكم ﴿وراء ظهوركم﴾ لا يغنون عنكم شيئاً ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين، وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم، وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد لله، والله مالكهم، والمستحق لعبادتهم. فشرركم في العبادة، وصرفها لبعض العبيد، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيؤبىخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ لقد تقطع بينكم أي: تقطعت الروصل والاسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تجد شيئاً. ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من الريخ والأمن، والسعادة والنجاة، التي زينها لكم الشيطان وحسنها في قلوبكم، فقطقت بها ألسنتكم. واغترزتم بهذا الزعم الباطل الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهلكم وأموالكم.

﴿٩٥-٩٨﴾ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى

أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله، ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله.

وأي: ظلم أعظم من دعوى الفقير عاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته ١١٩

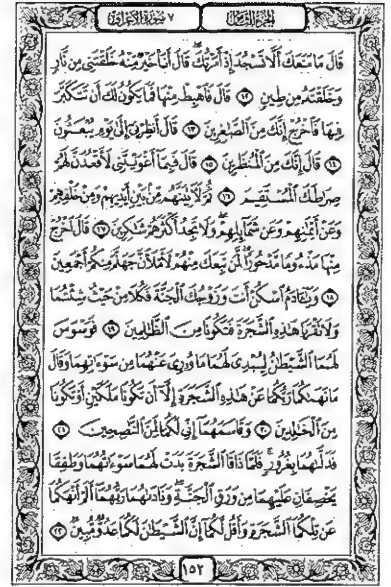
ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة، فقال: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكرهه الشنيعة - لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلوبها، وتعصيتها للخروج من الأبدان: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي: العذاب الشديد الذي يهينكم وبذلكم، والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل. ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ أي: ترفقون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة فإنهم إذا وردوها وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنود ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عازين من كل شيء.

فإن الأشياء، إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها،



ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون * ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً ممن كذب [على] الله، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله - ما هو من أكبر المفساد.

ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وإن الله يوحى إليه وهو كاذب في ذلك، فإنه - مع كذبه على الله، وجراته على عظمته وسلطانه - يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدوهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمسيلم الكذاب والأسود الغنسي والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

﴿ومن قال سائزل مثل ما أنزل الله﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم،

تؤفكون * فائق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حساباً ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * يخبر تعالى عن كماله، وعظيمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ شامل لسائر الحبوب التي يبشّر الناس زرعها، والتي لا يبشرونها، كالحبوب التي يثبها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النبوى عن الأشجار من التخييل والفواكه، وغير ذلك. فيتفع الخلق من الأدميين والأنعام والدواب. ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنبوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك. ويريم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويريم من بدائع صنعته وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحّدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المني حيواناً، ومن البيضة فرخاً، ومن الحب والنبوى زرعاً وشجراً.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح * من الحي * كما يخرج من الأشجار والزروع، النبوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً، ونحو ذلك.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها * الله * ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه. ﴿فَأَنى تَوْفِىكُونَ﴾ أي: فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً!!

ولما ذكر تعالى، مادة خلق الأوقات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي: كما أنه فائق الحلب والنوى، كذلك هو فائق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿جَعَلَ﴾ الله ﴿الَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الأدميون إلى دورهم ومتامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك، بالضياء، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلَ﴾ تعالى ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حِسَابًا﴾ هما تعرف الأوقات والأوقات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذَلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مثقلة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر. ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه، تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير ونظام يدبغ، تخير العقول في حسنه وكمالها وموافقتها للمصالح والحكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لَتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويخبر في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بينها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجهلاء، المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض. ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوتت في أخلاقه وخلقته وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقراً، أي: منتهى يتجهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديدة، التي لا تستقر

ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار، التي هي المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وعمر ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبيئاته.

﴿٩٩﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَتْرَكًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا من أعظم منة العظيمة، التي يضطر إليها الخلق من آدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأثبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله، وانسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، وفرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبدلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإجابة إليه، والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتا لأكثر الناس فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَتْرَكًا﴾ أي: من ذلك النبات الأخضر، ﴿حَبًّا مَتْرَكًا﴾ بعضه فوق بعض، من بر وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حيوته متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الخيوط، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ أخرج الله ﴿مِنَ طَلْعِهَا﴾ وهو الكفري، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة سهلة

التناول، متدلية على من أرادها، بحيث لا يعسر تناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كَرْبٌ ومراقى يسهل صعودها.

﴿و﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمانَ﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عمَّ جميع الأشجار والنبات.

وقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهاً في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والقواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهون، ويقنطون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظُرُوا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصاً النخل إذا أثمر.

﴿وَيَنْعِهِ﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً وآيات يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيّد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولو أزمه، التي منها التفكير في آيات الله، والاستنتاج منها ما يرد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

﴿١٠٠ - ١٠٤﴾ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ بديع السماوات والأرض أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴿يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَعَ إِحْسَانِهِ لِعِبَادِهِ وَتَعْرِفُهُ بِآيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ، وَحُجُجِهِ الْوَاضِحَاتِ - أَنَّ الْمَشْرُكِينَ بِهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ يَدْعُونَهُمْ وَيَعْبُدُونَهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، الَّذِينَ هُمْ خَلَقَ مِنْ رَّبِّهِمْ لَيْسَ فِيهِمْ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأَلُوْهِةِ شَيْءٌ، فَجَعَلُوا شُرَكَاءَ لِمَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَهُوَ الْمُنْعِمُ بِسَائِرِ أَصْنَافِ النِّعَمِ، الدَّافِعُ لِحُجُبِ النِّقَمِ، وَكَذَلِكَ «خَرَقَ الْمَشْرُكُونَ» أَي: اتَّفَقُوا وَافْتَرَوْا مِنْ تَلَقُّاءِ أَنْفُسِهِمْ لِلَّهِ، بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ قَالَ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَافْتَرَى عَلَيْهِ أَشْنَعَ النِّقَمِ، الَّذِي يَجِبُ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنْهُ!!

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وآفة وعيب.

﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما، ومقتنضيهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولى الألباب مثله، وليس له في خلقهما شريك.

﴿أَنْتَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بنوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى

عن سبيله وهو أعلم بالمعتدين ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ﴾ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾. فإن أكثرهم قد انحرفوا في آديانهم وأعمالهم وعلومهم، فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تتبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، ويخرون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطاباً للنبي ﷺ - فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق قتيلاً، وأصدق حديثاً، وهو أعلم من يضل عن سبيله، وأعلم بمن يهتدي ويهدي. فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرجم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدراً وأجرأ، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم مؤمنين﴾ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فضل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم، إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها،

حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممتريين ﴿ومت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ أي: قل يا أيها الرسول ﴿أفغير الله أبغي حكماً﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه. فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم، وكل تدبير وخبر للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قليلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك ﴿ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ ولهذا تواطأت الأخبار ﴿فلا﴾ تشك في ذلك ولا تكونن من الممتريين.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿ومت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿لا مبدل لكلماته﴾ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها^(١).

﴿وهو السميع﴾ لسان الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والباطن، والماضي والمستقبل.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ إن ربك هو أعلم من يضل

باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتصغى إليه﴾ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿وليروضوه﴾ بعد أن يصغوا إليه فيصغون إليه أولاً، فإذا سالوا إليه ورأوا تلك العجائز المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقتربوا من الأعمال والأقوال ما هم مقتربون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال الممتريين، بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العجائز، ولا تحلبهم تلك التضمينات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعوة، فإن كانت حقاً قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً، ردوها على من قالها، كائنات من كان، ولو البست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الإبتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه فإنه - حيثئذ - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيه المتنافسون.

﴿١١٤ - ١١٥﴾ ﴿أفغير الله أبغي

فإن المشركين - حين تستمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة الله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي: فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفستت السموات والأرض، ومن فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشياها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وإن أطمعتموه﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل - بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، ويعتمد التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصى إلا الله.

﴿١٢٢ - ١٢٤﴾ ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمضي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما

الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده. فنهى الله عباده عن اقتراح الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف.

وكثير من الناس، تحفي عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿١٢١﴾ ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام وألتهم، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً. ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخرى، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ولعلها سبب نزول الآية، لقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ بغير علم.

ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية، من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعه من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فضل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام، وذلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة، الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكنت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فضله الله فما لم يفضل الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فضله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة، كما قال تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ إلى أن قال: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وإن كثيراً يضلون بأهوائهم﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بغير علم﴾ ولا حجة. فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبهة، بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿١٢٠﴾ ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والخروج، من

أولادهم، وهو: الوأد؛ الذين يدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزيتونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ومنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم، ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجاً منه لهم، وإمهالاً لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافتراءهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئاً.

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموماً، وجعلها رزقاً ورحمة، يتمتعون بها ويتفنون، قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالاً من تلقاء أنفسهم، فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام [والحرث] أنهم يقولون فيها: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ أي: محرم لا يطعمها إلا من نشاء ﴿أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف - من عندهم -

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة، إلا أهويتهم وآراءهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها أي: بالركوب والحمل عليها، ويحرمون ظهورها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك.

﴿سيجزيم بما كانوا يفترون﴾ على الله من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع. ومن آرائهم السخيفة أنهم يفعلون

محظورين، بل ثلاثة محاذير، منتهم على الله في جعلهم له نصيباً، مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع، وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئاً في ذلك، وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا، ولو كان واصلاً إلى الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم - من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم - شيء، جعلوه قسمين:

قسماً قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فالحق لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه، ولا يقبل عمل من أشرك به.

وقسماً جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد.

فإن وصل شيء مما جعلوه لله، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لأنفسهم إلى ما جعلوه لله، ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها.

فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه وينصح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «عني الله تعالى أنه قال: «أنا أغني الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه».

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقرّبوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله - على زعمهم - فإنه لا يصل إليه لكونه شركاً، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

ومن سفه المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم - قتل أي: رؤساؤهم وشياطينهم - قتل



لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون * وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميثم فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين * يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ، من سفاهة العقل وخفة الأحلام، والجهل البليغ، وعدد تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدر فيه أصلاً، فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ ولشركائهم من ذلك نصيباً، والحال أن الله تعالى هو الذي ذرأه للعباد، وأوجده رزقاً، فجمعوا بين محظورين

فقال: «وهو الذي أنشأ جنات» أي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة.

«معروشات وغير معروشات» أي: بعض تلك الجنات، يجعل له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض. وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تنفرض في الأرض، وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعرضونها ويمونها.

«وأنشأ تعالى النخل والزرع مختلفاً أكله» أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. «وأنشأ تعالى الزيتون والرمان متشابهاً» في شجره «وغير متشابه» في ثمره وطعمه. كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: «كلوا من ثمره» أي: النخل والزرع «إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده» أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصبة المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حوالان الحول، لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حيثئذ إخراجه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج بمن لا يخرج.

وقوله: «ولا تسرفوا» يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يغيظه ويمقت عليه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب

بعض الأنعام ويعينوها - محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: «ما في بطن هذه الأنعام خالصة للذكور» أي: حلال لهم، لا يشاركون فيها النساء، «ومحرم على أزواجنا» أي: نسائنا، هذا إذا ولد حياً، وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتاً، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

«سيجزيهم» الله «وصفهم» حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله. «إنه حكيم» حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال «عليم» بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قاله عليه وافتروه، وهو يعافهم ويرزقهم جل جلاله.

«١٤٠» ثم بين خسارتهم وسفاهة عقولهم فقال: «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم» أي: خسروا دينهم وأولادهم، وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردى والضلال.

«وحرماً ما رزقهم الله» أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقاً لهم. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا «افتراء على الله» أي: كذباً يكذب به كل معاند كفار. «قد ضلوا وما كانوا مهتدين» أي: قد ضلوا ضلالاً بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

«١٤١» وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين كما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام

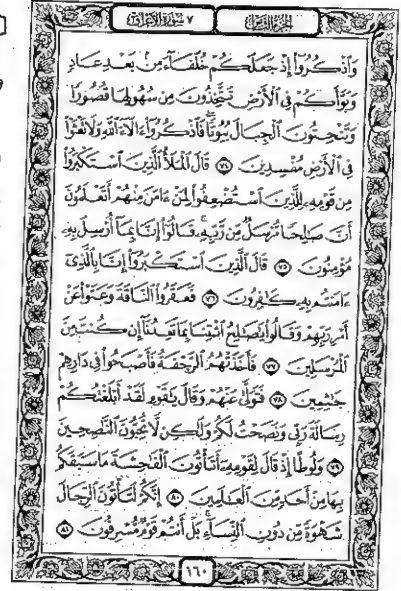


الزكاة في الشمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصاها في الزرع، وجذاذ النخل، وأنه لا تنكر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكى المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ يبعث خارساً يحرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعثرها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

«١٤٢ - ١٤٤» «ومن الأنعام حولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل للذكورين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين تبوؤني بعلم إن كنتم صادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل للذكورين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم



ولا الإنات الخالص من الصنفين .

بقي إذا كان الرحم مشتتاً على ذكر وأنثى ، أو على مجهول فقال : ﴿ أَمْ تَحْرِمُونَ ﴾ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴿ أي : أنثى الضأن وأنثى المعز ، من غير فرق بين ذكر وأنثى ، فليست تقولون أيضاً بهذا القول . فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة ، التي حصرنا الأقسام الممكنة في ذلك ، فإلى أي شيء تذهبون ؟

﴿ نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ في قولكم ودعواكم ، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائفاً في العقل ، إلا واحداً من هذه الأمور الثلاثة . وهم لا يقولون بشيء منها . إنما يقولون : إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم ، حرام على الإنات دون الذكور ، أو محرمة في وقت من الأوقات ، أو نحو ذلك من الأقوال ، التي يعلم علماً لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب ، والعقول المختلة المنحرفة ، والآراء الفاسدة ، وأن الله ما أنزل - بما قالوه - من سلطان ، ولا لهم عليه حجة ولا برهان .

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك . فلما بين بطلان قولهم وفساده ، قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته ، إلا في اتباع شرع الله . ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ ضَارَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي : لم يبق عليكم إلا دعوى ، لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها . وهي أن تقولوا : إن الله وضاًنا بذلك ، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسوله ، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب ، وهذا افتراء لا يجمله أحد ، ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : مع كذبه وافتراءه على الله ، قصده بذلك ، إضلال عباده الله عن سبيل الله ، بغير بينة منه ولا برهان ، ولا عقل ولا نقل . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين لا إرادة لهم في

غير الظلم والجور والافتراء على الله .

﴿ ١٤٥ - ١٤٦ ﴾ ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مَحْرُماً عَلَى طَاعِمٍ يَعْطِمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقًا أَهْلَ غَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ بِغَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَيْبَ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴿ لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله ، وأبطل قولهم . أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم ، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال ، من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل ، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله ، وقد قال لرسوله : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِي إِلَيَّ مَحْرُماً عَلَى طَاعِمٍ ﴾ أي : محرماً أكله ، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه .

﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ والميتة : ما مات بغير ذكاة شرعية ، فإن ذلك لا يحل . كما قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ ﴾

﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها ، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن ، فإذا خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم ، ومفهوم هذا اللفظ ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح ، أنه حلال طاهر .

﴿ أَوْ لَحْمِ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ ﴾ أي : فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس ، أي : حيث نجس مضر ، حرمه الله لطفاً بكم ، ونزاهة لكم عن مقاربة الحيث .

﴿ أَوْ ﴾ إلا أن يكون ﴿ فَسَقًا ﴾ أي : لغير الله به ﴿ أي : إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله ، من الأوثان والآلهة التي يعبدونها المشركون ، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته ، أي : ومع هذا ، فهذه الأشياء المحرمات ، من اضطر إليها ، أي : حملته الحاجة والضرورة إلى أكل

الظالمين ﴿ أي : ﴿ و ﴾ خلق وأنشأ ﴿ من الأنعام حولة وفرشاً ﴾ أي : بعضها تحملون عليه وتركبونه ، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرهما كالفصيلان ونحوهما ، وهي الفرش ، فهي من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هذين القسمين .

وأما من جهة الأكل والانتفاع ، فإنها كلها تؤكل ويستفح بها . ولهذا قال : ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي : طرقه وأعماله التي من جعلتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مصلحتكم وشقاؤكم الأبدى .

وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده ، وجعلها كلها حلالاً طيباً ، فصلها بأنها : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ذكر وأنثى ﴿ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ كذلك ، فهذه أربعة ، كلها داخلة فيما أحل الله ، لا فرق بين شيء منها ، فقل لهؤلاء المتكلفين ، الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء ، أو يحرمون بعضها على الإنات دون الذكور ، ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا ﴿ الذَّكَرَيْنِ ﴾ من الضأن والمعز ﴿ حَرَّمَ ﴾ الله ، فليست تقولون بذلك وتطردونه ، ﴿ أَمْ الْإِنثِيَّينِ ﴾ حرم الله من الضأن والمعز ، فليس هذا قولكم ، لا تحريم الذكور الخالص ،

وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة
لبأس الله، التي أعظمها ورأسها
تكذيب محمد ﷺ

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ «سيقول الذين
أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا
ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين
من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل
عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون
إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون * قل
فille الحجة البالغة فلو شاء لهداكم
أجمعين» هذا إخبار من الله أن
المشركين سيحتجون على شركهم
وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء
والقدر، ويعلمون مشيئة الله الشاملة
لكل شيء من الخير والشر، حجة لهم
في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم
سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى:
﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما
عبدنا من دونه من شيء﴾ الآية.

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل
الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة
الرسول ويحتجون بها، فلم تجد فيهم
شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم
حتى أهلكتهم الله وأذاقهم بأسه.
فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت
عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم
العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن
استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة،
وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت
صحيحة لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون
حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما
إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن
والخرص الذي لا يغني عن الحق
شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قل
هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ فلو
كان لهم علم - وهم خصوم الداء -
لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه
لا علم عندهم. ﴿إن تتبعون إلا الظن
وإن أنتم إلا تخرصون﴾ ومن بنى
خججه على الخرص والظن، فهو مبطل

به، وما سوى ذلك فحلال.
ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على
هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد
يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من
أنواع الغنم، كما قد يتوهم جهلة
النصارى وأشباههم، فيمنونها كما
يؤمنون المواشي، ويستحلونها،
ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا
المحرم على هذه الأمة كله^(١) من باب
التزيه لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب،
فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة
لهم ولهذا، قال: ﴿وعلى الذين هادوا
حرمنا كل ذي ظفر﴾ وذلك كالإبل وما
أشبهها وحرمنا عليهم.

﴿من البقر والغنم﴾ بعض أجزائها،
وهو: ﴿شحومهما﴾ وليس المحرم
جميع الشحوم منها، بل شحم الآلية
والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال
من ذلك، فقال: ﴿إلا ما حملت
ظهورها أو الحواشي﴾ أي: الشحم
المخالط للامعاء ﴿أو ما اختلط
بعظم﴾.

﴿ذلك﴾ التحريم على اليهود
﴿حزيناهم ببغيتهم﴾ أي: ظلمهم
وتعديهم في حقوق الله وحقوق
عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء
عقوبة لهم ونكالا. ﴿وإننا لصادقون﴾
في كل ما نقول ونفعل ونحكم به،
ومن أصدق من الله حديثاً، ومن
أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

﴿١٤٧﴾ «فإن كذبوك فقل ربكم
ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم
المجرمين» أي: فإن كذبك هؤلاء
المشركون، فاستمر على دعوتهم،
بالتروغيب والترهيب، وأخبرهم
بأن الله ﴿ذو رحمة واسعة﴾ أي: عامة
شاملة [جميع] للمخلوقات كلها،
فسارعوا إلى رحمة بأسبابها، التي رأسها
وأسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما
جاء به.

﴿ولا يرد بأسه عن القوم
المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم

شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء
وخاف على نفسه التلف ﴿غير باغ ولا
عاد﴾ أي: ﴿غير باغ﴾ أي: مريد
لأكلها، من غير اضطرار ولا متعدي،
أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة
عن حاجته. ﴿فمن اضطر غير باغ ولا
عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ أي: قاله
قد سامح من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا
الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثم
عمرات لم تذكر فيها، كالسباع وكل
ذي مخلب من الطير ونحو ذلك، فقال
بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم
ما زاد على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا
الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد
ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في
ذلك الوقت، وقال بعضهم: إن هذه
الآية مشتملة على سائر المحرمات،
بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من
المعنى وعموم العلة.

فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم
ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط:
﴿فإنه رجس﴾ وصف شامل لكل
محرم، فإن المحرمات كلها رجس
وحيث، وهي من الخبائث المستقذرة
التي حرمها الله على عباده، صيانة لهم
وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من
السنة، فإنها تفسر القرآن، وتبين
المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم
من المطاعم إلا ما ذكره والتحريم
لا يكون مبسوطاً إلا بشرع الله - دل
ذلك على أن المشركين، الذين حرّموا ما
رزقهم الله مفترون على الله، يقولون
عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا
أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن
السياق في نقض أقوال المشركين
المتقدمة، في تحريمهم لما أحله الله
وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت
لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام
خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في
الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله

خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

ومنها: أن الحججة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عدراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة^(١) القاطعة باطل، لأن نقض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كُلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر، ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شاوروا فعلموا، وإن شاوروا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومندرجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم منيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجباً كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم!!

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحاجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الضائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من

الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ^(٢).

﴿١٥٠﴾ قل هللم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما: أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

وإما: أن يحضروا أحداً يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى - ناهياً نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة -: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: يستنون به غيره من الأنداد والأوثان.

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحزري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حيثذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿١٥١- ١٥٣﴾ قل تعالوا أتتبعوا ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف

نفساً إلا وسمها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله: ﴿تعالوا أتتبعوا ما حرم ربكم عليكم﴾ تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتوياً على سائر المحرمات، من المأكول والمشرب والأقوال والأفعال. ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً.

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحداً، مخلصاً لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

ثم بدأ يأكد الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ من ذكور وإناث ﴿من إملاق﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجوداً في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، فنهيههم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم من باب أول وأخرى.

﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ وهي: الذنوب العظام المستفحشة، «ما ظهر منها وما بطن»

(١) في ب: الآية.

(٢) في ب: من الكلام المصيب عندهم والمخطيء.



من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى. من جملتها وتماها إنزال التوراة عليهم. فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها. ﴿وهدى ورحمة﴾ أي: يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر، في الأصول والفروع. ﴿ورحمة﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير. ﴿لعلهم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيانات عليهم ﴿بلقاء ربهم يؤمنون﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

﴿وهذا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم. ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحت عليه، وما من شر، إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة ﴿فاتبعوه﴾ فيما يأمر به وينهى، وابتوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿واتقوا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لعلكم﴾ إن اتبعتموه ﴿ترحمون﴾

الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

﴿١٥٨﴾ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون ﴿يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمتهم وعنادهم، إلا أن تأتيهم﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم ﴿الملائكة﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال. ﴿أو يأتي ربك﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ الدالة على قرب الساعة.

﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت. ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أي: إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروي، كإيمان الفريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقبلع عما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده﴾.

فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعلاً.

﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى.

﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي: تقولون لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً، لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

﴿أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا، [بعدم] بكمالها وتمامها، فحصل لكم بكتابتكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم، فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ أي: أعرض ونأى بجانبه.

﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾ أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. ﴿بما كانوا يصدفون﴾ لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم على عملهم السيئ ﴿وما زينك بظلام للعبيد﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلمين، ولا إلى أفيكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، [من] اليهود والنصارى، فهم أهل الكتاب عند

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويعلق حينئذ باب التوبة. ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ منتظراً، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿قُلْ انتظروا إِنَّا منتظرون﴾ فستعلمون أننا أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالاستواء والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين. وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير، وفيه أن من جملة أشرار الساعة طلوع الشمس من مغربها. وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وشئته، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً، كما تقدم.

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه. فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد الإيمان. فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿١٥٩ - ١٦٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْراً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة. ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر

بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائل الأصولية والفروعية. وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

ثم ذكر صفة الجزاء، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِي إِلَّا مِثْلُهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.

﴿١٦١ - ١٦٥﴾ ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قَيْماً مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم * يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلم بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الجنتاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من

أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركون.

وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى.

وَمَنْ أَخْلَصَ فِي صَلَاتِهِ وَنُسُكِهِ، اسْتَلْزَمَ ذَلِكَ إِخْلَاصَهُ لِلَّهِ فِي سَائِر أَعْمَالِهِ. وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أتيت في حياتي، وما يجزيه الله علي، وما يقدر علي في مماتي الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني، وبدعاً أتيت من تلقاء نفسي، بل ﴿بِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمراً حتماً، لا أخرج من التبعية إلا بامثاله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة.

﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ﴾ من المخلوقين ﴿أَبْغِي رَبّاً﴾ أي: أحسن ذلك ويليق بي، أن اتخذ غيره مربياً ومدبراً والله رب كل شيء، فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، مقادون لأمره!!

فتعين علي وعلى غيري، أن يتخذ الله رباً، ويرضى به، وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين.

ثم رغب ورهب بذكر^(١) الجزاء فقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ بل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم

القيامة ﴿فَنبِئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير وشر، ويحاذركم على ذلك، أوفى الجزاء.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: يخلّف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم، لينظر كيف تعملون.

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في القوة والعافية، والرزق والخلق والخلق. ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ فتفاوتت أعمالكم. ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وإنه لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن آمن به وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات.

آخر تفسير سورة الأنعام، فله الحمد والثناء وصلى الله وسلم على نبينا محمد [وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين] (١).

المجلد الثالث من تفسير الرحمن في تفسير القرآن لعلمه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأعراف مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فلنسأل الذين أرسل إليهم ولنسأل المرسلين ﴿فَلَنَقْصِصَ عَلَيْهِمْ بِعَلَمِ مَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ يقول تعالى لرسوله

محمد ﷺ مبيناً له عظمة القرآن: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وأنه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تحش لآثماً ومعارضاً.

﴿لَتَنْذِرُ بِهِ﴾ الخلق، فتعظهم وتذكرهم، فتقوم الحجة على المعاندين. ﴿وَلِيَكُونَ ذِكْرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

ثم خاطب الله العباد، وألّفهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ الذي يريد أن يتم تربيتكم لكم، فأُنزل عليكم هذا الكتاب الذي، إن اتبعتموه كملت تربيتكم، ونمت عليكم النعمة، وهديتكم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: تتولونهم وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق. ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرْتُمْ﴾ وعرفت المصلحة، لما أثرت الضر على النافع، والعدو على الولي.

ثم حذرهم عقوباته للأثم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم، ليثلاً يشابههم (٢) فقال: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: في

حين غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: لنسألن الأئمة الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلهم ﴿وَيَوْمَ يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ الآيات.

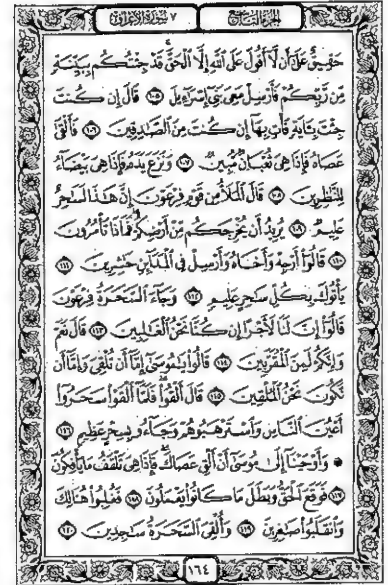
﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أمهم.

﴿فَلَنَقْصِصَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بِعَلَمِهِ﴾ فنه تعالى لأعمالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ في وقت من الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

﴿٨-٩﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقياس، الذي لا جور

(١) زيادة من ب، وقد جاء بعدها قول الناسخ: (وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة الموافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة، سنة ١٣٤٥هـ، بقلم الفقير إلى ربه المئان: علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وقد نسخته على نسخة المؤلف غفر الله له وأثابه على ذلك الثواب الجزيل، وخزاه الله عتاً وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووفانا وإياه عذاب النيران بفضلهم وكرمهم، إنه قريب مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين ثم آمين يا رب العالمين.

(٢) في ب: فلا يشابهونهم.



ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿وَلَا تُجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ فإن القيام بالشكر من سننك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله، لنأخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا، بالطرق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿١٨﴾ قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴿أي﴾ قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿اخرج منها﴾ اخرج صغاراً واحتقاراً، لا خروج إكرام بل ﴿مذموماً﴾ أي: مذموماً مدحوراً مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير.

﴿لأملأن جهنم﴾ منك وعن تبعك منهم ﴿أجمعين﴾ وهذا قسم منه تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

﴿١٩ - ٢٣﴾ ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرِبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما ريكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ فدلهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفاً عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي:

أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء، التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعاً فيها بما أَرَادَا، إلا أنه عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. وحرم عليهما أكلها، بدليل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلم يزالا ممثلين لأمر الله، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها، وموه عليهما وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً﴾ أي: من جنس الملائكة ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿هَلْ أَذِلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلِكُ لَا يَبُولُ﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: من جملة الناصحين حيث قلت لكما ما قلت، فاعتزلا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل.

﴿فدلاهما﴾ أي: نزلهما عن رتبتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقهما على أكلها.

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ أي: ظهرت غورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار العربي الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر، حتى انخلع فظهرت

عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما خجلا وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك. ﴿وناداهما ربهما﴾ وهما بتلك الحال موبخاً ومعاتباً: ﴿ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ فلمن اقترتما المنهي، وأطعتما عدوكم؟ فحينئذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فقالا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: قد فعلنا الذنب، الذي نبيتنا عنه، وضررنا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافة من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما ذلك ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي.

هذا وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه، فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه الله وهداة.

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعداً.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس الثقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ أي: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلونها الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي

المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء، كالطعام والشراب والمزكبات، والمنائح ونحوها، قد يسر الله للعباد ضرورتها، ومكمل ذلك، ولبين لهم^(١) أن هذا ليس مقصوداً بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح.

وأما اللباس الظاهري، فغايتها أن يستتر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أن يكون جالاً للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع.

وأيضاً في تقدير عدم هذا اللباس، تتكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تتكشف عورته الباطنة، ويناله الخزي والفضيحة.

وقوله: ﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ أي: ذلك المذكور لكم من اللباس، مما تذكرون به ما ينفعكم ويضركم، وتشبهون^(٢) باللباس الظاهر على الباطن.

﴿٢٧﴾ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون يقول تعالى لنبي آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ بأن يزين لكم العصيان، ويدعوكم إليه ويرغبكم فيه، فتقادون له ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه، فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك، ولا يألو جهده عنكم، حتى يفتننكم إن استطاع، فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم، وأن تلبسوا لامة الحرب بينكم وبينه، وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم.

ف ﴿إنه﴾ يراقبكم على الدوام، و ﴿يراكم هو وقبيله﴾ من شياطين الجن ﴿من حيث لا ترونهم﴾، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون. فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان.

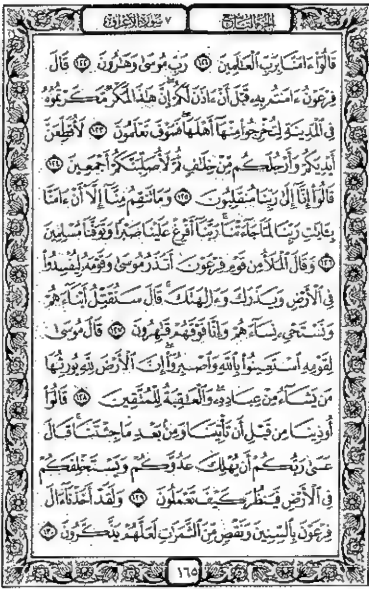
﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه، والذين هم به مشركون.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تهودون * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله يحسبون أنهم مهتدون يقول تعالى منياً لقع حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، وينسبون أن الله أمرهم بها. ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ وهي: كل ما يستفحش ويستقبح، ومن ذلك طوافهم بالبيت عراة ﴿قالوا: وجدنا عليها آباءنا﴾ وصدقوا في هذا. ﴿والله أمرنا بها﴾ وكذبوا في هذا، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة فقال: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ أي: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون ولا غيره ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ أي: افتراء أعظم من هذا!!

ثم ذكر ما يأمر به، فقال: ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي: بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور. ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ أي: توجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً «الصلاة» أقيموا، ظاهراً وباطناً، ونقوها من كل نقص ومفسد. ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي: قاصدين بذلك وجهه

(٢) هكذا في أ، وفي ب: وتستعينون.

(١) زيادة من هامش ب.

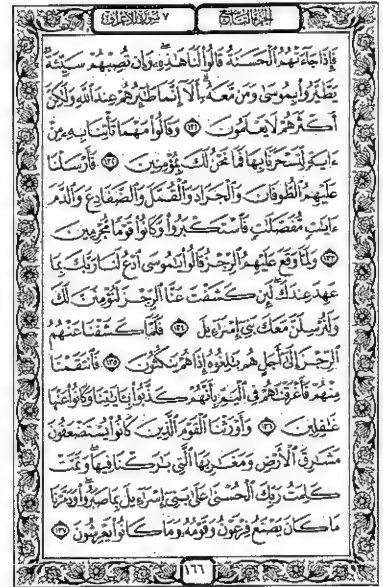


وحده لا شريك له. والدعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه.

﴿كما بدأكم﴾ أول مرة ﴿تعودون﴾ للبعث، فالقادر على بدء خلقكم، قادر على إعادته، بل الإعادة أهن من البداء.

﴿فريقاً﴾ منكم ﴿هدى﴾ الله، أي: وفقهم للهداية، ويسر لهم أسبابها، وصرف عنهم موانعها. ﴿وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ أي: وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية.

ف ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً. فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، حصل لهم النصب الوافر من الخذلان، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران. وهم يحسبون أنهم مهتدون، لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقاً والحق باطلاً، وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتشكره العقول، وأنه لا يأمر إلا



الكبار التي تستفحش وتستقيح لشاعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والعجب والرياء والنفاق، ونحو ذلك، ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا الذنوب المتعلقة بحق الله، والمتعلقة بحق العباد.

﴿وَأَنْ تَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق، وربما دخل في هذا الشرك الأصغر كالرياء، والحلف بغير الله، ونحو ذلك.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرّمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفساد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجدي على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، ولا تأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِذَا جَاءَ يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِمَّنْ مِثْلُكُمْ فَقَصِّصْ عَلَيْهِمْ مَا كَذَبُوا بَيَاتِنَاهُمْ فَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب عليهم يقصّون عليهم آيات الله ويبينون لهم

الحلال إلى الحرام. ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُسْرِفِينَ﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قل إنما حرم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعملون يقول تعالى منكراً على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكّل ومشرب بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله!!

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبيحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها.

ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التمتع بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة.

﴿كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فضله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

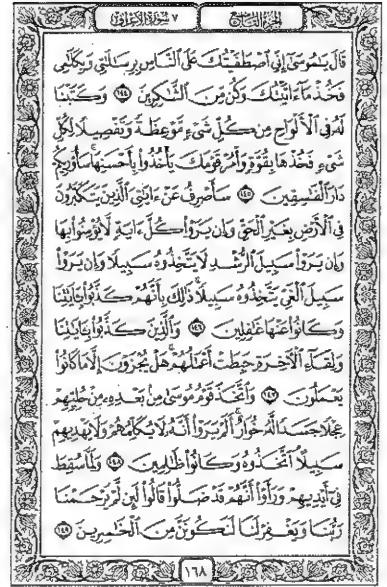
ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ أي: الذنوب

بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومته، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تورى - بجهله وظلمه - الشيطان، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال، أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أناه حسباناً من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿٣١﴾ ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول تعالى - بعدما أنزل على بني آدم لباساً يوارى سواهم ورشاً: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: استروا عورتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها، ونظافة البستر من الأذناس والأنجاس.

ثم قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: مما رزقكم الله من الطيبات ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي، والشتره في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتثوق في المأكّل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز



الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾. فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: لا يتحولون عنها ولا يغيرون بها بدلاً، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهيات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجوداً في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم، فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: يفجرونها تفجيراً، حيث شاءوا، وأين أرادوا، إن شاءوا في خلل القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات أنهار تجري في غير أخذود، وخيرات ليس لها حد محدود ﴿وَلَهُذَا لَمَّا رَأَوْا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ بِهِ﴾ قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴿بِأَنِّ مَنْ عَلَيْنَا وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ قُلُوبِنَا، فَأَمْنَتْ بِهِ، وَانْقَادَتْ لِلْأَعْمَالِ الْمُوصِلَةِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، وَحَفِظَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِيْمَانَنَا وَأَعْمَالَنَا، حَتَّىٰ أَوْصَلَنَا بِهَا إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، فَنَعْمَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ، الَّذِي ابْتَدَأَنَا بِالنَّعْمِ، وَأَسَدَىٰ مِنَ النَّعْمِ

الظاهرة والباطنة ما لا يحصى المحصون، ولا يعده العادون، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هِدَايَا اللَّهِ﴾ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من هدايته واتباع رسله.

﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين [لهم]، قالوا لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين، لا مزية فيه ولا إشكال، ﴿وَنُودُوا﴾ تهنئة لهم وإكراماً، ونحية واحتراماً، ﴿أَن تُلَكُمِ الْجَنَّةَ أَوْ تُشْمُوها﴾ أي: كنتم الوريثين لها، وصارت إقطاعاً لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورشتموها بما كنتم تعملون.

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبِّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُفَوِّهُنَّ عَوَاجِاَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ يقول تعالى لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب، من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبِّنَا حَقًّا﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها، وأرانا ما وصفه لنا ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ قد وجدناه حقاً، فتبين للخلق كلهم، بياناً لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلاً، وذعبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعده الله واعتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على

وماواه النار، وقال هنا ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿٤٦ - ٤٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ لَهُمْ فِيهَا نِسْبَةٌ وَلَا يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هِدَايَا اللَّهِ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تُلَكُمِ الْجَنَّةَ أَوْ تُشْمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر الله تعالى عقاب العصاة الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبيد، قال تعالى: ﴿لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعليها في هذه

إلى أن قال: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ * على الأرائك ينظرون ﴿واختلف أهل العلم والمفسرون، من هم أصحاب الأعراف، وما أعمالهم؟

والصحيح في ذلك، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمة الجنة، فإن رحمة تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

﴿٥٠ - ٥٣﴾ * ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين اتخذوا ديتهم لهواً ولعباً وغرّبهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يمحذون * ولقد جفتاهم بكتاب فضّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وقُضِلَ عنهم ما كانوا يفترون * أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ، وحين يمسه الجوع المفرط والظمأ الموجه، يستغيثون بهم، فيقولون: ﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إن الله حرمهما﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿على الكافرين﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه.

﴿لهواً ولعباً﴾ أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخرياً، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن

يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته.

﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا منظرًا شنيعاً، وهو لا فظيلاً ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ فأهل الجنة إذا رآهم أهل الأعراف^(١) يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم.

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف، وأموال وأولاد، فقال لهم أصحاب الأعراف، حين رأوهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا منيئ: ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ في الدنيا، الذي تستدفعون به المكارة، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا، فاليوم اضمحل، ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذلك، أي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتبعه، ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أهؤلاء﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته﴾ احتقاراً لهم وازدراء وإعجاباً بأنفسكم، قد حثثتم في إيمانكم، وبدل لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب، ﴿ادخلوا الجنة﴾ بما كنتم تعملون، أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لا خوف عليكم﴾ فيما يستقبل من المكارة ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ على ما مضى، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير.

وهذا كقولته تعالى: ﴿إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون

أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب. ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ أي: بين أهل النار وأهل الجنة، بأن قال ﴿إن لعنة الله﴾ أي: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿على الظالمين﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها ظلماً، وصددوا عن سبيل الله بأنفسهم، وصددوا غيرهم، فضلوا وأضلوا.

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة، ويعتدل سير السالكين إليه، ﴿و﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عوجاً﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل، ﴿وهم﴾ بالآخرة كافرون ﴿وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة، عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للشواب، ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين وبره شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

﴿٤٦ - ٤٩﴾ * وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون * أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له: ﴿الأعراف﴾ لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم، أي: علاماتهم، التي بها يعرفون ويميزون، فإذا نظروا إلى أهل الجنة تادوهم ﴿أن سلام عليكم﴾ أي: يحيونهم ويسلمون عليهم، وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة، ولكنهم

الدين القيم.

﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِبِزْيَتِهَا وَزَخَّرْنَاهَا وَكَثَّرْنَا دَعَاتِهَا، فَاطْمَأَنَّنَا إِلَيْهَا وَرَضُوا بِهَا وَفَرَحُوا، وَأَعْرَضُوا عَنْ الْآخِرَةِ وَنَسَوْهَا.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَاسِهِمْ﴾ أي: نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء.

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْجِدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات الله وبياناته، بل قد جحدناهم بكتاب فصلناه ﴿أي: بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق﴾ على علم من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجمله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

﴿هَذِي وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغني والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم، ولا اتقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يجعل بهم ما أخبر به القرآن.

ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ .

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلٍ﴾ متندمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم. مفرين بما أخبرت به الرسل: ﴿قَدْ جَاءَتْ وَبَلِّغْنَا بِالْحَقِّ فَبُلِّغْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيُشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنُصَمِّلُ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا.

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حل بهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نَهَوَا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حين فوتوها الأرباح، وسلكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا مما تمنينهم أنفسهم به، ويعددهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل.

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى مبيناً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما على عظمتهما وسعتهما، وإحكامهما وإتقانها، وبديع خلقهما.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿استوى﴾ تبارك وتعالى ﴿على العرش﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ الْمَظْلَمَ﴾ النهار المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار.

﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب

الليل، وهكذا أبدأ على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، ويتنقل العباد إلى دار غير هذه الدار.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بتسخيره وتبديره، الدال على ماله من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدريّة، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمته أوصافه وكمالها، وبارك في غيظه بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون، فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يذل ذوي الألباب على أنه وحده، المعبود المقصود في الخرائج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال:

﴿٥٥-٥٦﴾ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: إلحاحاً في المسألة، ودؤوباً في العبادة، ﴿وخُفْيَةً﴾ أي: لا جهرًا وعلانية يخاف منها الرياء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى.

﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل

أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تشره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله.

﴿حتى إذا أقلت﴾ الرياح ﴿سحاباً ثقلاً﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى، وألقحه ريح أخرى ﴿سقناه لبلد ميت﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن يياسوا من رحمة الله، ﴿فأنزلنا به﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿الماء﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحاً تدره وتفرقه بإذن الله.

﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، وراغبين بخير الله، وقوله: ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعدما كانوا رفاتاً متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعاداً له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات.

وفي هذا الحث على التذكر والتفكير في آلاء الله، والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال.

﴿٥٨﴾ ثم ذكر تفاوت الأراضي، التي ينزل عليها المطر، فقال: ﴿والبلد الطيب﴾ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر ﴿يخرج نباته﴾ الذي هو مستعد له ﴿بإذن ربه﴾ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء، حتى يأذن الله بذلك. ﴿والذي خبيث﴾ من الأراضي ﴿لا يخرج إلا نكداً﴾ أي: إلا نباتاً خاساً لا نفع فيه ولا بركة.

﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ أي: ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمة، والإقرار بها، وصرفها في مرضاة الله،

لا تصلح له، أو يتنطق في السؤال، أو يبلغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ بعمل المعاصي ﴿بعد إصلاحها﴾ بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة.

﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في قبولها، وخوفاً من ردها، لا دعاء عبد مدلل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفاً طامعاً لا غافلاً، ولا آمناً ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحساناً، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

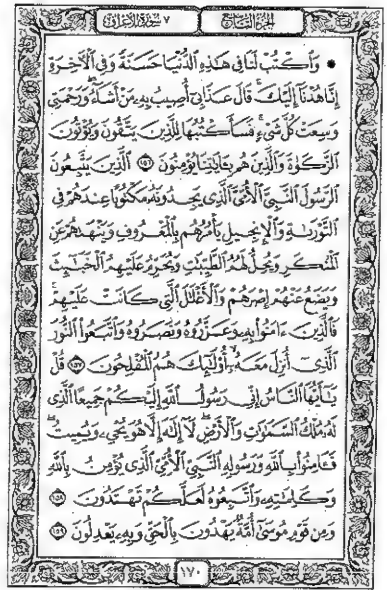
﴿٥٧ - ٥٨﴾ ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبيث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ يبين تعالى أثرًا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾



فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية، لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفقدين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحياة، فإن القلوب الطيبة حين يحييها الوحي، تقبله وتعلمه وتثبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون المطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ الآيات.

﴿٥٩ - ٦٤﴾ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ إلى آخر القصة^(١) لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك من عاندتهم ولم ينقد لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد



ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين - ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿فقال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحده ﴿مالكم من إله غيره﴾ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لمطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء سرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقيح رد.

﴿٦٠﴾ ﴿قال الملأ من قومه﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول، ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبيناً، واضحاً لكل أحد. وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي

لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأ عقل، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً، وترقق لهم لعلهم ينقادون له فقال: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنبهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم﴾

أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيد وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون، ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أنه جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقة وصدقه وحاله!!!

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿لينذركم ولتتقوا، ولعلكم ترحون﴾ أي: لينذركم العذاب

﴿وأعرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات البينات، ما بهم يؤمن أولوا الأبواب، فسخرها منه، واستهزؤوا به وكفروا.

﴿٦٥ - ٧٢﴾ ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد﴾ الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿هوداً﴾ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض.

﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله مالمكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ سخطه وعذابه، إن أقمتهم على ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ رادين لدعوته، قادحين في رأيه: ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي: ما نراك إلا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين، وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحكم عماهم حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقاً الكاذبون.

وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من

(١) في ب: كتب الآيات كاملة.

لا يغني عنه شيئاً من الأشجار والأحجار!!؟

وأني كذب أبليغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى!!؟

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾ بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد، ﴿ولكنني رسول من رب العالمين أبليغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾.

فالأوجب عليكم أن تعلقوا ذلك بالقبول والالتقاء وطاعة رب العباد.

﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحذركم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي: واحمدوا ربكم واشكروه، إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله وأبقاكم، لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم، ﴿و﴾ اذكروا

نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن ﴿زادكم في الخلق بسطة﴾ في القوة وكبر الأجسام، وشدة البطش، ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي: نعمه الواسعة، وآياده المتكررة ﴿لعلكم﴾ إذا ذكرعوها بشكرها وأداء حقها ﴿تفلحون﴾ أي: تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المهروب، فوعظهم وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا.

﴿ف﴾ قالوا ﴿متعجبين من دعوته، وخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه،

﴿اجئتنا لتعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آبائنا﴾ فبحهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وأكمل الأمور، من الأمور التي لا يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدّموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام، على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا بينهم، وقالوا: ﴿فأئتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ وهذا استفتاح منهم على أنفسهم.

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾

أي: لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وخان وقت الهلاك ﴿اتخاذلوني في أسماء سميتوها أنتم وآبائكم﴾ أي: كيف تمادون على أمور لا حقائق لها، وعلى أصنام سميتوها آلهة، وهي لا شيء من الآلهة فيها، ولا مثقال ذرة و﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ فإنها لو كانت صحيحة

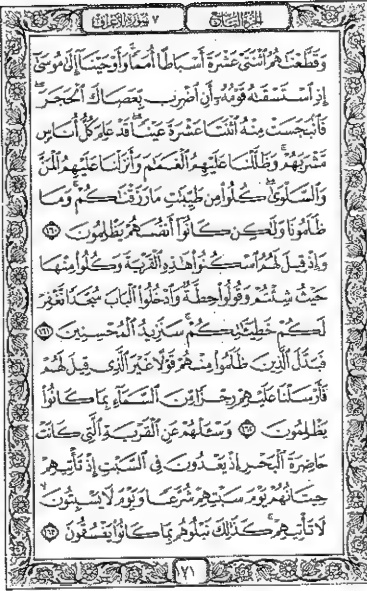
لأنزل الله بها سلطاناً، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها، ومن السلطان ما لا تخفى معه ﴿فانتظروا﴾ ما يقع بكم من العقاب، الذي وعدتكم به ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ وفرق بين الانتظرين، ومن انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والشواب، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: ﴿فأنجيناه﴾ أي: هوداً ﴿والذين﴾ آمنوا ﴿معه برحمة منا﴾ فإنه الذي

هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمة فأنجاهم برحمته، ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً، وسلط الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت

عليهم الحجة، فلم ينقادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والخزي والفضيحة. ﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾.

وقال هنا: ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعناد، ونعتهم الكبر والفساد.

﴿٧٣-٧٩﴾ ﴿إلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إلى آخر قصتهم (١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة العرب، أرسل الله إليهم ﴿أخاهم صالحاً﴾ نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد، ف﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالم يكمن من إله غيره﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين، الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله، ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾ أي: خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها



سلط عليكم عدواً يبتاعكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراك الأرزاق وكثرة النسل.

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وقضية.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ وهم الجمهور منهم. ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهاوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا للبيهيم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ استعملوا قوتهم السبعية، في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً ولا ذمة ولا حقاً، وإنما راعوا واتباعوا أهواءهم وعقولهم السفهية التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنك من قريتنا.

ف «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى تودعوه إن لم يتابعهم - بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ف «قال» لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أو لو كنا كارهين﴾ أي: أننا نكرههم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنبهية عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: حجارة حارة شديدة، من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الهلاك والخزي الدائم.

﴿٨٥ - ٩٣﴾ ﴿وإلى مدين أحاهم شعيباً﴾... إلى آخر القصة^(٢) أي: وأرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين أحاهم في النسب شعيباً يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعضوا في الأرض مفسدين، بالكثارة من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. فإن ترك المعاصي امتثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿ولا تقعدوا﴾ للناس بكل صراط أي: طريق من الطرق التي يكثُر سلوكها، تحذرون الناس منها و «تعودون» من سلوكها «وتصدون» عن سبيل الله من أراد الاهتداء به «وتبغونها عوجاً» أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتقبلونها اتباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقتها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحاددة الله، وجعل أئوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها.

﴿واذكروا﴾ نعمة الله عليكم إذ كنتم قليلاً فكثركم. أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة، وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يجوز بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿واذكر عبدنا لوطاً﴾ عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش، «ما سبقكم بها من أحد من العالمين» فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وأبتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضاً.

ثم بيّنها بقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، محل تخرج منه الإنسان والأخبار، التي يستحيى من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها، ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه.

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن فعل الفاحشة. ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

﴿فأنجيناه وأهلكنا﴾ أي: الباقين المعذبين، أمره الله أن يسري بأهلكه ليلاً، فإن العذاب مصبح قومه فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

(٢) في ب: أورد الآيات كاملة.

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

يدعى إليها!!

«قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها» أي: أشهدوا علينا أننا إن عدنا فيها بعدما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل الله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتنخذ ولداً ولا صاحبة، ولا شريكاً في الملك. «وما يكون لنا أن نعود فيها» أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فأيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها. ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هداهم الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأحل المحال. وحيث إن الله من عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى «وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا» أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد «وسع ربنا كل شيء علماً» فيعلم ما يصلح للعباد وما

يدبرهم عليه. «على الله توكلنا» أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه. «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق» أي: انصر المظلوم وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق «وأنت خير الفاتحين» وفتحته تعالى لعباده نوعان: فتح العلم، بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين، فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يرهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

«وقال الملأ الذين كفروا من قومه» محذرين عن اتباع شعيب، «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون» هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

«فأخذتهم الرجفة» أي: الزلزلة الشديدة «فأصبحوا في ديارهم جائمين» أي: صرعى ميتين هامدين، قال تعالى ناعياً حالهم «الذين كذبوا شعيباً كأن لم يفنوا فيها» أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفتنوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات ولهذا قال: «الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين» أي: الخسار محصور فيهم، لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران

المبين، لا من قالوا لهم: «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون».

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام «وقال» معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موتهم: «يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي» أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم «ونصحت لكم» فلم تقبلوا نصحي، ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم.

«فكيف آسى على قوم كافرين» أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم وعقوبتهم، فعباداً بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم!!

«٩٤ - ٩٥» «وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون» ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون» يقول تعالى: «وما أرسلنا في قرية من نبي» يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له: إلا ابتلاهم الله «بالبأساء والضراء» أي: بالفقر والمرض وأنواع البلياء. «لعلهم» إذا أصابتهم، أخضعت نفوسهم فتضرعوا إلى الله واستكانوا للحق. «ثم» إذا لم يقد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم. «بدلنا مكان السيئة الحسنة» فأدركهم الأرزاق، وعاقب أبدانهم، ورفع عنهم البلاء «حتى عفوا» أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وانسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء. «وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء» أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة

عذابنا الشديد ﴿بياتاً وهم نائمون﴾ أي: في غفلتهم، وغرتهم وراحتهم. ﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾ أي: أي شيء يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة، ما يوجب بعضه الهلاك؟!

﴿أفأمنوا مكر الله﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين، ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ فإن من آمن من عذاب الله، فهو ^(١) لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسول حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفاً وجلالاً أن يبتيلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

﴿١٠٠ - ١٠٢﴾ ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ تلك القرى نقص عليك من أنبيائها ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين * يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين ^(٢): ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أي: أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك

يكونون في سراء وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح، على حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستدراج والنكير حتى إذا اغتبطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا، أسر ما كانت إليهم، أخذناهم بالعذاب * بغتة وهم لا يشعرون * أي: لم يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا متقلبين عنه.

﴿٩٦ - ٩٩﴾ ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسول يبتلون بالضراء وموعظة وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أن أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخضب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا: ﴿فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو واخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك عليها من دابة. ﴿ظهير الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون﴾.

﴿أفأمن أهل القرى﴾ أي: المكذبة، بقرينة السياق ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ أي:

(١) في ب: فإنه.

(٢) في هامش ب في بيان معنى كلمة الغابرين المتكررة ما يلي: الغابرين: الباقين، الغابرين: الماضين.



المهلكين؟

أو لم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين.

وقوله: ﴿ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ أي: إذا نبههم الله فلم ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم.

﴿تلك القرى﴾ الذين تقدم ذكرهم ﴿نقص عليك من أنبيائها﴾ ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين.

﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي: ولقد جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأبدهم الله بالمعجزات الظاهرة، والبينات المبينات للحق بياناً كاملاً، ولكنهم لم يفداهم هذا، ولا أغنى عنهم شيئاً، ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ أي: بسبب تكذيبهم وردهم الحق أول مرة، ما كان الله ليهديهم



للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰ مَرَّةٍ، وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين عقوبة منه. وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والالتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على السنة رسله.

﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، قاله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهده، فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.

وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿١٠٣ - ١٧١﴾ ﴿ثم بعثنا من

بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه﴾ إلى آخر قصته^(١). أي: ثم

بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عتاة جبابة، وهم فرعون وملئه، من أشرفهم وكبرائهم، فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فظلموا بها﴾ بأن لم يتقادوا لحقها الذي من لم يتقده له فهو ظالم، بل استكبروا عنها ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة، بش الرشد المرفود، وهذا يحمل فصله بقوله: ﴿وقال موسى﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان ﴿يا فرعون إني رسول من رب عظيم﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرا عليه، ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر.

فهذا موجب لأن يتقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

فقال له فرعون: ﴿إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين﴾ فألقى بموسى عصاه في الأرض

﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي: حية ظاهرة تسمى، وهم يشاهدونها.

﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقته، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فلهذا ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ حين يهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي: ماهر في سحره، ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه ﴿يريد﴾ موسى يفعله هذا ﴿أن يخرجكم من أرضكم﴾ أي: يريد أن يجليكم^(٢) عن أوطانكم ﴿فماذا تأملون﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرورة بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أرجه وأخاه﴾ أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أناساً يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سجار عليم. أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى.

﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرون الناسضحى﴾ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى وقال هنا: ﴿وجاء السحرة فرعون﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا ف ﴿قالوا: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾؟ ف ﴿قال فرعون: نعم﴾ لكم أجر. ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده، ليجتهدوا ويبدلوا وسعهم وطاقاتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قالوا﴾ على وجهه التالي وعدم

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من.

المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يَا موسى إما أن تلقني﴾ ما معك ﴿وإما أن تكون تحن الملّقين﴾ ف ﴿قال﴾ موسى: ﴿ألقوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى.

﴿فلما ألقوا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ف ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك﴾ فألقاها ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ ف ﴿تلقف﴾ جميع ﴿ما يأكون﴾ أي: يكذبون به ويموهون.

﴿فوقع الحق﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فغلبوا هنالك﴾ أي: في ذلك المقام ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿وألقي السحرة ساجدين﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴿رب موسى وهارون﴾ أي: وصندنا بما بعث به موسى من الآيات اليناث.

ف ﴿قال﴾ لهم ﴿فرعون﴾ متهدداً على الإيمان: ﴿أمنتكم به قبل أن أذن لكم﴾ كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها وتفوذها، وتعجز عن المدافة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ وقال هنا: ﴿أمنتكم به قبل أن أذن لكم﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجور على.

ثم موه على قومه وقال: ﴿إن هذا لكر مكرتوه في المدينة لخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر فتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سير الأحوال، أن موسى عليه الضلالة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ ما أحل بكم من العقوبة، ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى.

﴿ثم لأصلبنكم﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿أجمعين﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكن سيدوق هذا العذاب، فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إننا إلى ربنا منتقلون﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، قاله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿وما تنقم منا﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إلا أن آمنا﴾ [بآيات] ربنا [لما جاءتنا] ^(١) فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا.

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿ربنا أفرغ﴾ أي: أفض ﴿علينا صبراً﴾ أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الشؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه.

ويزول عنه الانزعاج الكثير.

﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي: متقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا وفرعون وملاؤه وعامتهم المتبعون للملأ، قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلماً وعلواً، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

﴿ويذكر وألهتك﴾ أي: يدعك أنت وألهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

ف ﴿قال﴾ فرعون مجيئاً لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا يسمون فيها، ويأمن ^(٢) فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم: ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ أي: نستبيحهن فلا نقتلن، فإذا فعلنا ذلك أماناً من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

ف ﴿قال موسى لقومه﴾ موصياً لهم في هذه الحالة، - التي لا يقدرון معها على شيء، ولا مقاومة - بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية:

﴿استعينوا بالله﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيم أمركم ﴿واصبروا﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، منظرين للفرج.

﴿إن الأرض لله﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿يورثها

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: آمنا برنا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ويؤمن.

من يشاء من عباده ﴿أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم، والعاقبة الحميدة لهم على قومهم وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين بالله، وينتظر الفرج.

﴿قالوا﴾ لموسى متضرجين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون، وأذيتة: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا﴾ فإنهم يسموننا سوء العذاب، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ كذلك ذ ﴿قال﴾ لهم موسى مرجياً لهم^(١) الفرج والخلص من شرهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ أي: يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فينظر كيف تعملون﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟. وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أراداه الله.

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة، أنها على عادته وستبه في الأمم، أن يأخذهم بالأساء والضراء، لعلمهم بضرعون. الآيات:

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ أي: بالدهور والجذب، ونقص من الثمرات لعلمهم بذكرهم ﴿أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابتهم معاتبة من الله لهم، لعلمهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿فلذا جاءتهم الحسنة﴾ أي: الخصب وإدراج الرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ أي: قحط وجذب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع بني إسرائيل له.

قال الله تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل ﴿أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿وقالوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزولون عن باطلهم: ﴿مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضرراً كثيراً والجراد ﴿فأكل ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم﴾ والقمل ﴿قيل: إنه الدباء، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف﴾ والصفاد ﴿فملاّت أوعيتهم، وأقلقتهم، وأذنتهم أذنة شديدة﴾ والدم ﴿إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلا دماً، ولا يطبخون إلا بدم.

﴿آيات مفصلات﴾ أي: أدلة وبيّنات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فاستكبروا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وكانوا﴾ في سابق أمرهم ﴿قوماً مجرمين﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبقاهم على الغي والضلال.

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي: العذاب، يحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والصفاد، والدم، فإعارج رجز وعذاب، وأنهم كلّموا أصابهم واحد منها ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما

عهد عندك﴾ أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع، ﴿لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن لك ولترسلن معك بني إسرائيل﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبداً، وإنما هو مؤقت، ﴿إذا هم ينكثون﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائنين.

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿فأرسل فرعون في المذائن حاشرين﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ وأنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل فاتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلقنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين.

وقال هنا: ﴿فأغرقتناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق. ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ في الأرض، أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدماً لآل

بما يدعى من دونه.

ثم ذكرهم ما امتن الله به عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُمْ يُسْمُونُكَ أَيْ: مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ﴾ يسمونكم سوء العذاب: أَيْ: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم النجاة من عذابهم ﴿يَلَاءُ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: نعمة جليلة، ومنحة جزيلة، أَوْ: وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى ووعظهم انتهوا عن ذلك. ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى، ويتهيأ لوعده الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصياً له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشقيقته: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أَيْ: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أَيْ: اتبع طريق الإصلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وَوَكَلِمَةً رَبِّهِ﴾ بما كلمه من وحيه وأمره ونبيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه ومودة لرؤيته.

ف ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظِرْ لِيكَ قَالَ﴾ الله ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أَيْ: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشبثون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل

فرعون، يسمونهم سوء العذاب أورثهم الله ﴿مُشَارِقَ الْأَرْضِ وَمُفَارِقَهَا﴾ والمراد بالأرض هاهنا، أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين، أذلين، أَيْ: ملكهم الله جميعها، ومكنهم فيها التي باركنا فيها ﴿وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ حين قال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

﴿وَدَرَّمْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ مِنَ الْأَبْنِيَةِ الْهَاتِلَةِ، وَالْمَسَاكِنِ الْمَزْخُوفَةِ﴾ وما كانوا يفرشون ﴿فَتَلَكَّ بِيَوْمِهِمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ إن في ذلك لآية لقوم يعلمون.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿فَأَنبَأُوا﴾ أَيْ: مروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ أَيْ: يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها. ف ﴿قَالُوا﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراههم الله من الآيات ما أراههم ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أَيْ: اشرع لنا أن نتخذ أصناماً آلهة كما اتخذها هؤلاء.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنكُمْ قَوْمٌ مِجْهَلُونَ﴾ وأي جهل أعظم من جهل من جهل ربه وخلقه وأراد أن يسوي به غيره، ممن لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟! ولهذا قال لهم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا فِيهِمْ بِاطِّاعٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها، فالعمل باطل وغايته باطلة.

﴿قَالَ أَغْبِرِ اللَّهُ ابْنِيكُمْ إِلَهًا﴾ أَيْ: أطلب لكم إلهاً غير الله المألوه، الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر

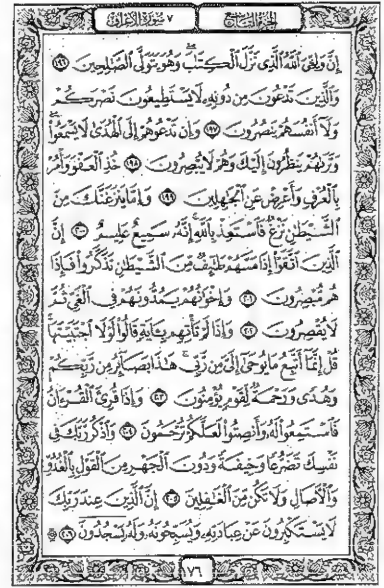
(١) كلا في ب، وفي أ: وعدم ثبوت.

(٢) زيادة من هامش ب.



الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال - مقتنعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية - ﴿وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ إذا تجلَّى الله له ﴿فَسَوْفَ تَرَاهُ﴾.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ الأسم الغليظ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أَيْ: انهار مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها^(١)، ﴿وَوَخَّرَ مُوسَى﴾ حين رأى ما رأى ﴿صَعْقًا﴾ فتبين له حينئذ أنه إذا لم يشبث الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يشبث لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً و[لذلك]^(٢)، ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أَيْ: تنزهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك ﴿تَبَتَّ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك، فلما منعه الله من رؤيته - بعدما كان متشوقاً إليها - أعطاه خيراً كثيراً فقال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أَيْ: اخترتك واجتبيتك وفضلتك



في الأرض بغير الحق ﴿١﴾ أي: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة، حرمه الله خيراً كثيراً وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ لإعراضهم واعتراضهم، ومعادتهم لله ورسوله، ﴿وإن يروا سبيل الرشدة﴾ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته. ﴿لا يتخذوه﴾ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿وإن يروا سبيل الفبي﴾ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء ﴿يتخلوه سبيلاً﴾ والسبب في انحرافهم هذا الانحراف ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ فردهم بآيات الله، وغفلتهم عما يزداد بها واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشاد ما أوجب.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا. ﴿ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ لأنها على غير أناس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه ﴿هل يجزؤون﴾ في بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ فإن أعمالهم من لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثواباً، وليس لها غاية تنتهي إليه، فلذلك اضمحلت وبطلت ﴿واخذ قوم موسى من بعدهم حليهم جلاباً﴾ صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فضار ﴿له خوار﴾ وصوت، فغلبوه واتخذوه إلهاً.

وقال ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات، بعجل من أنقص المخلوقات!!!

ولهذا قال مبيناً أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية، ما يوجب أن يكون إلهاً ﴿لم يروا أنه

وخصصك بفضائل عظيمة، ومناقب جليلة، ﴿برسالاتي﴾ التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق.

﴿وبكلامي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فخذ ما أتيتك﴾ من النعم، وخذ ما أتيتك من الأمر والنهي بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، ﴿وكن من الشاكرين﴾ الله على ما خصك وفضلك.

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ يحتاج إليه العباد ﴿موعظة﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر، ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق والآداب ﴿فخذها بقوة﴾ أي: بجهد واجتهاد على إقامتها، ﴿وأمر قومك يأخذوها بأحسنها﴾ وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها أحسنها، وفي هذا دليل على أن أوامر الله - في كل شريعة كاملة - عادلة حسنة.

﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ بعدما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون، وأما غيرهم، فقال عنهم: ﴿سأصرف عن آياتي﴾ أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية، والفهم لآيات الكتاب ﴿الذين يتكبرون

لا يكلمهم﴾ أي: وعدم الكلام ناقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ أي: لا يدلهم طريقاً دينياً، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه، ولهذا قال: ﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

﴿ولما﴾ رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم ندموا و ﴿سقط في أيديهم﴾ أي: من الهم والندم على فعلهم، ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ فتنصلوا، إلى الله وتضرعوا و ﴿قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا﴾ فيدلنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال، ﴿ويغفر لنا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ أي: ممتلئاً غضباً وغيظاً عليهم، لتمام غيرته عليه الصلاة والسلام، وكمال نصحه وشفقته، ﴿قال بشما خلفتموني من بعدي﴾ أي: بشن الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم، فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي.

﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب. فبادرتم - برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة القبيحة ﴿والقى الألواح﴾ أي: رماها من الغضب ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ هارون وحيته ﴿يجره إليه﴾ وقال له: ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، أن لا تبغضهم﴾ أفعصيت أمري لك بقولي: ﴿أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ فـ ﴿قال يا ابن أم لا



والسلام، يتضرع إلى الله ويستبذل ويقول: «رب لو شئت أهلكتهم من قبل» أن يحضروا ويكونوا في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين «أهلكنا بما فعل السفهاء منا» أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله واعتذر بأن المتجربين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال: «إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين» أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضل، فكان موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتم على ما وهبته من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضعف عقله، وسفه رأيه، وصرفته الفتنة، فهو الذي فعل ما فعل، لذيتك السببين، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا.

﴿١٥٦﴾ فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم

وكبارهم، وصغائرهم «ثم تابوا من بعدها» بأن ندموا على ما مضى وألقوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا «وآمنوا» بالله وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان «إن ربك من بعدها» أي: بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات، «لغفور» يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض «رحيم» بقبول التوبة، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ أي: سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، ف «أخذ الألواح» التي القاها، وهي ألواح عظيمة المقدار، جليلة «وفي نسختها» أي: مشتملة ومتضمنة «هدى ورحمة» أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال، والأخلاق، والأداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين [هم] ^(١) «لربهم يرهون» أي: يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا اعتواً ونفوراً، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿و﴾ لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم «اختار موسى» منهم «سبعين رجلاً» من خيارهم، ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاناً يحضرون فيه، فلما حضروا، قالوا: يا موسى، «أرنا الله جهرة» فتجروا على الله جراءة كبيرة، وأسأوا الأدب معه، ف «أخذتهم الرجفة» فصعقوا وهلكوا.

فلم يزل موسى عليه الصلاة

تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي» و «قال» هنا «ابن أم» هذا تريق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه: «إن القوم استضعفوني» أي: احتقروني حين قلت لهم: «يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، فاتبعوني وأطيعوا أمري» «وكادوا يقتلونني» أي: فلا تظن بي تقصيراً «فلا تشمت بي الأعداء» بنهرك لي، ومسك إياي بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجردوا علي عشرة، أو يطلعوا لي على زلة «ولا تحسبني مع القوم الظالمين» فتعاملني معاملة لهم.

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما ظنه فيه من التقصير، و «قال رب اغفر لي ولأخي» هارون «وأدخلنا في رحمتك» أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، فإنها حصن حصين من جميع الشرور، وثم كل خير وسرور.

﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا، قال الله تعالى مبيناً حال أهل العجل الذين عبدوه: «إن الذين اتخذوا العجل» أي: إلهاً «سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا» كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره.

﴿وكذلك نجزي المقترين﴾ فكل مفتر على الله كاذب على شريعته، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك، فقتل بعضهم بعضاً، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى ^(٢)، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكماً عاماً يدخلون فيه هم وغيرهم، فقال: «والذين عملوا السيئات» من شرك

(١) في النسختين: قتل كثير.

(٢) زيادة من هامش ب.



ذنوبهم، وقال موسى في تمام دعائه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح.

﴿وفي الآخرة﴾ حسنة وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب. ﴿إننا هدنا إليك﴾ أي: رجعنا مقرين بتقصيرنا، مبينين في جميع أمورنا. ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿عذابي أصيب به من أشاء﴾ ممن كان شقياً، متعرضاً لأسبابه، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ المعاصي، صغارها وكبارها.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ الواجبة مستحقها والذين هم بآياتنا يؤمنون ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

﴿١٥٧﴾ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴿احترار عن سائر الأنبياء﴾ فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ

والسياق في أحوال بني إسرائيل

وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين، هم أهل الرحمة المطلقة، التي كتبها الله لهم، وصفه بالأمي لأنه من العرب الأمة الأمية، التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ باسمه وصفته، التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه وينهى عنه. وأنه ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه.

﴿وينهاهم عن المنكر﴾ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه وأمر به، ونهى عنه، وأحلّه وحرمه، فإنه ﴿يجل لهم الطيبات﴾ من المطاعم والمشارب، والمناكح.

﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ من المطاعم والمشارب والمناكح، والأفعال.

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقال.

﴿فالذين آمنوا به وعزروه﴾ أي: عظموه وبجلوه ﴿ونصروه واتباعوا التور﴾ الذي أنزل معه ﴿وهو القرآن﴾ الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات، ﴿أولئك هم الفلاحون﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة،

والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح.

وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعززه وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون.

ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توههم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم فقال: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ أي: عربيكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جملتها: أن أرسل إليكم رسولا عظيماً يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يبعدكم منه، ومن دار كرامته.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله، ﴿يحيي ويميت﴾ أي: من جملة تدابير: الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحد، الذي جعل الموت جسراً ومعبراً يعبر منه إلى دار البقاء، التي من آمن بها صدق الرسول محمداً ﷺ قطعاً.

﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ إيماناً في القلب، متضمناً لأعمال القلوب والجوارح ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتكم ضلالاً بعيداً.

﴿١٥٩﴾ ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ أي: جماعة ﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحكم بينهم، بقضايهم، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ وفي هذا فضيلة لامة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى

بعدهم خلف. زاد شرهم ﴿ورثوا﴾ بعدهم ﴿الكتاب﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة.

﴿ياأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون﴾ مقربين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سيفغر لنا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة.

فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال الله [تعالى] في الإنكار عليهم، وبيان جرائعهم: ﴿ألم يؤخذوا عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم. ﴿وإن حال أنهم قد درسوا ما فيه﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنوب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيهم، بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ ما حرم الله عليهم، من المأكول التي تصاب، وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إثارة، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيماً عظيماً باقياً فأنى له العقل والرأي!!

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿والذين يمسكون

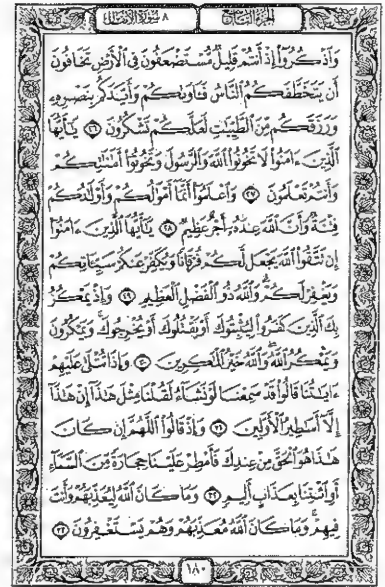
بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاشتروا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ فابعدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

﴿١٦٦﴾ فلما عتوا عما نهوا عنه: أي: قسوا فلم يلبسوا ولا اتعظوا، ﴿فلنا لهم﴾ قولاً قديراً: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ فانتقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وإذا تأذن ربك﴾ أي: أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿ليعثن عليهم إلى يوم القيامة﴾ يسومهم سوء العذاب: أي: يبيتهم ويذلهم.

﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن عصاه، حتى إنه يجعل له العقوبة في الدنيا. ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب إليه وأتاب، يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويثيبه عليها بأنواع الثواب، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

﴿١٦٨﴾ وقطعناهم في الأرض أمماً: أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿منهم الصالحون﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم، ﴿وبلوناهم﴾ على عادتنا وسنتنا، ﴿بالخسرات والسبيات﴾ أي: بالعسر واليسر.

﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين ضالch وطالح ومقتصد، حتى خلف من



وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: تعظهم ونهاهم ﴿معدرة إلى ربكم﴾ أي: لنعذر فيهم. ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي: يتركون ما هم فيه من العصية، فلا تياس من هدايتهم، فربما نجح فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معدرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي. ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي: تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم.

﴿أنجيناً﴾ من العذاب ﴿الذين ينهون عن سوء﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بعذاب يبيس﴾ أي: شديد ﴿بما كانوا يفسقون﴾

وأما الفرقة الأخرى التي قالت لناهين: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك

بالكتاب ﴿أي: يتمسكون به علماء وعملاء، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم. ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.﴾

ومن أعظم ما يجب التمسك به من
الأمورات إقامة الصلاة، ظاهراً
وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر
لفضلها وشرفها، وكونها ميزان
الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها
من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلت على
أن الله بعث رسله عليهم الصلاة
والسلام بالصلاح لا بالفساد،
وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا
بصلاح الدارين، فكل من كان أصليح،
كان أقرب إلى اتباعهم.

﴿١٧١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ نُنْتَقِلُ
الْجِبِلَّ فَوْقَهُمْ﴾ حين امتنعوا من قبول ما
في التوراة.

فألزمهم الله العمل ونشق فوق رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم كآنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴿وقيل لهم: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي: بجد واجتهاد.

﴿واذكروا ما فيه﴾ دراسة ومباحثة،
واتصافاً بالعمل به ﴿لعلكم تتقون﴾ إذا
فعلتم ذلك.

﴿١٧٧﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي
آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا
أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا
غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ
قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ الْبَاطِلُونَ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ
وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ
أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أَي: أَخْرَجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ يَتَنَاسَلُونَ وَيَتَوَلَّدُونَ

قرناً بعد قرن .

﴿٥٠﴾ حين أخرجهم من بطون
أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿٥١﴾ أشهدهم
على أنفسهم ألاست بربكم ﴿٥٢﴾ أي:
قررهم بآيات ربوبيته، بما أودعه في
فطرهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم
ومليكهم.

قالوا: بلى قد أقررنا بذلك، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم.

فكل أحد فهو مقطور على ذلك،
ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرأ
عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا
﴿قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة
إنا كنا عن هذا غافلين﴾

أي: إنما امتحناكم حتى أقررتم بما
تقرز عندهم، من أن الله تعالى ربكم،
خشية أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقرؤا
بشيء من ذلك، وتزعمون أن
حجة الله ما قامت عليكم،
ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون
عنها لاهون.

فاليوم قد انقطعت حجّكم، وثبتت
الحجة البالغة لله عليكم، أو تحتجون
أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إنما
أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من
بعدهم﴾ فحذونا حذوهم، وتبعناهم
في باطلهم.

﴿أَفَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُظْلِمُونَ﴾ فقد
أردع الله في فطركم ما يدلکم على أن
ما مع آبائکم باطل، وأن الحق ما
جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما
وجدتم عليه آباءکم، ويعلو عليه.

نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه
الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو
الحق، وما ذاك إلا لإعراضه، عن
حجج الله وبيناته وآياته الأفقية
والنفسية، فأعرضه عن ذلك، وإقباله
على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة
يفضل بها الباطل على الحق، هذا هو
الصواب في تفسير هذه الآيات.

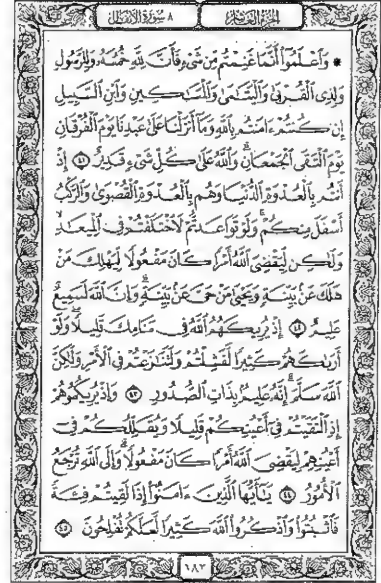
وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا

[illegible]

به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك.

فإن هذا العهد والميثاق، الذي
ذكرُوا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من
طهره، حين كانوا في عالم كالذر،
لا يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي،
فكيف يحتاج الله عليهم بأمر ليس
عندهم به خبير، ولا له عين
ولا أثر؟! ولهذا لما كان هذا أمراً
واضحاً جلياً، قال تعالى: ﴿وكذلك
نفصل الآيات﴾ أي: نبينها
ونوضحها، ﴿ولعلهم يرجعون﴾ إلى ما
أودع الله في فطرهم، وإلى ما
عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن
القبائح.

﴿١٧٤ - ١٧٨﴾ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتِمَّعْهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهْ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقَصَصَ لَهُمْ فَيُتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا لِقَوْمٍ أَلْزَيْنَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴿١٧٤﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ



آياتنا ﴿أي: علمناه علم كتاب الله، فصار العالم الكبير والخبر التحرير.﴾

﴿فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان﴾
أي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي
بألعم بآيات الله، فإن العلم بذلك،
يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق
ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى
الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا
كتاب الله وراء ظهره، ونبد الأخلاق
التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما
يخلع اللباس.

فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان،
أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن
الحصين، وصار إلى أسفل سافلين،
فأزاه إلى المعاصي أزراً. ﴿فكان من
الغاوين﴾ بعد أن كان من الراشدين
المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله
ووكله إلى نفسه، فلهمذا قال تعالى:
﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ بأن توفقه
للعمل بها، فارتفع في الدنيا والآخرة،
فيتحصن من أعدائه.

﴿ولكنه﴾ فعل ما يقتضي الخذلان،
فأخذل إلى الأرض، أي: إلى الشهوات
السفلية، والمقاصد الدنيوية، ﴿واتبع
هواه﴾ وترك طاعة مولاه، ﴿فمثلته﴾
في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه
إليها، ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه
يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي: لا يزال
لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال

حرصاً حرصاً قاطعاً قلبه، لا يسد
فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا
بآياتنا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم
ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها،
لهوانهم على الله، واتباعهم لأهوائهم،
بغير هدى من الله.

﴿ناقص القصص لعلهم
يتفكرون﴾ في ضرب الأمثال، وفي
العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا،
وإذا علموا عملوا.

﴿١٧٧﴾ ﴿ساء مثلاً القوم الذين
كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾
أي: ساء وقبح، مثل من كذب
بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع
المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا
الذي آتاه الله آياته، يحتمل أن المراد به
شخص معين، قد كان منه ما
ذكره الله، فقص الله قصته تنبيهاً
للعباد. ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم
جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله
آياته فانسلك منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في
العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله
لصاحبه، وعصمة من الشيطان،
والترهيب من عدم العمل به، وأنه
نزول إلى أسفل سافلين، وتسلط
للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى،
وإخلاق العبد إلى الشهوات، يكون سبباً
للخذلان.

﴿١٧٨﴾ ﴿ثم قال تعالى مبيناً أنه
المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿من
يهد الله﴾ بأن يوفقه للخيرات،
ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم
يكن يعلم ﴿فهو المهتدي﴾ حقاً لأنه أثر
هدايته تعالى، ﴿ومن يضل﴾ فيخذه
ولا يوفقه للخير ﴿فأولئك هم
الخاسرون﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم
القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿١٧٩﴾ ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً
من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون
بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم
أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل
هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ يقول
تعالى مبيناً كثرة الغاوين الضالين،

المتبعين إبليس اللعين: ﴿ولقد ذرأنا
أي: أنشأنا وبشئنا﴾ لجهنم كثيراً من
الجن والإنس صارت البهائم أحسن
حالة منهم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي:
لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد
قيام الحاجة.

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ ما
ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.
﴿ولهم أذان لا يسمعون بها﴾
سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم.

﴿أولئك﴾ الذين بهذه الأوصاف
القبیحة ﴿كالأنعام﴾ أي: البهائم،
التي فقدت العقول، وهؤلاء أثروا ما
يفنى على ما يبقى، فسلبوا خاصية
العقل.

﴿بل هم أضل﴾ من البهائم، فإن
الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها
أذهان تدرك بها، مضرتها من منفعتها،
فلذلك كانت أحسن حالاً منهم.
﴿أولئك هم الغافلون﴾ الذين غفلوا
عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان
بالله وطاعته وذكره.

خلقت لهم الأفئدة والأسماع
والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام
بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على
ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا من
ذرا الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم
لنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في
عبادة الله، وانصيح قلبه بالإيمان بالله
ومحبته، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل
الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿١٨٠﴾ ﴿ولله الأسماء الحسنى
فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في
أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾
هذا بيان لعظيم جلاله وسبغة أوصافه،
بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل
اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال
على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت
حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة،
بل كانت علماً محضاً لم تكن حسنى،
وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة
كمال، بل إما صفة نقص أو صفة

أعنها، ولا من العقل والرأي: إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.

أفبهذا يا أولي الألباب من جنة؟! أم هو الإمام العظيم والنصاح المبين، والمجد الكريم، والرووف الرحيم؟! ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّمَّنْ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم إذا نظروا إليها وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ماله من صفات الكمال.

﴿و﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على علم الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرد بالخلق والتدبير، الموجهة لأن يكون هو العبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب.

وقوله: ﴿وَأَنْ حَسْبَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

﴿فَبَأَى: حديث بعده يؤمنون﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأى: حديث يؤمنون به؟! أكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟

ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: متحيرين^(١) يترددون، لا يخرجون منه ولا يهتدون إلى حق.

﴿١٨٧﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يحلها لوقتها إلا هو ثقلت في

﴿وبه يعدلون﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقاتلات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجا، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسيحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أُولَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّمَّنْ أُولَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبَأَى: حديث بعده يؤمنون﴾ من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن يدر لهم الأرزاق. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً، وشرّاً إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوي بليغ.

﴿١٨٤﴾ ﴿أُولَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾ أي: أُولَمْ يَعْمَلُوا أَفْكَارَهُمْ، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودله وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا

منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و«الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

و«القدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوا بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عقوبة وعذاباً على الحادهم في أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أَنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

﴿١٨١﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها، مكاملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعلمون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿١٨٩﴾ ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾ فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون ﴿أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴿وان تدعوهن إلى الهدى لا يتبعوهن سواء عليكم أدعوتنهم أم أنتم صامتون﴾ أي: ﴿هو الذي خلقكم﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم. ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ.

﴿وجعل منها زوجها﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبة بزمام الشهوة.

﴿فلما تغشاها﴾ أي: تجللتها مجامعاً لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، [وحينئذ^(١)] حملت حملاً خفيفاً، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يتقلها.

﴿فلما﴾ استمرت به و ﴿أثقلت﴾ به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حياً صحيحاً، سالماً لا آفة فيه^(٢) [كذلك]، فدعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ولداً صالحاً أي: صالح

ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكره، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تقضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أي لا علم لي بالغيب.

﴿إن أنا إلا نذير﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المقضية إلى ذلك، وأحذر منها.

﴿وبشير﴾ بالشوَاب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما يتنفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات، مبنية جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضرر عن من يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا

السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴿يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: يسألونك﴾ عن الساعة الكاذبون لك، المتعنتون ﴿عن الساعة﴾ أيان مرساها﴾ أي: متى وقتها الذي تحي به، ومتى تحل بالخلق؟

﴿قل إنما علمها عند ربِّي﴾ أي: إنه تعالى مختص بعلمها، ﴿لا يجلها لوقتها﴾ إلا هو﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿أثقلت في السموات والأرض﴾ أي: خفي علمها على أهل السموات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيؤوا لقيامها.

﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، قَلِمَ لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستجفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه.

﴿قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم،

(١) زيادة من هامش ب، وفي أ: فحملت.

الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون * وإخوانهم يمدونهم في النفي ثم لا يقصرون *

أي: أي وقت، وفي أي: حال ﴿ينزعنك من الشيطان نزغ﴾ أي: تحس منه بوسوسة وتثييط عن الخير، أو حث على الشر وإيعاز إليه. ﴿فاستعذ بالله﴾ أي: التجئ واعتصم بالله، واحتم بحماه فإنه ﴿سميع﴾ لما تقول. ﴿عليهم﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجانك له، فسيحملك من فتنته، وقيامك من وسوسته، كما قال تعالى ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، فإذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي: باب أي، ومن أي: مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رآتهم سلسي القيادة لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿٢٠٣﴾ وإذا لم تأبهم بآية قالوا لولا اجتبتهم قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون * أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد،

لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿١٩٩﴾ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین * هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم.

﴿وأمر بالعرف﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو بر والدین، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي: مصيب، أو معاون على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل، بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى: ﴿٢٠٠﴾ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن



لا يسمعوا ويراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون * وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات من الادميين أو غيرهم، وجعلوا لها أعضاراً وأعضاء، فإذا رايتها قلت: هذه حية، فإذا تأملت ما عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي: رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ ولأي: مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسماوات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدرُوا على كيدهم بمثل قلة ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتوى بجلاله وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذابين



ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد، فإذا جئتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقكم لم يتقادوا.

﴿وإذا لم تأتكم بآية﴾ من آيات الاقتراح التي يعينونها ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أثبت المنزل للآيات، المدير لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترعتها من نفسك.

﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ فأنما عبد متبع مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده وطلبته حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآتات، فهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم ﴿بصائر من ربكم﴾ يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلا فمن آمن، فهو ﴿هدى﴾ له من الضلال و﴿ورحمة﴾ له من الشقاء، فالؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دينه وأخراه.

وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة.

﴿٢٠٤﴾ ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

﴿٢٠٥ - ٢٠٦﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴿الذكر﴾ الله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً، وغيره تبعاً بذكر ربه، في نفسه، أي: خلاصاً خالياً.

﴿تضرعاً﴾ أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وخيفة﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، وجل القلب منه، خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به.

﴿ودون الجهر من القول﴾ أي: كن متوسطاً، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً. ﴿بالغدو﴾ أول النهار ﴿والآصال﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

﴿ولا تكن من الغافلين﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة

والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصاً طرقي النهار، غلصاً خاشعاً متضرعاً، متذلاً، ساكناً، وتواطئاً عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

ثم ذكر تعالى أن له عباداً مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر لعبادته من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسهم، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: ﴿إن الذين عند ربك﴾ من الملائكة المقربين، وحمة العرش والكروبيين ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ بل يذعنون لها ويتقادون لأوامر ربهم ﴿ويسبحونه﴾ الليل والنهار لا يفرون.

﴿وله﴾ وحده لا شريك له ﴿يسجدون﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا [على] عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف
والله الحمد والشكر والثناء
وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيماهم، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿أولئك﴾ الذي اتصفوا بتلك الصفات هم المؤمنون حقاً لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده.

وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بصددها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه، وإن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم ﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا من كرامة الله الثابتة.

﴿٨﴾ ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام

أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير، بالتوادد والتحاب والتواصل. فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم، والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابير، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن.

ومن نقصت طاعته الله ورسوله، فذلك لنقص إيمانه، ولما كان الإيمان قسمين: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إنما المؤمنون﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ ووجه ذلك أنهم يلقيون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ من



تفسير سورة الأنفال وهي مدنية

﴿١-٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴿الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون﴾ أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴿الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟

﴿قل﴾ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله: ﴿فاتقوا الله﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي:

بها استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله. فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في «بدر» بالحق الذي يحبه الله تعالى، وقد قدره وقضاه.

وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال.

فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق، وما أمر الله به ورضيه، فيهذه الحال ليس للجدال محل [فيها] ^(١)، لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وضع وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان.

هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقضى لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها.

وكان أصل خروجهم يتعرضون لغير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام، نذب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاث مئة، وبضعة عشر رجلاً، معهم سبعون بعيراً، يعقبون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم قريش، فخرجوا لمنع عيرهم، في عدد كثير وعدة وافرة من السلاح والخيول والرجال، يبلغ عددهم قريباً من الألف.

فوعدهم الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالغير، أو

بالنفير، فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات شوك، ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمراً أعلى مما أحبوا.

أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم، **﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾** فينصر أهله **﴿ويقطع دابر الكافرين﴾** أي: يستأصل أهل الباطل، ويبري عباده من نصره للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم.

﴿ليحق الحق﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، **﴿ويبطل الباطل﴾** بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه **﴿ولو كره المجرمون﴾** فلا يبالى الله بهم.

﴿٩ - ١٤﴾ **﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مذكركم بآل ف من الملائكة مردفين﴾** وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم **﴿إذ يثيبكم التماس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾** **﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾** ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب **﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾** أي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبت منه أن يعينكم وينصركم **﴿فاستجاب لكم﴾** وأغاثكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدكم **﴿بآل ف من الملائكة مردفين﴾** أي: يردف بعضهم بعضاً، **﴿وما جعله الله﴾** أي: إنزال الملائكة **﴿إلا بشري﴾** أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، **﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾** وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عُدَد.

﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا. **﴿حكيم﴾** حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها.

ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاساً **﴿يعشيبكم﴾** [أي] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون **﴿أمنة﴾** لكم وعلامة على النصر والطمأنينة.

ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من الحدث والخبث، ويطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه.

﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي: يثبتها فإن ثبات القلب، أصل ثبات البدن، **﴿ويثبت به الأقدام﴾** فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام.

ومن ذلك: أن الله أوحى إلى الملائكة **﴿أني معكم﴾** بالعون والنصر والتأييد، **﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾** أي: ألقوا في قلوبهم، وألهمهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله.

﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ الذي هو أعظم جند لكنم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم الله أكتافهم.

﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي: على الرقاب **﴿واضربوا منهم كل بنان﴾** أي: مفصل.

وهذا خطاب، إنما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمهم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله أي: جاربوها وبارزوها بالعداوة. **﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾** ومن عقابه

تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب المذكور
﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها المشاققون لله ورسوله
عذاباً معجلاً، ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ
النَّارِ﴾.

وفي هذه القصة من آيات الله
العظيمة ما يدل على أن ما جاء به
محمد ﷺ رسول الله حقاً.

منها: أن الله وعدهم وعداً،
فأنجزهموه.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ
لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ
رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ الآية.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما
استغاثوه بما ذكره من الأسباب، وفيها
الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين،
وتقويض الأسباب التي بها ثبت
إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم
المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن
يسهل عليه طاعته، ويسرها بأسباب
داخلية وخارجية.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ﴾ ومن يولاهم يومئذ دبره إلا
متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء
بفضب من الله ومأواه جهنم وبئس
المصير ﴿يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ
بِالشَّجَاعَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، والقوة في أمره،
والسعي في جلب الأسباب المقوية
للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار
إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
زَحَفًا﴾ أي: في صف القتال،
وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم
من بعض، ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ بل
اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم،
فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة
لقلوب المؤمنين، وإرهاباً للكافرين.

﴿وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا
لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ أي:
رجع ﴿بِفَضْبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي:
مقره ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.
وهذا يدل على أن الفرار من الزحف

من غير عذر من أكبر الكبائر، كما
وردت بذلك الأحاديث الصحيحة
وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد
الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال،
وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى،
ليكون أمكن له في القتال، وأنكى
لعدوه، فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم
يول دبره فاراً، وإنما ولي دبره ليستعلي
على عدوه، أو يأتيه من محل يضيق فيه
غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك
من مقاصد المحاربين، وأن التحيز إلى
فئة تمنعه وتعيته على قتال الكفار، فإن
ذلك جائز، فإن كانت الفئة في
العسكر، فالأمر في هذا واضح، وإن
كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام
المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم
إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر
آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من
آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز،
ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن
الانهزام أحد عاقبة، وأبقى عليهم.

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في
ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه
الحال - أن تكون من الأحوال المرخصة
فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور
الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة،
وسبقي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنْ
اللَّهُ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَى وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ذلكم وأن الله موهن
كيد الكافرين ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ
جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدَ وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فُتُكُمُ
شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
يقول تعالى - لما انهزم المشركون يوم
بدر، وقتلهم المسلمون - ﴿فَلَمْ
تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحولكم وقوتكم
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ حيث أعانكم على
ذلك بما تقدم ذكره.

﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
رَمَى﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال
دخل العريش وجعل يدعو الله،
ويناشده في نصرته، ثم خرج منه،

فأخذ حفنة من تراب، فرماها في
وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى
وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد
أصاب وجهه، وفمه وعينيه منها،
فحيثما انكسر جدهم، وفتر زندهم،
وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا.
يقول تعالى لنبيه: ﴿لَسْتَ بِقُوْتِكَ -
حِينَ رَمَيْتُ التَّرَابَ - أَوْصَلْتَهُ إِلَى
أَعْيُنِهِمْ، وَإِنَّمَا أَوْصَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ بِقُوْتِنَا
وَاقْتِدَارِنَا، وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ
حَسَنًا﴾ أي: إن الله تعالى قادر على
انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون
مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن
يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهد إلى
أعلى الدرجات، وأرفع المقامات،
ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع تعالى
ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في
قلبه من النيات الصالحة وضدها،
فيقدر على العباد أقداراً موافقة لعلمه
وحكمته ومصلحة عباده، ويميزي كلا
بحسب نيته وعمله.

﴿١٨﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾ النصر من الله
لكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾
أي: مضعف كل مكر وكيد يكيدون به
الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقاً
بهم.

﴿١٩﴾ ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيها
المشركون، أي: تطلبوا من الله أن
يوقع بأسه وعذابه على المعتدين
الظالمين.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ حين
أوقع الله بكم من عقابه، ما كان نكالا
لكم وعبرة للمعتدين ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن
الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ لأنه ربما
أمهلتهم، ولم يجعل لكم النعمة. ﴿وَإِنْ
تَعُدُّوا﴾ إلى الاستفتاح وقاتل
حزب الله المؤمنين ﴿نَعْدُ﴾ في نصرهم
عليكم.

﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فُتُكُمُ﴾ أي:
أعوانكم وأنصاركم، الذين تحاربون
وتقاتلون، معتمدين عليهم، شيئاً
وأن الله مع المؤمنين.

ومن كان الله معه فهو المنتصور وإن
كان ضعيفاً قليلاً عدده، وهذه المعية

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وأثر رضاه على هوى نفسه. ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

﴿٣٠﴾ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر أيها الرسول، ما من الله به (٢) عليك. ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يشتبهوه عندهم بالحبس ويوثقوه.

﴿وَمَا أَنْ يَقْتُلُوهُ فَيَسْتَرْحِمُوا - بِزَعْمِهِمْ - مِنْ شَرِّهِ﴾

﴿وَمَا أَنْ يُخْرِجُوهُ وَيُجْلِبُوهُ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾

فكل أبدي من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي: رآه شريهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل فيرضى بنو هاشم [أثم] بديته، فلا يقدرون على مقاومة سائر قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليقوموا به إذا قام من فراشه.

فجاء الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذّر على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، قد خرج محمد وذّر على رؤوسكم التراب.

فنفذ كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج

الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الويل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتصف نفسه بأخص الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة مفوتاً لها أكمل الصفات وأعنها، وهي الأمانة.

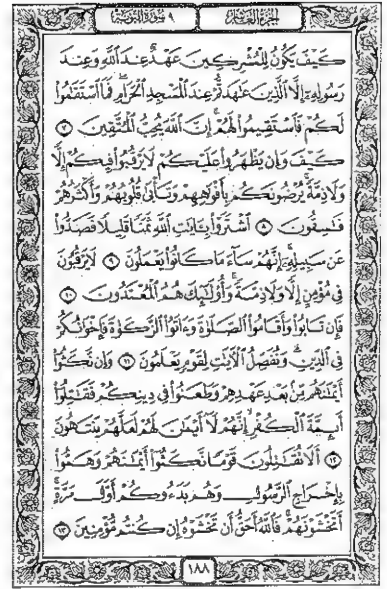
ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حمله حبه (١) ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطهاها، وترد لمن استودعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

فإن كان لكم عقل ورأي، فأتروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

﴿٢٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أمثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع. يفسر تكفير السيئات بالذنوب البصائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.



يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴿يقول تعالى ممتناً على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة﴾

﴿وَإِذْ كَرِهَ اللَّهُ لِيُنْزِلَ فِي الْأَرْضِ الْفِتْنَةَ﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فَأَوَّكِمْنَا وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنُوا وَاللهُ وَالرَّسُولُ وَتَحْزَنُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما اتهمهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

(١) في ب: محبته.

(٢) في السخين: ما بين الله بك عليك.

(٣) في ب: جميع.

مستخفياً منهم، خائفاً على نفسه. فسبحان اللطيف بعبد الذي لا يغالبه مغالب.

﴿٣١-٣٤﴾ وقوله: «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين» * وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون* يقول تعالى في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ: «وإذا تتلى عليهم آياتنا الدالة على صدق ما جاء به الرسول.

﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدرُوا على ذلك، وتبين عجزهم. فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

﴿وإذا قالوا اللهم إن كان هذا الذي يدعوا إليه محمد ﷺ هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بلذاب أليم﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب.

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتشويبات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه، قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم.

فمذ قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقى منهم باقية، ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فوجوده ﷺ بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله [تعالى فلهاذا] قال تعالى: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾.

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعدما انعقدت أسبابه، ثم قال: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي: أي شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدمهم النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿وما كانوا﴾ أي: المشركون ﴿أولياءه﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي: أولياء الله. ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم. وإن أولياؤه إلا المتقون وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين، ولكن أكثرهم لا يعلمون، فلذلك ادعوا لأنفسهم أمراً غيرهم أولى به.

﴿٣٥﴾ ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذي يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إلا مكاء وتصدية﴾ أي: صفيراً وتصفيقاً، فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام

قليلهم بعد هذا الله بأيديكم وتوعدكم بمنذر كبير
عليهم ولتنب صدور قوم مؤمنين ﴿٣٦﴾ ولتذهب خط
قلوبهم وتؤمن بالله عن يمين يساره والله عليم حكيم
﴿٣٧﴾ أرجو أن ترضوا أن ترضوا الله الذي لا يهدي
الضالين ولا يضل الذين آمنوا ولا المؤمنين ولا المؤمنين
ولتكن والله خير مما تمنون ﴿٣٨﴾ ما كنتم تعلمون
أن يبعثوا مسجداً لله من آمن بالله وأبوه الآخر والله
أولئك سخط أفعالهم في الآخرة حكيماً ﴿٣٩﴾
إنا نبعثهم مسجداً لله من آمن بالله وأبوه الآخر والله
الصلوة وآتى الركعة ولا يفتن إلا الله ففتن أولئك
أن تكونوا المؤمنين ﴿٤٠﴾ أخلصت بقاءكم الحرام وعادة
للسجدة الحرام كنتم آمن بالله وأبوه الآخر وتصدقون
الله ليس من عند الله ولا يهدي الضالين ﴿٤١﴾
الذين آمنوا وتصدقوا لله في سبيل الله وأبوه الآخر
أنظروا ديناً عند الله وأولئك هم الصالحين ﴿٤٢﴾

لأفضل البقاء وأشرها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟!!

فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة.

لا جرم أورثهم الله بيته الحرام، ومكنهم منه، وقال لهم بعدما مكن لهم فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وقال هنا: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسحقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعل في جهنم أولئك هم الخاسرون* يقول تعالى مينا لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ورسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحمي المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن



سبيل الله ﴿٤٠﴾ أي: ليبتلوا الحق وينصروا الباطل، ويبطل توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿فسيشقوئها﴾ أي: فسيصدرون هذه النفقة، وتخف عليهم لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون عليهم حسرة، أي: ندامة وخزياً وذلاً، ويغلبون فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي: يجمعون إليها، لينذروا عذابها، وذلك لأنها دار الخبيث والخبيثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحدة على حدة، وفي دار تخصصه، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص. ﴿فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ قل للذين كفروا إن يتنوها يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾ وإن تولوا فاعلموا أن الله

مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴿هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ عن كفرهم، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له.

﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ منهم من الجرائم ﴿وإن يعودوا﴾ إلى كفرهم وعنادهم ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فلينتظروا ما حل بالمعاندن، فسوف يأتيهم آتاء ما كانوا به يستهزئون، فهذا خطابه للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين، فقال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي: شرك وصد عن سبيل الله، ويذعنوا لأحكام الإسلام، ﴿ويكون الدين كله لله﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

﴿فإن انتهوا﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿وإن تولوا﴾ عن الطاعة وأضعوا في الإضاعة ﴿فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى﴾ الذي يتولى عبادة المؤمنين، ويوصل إليهم مضالحهم، وينسر^(١) لهم منافعهم الدينية والدنيوية، ﴿ونعم النصير﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

ومن كان الله مولاة وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عز له ولا قائمة له.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم كنتم أممتم بالله وما أنزلنا على عبدنا

يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ يقول تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً، ﴿فإن الله خمسه﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للرجل سهم، وللفراس سهمان لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ورسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ورسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثاني: لذی القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو^(٢): الغريب المنقطع به في غير بلده، أو بعض المفسرين يقول إن خمس الغنمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك

(٢) في ب: وهم.

(١) كذا في ب، وفي أ: وتيسر.



حسنتها في قلوبهم وخذلهم. ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ فإنكم في عذد وعُدَدٍ وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه.

﴿وإني جار لكم﴾ من أن يأتيكم أحد من تخشون غائلته، لأن إبليس قد تبدى لقريش في صورة سراقاة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين.

﴿فلما ترأت الفشتان﴾ المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفاً شديداً و ﴿نكص على عقبيه﴾ أي: ولى مدبراً، ﴿وقال﴾ لمن خدعهم وغرهم: ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿إني أخاف الله﴾ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿والله شديد العقاب﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان، قد سؤل لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار لهم، فلما أوردتهم نزادهم، نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما قال تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين.

﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة، سن ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم.

﴿غَرَّ هؤلاء دينهم﴾ أي: أوزدهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم لعقولهم، وهم - والله - الأخفَاء عقولاً، الضعفاء أحلاماً.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان وإثقا بربه، مطمئن القلب لا فرعاً ولا جباناً، ولهذا قال: ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز﴾ لا يغالب قوته قوة، ﴿حكيم﴾ فيما قضاه وأجراه.

﴿٥٠-٥٢﴾ ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضرِبون وجوههم وأديارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إني الله قوي شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم، و﴾ الملائكة يضرِبون وجوههم وأديارهم، ويقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي: العذاب الشديد المحرق، ذلك العذاب حصل لكم، غير ظنم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، فإن دأب هؤلاء المكذبين أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم.

﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ من الأمم المكذبة ﴿كفروا بآيات الله فأخذهم الله﴾ بالعقاب ﴿بذنوبهم﴾، إن الله قوي شديد العقاب لا يعجزه أحد يريد أخذه

﴿ولا تنازعوا﴾ تنازعاً يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿نفقسلوا﴾ أي: تجنبوا ﴿وتذهب ويحكم﴾ أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله.

﴿واصبروا﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بالعون والنصر والتأييد، واخضعوا لربكم واخضعوا له.

﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم لقصص الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم.

والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه، ﴿والله بما يعملون محيط﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصول لجنات النعيم.

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾

﴿ما من دابة إلا هو آخذ ناصيتها﴾.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿ذلك﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم الكاذبين^(١)، وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقئها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكراً، ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الطاعة إلى العصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفرًا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

والله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى^(٢) عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

﴿وأن الله سميع عليم﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

﴿كذاب آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ حين جاءتهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ كل بحسب جرمه.

﴿وأغرقنا آل فرعون وكل﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كانوا ظالمين﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه، فليحذر المخاطبيون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴿فإما تشققتهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لمعلمهم يذكرون﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم شر الدواب عند الله فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذا هاب هؤلاء ومحققهم هو المتعين، لثلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال:

﴿فإما تشققتهم في الحرب﴾ أي: تجدهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق. ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون [به]^(٣) عبرة لمن بعدهم ﴿لعلهم﴾ أي: من خلفهم ﴿يذكرون﴾ صنيعهم، لثلا يصيبهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجر لمن عملها أن لا يعاودها. ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أعطي عهداً لا يجوز خيانه وعقوبته.

﴿٥٨﴾ ﴿وإنما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فأنبذ إليهم﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك

وبينهم ﴿على سواء﴾ أي: حتى يستري علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك.

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ بل يبغضهم أشد البغض، فلا بد من أمر بين يركم من الخيانة.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة^(٤) منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿على سواء﴾ وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرهم.

ودل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

﴿٥٩﴾ ﴿ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون﴾ أي: لا يحسب الكافرون برهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه، فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إهمالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيا، فلهاذا قال لعباده المؤمنين:

﴿٦٠﴾ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي: ﴿وأعدوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتم من قوة﴾ أي: كل ما تقدرُونَ عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة

(١) في ب: المكذبة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: على.

(٣) زيادة يقتضيه السياق ليست في النسخين.

(٤) في ب: المنقحة.

سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة المؤمنين بأن قيصهم لنصرك.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واثتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا يسعى أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفقة والفرقة الشديدة ﴿مَا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى.

﴿لَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ﴿وَمَنْ أَتَّبِعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴿يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط همهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل

فاجتنب لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴿وَأَنْ يَرِيدُوا أَنْ يُخْدَعُوا فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَنْ جُنُوحُوا﴾ أي: الكفار المحاربون، أي: مآلوا ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: الصلح وترك القتال.

﴿فَاجْتَنِبْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم. ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَأَنْ يَرِيدُوا أَنْ يُخْدَعُوا فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فلـ ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أعانك بمعونة

ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلل والخينادق، وآلات الدفاع، والرأي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويتدفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير.

ولهذا قال النبي ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرُّمِّيَّ﴾ ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ رِبَاطُ الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجوداً أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن «لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».

وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَأَخْرَجِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ أَجْرُهُ﴾ يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ ﴿وَأَنْ جُنُوحُوا لِلْإِسْلَامِ﴾

الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالؤمنين أولى من غيرها **﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾**.

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أَيْ: لَا عِلْمَ عَنْدهُمْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، فَهُمْ يِقَاتِلُونَ لِأَجْلِ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادِ فِيهَا، وَأَنْتُمْ تَفْقَهُونَ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِتَالِ، أَنَّهُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ، وَالذَّبِّ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَحُصُولِ الْفَوْزِ الْأَكْبَرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا دَوَاعٍ لِلشَّجَاعَةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى الْقِتَالِ.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على
العباد، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم
وعلم أن فيكم ضعفاً﴾، فلذلك اقتضت
رحمته وحكمته التخفيف، ﴿فإن يكن
منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن
منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله
مع الصابرين﴾ يعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار العن ين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر
وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر -
أن الواحد لا يجوز له أن يفر من
العشرة، والعشرة من المئة، والمئة من
الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثلهم من الكفار، فإن زادوا على مثلهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر،
والأصل في الخبر أن يكون على بابه،
وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار
بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم [إذا غلب على ظنهم الضرر]^(١)، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ إلى آخرها؛ دليل على أن هذا أمر^(٢) لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر،
نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ
الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين،
والبشارة بأنهم سيعلمون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك [إذاذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مباشرة يحصل ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل] ^(٢٦).

﴿٦٧-٦٩﴾ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ
يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ
تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ
سَبَقَ لَمَسْكُم فِيمَا أَخَذْتُم عَذَابَ
عَظِيمٍ﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه
مُعَابَةِ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ
«بَدْرٍ» إِذْ أَسْرَوْا الْمُشْرِكِينَ وَأَبْقَوْهُمْ
لِأَجْلِ الْفِدَاءِ، وَكَانَ رَأْيُ: أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، قَتْلَهُمْ
اِسْتِصْلَاهُمْ.

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي:

(٢) في ب: الأمر.

(١) زيادة من هامش ب.

(٣) زيادة من هامش ب

إِنَّكَ الْغَيُّومُ وَبَدَأَ فِي الْكَفْرِ فَضِلْ بِهِ الْبَلَدَ
 كَثِيرًا يُولِجُونَ صَالًا وَخَارًا ذُرِّيَّةً بَاطِلًا يَوْمَ
 الْحِسَابِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ اللَّهُ غَنِيُّ غَنِيٌّ
 اللَّهُ لَا يَدْعَى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ قِيلَ لَكُمْ تَدُورُوا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ فَأَقْبِرُوا إِلَى الْأَرْضِ أَنْصِبْهُ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ
 مِنَ الْآخِرَةِ وَمَا مَنَعَ الْعِلْمَ أَنَّ يَأْتِيَ فِي الْآخِرَةِ
 الْأَقْدِلَ ﴿٦﴾ لَا تَدُورُوا فِي كُفْرٍ مَذَابٍ إِلَّا لِمَا
 وَتَنَادَى قَوْمًا يَكْفُرُ وَالْأَنصُرُوهُمْ ذُرِّيَّةً وَاللَّهُ مَنَّ
 عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٧﴾ لَا تَتَذَكَّرُ فَتَنَ فَتَنَ وَتَنَادَى فِي
 الْآخِرَةِ الْبَلَدَ كَثِيرًا وَنَادَى الْمُحْسِنِينَ فِي هَذَا الْقَرْيَةِ
 أَنْ يَبْقُوا لِمَا يَكْفُرُونَ لَتَنَزَّلَ إِلَهُكُم مِّنَ السَّمَاءِ
 اللَّهُ سَكِينٌ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ يُجِيرُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 وَتَنَادَى فِي الْبَلَدِ كَثِيرًا وَتَنَادَى
 وَتَنَادَى الْمَوَدَّعَاتِ وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِ ﴿٨﴾

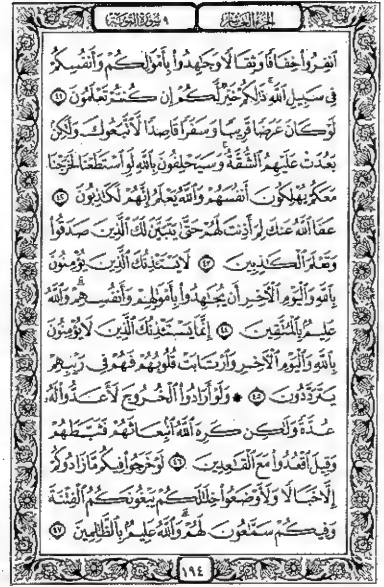
ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعوا لإخاد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإيقاعهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصوله، فالأوفق أن لا يؤسروا.

فإذا أنخنوا، وبطل شهرهم،
واضمحل أمرهم، فحيث لا بأس
بأخذ الأسرى منهم وإيقانهم
يقول تعالى: ﴿تريدون﴾ بأخذكم
النفاء وإيقانهم ﴿عرض الحياة الدنيا﴾
أى: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

﴿وَاللّٰهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بإعزاز دينه ،
ونصر أوليائه ، وجعل كلمتهم عالية
فوق غيرهم ، فيأمرهم بما يوصل إلى
ذلك .

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: كامل العزة، لو شاء أن يتصر من الكفار من دون قتال لفعّل، لكنه حكيم، يبتي بعضكم بعض.

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ به
القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم
الغنائم، وأن الله رفع عنكم - أيها
الأمّة - العذاب ﴿لأنكم فيما أخذتم
عذاب عظيم﴾ وفي الحديث: ﴿لو نزل



عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر.

﴿فكفوا عما غنمتم حلالاً طيباً﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يجعلها لأمة قبلها.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكر الله نعم الله عليكم، ﴿إن الله غفور﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً جميع المعاصي.

﴿رحيم﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم﴾ وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء، ادّعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لحاطره ومن كان على مثل حاله.

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي: من

المال، بأن يسير لكم من فضله، خيراً وأكثر^(١) مما أخذ منكم.

﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم، ويدخلكم الجنة وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أنه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿٧٢﴾ ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ هذا عقد مولاة وعبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوه في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم وتعام اتصال بعضهم ببعض.

﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما

لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء لكنهم ﴿إن استنصروكم في الدين﴾ أي: لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿فعليكم النصر﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم.

وقوله تعالى: ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون التمييز الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق.

﴿والله بما تعملون بصير﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

﴿٧٣﴾ ﴿والذين كفروا بغضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض فساد كبير﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء لبعض^(٣)، فلا يواليتهم إلا كافر مثلهم.

وقوله: ﴿إلا تفعلوه﴾ أي: مولاة المؤمنين ومعاودة الكافرين، بأن واليتهم كلهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتهم الكافرين وعاديتم المؤمنين.

﴿تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿٧٤ - ٧٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل

(٣) في ب: بعض.

(٢) في ب: وقد تكفل.

(١) في ب: كثيراً.

فهيما كان استمرارهم على كفرهم جهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمه أسوته في الأحكام، أن يميروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو التكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، ويطان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

﴿٧﴾ ﴿كيف يكون للمشركون عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركون، فقال: ﴿كيف يكون للمشركون عهد عند الله وعند رسوله؟﴾ هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟

أما سبوا في الأرض فساداً؟ فيحق لهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله.

﴿إلا الذين عاهدتم﴾ من المشركون عند المسجد الحرام، فإن لهم في العهد وخصوصاً في هذا المكان الفضائل حرمة، أوجب أن يراعوا فيها.

﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين﴾ ولهذا قال:

﴿٨-١١﴾ ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شيئاً، لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسوله، المحاربة الذين يريدون أن يخلوا الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي: كل ثنية وموضع يمررون عليه، ورايطوا في جهادهم وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿فإن تابوا﴾ من شركهم ﴿واقاموا الصلاة﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿وآتوا الزكاة﴾ لمستحقها ﴿فخلوا سبيلهم﴾ أي: أتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم.

﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر الشرك فما دونه للثائين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤدبهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿٦﴾ ﴿وإن أحد من المشركون استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركون حيث وجدتموهم وخذوهم واحضروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أمراً عاماً في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقرب بعضهم جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿وإن أحد من المشركون استجارك﴾ أي: طلب منك أن تحجبه وتمنعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام.

﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ ثم إن أسلم فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون،



عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين. أي: هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركون. ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركون﴾ واستمروا على عهدهم، ولم يجر منهم ما يوجب النقض، فلا نقصوكم شيئاً، ولا عاونوا عليكم أحداً، فهؤلاء أتموا لهم^(١) عهدهم إلى مدتهم، قلت أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء.

﴿إن الله يحب المتقين﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

﴿٥﴾ ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركون حيث وجدتموهم وخذوهم واحضروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ يقول تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ أي: التي حرم فيها قتال المشركون المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿فاقتلوا المشركون حيث وجدتموهم﴾ في أي: مكان وزمان، وخذوهم أسرى واحضروهم أي: ضيقوا عليهم، فلا تدعهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها [الله] معبداً لعباده.

وَجُكْمًا وَجُكْمًا وَحِكْمَةً قَالَ:
﴿وَنَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أَي: نوضحها
ونميزها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فَإِلَيْهِمْ سِياقُ
الِكَلَامِ، وَبِهِمْ تَعْرِفُ الْآيَاتِ
وَالْأَحْكَامَ، وَبِهِمْ عَرَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ
وَشَرَائِعَ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ،
بِرَحْمَتِكَ وَجُودِكَ وَكَرَمِكَ [وَأَحْسَنَكَ يَا
رَبَّ الْعَالَمِينَ].

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿وَإِنْ نَكُثْنَا أَيْمَانَهُمْ
مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنَا فِي دِينِهِمْ
فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ * أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا
أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
يَدْعُوكُمْ أُولَٰ مَرَّةً أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ
تُخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ *
وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿يَقُولُ تَعَالَى
بَعْدَ مَا ذَكَرَ أَنَّ الْمَعَاهدِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ
اسْتَقَامُوا عَلَى عَهْدِهِمْ فَاستَقِيمُوا لَهُمْ
عَلَى الْوَفَاءِ﴾: ﴿وَإِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ
بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أَي: نَقْضُوا وَحَلُّوا،
فَقَاتِلُوهُمْ أَوْ أَعَانُوا عَلَى قِتَالِكُمْ، أَوْ
نَقْضُوكُمْ، ﴿وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ﴾ أَي:
عَابَوْهُ وَسَخَرُوا مِنْهُ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا جَمِيعُ أَنْوَاعِ الطُّعْنِ
الْمُوجَّهَةِ إِلَى الدِّينِ، أَوْ إِلَى الْقُرْآنِ،
﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أَي: الْقَادَةَ فِيهِ،
الرُّؤَسَاءَ الطَّاعَتِينَ فِي دِينِ الرَّحْمَنِ،
النَّاصِرِينَ لِلدِّينِ الشَّيْطَانِ، وَخَصَّهُمْ
بِالذِّكْرِ لِعَظَمِ جَنَائِهِمْ، وَلَأَنَّ غَيْرَهُمْ
تَبِعَ لَهُمْ، وَلِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ طَعَنَ فِي
الدِّينِ وَتَصَدَّى لِلردِّ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مِنْ أُمَّةِ
الْكُفْرِ.

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أَي:
لَا عَهْدَ وَلَا مَوَاطِيقَ يَلَازِمُونَ عَلَى
الْوَفَاءِ بِهَا، بَلْ لَا يَزَالُونَ خَائِنِينَ،

فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفْصِلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَي: ﴿كَيْفَ﴾ يَكُونُ
لِلْمُشْرِكِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ وَمِيثَاقٌ ﴿و﴾
الْحَالُ أَنَّهُمْ ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾
بِالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَةِ، لَا يَرْهَوْكُمْ،
و ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أَي:
لَا ذِمَّةَ وَلَا قَرَابَةَ، وَلَا يُخَافُونَ اللَّهَ
فِيكُمْ، بَلْ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ،
فَهَذِهِ حَالُكُمْ مَعَهُمْ لَوْ ظَهَرُوا.

وَلَا يَغْنَرُكُمْ مِنْهُمْ مَا يَعْمَلُونَكُمْ بِهِ
وَقْتَ الْخَوْفِ مِنْكُمْ، فَانْهَمُ ﴿بِرِضْوَانِكُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الْمِيلَ وَالْمَحَبَّةَ
لَكُمْ، بَلْ هُمْ الْأَعْدَاءُ حَقًّا، الْمُبْغِضُونَ
لَكُمْ صَدَقًا، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾
لَا دِيَانَةَ لَهُمْ وَلَا مَرُوءَةَ.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾
أَي: اخْتَارُوا الْحِظَّ الْعَاجِلَ الْخَسِيسَ فِي
الدُّنْيَا عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،
وَالْإِنْقِيَادِ لآيَاتِ اللَّهِ.

﴿فَصَدُّوا﴾ بِأَنْفُسِهِمْ، وَصَدُّوا
غَيْرَهُمْ ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا
ذِمَّةً أَي: لِأَجْلِ عِدَاوَتِهِمْ لِلْإِيمَانِ
وَأَهْلِهِ.

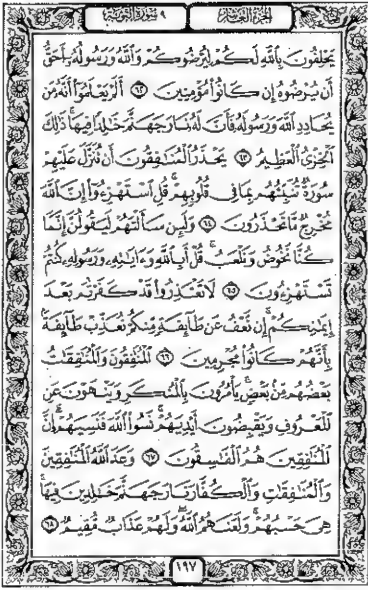
فَالْوَصْفُ الَّذِي جَعَلَهُمْ ^(١)
يَعَادُونَكُمْ لِأَجْلِهِ وَيُبْغِضُونَكُمْ، هُوَ
الْإِيمَانُ، فَذَبَرُوا عَنْ دِينِكُمْ، وَانْصَرَوْهُ
وَاتَّخَذُوا مِنْ عَادَاهُ لَكُمْ عِدَاوَةً وَمِنْ نَصْرِهِ
لَكُمْ وَلِيًّا، وَاجْعَلُوا الْحُكْمَ يَدُورُ مَعَهُ
وَجُودًا وَعَدَمًا، لَا تَجْعَلُوا الْوَلَايَةَ
وَالْعِدَاوَةَ طَبِيعَةً ^(٢) تَمِيلُونَ بِهَا، نَحِشًا
مَالَ الْهَوَى، وَتَتَبَعُونَ فِيهِمَا النِّفْسَ
الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ، وَلِهَذَا: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾
عَنْ شُرْكِهِمْ، وَرَجَعُوا إِلَى الْإِيمَانِ
﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ ﴿وَتَنَاسَوُا تِلْكَ الْعِدَاوَةَ إِذْ
كَانُوا مُشْرِكِينَ، لِتَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ
الْمُخْلِصِينَ، وَبِهَذَا يَكُونُ الْعَبْدُ عَبْدًا
حَقِيقَةً. لَمَّا بَيَّنَّ مِنْ أَحْكَامِهِ الْعَظِيمَةِ مَا
بَيَّنَّ، وَوَضَحَ مِنْهَا مَا وَضَحَ، أَحْكَامًا

(١) فِي النَّسَخَتَيْنِ: جَعَلُوهُمْ، وَلَعَلَّ الصُّوَابَ مَا أَثْبَتَ.

(٢) فِي ب: طَبِيعَةٌ.

(٣) فِي ب: أَعَانَتْ.

(٤) فِي ب: فَاللهُ.



نَاكثِينَ لِلْعَهْدِ، لَا يَوْثُقُ مِنْهُمْ.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ فِي قِتَالِكُمْ إِيَّاهُمْ
﴿يَنْتَهُونَ﴾ عَنْ الطُّعْنِ فِي دِينِكُمْ،
وَرَبَّمَا دَخَلُوا فِيهِ، ثُمَّ خُتَّ عَلَى قِتَالِهِمْ،
وَهِيَجَ الْمُؤْمِنِينَ بِذِكْرِ الْأَوْصَافِ الَّتِي
صَدَرَتْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ، وَالَّتِي هُمْ
مُوصُوفُونَ بِهَا، الْمُنْقَضَةُ لِقِتَالِهِمْ فَقَالَ:
﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا
بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الَّذِي يَجِبُ احْتِرَامُهُ
وَتَوْقِيرُهُ وَتَعْظِيمُهُ؟ وَهُمْ هُمَا أَنْ يَحْلُوهُ
وَيُخْرِجُوهُ مِنْ وَطْنِهِ وَسَعَا فِي ذَلِكَ مَا
أَمَكْنَهُمْ، ﴿وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أُولَٰ مَرَّةً﴾
حَيْثُ نَقَضُوا الْعَهْدَ وَأَعَانُوا عَلَيْكُمْ،
وَذَلِكَ حَيْثُ عَاوَنْتَ ^(٣) قُرَيْشَ - وَهُمْ
مَعَاهدُونَ - بَنِي بَكْرٍ حُلَفَاءُ هُمْ عَلَى
خِزَاعَةِ حُلَفَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَاتَلُوا
مَعَهُمْ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ مُبْسُوطٌ فِي
السِّيَرَةِ.

﴿أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ فِي تَرْكِ قِتَالِهِمْ ﴿فَاللهُ
أَحَقُّ أَنْ تُخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
فَإِنَّهُ ^(٤) أَمَرَكُمْ بِقِتَالِهِمْ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ
عَلَيْكُمْ غَايَةَ التَّأَكُّيدِ.

فَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَامْتَثِلُوا لِأَمْرِ اللَّهِ،
وَلَا تُخْشَوْهُمْ فَتَتْرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ، ثُمَّ أَمَرَ
بِقِتَالِهِمْ وَذَكَرَ مَا يَتَرْتَبُ عَلَى قِتَالِهِمْ مِنْ



يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون ﴿١٧٨﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.

﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أي: علماً يظهر بما في القوة إلى الخارج، ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

﴿والله خير بما تعملون﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فينتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويميزكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ إنما يغمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴿يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ بالعبادة والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرتهم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.

فإذا كانوا ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عمارة مساجد الله، والأصل منهم

مفقود، والأعمال منهم باطلة!!؟ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت وضلت ﴿وفي النار هم خالدون﴾ ثم ذكر من هم عمارة مساجد الله فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِالله واليوم الآخر وأقام الصلاة الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن.

﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ لأهلها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة.

فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمارة المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها.

﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و«عسى» من الله واجبة. وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمارة مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿أَجْعَلِ لَّهُمْ سُبُلَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَيْفَ يَسْبِيلَ اللَّهُ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴿يُشْرِهِمْ رَهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴿لَا اخْتَلَفَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ﴾ في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أَجْعَلِ لَّهُمْ سُبُلَ الْحَاجِّ﴾ أي: سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم، أنه المراد ﴿وعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ

الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم، فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيمهم ويحرص عليه، ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿ويكشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فإن في قلوبهم من الحق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهَم، إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالاً للغيظ الذي في قلوبهم، وهذا يدل على محبة الله لعباده المؤمنين، واعتناؤه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقه للدخول في الإسلام، ويزينه في قلوبهم، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿والله عليم حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقه في غيه وطمغانه.

﴿١٦﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ

في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها من تأتية الأموال من غير تعب ولا كد.

﴿وتجارة تحشون كسادها﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحرث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿ومساكن ترضونها﴾ من حسننها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فأنتم فسقة ظلمة.

﴿فتربصوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب (حتى يأتي الله بأمره) الذي لا مرد له.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على عجة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

وعلاوة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يقوُّ عليه محبواً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك

واحدة منها لوسعتهم. ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبعثون عنها جنوداً، ﴿إن الله عنده أجسر عظيم﴾ لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا تعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تحشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

و ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿أولياء إن استحبوا﴾ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الكفر على الإيمان﴾.

﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ لأنهم تجرؤوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتحادهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله، يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قل إن كان آباؤكم وإخوانكم ومثلهم الأمهات وأبناؤكم وإخوانكم﴾ في النسب والعشرة^(١) ﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾ أي: قراياتكم عموماً ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي: اكتسبتموها وتعتب

الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله.

فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿وأنفُسهم﴾ بالخروج بالنفس ﴿أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجمو من المروء، إلا من انصف بصفاتهم، وتحلق بأخلاقهم.

﴿يشرهم ربهم﴾ جوداً منه، وكرماً وبراً بهم، واعتناء ومحبة لهم، ﴿برحمة منه﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير. ﴿ورضوان﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ من كل ما اشتته الأنفس، وتلد الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة

لا في الإصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»، فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب^(١) منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرزون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقدروا منها، تقدّزهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وإن خفتهم﴾ أيها المسلمون «غيلة» أي: فقرأ وأحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، وعمل واحد، بل لا يتغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إن شاء﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهاذا علّقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إن الله عليم حكيم﴾ أي: علمه

وسعتها، ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي: منزهين.

﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفطعات، مما يشتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يشمتونهم ويبشرونهم بالنصر.

﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نساءهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ فتأب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم وأولادهم.

﴿والله غفور رحيم﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا يأسئ أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم غيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نَجَس﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي: نجاسة أبلغ من كان يعبد مع الله آلهة لا تتفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئاً!! وأعمالهم ما بين محاربة الله، وصد عن سبيل الله، ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض

على من يشاء والله غفور رحيم﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجهاء، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهمزوا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونساءهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف.

﴿إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي: لم تفدكم شيئاً، قليلاً ولا كثيراً ﴿وضاقت عليكم الأرض﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتم ﴿بما رحبت﴾ أي: على رحبها

(١) الجملة غير واضحة في أ، وأقرب ما تكون أنها: (ولم يأمر أن يقتل مما أصاب).

وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئاً.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿ودين الحق﴾ الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتملاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، وعبادة الله ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرّة للقلوب والأبدان الدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، ويغوا له الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿٣٤-٣٥﴾ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباد آليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴿٣٥﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هدايتهم، وهؤلاء يأخذونها

حزم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المناهية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضاً يغفلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبايح والدعاء والاستغاثة.

﴿والمسيح ابن مريم﴾ اتخذوه إلهاً من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله فما ﴿أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً.

﴿سبحانه﴾ وتعالى ﴿عما يشركون﴾ أي: تنزه وتقدس، وتعالى عظمتهم عن شركهم وافترائهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصّلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه، أخبر أنهم ﴿يريدون﴾ بهذا ﴿أن يطفئوا نور الله بأقوالهم﴾.

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماء الله نوراً، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده، فهو لاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريد بسوء، ولهذا قال: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده



عزيراً بعد ذلك حافظاً لها أو لأكثرها، فأبلاها عليهم من حفظه، واستسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وقالت النصارى المسيح عيسى ابن مريم﴾ ابن الله. قال الله تعالى ﴿ذلك﴾ القول الذي قالوه ﴿قولهم بأقوالهم﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي: قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يضاهئون﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: ﴿الملائكة بنات الله﴾ تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿قاتلهم الله أتى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين. وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكير وتسلط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم: ﴿اتخذوا آحبارهم﴾ وهم علماءهم ﴿ورهبانهم﴾ أي: العباد المتجردين للعبادة.

﴿أرباباً من دون الله﴾ يحلّون لهم ما

فيها منسوخ، أخذاً بعموم نحو قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تحصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك. قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئاً.

ويحتمل أن ﴿كافة﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب التفير على جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاختمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية. ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُحْلُوهُنَّ عَاماً وَيُحْرِمُوهُنَّ عَاماً لِيُؤْطَوْا عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوهُنَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ النسبي: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بأرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحِلِّ ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا

الواجبات و «النهى عن الشيء، أمر بضده».

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره ﴿اثنا عشر شهراً﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿في كتاب الله﴾ أي: في حكمه القدري، ﴿يوم خلق الله السماوات والأرض﴾ وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسما على هذه الشهور الاثني عشر [شهراً].

﴿منها أربعة حرم﴾: وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وبسميت حرماً لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمّر بطاعته، ويشكر الله تعالى على منيته بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهى لهم عن الظلم فيها، خصوصاً مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم^(١) لم ينسخ تحريمه عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال

ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتاً وظلماً، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدليهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهو لاء الأخبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدّهم الناس عن سبيل الله.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ أَيْ: يَمْسِكُونَهَا وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كان يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فَنُشْرِهِمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ أي: على أموالهم، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيحرق كل دينار أو درهم على حدته.

﴿فَتَكْوَىٰ بِهِمَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعدبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعاً، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كما إخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في

القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المخاذير.

ومنها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم مؤهوا على الله بزعمتهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عزائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواظبوا عدة ما حرم الله﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير. اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ نذب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حاراً، والزاد

قليلاً، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي^(١) اليقين من المبادرة لأمر الله، والمسارة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ف: ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة إلا قليل. أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور، وأيا أحق بالإشارة؟

أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعیه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكمدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي: رأي رأيتم إثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُد من أولي الألباب، ثم توعدهم على عدم النفي فقال:

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفي في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف قد

عصى الله تعالى وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قُت في أعضاء من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعد الله بالوعيد الشديد، فقال:

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم. ولا تضروه شيئاً. فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء أراد، ولا يغالبه أحد.

﴿٤٠﴾ ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنوده لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم. أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ، فإله غني عنكم، لا تضربونه شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذله. ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرضوا أشد الحرض، فألجؤوه إلى أن يخرج.

﴿ثاني اثنين﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. ﴿إذ هما في الغار﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور^(٢) في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا ينظر على البال. ﴿إذ يقول النبي ﷺ﴾ لصاحبه، أبي بكر لما حزن واشتد قلقه،

(١) في ب، ودواعي.

(٢) في أ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الضحيج فيبدو - والله أعلم - أنه سبق قلم.

السناول ﴿و﴾ كان السفر ﴿سفر﴾ قاصداً ﴿أي﴾ قريباً سهلاً ﴿لاتبعوك﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تشاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال.

﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج، أن لهم أعذاراً، وأنهم لا يستطيعون ذلك.

﴿يهلكون أنفسهم﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿والله يعلم أنهم لكاذبون﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال:

﴿٤٣-٤٥﴾ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴿لا يستذكرك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين﴾ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴿يقول تعالى لرسوله ﷺ: عفا الله عنك﴾ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت.

﴿لم أذنت لهم﴾ في التخلف ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر عن لا يستحق ذلك.

ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يبحثهم عليه حاث،

الجليلة، والصحية الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيجاً لهم على النفير في سبيله فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي: في العسر واليسر، والنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

لو كان خروجهم لطلب العرض القريب، أي: منفعة دنيوية سهلة

﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ بعونه ونصره وتأييده.

﴿فأنزل الله سكينة عليه﴾ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾.

﴿وأيدته بجنود لم ترها﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرساً له، ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حذر قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذته، حقيقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم.

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ أي: كلماته القدرية وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

﴿والله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هازب، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويؤخر نصر حزيه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصه لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة

فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر .

﴿والله عليم بالمتقين﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين، أنه أخير، أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد .

﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ أي : ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك قلت رغبته في الخير، وجئوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال . ﴿فهم في ربهم يترددون﴾ أي : لا يزالون في الشك والحيرة .

﴿٤٦ - ٤٨﴾ ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعدائهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر .

﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون فـ ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي : لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج .

﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فثبطهم﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحشهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ من النساء والمعدورين .

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال : ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي : نقصاً .

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي : ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي : هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم .

﴿وفيكم﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سماعون لهم﴾ أي : مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتشبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستصحهم . فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم بل يضرهم .

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من الفساد الناشئة من مخالطتهم . ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال :

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي : حين هاجرتكم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿واقبلوا لك الأمور﴾ أي : أداروا الأفكار، وأعملوا الخيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقتصروا في ذلك، ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ فيبطل كيدهم واضمحل باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم .

﴿٤٩﴾ ﴿ومنهم من يقول أئذني لا يفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي : ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول : ﴿أئذني لا يفتني﴾ في التخلف ﴿ولا تفتني﴾ في الخروج، فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس» .

ومقصوده «فيهج الله» الرياء والنفاق بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفاً عن

الشر .

قال الله تعالى مبيناً كذب هذا القول : ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظيمة محقة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجربى على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله : ﴿إن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص .

﴿٥٠ - ٥١﴾ ﴿إن تصيبك حسنة فسرهم وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسرهم﴾ أي : تحزنهم وتغمهم .

﴿وإن تصيبك مصيبة﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يقولوا﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك .

﴿قد أخذنا أمراً من قبل﴾ أي : قد حذرنا وعملنا بما يتجنى من الوقوع في مثل هذه المصيبة .

﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدد مشاركتهم إياك فيها . قال تعالى راداً عليهم في ذلك ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي : قدره وأجراه في اللوح المحفوظ .

﴿هو مولانا﴾ أي : متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء .

﴿وعلى الله﴾ وحده ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ أي : يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويتقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل .

﴿٥٢﴾ ﴿قل هل تربصون بنا إلا

إحدى الحسينين ونحن نتريص بكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴿٥٧﴾ أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي: شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمراً فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسينين، إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الآخروي والديوي. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق، وأرفع المنازل عند الله.

وأما تربصنا بكم - يا معاشر المنافقين - فنحن نتريص بكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده، لا سبب لنا فيه، أو بأيدينا بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم: ﴿فتربصوا﴾ بنا الخير ﴿إنا معكم متربصون﴾ بكم الشر.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يتفقون إلا وهم كارهون ﴿يقول تعالى مبيناً بطلان نفقات المنافقين، وذكر السبب في ذلك﴾ ﴿قل﴾ لهم ﴿أنفقوا طوعاً﴾ من أنفسهم ﴿أو كرهاً﴾ على ذلك، بغير اختياركم. ﴿لن يتقبل منكم﴾ شيء من أعمالكم ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ خارجين عن طاعة الله، ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم، فقال: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي: متهاقون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿ولا يتفقون إلا وهم كارهون﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس، ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا يتفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت

القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾ * ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يمحسون ﴿يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها، وأول بركانها عليهم أن قدموها على مرضي ربهم، وعصوا الله لأجلها﴾ ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ والمراد بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي - لما ألهمهم عن الله وذكره - صارت وبالأعلى حتى في الدنيا.

ومن وبألها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإراداتهم لا تتعدها، فتكون مثني مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن يتفلقوا من الدنيا ﴿وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾.

فأي: عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والخسارة الملازمة.

﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم﴾ قصدهم في خلفهم هذا أنهم ﴿قوم يفرقون﴾ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبيتوا أحوالهم. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تبرؤوا منهم، فيتخطفهم الأعداء من كل جانب.

وأما حال قوي القلب ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلغ عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.

﴿٥٨﴾ ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله وبرسوله وقالوا حسبنا الله سؤتنا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح، ولا لرأي: رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها. ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ * ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سؤتنا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح، ولا لرأي: رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها. ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ * وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاء وغضبه، تابعا لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعاً لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

ثم ذكر شدة جنهم فقال: ﴿لو يجدون ملجأ﴾ يلجؤون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿أو مغارات﴾ يدخلونها فيستقرونها فيها ﴿أو مدخلاً﴾ أي: علماً يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿لولوا إليه وهم يمحسون﴾ أي: يسرعون ويرعون، فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

﴿٥٩ - ٥٨﴾ ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله وبرسوله وقالوا حسبنا الله سؤتنا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح، ولا لرأي: رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها. ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ * ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سؤتنا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح، ولا لرأي: رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها. ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ * وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاء وغضبه، تابعا لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعاً لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وقال هنا: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي: أعطاهم من قليل وكثير. ﴿وقالوا حسبنا الله﴾



أي: كافينا الله، فرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا ودفع مضارنا، لسلما من النفاق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية، ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد، لا ينحصر بها أحد دون أحد.

أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف.

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين، لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئا، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمساكين: الذي يجد نصفها فأكثر،

ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنيا، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو زاع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عملتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم، المؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايته ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التآلف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة، وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالا، لدخوله في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بما لا يذله لأحدهم أو لهما، فاجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنيا.

والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يؤفّى به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح أو دابة، أو نفقة له ولعيله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ

القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

وقالوا أيضا: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه، [وفيه نظر].

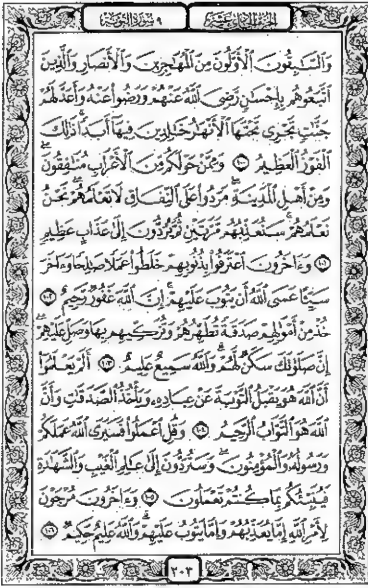
والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فريضة من الله﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿والله عليم حكيم﴾ واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى حاجته ونفعه، كالفقير والمساكين ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلما أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الشغور، ويجهاد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُوْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذْنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمُنَ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ * أَي: ومن هؤلاء المنافقين الذين يؤذون النبي ﴿بالأقوال الزدية، والعيب له ولدينه﴾، ويقولون هو أذن؟ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب،



مؤمنين ﴿٦٦﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً على رضا ربه ورضا رسوله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير الله ورسوله.

وهذا عادة الله ومشاقه له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ أي (٦٦): يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله، وتجراً على عماره.

﴿فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الحزى العظيم﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أقطع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم عباداً بالله من أحوالهم (٦٦).

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿يُحَذِّرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةُ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُّوْا إِنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ مَا تَحَذِّرُونَ﴾ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون ﴿٦٤﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴿٦٥﴾ كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أسرارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحدهما: أن الله سيّزجيب الستر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف.

قال الله تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لغربناكم بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً (٦٤).

وقال هنا: ﴿يُحَذِّرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةُ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

وقصدهم - قبحهم الله - فيما بينهم، أنهم غير مكترئين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأسأوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضاً بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها: قدهم في عقل النبي ﷺ وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً، وأتقهم إدراكاً، وأتقهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً.

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم (٦٤)، وامثاله لأمر الله في قوله: ﴿سِيحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعَرَّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾.

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيراً يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، و«روحاً للذين آمنوا منكم» فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول أو الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاقه.

﴿يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ليرضوكم﴾ فيستبرؤوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايبتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا

أي: تخبرهم وتفصحهم، وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية لعباده، ويكونوا عبرة للمعتبرين.

﴿قُلْ اسْتَهِزُّوْا﴾ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية. ﴿إِنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ مَا تَحَذِّرُونَ﴾ وقد وثق تعالى بوعد، فأنزل هذه السورة التي يبتتهم وفضحتهم وهتكت أسرارهم.

﴿وَلئن سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك «ما رأينا مثل قرآننا هؤلاً» - يعنون النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطوناً، لو أكذب السنا (٦٤) وأجبن عند اللقاء» ونحو ذلك.

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم، جاؤوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به، ولا قصدنا الطعن والعيب.

قال الله تعالى: «مبيناً عدم عذرهم وكذبهم في ذلك -» ﴿قُلْ لَهُمْ أَبَالُهُمْ وَآيَاتُهُ وَرَسُولُهُ﴾ كنتم تستهزؤون ﴿٦٤﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴿٦٥﴾ فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر خرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم

(٤) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: حالهم.

(١) في النسختين: بشأنه.

(٢) في ب: بأن.



ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا بك خيراً لهم﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿وإن يتولوا﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مظلومهم، وفي الآخرة في عذاب السعير.

﴿وما لهم في الأرض من ولي﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكره، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فمُ أصناف الشر والخسران، والشقاء والحerman.

﴿٧٥ - ٧٨﴾ ﴿ومستهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ فلما آتاهم من فضله يخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴿فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام

الغيوب ﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه﴾ لئن آتانا من فضله من الدنيا فبسطها لنا ووسعها لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴿فصل الرحم، ونفري الضيف، ونعين على نوائب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فلما آتاهم من فضله﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿يخلوا به وتولوا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وهم معرضون﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فاعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ مستمراً ﴿إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾.

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: ﴿آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف﴾.

فهذا المنافق الذي وعده الله وعاهده، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة» جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين على

النوائب، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تنامي حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة.

ففقده النبي ﷺ فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فلما لم يعطهم جاؤوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثاً.

فلما نزلت هذه الآية فيه، وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بركاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان^(١).

﴿٧٩ - ٨٠﴾ ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجودون إلا جفدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً، إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حث الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبدلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم المكش، ومنهم المقل، فيلمزون المكش منهم، بأن قصده بنفقته الرياء والسعة، وقالوا

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضعفها جهابذة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهيشي، والعراقي، وابن حجر، والسيوطي والمنائي وغيرهم - رحمهم الله -، وبينوا أن في إسنادها علي بن يزيد، وهو ضعيف كما أن من رواها: معاذ بن رفاع، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة متنها أيضاً. ينظر المحلى: (٢٠٨/١١)، والإصابة: ترجمة ثعلبة، ومجمع الزوائد (٣٢/٧)، والجامع لأحكام القرآن (٢١٠/٨)، وقبض التقدير (٢٥٧/٤)، وفتح الباري (٨/٣)، ولباب القول للسيوطي (١٢١) وتخريج الإحياء للعراقي (٣٣٨/٣).

من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وأمانته.

﴿وقالوا﴾ أي: المنافقون ﴿لا تنفروا في الحر﴾ أي: قالوا: إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية الثابتة.

وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال، ويذهب البكر^(١) والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

ولهذا قال: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ لما أثروا ما ينفي على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أي: فليمتنعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا ببلداتها، ويلهوا بلعبها، فسيكون كثيراً في عذاب أليم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأمر ربهم.

﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ لغير هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة. ﴿فقل﴾ لهم عقوبة ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ فيسغني الله عنكم.

﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضاً تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من المنعوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان

جزاءهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم.

﴿٨٠﴾ ﴿استغفر لهم أم لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها.

﴿فلن يغفر الله لهم﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ ثم ذكر السبب المانع لغفرة الله لهم فقال: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً، بحيث لا يختارون عليه سواء ولا يخشون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

﴿٨١-٨٣﴾ ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاةهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان.

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم

للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الذين يلمزون﴾ أي: يعيبون ويطنعون ﴿المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ فيقولون: مراؤون، قصدهم الفخر والرياء.

﴿و﴾ يلمزون ﴿الذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ﴿فيسخرون منهم﴾.

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾.

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى وبغض للدين. ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي [هو] إعانتة وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تشييطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي شر أكبر من هذا؟؟!!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: ﴿الله غني عن صدقة هذا﴾، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ وفي هذا القول من التشبيط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان

(١) في ب، عدلت الكلمة إلى البكور.

ذلك توبيحاً لهم، وعاراً عليهم ونكالا أن يفعل أحد كفعلهم.

﴿٨٤﴾ «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون» يقول تعالى: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً» من المنافقين «ولا تقم على قبره» بعد الدفن لتدعوه له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعته منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة.

«إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون» ومن كان كافراً ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعته الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصل على عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقدراً في المؤمنين.

﴿٨٥﴾ «ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون» أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. «إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا».

فيتعجبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهمون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا «وتزهد أنفسهم وهم كافرون» قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحركة.

﴿٨٦﴾ «وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين» رضوا بأن يكونوا مع

الحوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» يقول تعالى: في بيان استمرار المنافقين على التناقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: «وإذا أنزلت سورة» يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله: «استأذنك أولوا الطول منهم» يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنيين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود. «وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين».

﴿٨٧﴾ قال تعالى: «رضوا بأن يكونوا مع الحوالف» أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿٨٨﴾ «لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون» أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم» يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فאלله سيغني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم «الرسول» محمد ﷺ «والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم» غير متناقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، «وأولئك لهم الخيرات» الكثيرة في الدنيا والآخرة، «وأولئك هم المفلحون» الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

﴿٨٩﴾ «أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم» فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودنياه وآخره، وهذا

نظير قوله تعالى: «قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً».

وقوله: «فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين».

﴿٩٠﴾ «وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم» ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم» ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون» إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الحوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون» يقول تعالى: «وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم» أي: جاء الذين تبارأوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباينين في الاعتذار لجفائهم وعدم حياتهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدها وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: «المعذرون» أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿٩١﴾ «وقعد الذين كذبوا الله ورسوله في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: «سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم» في الدنيا والآخرة.

لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

«ليس على الضعفاء» في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. «ولا على المرضى»

﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فبينكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما [أن] يقبل قوله وعذره، ظاهراً وباطناً، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سيعلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إنهم رجس﴾ أي: إنهم قذر خبثاء، ليسوا بأهل لأن يبالي بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مقبداً فيهم، ﴿و﴾ تكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وقوله: ﴿يخلفون لكم لترضوا عنهم﴾ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً.

﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربه في رضاه وغيظه.

وتأمل كيف قال: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ ولم يقل: ﴿فإن الله لا يرضى عنهم﴾ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله

وهو أن من نوى الخير، واقترب بنيهته الجازمة سعي فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿إنما السبيل﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين (٣) يستأذنوك وهم أغنياء قادرون على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بأن يكونوا مع الخولاف﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم.

﴿و﴾ إنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية، ﴿فهم لا يعلمون﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ سيعلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس وماواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴿يخلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم سـ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ من غراتكم.

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي (١) لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في نفسه (٢) أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمفرط، أن عليه الضمان.

﴿والله غفور رحيم﴾ من مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم ببنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ فلم يصادفوا عندك شيئاً ﴿قلت﴾ لهم معتذراً: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ فإنهم عاجزون باذلول لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمثقة ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله،

(١) في النسختين: التي.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب واللوم يتأكد على الذين.

يتوب عليهم ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن رضا الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتدروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعذاراً في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حياً ولا كرامة لهم.

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية الرجس، وفي هذه الآيات، إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.

﴿٩٧-٩٩﴾ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم * ومن الأعراب من يتخذ ما يتفق مفرماً ويتريص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم * ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما يفتق قريبات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم * يقول تعالى: ﴿الأعراب﴾ وهم سكان البادية والبراري أشد كفراً ونفاقاً من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة:

منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى وأجدر ألا يعلموا حدود

ما أنزل الله على رسوله من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية.

وفيه من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويغالسون أهل الإيمان، ويغالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة، كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ بما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها.

﴿٩٨﴾ فمنهم من يتخذ ما يفتق من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مفرماً﴾ أي: يراها خسارة ونقصاً، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً.

﴿ويتريص بكم الدوائر﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين ويغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سيتعكش عليهم، فعليهم دائرة السوء. وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبي الحسنة، ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره.

وليس الأعراب كلهم مذبذبين، بل منهم ﴿من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان.

﴿ويتخذ ما يفتق قريبات عند الله﴾

أي: يحتسب نفقته، ويتقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿ويعملها وسيلة لصلوات الرسول﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيناً لتفع صلوات الرسول: ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ تقربهم إلى الله، وتنمي

أموالهم وتحل فيها البركة. ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ في جملة عباده الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباده برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويمحيهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع الثواب.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم المصدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تغربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر من يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وذكر السبب المرجح لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والجور، والربا، ونحو ذلك. فإن في معرفتها يتمكن من فعلها - إن كانت مأموراً بها^(١)، أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشراح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً، ولا تكون مغرماً.

﴿١٠﴾ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

(١) في ب: إن كانت مأمورة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ .

ومن مغفرتة أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأتابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية دلت^(١) على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمر له بما يظهر المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً وَهِيَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ﴾، ﴿تَطَهَّرْهُمْ وَتَزَكِّيْهِمْ بِهَا﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة.

﴿وتزكِّيهِمْ﴾ أي: تنمِّيهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الديني والأخروي، وتتمم أموالهم.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموماً، وخصوصاً عندما يدفون إليك زكاة أموالهم.

﴿إِنْ صَلَاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول.

﴿عليهم﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، وينبئ عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقة دعا له وبكراً.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة.

﴿نحن نعلمهم سنعتذبهم مرتين﴾ يحتمل أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن^(٢)، والكرهية لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبش القرار.

ويحتمل أن المراد سينغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم وتكرره.

﴿١٠٢-١٠٣﴾ ﴿وَأَخْبَرُونَ

اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم﴾ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى:

﴿وَأَخْرُوجُهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ وَفِي حَوْلِهَا، بَلْ وَمِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، اعترفوا بذنوبهم﴾ أي: أقرروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجبرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو خلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة ويدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد، وإقامة دين الله.

﴿من المهاجرين﴾ الذين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم، وخصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله.

﴿رضي الله عنهم﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار الجارية التي تساق إلى سقي الجنات، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة.

﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ييغون عنها حولا، ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدر كوه، ومهما أرادوه، وجدوه.

﴿ذلك الفوز العظيم﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعْتَذِبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُونَ إِلَى عَذَابِ عَظِيمٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً منافقون ﴿مردوا على النفاق﴾ أي: تمردوا عليه، واستمروا وزادوا فيه طغياناً.

(١) في ب: والغم.

(٢) في ب: دالة.

تنمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب، والثمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للفتنة، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالفتنة ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها. وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهراً، بحيث يسمعه المصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تشييط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

﴿١٠٤﴾ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴿١﴾ أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه يقبل التوبة عن عباده ﴿التائبين من أي: ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر.﴾ ويأخذ الصدقات ﴿منهم، أي: يقبلها ويأخذها بيمينه، فيريها لأحدكم كما يربي الرجل فله، حتى تكون الثمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.﴾

﴿وأن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية] مراراً. ولا يعمل الله من التوبة على

عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفاق والشroud عن بابه، وموالاهم عدوهم.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿١٠٥﴾ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وسترّدون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ يقول تعالى: ﴿وقل لهؤلاء المنافقين: ﴿اعملوا﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، وسترّدون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿١٠٦﴾ ﴿وآخرن مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ أي: ﴿وآخرن من المخلفين مؤخرون﴾ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴿ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

﴿والله عليم﴾ بأحوال العباد ونياتهم ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

﴿١٠٧ - ١١٠﴾ ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليخلفن إن أردنا إلا

الحسنى والله يشهد إثمهم لكاذبون * لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين * أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم * كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاققة بين المؤمنين، ويعمدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فيبن تعالى خزيم، وأظهر سرهم فقال: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وكفراً﴾ أي: قصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، ﴿وإرصاداً﴾ أي: إعدداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴿أي: إغارة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حراهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حزب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيضر بزعمة أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد وملاة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مربة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم

الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباء» حتى قال الله فيه: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾.

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحب على الصلاة فيه. ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه. ومنها: أن الأعمال الحسنة الناشئة عن معصية الله لا تزال مبيحة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجداً أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿١١١﴾ «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَكَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة

فجمع في عمله بين الإخلاص والتابعة، «خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار» أي: على طرف «جرف هار» أي: بال، قد تداعي للانهدام، «فانهار به في نار جهنم» والله لا يهدي القوم الظالمين، لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿١١٢﴾ «لَا يَزَالُ بَنِيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ» أي: شكاً وريباً ماكثاً في قلوبهم، «إِلَّا أَنْ تَقُطَعَ قُلُوبُهُمْ» بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم.

﴿والله عليم﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبها أسره العباد، وأعلنه. ﴿حكيم﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فله الحمد. وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغييره النية، فيقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها. كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين واتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحادرة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها. ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك

الفاصلة في ذلك المسجد «وليحلفن إن أردنا» في بنائنا إياه «إلا الحسنى» أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير.

﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ شهادة الله عليهم أصدق من حلفهم. ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرراً أبداً، فإله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباء»، وهو مسجد «قباء»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديماً في هذا عريقاً فيه، فهذا المسجد الفاضل «أحق أن تقوم فيه» وتعبد، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: «فيه رجال يحبون أن يتطهروا» من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً لا بد أن يسعى له ويجهد فيما يجب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا عن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، ومن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنعهم.

﴿والله يحب المطهرين﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاء فقال: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بِنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ﴾ أي: على نية صالحة وإخلاص «ورضوان» بأن كان موافقاً لأمره،

ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم * يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به * أن يستغفروا للمشركين * أي: لمن كفر به وعبد معه غيره * ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضاً فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويؤاؤوا من وإلاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه * عن موعدة وعدها إياه * في قوله: * سأستغفر لك رب إنني كنت بي خفياً * وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير * تبرأ منه * موافقة لربه وتادباً معه.

* إن إبراهيم لأواه * أي: رجأع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه.

* حليم * أي: ذو رحمة بالخلق، وصنف عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: * لأرجئك * وهو يقول له: * سلام عليك سأستغفر لك رب *.

فعلیکم أن تقتدوا وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء * إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك * كما نبهكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال:

* ١١٥ - ١١٦ * وما كان الله

المؤمنين * كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم * التائبون * أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

* العابدون * أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

* الحامدون * الله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

* السائحون * فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياسة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

* الراكعون الساجدون * أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

* الآمرون بالمعروف * ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

* والناهون عن المنكر * وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

* والحافظون لحدود الله * بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.

* وبشیر المؤمنین * لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفيتها فإنها بحسب حال المؤمنین، وإيمانهم، قوة، وضعفاً، وحملاً بمقتضاء.

* ١١٣ - ١١٤ * ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين

عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه * اشترى * بنفسه الكريمة * من المؤمنين أنفسهم وأموالهم * فهي الثمن والسلعة المبيعة.

* بأن لهم الجنة * التي فيها ما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسررات، والخور الحسن، والمنازل الأنیقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه * فيقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون * فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

* وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن * التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

* ومن أوفى بعهدته من الله فاستبشروا * أيها المؤمنون القائمون بما وعدهم الله، * ببيعكم الذي بايعتم به * أي: لتفروحو بذلك، وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً.

* وذلك هو الفوز العظيم * الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبدول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي: كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

* ١١٢ * التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشیر

أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي: يتقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿ليتوبوا﴾ أي: لتتقن منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿الرحيم﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وأتمن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها ومنها: لطف الله بهم وتبئتهم في إيمانهم عند الشدائد والتوازل المزعجة. ومنها: أن العبدادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يتنبأ بالذنوب ولا يخرج إذا فعله، فإن توبته مذكولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين. ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن يسميهم بوسم، ليس بخار عليهم فقال: ﴿خلفوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين

الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تاب على النبي﴾ محمد ﷺ ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، وراقهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقة، ولهذا قال: ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك»^(١) وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويسيلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفراً، وإن كان في شراعه كان يحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ ومن رأفته ورحمته أن يمن عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن. ﴿حتى إذا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي: على سعتها ورحبتها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضائق عليهم الفضاء الواسع، والمحجوب الذي لم تجز العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من

ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم﴾ إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني أن الله تعالى إذا من على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، ويدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخجل بتدبيره القُدري فكيف يخجل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده!!

فلهذا قال: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو «نصير» يدفع عنكم المضار.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

(١) في ب: غزوة تبوك.

عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفتوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طائفة﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿ليتققها﴾ أي: القاعدون ﴿في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأى: منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي: نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً.

وفي هذه الآية أيضاً دليل وإرشاد وتنبية لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

﴿١٢٣﴾ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدا فيكم

وراحتها، وسكونه ﴿عن نفسه﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ وعيبته والإيمان الشام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذلك بأنهم﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لا يصيبهم ظمأ ولا نصب﴾ أي: تعب ومشقة ﴿ولا غمصة في سبيل الله﴾ أي: مجاعة.

﴿ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم، ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة مالم لا يكتب لهم به عمل صالح ﴿لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم﴾.

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصخوا فيها، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿١٢٢﴾ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ يقول تعالى: - منبهاً لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم - ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي: جميعاً لقتال

خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُت في قبول عذرهم أو في رده] ^(١) وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: ﴿تخلفوا﴾.

ومنها: أن الله تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال:

﴿١١٩﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، واجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿وكونوا مع الصادقين﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ الآية.

﴿١٢٠ - ١٢١﴾ وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا غمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى - حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم -: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم﴾ في بقائها

اغلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴿١٢٤﴾ وهذا

أيضاً إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبدوون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعَنِّكُم وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿فانزلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جداً.

﴿١٢٤ - ١٢٦﴾ ﴿وإذا ما أنزلت سورة فممنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿١٢٥﴾ أولاً يرون أنهم يقتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴿١٢٦﴾ يقول تعالى: مبتلياً حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فيها الأمر والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فممنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً﴾ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.

قال تعالى - مبيناً الحال الواقعة -: ﴿فأما الذين آمنوا فزادهم إيماناً﴾ بالتعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانتكاف عن فعل الشر.

﴿وهم يستبشرون﴾ أي: يبشرون بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة

انقيادهم لما تحثهم عليه. ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكاً إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿و﴾ الطبع على قلوبهم، حتى ﴿ماتوا وهم كافرون﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

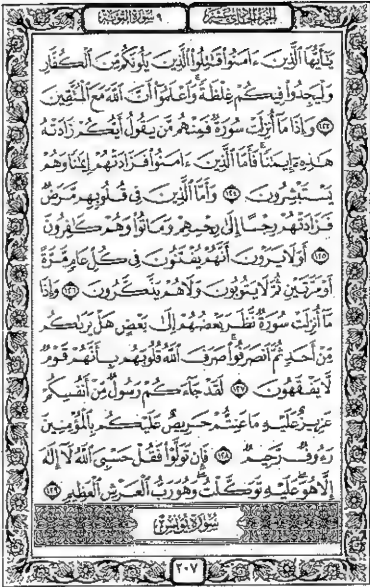
قال تعالى - موبخاً لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق -: ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ بما يصيبهم من البلياء والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثم لا يتوبون﴾ عما هم عليه من الشر ﴿ولا هم يذكرون﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

فالله تعالى يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجده وينمي، ليكون دائماً في صعود.

﴿١٢٧﴾ وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني: أن المنافقين الذين يجذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾



متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أي: صدها عن الحق وخذلها.

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ فقهاً ينفعهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت﴾.

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ * فإن تولوا قتل حسبني الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴿١٢٩﴾ يمتن [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأفنون عن الانقياد له، وهو ﴿في غاية النصيح لهم، والسعي في مصالحهم﴾.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعتكم.

تفسير سورة يونس مكية

ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حتماً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون * يقول تعالى مبيناً لربوبيته وإلهيته وعظمته : ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويرقد بالعبادة.

﴿ثم﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق بعظمته.

﴿يدبر الأمر﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضورين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مدعون لعزه^(٢)، خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

﴿ذلكم﴾ الذي هذا شأنه ﴿الله ربكم﴾ أي : هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال.

﴿فاعبدوه﴾ أي : أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية، ﴿أفلا تذكرون﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود الم محمود، ذو الجلال والإكرام. فلما ذكر حكمه القدري وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ألك تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين * يقول تعالى : ﴿ألك تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد.

ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله.

﴿وبشر الذين آمنوا﴾ إيماناً صادقاً ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ أي : لهم جزاء موفور^(١)، وثواب مذكور عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة.

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به، ف ﴿قال الكافرون﴾ عنه : ﴿إن هذا لساحر مبين﴾ أي : بين السحرة، لا يخفى بزعمهم على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم، الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ ذلكم الله



﴿حريص عليكم﴾ فيجب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويمرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ أي : شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره ﴿فإن آمنوا﴾ فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تولوا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل ﴿حسبي الله﴾ أي : الله كافٍ في جميع ما أمسني، ﴿لا إله إلا هو﴾ أي : لا معبود بحق سواه.

﴿عليه توكلت﴾ أي : اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، ان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه
فله الحمد أولاً وآخراً
وظاهره وباطنه

شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: سيجمعكم بعد موتكم ليقات يوم معلوم.

﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فالتقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم ينكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل منكر لأحد المثليين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل الثقل فقال:

﴿وعد الله حقاً﴾ أي: وعده صادق لا بد من إقامته.

﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.

﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، من واجبات ومستحبات، ﴿بالقسط﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴿والذين كفروا﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله.

﴿لهم شراب من حميم﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء. ﴿وعذاب اليم﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿٥-٦﴾ ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض آيات لقوم يتقون لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لقوم يعلمون﴾ و﴿لقوم يتقون﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل^(١) على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقيوميته، وما فيها من الأحكام والإتقان والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء والقمر نوراً، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتناؤه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات المربوبات، المفترقات إلى الله في جميع شؤونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة، وفي إجمال ذلك، تناول بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجود للذهن والقرينة.

﴿٧-٨﴾ ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾

بدلاً عن الآخرة. ﴿واطمأنوا بها﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم^(٢) ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبروا على لذاتها وشهواتها، بأي: طريق حصلت حصلوها، ومن أي: وجه لاحت ابتذروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكانهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار عمر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى تعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿أولئك﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مأواهم النار﴾ أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها. ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي، فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿٩-١٠﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿يهدىهم ربهم بإيمانهم﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى

(١) في ب: الدلائل.

(٢) في ب: أمرهم.

﴿١٣-١٤﴾ «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا يؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون» يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجريء على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثم جعلناكم﴾ أيها المخاطبون «خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون» فإن أنتم اعتبرتم واعتظمت بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة.

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿١٥-١٧﴾ «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبث فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون» يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلماً: «أئت بقرآن غير هذا أو بدله» فبيحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدهم ظلماً ورذاً لآياته.

فإذا كان الرسول العظيم بأمره الله أن يقول لهم: «قل ما يكون لي» أي: ما ينبغي ولا يليق «أن أبدله من تلقاء نفسي» فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء، «إن أتبع إلا ما يوحى

ذلك، كما يجعل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه» لقضي إليهم أجلهم» أي: لمحتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يمهلهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلیم حكيم.

وقوله: «فنذر الذين لا يرجون لقاءنا» أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله، «فني طغيانهم» أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يعصون﴾ يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم^(١) على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

﴿١٢﴾ «وإذا من الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره» كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون» وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضرر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره» أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأبى: ظلم أعظم من هذا الظلم!! يطلب من الله قضاء غرضه، فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه الله حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجناً مستقبحاً في العقول والقطر.

﴿كذلك زين للمسرفين﴾ أي: المتجاوزين للحد «ما كانوا يعملون».

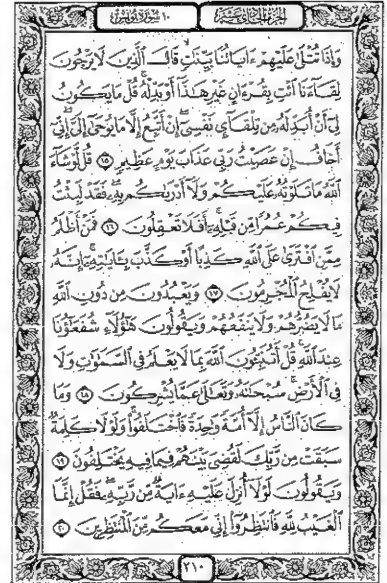
الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: «تجري من تحتهم الأنهار» الجارية على الدوام «في جنات النعيم» أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والخيور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات الطربيات، والبنغيمات المشجيات، والنماظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب، والمناكح، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي: عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتزييه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المأكول اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

﴿و﴾ أما «عجبتهم» فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه «سلام» وقد قيل في تفسير قوله: «دعواهم فيها سبحانك» إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

فإذا فرغوا قالوا: «الحمد لله رب العالمين».

﴿١١﴾ «ولو يجعل الله للناس الشر استمعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون» وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبأدبرهم بالعقوبة على



﴿ويقولون﴾ أي: المكذبون المتعنتون، ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ الآيات.

وكقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات.

﴿فقل﴾ لهم إذا طلبوا منك آية ﴿إنما الغيب لله﴾ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل، ولا غاية ولا تبليغ.

﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: كل ينتظر بضاجه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿٢١﴾ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون يقول تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.

ولهذا قال: ﴿إذا لهم مكر في

آياتنا﴾ أي: يسعون بالباطل ليطلوا به الحق.

﴿قل الله أسرع مكراً﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصى الله عليهم، ثم يجازيهم [الله] عليه أوفر الجزاء.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعاوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إني أنزلكم رجلكم فتنيتكم بما كنتم تعملون لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة تؤيد ذلك وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال:

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة^(١) لكم فيها، وهداكم إليها. ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ أي: السفن البحرية ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ موافقة لما يهونه من غير انزعاج ولا مشقة. ﴿وفرحوا بها﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك، إذ ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ شديدة الهبوب ﴿وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حيث تعلقهم بالخلق، وعرفوا أنه لا ينجيه من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين وودعوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق﴾ أي:

نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشكروا بالله، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا الله العباد في الرخاء، كما أخلصوه في الشدة؟!!

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ أي: غاية ما تؤملون بغيكم وشروءكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها النثر اليسير الذي سيفضي سريعاً، ويمضي جميعاً، ثم تنتقلون عنه بالرغم.

﴿ثم إني مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فتنبئكم بما كنتم تعملون﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿٢٤﴾ ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر الديدن منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿مما يأكل الناس﴾ كالخرب والثمار ﴿ومما تأكل الأنعام﴾ بأنواع العشب، والكلاً المختلف الأصناف.

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾ أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية

للمتصربين، فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تكن بالأمس﴾ أي: كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال «للقوم يفكرون» أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان، ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شَوَّقَ إلى الدار الباقية، فقال:

﴿٢٥-٢٦﴾ ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

عمّ تعالى عبادته بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والنقص، وذلك لكمال نعيمها وقامه وبقائه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعانا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة

لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبوده على وجه المراقبة والنصيحة في عبادته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعل، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم «الحسنى» وهي الجنة الكاملة في حسناتها «زيادة» وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

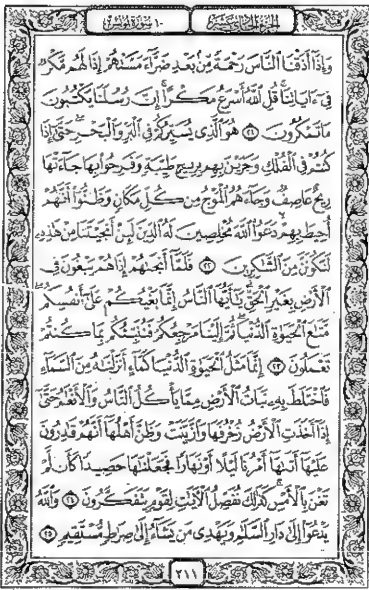
ثم ذكر اندفاع المجذور عنهم فقال: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما^(١) قال الله عنهم - «تعرف في وجوههم نضرة النعيم» أولئك أصحاب الجنة الملائمون لها «هم فيها خالدون» لا يحولون ولا يزولون، ولا يتغيرون.

﴿٢٧﴾ ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها، أي:

(٢) في ب: في وجوههم.

(١) في ب: فكما.



جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وترهقهم﴾ أي: تغشاهم «ذلة» في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في الوجه^(٢).

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فكم بين الفريقين من الفرق، وما بعد ما بينهما من الفاتوات؟!

﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ إلى ربها ناظرة ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ تظن أن يفعل بها فاقرة ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ ضابحة مستبشرة ﴿وجوه يومئذ عليها غبرة﴾ ترهقها قرة ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

﴿٢٨-٣٠﴾ ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيتانا تعبدون﴾ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا

كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك، **﴿ويخرج الميت من الحي﴾** عكس هذه المذكورات، **﴿ومن يدبر الأمر﴾** في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك **﴿فسيقولون الله﴾** لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

﴿فقل﴾ لهم الزموا بالحجة **﴿أفلا تتقون﴾** الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتحلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿فذلكم﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به **﴿الله ربكم﴾** أي: المألوه المعبود المحمود، الربى جميع الخلق بالنعمة وهو: **﴿الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾**.

فإنه تعالى المفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام.

﴿فأني تصرفون﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نقصاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شراكة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتباً لمن أشرك به، ووبخاً لمن كفر به، لقد عذبوا عقولهم بعد أن عذبوا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخرهم.

ولهذا قال [تعالى] عنهم: **﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾** تعذ ما أراهم ^(١) الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولي الألباب، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

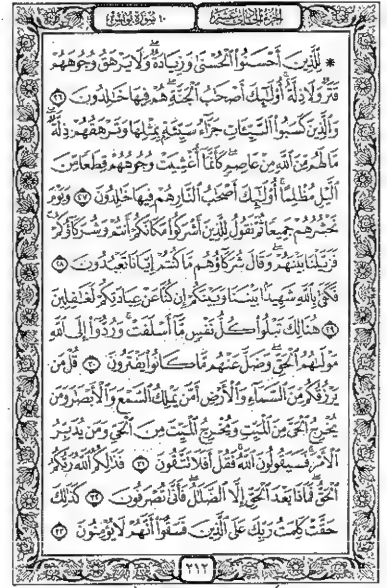
فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون من عبدهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: **﴿هنالك﴾** أي: في ذلك اليوم **﴿تبلو كل نفس ما أسلفت﴾** أي: تتفقد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

﴿٣١-٣٣﴾ **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر﴾** فسيقولون الله فقل **﴿أفلا تتقون﴾** فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأني تصرفون **﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾** أي: **﴿قل﴾** لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً - محتجاً عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية - **﴿من يرزقكم من السماء والأرض﴾** بإنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟

﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على الفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما.

﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾



يفترون **﴿يقول تعالى﴾** **﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾** أي: نجتمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي: الزموا مكانكم لبقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم. **﴿فزيلنا بينهم﴾** أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصَفُّوا الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بعضاً وعداوة.

وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: **﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾** فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد. **﴿كفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لسفاهين﴾** ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان كما قال تعالى: **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾**.

وقال: **﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾** ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون **﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾** بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون.

(١) في ب: بعد أن أراهم.

العالمين، لعاجله بالعقوبة وبادهه بالتكال.

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين.

أنزله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة.

﴿لا رب فيه من رب العالمين﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه.

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على سكارم الأخلاق وعحسن الأعمال.

﴿أم يقولون﴾ أي: المكذبون به عناداً وبغياً: ﴿افتراه﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿قل﴾ لهم - ملزماً لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما أذعوه، وإلا كان قولهم باطلاً.

﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله.

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قاله باطل، لا حظ له من الحجة، والذي هلمهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يخطوا به علماً.

فلو أحاطوا به علماً وفهموه حتى فهمه، لأذعنوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿وهو الهالك

الشیطان للإنسان، أقبح البهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه وظنه حقاً، وهو لا شيء.

ولهذا قال: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء لله، فإنه ليس لله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ فسموها آلهة وعبدوها مع الله، ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾.

﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

﴿٣٧ - ٤١﴾ ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا رب فيه من رب العالمين﴾ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴿وإن كذبوك فقل لي عمل ولکم عملکم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ يقول تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو كتاب الله الذي يتكلم به [رب العالمين]، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!!

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فنقول أحد على رب

﴿٣٤ - ٣٦﴾ ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأتى تؤفكون﴾ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون﴾ يقول تعالى - مبيهاً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله - ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق﴾ أي: مبتدئيه ﴿ثم يعيده﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك.

﴿فأتى تؤفكون﴾ أي: تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون.

﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ ببيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه.

﴿قل الله﴾ وحده ﴿يهدي للحق﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

﴿أمن لا يهدي﴾ أي: لا يهدي إلا أن يهدي ﴿لعدم علمه ولضلاله﴾ وهي شركائهم التي لا يهدي ولا تهدي إلا أن تهدي ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي: أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافاً معنوية ولا أوصافاً فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجهة لبطلان إلهيتها، فلا شيء جعلت مع الله آلهة؟

فالجواب: أن هذا من تزوين

إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿٤٦﴾ ﴿وإما نريتك بعض الذي نعدهم أو نتوفيتك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

إما في الدنيا فتراه بعينك، وتقره بنفسك.

وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم، والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

﴿٤٧ - ٤٩﴾ ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿رسول﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿فإذا جاءهم﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالآيات، صدقه بعضهم وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين ﴿وهم لا يظلمون﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم، فليحذر المكذبون لك من مشابة الأمن المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس.

الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك تمتع إسماعك إياهم إسماعاً ينتفعون به.

وأما إسماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسند عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير.

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ فلا يفيد نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

ودل قوله: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

وقوله: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿٤٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا يؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا، ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين

الذي لم يبق منهم أحد. فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمن المكذبين والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على التثبيت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمقسدين﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد، فيسبواهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿وإن كذبوك﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فقل لي عملكم ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء به، ﴿و﴾ أن ﴿منهم من يستمعون﴾ إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا مجد على أهله خيراً، لا جرم انسند عليهم باب التوفيق، وحرموه من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي التقرّر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً.

فإذا كان من المحال إسماع الأصم



والآجل، لمن اهتدى به، فالهedy أجل
الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد
والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا
يكون رحمة إلا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة
الناشئة عنه، حصلت السعادة
والفلاح، والربح والنجاح، والفرح
والسرور.

ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك
فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ الذي هو
القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة،
وقضل تفضل الله به على عباده
﴿وورحمته﴾ الدين والإيمان،
وعبادة الله ومحبته ومعرفته. ﴿فبذلك
فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ من
متاع الدنيا ولذاتها.

فنعمة الدين المتصلة بسعادة
الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في
الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن
قريب.

وانما أمر الله تعالى بالفرح بفضل
ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط
النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى،
وقوتها، وشدة الرغبة في العلم
والإيمان الداعي للزيادة منهما، وهذا
فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات
الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن
هذا مذموم كما قال تعالى عن قوم
قارون له: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب
الفرحين﴾.

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما
عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به
الرسول: ﴿فلما جاءتهم رسلهم
بالبينات فرحوا بما عندهم من
العلم﴾.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ
حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذُنُكُمْ أَمْ
عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وما ظن الذين
يفترون على الله الكذب يوم القيامة
إنَّ الله لذو فضل على الناس ولكن
أكثرهم لا يشكرون﴾ يقول تعالى -
منكراً على المشركين الذين ابتدعوا

تحريم ما أحل الله وتحليل ما
حرم ﴿١﴾ -: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ يعني أنواع الحيوانات
المحللة، التي جعلها الله رزقاً لهم
ورحمة في حقهم. قل لهم - موبخاً
على هذا القول الفاسد -: ﴿اللَّهُ أَذُنُ
لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ومن المعلوم
أن الله لم يأذن لهم فعلم أنهم مفترون.

﴿وما ظن الذين يفترون على الله
الكذب يوم القيامة﴾ أن يفعل الله بهم
من النكال، ويحل بهم من العقاب،
قال تعالى: ﴿ويوم القيامة ترى الذين
كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾.

﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾
كثير، وذو إحسان جزيل، ولكن أكثر
الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا
بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على
معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا
ما من الله به على عباده، وقليل منهم
الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويشني بها

على الله ويستعين بها على طاعته.
ويستدل بهذه الآية على أن الأصل
في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد
الشرع بتجريمه، لأن الله أنكر على من
حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

﴿٦١﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا
تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ
إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ
وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي
الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ
وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يغير تعالى
عن عموم مشاهدته وإطلاعه على جميع
أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم،
وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على
الدوام فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾
أي: حال من أحوالك الدينية
والدنيوية. ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾
أي: وما تلتو من القرآن الذي
أوحاه الله إليك.

﴿ولا تعملون من عمل﴾ صغير أو
كبير ﴿إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون
فيه﴾ أي: وقت شروعيكم فيه
واستمراركم على العمل به.

لسخط الله، المقتضية لعقابه وتحذركم
عنها ببيان آثارها ومفاسدها.

﴿وشفاء لما في الصدور﴾ وهو هذا
القرآن، شفاء لما في الصدور من
أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد
للشرع وأمراض الشبهات، القاذحة في
العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ
والترغيب والترهيب، والوعد
والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة
والرهبة.

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير،
والرهبة من الشر، ونمتا على تكرر ما
يرد إليها من معاني القرآن، أوجب
ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس،
وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من
شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة
التي صرّفها الله غاية التصريف، وبينها
أحسن بيان، مما يزيل الشبهة القاذحة في
الحق، ويصل به القلب إلى أعلى
درجات اليقين.

وإذا صح القلب من مرضه، وزفل
بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها،
فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده،
﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ فالهedy هو
العلم بالحق والعمل به.

والرحمة هي ما يحصل من الخير
والإحسان، والثواب العاجل

الشديد بما كانوا يكفرون. ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾.

﴿٧١ - ٧٣﴾ ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأسرت أن أكون من المسلمين * فكذبوه فنجيهاه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾

يقول تعالى لنبيه: ﴿واتل على قومك نبأ نوح﴾ في دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزدحم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملأوا منه وسموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم، فقال لهم: ﴿يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله﴾ أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعكم^(١) ﴿بآيات الله﴾ الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردبتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق. ﴿فعلى الله توكلت﴾ أي: اعتمدت على الله في دفع كل شر يراد بي، وبما أَدْعُو إليه، فهذا جندي وعُدتي. وأنتم فاتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العُدَّة والعُدَد.

﴿فأجمعوا أمركم﴾ كلمكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا^(٢) من مجهودكم شيئاً.

﴿و﴾ أحضروا ﴿شركاءكم﴾ الذي كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين.

﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ أي: مشيتها خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية.

﴿ثم اقضوا إلي﴾ أي: اقضوا عليّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿ولا تنظرون﴾ أي: لا تمهلون ساعة

لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ يقول تعالى مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين ﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً، ثم برهن على ذلك بعبدة براهين:

أحدها: قوله: ﴿هو الغني﴾ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه، فإذا كان غنياً من كل وجه، فلا شيء يتخذ الولد؟

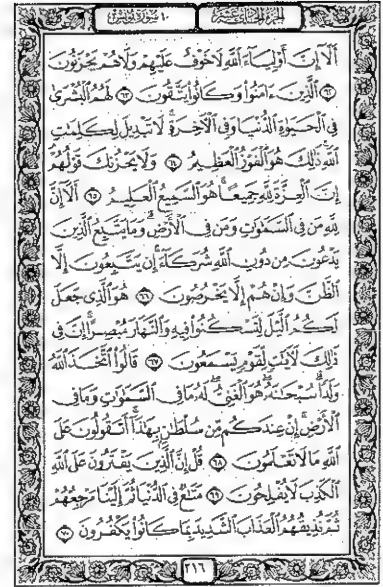
الحاجة منه إلى الولد، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولداً إلا لتقص في غناه.

البرهان الثاني، قوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد ممالك.

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مخلوكاً، فملكه ما في السموات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث، قوله: ﴿إن عندكم من سلطان هذا﴾ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن الله ولداً، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تعذروا وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي: لا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب



ورافك ويهتان.

فإن كانوا صادقين في أنها شركاء الله، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة، فلن يستطيعوا، فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق، أو يملك شيئاً من المخلوقات، أو يدبر الليل والنهار الذي جعله الله قياماً للناس؟

و ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة، التي تغطي وجه الأرض، فلو استمر الضياء لما قرأوا ولما سكنوا.

﴿و﴾ جعل الله ﴿النهار مبصراً﴾ أي: مضيئاً، يبصر به الخلق، فيتصرفون في معاشهم، ومصالح دينهم ودنياهم.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ * قل إن الذين يفترون على الله الكذب

(١) في السخيتين: ما ينفعهم.

(٢) في السخيتين: ولا تدخرون.

وهكذا كل مفسد عمل عملاً،
واحتال كيداً، أو أتى بمكر، فإن عمله
سيبطل ويضمحل، وإن حصل لعمله
روجان في وقت ما، فإن ماله
الاضمحلال والمحق.

وأما المصلحون الذين قصدهم
بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال
ووسائل نافعة وأمور بها، فإن الله
يصلح أعمالهم ويرقيها، وينميها على
الدوام، فألقى موسى عصاه، فلتقف
جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم،
واضمحل باطلهم.

﴿٨٢﴾ ﴿وَيُخَيِّطُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فألقى السحرة
شجداً حين تبين لهم الحق. فتوعدهم
فرعون بالصلب، وتقطيع الأيدي
والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا على
إيمانهم.

وأما فرعون وملؤه وأتباعهم، فلم
يؤمن منهم أحد، بل استمروا في
طغيانهم يعمهون.

ولهذا قال: ﴿فَمَا آسَنَ لِمُوسَى إِلَّا
ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: شباب من بني
إسرائيل صبروا على الخوف، لما ثبت
في قلوبهم الإيمان.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ
يَفْتِنَهُمْ﴾ عن دينهم ﴿وَأَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له القهقر والغلبة
فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشه.

﴿وَوَصَّوهُمُ بِأَنَّهُمْ﴾ كان ﴿لَمَنْ
السَّافِرِينَ﴾ أي: المتجاززين للحد في
البيعي والعدوان.

والحكمة - والله أعلم - بكونه ما
آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن
الذرية والشباب أقبل للنحو، وأسرع له
انقياداً، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن
تربى على الكفر فأنهم - بسبب ما مكث
في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد
من الحق من غيرهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ موصياً
لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما
يستعينون به على ذلك فقال: ﴿يَا قَوْمِ
إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ فقوموا بوظيفة

وهذا لا يحتج به من عرف الحقائق
وميز بين الأمور، فإن الحجج لا تدفع
إلا بالحجج والبراهين.

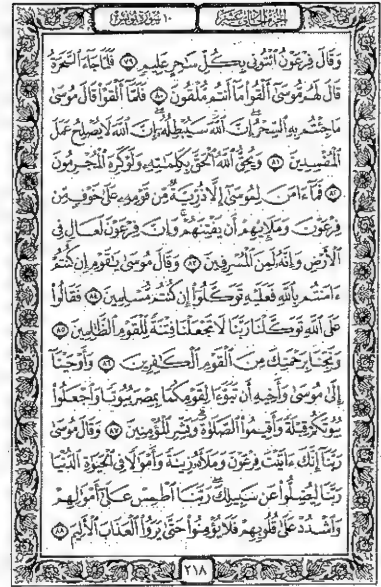
وأما من جاء بالحق فرد قوله بأمثال
هذه الأمور، فإنها تدل على عجز
موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي
جاء به خصمه، لأنه لو كان له حجة
لأردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك
كذا، أو مرادك كذا، سواء كان صادقا
في قوله وإجباره عن قصد خصمه أم
كاذباً، مع أن موسى عليه الصلاة
والسلام كل من عرف حاله وما يدعو
إليه، عرف أنه ليس له قصد في العلو
في الأرض، وإنما قصده كقصده
إخوانه المرسلين، هداية الخلق
وإرشادهم لما فيه نفعهم.

ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به
بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾
أي: تكبراً وعناداً، لا لبطلان ما جاء
به موسى وهارون، ولا لاشتباه فيه،
ولا لغير ذلك من المعاني، سوى الظلم
والعدوان، وإرادة العلو الذي رما به
موسى وهارون.

﴿٧٩﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضاً
للحق الذي جاء به موسى ومغالطاً^(٢)
للملة وقومه: ﴿أُتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ
عَلِيمٍ﴾ أي: ماهر بالسحر، متقن له.
فأرسل في مذائن مصر من أتاه
بأنواع السحرة، على اختلاف أجناسهم
وطبقاتهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ للمغالبة مع
موسى ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا
أَنْتُمْ مَلْعُونُونَ﴾ أي: أي: شيء أردتم لا
أعين لكم شيئاً، وذلك لأنه جازم
بغلبيته، غير مبال بهم وإنما جازوا به.

﴿فَلَمَّا الْقُوا﴾ جالهم وعصيهم،
إذا هي كأنها حيات تسعى، فـ ﴿قَالَ
مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ﴾ أي: هذا
السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع
عظمته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾، إن الله
لا يصلح عمل المفسدين، فإنهم
يريدون بذلك نصر الباطل على الحق،
وأي: فساد أعظم من هذا!!



المين. ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ -
موضحاً لهم عن ردهم الحق الذي
لا يرده إلا أظلم الناس -: ﴿أَتَقُولُونَ
لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ أي: أنقولون إنه
سحر مبین.

﴿أسحر هذا﴾ أي: فانظروا وصفه
وما اشتمل عليه، فيمجرد ذلك يجزم
بأنه الحق. ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ لا
في الدنيا ولا في الآخرة، فانظروا لمن
تكون له العاقبة، لمن له الفلاح وعلى
يديه النجاح. وقد علموا بعد ذلك
وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام
هو الذي أفلح وفاز بظفر الدنيا
والآخرة.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوا﴾ لموسى راديين
لقوله بما لا يرده: ﴿أَجِئْنَا لَتُفْنِتَنَا عَمَّا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: أجئنا لتصدنا
عما وجدنا عليه آبائنا من الشرك
وعبادة غير الله، وتأمرنا بأن نعبد الله
وحده لا شريك له؟ فجعلوا قول
آبائهم الضالين حجة، يردون بها الحق
الذي جاءهم به موسى عليه السلام.

وقولهم^(١): ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ
الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وجئتمونا
لتكونوا أنتم الرؤساء، ولتخرجونا من
أرضنا. وهذا تمويه منهم، وترويج على
جهالهم، وتهيج لعوامهم على معادة
موسى وعدم الإيمان به.

(٣) في ب: للمغالبة لموسى.

(٢) في ب: ومغالبا.

(١) في ب: وقوله.

الإيمان.

﴿فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾
أي: اعتمدوا عليه، والجؤوا إليه واستصروه.

﴿٨٥﴾ ﴿فقالوا﴾ عثلين لذلك
﴿عل الله توكلنا ربنا لا نجعلنا فتنه
للقوم الظالمين﴾ أي: لا تسلطهم علينا
فيفتنونا، أو يغلبونا فيفتنونا بذلك،
ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا.

﴿٨٦﴾ ﴿ونحنا برحمتك من القوم
الكاافرين﴾ لنسلم من شرهم، ولنقيم
[على] ديننا على وجه تتمكن به من إقامة
شرائعه، وإظهاره من غير معارض ولا
منازع.

﴿٨٧﴾ ﴿وأوحينا إلى موسى
وأخيه﴾ حين اشتد الأمر على قومهما
من فرعون وقومه، وحرصوا على
فتنهم عن دينهم.
﴿أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً﴾
أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتاً
يتمكنون [به] من الاستخفاء فيها.

﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي:
اجعلوها محلاً تصلون فيها، حيث
عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس
والبيع العامة.

﴿وأقيموا الصلاة﴾ فإنها معونة على
جميع الأمور، ﴿وبشّر المؤمنين﴾ بالنصر
والتأييد وإظهار دينهم، فإن مع العسر
يسراً، إن مع العسر يسراً، وحين اشتد
الكرب وضاق الأمر، فرّجه الله
ووسعه، فلما رأى موسى القسوة
والإعراض من فرعون وملئه^(١)، دعا
عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال:

﴿٨٨﴾ ﴿ربنا إنك أتيت فرعون
وملأه زيتة﴾ يتزينون بها من أنواع الخلي
والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب
الفاخرة، والخدام، ﴿وأموالاً عظيمة﴾
﴿في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن
سبيلك﴾ أي: إن أموالهم لم يستعينوا
بها إلا على الإضلال في سبيلك،
فيضلون ويضلون.

﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ أي:

أثلفها عليهم: إما بالهلاك، وإما
بجعلها حجارة غير متفَع بها.
﴿واشد على قلوبهم﴾ أي: قسها
﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب
الاليم﴾.

قال ذلك غضباً عليهم، حيث
تجرؤوا على محارم الله، وأفسدوا
عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال
معرفة بربه، بأن الله سيعاقبهم على ما
فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.

﴿٨٩﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد
أجيبت دعوتكما﴾ هذا دليل على أن
موسى [كان] يدعو، وهارون يؤمن
على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون
شريكاً للداعي في ذلك الدعاء.

﴿فاستقيما﴾ على دينكما، واستمرا
على دعوتكما، ﴿ولا تتبعان سبيل
الذين لا يعلمون﴾ أي: لا تتبعان
سبيل الجهال الضلال، المنحرفين عن
الصراط المستقيم، المتبعين لطرق
الجحيم، فأمر الله موسى أن يسري
ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أنهم
يُتبعون، وأرسل فرعون في المداين
حاشرين يقولون: ﴿إن هؤلاء﴾ أي:
موسى وقومه: ﴿لشرذمة قليلون﴾
وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجمع
حاذرون *.

فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم،
فأَتَمهم بجنوده، بغياً وعدواً، أي:
خروجهم باغين على موسى وقومه،
ومعتدين في الأرض، وإذا اشتد البغي
واستحكم الذنب فانتظر العقوبة.

﴿٩٠﴾ ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل
البحر﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى
لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه
فضربه، فانفلق اثني عشر طريقاً،
وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون
وجنوده خلفه^(٢) داخلين.

فلما استكمل موسى وقومه
خارجين من البحر، وفرعون وجنوده
داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم على
فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو

إسرائيل ينظرون.

حتى إذا أدرك فرعون الغرق،
وحزم بهلاكه ﴿قال﴾ أنت أنه لا إله إلا
الذي أنت به بنو إسرائيل، وهو الله
الإله الحق الذي لا إله إلا هو * وأنا
من المسلمين * أي: المنقادين
لدين الله، ولما جاء به موسى.

﴿٩١﴾ ﴿قال الله تعالى - مبيناً أن
هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع
له -: ﴿الآن﴾ - تؤمن، وتقر
برسول الله ﴿وقد عصيت قبل﴾ أي:
بارزت بالمعاصي، والكفر والتكذيب
﴿وكنت من المفسدين﴾ فلا ينفعك
الإيمان كما جرت عادة الله، أن
الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة
الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم،
لأن إيمانهم صار إيماناً مشاهداً كإيمان
من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو
الإيمان بالغيب.

﴿٩٢﴾ ﴿فاليوم نجيبك ببدنك
لتكون لمن خلفك آية﴾ قال المفسرون:
إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من
الرب العظيم من فرعون، كأنهم لم
يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك،
فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة
مرتفعة ببدنه، ليكون لهم عبرة وآية.
﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا

(١) في النسختين: وملئهم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في أ: وجنودهم خلفهم، وفي ب عدلت إلى: وجنوده خلفه.





هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين للعين.

والا فإذا كان ربهم واحداً، ورسولهم واحداً، ودينهم واحداً، ومصلحهم العامة متفقة، فلا ي: شيء يختلفون اختلافاً يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصلحهم الدينية والدينية ما يفوت، ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟

فنسألك اللهم لطفاً لعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

﴿٩٤ - ٩٥﴾ «فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين» يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟

«فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك» أي: اسأل أهل الكتاب المنصفين، والعلماء الراشخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقتهم لما معهم، فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وزدوا عليه دعوته:

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهاناً على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا من عدة أوجه: منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول

لغافلون، ولذلك تمر عليهم ولا يتفكرون بها لعدم إقبالهم عليها.

وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

﴿٩٣﴾ «ولقد بوأنا بني إسرائيل موباً صدق» أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم.

«ورزقناهم من الطيبات» من المطاعم والمشارب وغيرهما «فما اختلفوا» في الحق «حتى جاءهم العلم» الموجب لاجتماعهم وإتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير.

«إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» يحكمه العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما

الصادقين منهم وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أخبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» [وأصحابه وكثير عن أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه ومن بعده] ^(١) و «كعب الأحبار» وغيرهما.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي يتسبون إليه.

فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدق، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم ^(٢) على إنكار ذلك لم يقدر بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه ويبنوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعاً واختياراً، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب ^(٣)

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انتقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين أثروا رياستهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم

(١) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف، وقد شطبت في ب الجملة التالية وهي قوله (وكعب الأحبار وغيرهما).

(٢) في النسختين: وأخبرهم ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في ب: أهل الكتاب.

تدركها أفعالنا.

قال الله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى قوله: ﴿فأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون﴾ فآمنوا فممتنعهم إلى حين ﴿ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر، [بل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه] (١) والله أعلم.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويعمل الرجس على الذين لا يعقلون. يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرة صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين.

﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله (٢) [على] (٣) شيء من ذلك.

﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي: بإرادته ومشئته وإذنه القدري الشرعي، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهده.

﴿ويعمل الرجس﴾ أي: الشر والضلال ﴿على الذين لا يعقلون﴾ عن الله أو أمره ونواهيه، ولا يلحقون بالآلة لنصائحه ومواعظه.

﴿١٠١ - ١٠٣﴾ ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴿ثم نتجى رسلنا والذين

وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به. فحيث يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٩٨﴾ ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ يقول تعالى: ﴿فلولا كانت قرية﴾ من قرى المكذبين ﴿آمنت﴾ حين رأت العذاب ﴿فنفعها إيمانها﴾ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريباً، لما قال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فقبل له ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين.

وكما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده.

وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني﴾ لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلا.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإن الإيمان الاضطرابي ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان، لرجع إلى الكفران.

وقوله: ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا﴾ بعدما رأوا العذاب، ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ فهم مستنونون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا، ولم

أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً لملكهم، وترويحاً لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئية الظاهرة.

وقوله: ﴿لقد جاءك الحق﴾ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال: ﴿من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ كقوله تعالى: ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين﴾ وحاصل هذا أن الله شى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار، وهو عليم الريح أصلاً، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن، وطمانينة القلب إليه، والإقبال عليه علماً وعملاً.

فبذلك يكون العبد من الراجحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم يقول تعالى: ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك﴾ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً وغياً إلى غيهم.

وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في النسختين: غير الله، وكان لا بد من زيادة اللام لتستقيم العبارة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

للعباد، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذ من بضر، كفقر ومرض، ونحوها ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرد الله، ولهذا قال: ﴿وان يردك بخير فلا راد لفضله﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم، ﴿وهو الغفور﴾ لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جنوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل الباطح أن الله هو المنفرد بالنعيم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكرابات، وأن أحداً من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجزاه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ولهذا - لما بين الدليل الواضح قال بعده: -

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿أي: قل﴾ يا أيها الرسول، لما تبين البرهان ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق

محمد ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾ أي: في ريب واشتباه، فإني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميّتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد ويصل له ويخضع ويسجد.

﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وأن أتم وجهك للمدين حنيفاً ﴿أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، ولا تكونون من المشركين﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى.

﴿فإن فعلت﴾ بأن^(١) دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟! ﴿١٠٧﴾

﴿وان يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق

أتموا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها وما تحتوي عليه، والاستبصار، فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام.

﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها، ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: من الهلاك والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قل فانتظروا إنى معكم المنتظرون﴾ فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسول وأتباعهم.

ولهذا قال: ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدها.

﴿كذلك حقاً علينا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿ننجي المؤمنين﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه - بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من المكاره.

﴿١٠٤-١٠٦﴾ ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وأن أتم وجهك للمدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ يقول تعالى لنبيه

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام، [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير * يقول تعالى: هذا كتاب عظيم، ونزل كريم، ﴿أحكمت آياته﴾ أي: أتقنت وأحسننت، صادقة أخبارها، عادلة أوامرها ونواهيها، فصيحة أفاضله بية معانيه.

﴿ثم فصلت﴾ أي: ميزت وبينت بياناً في أعل أنواع البيان، ﴿من لدن حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خبير﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

﴿٢﴾ فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه لـ ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿إنني لكم﴾ أي: أنا الله ربكم ﴿نذير﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، و﴿بشير﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإتابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به

من ربكم * أي: الخير الصادق المؤيد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم الذي من أعظم تزييته لكم، أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم، وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغي ولم يبق لأحد شبهة.

﴿فمن اهتدى﴾ بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه، وأثره على غيره، فلنفسه والله تعالى غني عن عبادته، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم.

﴿ومن ضل﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به، ﴿فإنما يضل عليها﴾ ولا يضر الله شيئاً، فلا يضر إلا نفسه.

﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل. فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿واتبع﴾ أيها الرسول ﴿ما يوحى إليك﴾ علماً وعملاً وحالاً، ودعوة إليه، ﴿واصبر﴾ على ذلك، فإن هذا أعل أنواع الصبر، وإن عاقبته حيدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك واثبت، ﴿حتى يحكم الله﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وهو خير الحاكمين﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمد عليه.

وقد امثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان، فله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

ثم تفسير سورة يونس والحمد لله رب العالمين



﴿إلى أجل مسمى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿ويؤت﴾ منكم ﴿كل ذي فضل فضله﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿وإن تولوا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي قوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء^(١)، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

﴿٥﴾ ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴿يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم، أنهم يثنون صدورهم﴾ أي: يميلونها ليستخفوا ﴿من الله، فتقع صدورهم

دعوته، فإن كنتم صادقين، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ على شيء من ذلكم ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] ﴿لقيام الدليل والمقتضى، وانتفاء المعارض.

﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للالوهية والعبادة، ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته، وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصنعه اعتراض المعارضين، ولا قبح القادحين.

خصوصاً إذا كان القدح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها. بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب. وفيها أن هذا القرآن، معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء، تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن بما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿يقول تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها

يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ فلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿يقول تعالى - مسلياً لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب الكاذبين -: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾ أي: لا ينبغي هذا لملك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفیه ولا يضيق لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً، يؤثر فيه وينقص قدره، فيضيق صدرك لذلك؟!

أم عليك حسابهم، ومطالب بهدايتهم جبراً؟ ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن؟

فأجابهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أنه قد افتراه ^(٢)، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال

به يستهزؤون﴾ من العذاب، حيث تهاوتوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور﴾ ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾ ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلاً، أو خيراً منها عليه.

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر، ويظن أنه سيذوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور﴾ أي: فرح ^(١) بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشتر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدراؤهم، وأي: عيب أشد من هذا!!

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم يياسوا، وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل مخذور. ﴿وأجر كبير﴾ وهو: الفوز بجنات النعيم، التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن

(١) في ب: يفرح.

(٢) في ب: أي: أنه قد افتراه.

(٣) في ب: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلِّ مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، بِنَسِئَةِ الشَّرِيكِ لَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، أَوْ الْإِخْبَارِ عَنْهُ، بِمَا لَمْ يَقُلْ، أَوْ ادَّعَاءِ النُّبُوَّةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ، فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ النَّاسِ ظُلْماً ﴿أُولَئِكَ يَعْرِضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لِيَجْزِيَهُمْ بِظُلْمِهِمْ، فَعِنْدَمَا يُعْجَمُ عَلَيْهِمْ بِالْعِقَابِ الشَّدِيدِ ﴿يَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ أَي: الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمْ بِإِفْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أَي: لَعْنَةُ لَا تَنْقُطُ، لِأَنَّ ظُلْمَهُمْ ضَارٌّ وَصَفَاءُ لَهُمْ مُلَازِمٌ، لَا يَقِلُّ التَّخْفِيفُ.

ثُمَّ وَصَفَ ظُلْمَهُمْ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَصَدُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَهِيَ سَبِيلُ الرِّسَالِ الَّتِي دَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا، وَصَدُّوا غَيْرَهُمْ عَنْهَا، فَصَارُوا أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ.

﴿وَيُبْغِضُونَهَا﴾ أَي: سَبِيلَ اللَّهِ ﴿عُوجاً﴾ أَي: يَجْتَهِدُونَ فِي مِيلِهَا، وَتَشْوِيشِهَا، وَتَهْجِيزِهَا، لِتَصِيرَ عِنْدَ النَّاسِ غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ، فَيُحْسِنُونَ الْبَاطِلَ وَيَقْبِضُونَ الْحَقَّ، قَبْضَهُمُ اللَّهُ ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: لَيْسُوا فَائِزِينَ مِنَ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ خَفَ قَبْضَتُهُ وَفِي سُلْطَانِهِ.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فَيَدْفَعُونَ عَنْهُمْ الْمَكْرَهُ، أَوْ يَحْصِلُونَ لَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ، بَلْ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أَي: يَغْلُظُ وَيَزَادُ، لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَضَلُّوا غَيْرَهُمْ.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أَي: مِنْ غَضَبِهِمْ لِلْحَقِّ وَنُفُورِهِمْ عَنْهُ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا آيَاتِ اللَّهِ سَمْعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ ﴿فَمَا لَهُمْ مِنَ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ كَأَنَّهُمْ حَرَّضُوا نَفْسَهُمْ عَلَى الْفُرْتِ مِنَ قِسْوَةِ ﴿وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ أَي: يَنْظُرُونَ نَظْرَ

أَوْحَاهُ اللَّهُ وَشَرْعَهُ، وَعَلِمَ بِعَقْلِهِ حَسَنَتَهُ، فَازْدَادَ بِذَلِكَ إِيمَاناً إِلَى إِيمَانِهِ.

﴿وَتَمَّ شَاهِدُ ثَالِثٍ وَهُوَ﴾ كِتَابُ مُوسَى ﴿التَّوْرَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ﴾ ﴿إِمَاماً﴾ لِلنَّاسِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ لَهُمْ، يَشْهَدُ لِهَذَا الْقُرْآنِ بِالصِّدْقِ، وَيُؤَقِّقُهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

أَي: أَفَمَنْ كَانَ هَذَا الْوَصْفُ قَدْ تَوَارَدَتْ عَلَيْهِ شَوَاهِدُ الْإِيمَانِ، وَقَامَتْ لَدَيْهِ أَدْلَةُ الْيَقِينِ، كَمَنْ هُوَ فِي الظُّلُمَاتِ وَالْجَهَالَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟

لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا عِنْدَ عِبَادِ اللَّهِ، ﴿أُولَئِكَ﴾ أَي: الَّذِينَ وَفَّقُوا لِقِيَامَ الْأَدْلَةِ عَنْدهُمْ، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بِالْقُرْآنِ حَقِيقَةً، فَيُشِيرُ لَهُمْ إِيْمَانُهُمْ كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أَي: سَائِرِ طَوَائِفِ أَهْلِ الْأَرْضِ، الْمُتَحْزِبَةِ عَلَى رَدِّ الْحَقِّ، ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ لَا يَذْمُنُ وَرُودَهُ إِلَيْهَا ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ﴾ أَي: فِي أَدْنَى شَكٍّ ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إِمَّا جَهْلاً مِنْهُمْ وَضَلَالاً، وَإِمَّا ظُلْماً وَعِنَاداً وَبَغْياً، وَإِلَّا فَمَنْ كَانَ قَصْدُهُ حَسَناً وَفَهْمُهُ مُسْتَقِيماً، فَلَا يَدَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، لِأَنَّهُ يَرَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

﴿١٨ - ٢٢﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولَئِكَ يَعْرِضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُبْغِضُونَهَا عُوجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿لَا جِزْمَ أَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا أَخْذَ أَظْلَمَ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقِنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ، مِنَ الذَّهَبِ، وَالْفُضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ، وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ. قَدْ صَرَفَ رَغْبَتَهُ وَسَعِيَهُ وَعَمَلَهُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِلدَّارِ الْقَرَارِ مِنْ إِرَادَتِهِ شَيْئاً، فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا كَافِراً، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُؤْمِناً، لَكَانَ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ يَمْنَعُهُ أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ إِزَادَتِهِ لِلدَّارِ الدُّنْيَا، بَلْ نَفْسُ إِيمَانِهِ وَمَا تَسَّرَ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ إِزَادَتِهِ الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَلَكِنْ هَذَا الشَّقِيُّ، الَّذِي كَانَهُ خَلَقَ لِلدُّنْيَا وَحْدَهَا ﴿ثَوَفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ أَي: نَعَطِيهِمْ مَا قَسَمَ لَهُمْ فِي أَمِّ الْكِتَابِ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ أَي: لَا يَنْقُصُونَ شَيْئاً عَمَّا قَدَّرَ لَهُمْ، وَلَكِنْ هَذَا مَتْنِي نَعِيمِهِمْ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، لَا يَقْتَرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، وَقَدْ حَرَّمُوا جَزِيلَ الثَّوَابِ.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا، أَي: بَطُلَ وَاضْمَحَلَّ مَا عَمِلُوهُ عَمَّا يَكِيدُونَ بِهِ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ، وَمَا عَمِلُوهُ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ الَّتِي لَا أُسَاسَ لَهَا، وَلَا وَجُودَ لَشَرْطِهَا، وَهُوَ الْإِيمَانُ.

﴿١٧﴾ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ وَرَثَتِهِ الْقَائِمِينَ بِدِينِهِ، وَحُجَّجِهِ الْمُوقِنِينَ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ لَا يُوَصِّفُ بِهِمْ غَيْرَهُمْ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِثْلَهُمْ، فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بِالْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَ^(١) اللَّهُ فِيهِ الْمَسَائِلَ الْمُهَمَّةَ، وَدَلَالَتِهَا الظَّاهِرَةَ، فَتَقِينُ تِلْكَ الْبَيْتَةَ.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أَي: يَتْلُو هَذِهِ الْبَيْتَةَ وَالْبِرْهَانَ بِرَهَانٍ آخَرَ ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وَهُوَ شَاهِدُ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَالْعَقْلُ الصَّحِيحُ، حِينَ شَهِدَ حَقِيقَةَ مَا

(١) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: أَنْزَلَهُ.



مثلاً، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف، «أفلا تذكرون» الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتتركوها.

﴿٢٥-٤٩﴾ «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنني لكم نذير مبين» إلى آخر القصة^(١) أي: ولقد أرسلنا رسولنا نوحاً أول المرسلين «إلى قومه» يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال لهم: «إني لكم نذير مبين» أي: بينت لكم ما أنذركم به بيانا زال به الإشكال.

﴿٢٧﴾ «أن لا تعبدوا إلا الله» أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله. «إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم» إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني.

﴿٢٧﴾ «فقال الملأ الذين كفروا من قومه» أي: الأشراف والرؤساء، رادين لدعوة نوح عليه السلام، كما جرت العادة لأمثالهم، أنهم أول من رد دعوة المرسلين.

﴿٢٨﴾ «ما نراك إلا بشراً مثلاً» وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب الذي لا ينبغي غيره، لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل أمر، بخلاف الملائكة.

﴿٢٩﴾ «وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا» أي: ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة بزعمهم.

وهم في الحقيقة الأشراف وأهل العقول الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم الملأ، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون لها، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟

وقولهم: «بادي الرأي» أي: إنما اتبعوك من غير تفكير وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو

عبرة وتفكر، فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون.

﴿٣٠﴾ «أولئك الذين خسروا أنفسهم» حيث فوتوها أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب، «وضل عنهم ما كانوا يفترون» أي: اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

﴿٣١﴾ «لا جرم» أي: حقاً وصدقاً «أنهم في الآخرة هم الأخسرون» حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده، لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، نستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء، ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب، فقال:

﴿٣٢-٣٤﴾ «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون» مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون؟ يقول تعالى: ﴿إن الذين آمنوا بقلوبهم، أي: صدقوا واعتبروا، لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده.

﴿٣٥﴾ «وعملوا الصالحات» المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان. «وأخبتوا إلى ربهم» أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه.

﴿٣٦﴾ «أولئك» الذين جمعوا تلك الصفات «أصحاب الجنة هم فيها خالدون» لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً، إلا أدركوه، ولا خيراً، إلا سبقوا إليه.

﴿٣٧﴾ «مثل الفريقين» أي: فريق الأتقياء وفريق السعداء، «كالأعمى والأصم» هؤلاء الأشقياء، «والبصير والسميع» مثل السعداء.

﴿٣٨﴾ «هل يستويان مثلاً» لا يستويون

إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولى الآليات يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمر الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل.

﴿٣٩﴾ «وما نرى لكم علينا من فضل» أي: لستم أفضل منا فنقد لكم، «بل نظنكم كاذبين» وكذبوا في قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

ولهذا «قال» لهم نوح مجاباً «يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي» أي: على يقين وجزم، يعني وهو الرسول الكامل القدوة، الذي يتقاده أولو الآليات، ويضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقاً، فإذا قال: إني على بينة من ربي، فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقاً.

﴿٤٠﴾ «وأتاني رحمة من عنده» أي: أوحى إلي وأرسلني، ومن علي بالهداية، «فعميت عليكم» أي: خفيت عليكم، وبها تناقلت.

﴿٤١﴾ «أنزلكم منها» أي: أنكرهم على ما تحققنا، وشككتهم فيه؟ «وأنتم لها كارهون» حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم

(١) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: «فأصبر إن العاقبة للمتقين».

السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم، فعل ذلك. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن إرادة الله غالبة، فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك ينفع لكم شيئاً، ﴿هُوَ رَكِيمٌ﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون: افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ عَمَّا يُجْرَمُونَ﴾ أي: كل عليه وزره ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصصها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان الشام، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم للدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فيأذرعوا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي﴾ أي: ذنبي

والأصلح، وتدبرون الأمور.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: غاييتي أني رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وأما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي من أشاء وأحرم من أشاء، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ فأخبركم بسر أئركم وبواطنكم ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ والمعنى: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني.

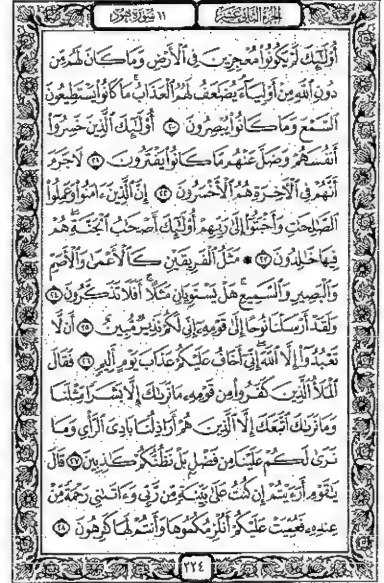
﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: ضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.

﴿إِنِّي إِذَا﴾ أي: إن قلت لكم شيئاً مما تقدم ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تأييس منه عليه الصلاة والسلام لقومه، أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمتقهم، وتقنع لقومه بالطرق المقتنة للمنصف.

فلما رآه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فما أجهلهم وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة لئيبهم الناصح.

فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشفقت علينا، ودعوتنا إلى أمر لم يتبين لنا فريد منك أن تبيته لنا لتتقاد لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك. لكان هذا الجواب المنصف، الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم متجرؤون. ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة، فضلاً عن أن يردوه بحجة.

ولهذا عدلوا - من جهلهم وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه



وافترأكم علينا صادراً لنا عما كنا عليه. وإنما غايته أن يكون صادراً لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم ما أنفرت من عنه، ولهذا قال: ﴿أَنْزِلْهُمْ مَكْمُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ وبما قوم لا أسألكم عليه: أي: على دعوتي إياكم ﴿مَالًا﴾ فتستثقلون المغم.

﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل ألتفاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام ﴿إِنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ﴾ فمشيهم على إيمانهم وتقواهم بجنت التيم.

﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم إنني بشر مثلكم وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمُوهُ﴾ أي: من يمتنع من عذابه، فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو الأنفع لكم



في المغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين، ودل هذا على أن نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم، داخل في قوله «ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون» بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: «وأهلك».

وبعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم.

«قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك» من الآدميين وغيرهم من الأرواح التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها.

«وأمم سمتهم» في الدنيا «ثم يحسبهم منا عذاب أليم» أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن كفر بعد ذلك أحللتنا به العقاب، وإن متعوا قليلاً، فسوف نخذون بعد ذلك.

قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المبسوطة التي لا يعلمها إلا من من عليه برسائله.

«تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» فيقولوا: إنه كان يعلمها.

فاحمد الله واشكره، واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم، والصراط المستقيم والدعوة إلى الله «إن العاقبة للمتقين» الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

«٥٠ - ٦٠» «وإلى عاد أخاهم هوداً» إلى آخر القصة^(١). أي: «هو» أرسلنا «إلى عاد» وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف، من أرض اليمن، «أخاهم» في النسب «هوداً» ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه.

ف «قال» لهم «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون» أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افترضوا على الله الكذب في عبادتهم لغيره، وتحيزهم لذلك، ووضح لهم وجوب عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه.

ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال: «يا قوم لا أسألكم عليه أجراً» أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجاناً.

«إن أجرة إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون» ما أدعوكم إليه، وأنه موجب لقبوله، منتف المانع عن رده.

«ويا قوم استغفروا ربكم» عما مضى منكم «ثم توبوا إليه» فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله تعالى.

فإنكم إذا فعلتم ذلك «يرسل السماء عليكم مدراراً» بكثرة الأمطار التي تهب بها الأرض، ويكثر خيرها.

«ويزدكم قوة إلى قوتكم» فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: «من أشد منا قوة؟» فوعدهم أنهم

إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم.

«ولا تتولوا» عنه، أي: عن ربكم «مجرمين» أي: مستكبرين عن عبادته، متجربين على محارمه.

ف «قالوا» رادين لقوله: «يا هود ما جئنا ببينة» إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها، فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بأية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة، فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إليهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه.

بل أهل العقول وأولو الألباب، يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس، هي المعجزات فقط. ومن آياته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديه، ويعجزهم، ويقول لهم: «إني توكلت على الله ربي وربكم».

«إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون» وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور، بأي: طريق كان وهو غير مكتوث منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدر أن ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.

وقولهم «وما نحن بتاركي آلِهتنا

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: «ألا بعداً لعاد قوم هود».

عن قولك ﴿أي: لا ترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمته عليه بيعة بزعمهم، ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ وهذا تأييس منهم لنبيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم بعمهمون.

﴿إن نقول﴾ فيك ﴿إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ أي: أصابك بخبال وجنون فصرت تهذي بما لا يعقل. فسبحان من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق، بهذه المربة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاهما عنهم.

ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلهتهم أذى فقال: ﴿إني أشهد الله وأشهدوا أي برئ عما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً﴾ أي: اطلبوا لي الضرر كلكم، بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي: لا تهملوني.

﴿إني توكلت على الله﴾ أي: اعتمدت في أمري كله على الله ﴿وبريكم﴾ أي: هو خالق الجميع، ومديرنا وإياكم، وهو الذي ربانا.

﴿ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي، لم تقدرُوا على ذلك، فإن سلطكم، فلحكمة أرادها.

﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي: على عدل، وقسط، وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم، التي يحمد ويثنى عليه بها.

﴿فإن تولوا﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فقد أبليتكم ما أرسلت به إليكم﴾ فلم يبق علي تبعه من شأنكم. ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾

يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئاً ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ فإن ضرركم إنما يعود عليكم، فالله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة المطيعين^(١) ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ [﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾].

﴿ولما جاء أمرنا﴾ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم، التي ﴿ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم﴾.

﴿فنجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ أي: عظيم شديد، أحله الله بعباد، فأصبحوا لا يرى إلا مسكنهم.

﴿وتلك عاد﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع يظلم منهم لأنهم ﴿جعلوا بآيات ربهم﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿ما جئنا بيعة﴾ فتيين بهذا أنهم متيقنون لدعوتهم، وإنما عاندوا وجحدوا ﴿وعصوا رسله﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع المرسلين، لأن دعوتهم واحدة.

﴿واتبعوا أمر كل جبار﴾ أي: متسلط على عباد الله بالجبروت، ﴿عنيد﴾ أي: معاند لآيات الله، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلكهم الله.

﴿واتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ فكل وقت وجيل، إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به، وذم يلحقهم ﴿ويوم القيامة﴾ لهم أيضاً لعنة ﴿إلا إن عاداً كفروا ربهم﴾ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم. ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

﴿٦٨-٦٩﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إلى آخر قصتهم^(٢)، أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وهم: عاد الثانية، المعروفون الذين يسكنون



الحجر، ووادي القرى، ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿صالحاً﴾ عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحدوه، وأخلصوا له الدين ﴿ما لكم من إله غيره﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي: خلقكم فيها ﴿واستعمركم فيها﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض تبون وتغرسون وتزرعون، وتحراثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته.

﴿فاستغفروه﴾ ما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة، ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ونحن

(١) في ب: الطائعين.

(٢) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لثمود﴾.



وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاتهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها. وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم تتري، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿واننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الرب. وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله: ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بيته من ربي﴾ أي: برهان ويقين مني ﴿وأتاني منه رحمة﴾ أي: من علي برسالته ووحيه، أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعوني إليه؟

﴿فمن ينصرتي من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تحسير﴾ أي: غير خسار وتباب وضرر ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم.

﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: بعقرها، ﴿فياخذكم عذاب قريب، فعقروها فقال لهم صالح: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ بل لا بد من وقوعه.

﴿فلما جاء أمرنا﴾ بوقوع العذاب ﴿فنجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ﴾ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة.

﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم، ﴿وأخذ الذين ظلموا الصبيحة﴾ العظيمة فقطعت

قلوبهم، ﴿فأصبحوا في ديارهم جائمين﴾ أي: خامدين لا حراك لهم.

﴿كان لم يغثوا فيها﴾ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم ولا أنسوا بها^(١)، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل.

﴿ألا إن ثمود كفروا بربهم﴾ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة، ﴿ألا بعداً لثمود﴾ فما أشقاهم وأذلهم، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

﴿٦٩ - ٨٣﴾ ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ إلى آخر القصة^(٢) أي: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ من الملائكة الكرام، رسولنا ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿بالبشرى﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

﴿فما لبث﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أن جاء يعجل حنيد﴾ أي: بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجلًا مشوياً على الرضف سمينا، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟

﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ أي: إلى تلك الضيافة ﴿نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

أقرب إليه من جبل الوريد والقرب الخاص: قربه من عابديه وسائله ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾.

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع﴾ وهذا النوع، قرب يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقاتلة.

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك أقدر كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير.

وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿أتئنهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا﴾

(١) في ب: فيها.

(٢) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين ببيعد﴾.

ف **﴿قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾** أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

وامرأة إبراهيم **﴿قائمة﴾** تخدم أضيافه **﴿فضحككت﴾** حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به، تعجباً. **﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** فتعجبت من ذلك و **﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾** فهذان مانعان من وجود الولد **﴿إن هذا لشيء عجيب﴾**. **﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾** فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك.

﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي: الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد **﴿عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾** أي: حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان، وجود، وبر، وخكمة، وعدل، وقسط.

مجيد، والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأعماها. **﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروح﴾** الذي أصابه من خيفة أضيافه **﴿وجاءته البشري﴾** بالولد التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: **﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته﴾**.

﴿إن إبراهيم حليم﴾ أي: ذو خلق حسن وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين.

﴿أواه﴾ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات، **﴿منيب﴾** أي: رجّاع إلى الله بمعرفته ومحبه، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، فلذلك كان يجادل عمن حتم الله بهلاكهم. فقيل له: **﴿يا إبراهيم أعرض عن**

هذا **﴿الجدال﴾** إنه قد جاء أمر ربك **﴿بهلاكهم﴾** وإنهم أتيتهم عذاب غير مردود، فلا فائدة في جدالك.

﴿ولما جاءت رسلنا﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا **﴿لوطاً سيء بهم﴾** أي: شق عليه مجيئهم، **﴿وضاق بهم ذرعاً﴾** وقال هذا يوم عصيب **﴿أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم، لأنهم في صور شباب جرد مرد، في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله﴾**.

ف **﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾** أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة، التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: **﴿ومن قبل كانوا يعلمون السيئات﴾** أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين.

﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم﴾ من أضيافني [وهذا كما عرض لسليمان **﴿عليه السلام﴾** على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق ولعلمه أن بناته تمتنع مناهل ولا حق لهم فيهن والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى **﴿١﴾** **﴿فاتقوا الله ولا تحزّون في ضيفي﴾** أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تحزّون عندهم.

﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروءتهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

ف **﴿قالوا﴾** له: **﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾** أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء.

فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و **﴿قال لو أن لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد﴾** كقبيلة مانعة لتعتكم.

وهذا بخسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب.



﴿قالوا﴾ له: **﴿إنا رسل ربك﴾** أي: أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه، **﴿لن يصلوا اليك﴾** بسوء.

ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله **﴿يقطع من الليل﴾** أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قرينتهم.

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم.

﴿إلا امرأتك إنه مصيبتها﴾ من العذاب **﴿ما أصابهم﴾** لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهن على أضياف لوط إذا نزل به أضياف.

﴿إن موعدهم الصبح﴾ فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له: **﴿أليس الصبح بقريب﴾** **﴿فلما جاء أمرنا﴾** بنزل العذاب وإحلاله فيهم **﴿جعلنا﴾** ديارهم **﴿عليها سافلها﴾** أي: قلبناها عليهم **﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾** أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة **﴿منضود﴾** أي: متتابعة تتبع من شد عن القرية.

﴿مسومة عند ربك﴾ أي: معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، **﴿وما هي من الظالمين﴾** الذين يشابهون لفعل



أشياءهم ﴿أي﴾ لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ فإن الاستمرار على المعاصي، يفسد الأديان، والعقائد، والدين، والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.

﴿بقيت الله خير لكم﴾ أي: يكفيكم ما أبقي الله لكم من الخير، وما هو لكم، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية، وهو ضار لكم جداً.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان، ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فبلغكم ما أرسلت به.

﴿قالوا يا شعيب أصلحك تأمرن أن نترك ما يعبد آبائنا﴾ أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم، والاستبعاد لإجابتهم له.

ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا، إلا أنك تصلي لله وتتعبد له، أفإن كنت كذلك، أفوجب لنا أن نترك ما يعبد آبائنا، لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك، فكيف نتبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب؟! وكذلك لا يوجب قولك لنا: ﴿أن نفعل في أموالنا﴾ ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان، وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف.

ولهذا قالوا: في تهكمهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ أي: أنك أنت الذي الحلم والوقار لك خلق، والرشد لك سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهى إلا عن غي، أي: ليس الأمر كذلك.

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية. أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآبائنا هم السفهاء الغاؤون!!

وهذا القول الذي أخرجه بصيغة التهكم، وأن الأمر بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه. إن صلاته تأمره أن ينههم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي: فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد.

﴿قال﴾ لهم شعيب: ﴿يا قوم أريتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني.

﴿و﴾ أنا لا أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، فلست أريد أن أنهاكم عن البخش في المكيال والميزان، وأفعله أنا، وحتى تنظروا إلي التهمة في ذلك. بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدئ لتركه.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي.

ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وما توفقي إلا بالله﴾ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي.

﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت في أموري ووثقت في كفايته، ﴿والإيه أتيت﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي [هذا] التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.

ويهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

قوم لوط ﴿ببعيد﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿٨٤ - ٩٥﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ إلى آخر القصة ^(١) أي: ﴿و﴾ أرسلنا [إلى مدين] القبيلة المعروفة الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿شعيباً﴾ لأنهم يعرفونه، وليتمكنوا من الأخذ عنه.

ف ﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعيدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي: اخلصوا له العبادة، فإنهم كانوا يشركون به، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكيال والميزان، ولهذا ناهم عن ذلك فقال: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط.

﴿إني أراكم بخير﴾ أي: بنعمة كثيرة وصحة، وكثرة أموال وبنين، فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا نعمة الله فيزيلها عنكم.

﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي: عذاباً محيط بكم، ولا يبقى منكم باقية.

﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أي: بالعدل الذي ترضون أن تعطوه، ﴿ولا تبخسوا الناس﴾

(١) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾.



تقولون ما لا تقولوا ما لا تفعلون * كَبُرَ مَقْتًا

عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * ومنها: أن وظيفة الرسل وستهم وملتهم، إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، ويدفع المفساد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه لمولاه ومسيده، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ﴾.

ومنها: التهريب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: «إن التائب إذا تاب، فحسبه أن يغفر له، ويعود عليه العفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود». فإن الله قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدودٌ﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرم على إبادتها، وجعلهم عملة وخدماء لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام، فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة، والله أعلم.

﴿٩٦-١٠١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ إلى آخر القصة^(١). يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ بن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به، كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام.

﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة ظاهرة

بينة، ظهرت ظهور الشمس، ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي: أشراف قومه لأنهم المتبوعون وغيرهم تبع لهم، فلم يتقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ بل هو ضال غاو، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم - لما اتبعه قومه - أراهم وأهلكهم.

﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبشئ الوارد المورود﴾ واتبعوا في هذه أي: في الدنيا ﴿لعنة﴾ واللعنة القيامة أي: يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة.

﴿بشئ الرقبة المرفودة﴾ أي: بشئ ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ لتنذر به، ويكون آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿منها قائم﴾ لم يلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم، ﴿و﴾ منها ﴿حصيد﴾ قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم، فلم يبق لها أثر، ﴿وما ظلمناهم﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بالشرك والكفر والعناد.

﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد.

﴿وما زادوهم غير تنبيء﴾ أي: خسار ودمار، بالضد مما خطر ببالهم. ﴿١٠٢﴾ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد، أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء. ﴿إن في ذلك﴾ المذكور من أخذه

(١) في ب: أورد الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وما زادوهم غير تنبيء﴾.

للظالمين بأنواع العقوبات، «لآية لمن خاف عذاب الآخرة» أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة الأخروية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: «ذلك يوم مجموع له الناس» أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، ول يظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة.

«وذلك يوم مشهود» أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين، «وما نؤخره» أي: إتيان يوم القيامة «إلا لأجل معدود» إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق، فحيثما ينقلهم إلى الدار الآخرة، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

«يوم يأت» ذلك اليوم، ويجتمع الخلق «لا تكلم نفس إلا بإذنه» حتى الأنبياء والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، «فمنهم» أي: الخلق «شقي وسعيد» فالأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم: المؤمنون المتقون.

وأما جزاؤهم «فأما الذين شقوا» أي: حصلت لهم الشقاوة والحزني والفضيحة، «ففي النار» منغمسون في عذابها، مشتد عليهم عقابها، «لهم فيها» من شدة ما هم فيه «زفير وشهيق» وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

«خالدين فيها» أي: في النار التي هذا عذابها «ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك» أي: خالدين فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

(١) في ب: لا بد أن يقضي الله بينهم.

«إن ربك فعال لما يريد» فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

«وأما الذين سعدوا» أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح والفوز، «ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك» ثم أكد ذلك بقوله: «عطاء غير مجدود» أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

«١٠٩» «فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص» يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: «فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء المشركون، أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم «ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل».

ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء محتج بها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم في أصول الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال.

«وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص» أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أو راق في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آباؤهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

«١١٠ - ١١٣» «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي

فقد قومه يوم الفصحة فأوردتهم إلى ربك أنزلهم من السور وأتبعوا في هذه لعلهم يوقنوا أنزلهم من السور ذلك من آيات القرآن فقصص عليك فيها قصة حميم وما ظلمتمهم ولكن ظلموا أنفسهم فآخضت عنهم إلى البحر الذي يغربون من دونهم ثم لما جاءهم أنزلهم من السور وما زادهم غير نصيب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذ ربك إلى شريك إن في ذلك لآية لمن كان عادياً الآخرة ذلك يوم تجتمع لئلا تأسوا ذلك يوم مشهود وما يؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا في أربابهم فيما أوتوا وشكوا في أربابهم ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجدود

شك منه مريب * وإن كلا لما ليو فينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خير * فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير * ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون * يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المتبسين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم وبجامعتهم الدينية.

«ولولا كلمة سبقت من ربك» بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب «لقضي بينهم» بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك منه مريب.

وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

«وإن كلا لما ليو فينهم ربك أعمالهم» أي: لا بد أن الله يقضي بينهم ^(١) يوم القيامة بحكمه العدل فيجازي كلا بما يستحقه.



الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن
عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه
الآية التحذير من الركوع إلى كل ظالم،
والمراد بالركوع الميل والانضمام إليه
بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما
هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركوع إلى
الظلمة، فكيف حال الظلمة
بأنفسهم!! نال الله العافية من
الظلم.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾
طرفي النهار وزلفاً من الليل إن
الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى
للدّٰكرين * وأصبر فإن الله لا يضع
أجر المحسنين * يأمر تعالى بإقامة
الصلاة كاملة «طرفي النهار» أي:

﴿١١٤- ١١٥﴾ «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ»
أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة
الفجر، وصلات الظهر والعصر،
«وزلفاً من الليل» ويدخل في ذلك
صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك
قيام الليل، فإنها بما تزلف العبد وتقربه
إلى الله تعالى.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾
أي: فهذه الصلوات الخمس، وما
ألحق بها من التطوعات من أكبر
الحسنات، وهي: مع أنها حسنات
تقرب إلى الله وتوجب الثواب، فإنها
تذهب السيئات وتمحوها، والمراد
بذلك الصغائر، كما قيدتها الأحاديث
الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله:

«الصلوات الخمس، والجمعة إلى
الجمعة، ورمضان إلى رمضان،
مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»،
بل كما قيدتها الآية التي في سورة
النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَبَتُوا

كَبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من
لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم
وعدم مجاوزته وتعبديه، وعدم الركوع
إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة

﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ أي: لا يدفع
عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه
الآية التحذير من الركوع إلى كل ظالم،
والمراد بالركوع الميل والانضمام إليه
بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما
هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركوع إلى
الظلمة، فكيف حال الظلمة
بأنفسهم!! نال الله العافية من
الظلم.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾
طرفي النهار وزلفاً من الليل إن
الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى
للدّٰكرين * وأصبر فإن الله لا يضع
أجر المحسنين * يأمر تعالى بإقامة
الصلاة كاملة «طرفي النهار» أي:

﴿١١٤- ١١٥﴾ «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ»
أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة
الفجر، وصلات الظهر والعصر،
«وزلفاً من الليل» ويدخل في ذلك
صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك
قيام الليل، فإنها بما تزلف العبد وتقربه
إلى الله تعالى.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾
أي: فهذه الصلوات الخمس، وما
ألحق بها من التطوعات من أكبر
الحسنات، وهي: مع أنها حسنات
تقرب إلى الله وتوجب الثواب، فإنها
تذهب السيئات وتمحوها، والمراد
بذلك الصغائر، كما قيدتها الأحاديث
الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله:

«الصلوات الخمس، والجمعة إلى
الجمعة، ورمضان إلى رمضان،
مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»،
بل كما قيدتها الآية التي في سورة
النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَبَتُوا

كَبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من
لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم
وعدم مجاوزته وتعبديه، وعدم الركوع
إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة

﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر
«خبير» فلا يخفى عليه شيء من
أعمالهم دقيقها وجليلها.

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي
أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه
محمدًا ﷺ ومن معه من المؤمنين أن
يستقيموا كما أمروا، فيسلوكوا ما
شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما
أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا
يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة،
ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن
يتجاوزوا ما حده الله لهم من
الاستقامة.

وقوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء،
وسيجازيكم عليها، ففيه ترغيب
لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها،
ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى
الاستقامة فقال: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾ أي:
لا تميلوا إلى الذين ظلموا، فإنكم إذا
ملت إليهم وافقتموهم على ظلمهم، أو
رضيتهم ما هم عليه من الظلم
«فتمسك النار» إن فعلتم ذلك «وما
لکم من دون الله من أولياء» يمنعونكم
من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً
من ثواب الله.

(١) جاء في هامش أ ما نصه: (والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى الذي ذكر هنا، وهو أن هذا بمعنى النفي، أي: إنه لم يكن في القرون السالفة أو لوقية... الخ، «إلا قليلاً ممن أنجينا منهم» أي: لكن بقي قليل بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكرنا لكن ما ذكرنا في الأصل...) ثم لم يضح باقي الكلام لإصابته بالبلل، وهو يسير.

فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس، قاثمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصبرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وإذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿١١٧﴾ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴿١﴾ أي: وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿١١٨-١١٩﴾ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴿١﴾ أي: من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿٢﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن نشئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للضراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿٣﴾ إلا من رحم ربك ﴿٤﴾ فهذا هم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهو لاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم فهم يخذلون موكلون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفوقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله،

والفريق الذين حققت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

﴿٥﴾ لأنه تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿٦﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿١٢٠-١٢٣﴾ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿١﴾ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ﴿٢﴾ وانتظروا إنا منتظرون ﴿٣﴾ والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿٤﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي: قلبك ليطمئن ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالاعتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

﴿٥﴾ وجاءك في هذه السورة ﴿الحق﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿٦﴾ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿٧﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم الموعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بعدما قامت عليهم الآيات، ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: حالتكم التي أنتم

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴿١﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿٢﴾ ولما نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿٣﴾ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ﴿٤﴾ وانتظروا إنا منتظرون ﴿٥﴾ والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿٦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم
الرَّبِّكَ إِنَّكَ إِلَهُ الْكَتَبِ الْيَقِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ عَنْ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَافْقَاهِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُسُفُّ لِيُذِيكُنِي إِنِّي تَأْتِيَنِي آيَاتُكَ مُؤَكَّدَةً كَمَا وَاللَّهِ وَالْقُرْآنِ لِيُذِيكُنِي سَجِينِ ﴿٤﴾

عليها ﴿إنا عاملون﴾ على ما كنا عليه ﴿وانتظروا﴾ ما يحل بنا ﴿إنا منتظرون﴾ ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿والله غيب السماوات والأرض﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجري به قلمه، وسيجري عليه حكمه جزاءه.

تم تفسير سورة هود
والحمد لله رب العالمين
وصلّى الله على محمد وسلم
[وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت
في ٢١ من شهر
ربيع الآخر ١٣٤٧هـ]

المجدد الرابع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير
كلام الرب المنان لجوامع الفقير إلى الله:
عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه
وجميع المسلمين آمين

لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة.

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبد، وإحساناً إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعاً له فيها، ولهذا قال:

﴿وَكذلك يَجْتَبِيكَ رِبْكَ﴾ أي: يصطفيك ويختارك بما يُمَنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ويعلمك من تأويل الأحاديث: أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب المساوية ونحوها، ﴿وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية، ودنيوية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه محيط بالأشياء، وبما أحثت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كل ما تقتضيه حكمته وحجده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

ولما بان تعبيرها ليوسف، قال له أبوه:

﴿يَا بَنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى

عبارتها وروث معانيها، ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذلك محض من الله وإحسان.

﴿وَلَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف، وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة، فقال:

﴿٤-٦﴾ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين * وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم * واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرِك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبلاً، فإن تضاعف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفسير، من الأكاذيب والأمور الشيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير.

فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ، ينقل.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ



تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الر تلتك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين * يخبر تعالى أن آيات القرآن هي آيات الكتاب المبين * أي: البين الواضحة الفاظه ومعانيها، ومن بيانه وإيضاحه:

أنه أنزله باللسان العربي، أشرف اللسنة، وأبينها، [المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة] وكل هذا الإيضاح والتبيين لعلكم تعقلون * أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.

فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه، و لعلكم تعقلون * أي: تزداد عقولكم بتكرار المعاني الشريفة العالية، على أذهانكم، فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

نحن نقص عليك أحسن القصص * وذلك لصدقتها وسلاسة

إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴿١٠﴾ أي: حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتبها عنهم.

﴿٧-٩﴾ ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ﴿٩﴾ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴿٧﴾ يقول تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات﴾ أي: عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿للسائلين﴾ أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبيانات.

﴿إذ قالوا﴾ فيما بينهم: ﴿ليوسف وأخوه﴾ بنيامين، أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة، ﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ أي: جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة، ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي: لفي خطأ بين، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها.

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي: يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم، ﴿وتكونوا من بعده﴾ أي: من بعد هذا الصنيع ﴿قوماً صالحين﴾ أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهلاً لأفعله، وإزالة لشعاعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.

﴿١٠﴾ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴿١١﴾ أي: قال قائل ﴿من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبيعيده: ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبيعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبيعيده بأن تلقوه ﴿في غيابة الجب﴾ وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك أبق منكم، لأجل أن يلتقطه بعض السيارة﴾ الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحفظون فيه.

وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل، فلما اتفقوا على هذا الرأي.

﴿١١-١٤﴾ ﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإننا له لناصحون﴾ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له لحافظون ﴿١٢﴾ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴿١٣﴾ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴿١٤﴾ أي: قال إخوة يوسف، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإننا له لناصحون﴾ أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا موجب؟ ﴿والحال﴾ إننا له لناصحون ﴿أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا:

﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ أي: يتنزه في البرية ويستأنس، ﴿وإننا له لحافظون﴾ أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده.

فأجابهم بقوله: ﴿إني ليحزنني أن

تذهبوا به﴾ أي: مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله ﴿و﴾ مانع ثان، وهو أني أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴿أي: في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.﴾ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة ﴿أي: جماعة، حريصون على حفظه،﴾ إنا إذا لخاسرون ﴿أي: لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.﴾ فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿١٥-١٨﴾ ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ وجاؤوا أباهم عشاء بيبكون ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴿١٧﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب

الجب



الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة، **﴿لَتَنبَغَنَّهُمْ بَأْمَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ليكون إتيانهم متأخراً عن عادتهم، وبكاؤهم دليلاً لهم، وقربة على صديقهم، فقالوا - متعذرين ^(١) - يغدر كاذب - **﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾** إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال، **﴿وَوَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾** توفيراً له وراحة، **﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾** في حال غيبتنا عنه في استيقاننا، **﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾** أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والركة الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرهم، **﴿وَمَا أَكْدُوا بِهِ قَوْلَهُمْ﴾** أنهم **﴿جَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾** زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم

أبوهم بذلك، و **﴿قَالَ﴾**: **﴿يَبْلُ سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا﴾** أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرأتين والأحوال لومين رؤيا يوسف التي قصها عليه ^(٢) ما دلّه على ما قال.

﴿فَصَبِّرْ جِيلَ اللَّهِ وَالْمُسْتَعَانَ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبراً جيلاً، سالماً من السخط والشكوى إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾** لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفى.

﴿١٩ - ٢٠﴾ **﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرَوْهُ بَضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾** وشروه بثمان بخص دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين **﴿﴾** أي: مكث يوسف في الحب ما مكث، حتى **﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾** أي: قافلة تريد مصر، **﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾** أي: فرطهم ومقدمهم، الذي يعس لهم المياه ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، **﴿فَأَدْلَى﴾** ذلك الوارد **﴿دَلْوَهُ﴾** فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج، **﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ﴾** أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، **﴿وَأَسْرَوْهُ بَضَاعَةً﴾** وكان إخوته قريباً منه، فاشتره السيارة منهم، **﴿بِثْمَنٍ بَخْسٍ﴾** أي: قليل جداً، فسره بقوله: **﴿دَرَاهِمٍ مَّعْدُودَةٍ﴾** وكانوا فيه من الزاهدين.

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يُسْرِروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق

منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

﴿٢١﴾ **﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتره عزيز مصر، فلما اشتراه، أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: **﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾** أي: إما ينفعنا كنعف العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد، **﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾** أي: كما يسرنا أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، **﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾** أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب، **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدريّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿٢٢﴾ **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** أي: **﴿لَمَّا بَلَغَ﴾** يوسف **﴿أَشُدَّهُ﴾** أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحوال الثقيلة، من النبوة والرسالة، **﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾** أي: جعلناه نبياً رسولاً، وعالماً ربانياً، **﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإل عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم

(٢) زيادة من هامش: ب.

(١) في ب: عدلت إلى (متعذرين).

علماً نافعاً .

ودل هذا، على أن يوسف وفي مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة .

﴿٢٣-٢٩﴾ ﴿ورأوته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألقيا سيدهما لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ قال هي روادتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ هذه المخنة العظيمة أعظم على يوسف من مخنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختياراً مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما مخنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو كارهاً، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن ﴿رأوته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحسان بشر .

﴿و﴾ زادت المصيبة، بأن ﴿غلقت الأبواب﴾ وصار المحل خالياً، وهما آمان من دخول أحد عليهما، بسبب تغلق الأبواب، وقد دعت إلى نفسها ﴿وقالت﴾ هيت لك﴾ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي، ومع هذا، فهو

غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدهته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، وقد توعده، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم .

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها هماً تركه الله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، المرجح لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و ﴿قال: معاذ الله﴾ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي .

فلا يليق بي أن أقبله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه .

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها وبيادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألقيا سيدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿ما جزاء من أراد

بأهلك سوءاً﴾ ولم تقل ﴿من فعل بأهلك سوءاً﴾ تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل .

وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة، ﴿إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ أي: أو يعذب عذاباً أليماً .

فبرأ نفسه مما رمته به، وقال: ﴿هي روادتني عن نفسي﴾ فحيثما احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما .

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقربته من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: ﴿إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المارود لها العالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب .

﴿وإن كان قميصه قد من دبر، فكذبت وهو من الصادقين﴾ لأن ذلك يدل على هزوبية منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبرأته، وأنها هي الكاذبة .

فقال لها سيدها: ﴿إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾ وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلباً للستر على أهله، ﴿واستغفري﴾ أي: أيتها المرأة ﴿لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة .

﴿٣٠-٣٥﴾ ﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إننا لنراها في ضلال

ميين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكئاً وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخراج عليهن فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكم الذي كنتي فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لبيسجن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين * يعني : أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلتمها، ويقلن : « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حياً » أي : هذا أمر مستقيم، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً .

« قد شغفها حباً » أي : وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب، « إنها لئراها في ضلال مبين » حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكرراً، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتن به امرأة العزيز لتحقق امرأة العزيز، وترين إياه ليعذرنا، ولهذا سماه مكرراً، فقال : « فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن » تدعوهم إلى منزلها للضيافة .

« وأعدت لهن متكئاً » أي : محلاً مهياً بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المأكول اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرت في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره، « وأتت كل واحدة منهن سكيناً » ليقطعن فيها ذلك الطعام

« وقالت » يوسف : « اخرج عليهن » في حالة جماله وبهائه .

« فلما رأيته أكبرنه » أي : أعظمته في صدورهن، ورأين منظره فائقاً لم يشاهدن مثله، « وقطعن » من الدهش « أيديهن » بتلك السكاكين اللاتي معهن، « وقلن : حاش لله » أي : تنزيهاً لله « ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين،

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقاتل معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » أي : امتنع وهي مقيمة على مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقاً ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقاً .

ولهذا قالت له بحضرتين : « ولئن لم يفعل ما أمره لبيسجن وليكونا من الصاغرين » لتلجته بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكذبنه في ذلك .

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، « وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن » أي : أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني سوء، « وأكن » إن صبوت إليهن « من الجاهلين » فإن هذا جهل، لأنه أثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعة في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه !! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة .

« فاستجاب له ربه » حين دعاه « فصرف عنه كيدهن » فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى آيسها، وصرف الله عنه كيدها، « إنه هو السميع » لدعاء الداعي « العليم » بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعاونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر ويان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح .

« بدا لهم » أي : ظهر لهم « من بعد ما رأوا الآيات » الذالة على براءته، « ليسجننه حتى حين » أي : لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن .

« ٣٦ - ٤٠ » « ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصر خيراً وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه تبشاً بتأويله إنا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربّي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبع ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أي : « و » لما دخل يوسف السجن، كان في جملة من « دخل معه السجن فتيان » أي : شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصصها على يوسف ليعبرها، ف « قال أحدهما : إني أراي أعصر خيراً، وقال الآخر : إني أراي أحمل فتوق رأسي خبزاً » وذلك الخبز « تأكل الطير منه

تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجاء، وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتماً لها غاية، فعبّر بها يوسف - وقعت عندهم موقعاً عظيماً، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتدرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، ويتال ذلك المقام المحمود الذي يغط به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت لطافته، ودثت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه، «وقال الذي نجا منهما» أي: من الفتين، وهو: الذي رأى أنه يعصر خراً، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه «وإذ ذكر بعد أمة» أي: وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبيرة لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيلاً بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين، فقال: «أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوه» إلى يوسف لأسأله عنها.

فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجاب عن ذلك، فقال: «يوسف أيها الصديق» أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، «أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون» فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهتمهم.

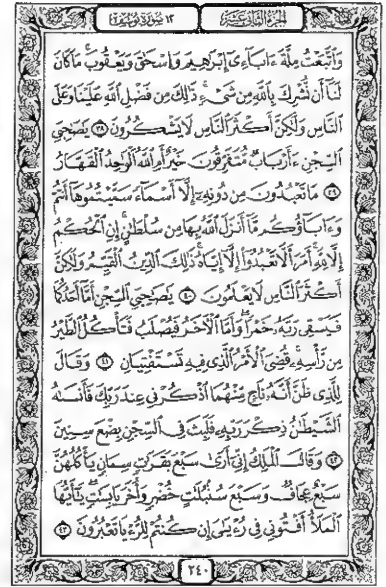
يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً ما تأكلون * ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً ما تحصنون * ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون * لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

وذلك أنه رأى رؤيا حالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي: منهم وقال: «إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع» أي: سبع من البقرات «عجاف» وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كُرُت نهاية في القوة.

«و» رأيت «سبع سنبلات خضر» يأكلن سبع سنبلات «يابسات» «يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي» لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد، «إن كنتم للرؤيا تعبرون» فتعبروا، ولم يعرفوا لها وجهاً. و «قالوا: أضغاث أحلام» أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، [بما ليس بعذراً^(١)] ثم قالوا: «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإننا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم



ذكر ربه قلبت في السجن بضع سنين * أي: «وقال» يوسف عليه السلام: «للذي ظن أنه ناج منهما» وهو: الذي رأى أنه يعصر خراً. «أذكرني عند ربك» أي: أذكر له شأني وقصتي، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، «فأنسى الشيطان ذكر ربه» أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاه.

«قلب في السجن بضع سنين» والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، وبأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سبباً، كان سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك:

«٤٣ - ٤٩» «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوه» يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان

يوسف عن نفسه ﴿فهل رأيته منه ما يريب؟﴾

فبرأته و ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تبتين عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، ف ﴿قالت امرأة العزيز الآن جحش الحق﴾ أي: تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من سوء والتهمة، ما أوجب له السجن^(١). ﴿أنا رادوته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين﴾ في أقواله وبرأته، ﴿ذلك﴾ الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسف، ﴿ليعلم أي لم أخنه بالغيب﴾.

يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أي حين أقررت أني راودت يوسف، أي لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر مني إلا مجرد المرافقة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني، ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيائته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: ﴿وما أبرئ نفسي﴾ أي: من المرافقة والهيم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك، ﴿إن النفس لأماراة بالسوء﴾، أي: لكثرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إلا ما رحم ربي﴾ فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاضية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده.

﴿إن ربي غفور رحيم﴾ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿رحيم﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في

الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

﴿٥٠ - ٥٧﴾ وقال الملك اثنتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيذهن عليم ﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن جحش الحق أننا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴿ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴿وقال الملك اثنتوني به استخلصه لنفسه فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ يقول تعالى: ﴿وقال الملك﴾ لمن عنده ﴿اثنتوني به﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجه من السجن ويحضره إليه، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

ف ﴿قال﴾ للرسول: ﴿ارجع إلى ربك﴾ يعني به الملك، ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إن ربي بكيذهن عليم﴾ فأحضرهن الملك، وقال: ﴿ما خطبكن﴾ أي: شأنكن ﴿إذ راودتن

فعبير يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضراء، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سبع سنين مجذبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحارث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك. وكانت البقرة هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجذب فقال: ﴿تزرعون سبع سنين دأباً﴾ أي: متتابعات.

﴿فما حصدم﴾ من تلك الزروع ﴿فذروه﴾ أي: اتركوه ﴿في سنبلة﴾ لأنه أبقى له وأبعد عن الالتفات إليه ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ أي: دبروا أيضاً أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقته.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿سبع شداد﴾ أي: مجذبات جداً ﴿ياكلن ما قدمتم لهن﴾ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً، ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهن.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ أي: بعد السبع الشداد ﴿عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير^(١) بالسبع

(٢) كذا في ب وفي أ: لسجن يوسف.

(١) في ب: التعبير.

لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه، وهو بنيامين.

ف **﴿قال لهم: ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾** ثم رغبهم في الإتيان به فقال: **﴿ألا ترون أبي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾** فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون **﴿قالوا سنراود عنه أباه وإنا نفعله﴾** وقال لفتيانہ اجمعوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون **﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون﴾** قال هل آمنكم عليه إلا

كما أمنتكم على أخيه من قبل فآله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين **﴿ولما فتحوأ متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾** قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول

وكيل **﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكمل التوكلون﴾** ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وأنه للو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون **﴿أي: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصبة زروعاً هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبا من الأطعمة شيئاً كثيراً وحفظه، وضبطه ضبطاً تاماً، فلما دخلت السنين المجدية، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنيه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر، وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾** أي: لم يعرفوه.

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي: كال الجوارح، من الواجبات والمستحبات. **﴿٥٨ - ٦٨﴾** وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون **﴿ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾** فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون **﴿قالوا سنراود عنه أباه وإنا نفعله﴾** وقال لفتيانہ اجمعوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون **﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون﴾** قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل **﴿أي: تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكد، فلا أئق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أتق**

السجن لم يحضر.

فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك وقال: **﴿ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾** أي: أجعله خصيصاً لي ومقرباً لدي فأتوه به مكرماً محترماً، **﴿فلما كلمه﴾** أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فقال له: **﴿إنك اليوم لدينا﴾** أي: عندنا **﴿مكن أمين﴾** أي: متمكن، أمين على الأسرار، ف **﴿قال﴾** يوسف طلباً للمصلحة العامة: **﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾** أي: على خزائن جبايات الأرض وغللاتها، وكيلاً حافظاً مدبراً.

﴿إني حفيظ عليهم﴾ أي: حفيظ للذي أتوا له، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليهم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه. فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها، قال تعالى: **﴿ووكذلك﴾** أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، **﴿مكننا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء﴾** في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاء عريض، **﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾** أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا.

﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال: **﴿ولأجر الآخرة خير﴾** من أجر الدنيا **﴿للدن الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب، بما أمر الله بالتصديق به، وتنبه أعمال القلوب وأعمال

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي: كال

بالله تعالى.

قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، عليه توكلت أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، وعليه فليتوكل المتوكلون، فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿ولما ذهبوا و دخلوا من حيث أمرهم أبوه ما كان ذلك الفعل يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وإنه لذو علم﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لما علمناه﴾ أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

﴿٦٩-٧٩﴾ ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون﴾ فلما جهزهم بجهزهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أبيها العير إنكم لسارقون ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ قالوا تفقد صواع الملك ولن جاء به حل يعير وأنا به زعيم ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفقد في الأرض وما كنا سارقين﴾ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم

﴿فاله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لاقى إرساله معهم، ثم إنهم ﴿لما فتحو متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، ف ﴿قالوا لا أبيهم - ترغيباً في إرسال أخيه معهم -﴾ يا أبانا ما ينبغي أي: شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وقى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟

﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا وتمير أهلبنا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخينا صار سبباً لكيله لنا، فمرنا^(١) أهلبنا، وأتينا^(٢) لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، ونحفظ أختانا ونزداد كيل بعير، بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

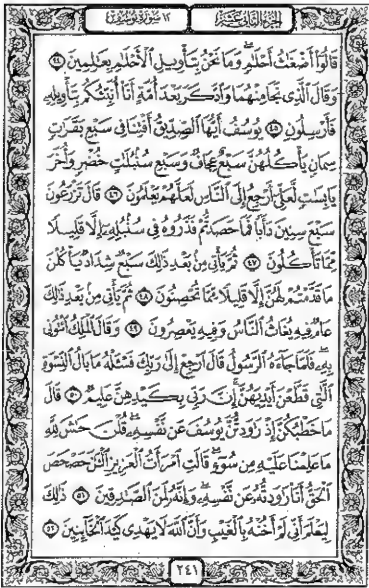
ف ﴿قال لهم يعقوب﴾ ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ أي: عهداً ثقيلاً، وتحلفون بالله ﴿لئلا نتي به إلا أن يحاط بكم﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون دفعه، ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ عبل ما قال وأراد ﴿قال: الله على ما نقول وكيل﴾ أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفائه، ثم لما أرسله معهم وصاحبهم إذا هم قدموا مصر، أن ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء^(٣) رجل واحد، وهذا سبب.

﴿ولا﴾ إلا ف ﴿ما أغني عنكم من الله من شيء﴾ فالقدر لا بد أن يكون، ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي: القضاء

(١) في ب: فتمير.

(٢) في ب: وثاني.

(٣) كذا في ب، وفي أ: ابن.



بيدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه﴾ إنا نراك من المحسنين ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون﴾ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿آوى إليه أخاه﴾ أي: شقيقه وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به [و] ضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال: إني أنا أخوك فلا تبتس﴾ أي: لا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

﴿فلما جهزهم بجهزهم﴾ أي: كان لكل واحد من إخوته، ومن جلتهم أخوه هذا، ﴿جعل السقاية وهو: الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه﴾ في رحل أخيه ثم ﴿أوعروا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين،﴾ أذن مؤذن أبيها العير إنكم لسارقون ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال، ﴿قالوا﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وأقبلوا عليهم لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم لهم سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا



إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ماذا تفقدون﴾ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة، ﴿قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي: أجرة له على وجدانه ﴿وأنا به زعيم﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وما كنا سارقين﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قالوا فما جزاؤه﴾ أي: جزاء هذا الفعل ﴿إن كنتم كاذبين﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو﴾ أي: الموجود في رحله ﴿جزاؤه﴾ بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿فبدا المفتش﴾ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴿وذلك لتزول الريبة التي

يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿استخرجها من وعاء أخيه﴾ ولم يقل «وجدها» أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحيث تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، لئيم له ما أراد.

قال تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فكل عالم، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قالوا إن يسرق﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه، ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقتين لنا.

وفي هذا من الغضب عليهما ما فيه، ولهذا: أسرها يوسف في نفسه ﴿ولم يبد لها﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه، و ﴿قال﴾ في نفسه ﴿أنتم شر مكاناً﴾ حيث ذمتمونا بما أنتم على أشرم منه، ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيه.

ف ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك، ف ﴿قال﴾ يوسف ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من

وجدنا متاعنا عنده﴾ أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنوب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب، ﴿إننا إذا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿لظالمون﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجياً﴾ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾ واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴿قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾ أي: فلما استياس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خلصوا نجياً﴾ أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ف ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفرطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.

﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي﴾ أي: يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ أي: وأخذ بسرقة، ولم يحصل لنا أن تأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله، ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رُق لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم.

﴿٨٩ - ٩٢﴾ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون * قالوا أأنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين * قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه * أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: * إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل * أو أن الحادث الذي فرق بينه وبين أبيه، هم السب فيه، والأصل الموجب له، * إذ أنتم جاهلون * وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: * أأنك لأنت يوسف؟ قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا * بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، * إنه من يتق ويصبر * أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها * فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتباعد لك عن أبيك، فأثرك الله تعالى ومكنك مما تريد * وإن كنا لخاطئين * وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

ف ﴿قال﴾ لهم يوسف عليه السلام، كرمًا وجوداً:

أحوالك، * حتى تكون حراً * أي: فانياً لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

﴿أو تكون من الهالكين﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً، * قال يعقوب * إنما أشكو بثي * أي: ما أبث من الكلام * وحرني * الذي في قلبي * إلى الله * وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم * وأعلم من الله ما لا تعلمون * من أنه سيردهم علي ويرزق عيني بالاجتماع بهم.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون * فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين * أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: * يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه * أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما * ولا تيأسوا من روح الله * فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس: يوجب له التخاذل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، * إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون * فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وزوجه، فذهبوا * فلما دخلوا عليه * أي: على يوسف * قالوا * متضرعين إليه * يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا * أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا * وجئنا ببضاعة مزجاة * أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع، * فأوف لنا الكيل * أي: مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. * إن الله يجزي المتصدقين * بثواب الدنيا والآخرة.

ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، * وإسأل * إن شككت في قولنا القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها * فقد اطلعوا على ما أخبرناك به * وإنا لصادقون * لم نكذب ولم نغتر ولم نبدل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمدّه، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، و * قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل * أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكرية انتهت فقال: * عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً * أي: يوسف و * بنيامين *، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفرجه وميئته، واضطراري إلى إحسانه، * الحكيم * الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حراً أو تكون من الهالكين * قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون * أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.

﴿فهو كظيم﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، * وقال يا أسفى على يوسف * أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى، فقال له أولاده متعجبين من حاله: * تالله تفتأ تذكر يوسف * أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع

«لا تشرب عليكم اليوم» أي: لا أثرب عليكم ولا ألومكم «يفقر الله لكم، وهو أرحم الراحمين» فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿٩٣-٩٨﴾ «أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين» * ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفقدون * قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم * فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون * قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ري إنّه هو الفقور الرحيم * أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: «أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً» لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

«وأتوني بأهلكم أجمعين» أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

«ولما فصلت العير» عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شَمَّ يعقوب ريح القميص، فقال: «إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفقدون» أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنّه بهم فقالوا:

«تالله إنك لفي ضلالك القديم» أي: لا تزال تائهاً في بحر الحب لا تدري ما تقول.

«فلما أن جاء البشير» بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، «ألقاه» أي: القميص «على وجهه فارتد بصيراً» أي: رجع على حاله الأولى بصيراً، بعد أن ابضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفقدون رأيته، ويتعجبون منه منتصراً عليهم، متبجحاً بنعمة الله عليه: «ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون» حيث كنت مترجياً للقاء يوسف، مترقباً لزيوالهم والغم والحزن.

«فأقروا بذنوبهم ونجعوا بذلك» و «قالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين» حيث فعلنا معك ما فعلنا.

ف «قال» مجبياً لطلبهم، ومسرعاً لإجابتهم: «سوف أستغفر لكم ري، إنّه هو الفقور الرحيم» أي: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة.

﴿٩٩-١٠٠﴾ «فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين» * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ري حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي إن ري لطيف لما يشاء إنّه هو العليم الحكيم * أي: «فلما» تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنائها، فلما وصلوا إليه، و «دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه» أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام^(١) والتبجيل والإعظام شيئاً

عظيماً، «وقال» لجميع أهله: «ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين» من جميع المكارة والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

«ورفع أبويه على العرش» أي: على سرير الملك، وجلس العزيز، «وخروا له سجداً» أي: أبوه، وأمه وإخوته، سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام، «وقال» لما رأى هذه الحال، ورأى سجدتهم له: «يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل» حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت «قد جعلها ري حقاً» فلم يجعلها أضغاث أحلام.

«وقد أحسن بي» إحساناً جسيماً «إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو» وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أحسن بكم» بل قال «أحسن بي» جعل الإحسان عائداً إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لذه رحمة إنه هو الوهاب، «من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي» فلم يقل «نزع الشيطان إخوتي» بل كان الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

«إن ري لطيف لما يشاء» يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، «إنّه هو العليم» الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسائر العباد وضمائرهم، «الحكيم» في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه



عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين * وكأين من آية في السماوات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون * أقاموا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون * يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾ على إيمانهم ﴿بمؤمنين﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدت الموانع، بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا. ولهذا قال:

﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليركوه. ﴿وكأين﴾ أي: وكم ﴿من آية في السماوات والأرض يمرّون عليها﴾ دالة لهم على توحيد الله ﴿وهم عنها معرضون﴾.

ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان فلا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴿فهم وإن أقروا ببروبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدير لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال:

﴿أقاموا﴾ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله ﴿أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ أي: عذاب يغشاهم ويعممهم ويستأصلهم، ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ أي: فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتبوأوا إلى الله، وتركوا ما يكون سبباً في عقابهم.

﴿١٠٨-١٠٩﴾ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى

الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

﴿١٠١﴾ ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك، وأقر عينه بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، قال مقراً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام:

﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتديرها ووزيراً كبيراً للملك ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً﴾ أي: أدم علي الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت، ﴿واللحقني بالصالحين﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفاء الأخيار.

﴿١٠٢﴾ ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذلك﴾ الأنبياء الذي أخبرناك به ﴿من أنباء الغيب﴾ الذي لولا إيماننا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضراً لديهم ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وهم يمكرون﴾ به حين تعافدوا على التفريق بينه وبين أبيه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها.

كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له، ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحى ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين﴾ الآيات، فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقاً.

﴿١٠٣-١٠٧﴾ ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وما تسألهم

اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ للناس ﴿هذه سبيلي﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿أدعوا إلى الله﴾ أي: أحب الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك وأرغبهم بما يعدهم عنه.

ومع هذا فانا ﴿على بصيرة﴾ من ديني، أي: على علم يقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية، ﴿و﴾ كذلك ﴿من اتبعني﴾ يدعوا إلى الله كما أدعو، على بصيرة من أمره ﴿وسبحان الله﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

﴿وما أنا من المشركين﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله خلاصاً له الدين. ثم قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلا شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿نوحى إليهم من أهل القرى﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى



في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴿غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد

الشدة منهم على الرسل .

فمن ذلك، أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التقلبات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة وميثة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها وبينها.

ومنها: أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشاكلة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكباً له ساجدين، وجه المناسبة فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجالها، وبها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء، زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وأجرماً، لما هو فرع عنه . فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته .

ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته، ومن المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود [له] معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظماً محترماً عند أبويه وإخوته .

ومن لازم ذلك أن يكون مجتبي مفضلاً في العلم والفضائل الموجهة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإيأس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال جاءهم نصرنا فتجي من نشاء ﴿وهم الرسل وأتباعهم، ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ أي: ولا يرد عذابنا، عمن اجترم، وتجراً على الله ﴿فما لهم من قوة ولا ناصر﴾ .

﴿لقد كان في قصصهم﴾ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، ﴿عبرة لأولي الألباب﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له .

وقوله: ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المقترة المختلقة، ﴿ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين .

﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة .

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ وقال ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ وقال في آخرها ﴿لقد كان

الذين هم أكمل عقولاً، وأصح آراء، وليتين أمرهم ويتضح شأنهم .

﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ إذا لم يصدقوا لقولك، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم، ﴿ولدار الآخرة﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم، ﴿خير للذين اتقوا﴾ الله في امتثال أوامره، واجتنب نواهي، فإن نعيم الدنيا منغص منكس، منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفنى أبداً، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل، ﴿عطاء غير مجدوذ﴾ ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا تكون لكم عقول تؤثّر الذي هو خير على الأدنى .

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿حتى إذا استبأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فتجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ * لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴿يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية

الأحاديث ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خمرًا، أن الذي يعصر في العادة، يكون خادماً لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سببرز للطيور، يحمل تمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصبة، والسنين المجذبة، ووجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنين بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقي عليها الماء، وإذا أخضبت السنة سمئت، وإذا أجذبت صارت عجافاً، وكذلك السنبال في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيسس وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً.

يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أمي لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف «يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً»

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: «فيكيدوا لك كيداً».

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب» ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وأثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيه.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنباً متعدداً، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الخيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بتقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماع التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء

قال ربك إذا الله أن تأخذ لآدم وحده ما شئت عنه وما
إلا لطيورهم ﴿٢١٠﴾ قل أنت يسموا به خالصاً أي
مكيدهم الرضا لأن أبائهم قد أخذوا على رؤسها
من الله ومن قبل ما وُضِعَ في يوسف فلن أريح الأرض
حتى يأذن لي أبي أوامر الله لي وهو خير الحاكمين
﴿٢١١﴾ أرجو إلى أبائكم فقولوا يا أبائنا إن ابنك سرق
وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين
﴿٢١٢﴾ ونسأل الله أن يهدينا صراطاً مستقيماً
﴿٢١٣﴾ قال رب سرتك لك أنت أشد
أمر الله به رجل على الله أن يأتيه يومه يومه الله هو
العليم المتكبر ﴿٢١٤﴾ وقال عنهم وقال يا أسكن على
يوسف وأبنته عنك لعلهم يفرحوا به ﴿٢١٥﴾
قال الله تعالى ذكركم يوسف حتى تمكن من رعيته
أوتى كل من أوتي الحكمة ﴿٢١٦﴾ قال ربنا أنزلنا
وسخري إلى الله وأعلم من أمره ما لا تعلمون ﴿٢١٧﴾

لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.

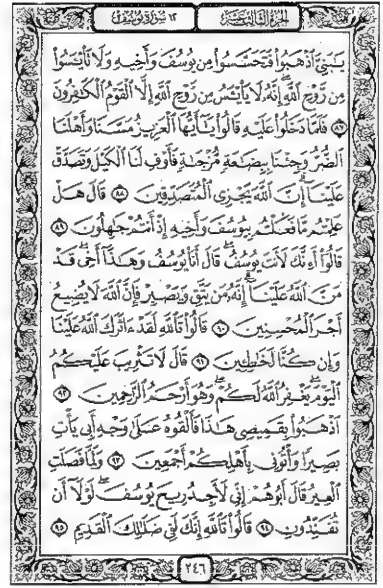
ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: «وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط» وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، وبما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتم ذلك بأنه لا يثر عليهم ولا يعيرهم به.

ثم بزة العظمى بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقاءه أرضاً، وقال قائل منهم: «لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب» كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداركته الأيدي وضار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه



لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعاً حراماً، لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً، وسماه الله شراً^(١)، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الخلد من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الإثم الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، بما يقربه إلى الله زلفى، لأن الإثم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن «خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى» ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجل دعت امرأة ذات

منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله» وإنما الإثم الذي يلام عليه العبد، الإثم الذي يساكنه، ويصير عزمياً، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان خالصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فر هارباً، يطلب الباب ليتخلص من شرها، ومنها: أن القرأتين يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشياء والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعل هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة،

وكذلك وجود الرجل يتقياً الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمي الله هذا الحاكم شاهداً فقال: «وشهد شاهد من أهلها».

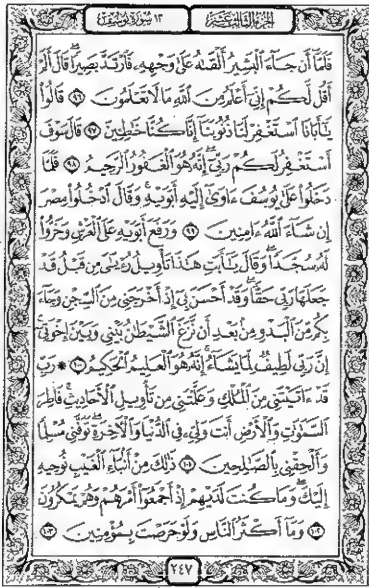
ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لئها على ذلك أن تقعن أيديهن وقلن «ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم» أما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك براءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» وقالت بعد ذلك: «الآن حصص الحق أنا وراودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» وقالت النسوة: «حاش الله ما علمنا عليه من سوء».

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دينية - أن يختار العقوبة الدنيوية على الواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: «ولا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين».

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجاهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

(١) كذا في أ، وفي ب: سيداً، ويدور والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: (وشروه) فسمى الله فعلهم شراً مع كونه حراماً.



يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيتين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر يفقه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمده على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، ويسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرائي داخل في الفتوى، لقوله للفتيتين: «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان» وقال الملك: «أفتوني في رؤياي» وقال الفتى ليوسف: «أفتنا في سبع بقرات» الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية في الشدة، ف«يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتيتين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقال له: «إنا نراك من المحسنين» وآتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فأمرهما مشرفين لتعبرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتهازها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً، أن الذي أوصله إلى الحال التي رآها فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليهما، وحقيقة التوحيد وبرهن عليهما.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصيح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتيتان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتين: «اذكري عند ربك».

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أولاً ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن

مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: «اجعلني على خزانة الأرض إني حفيظ عليم» وكذلك لا تدم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطليها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فهذه الأمور، ينهي عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يوجد على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملوكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الآخري، وفضله العظيم لقوله تعالى: «ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون».

ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدة، وأن هذا غير منافض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله،

ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة «وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم» ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفي بما وعده، ولا ينافي ذلك، قوله: «إنما أشكو بشي وحزني إلى الله» فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الضبر، وإنما الذي ينافي، الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنه ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب وسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يتبلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفاتهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجده، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: «يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر» ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: «قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى، ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو»

إثم عليه ولا حرج. ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكارة، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لابنيه: «يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة»

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن الغلب بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهب غيره، بأمر لا يجب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: «معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده» ولم يقل «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه^(١)، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبين الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: «وما شهدنا إلا بما علمنا»

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمسة عشر سنة،



ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا بمقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته «لا ترواني أفي الكيل وأنا خير المنزلين»

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عاجلوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» وقال لهم في الأخ الآخر: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل» ثم لما احتبس يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير

(١) لعل المراد والله أعلم: (وأن يبقى عنده أخوه).



الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه،
وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته
الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.

وينزل الكتب الإلهية على رسله،
ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع
والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية
التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها،
﴿لعلكم﴾ بسبب ما أخرج لكم من
الآيات الأفقية، والآيات القرآنية،
﴿بلى﴾ وبكم توقنون ﴿فإن كثرة الأدلة
وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول
اليقين في جميع الأمور الإلهية،
خصوصاً في العقائد الكبار، كالبعث
والنشور والإخراج من القبور.

وأيضاً فقد علم أن الله تعالى حكيم
لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم
عبثاً، فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه
لأمر العباد ونهيتهم، فلا بد أن ينقلهم
إلى دار يحل فيهم جزاؤه، فيجازي
المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي
المسيئين بإساءتهم.

﴿وهو الذي مد الأرض﴾ أي:

خلقها للعباد، ووسعها، وبارك فيها،
ومهدا للعباد، وأودع فيها من
مصلحتهم ما أودع، ﴿وجعل فيها
رواسي﴾ أي: جبلاً عظيماً، لتلاطم
بالخلق، فإنه لو لا الجبال لما دت بأهلها،
لأنها على تيار ماء، لا ثبوت لها ولا
استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي
جعلها الله أوتاداً لها.

يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل
الآيات لعلكم بقاء بكم توقنون *
وهو الذي مد الأرض وجعل فيها
رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل
فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن
في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي
الأرض قطع متجاورات وجنات من
أعشاب وزرع ونخيل صنوان وغير
صنوان يسقى بماء واحد ونفضل
بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك
لآيات لقوم يعقلون * يخبر تعالى عن
انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة
والسلطان الدال على أنه وحده المعبود،
الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال:
﴿الله الذي رفع السماوات﴾ على
عظمتها واتساعها بقدرته العظيمة،
﴿بغير عمد ترونها﴾ أي: ليس لها
عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد،
لرايتها، ﴿ثم﴾ بعد ما خلق
السماوات والأرض ﴿استوى على
العرش﴾ العظيم الذي هو أعلى
المخلوقات، استواء يليق بجلاله
ويناسب كماله.

﴿وسخر الشمس والقمر﴾ لمصالح

العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم،
﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجري﴾
بتدبير العزيز العليم، ﴿لأجل مسمى﴾
يسير منتظم، لا يفتران ولا ينيران،
حتى يجيء الأجل المسمى وهو طي الله
هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة
التي هي دار القرار، فعند ذلك
يطوي الله السماوات، ويبدلها، ويغير
الأرض ويبدلها. فتكور الشمس
والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان في
النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل
للعباد، فيتحسر بذلك أشد الحسرة،
ويلعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وقوله: ﴿يدبر الأمر يفصل

الآيات﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر،
أي: قد استوى الله العظيم على سرير
الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي
والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغشي
ويغفر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين،
ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقل
العشرات، ويفرج الكربات، وينفذ

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف،
حيث نقله في تلك الأحوال، وأرسل
إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى
أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق
إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل
الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله
حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول
يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رب
قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل
الأحاديث فاطر السماوات والأرض
أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني
مسليماً وأخفني بالصالحين﴾.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر
في هذه القصة المباركة، ولا بد أن
يظهر للتدبر المتفكر غير ذلك.

فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً
متقيلاً، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته

عليهم الصلاة والسلام،

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة السعد، وهي مدنية، وقيل: مكية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الم
تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك
من ربك الحق ولكن أكثر الناس
لا يؤمنون﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن
هو آيات الكتاب الدالة على كل ما
يحتاج إليه العباد من أصول الدين
وقروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول
من ربه هو الحق المبين، لأن أخباره
صدق، وأوامره ونواهيه عدل، مؤيدة
بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل
عليه وعلى علمه، كان من أهل العلم
بالحق، الذي يوجب لهم علمهم،
العمل بما أحب الله.

﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾
بهذا القرآن، إما جهلاً وإعراضاً عنه
وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً،
فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به،
لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿٢﴾ ﴿الله الذي رفع
السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى
على العرش وسخر الشمس والقمر كل



قولهم وتكذيبهم للبعث، فإن ذلك من العجائب، وإن الذي توضح له الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك، فإن قوله من العجائب.

ولكن ذلك لا يستغرب على الذين كفروا برهيم، وجحدوا وحدانيته، وهي أظهر الأشياء وأجلها، وأولئك الأغلال المانعة لهم من الهدى في أعناقهم، حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يتدوا، فقلبت قلوبهم وأشدتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، لا يخرجون منها أبداً.

﴿٦﴾ ويستعجلونك بالسئنة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم الثلاث وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب. يخبر تعالى عن جهل المكذبن لرسوله، المشركين به، الذين عطفوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهدوا بالإنكار، واستدلوا بحلم [الله] الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو اتتنا بعذاب أليم﴾.

﴿٧﴾ الخال أنه قد خلت من قبلهم الثلاث أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبن، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شرهم^(١) وعصيانهم إليه صاعداً.

يعصونه فيدعوههم إلى بابه، ويجرمون، فلا يجرهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم، لأنه يحب التوابين، ويجب المتطهرين وإن لم يتوبوا فهو ظيبيهم، يبتليهم بالمصائب،

الأشجار من أعناب وزرع ونخيل وغير ذلك، والنخيل التي بعضها صنوان أي: عدة أشجار في أصل واحد، وغير صنوان بأن كان كل شجرة على حدتها، والجميع يسقى بماء واحد وأرضه واحدة وتفضل بعضها على بعض في الأكل لونها، وطعمها، ونفعها، ولذة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلاً والغشب الكثير، والأشجار والزرع، وهذه أرض تلاحظها لا تنبت كلاً ولا تمسك ماء وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلاً، وهذه تنبت الزرع والأشجار، ولا تنبت الكلاً، وهذه الثمرة حلوة، وهذه مرة، وهذه بين ذلك.

فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض، وأهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلاً ولا يعون له قبيلاً.

﴿٥﴾ وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا برهيم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يحتمل أن معنى قوله ﴿وإن تعجب﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة توحيده، فإن العجب - مع هذا - إنكار المكذبن، وتكذيبهم بالبعث، وقولهم ﴿إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمتهم، أنهم بعد ما كانوا تراباً، أن الله يعيدهم، فإنهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق. فلما رأوا هذا محتجاً في قدرة المخلوق، ظنوا أنه محتج على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً.

ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من

﴿٧﴾ جعل فيها أنهاراً تسقي الآدميين وبها تمهم وحروثهم، فأخرج بها من الأشجار والزرع والثمار خيراً كثيراً، ولهذا قال: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد.

﴿٨﴾ يقشي الليل النهار فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم، غشى النهار الليل، فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار.

﴿٩﴾ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون.

﴿١٠﴾ إن في ذلك لآيات على المطالب الإلهية لقوم يتفكرون فيها، وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرفها، هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمر به تبارك وتعالى.

ومن الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته، أن جعل في الأرض قطع متجاورات وجنات فيها أنواع

لربها طوعاً وكرهاً، كان هو الإله حقاً، المعبود المحمود حقاً، وإلهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

﴿١٦﴾ قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴿١٧﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين به أوثاناً وأنذاً يحبون كما يحبون الله، ويذلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفأتأت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة، وليسوا بأهل لذلك؟

فإنهم ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً﴾ وتكون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضرر؟ فما تستوي عبادة الله وحده، وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور.

فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله، فأزل عنهم هذا الاشتباه واللبس، بالبرهان الدال على توحيد الإله بالوحدانية، فقل لهم: ﴿الله خالق كل شيء﴾ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه.

ومن المحال أيضاً أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها إلهاً خالقاً لا شريك له في خلقه، لأنه الواحد القهار، فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده، فالمخلوقات كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان، متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر، أن ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

الذي لا تناله كفاه لبعده، ﴿ليبلغ﴾ بيسط كفيه إلى الماء ﴿فاه﴾ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه.

كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة، لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة، لأنهم فقراء، كما أن من دعوهم فقراء، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير.

﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عباداتهم ودعاؤهم، لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين، كانت عبادته حقاً متصلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالشبيه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء، كما قال تعالى: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾.

﴿١٥﴾ ﴿والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طوعاً وكرهاً﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختياراً كالؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك، ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله، كما قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾.

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد



﴿فيصيب بها من يشاء﴾ من عباده، بحسب ما شاء وأراده ﴿وهو شديد المحال﴾ أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاضى عليه شيء، ولا يفوته هارب.

فإذا كان هو وحده، الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدير الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد، وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ولهذا قال:

﴿١٤﴾ ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: لله وحده ﴿دعوة الحق﴾ وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرغبة، والإنابة، لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة، ﴿والذين يدعون من دونه﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله.

﴿لا يستجيبون لهم﴾ أي: لمن يدعوا ويعبدها، بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة، ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء﴾

عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صيرتم فنعمم عقبي الدار * يقول تعالى : مفرقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم : ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ فهم ذلك وعمل به . ولا يعمل به ، فبينهما من الفرق ، كما بين السماء والأرض ، فحقيق بالبعد أن يتذكر ويتفكر ، أي الفريقين أحسن حالاً وخيراً مآلاً ، فيؤثر طريقها ، ويسلك خلف فريقها ، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره .

﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي : أولو العقول الزبينة ، والآراء الكاملة ، الذين هم لب العالم ، وصفوة بني آدم ، فإن سألت عن وصفهم ، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله :

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ الذي عهده إليهم ، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة ، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها ، والنصح فيها ، ﴿و﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿لا ينقضون الميثاق﴾ أي : العهد الذي عاهدوا عليه الله ، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور ، التي يعقدها العباد . فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم ، إلا بأدائها كاملة ، وعدم نقضها وبخسها .

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله ، من الإيمان به ورسوله ، ومحبة ومحبة رسوله ، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ، ولطاعة رسوله .

ويصلون آباءهم وأمهاتهم ، ببرهم بالقول والفعل ، وعدم عقوبتهم ، ويصلون الأقارب والأرحام ، ويصلون إليهم قولاً وفعلًا . ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والممالك ، بأداء حقوقهم كاملاً موفراً ، من الحقوق الدينية والدنيوية .

والسبب الذي يجعل العبد أصلاً ما أمر الله به أن يوصل ، خشية الله وخوف يوم الحساب ، ولهذا قال : ﴿ويخشون ربهم﴾ أي : يخافونه ،

ثوابه ، وغير مستجيب ، فذكر عقابه فقال : ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ أي : انقادوا قلوبهم للعلم والإيمان ، وجوارحهم للأمر والنهي ، وصاروا موافقين لربهم فيما يريد منهم ، فلههم ﴿الحسن﴾ أي : الحالة الحسنة ، والثواب الحسن .

فلههم من الصفات أجلها ، ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ بعدما ضرب لهم الأمثال ، وبين لهم الحق ، لهم الحالة غير الحسنة ، ف ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ من ذهب وفضة وغيرها ، ﴿ومثله معه لا فتنوا به﴾ من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ، وأتى لهم ذلك !!؟

﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ ، وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم ، وقالوا : ﴿يأ ويلنا من هذا الكتاب﴾ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿وأولاهم جهنم﴾ الجامعة لكل عذاب ، من الجوع الشديد ، والعطش الوجيع ، والنار الحامية ، والزقوم ، والزمهرير ، والضريع ، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب ، ﴿ويش المهاد﴾ أي : المقر والمسكن مسكنهم .

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿أفمن يعلم أنما

أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعشى﴾ إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويذرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون

﴿١٧﴾ ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً وما يؤقودون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زيد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله حياة القلوب والأرواح ، بالماء الذي أنزله حياة الأشباح ، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد ، بما في المطر من النفع العام الضروري ، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول ، فواد كبير يسع ماء كثيراً ، كقلب كبير يسع علماً كثيراً ، وواد صغير يأخذ ماء قليلاً ، كقلب صغير ، يسع علماً قليلاً ، وهكذا .

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها ، بالزبد الذي يعلو الماء ، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحيلة التي يراد تخليصها وسبكها ، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له ، حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة .

كذلك الشبهات والشهوات ، لا يزال القلب يكرهها ، ويمجاهدها بالبراهين الصادقة ، والإرادات الجازمة ، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً ، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره ، والرغبة فيه ، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ وقال هنا : ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال .

﴿١٨﴾ ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لا فتنوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم ويش المهاد﴾ لما بين تعال الحق من الباطل ، ذكر أن الناس على قسمين : مستجيب لربه ، فذكر

فيمتنعهم خوفهم منه، ومن القدرم عليه يوم الحساب، أن يتجسروا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب ورجاءاً للثواب.

﴿والذين صبروا﴾ على المأمورات بالامتناع، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلباً لمَرْضَاة ربه، ورجاءاً للقراب منه، والخطوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.

﴿وأقاموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها ومكملاتها، ظاهراً وباطناً، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سراً وعلانية، ﴿ويؤدُّون بالحسنة السيئة﴾ أي: من أساء إليهم يقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه.

فيعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

﴿أولئك﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة ﴿لهم عقي الدار﴾ فسرهما بقوله: ﴿جنت عدن﴾ أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا يبعون عنها جزواً، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن غام نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم ﴿يدخلونها ومن صلح من آبائهم﴾ من

الذكور والإناث ﴿وأزواجهم﴾ أي: الزوج أو الزوجة وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحباب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم، ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ يثبثونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم ويقولون: ﴿سلام عليكم﴾ أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿بما صبرتم﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان العالية، ﴿فنعلم عقي الدار﴾.

فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿٢٥﴾ ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ لما ذكر حال أهل الجنة، ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي: من بعد ما أكد عليهم على أيدي رسله، وغلظه عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض، ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله، وابتغائها عوجاً، ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ أي: البعد والذم، من الله وملائكته وعباده المؤمنين، ﴿ولهم سوء الدار﴾ وهي: الجحيم، بما فيها من العذاب الأليم.

﴿٢٦﴾ ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة﴾

الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، ﴿وفرحوا﴾ أي: الكفار بالحياة الدنيا فرحاً، أوجب لهم أن يطمثوا بها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم، ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي: شيء حقير، يتمتع به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلا طويلاً.

﴿٢٧-٢٩﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا يذكركم الله تطمئن القلوب ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم طوبى وحسن مآب﴾ يجز تعالى أن الذين كفروا بآيات الله، يتعتون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم، حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك، وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب، ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراسها ولذاتها.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي: حقيق بها، وحزني أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألد

بذلك، أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويحتاحها، ويحل القوارع بأطرافها، تنبيهاً لهم قبل أن يحتاحهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال: **﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾**

ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافقه، **﴿وهو سريع الحساب﴾** أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هزأت، فهو قريب.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ **﴿وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾** ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب **﴿يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾** برسلمهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يحاربون الله ويبارزونه **﴿فله المكر جميعاً﴾** أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم باخية والندم، فإن الله **﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾** أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله، ويفيدهم شيئاً، **﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾** أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين، لا للكفر وأعماله.

﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا﴾ أي: يكذبونك، ويكذبون ما أرسلت به، **﴿قل﴾** لهم - إن طلبوا

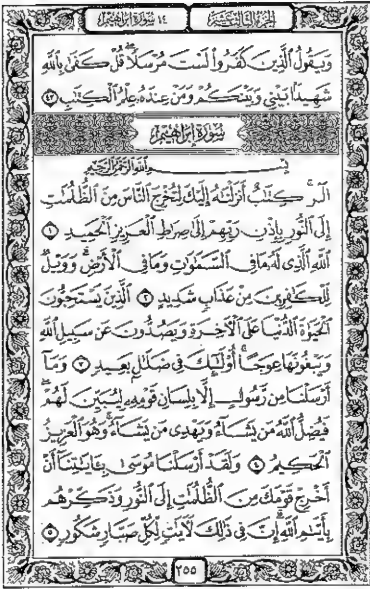
أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: **﴿وعنده أم الكتاب﴾** أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

التغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لشبوتها أسباباً، وملحوها أسباباً، لا تعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة. وجعل التعرض لذلك، سبباً للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿٤٠ - ٤١﴾ **﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾** **﴿أولم يروا أننا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾** يقول تعالى لنبيه محمد **﴿فلا تعجل عليهم بإصابتهم ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكرهم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به، ﴿إما نرينك﴾** إياه في الدنيا، فتقر بذلك عينك، **﴿أو نتوفينك﴾** قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلاً لك **﴿فإنما عليك البلاغ﴾** والتبيين للخلق.

﴿وعلينا الحساب﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به، بما عليهم، وضيوعه، ونشيمهم أو تعاقبهم.

ثم قال متوعداً للمكذبين: **﴿أو لم يروا أننا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها﴾** قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد



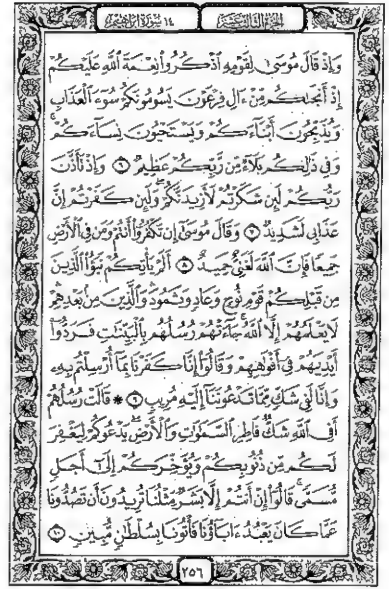
على ذلك شهيداً: **﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾** وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه، مما ثبت به رسالته.

وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله، ونصره نصراً خارجاً عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول، من آمن، واتباع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك، فإخبار الله عنه أن عنده شهادة، أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة، لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب، لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في



استشهدهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم .
والله أعلم .

تم تفسير سورة الرعد ،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي مكية

﴿١-٣﴾ **بسم الله الرحمن الرحيم** الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد * الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد * الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد * يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي، إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: ﴿يأذن ربهم﴾ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإذنه من الله ومعونه، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم .

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي: الموصول إليه وإلى دار كرامته، المشتغل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر **«العزيز**

الحميد» بعد ذكر الصراط الموصول إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله، قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة .

وليدل ذلك على أن صراط الله، من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده، عزيز السلطان، حيد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتديراً، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، قلما بين الدليل والبرهان، توعدهم من لم يتق الله، فقال: **«وويل للكافرين من عذاب شديد»** لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم **«الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة**

«ويصدون» الناس **«عن سبيل الله»** التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه وعلى السنة رسله، فهو لا قد تابدوا مولا هم بالمعاداة والمحاربة، **«ويغفونها»** أي: سبيل الله **«عوجاً»** أي: يحرصون على تهجينها وتضييقها، للتفسير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

«أولئك» الذين ذكر وصفهم **«في ضلال بعيد»** لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله وحاربهما، فأبى ضلال أبعد من هذا!!، وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها .

﴿٤﴾ **«وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم»** وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولاً **«إلا بلسان قومه»** ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من

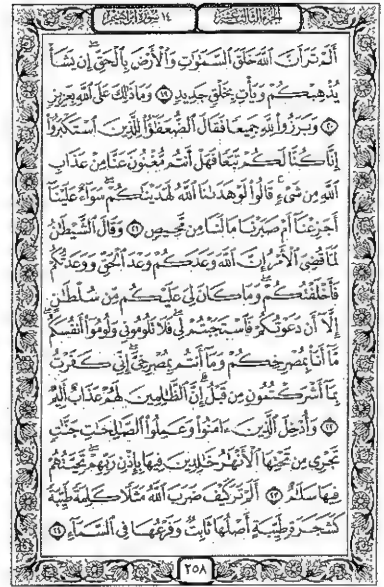
تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله **«فبضل الله من يشاء»** ممن لم يتق الله للهدى، ويهدي من يشاء ممن اختصه برحمته .

«وهو العزيز الحكيم» الذي - من عزته - أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به .

ويستدل هذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها .

إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغیرهم، وصارت طبيعة لهم، فحيث قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم .

﴿٥-٨﴾ **«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور * وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد * وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد * يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم، «أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور» أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه، «وذكرهم**



ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهمي ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم﴾ متوعدين لهم - ﴿لننخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدهم بالإخراج من ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يتمتعون حقاً لهم صريحاً واضحاً؟ هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسول إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه، ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ بأنواع العقوبات.

﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ ذلك أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء لمن خاف مقامه ﴿عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه﴾ وخاف وعيد أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿واستفتحوا﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فالله حلیم

عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بآية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدثهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفائته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري﴾ بآيات الله، فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ الآيات.

وقول هود عليه السلام قال: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾.

﴿ولنصبرن على ما آذيتونا﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير.

﴿وعلى الله﴾ وحده لا على غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام تركلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿١٣ - ١٧﴾ ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لننخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عتيد﴾ من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ﴿ويتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴿لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على

ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فأئونا بسلطان مبين﴾ فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وما كان لنا أن تأتيناكم بسلطان إلا بإذن الله﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وعلى الله﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويشقون به في تفسير ذلك، ويحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه، ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا﴾.

أي: شيء يمنعنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هذه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كإشارة من الرسل



لأدركنم الفوز العظيم ﴿١﴾ ووعدتكم

الخير ﴿٢﴾ فأخلفتكم ﴿٣﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأمانى الباطلة.

﴿٤﴾ وما كان لي عليكم من سلطان

أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿٥﴾ إلا أن

دعوتكم فاستجبتم لي ﴿٦﴾ أي: هذا نهاية

ما عندي، أي دعوتكم إلى مرادي

وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعاً

لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت

الحال بهذه الصورة ﴿٧﴾ فلا تلوُموني

ولوُموا أنفسكم ﴿٨﴾ فأنتم السبب،

وعليكم المدار في موجب العقاب،

﴿٩﴾ ما أنا بمصرخكم ﴿١٠﴾ أي: بمغيثكم من

الشدة التي أنتم بها ﴿١١﴾ وما أنتم

بمصرخي ﴿١٢﴾ كل له قسط من العذاب.

﴿١٣﴾ إني كفرت بما أشركتمون من

قبل ﴿١٤﴾ أي: تراءت من جعلكم لي

شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله،

ولا تجب طاعتي، ﴿١٥﴾ إن الظالمين

لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿١٦﴾ لهم عذاب

أليم ﴿١٧﴾ خالدين فيه أبداً.

وهذا من لطف الله بعباده، أن

حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر

بمداخله التي يدخل منها على الإنسان

ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله

النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار

وحزبه ^(١)، أنه يتبرأ منهم هذه البراءة،

ويكفر بشركهم ﴿١٨﴾ ولا ينبتك مثل خبير ﴿١٩﴾.

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه

ليس له سلطان، وقال في آية أخرى

﴿٢٠﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه،

والذين هم به مشركون ﴿٢١﴾ فالسلطان

الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة

والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما

يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم

لهم من الشبه والتزيينات ما به

يتجروون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبتته، فهو

التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه

يؤزفهم إلى المعاصي أراً، وهم الذين

سلطوه على أنفسهم بمواليته والاتحاق

بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على

الذين آمنوا وعلى ربهم يتكلمون.

ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب

الطائعين فقال: ﴿٢٢﴾ وأدخل الذين آمنوا

وعملوا الصالحات ﴿٢٣﴾ أي: قاموا

بالدين، قولاً، وعملاً، واعتقاداً،

﴿٢٤﴾ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿٢٥﴾ فيها

من اللذات والشهوات، ما لا عين

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على

قلب بشر، ﴿٢٦﴾ خالدين فيها بإذن ربهم ﴿٢٧﴾

أي: لا يحولهم وقوتهم بل يحول الله

وقوته ﴿٢٨﴾ تخيتم فيها سلام ﴿٢٩﴾ أي: يحجب

بعضهم بعضاً بالسلام، والتحية،

والكلام الطيب.

﴿٢٤-٢٦﴾ ﴿٢٦﴾ ألم تر كيف

ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة

أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿٢٧﴾ تؤتي

أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله

الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴿٢٨﴾ ومثل

كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من

فوق الأرض ما لها من قرار ﴿٢٩﴾ يقول

تعالى: ﴿٣٠﴾ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً

كلمة طيبة ﴿٣١﴾ وهي شهادة أن لا إله

إلا الله، وفروعها، ﴿٣٢﴾ كشجرة طيبة ﴿٣٣﴾

وهي النخلة ﴿٣٤﴾ أصلها ثابت ﴿٣٥﴾ في

الأرض ﴿٣٦﴾ وفرعها ﴿٣٧﴾ منتشر ﴿٣٨﴾ في

السماء ﴿٣٩﴾ وهي كثيرة النفع دائماً، ﴿٤٠﴾ تؤتي أكلها ﴿٤١﴾ أي: ثمرتها ﴿٤٢﴾ كل حين

بإذن ربها ﴿٤٣﴾ فكذلك شجرة الإيمان،

أصلها ثابت في قلب المؤمن، علماً

واعتقاداً. وفرعها من الكلام الطيب،

والعمل الصالح، والأخلاق المرضية،

والآداب الحسنة، في السماء دائماً،

يصعد إلى الله منه من الأعمال

والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان،

ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره،

﴿٤٤﴾ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم

يتذكرون ﴿٤٥﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه،

فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني

المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين

المعنى الذي أراد الله غاية البيان،

ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته

وحسن تعليمه. فله أتم الحمد وأكمل

وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد

وثباتها، في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر

وفروعها، فقال: ﴿٤٦﴾ ومثل كلمة خبيثة

كشجرة خبيثة ﴿٤٧﴾ المأكول والمطعم،

وهي: شجرة الجنظل ونحوها،

﴿٤٨﴾ اجتثت ﴿٤٩﴾ هذه الشجرة ﴿٥٠﴾ من فوق

الأرض ما لها من قرار ﴿٥١﴾ أي: من

ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة

صالحة، تنتجها، بل إن وجد فيها

ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة

الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع

في القلب، ولا تثمر إلا كل قول

خبيث وعمل خبيث، يستتبع به

صاحبه ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله

منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه ولا

ينتفع به غيره.

﴿٥٧﴾ ﴿٥٧﴾ يثبت الله الذين آمنوا

بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي

الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله

ما يشاء ﴿٥٨﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده

المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم

من إيمان القلب التام، الذي يستلزم

أعمال الجوارح ويشمرها، فيثبتهم الله

في الحياة الدنيا، عند ورود الشبهات

بالهداية إلى اليقين، وعند عروض

الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم

ما يحبه الله على هوى النفس ومزاداتها.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سيؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: «الله ربي، والإسلام ديني، وعحمد نبيي».

﴿ويضل الله الظالمين﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وغذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها، ونيعم القبر وعذابه.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿ألم تر إلى الذين بذلوا نعمة الله كفوراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ يقول تعالى - مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش، وما آل إليه أمرهم: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوه إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصّد عنها بأنفسهم

﴿و﴾ صدّهم غيرهم حتى أحلوا قومهم دار البوار﴾ وهي النار، حيث تسبوا لإضلالهم، فصاروا وبالأعلى قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وضناديدهم في تلك الواقعة.

﴿جهنم يصلونها﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وبئس القرار﴾.

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا لله من الأنداد، ودعوه إلى عبادتها، ﴿قل﴾ لهم متوعداً:

﴿تمتعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بنافعكم ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير.

﴿٣١﴾ ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين آمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن يتنزهوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يقيموا الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلاً أو كثيراً ﴿سراً وعلانية﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة، كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استبدالك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يتعنه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ إن الإنسان لظلول كفار ﴿يخبر تعالى: أنه وحده﴾ الذي خلق السماوات والأرض ﴿على اتساعهما وعظمتها، وأنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب ﴿فأخرج﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ المختلفة الأنواع ﴿رزقاً لكم﴾ رزقاً لأنعامكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ أي: السفن والمراكب، ﴿لتجري في البحر بأمره﴾ فهو الذي يسر لكم صنعتهما، وأقدركم عليهما، وحفظهما على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعتهن إلى بلد تقصدونه.

﴿وسخر لكم الأنهار﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها. ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم، ﴿وسخر لكم الليل﴾ لتسكنوا فيه ﴿والنهار﴾ مبصراً، لتبتغوا من فضله.

﴿وأتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلق به أمانيتكم وحاجتكم، بما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فضلاً عن قيامكم بشكرها ﴿إن الإنسان لظلول كفار﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجربى على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كَفَّار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، يدغو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويخففهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه، أثناء الليل والنهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿٣٥﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة، إذ قال: ﴿رب اجعل هذا البلد﴾ أي: الحرم ﴿آمناً﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرراً، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرراً ما هو معلوم، حتى إنه لم يرّده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب القبل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿واجبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ أي: اجعلني وإياهم، جانباً بعيداً عن عبادتها، والإلام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيّه، بكثرة من افتنن وابتلي بعبادتها، فقال:

تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿٣٦﴾ «وَأَرْزَقَهُمْ مِنَ الشَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

﴿٣٨﴾ «رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلُنَ» أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها، ما هو مقتضى علمك ورحمتك، «وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير، وكثرة الشكر لله رب العالمين.

﴿٣٩﴾ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإيثار من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين، أجل وأفضل، «إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ» أي: لقريب الإجابة عن دعاءه، وقد دعوته، فلم يخيب رجائي، ثم دعا نفسه ولذريته، فقال: «رَبِّ اجْعَلْنِي مَقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ» فاستجاب الله له في ذلك كله، إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعده وعده إياه، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ «ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ» مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء» هذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين، يقول تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ» حيث أمهلهم وأدّر عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم، فإن الله يُملي للظالم ويمهله ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه لم يفلته «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ

﴿٣٦﴾ «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ» أي: ضلوا بسببها، «فَمَن تَبِعَنِ» على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين «فإنه مني» لتمام الموافقة، ومن أحب قوماً وتبعهم الحق بهم.

﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من ترد عليه.

﴿٣٧﴾ «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» وذلك أنه أتى بـ «هاجر» أم إسماعيل وبنايتها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو في الرضاع، من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، ولا دأع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال - متضرعاً متوكلاً على ربه: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي» أي: لا كل ذريتي، لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: «بُؤَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقبلاً لدينه، «فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم» أي: تحبهم وتحب المرضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي، وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سراً عجيماً جاذباً للقلوب، فهي تمجده، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته

القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴿والظلم - هاهنا - يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه، وظلمه لعباد الله، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأحوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿مهطعين﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا حيص ولا ملجأ، ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ أي: رافعيها قد غلّت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الخناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ «وَأَنذَرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرِّسْلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَغَدَىٰ اللَّهُ مَكْرَهُمْ وَإِنْ كَان مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «وَأَنذَرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ» أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله، ﴿فيقول الذين ظلموا﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها، ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: رُدُّنا إلى الدنيا، فإننا قد أبصرنا، ﴿نجب دعوتك﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿وتتبع الرسل﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب، وإلا فهم كذبة في هذا الوعد «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه».

ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فها قد تبين جنشكم في إقسامكم،

والآخرة، فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولاً، على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصاً وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنة الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء، فإنه «عزيز ذو انتقام».

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة، «يوم تبدل الأرض غير السماوات» تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وغد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صافئاً، لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه.

«ويسرزوا» أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، «الله الواحد القهار» أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتديره، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

«وترى المجرمين» أي: الذين وصفهم الإجمام، وكثرة الذنوب، في ذلك اليوم «مقرنين في الأصفاة» أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها.

«سرايلهم» أي: نياهم «من قطران» وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها، وتنن ريحها، «وتغشى وجوههم» التي هي أشرف ما في أبدانهم «النار» أي: تحيط بها، وتصلها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظملاً من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: «ليجزى الله كل نفس ما كسبت» من

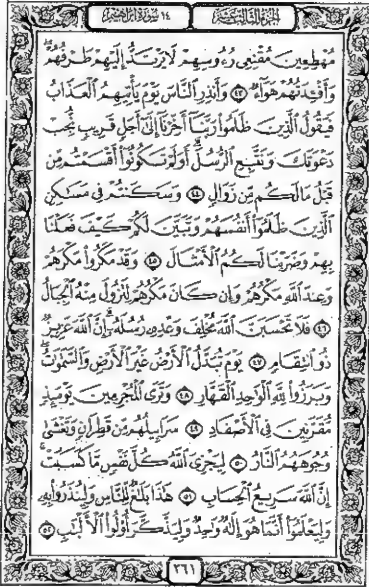
وكذبكم فيما تدعون، «ولا» ليس عليكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل «سكتكم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم» من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

«وقد مكروا» أي: المكذبون للرسل «مكرهم» الذي وصلت إرادتهم، وقدر لهم عليه، «وعند الله مكرهم» أي: هو محيط به علماً وقدره، فإنه عاد مكرهم عليهم «ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله».

«وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال» أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق، وبمن جاء به - من عظمه - لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: «مكروا مكرأ كُبَاراً» لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.

ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسل، لينصر باطلاً، أو يطل حقاً، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً، ولم يضروا الله شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم.

«٤٧- ٥٢» «فلا تحسبن الله غلغف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام» * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ويسرزوا لله الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاة * سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو الله وأحد وليذكر أولو الألباب * يقول تعالى: «فلا تحسبن الله غلغف وعده رسله» بنجاتهم، ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في



خير وشر بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

«إن الله سريع الحساب» كقوله تعالى: «أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون» ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يزرقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وليس ذلك بعسير عليه.

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه:

«هذا بلاغ للناس» أي: يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

«ولينذروا به» لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما أعد الله لأهلها من العقاب، «وليعلموا أنما هو إله واحد» حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحديته، ما صار ذلك حق اليقين، «وليذكر أولو الألباب» أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غصاً طرياً، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى

لأنبيائهم ورسلمهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْمُنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: عادة الله فيهم، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ أَبْصَارِنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة، لم يؤمنوا وكابروا ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فصارتوا يعرجون فيه، ويشاهدونه عياناً بأنفسهم، لقالوا من ظلمهم وعنادهم، منكبين لهذه الآية: ﴿إِنَّمَا سَكِرَاتُ أَبْصَارِنَا﴾ أي: أصابها سكر وغشاوة، حتى رأيناها لم نر، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء، ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿١٦ - ٢٠﴾ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزِينَةً لِلنَّاظِرِينَ﴾ وحفظناها من كل شيطان شهاب مبین * من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * يقول تعالى - مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه -: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ أي: نجوماً كالأبراج والأعلام العظام يتهدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وَزِينَةً لِلنَّاظِرِينَ﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيبة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها والاستدلال بها على باريها.

﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ إذا استرق السمع، أتبعته الشهاب الثواقب، فبقيت السماء، ظاهرها مجملًا بالنجوم النيرات، وباطنها محروماً ممنوعاً من الآفات.

﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: في بعض الأوقات، قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾ أي: بين منير، يقتله أو يجلبه.

ربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه، فيقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضمرها ويكذب معها مئة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها على الامتداد بأرجائها، والتناول من أرزاقها، والسكون في نواحيها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي﴾ أي: جبالات عظيمة، تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد، وتثبتها أن تزول ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد، ما بين نخيل وأعناب، وأصناف الأشجار، وأنواع النبات.

﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ من الحرت، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والخرف. ﴿ومن لستم له برازقين﴾ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام، لنفعمكم ومصالحكم، وليس عليكم زرقها، بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار، لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمتنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة، ﴿وما ننزله﴾ أي: المقدر من كل شيء، من مطر وغيره، ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

﴿٢٢﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: وسخرنا

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزِينَةً لِلنَّاظِرِينَ﴾ وحفظناها من كل شيطان شهاب مبين * من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * يقول تعالى - مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه -: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ أي: نجوماً كالأبراج والأعلام العظام يتهدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وَزِينَةً لِلنَّاظِرِينَ﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيبة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها والاستدلال بها على باريها.

الرياح، رباح الرحمة تلقح السحاب، كما يلقي الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواسيهم وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته، ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم، ويسلكه ينابيع في الأرض، رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نَحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ولقد علمنا المتقدمين منكم ولقد علمنا المتأخرين * وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم * أي: هو وحده لا شريك له، الذي يحيي الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ويميتهم لأجلهم التي قدرها ﴿ونحن الوارثون﴾ كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ وليس ذلك بعزير ولا ممتنع على الله، فإنه تعالى يعلم المتقدمين من الخلق والمتأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقاً جديداً ويحشرهم إليه.

﴿إنه حكيم﴾ يضع الأشياء

عذابي هو العذاب الأليم ﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان، وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان ﴿٥١﴾ في جنات وعميرون ﴿٥٢﴾ قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

ويقال لهم حال دخولها: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ من الموت، والنوم والنصب، واللغوب، وانقطاع شيء من النعيم، الذي هم فيه أو نقصانه، ومن المرض، والحزن، والهم، وسائر المكدرات، ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ فتبقى قلوبهم سالمة من كل دغل^(١) وحسد، متصفية متحابة ﴿إخواناً على سررٍ متقابلين﴾.

دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أديهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له، متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

﴿لا يسهم فيها نصب﴾ لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة، لا تقبل شيئاً من الآفات، ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ على سائر الأوقات.

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة من مفعولات الله من الجنة والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال: ﴿نبي عبادي﴾ أي: أخبرهم خبراً جازماً مؤيداً بالأدلة، ﴿أني أنا الغفور الرحيم﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته، سعوا في الأسباب^(٢) الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلمعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته.

ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادي بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنتيهم ﴿أن عذابي هو العذاب الأليم﴾ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله، الذي لا يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿لا يعذب عذابه أحد﴾ ولا يوثق وثاقه أحد، حذروا، وأبعدوا

عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرغبة والإقلاع عنها.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون ﴿٥٣﴾ قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ﴿٥٤﴾ قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ﴿٥٥﴾ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴿٥٦﴾ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴿٥٧﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ أي: عن تلك القصة العجيبة، فإن في قصصك عليهم أنباء الرسل وما جرى لهم، مما يوجب لهم العبرة والاعتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً﴾ أي: سلموا عليه، فرد عليهم ﴿٥٨﴾ قال: إنا منكم وجلون ﴿٥٩﴾ أي: خائفون، لأنه لما دخلوا عليه وحسبهم ضيوفاً، ذهب مسرعاً إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم، عجلًا حنيئاً فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه، خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوه. ﴿٦٠﴾ فقالوا له: ﴿لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم﴾ وهو: إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة، بأنه ذكر لا أنثى، عليم، أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾.

فقال لهم متعجباً من هذه البشارة: ﴿أبشرتموني﴾ بالولد ﴿٦١﴾ على أن مسني الكبر ﴿٦٢﴾ وصار نوع إياس منه ﴿٦٣﴾ فبم تبشرون ﴿٦٤﴾ أي: على أي: وجه تبشرون

وقد عذمت الأسباب؟

﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ الذي لا شك فيه، لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص - يا أهل هذا البيت - رحمة الله وبركاته عليكم، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم.

﴿فلا تكن من القانطين﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزل راجياً لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه، فأجابهم إبراهيم بقوله:

﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ الذين لا علم لهم برهيم، وكمال اقتداره وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً، ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمر فهم.

﴿٥٧-٥٨﴾ ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴿٥٩﴾ إلا آل لوط إنا لمنجهم أجمعين ﴿٦٠﴾ إلا أمرأته قدرنا إنها لمن الفاسقين ﴿٦١﴾ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴿٦٢﴾ قال إنكم قوم متكرون ﴿٦٣﴾ قالوا بل جئناكم بما كانوا فيه يمترون ﴿٦٤﴾ وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴿٦٥﴾ فأسر بأهلك بقطع من الليل وأتبع أديارهم

(٢) في ب: بالأسباب.

(١) في ب: غل.



لهم لوط ﴿إنكم قوم منكرون﴾ أي: لا أعرفكم ولا أدري من أنتم.

﴿قالوا بل جثناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أي: جثناك بعدابهم الذي كانوا يشكون فيه، ويكذبونك حين تعدهم به، ﴿وأنتيناك بالحق﴾ الذي ليس بالهزل ﴿وإننا لصادقون﴾ فيما قلنا لك.

﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ أي: في أثنائه حين تمام العيون، ولا يدري أحد عن مسراك، ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي: بل بادروا وأسرعوا، ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ كأن معهم دليلاً يدلهم إلى أين يتوجهون ﴿وقضينا إليه ذلك﴾ أي: أخبرناه خبراً لا مثوية فيه ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾

أي: سيصبحهم العذاب الذي يحتاجهم ويستأصلهم، ﴿وجاء أهل المدينة﴾ أي: المدينة التي فيها لوط ﴿يستبشرون﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً، بأضياف لوط وصباحة وجوهم واقتدارهم عليهم، وذلك لقصدتهم فعل الفاحشة فيهم، فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه، ولوط يستعبد منهم ويقول:

﴿إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تحزون﴾ أي: راقبوا الله أول ذلك، وإن كان ليس فيكم خوف من الله، فلا تفضحون في أضيافي، وتنتهكوا منهم الأمر الشنيع.

ف ﴿قالوا﴾ له جواباً عن قوله ولا تحزون فقط: ﴿أو لم ننهك عن العالمين﴾ أن تضيفهم، فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر فقد أعذر، ف ﴿قال﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ فلم يبالوا بقوله، ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ وهذه السكره، هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم.

فلما بينت له الرسل حالهم، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق

والكرب، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلاً فنجوا، وأما أهل القرية ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾ أي: وقت شروق الشمس، حين كانت العقوبة عليهم أشد، ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾ أي: قلبنا عليهم مدينتهم، ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ تتبع فيها من شد من البلد منهم.

﴿إن في ذلك لآية للمتوسمين﴾ أي: المتأملين المتفكرين، الذين لهم فكر وروية وفراصة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرؤوا على أشنع السيئات.

﴿وإنها﴾ أي: مدينة قوم لوط ﴿لبسيل مقيم﴾ للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليته إبراهيم، فإن لوطاً عليه السلام من أتباعه، ومن آمن به فكأنه تلميذه، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك، أمر رسله أن يصروا على إبراهيم عليه السلام كي يبشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم، حتى أقنعوه، فطابت نفسه.

وكذلك لوط عليه السلام، لما كانوا أهل وطنه، قريباً أخذته الرقة عليهم والرافة بهم، قدر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿إن موعدهم الصبح اليس الصبح بقرب﴾ ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية، [ازداد] شرهم وطغيانهم، فإذا انتهى، أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

﴿٧٨ - ٧٩﴾ ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين﴾ فانتقمنا منهم وإنها ليؤامم ميين، وهؤلاء هم قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار، ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم

ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين * وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تحزون * قالوا أولم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسيل مقيم * إن في ذلك لآية للمؤمنين * أي: ﴿قال﴾ الخليل عليه السلام للملائكة: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ أي: ما شأنكم، ولأي شيء أرسلتم؟

﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ أي: كثر فسادهم، وعظم شرهم، لنعذبهم ونعاقبهم، ﴿إلا آل لوط﴾ أي: إلا لوطاً، وأهله ﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أي: الباقيين بالعذاب، وأما لوط فسنخرجنه وأهله، ونتجنبتهم منها، فجعل إبراهيم يبادل الرسل في إهلاكهم، ويراجعهم، فقيل له: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ فذهبوا منه.

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون قال﴾

نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد وترك ظلم الناس في المكابيل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم، «فانتقمنا منهم» فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. «ولإنهما» أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة «ليأمن ممين» أي: لطريق واضح، يمر بهم المسافرون كل وقت، فبين من آثارهم ما هو مشاهد بالابصار، فيعتبر بذلك أولو الأبواب.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ «ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين» وأتيانهم آياتنا فكانوا عنها معرضين «وكانوا يستحشرون من الجبال بيوتاً آمنين» فأخذتهم الصيحة مصبحين «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به، «وأتيانهم آياتنا» الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، التي من جملتها تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة.

«فكانوا عنها معرضين» كبراً وتجبراً على الله، «وكانوا» من كثرة إنعام الله عليهم «يستحشرون من الجبال بيوتاً آمنين» من المخاوف، مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحاً عليه السلام، لأدّر الله عليهم الأرزاق، ولاكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: «يا صالح اتتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين».

«فأخذهم الصيحة مصبحين» فتقطعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى،

مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» لأن أمر الله إذا جاء، لا يردّه كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

﴿٨٥ - ٨٦﴾ «وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة آتية فاصفح الصفح الجميل» إن ربك هو الخلاق العليم أي: ما خلقناها عبثاً وباطلاً كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناها بالحق الذي منه، أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له، «وإن الساعة آتية» لا ريب فيها «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» «فاصفح الصفح الجميل» وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتتال من ربك جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هوأت فهو قريب، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا.

وهو: أن المأمور به هو الصفح الجميل، أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿٨٧﴾ «إن ربك هو الخلاق لكل مخلوق العليم» بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجري عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿٨٧ - ٩٣﴾ «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم» لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين «وقل إني أنا النذير المبين» كما أنزلنا على المقتسمين «الذين جعلوا القرآن عضين» فوربك

﴿٩٤﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿٩٥﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿٩٦﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿٩٧﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿٩٨﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿٩٩﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١٠٠﴾ «فأولئك أشد لعن»

﴿١٠١﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١٠٢﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١٠٣﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١٠٤﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١٠٥﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١٠٦﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١٠٧﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١٠٨﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١٠٩﴾ «فأولئك أشد لعن» ﴿١١٠﴾ «فأولئك أشد لعن»

لنسانهم أجمعين «عما كانوا يعملون» يقول تعالى مُتَمَتِّاً على رسوله: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني» وهن - على الصحيح - السور السبع الطوال: «البقرة» و «آل عمران» و «النساء» و «المائدة» و «الأنعام» و «الأعراف» و «الأنفال» مع «التوبة». أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف «القرآن العظيم» على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في المثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجلية، وتنتيتها فيها.

وعلى القول بأن «الفاتحة» هي السبع المثاني، معناه: أنها سبع آيات، تنبئ في كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون، «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» ولذلك قال بعده:

﴿٩٤﴾ «لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم» أي: لا تعجب إعجاباً يملكك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واعتز بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم، «ولا تحزن عليهم» فإنهم لا خير فيهم يزجي، ولا نفع يُرتَّب.

فلك في المؤمنين عنهم أحسن

الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴿١﴾ يقول تعالى - مقرباً لما وعد به محققاً لوقوعه - : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ فإنه أت، وما هوأت فإنه قريب، ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ من نسبة الشريك والولد والصاحبة، والكفاءة، وغير ذلك مما نسبته إليه المشركون، مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله، ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه، ذكر الوحي الذي ينزل على أنبيائه، مما يجب اتباعه في ذكر ما ينسب لله، من صفات الكمال فقال:

﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح ﴿على من يشاء من عباده﴾ من يعلمه صالحاً، لتحمل رسالته.

وزيدة دعوة المرسلين كلهم ومدارها على قوله: ﴿أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ أي: على معرفة الله تعالى وتوحده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك. فقال:

﴿٣-٩﴾ ﴿خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون﴾ * خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين * والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشئ الأثقل إن ركبكم لرؤوف رحيم * والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون * وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في

ولا بغيرهم، وأن يصنع بما أمر الله، ويعلم بذلك لكل أحد ولا يعوقه عن أمره عائق ولا تصدّه أقوال المتوهمين، وأعرض عن المشركين ﴿أي: لا تبال بهم، واترك مشاعتهم ومسابتهم، مقبلاً على شأنك،﴾ إنا كفيناك المستهزئين ﴿بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزؤون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة. وقد فعل تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلا أهلكه الله وقته شر قتلة.

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله، فإنهم أيضاً يؤذون الله ويعملون معه ﴿إلهاً آخر﴾ وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم ﴿فسوف يعلمون﴾ غيب أفعالهم إذا وردوا القيامة، ﴿ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ لك من التكذيب والاستهزاء.

فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يمهلهم.

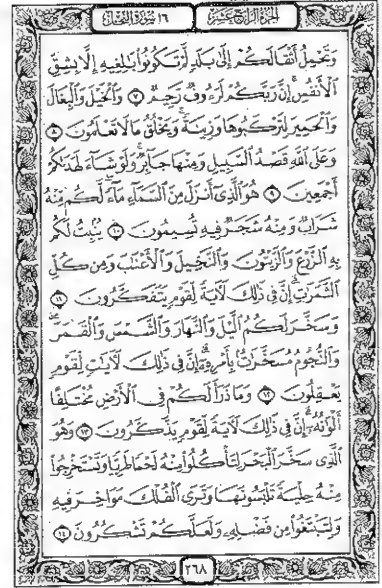
فأنت يا محمد ﴿فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾ أي: أكثر من ذكر الله وتسيبته وتحميده والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه، ويعينك على أمورك.

﴿٩٩﴾ ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ أي: الموت، أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائماً في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷻ، تسليماً كثيراً.

تم تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل وهي مكية

﴿١-٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ ينزل



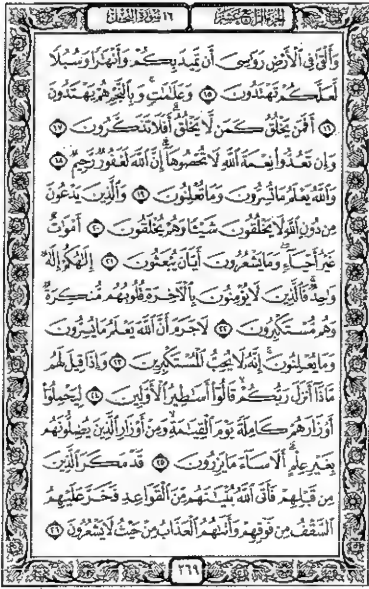
البدل، وأفضل العوض، ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أي: ألن لهم جانبك، وحسن لهم خلقك، محبة وإكراماً، وتودداً، ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي: قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقريب والبعيد، والعدو، والصدق، فإنك إذا فعلت ذلك، فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي: أصنافاً وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهتونه، فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مُفترى، إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قديحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى.

﴿فوريك لنساء لهن أجمعين﴾ أي: جميع من قدح فيه وعابه، وحرفه وبذله ﴿عما كانوا يعملون﴾ وفي هذا أعظم تهريب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه^(١). ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم

(١) في ب: يعملون.



وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، ولكن الله ذلّلها لكم.

فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة، ﴿إِنَّ رَيْحَكُمْ لِرُؤُوفٍ رَّحِيمٍ﴾ إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ سخرناها لكم لتركبوها وزينة، أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيول لا تستعمل - في الغالب - للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل، خوفاً من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير، فإنه لو ذكر لم يعرفوه، ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال: ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم، فإنه الإله حقاً، الذي لا تنبغي العبادة، والحب والذل إلا له تعالى، ولما ذكر خلق السماوات والأرض^(١)، ذكر خلق ما فيهما.

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ لم يزل يدبرها، ويرقيها وينميها، حتى صارت بشراً تاماً، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مِّينَ﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به، من النعم، فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الأدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلاً متكلماً، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الشيايب، والفرش، والبيوت.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ غير ذلك ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولَكُمْ فيها جبال حين ترعجون وحين تسرحون، أي: في

فكذلك هنا، ذكر ما نعرفه من المراكب، كالخيل، والبغال، والحمير، والإبل، والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها، ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاؤون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْعِلْنِي﴾ ولكنه هدى بعضاً كرمافضلاً، ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلاً.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون، ﴿بِذَلِكَ عَلَى كَمَالٍ قُدْرَةُ اللَّهِ﴾ الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، وروحته حيث جعل فيه ماء

(١) زيادة يقتضيها السياق.



وتضطرب بالخلق، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، أنهاراً على وجه الأرض، وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلاً، أي: طرقاً توصل إلى الديار المتناحية، **﴿لعلكم تهتدون﴾** السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجيال مسلسلها فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للساكنين.

﴿١٧ - ٢٣﴾ **﴿أفمن يخلق﴾** لا يخلق أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون * والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أتيان يبعثون * إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين * لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العظيمة، ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفاء له ولا ند له، فقال: **﴿أفمن يخلق﴾** جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد **﴿كمن لا يخلق﴾** شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، **﴿أفلا تذكرون﴾** فتعجبون أن المفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.

وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل اخلصوا له الدين، **﴿وإن تعدوا نعمة الله عدداً مجرداً عن الشكر﴾** لا تحصوها **﴿فضلاً عن كونكم تشكرونها﴾**، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات،

﴿١٣﴾ **﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه﴾** إن في ذلك لآية لقوم يذكرون * أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد، من كل ما على وجه الأرض، من حيوان، وأشجار، ونبات، وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه، آية على كمال قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، **﴿لقوم يذكرون﴾** أي: يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿١٤﴾ **﴿وهو الذي سخر البحر﴾** لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * أي: هو وحده لا شريك له **﴿الذي سخر البحر﴾** وهياً لمنافعكم المتنوعة، **﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾** وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، **﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾** فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى جسنتكم، **﴿وترى الفلك﴾** أي: السفن والمراكب **﴿مواخر فيه﴾** أي: تمخر البحر العجاج الهائل بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿ولعلكم تشكرون﴾ الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياًها، وتثنون على الله الذي من بها، فله تعالى الحمد والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلى مما يتمنون، وآتاهم من كل ما سألوه، لا نحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

﴿١٥ - ١٦﴾ **﴿والقى في الأرض رواسي﴾** أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون * أي: **﴿والقى﴾** الله تعالى لأجل عباده **﴿في الأرض رواسي﴾** وهي: الجبال العظام لئلا تميد بهم

غزيراً منه يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.

﴿١٢﴾ **﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾** إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر، من الضياء، والنور، والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار، والنبات، وتخفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر.

وفيهما وفي النجوم، من الزينة للسماء والهداية، في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، ما تتنوع دلالاتها، وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾** أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكير، فيما هي مهياة له مستعدة، تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

من جميع أصناف النعم، عما يعرف العباد، ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يرضى منك باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

وكما أن رحمته واسعة، وجوده عظيم، ومغفرته شاملة للعباد، فعلمه محيط بهم، ﴿يَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَتُونَ﴾ بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى!!

ومع هذا، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء، لا علم، ولا غيره، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئاً، أفنتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتباً لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسواها بين الناقص من جميع الوجوه، فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعان، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء، والقدرة العامة، والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال:

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فأهل الإيمان والعقول، أجلته قلوبهم وعظمتهم، وأحبته حباً عظيماً، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنا عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته وأفعاله المقدسة، ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قلوبهم منكرة ﴿لِذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يَنْكُرُهُ إِلَّا أَعْظَمُ الْخَلْقِ جَهلاً وعناداً، وهو توحيد الله ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً لا بد

﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

﴿٢٤ - ٢٩﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَيْكُم قَالُوا أَطَايِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بِنِيتِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ثم يوم القيامة يجزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فليس مثوى المتكبرين ﴿يَقُولُ تَعَالَى - مُخْبِئاً عَنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ بآيَاتِ اللَّهِ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَيْكُم﴾ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها، أم تكفرون وتعادون؟

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسج، فيقولون عنه: إنه ﴿أَطَايِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: من أوزار التقليد الذين لا علم عندهم إلا ما دعواهم إليه، فيحملون إثم ما دعواهم إليه، وأما الذين يعلمون، فكل مستقبل بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ أي: بشئ مناحلوا من

وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْكَ آلُوزَكَةَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ بَارِكُ الْمُنَافِقِينَ وَهُوَ يَرَى مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوكَ مِنْكُمْ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوكَ مِنْكُمْ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوكَ مِنْكُمْ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوكَ مِنْكُمْ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾

الوزر المثلث لظهورهم، من وزرهم ووزر من أضلوه.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم، واحتالوا بأنواع الخيل على رد ما جاؤوهم به، وبنوا من مكرهم، قصوراً هائلة، ﴿فَأَتَى اللَّهَ بِنِيتِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذاباً عذبوا به، ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سيتفهمهم ويقبهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأضلوه.

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم، وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبئالاً عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ، ﴿وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ هذا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أحرى، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُجْزِيهِمْ﴾ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

﴿وَيَقُولُ آيُنْ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾ أي: تحاربون

لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعم لم تخطر على قلوبهم.

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده، الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله، وأثار تلك النعمت، وعظمة الملك والملوكوت، كذلك يجزي الله المتقين، لسخط الله وعذابه، بأداء ما أوجبه عليهم من القروض والواجبات، المتعلقة بالقلب والبدن واللسان، من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه.

﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طيبين﴾ أي: طاهرين مطهرين من كل نقص وذنس يتطرق إليهم، ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبه، وألستهم بذكره والشاء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه، ﴿يقولون سلام عليكم﴾ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم، والسلامة من كل آفة.

وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم، لا بحولهم وقوتهم.

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فأصابعهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكروا فلم يتذكروا،﴾ إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم، فإنهم قد استحقوا لوقوعه فيهم، ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب.

﴿وما ظلمهم الله﴾ إذ عذبهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فإنها

لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ كل أهل عمل يدخلون من الباب اللاتق بحالهم، ﴿فلبس ثوبى المتكبرين﴾ نار جهنم، فإنها ثوبى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الخي القيوم، لا يفتقر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوماً من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأدأقهم العذاب العظيم.

﴿٣٠-٣٢﴾ ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدن الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾ جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴿لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعملوها، وعملوا لها﴾ للذين أحسنوا ﴿في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلمهم﴾ في هذه الدنيا حسنة ﴿رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور.

﴿ولدار الآخرة خير﴾ من هذه الدار، وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل، محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾

﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي: مهما تمنته أنفسهم، وتعلقت به إرادتهم، حصل لهم على أكمل الوجوه وأعماها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر



وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء الله، فإذا سألهم هذا السؤال، لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بتعاديهم فيقولون ﴿ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ قال الذين أوتوا العلم: أي: العلماء الربانيون ﴿إن الخزي اليوم﴾ أي: يوم القيامة ﴿والسوء﴾ أي: العذاب ﴿على الكافرين﴾

وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال:

﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيثهم، وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام، من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فالبقوا السلم﴾ أي: استسلموا، وأنكروا ما كانوا يجحدونهم من دون الله وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ فيقال لهم: ﴿بلى﴾ كنتم تعملون السوء، ف ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئاً، وهذا في بعض مواقف القيامة، ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظناً أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا

مخلوقة لعبادة الله ، ليكون مآلها إلى كرامة الله ، فظلموها وتركوا ما خلقت له ، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم .

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ آي: عقوبات أعمالهم وأثارها، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ آي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فأنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالغضب استهزؤوا به، وسخروا من أخبر به، فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

﴿٢٥﴾ ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئاً من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام، ونحوها، من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقاً ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يجب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا زلزال الحق الذي نتجأت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكنهم من^(١) القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشية تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحق، قدرة الإنسان على كل فعل يريد، من غير أن ينافيه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقلية والحسية، «فهل على الرسل إلا البلاغ المبين» أي: البين الظاهر، الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغت الرسل أمر ربهم ونهيهم، واحتجوا عليهم بالفذر، فليس للرسل

من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿ولقد بعثنا في كل
أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم
من حقت عليه الضلالة فسيروا في
الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين ﴾ * إن نحرص على هداهم
فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من
ناصرين ﴿يخبر تعالى أن حجته قامت
على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة
أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا،
وكلهم متفقون على دعوة واحدة وذين
واحد، وهو عبادة الله وحده
لا شريك له ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت﴾ فانقسمت الأمم بحسب
استجابتها للدعوة الرسل وعدمها
قسمين، ﴿فمنهم من هدى الله﴾
فاتبعوا المرسلين علماً وعملاً، ﴿ومنهم
من حقت عليه الضلالة﴾ فاتبع سبيل
الغى.

﴿فسيروا في الأرض﴾ بأبْدَانِكُمْ
وَقُلُوبِكُمْ ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ﴾ فَإِنَّكُمْ سَتَرُونَ مِنْ ذَلِكَ
الْعِجَابِ، فَلَا تَجِدُونَ مَكْذِبًا إِلَّا كَانَ
عَاقِبَتُهُ الْهَلَاكُ.

﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هِدَاهُمْ﴾ وتبذل
جهدك في ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ
يُضِلُّ﴾ ولَوْ فَعَلَ كُلُّ سَبَبٍ لَمْ يَهْدِهِ
إِلَّا اللَّهُ، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾
ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم
بأسه.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللّٰهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ قَوْمًا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ الْمَشْرُكِينَ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ ، أَنَّهُمْ ﴿أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَيْ :

[illegible]

حلفوا أيماناً مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً، قال تعالى كذبا لهم: ﴿يٰٓأَيُّهَا سَبِّحْتُهُمْ وَيَجْمَعُهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿لِيُنْذِرَ لِمَنْ يَخْلَقُونَ فِيهِ﴾ من المسائل الكبار والصغار، فبين حقائقها وبروحها.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون خطباً لجهنم، وتكور الشمس والقمر، وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفترقات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد، فإنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أَرَادَهُ وشَاءَهُ.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾

من التبعة، فدل على أن الله اثنتهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأول من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة، ﴿لَتَبِينَ الْفَاهِ، وَتَبِينَ مَعَانِيهِ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلموه بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم * هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلبهم وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله، في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العصاة بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيههم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم^(١) أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإنقاذ من السيئات التي تضربهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فَلْيَسْتَحِ الْمُجْرِمُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ تَكُونَ تَعَمُّهُ عَلَيْهِ نَازِلَةٌ فِي جَمِيعِ اللَّحْظَاتِ^(٢)، ومعاصيه

بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهي، وعلى أقدار الله المؤلة، وعلى الأذية فيه والمحن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابه، لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ * بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون * يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ أي: لست ببدع من الرسل، فلم ترسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كاملين لا نساء، ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وأحيانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: الكتب السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نبي الأولين، وشككتهم هل بعث الله رجلاً؟

فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرروا عندهم، أن الله ما بعث إلا رجلاً يوحى إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل.

فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل

(٢) في ب: الحالات.



في الله من بعد ما ظلموا لئولئهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون * يخبر تعالى بفضل المؤمنين المتحينين * الذين هاجروا في الله * أي: في سبيله وابتغاء مرضاته * من بعد ما ظلموا * بالآذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والحلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين، ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رآه عياناً، بعدما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

﴿وَلَا جُرَ الْآخِرَةِ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿أكبر﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنت لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم * وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان لهم علم ويقين

(١) كذا في ب، وفي أ: عليهم.

يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عباده!!؟

﴿و﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة تصف المستتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴿أي﴾ أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، رد عليهم بقوله: ﴿لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون﴾ مقدمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبداً.

بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كذب فقال [تعالى]: ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ رسلاً يدعوهم إلى التوحيد، ﴿فزين لهم﴾ الشيطان أعمالهم ﴿فكذبوا﴾ الرسل، وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار ولهم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه، وتولوه.

﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ وهم لكم عدو بشن للظالمين بدلاً ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة، حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

﴿٦٥﴾ ﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة، وجود عظيم.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم ليناًخالصاً سائغاً للشاربين﴾ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾

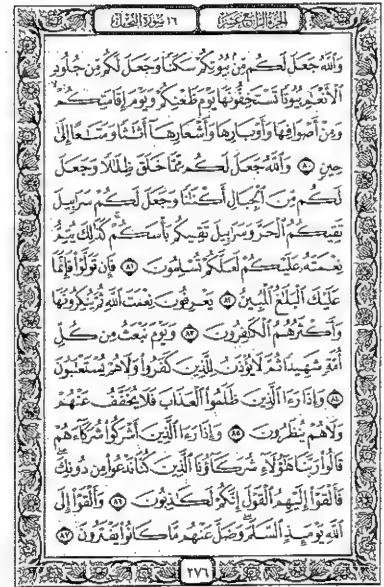
ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي: المثل الناقص والعيب التام، ﴿وله المثل الأعلى﴾ وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود، فآله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة.

﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه.

﴿٦١﴾ ﴿ولو يتواخذاً الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ لما ذكر تعالى ما اقتراه الظالمون عليه، ذكر كمال حلمه وصبره فقال: ﴿ولو يتواخذاً الله الناس بظلمهم﴾ من غير زيادة ولا نقص، ﴿ما ترك عليها من دابة﴾ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحیوانات، فإن شؤم المعاصي يهلك به الحزب والنسل.

﴿ولكن يؤخرهم﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ ﴿ويجعلون لله ما يكرهون وتصف المستتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون﴾ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو ولهم اليوم ولهم عذاب أليم ﴿يجبر تعالى أن للمشركين﴾ يجعلون لله ما يكرهون من البنات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك، بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عيب لله، فكما أنهم يكرهون، ولا



وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله الآية، ﴿لتسألن عما كنتم تفترون﴾ ويقال: ﴿الله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿ويجعلون لله البنات﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم ﴿إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وهو كظيم﴾ أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بشر بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها ﴿أيمسكه على هون﴾ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أم يدسه في التراب﴾ أي: يدفنها وهي حية، وهو الواد الذي ذم الله به المشركين، ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله، من نسبة الولد إليه.

ثم لم يكفهم هذا، حتى نسبوا له أزدًا القسمين، وهو الإناث، الثلاث يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها، فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فينس الحكم حكمهم.

هل هذا إلا من أعظم الظلم، والاحود لنعم الله!! ولهذا قال: ﴿أفبينعمة الله يمحذون﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاهها، لما أشركوا به أحداً.

﴿٧٢﴾ ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفالباطل يؤمنون بنبهة هم يكفرون﴾ يخبر تعالى عن مئنة العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، ويستفعلون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات، من جميع المأكول والمشرب، والنعمة الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصروها.

﴿أفالباطل يؤمنون بنبهة الله هم يكفرون﴾ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم، فلا تخلق، ولا ترزق، ولا تدبر من الأمر شيئاً، وهذا عام لكل ما عبيد من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله!!

﴿وبنعمته الله هم يكفرون﴾ يمحذونها، ويستعنيون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور، وأسفه السفه!!

﴿٧٣-٧٦﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون﴾ فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون * ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه من رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هل يستوتون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه

ومراعيا، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتعام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.

﴿٧٠﴾ ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق خلق العباد وتقلهم في الخلقة، طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم، يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى ﴿يرد إلى أرذل العمر﴾ أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الصبي، ولهذا قال: ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئاً، إن الله عليم قدير﴾ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما ينتقل به الأدمي من أطوار الخلقة، خلقاً بعد خلق، كما قال تعالى: ﴿والله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾.

﴿٧١﴾ ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبينعمة الله يمحذون﴾ وهذا من أدلة توحيده، وقبح الشرك به، يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون، إلا أنه تعالى ﴿فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم، لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء﴾ ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى!!

أي: ﴿إن لكم في الأنعام﴾ التي سخرها الله لنافعكم ﴿لعبرة﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرت والدم، فأخرج من بين ذلك لبناً خالصاً من الكدر سائغاً للشاربين، للذته، ولأنه يسقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.

فأي: شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح، من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طرياً ونضيجاً، وحاضراً ومدخراً، وطعاماً، وشراباً يتخذ من عصيرها وتبيذها، ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ جل المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأثربة اللذيذة المباحة.

﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمة، حيث عم^(١) بها عباده ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿٦٨-٦٩﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا الحسل اللذيذ، مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها

إياها، وجعل ينميها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

﴿٧٩﴾ ﴿ألم يروا إلى الطير يسير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: لأنهم المنتفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم فإن نظرهم نظر لغيره وغفلة، ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقه تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على كمال حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ * والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون * فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين * يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون * يذكر تعالى عبادة نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها فقال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ في الدور والقصور ونحوها، تُكِنُّكم من الحر والبرد وتستركم، أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف^(١) والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، ﴿وجعل لكم من جلود

العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم. والمثل الثاني مثل ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾ لا يسمع ولا ينطق و ﴿لا يقدر على شيء﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وهو كل على مولاه﴾ أي: يُجِدُّه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه، فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل، وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان، فلا يستوي من عُبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولاً قيام الله بها لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً ونذاً لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

﴿٧٧﴾ ﴿والله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾ أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والباطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة، فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتحملت، لم تكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم يعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياءه للموتى.

﴿٧٨﴾ ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ولا تقدرون على شيء ثم إنه ﴿جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وقبيلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة، هو الذي أعطاهم

لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطراً ولا رزقاً، ولا ينتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا، فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون.

فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات، الذي له الملك كله، والحمد كله، والقوة كلها!!

ولهذا قال: ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فلماذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك، أي: رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني حرٌ عتيق قد رزقه الله منه رزقاً حسناً، من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير محال استوائهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة، ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء!!

ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الحمد لله﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سؤى المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بئس أكرههم لا يعلمون﴾ فلو علموا حقيقة

(١) في الأصل: البيوت والغرف والبيوت.

الأنعام ﴿إِذَا مِنْ الْجِلْدِ نَفْسُهُ، أَوْ مِمَّا نَبَتْ عَلَيْهِ، مِنْ صَوْفٍ وَشَعْرٍ وَوَبِيرٍ.

﴿بَيُوتًا تَسْتَخْفُونَهَا﴾ أي: خفيفة المحمل، تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَصْوَانِهَا﴾ أي: الأنعام ﴿وَأَوْبَارَهَا وَأَشْعَارَهَا أَبْنَاءًا﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الأبنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك.

﴿وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتتفعمون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعتة وعمله.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ﴿ظِلَالًا﴾ وذلك، كأظلة الأشجار والجبال، والأكام ونحوها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: مغارات، تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ أي: ألبسة وثياباً ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ ولم يذكر الله البرد، لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم، فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ وَمَنَافِعٌ﴾.

﴿وَتَقِيكُمْ بِأَسْكَمٍ﴾ أي: وثياباً تقيكم وقت البأس والحرب، من السلاح، وذلك، كالدرع والزرذ، ونحوها، كذلك يتم نعمته عليكم حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لِعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿تَسْلُمُونَ﴾ لعظمته وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة مولياهم ومسديها، فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبي الظالمون إلا تمرداً وعناداً.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الله وعن طاعته بعد ما ذكروا بنعمه وآياته، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أدبت ما عليك، فحسابهم على الله، فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويحذونها، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قسودهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد، كفور للنعم، متمرد على الله وعلى رسوله.

﴿٨٤-٨٧﴾ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾ وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿يخبر تعالى عن حال الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر، ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليها بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أذكى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

ف ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار، لأن اعتذارهم بعد ما علم يقيناً بظلمهم ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئاً، وإن طلبوا أيضاً الرجوع إلى الدنيا، ليستدركوا لم يجابوا ولم يعبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير أنظار ولا إمهال من حين يرونه، لأنهم لا حساب عليهم لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى، ويوقفون عليها ويقررون بها ويفتضحون.



﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ يوم القيامة وعلموا بطلانها، ولم يمكنهم الإنكار.

﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فتوهوا بأنفسهم بطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، ﴿فآلقوا إليهم القول﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إنكم لكاذبون﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدقونا معه، فلم تأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقاً للألوهية، فاللوم عليكم.

فحيث استسلموا لله، وخضعوا لحكمة، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب.

﴿ووصل عنهم ما كانوا يفترون﴾ فدخلوا النار، وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم، ومن حد ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿٨٨﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ كانوا يفترون، حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسوله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿٨٩﴾ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ

مستحب، وذلك كنفخ الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهييم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان دخلاً في العموم - لتأكيد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب، قريبتهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿ويهيئ عن الفحشاء﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرب بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالغني كل عدوان على الخلق، في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى، فهي بما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغى، فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به، وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: ﴿يعظكم﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرركم. ﴿لعلكم تذكرون﴾ ما يعظكم به، ففهمونه وتعللونه، فإنكم إذا تذكروتم وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، فسدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع، أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال:

الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى، فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم يمشون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى ما نالوه به من علم نافع، وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطماننته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه، التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

﴿٩٠﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده، فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمركبة منهما، في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونواب الخليفة ونواب القاضي.

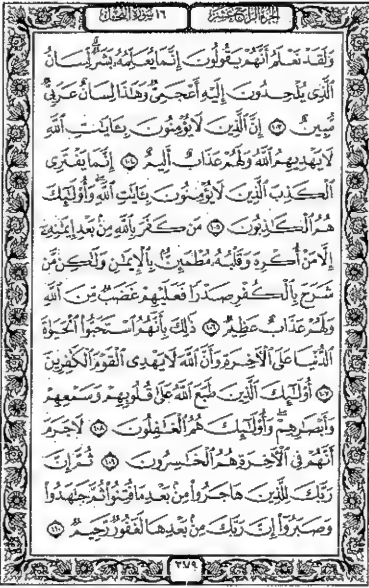
والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكة، ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تتخذهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة



شهادة على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴿لما ذكر فيما تقدم أنه يعث في كل أمة شهيداً﴾ ذكر ذلك أيضاً هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي: على أمتك، تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى، أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

وقال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴿وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين، بالفاظ واضحة، ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمروها عليه كل وقت، وإعدادها في كل ساعة، ويعيدها ويبدئها بالفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتثمر من



أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم،
تعتقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون
فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها
ضعيفاً غير قادر على الآخر، أمها، لا
لتعظيم العقد واليمين، بل لمعجزه.
وإن كان قوياً، يرى مصلحته الدنيوية
في نقضها، نقضها غير مبال بعهد الله
ويمينه.

كل ذلك دوراً مع أهوية النفوس،
وتقديماً لها على مراد الله منكم، وعلى
المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية،
لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من
الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان يتليكم
الله به حيث فيض من أسباب المحن
الذي يمتحن به الصادق الوفي من
الفاجر الشقي.

﴿وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم
فيه تختلفون﴾ فيجازي كل بما عمل،
ويجزى الغادر.

﴿٩٣﴾ ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة
واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من
يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ أي:
﴿لو شاء الله﴾ لجمع الناس على الهدى
وجعلهم «أمة واحدة» ولكنه تعالى
المتفرد بالهداية والإضلال، وهدايته
وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه
وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها
فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً.
﴿ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ من خير
وشر، فيجازيكم عليها أتم الجزاء
وأعدله.

﴿٩٤﴾ ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً
بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا
السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم
عذاب عظيم﴾ أي: ﴿ولا تتخذوا
أيمانكم﴾ وعهودكم ومواثيقكم تبعاً
لأهوائكم، متى شئتم وفيتهم بها، ومتى
شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم
ذلك، تزل أقدامكم بعد ثبوتها على
الصراط المستقيم. ﴿وتذوقوا السوء﴾
أي: العذاب الذي يسوءكم ويجزئكم
﴿بما صددتم عن سبيل الله﴾ حيث
ضللتم وأضللتكم غيركم ﴿ولكم عذاب
عظيم﴾ مضاعف.

﴿٩١-٩٢﴾ ﴿وأوفوا بعهد الله إذا
عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد
توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً
إن الله يعلم ما تفعلون﴾ ولا تكونوا
كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً
تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون
أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به
وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه
تختلفون.

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد
عليه ربه، من العبادات والسنن
والأيمان التي عقدتها، إذا كان الوفاء
بها براً، ويشمل أيضاً ما تعاقد عليه هو
وغيره، كالعهدود بين المتعاقدين،
وكالوعد الذي يعده العبد لغيره،
ويؤكد على نفسه، فعليه في جميع ذلك
الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا
نهى الله عن نقضها فقال: ﴿ولا
تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ بعقدها
على اسم الله تعالى: ﴿وقد جعلتم الله
عليكم﴾ أيها المتعاقدان «كفيلاً» فلا
يجل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله
عليكم كفيلاً، فيكون ذلك ترك
تعظيم لله واستهانة به، وقد رضي
الآخر منك باليمين، والتوكيد الذي
جعلت الله فيه كفيلاً. فكما انتمنك
وأحسن ظنه فيك، فلتف له بما قلت
وأكدته.

﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ يجازي
كل عامل بعمله، على حسب نيته
ومقصده.

﴿ولا تكونوا﴾ في نقضكم للعهدود
بأسوأ الأمثال وأفحها وأدله على سفه
متعاطيها، وذلك «كالتي» تغزل غزلاً
قوياً، فإذا استحکم وتم ما أريد منه
نقضته فجعلته «أنكاثاً» فتعبت على
الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد
سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل،
ونقص الرأي، فكذاك من نقض ما
عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه،
ناقص الدين والمروءة.

وقوله: ﴿تتخذون أيمانكم دخلاً
بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾

﴿٩٥-٩٧﴾ ﴿ولا تشتروا بعهد
الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم
إن كنتم تعلمون﴾ ما عندكم ينقد وما
عند الله باقي ولنجزين الذين صبروا
أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون * من
عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو
مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم
أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون *
يحذر تعالى عباده من نقض العهود
والأيمان، لأجل متاع الدنيا
وحطامها، فقال:

﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾
تنالونه بالنقض وعدم الوفاء «إنما
عند الله» من الثواب العاجل والأجل
لمن أتمر رضاه، وأوفى بما عاهد
عليه الله «هو خير لكم» من حطام
الدنيا الزائلة «إن كنتم تعلمون»

فأثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن
الذي عندكم ولو كثر جداً، لا بد أن
«ينقد» ويفنى، «وما عند الله باقي»
ببقائه، لا يفنى ولا يزول، فليس يعاقل
من أثر الفاني الخسيس على الباقي
النفيس، وهذا كقوله تعالى: ﴿بل
تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير
وأبقى﴾ «وما عند الله خير للابرار»
وفي هذا الحث والترغيب على الزهد
في الدنيا. خصوصاً الزهد المتعين،
وهو الزهد فيما يكون ضرراً على
العبد، ويوجب له الاشتغال عما
أوجب الله عليه، وتقديمه على

ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فازهم إلى المعاصي أژا، وقادهم إلى التار قودا.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين * يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن، يتتبعون ما يروونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكما مكان آخر، لحكمته ورحمته، فإذا رآوه

كذلك، قذحوا في الرسول وبما جاء به، و ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ قال الله تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فهم جهال لا علم لهم برهيم ولا بشرعه، ومن المعلوم أن قذح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القذح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القذح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قل نزله روح القدس﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿بالحق﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره، وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقذح فيه قذحا صحيحا، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم، وقتا بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئا فشيئا، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضا فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكما [من الأحكام] ثم نسخه، علموا أنه أبدله بما هو مثله، أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية، والمناسبة العقلية.

﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم

التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقا حلالا طيبا، من حيث لا يحتسب. ﴿ولنجزيهم﴾ في الآخرة ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من أصناف اللذات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيؤتيه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

﴿٩٨ - ١٠٠﴾ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون * أي: فإذا أزدت القراءة لكتاب الله، الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب، والعلوم الكثيرة، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متديرا لمعناها، معتمدا بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهدا في دفع وساوس وأفكاره الرديئة، مجتهدا على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

فإن الشيطان ﴿ليس له سلطان﴾ أي: تسلط ﴿على الذين آمنوا وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان، ولا يبقى له عليهم سبيل.

و ﴿إنما سلطانه﴾ أي: تسلطه ﴿على الذين يتولونه﴾ أي: يجعلونه لهم وليا، وذلك بتخليهم عن



حق الله، فإن هذا الزهد واجب.

ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين وليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر، ونحوها، بل لا يكون العبد زاهدا زهدا صحيحا حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل، فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع^(١).

﴿ولنجزي الذين صبروا﴾ على طاعة الله، وعن معصيته، وقطموا نفوسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالا صالحة، إلا بالإيمان، والإيمان مقتضى لها، فإنه

الخاسرون ﴿الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة﴾ وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودل ذلك، على أن كلام المكرة على الطلاق، أو العتاق، أو البيع، أو الشراء، أو سائر العقود، أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها، فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فشتوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴿أي: ثم إن ربك الذي ربي عبادة المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلي دياره وأمواله، طلباً لرضا الله، وفُتِنَ على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله، بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة، على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهن الرحمة من الله في يوم القيامة حين ﴿تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ كل يقول نفسي نفسي لا يمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يقتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وتوفي كل نفس ما عملت﴾ من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. ﴿فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تحزون

لا يؤمنون بآيات الله﴾ كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ أي: الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحهم، فله تعالى الحمد.

﴿١٠٦ - ١٠٩﴾ ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدر أفعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون﴾ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴿يخبر تعالى عن شناعة حال من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر، راضياً به مطمئناً، أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء. ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً.

وذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿حيث ارتدوا على أديبارهم، طمعاً في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهداً في خير الآخرة، فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدم، لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم

الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً، ما كثر في أبدأ. وأيضاً فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة، [أكثر] ﴿١١﴾ فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه، وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال، فاقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيؤوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

﴿١٠٣ - ١٠٥﴾ ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴿إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله ﴿أنهم يقولون إنما يعلمه﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بشر﴾ وذلك البشر، الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربي مبين﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها. ﴿لا يهديهم الله﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحزمائه، وخذلان الله لهم. ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾.

﴿إنما يفترى الكذب﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من الذين

إلا ما كنتم تعملون ﴿١١٢﴾

قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون * وهذه القرية هي مكة المشرفة، التي كانت آمنة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنعرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها، وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضداً ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم * وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿١١٣﴾

﴿١١٤﴾ * فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم * ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم * وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار، وغيرها. ﴿حلالاً طيباً﴾ أي: حالة كونها متصفة

بهذين الوصفين، بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أثراً عن غضب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعدٍّ * واشكروا نعمة الله * بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله. * إن كنتم إياه تعبدون * أي: إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿إنما حرم عليكم﴾ الأثنية المضرة تنزيهاً لكم، وذلك: كـ ﴿الميتة﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك، ميتة الجراد والسملك.

﴿والدم﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر. ﴿ولحم الخنزير﴾ لقذارته وخثه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وما أهل لغير الله به﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها، لأنه مقصود به الشرك.

﴿فمن اضطر﴾ إلى شيء من المحرمات - بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً، أي: إذا لم يزد أكل المحرم، وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿١١٦﴾ * ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذباً وافترافاً على الله وتقولوا عليه.

﴿لتفتروا على الله الكذب﴾، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيمهم وإن تمتعوا في الدنيا، فإنه ﴿متاع قليل﴾ ومصيرهم إلى النار * ولهم عذاب أليم. فإله تعالى ما حرم علينا إلا

الحيثات، تفضلاً منه، وصيانة عن كل مستقذر.

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحورهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾.

﴿١١٩﴾ * ثم إن ربك للذنين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * وهذا حش من لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة، بعاقبة ما تحيي عليه، ولو كان متعمداً للذنوب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب. فإذا تاب وأصلح، بأن ترك الذنب وندم عليه^(١) وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.

﴿١٢٠﴾ * إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتياه وهذاه إلى صراط مستقيم * وأتيناها في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال:

﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً. ﴿قانتاً لله﴾ أي: مديماً لطاعة ربه، مخلصاً له الدين. ﴿حنيفاً﴾: مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضاً عن سواه. ﴿ولم يك من المشركين﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله، لأنه إمام الموحدين الختفاء. ﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأتعم عليه بنعم ظاهرة

(١) كذا في ب، وفي أ: عزم.

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والشواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة، هو وأمه، ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢-٨﴾ ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ ذرية من حملنا مع نوح، فإنه كان عبداً شكوراً* ففيه التنويه بالشأن على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ^(١) أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلمهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والشواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة، هو وأمه، ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

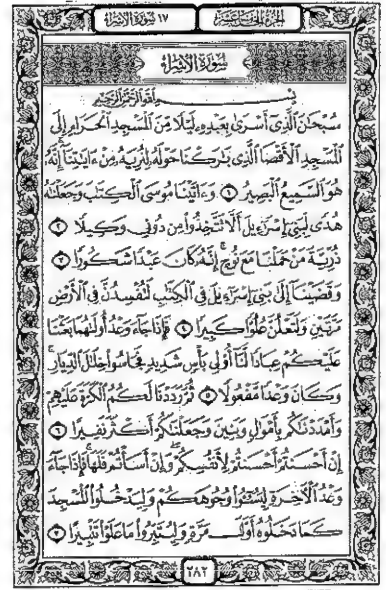
وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢-٨﴾ ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ ذرية من حملنا مع نوح، فإنه كان عبداً شكوراً* وفيه التنويه بالشأن على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ^(١) أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلمهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة



تفسير سورة بني إسرائيل وهي مكية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمن الحسيمة، التي من جعلنا أن ﴿أسرى بعبده﴾ ورسوله محمد ﷺ، ﴿من المسجد الحرام﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتاً وفرقاً، وهذا من اعتناؤه تعالى به ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعماً فاق بها الأولين والآخرين، وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح، أنه أسري به من بيت أم هانئ، فعل هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تتضاعف فيه العبادة كتضاعفها في

فنصرهم الله عليكم، فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال دياركم فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه. ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم. واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلمين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار.

إما من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي، وتركوا كثيراً من شريعتهم، وطمعوا في الأرض. ﴿ثم ردنا لكم الكرة عليهم﴾ أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجليتهم من دياركم. ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾ أي: أكثرنا أرزاقكم، وكثرناكم، وقويناكم عليهم، ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن النفع عائد إليكم، حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم. ﴿وإن أسأتم فلها﴾ أي: فلا تنفسم يعود الضرر، كما أراكم الله من تسلط الأعداء.

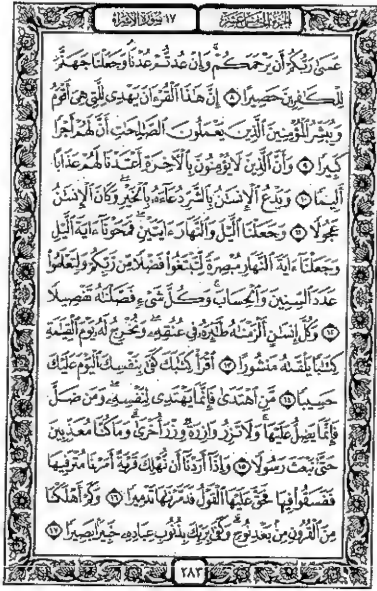
﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: المرة الآخرة^(١) التي تفسدون فيها في الأرض، سلطنا أيضاً عليكم الأعداء. ﴿ليسووا وجوهكم﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم ولیدخلوا المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، والمراد بالمسجد، مسجد بيت المقدس.

﴿وليتبروا﴾ أي: يخربوا ويدمروا ﴿ما علوا﴾ عليه ﴿تتبروا﴾ فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحرثكم.

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ فيدبل لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة.

وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وإن علمتم﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمداً ﷺ،

(١) في ب: الأخرى.



ولكن الله - بلطفه^(٢) - يستجيب له في الخير، ولا يستجيب له بالشر. ﴿ولويعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾.

﴿١٢﴾ ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ يقول تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أي:

دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿فمحونا آية الليل﴾ أي: جعلناه مظلماً، للسكون فيه والراحة، ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي:

مضيئة، ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في معاشكم وصنائعكم وتجاراكم وأسفاركم.

﴿ولتعلموا﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر وعدد السنين والحساب ﴿فتبتون عليها ما تشاؤون من مصالحكم﴾.

﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ أي: بينا الآيات وصرفناه، لتتميز الأشياء، ويستبين الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴿يغير تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه﴾ يهدي للتي هي أقوم﴾ أي: أعدل وأعلى، من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.

﴿وبيشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ من الواجبات والسنن، ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾ أعده الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والندارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان، والعمل الصالح، والتي تستحق بها الندارة وهو ضد ذلك.

﴿١١﴾ ﴿ويدع الإنسان بالشكر﴾ دعاء بالخير وكان الإنسان عجولاً وهذا من جهل الإنسان وعجلته، حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء، كما يبادر بالدعاء في الخير،

(٢) في ب: من لطفه.



﴿١٣﴾ «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً» * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً * وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر، يجعله الله ملازماً له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله.

﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ فيه ما عمله من الخير والشر حاضر، صغيره وكبيره، ويقال له: «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً».

وهذا من أعظم العدل والإنصاف، أن يقال للعبد: حاسب نفسك، ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

﴿١٥﴾ «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً» أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه، لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى عادل العادلين، لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسل، ثم يعاند الحجة.

وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى، فإن الله تعالى لا يعذبه.

واستدل هذه الآية على أن أهل الفترات، وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسلاً، لأنه منزّه عن الظلم.

﴿١٦ - ١٧﴾ «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» * وكما أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً * يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفيها أمراً قديراً، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم، «فحق عليها القول» أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها «فدمرناها تدميراً».

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم. «وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً» فلا يخافوا منه ظملاً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿١٨ - ٢١﴾ «من كان يريده العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً» * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً * يخبر تعالى أن «من كان يريد الدنيا «العاجلة» المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمتنهي، أن الله يجعل له من حظائها ومتاعها ما يشاءه ويريده، مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة «جهنم» يصلها» أي: يباشر عذابها، «مذموماً مدحوراً» أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿ومن أراد الآخرة﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا «وسعى لها سعيها» الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه «وهو مؤمن» بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ أي: مقبولاً مئتم، مدحراً لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلا يمدد الله منها، لأنه عطاؤه وإحسانه. «وما كان عطاء ربك محظوراً» أي: ممنوعاً من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضلله وإحسانه.

﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ في الدنيا، بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

فكم بين من هو في الغرف العاليات، واللذات المتنوعات، والسزور والخيرات والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحداً عدّه.

﴿٢٢﴾ «لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً» أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان، فالحق وملائكته ورسله، قد نهوا عن الشرك، وذموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفاً، وأقبحهم نمطاً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من التعلق بزبه، فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق يتفق

والإكرام، الواجب والمستنون، وذلك الحق، يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمة.

﴿والمسكين﴾ آتة حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكنته، ﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق، فإن ذلك تبذير، وقد نهي الله عنه وأخبر:

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى، إنما يأمر بأعدل الأمور وأسطها ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

وقال هنا: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل. ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ فتتفق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي.

﴿فتقصد﴾ إن فعلت ذلك ﴿ملوماً﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿محسوراً﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى، مع القدرة والغنى، فأما مع العدم، أو تعمس النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يرُدُّوا رداً جميلاً فقال: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر، ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي: لطيفاً برفق، ووعداً بالجميل، عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾.

وهذا أيضاً من لطف الله تعالى

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي: تواضع لهما، ذلاً لهما ورحمة، واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد.

﴿وقل رب ارحمهما﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً، جزاء على تربتهما إياك صغيراً.

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولي تربية الإنسان في دينه ودينه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية.

﴿٢٥﴾ ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكتته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إن تكونوا صالحين﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.

﴿فإنه كان للأوابين﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غفوراً﴾ فمن أطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبة وحب ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿٢٦ - ٣٠﴾ ﴿وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴿يقول تعالى: ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ من البر

أحداً إلا بإذن الله، وكما أن من جعل مع الله إلهاً آخر له الذم والخذلان، فمن وحده، وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في جميع أحواله.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ لما نهي تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وقضى ربك﴾ قضاء دينياً، وأمر أمراً شرعياً ﴿أن لا تعبدوا﴾ أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات.

﴿إلا إياه﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين﴾ إحساناً أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القولي والفعل، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر.

﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطيف والإحسان ما هو معروف. ﴿فلا تقل لهما أف﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نهي به على ما سواه، والمعنى لا تؤذهما أدنى أذى.

﴿ولا تنهرهما﴾ أي: تزجرهما، وتكلم لهما كلاماً خشناً، ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ بلفظ عيانه، وتأدب وتلطف بكلام لين حسن يلد على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند اليسر، عبادة حاضرة، لأن الله يفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، ويتوي فعل ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله يسره له [بسبب رجائه] (١).

ثم أخبر تعالى أنه ييسر الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدره ويضيقه على من يشاء حكمه منه، «إِنَّه كَانَ بعبادته خبيراً بصيراً» فيجزئهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم، بلطفه وكرمه. ﴿٣١﴾ «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ نَفْسٌ تَرْزُقُهم وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا» وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع.

وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيراً، أي: من أعظم كبائر الذنوب، لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم والتجروء على قتل الأطفال، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

﴿٣٢﴾ «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصاً هذا الأمر، الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه «كَانَ فَاحِشَةً» أي: إثماً يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفرائض، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفساد.

وقوله: «وَسَاءَ سَبِيلًا» أي: بش السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

﴿٣٣﴾ «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيه سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّه كَانَ مَنْصُورًا» وهذا شامل لكل نفس «حَرَّمَ اللَّهُ» قتلها من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير حق «فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيه» وهو أقرب عصباته وورثته إليه «سُلْطَانًا» أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضاً تسليطاً قديراً على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعمد العدوان، والمكافأة.

﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ الولي «فِي الْقَتْلِ» إنه كان منصوراً والإسراف مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليل على أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص.

وأن ولي المقتول، يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

﴿٣٤﴾ «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم، الذي فقد والده وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أن أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه «إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على نميته، وذلك تمتد إلى أن «يَبْلُغَ الْيَتِيمَ أَشُدَّهُ» أي: بلوغه، وعقله، ورشد، فإذا بلغ أشده، زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ

رَشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ» الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه، فإن وفيتهم، فلکم الثواب الجزيل، وإن لم تفوا (٢)، فعليكم الإثم العظيم.

﴿٣٥﴾ «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكايل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص، ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن أو مئتمن أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

﴿٣٦﴾ «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما يقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يعد للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا» كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً * ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً يقول تعالى: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» أي: كبراً وتهاً وبطراً، متكبراً على الحق، ومتعاضماً على الخلق.

﴿إِنَّكَ﴾ في فعلك ذلك «لَنْ تَخْرِقَ

(٢) في ب: تفعلوا.

(١) زيادة من هامش: ب.

الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهنّ الإناث، وهو الذي خلقكم، واضطفاكم بالذكر، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿٤١ - ٤٤﴾ * ولقد صرفنا في هذا القرآن ليزكروا وما يزيدهم إلا نفوراً * قل لو كان مع الله كما يقولون إذا لايتغوا إلى ذي العرش سبيلاً * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً * تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً * يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن، أي: نوع الأحكام ووضوحها، وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر، لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلبكوه، وما يضرهم فيدعوه.

ولكن أبى أكثر الناس إلا نفوراً عن آيات الله، لبغضهم للحق، وبغيتهم ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيزوا آيات الله لهم سمعاً، ولا ألقوا لها بالاً. ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً، بحيث من أصغى إلى بعضها، لا تدع في قلبه شكاً ولا ريباً.

ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿لو كان مع الله كما يقولون﴾ أي: على موجب زعمهم واقترائهم، ﴿إذا لايتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي: لايتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته والإنابة إليه، والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه،

الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله ومحتقراً عند الخلق، مبنوفاً ممقوتاً، قد اكتسبت أشر الأخلاق، واكتسبت أردلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كل ذلك﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيمة تقدم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ والنهي عن عقوق الوالدين، وما عطف على ذلك، ﴿كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿ذلك﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجلية، ﴿ما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ فإن الحكمة، الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أراذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال.

وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات، من الحكمة العالية، التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب، ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً.

ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك فقال: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم﴾ أي: خالداً مخلداً، فإنه من يشرك بالله، فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار.

﴿ملوماً مدحوراً﴾ أي: قد لحقتك اللائمة واللعنة والدم من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿٤٥﴾ * أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً * وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ أي: اختار لكم الصفوة والقسم الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ فيه أعظم الجراءة على الله، حيث نسبتم له



إلهاً مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟! ..

فعلى هذا المعنى، تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء.

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قل لو كان مع الله كما يقولون إذا لايتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي: لطلبوا السبيل، وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلو عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يعبدون^(١) من دون الله مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر شيء، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾.

﴿سبحانه وتعالى﴾ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عما يقولون﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿علواً كبيراً﴾ علواً قدره وعظم، وجعلت كبرياؤه، التي لا تقادر أن

وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، وليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنوبهم، فلولاً لحلمه ومغفرته، لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ﴾ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً * وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً * نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك * وإذ هم فنجوي إذ يقول الظالمون إن تتبعمون إلا رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً * يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال:

﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ﴾ الذي فيه
الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان،
والخير والعلم الكثير.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾
يَسْتَرْهَمُونَ عَنْ فِهْمِهِ حَقِيقَةً، وَعَنِ التَّحْقِيقِ
بِحَقَائِقِهِ وَالْإِنْقِيَادِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ
الْخَيْرِ.

﴿وجعلنا على قلوبهم أكمة﴾ أي : غطية وأغشية ، لا يفقهون معها القرآن ، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة ، ﴿وفي آذانهم قرا﴾ أي : صمماً عن سماعه ، ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن﴾ داعياً لوحيدهِ ، ناهياً عن الشرك به . ﴿ولوا على أنبارهم نفورا﴾ من شدة بغضهم له ، ومحبتهم لهم عليه من الباطل ، كما قال تعالى : ﴿وإذا ذكر الله وحده أشفأت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستهزئون﴾ .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أَي:
 إنما منعناهم من الارتفاع عند سماع القرآن، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة،

يريدون أن يعثروا على أقل شيء
ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل
الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم
معتمدون على علم اتباعه، ومن كان
بهذه الحالة، لم يفقه الاستماع شيئاً،
ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ
هُمْ نَجْوَى﴾ أي: متناجين ﴿إِذْ يَقُولُ
الظَّالِمُونَ﴾ في مناجاتهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ
إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ فإذا كانت هذه
مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها
على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم
غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي، لا
يدري ما يقول.

قال تعالى: ﴿انظروا متعجباً﴾ كيف ضربوا لك الأمثال التي هي أضل الأمثال، وأبعدها عن الصواب ﴿ففضلوا﴾ في ذلك، أو فصارت سبباً لضلالهم، لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه.

﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾^(١) أي:

لا يبتدون أي إهداء، فنصيبتهم الضلال المحض، والظلم الصَّرف.

﴿٤٩﴾ - ﴿٥٢﴾ ﴿وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنما لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ * قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من مبعدين قل الذي فطركم أول مرة فيسبغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً * يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ غير تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستبعادهم بقولهم: ﴿إذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي: أجساداً بالية، ﴿إنما لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا مجتمع عليهم لا يقدرון عليه، جعلوا قدرة الله كذلك.

[illegible]

يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك
ضلالاً مبيناً، وظلم ظلماً كبيراً.

لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات
العظيمة، وصغرت لدى كبريائه
السموات السبع ومن فيهن،
والأرضون السبع ومن فيهن
والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة
والسموات مطويات بيمينه .

وافترق إليه العالم العلوي والسفلي،
فقراً ذاتياً، لا ينفك عن أحد منهم في
وقت من الأوقات.

هذا الفقر بجميع وجوهه، فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقر من جهة الاضطراب، إلى أن يكون معبودهم ومحبوبهم، الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون، ولهذا قال :

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ مِنْ
حَيَوَانَ نَاطِقٍ وَغَيْرِ نَاطِقٍ، وَمِنْ أَشْجَارٍ
وَنَبَاتٍ وَجَامِدٍ وَحَيٍّ وَمَيِّتٍ﴾ إِلَّا يَسْبِيحُ
بِحَمْدِهِ ﴿لِسَانَ الْحَالِ، وَلِسَانَ الْمَقَالِ.
﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أَيُّ:
تَسْبِيحِ بَاقِي الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي عَلَى غَيْرِ
لَفْظِكُمْ بَلْ يَحِيطُ بِهَا عِلْمُ الْغُيُوبِ.

﴿إِنَّهٗ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حَيْثُ لَمْ
يَعَاجِلْ بِالْعُقُوبَةِ مَنْ قَالَ فِيهِ قَوْلًا تَكَادُ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ تَنْفَطِرُ مِنْهُ وَتَحْرُلُهُ
الْجِبَالُ وَلَكِنَّهُ أَهْلَهُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ،

من قِيلَ لها، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدهم.

﴿ربكم أعلم بكم﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً خيراً في عكسه.

﴿إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذّبكم﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء، فيضل عنها، فيستحق العذاب.

﴿وما أرسلناك عليهم نذير﴾ أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم.

﴿وربك أعلم بمن في السماوات والأرض﴾ من جميع أصناف المخلّقات، فيعطي كلّاً منهم ما يستحقه تقتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال، الحسنة والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحية على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم، من الأوصاف المدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الأتباع، ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، كما أنزل على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم كتاباً، فلم ينكر المكذّبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضّر عنكم ولا تحويلاً﴾ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان مخذوفاً ﴿يقول تعالى: ﴿قل﴾ للمشرّكين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعيدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونونه، ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين.

﴿ادعوا الذين زعمتم﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم، أو

سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿متى هو﴾؟ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴿ربكم أعلم بكم﴾ إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذّبكم وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴿وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناه داود زبوراً﴾ وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال، الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع المخلّق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

وقوله: ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوههم إليها، وأن يلبثوا فيما بينهم، لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يجاربوه، فإنه يدعوهم ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم، وسعى في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم، وأن يقيموا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان

يزعمون أنهم أولو العقول والأنبياء، مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلاها، وأوضحها براهين وأعلاها، ليرى عباده أنه ما ثمّ إلا توفيقه وإعانتة، أو الهلاك والضلال.

﴿ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً:

﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ أو خلقاً مما يكبر أي: يعظم ﴿في صدوركم﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تنالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزين الله، في أي: حالة تكونون، وعلى أي: وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط. ﴿نسيقولون﴾ حين نقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿من يعيدنا قل﴾ الذي فطركم أول مرة ﴿فكما فطركم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً﴾ كما بدأنا أول خلق نعيده.

﴿فستبغضون إليكم رؤوسهم﴾ أي: يهزونها، إنكاراً وتعجباً مما قلت، ﴿ويقولون متى هو﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سقّة منهم، وتعجيز. ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمذار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

﴿يوم يدعوكم﴾ للبعث والنشور، وينفخ في الصور، ﴿فتستجيبون بحمده﴾ أي: تستجيبون لأمره، ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿يحمده﴾ أي: هو المحمود تعالى على ما يفعله ويميز به العباد، إذا جمعهم ليوم التتاد.

﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ من

لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ علماً وقدره، فليس لهم ملجأ يلجؤون إليه، ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكشاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس.

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿والشجرة الملعونة﴾ التي ذكرت في القرآن، وهي شجرة الرزوم، التي تنبت في أصل الجحيم.

والعنى، إذا كان هذان الأمران، قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفاً، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقاً للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضاً، من الخوازيق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوازيق الجسيمة؟!!

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين، ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفراً عنه. بل ذكر الله ألفاظاً عامة، تتناول جميع ما يكون.

﴿ونخوفهم﴾ بالآيات ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغياناً كبيراً﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملّي بالشر ومحبه، وبغض الخير وعدم

كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يجب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

﴿٥٨﴾ ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أمره، لا بد من وقوعه، فليأذر المكذبون بالإثابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ يذكر تعالى رحمة بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالآولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة، التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه، وهؤلاء كذّبوا، لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية، فغيرها مثلاً، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان، الذي

يدفعون عنكم الضر، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم﴾ من مرض، أو فقر، أو شدة، ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية، ﴿ولا﴾ يملكون أيضاً تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال نافعة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي.

ومن العجب، أن السفه عند الاعتقاد والممارسة، وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه هو الرأي: السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد، الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

ثم أخبر أيضاً، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، فقال:

﴿أولئك الذين يدعون﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقرنة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف والرجاء والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير.

فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلامه المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله ويتنافس في قربه بإخلاص الأعمال

الانقياد له.

﴿٦١-٦٥﴾ «وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً * قال أأرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً * بينه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان، وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم، استكبر عن السجود له، وقال: متكبراً: «السجد لمن خلقت طيناً * أي: من طين، وبزعمه أنه خير منه، لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

فلما تبين لإبليس تفصيل الله لآدم قال: مخاطباً لله: «أأرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته * أي: لأستأصلنهم بالإضلال، ولا غرويتهم * إلا قليلاً * عرف الخبيث، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

فقال الله له: «إذهب فمن تبعك منهم * واختارك على ربه ووليه الحق، فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * أي: مدخراً لكم، موفراً جزاء على أعمالكم.

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: «واستفزز من استطعت منهم بصوتك * ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

«وأجلب عليهم بخيلك ورجلك * ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين، الداعي لهم إلى معصية الله، بأقواله وأفعاله. «وشاركهم في الأموال والأولاد» وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم، من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الرديئة.

بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان، كما ورد فيه الحديث.

«وعدهم» الوعود^(١) المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: «وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أي: باطلاً مضملاً، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر، لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً».

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما يعتصم به من فتنته، وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان والتوكل، فقال:

«إن عبادي ليس لك عليهم سلطان * أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم. «وكفى بربك وكيلاً * لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

﴿٦٦-٦٩﴾ «ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً * وإذا مستكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً * أفأنتم أن ينسف

﴿٦٧﴾ «ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً * وإذا مستكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً * أفأنتم أن ينسف

بكم جانب البر أو يرسل عليكم حصاباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً * أم أنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيهاً * يذكر تعالى نعمته على العباد، بما سخر لهم من الفلك، والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعها، وسخر لها البحر الملتطم، يحملها على ظهره، لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للامتعة والتجارة. وهذا من رحمته بعباده، فإنه لم يزل بهم رحيماً رؤوفاً، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه، أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكانهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسموات الذي تستغيث به في شوائدها جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال.

فلما كشف الله عنهم الضر،

فتيلاً * ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً * يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشيد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فيقسمون بهذا قسمين:

﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلى صراط مستقيم، واحتدى بكتابه، فكشرت حسنة، وقلت سيئاته ﴿فأولئك يقرأون كتابهم﴾ قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم.

﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ مما غملوه من الحسنات.

﴿ومن كان في هذه﴾ الدنيا ﴿أعمى﴾ عن الحق فلم يقبله، ولم ينقد له، بل اتبع الضلال. ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وأضل سبيلاً﴾ فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابتها، وهل عملت به أم لا؟

وأنهم لا يؤخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها.

وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بإيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم.

البحر.

وإن ظننتم ذلك، فأنتم آمنون^(١) من ﴿أن يعيدكم﴾ في البحر ﴿تارة أخرى﴾ فيرسل عليهم قاصفاً من الريح ﴿أي﴾ ريحاً شديدة جداً تقصف ما أتت عليه.

﴿فيفرقكم بما كفرتم﴾ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴿أي﴾ تبعة ومطالبة، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

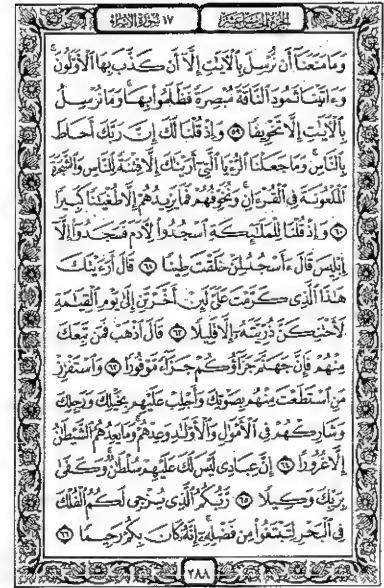
﴿٧٠﴾ ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه، الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وحملناهم في البر﴾ على الركاب، من الإبل، والخيال، والحمير، والمراكب البرية. ﴿وفي﴾ البحر ﴿في السفن والمراكب﴾ وورزقناهم من الطيبات من المأكّل والمشرب، والملابس، والمناخ. فيما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير.

﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل، التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولا تحجيبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون



ونجاهم إلى البر، نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به، من لا يتفعر ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكيهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره، فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله، فمن عليه بالعقل السليم، واحتدى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم، أن الذي يكشف الشدائد، وينجي من الأهوال، هو الذي يستحق أن يفرد وتخلص له سائر الأعمال، في الشدة والرخاء، واليسر والعسر.

وأما من خذل، ووكل إلى عقله الضعيف، فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة، وإنجاهه في تلك الحال.

فلما حصلت له النجاة، وزالت عنه المشقة، ظن بجهله أنه قد أعجز الله، ولم يخطر بقلبيه شيء من العواقب الدنيوية، فضلاً عن أمور الآخرة.

ولهذا ذكرهم الله ذلك بقوله: ﴿أفأنتم أن تخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذاباً، من أسفل منكم بالخسف، أو من فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يحصبهم، فيصبجوا هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في

أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصود السيئة^(١).

فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شبهة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من الآمها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يثب عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل.

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ يُؤْوسًا﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله، فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعيم ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالمريض ونحوه ﴿كَانَ يُؤْسَا﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً.

وأما من هداه الله، فإنه عند النعم يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضرر يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿٨٤﴾ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي: ﴿قل كل﴾ من الناس ﴿يعمل على شاكلكه﴾ أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لزب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخدولين، لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم

غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحمهم الله من هم الموقف وكرهه، فيشفع عند ربه فيشفعه، وقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

وقوله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ أي: اجعل مدخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقة الأمر.

﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ أي: حجة ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتبه وأذره.

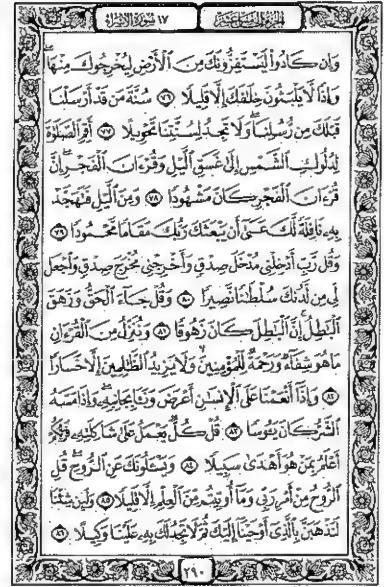
وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً، ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليلاً ظاهراً، وذلك متضمن للعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالمسائل والدلائل.

وقوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلم، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى.

﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك.

ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبياناته.

﴿٨٥﴾ وقوله: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل



الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية، ذكر الأوقات الخمسة، للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض، لتخصيصها بالأمم.

وفيهما: أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعذر، لأن الله جمع وقتها جميعاً.

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك.

وقوله: ﴿ومن الليل فتهجد به﴾ أي: صل به في سائر أوقاته. ﴿نافلة لك﴾ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، لكرامتك على الله، أن جعل وظيفتك أكثر من

يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم.

﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ فيعلم من يصلح للهداية، فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

﴿٨٥﴾ ﴿وسألوكم عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل، التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد.

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ أي: من جملة مخلوقاته، التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

﴿٨٦ - ٨٧﴾ ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا كسباً﴾ إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً ﴿يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله، رحمة منه عليه وعلى عبادته، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبير، لا يقادر قدره..

فالذي تفضل به عليك، قادر على أن يذهب به، ثم لا تجد راداً يرده، ولا وكلاً يتوجه عند الله فيه.

فَلْتَعْتَبْ بِهِ، وَتَقَرَّبْ بِهِ عَيْنَكَ، وَلَا يَحْزَنَكَ تَكْذِيبُ الْمَكْذِبِينَ، وَاسْتَهْزِءِ الضَّالِّينَ، فَإِنَّهُمْ عَرَضَتْ عَلَيْهِمْ أَجَلُ النِّعَمِ، فَرَدُّوا هَلْوَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَخَذَلَانَهُ لَهُمْ.

﴿٨٨﴾ ﴿قل لئن اجتمعت الإنس

والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدرُوا عليه.

ووقع كما أخبر الله، فإن دواعي أعدائه المكذبين به، متوفرة على رد ما جاء به بأي: وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة، فلم كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك لفعلوه.

فعلم بذلك، أنهم أذعنوا غاية الإذعان، طوعاً وكرهاً، وعجزوا عن معارضته.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه، أن يعارض كلام رب الأرض والسموات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمدده من بعده سبعة أبحر مداداً، والأشجار كلها أقلام، لتنفذ المداد، وفنيت الأقلام، ولم تنفذ كلمات الله.

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلاً لله في أوصافه فكلامه من أوصافه، التي لا يماثله فيها أحد، فليس كمثل شيء، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله تبارك وتعالى.

فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمداً ﷺ افتراه على الله واختلقه من نفسه.

﴿٨٩﴾ ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما رزمت علينا كسفاً أو تأتي باله والملائكة قبلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئن لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً * قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي: نوعاً فيه الموعظ والأمثال، وثبتنا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد، لأجل أن يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم، الذين سبق لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه، وأما أكثر الناس فأبوا إلا كفوراً لهذه النعمة التي هي أكبر من



من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً *
وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا
الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم
لفيقاً * أي: لست أهبها الرسول المؤيد
بالآيات، أول رسول كذبه الناس،
فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران
الكليم، إلى فرعون وقومه، وأتيناها
﴿تسع آيات نينا﴾ كل واحدة منها
تكفي لمن قصده اتباع الحق، كالحية،
والعصا، والطوفان، والجراد،
والقمل، والضفادع، والدم، والرجز،
وفلق البحر.

فإن شككت في شيء من ذلك
﴿فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له
فرعون مع هذه الآيات ﴿إني لأظنك
يا موسى مسحوراً﴾.

ف ﴿قال له موسى لقد علمت﴾
يا فرعون ﴿ما أنزل هؤلاء﴾ الآيات
﴿إلا رب السموات والأرض بصائر﴾
منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة،
وإنما قلت ذلك ترويحاً على قومك،
واستخفافاً لهم.

﴿وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً﴾
أي: محموتاً، ملقى في العذاب، لك
الزبل والدم واللعة.

﴿فأراد فرعون أن يستفزهم من
الأرض﴾ أن: يجليهم ويخرجهم منها.
﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾ وأورثنا بني
إسرائيل أرضهم وديارهم.

ولهذا قال: ﴿وقلنا من بعده لبني
إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد
الآخرة جئنا بكم لفيقاً﴾ أي: جميعاً،
ليجازي كل عامل بعمله.

﴿١٠٥﴾ ﴿وبالحق أنزلناه بالحق
نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾
أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم،
لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم،
﴿وبالحق نزل﴾ أي: بالصدق والعدل
والحفظ من كل شيطان رجيم ﴿وما
أرسلناك إلا مبشراً﴾ من أطاع الله

بالتواب العاجل والآجل ﴿ونذيراً﴾ لمن
عصى الله بالعقاب العاجل والآجل،
ويلزم من ذلك بيان ما بشر به وأنذر.

﴿١٠٦-١٠٩﴾ ﴿وقرأنا فرقناه
لنقرأه على الناس على مكث ونزلناه
تنزيلاً * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن
الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى
عليهم يخرون للأذقان سجداً *
ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا
لمفعولاً * ويخزون للأذقان يبتكون
ويزيدهم خشوعاً﴾ أي: وأنزلنا هذا
القرآن مفزقاً، فارقاً بين الهدى
والضلال، والحق والباطل. ﴿لنقرأه
على الناس على مكث﴾ أي: على مهل،
ليتدبروه ويستفكروا في معانيه،
ويستخرجوا علومه.

﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ أي: شيئاً فشيئاً،
مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة.
﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق
وأحسن تفسيراً﴾ فإذا تبين أنه الحق،
الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من
الوجوه ف:

﴿قل﴾: لمن كذب به وأعرض
عنه: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾
فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه
شيئاً، وإنما ضرر ذلك عليكم،
فإن الله عباداً غيركم، وهم الذين
آتاهم الله العلم النافع: ﴿إذا يتلى
عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ أي:
يتأثرون به غاية التأثير، ويخضعون له.

﴿ويقولون سبحان ربنا﴾ عما
لا يليق بجلاله، عما نسبته إليه
المشركون. ﴿إن كان وعد ربنا﴾
بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لمفعولاً﴾
لا خلف فيه ولا شك.

﴿ويخرون للأذقان﴾ أي: على
وجوههم ﴿يبكون ويزيدهم﴾ القرآن
﴿خشوعاً﴾.

وهؤلاء كالذين آمن بالله عليهم من
مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام
وغیره، ممن آمن^(١) في وقت
النبي ﷺ، وبعد ذلك.

﴿١١٠-١١١﴾ ﴿قل ادعوا الله أو
ادعوا الرحمن أيأ ما تدعوا فله الأسماء
الحسنى ولا تمهر بصلاتك ولا تخافت
بها وابغ بين ذلك سبيلاً وقل الحمد لله
الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك
الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره
تكبيراً﴾ يقول تعالى لعباده:

﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ أي:
أيها شتم. ﴿أيأ ما تدعوا فله الأسماء
الحسنى﴾ أي: ليس له اسم غير
حسن، حتى ينهي عن دعائه به، بل
أي: اسم دعوتهم به، حصل به
المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في
كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم.

﴿ولا تمهر بصلاتك﴾ أي:
قراءتك ﴿ولا تخافت بها﴾ فإن في كل
من الأمرين محذوراً. أما الجهر، فإن
المشركين المكذبين به إذا سمعوه سيئوه،
وسبوا من جاء به.

وأما المخافتة، فإنه لا يحصل
المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء.
﴿وابغ بين ذلك﴾ أي: بين الجهر
والإخفات ﴿سبيلاً﴾ أي: توسط فيما
بينهما.

﴿وقل الحمد لله الذي﴾ له الكمال
والثناء والحمد والمجد من جميع
الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص.



«الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك» بل الملك كله لله الواحد القهار، فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

«ولم يكن له ولي من الدن» أي: لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحساناً منه إليهم ورحمة بهم

«الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور»
«وكبيره تكبيراً» أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامع عبد الرحمن ابن ناصر بن عبد الله بن سعد بن غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليماً وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤.

المجلد الخامس من تفسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المشان لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي^(١)

تفسير سورة الكهف وهي مكية

«١-٦» «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً» قيمياً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً «ماكثين فيه أبداً» وينذر

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤/٢/٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة آلاف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعث الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ: محب الدين الخطيب لطابعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، واتباعه بخاتمة فيها أصول وكمليات من أصول وكمليات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه. أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلاً من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبياناً لكل شيء وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبيدها بأساليب متنوعة وتصاريح مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألجوا لما يروونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحبيت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا ولإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه إنه جواد كريم رءوف رحيم. واتبعت بكمليات وأصول من كمليات التفسير لاستدراك ما لعله يقوت القارئ في غير هذا الجزء، فإن الأصول والكمليات تبنى عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسناً ونعم الوكيل.

(٢) في ب: مقيم.

وتطهرها وتنميتها وتكملها، لا شتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يمدح الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به.

وقوله: ﴿لننذر بأساً شديداً من لدنه﴾ أي: لننذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضاً من نعمه، أن خوف عباده، وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم.

كما قال تعالى - لما ذكر في هذا القرآن وصف النار - قال: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾. فمن رحمته بعباده، أن يقض العقوبات الغليظة على من خالف أمره، وبيتها لهم، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها.

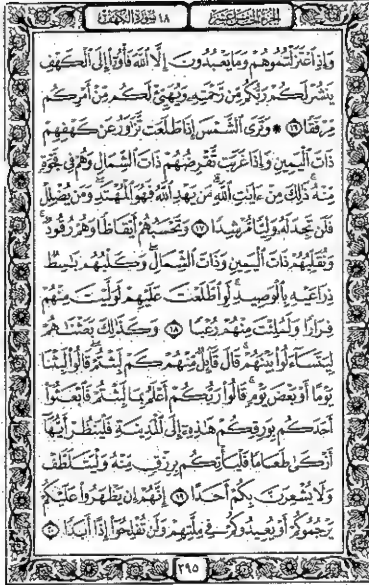
﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب، ليبشر المؤمنين به، ويرسله، وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة، من واجب ومستحب، التي جمعت الإخلاص والتابعة، ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله، الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن، دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك، لم يكن حسنة تاماً، ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿ما كثر فيه أبداً﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة

للمبشر به، وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح، موصل لما تستبش به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ من اليهود والنصارى والمشركين، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي: شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد^(١) الذي يقتضي نقصه،

ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية، والكذب عليه!!! ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي: كذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج، والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولاً: أنه ﴿ما لهم به من علم ولا لأبائهم﴾ والقول على الله بلا علم، لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانياً، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ ثم ذكر ثالثاً مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين﴾ وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ وهنا قال ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ أي: مهلكها غماً وأسفاً عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو



علم الله فيهم خيراً لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم فلم يثبتوا، فإشغالك نفسك غماً وأسفاً عليهم، ليس فيه فائدة لك. وفي هذه الآية ونحوها عبرة، فإن الأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فيها ورغبت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مُضعف للنفس، هادم للقوى، ليس له فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كُلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته، وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ وموسى عليه السلام يقول: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ الآية، فمن عداهم، من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ * لست عليهم بمسيطر.

﴿٧-٨﴾ ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيمهم أحسن عملاً﴾ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴿نجبر تعالى﴾ أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مأكَل لذيذة، ومشارب، ومسكن^(٢) طيبة،

(١) كذا في ب، وفي أ: الولد.

(٢) في ب: وملابس.



الدنيا منزل عبور، لا محل عبور، وشقة سفر، لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لأخرته، حين عمل الباطل لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!

﴿٩٦-١٢﴾ * أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهىء لنا من أمرنا رشداً * فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً * ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً * وهذا الاستفهام بمعنى النفي والتعجب أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل الله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته، في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الأفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد، أن جنسها كثير جداً، فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم إلى الكهف، الذي هو الغار في الجبل، والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم، ملازمهم له دهرًا طويلاً، ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إذ أوى الفتية﴾ أي: الشباب، ﴿إلى الكهف﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من

فتنة قومهم لهم، ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي: تبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير ﴿وهىء لنا من أمرنا رشداً﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف﴾ أي: أنمناهم ﴿سنين عدداً﴾ وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة، ﴿ثم بعثناهم﴾ أي: من نومهم ﴿لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم لنبشروا لبيثهم﴾، وفي العلم بمقدار لبيثهم، ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿١٣-١٤﴾ * نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً * هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿آمنوا﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان، زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختياراً. ﴿لنبشروهم أهم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيداً جرداً قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، وورغنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقیمها، كل ذلك رحمة بنا، فاعتر بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينتظرون في حق ربهم، ولا يشمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهو لا إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخرب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفریط والسيئات..

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهاز الفرصة في عمره الشريف، فجعل

المكث، وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، ﴿وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُجِدْ لَهُ وِلْيًا مَرشِدًا﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويديره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والصلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

﴿وَنَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: نحسبهم أيما التناظر إليهم [كانهم] (٣) أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة، لئلا تفسد، فالتناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً، وهم رُقُود، ﴿وَنَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم يميناً وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وَكُلِّيهِمْ بِأَسْطَ ذُرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان بأسطاً ذُرَاعِيهِ بالوصيد، أي: الباب، أو قناته، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه جاهد بالرب، الذي نشره الله عليهم، فلو أطلع عليهم أحد، لامتأ قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، ويقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

يعيدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقائهم (٢) بين أظهرهم، وهم على غير دينهم، ﴿فَأَوَّوْا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿يُنْشِرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهباً لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُجِدْ لَهُ وِلْيًا مَرشِدًا﴾ ونحسبهم أيقاظاً وهم رُقُود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملت منهم رعباً﴾ أي: حفظهم الله من الشمس فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنه يميناً، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها، ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليترقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الزخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره، أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة.

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الذي خلقنا ورزقنا، وديرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا تبرزق، ولا تملك نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: ﴿لَنْ ندعو من دونه إلهًا﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا﴾ أي: إن دعونا معه إلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شَطَطًا﴾ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتمزام ذلك، وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿١٥﴾ ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ آلِهَةٍ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفقروا (١) إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

﴿١٦﴾ ﴿وَإِذْ اعْتَرَزْتُمُوهُمْ وَمَا

(١) في ب: والتقوى وهو تصحيح.

(٢) في النسخين: ولا بقاؤهم.

(٣) في النسخين: كأنه.

﴿١٩ - ٢٠﴾ «وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعدوا أحدهم بورككم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرمجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً» يقول تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم﴾ أي: من نومهم الطويل ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم، فلهذا ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾. فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ فلولاً أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجزى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم، أي: بالدرهم، التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمره أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذ، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرن بهم أحداً. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما

الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحقهم عليهم وعلى دينهم، ولما أن يفتنهم عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال، لا يفلحون أبداً، بل يخسرون في دينهم وديارهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم، وعلى المباحة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله: ﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾. وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمره بأزكى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية ليعضه، وتركه، وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين، لقولهم: ﴿ولن تفلحوا إذا أبداً﴾.

﴿٢١﴾ «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لننتخذن عليهم مسجداً» يخبر الله تعالى، أنه

أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً، وأمره بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مزية ولا بُعد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، ورحمة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم.

و ﴿قالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم، وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر:

﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾ أي: نعبد الله تعالى فيه، ونذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهي عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجداً، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فرّ بدنه من الفتن سلمه الله منها، وأن من حرص على العافية عافاه الله ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الدل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾.

﴿٢٢﴾ «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً

ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافاً صارداً عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم: من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذان القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانها.

ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا - والله أعلم - الصواب، لأن الله أبطل الأولين ولم يبطله، فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى:

﴿قل ري أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم. ﴿فلا تمار﴾ أي: تجادل وتجادل وتحتاج ﴿فيهم إلا مراء ظاهراً﴾ أي: مبنياً على العلم واليقين، ويكون أيضاً فيه فائدة، وأما المارة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكن المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة، تضيقاً للزمان، وتأثيراً في مودة القلوب بغير فائدة.

﴿ولا تستفت فيهم﴾ أي: في شأن أهل الكهف ﴿منهم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أحداً﴾ وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن، الذي لا يغني من الحق شيئاً، ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي

بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا غي عن استفتاء هذا الجنس، ففيه هو عن الفتوى، من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضاً، دليل على أن الشخص، قد يكون منهياً عن استفتائه في شيء دون آخر. فيستفتي فيما هو أهل له، بخلاف غيره، لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقاً، إنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف، وما أشبهها.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿ولا نقولُ لشيءٍ إني فاعلُ ذلك غداً﴾ * إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهاً للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلية: ﴿إني فاعل ذلك﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو:

الكلام على الغيب المستقبل، الذي لا يدري هل يفعله أم لا؟ وهل يكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك محذور محظور، لأن المشيئة كلها لله ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ ولما في ذكر مشيئة الله، من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه، ولما كان العبد بشراً، لا يذ أن يسهر^(١) فيترك ذكر المشيئة، أمره الله أن يستثني بعد ذلك، إذا ذكر، ليحصل المطلوب، ويندفع المحذور، ويؤخذ من عموم قوله: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ الأمر بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله ويذكر العبد ما سها عنه، وكذلك يؤمر السامي الناسي لذكر الله، أن يذكر ربه، ولا يكون من الغافلين، ولما كان العبد مفتقراً إلى الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره الله أن يقول: ﴿عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾

(١) كذا في ب، وفي أ: يسهر.



فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد. وحرثي بعبد تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿وليوشوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وأزادوا تسعاً﴾ * قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب، في شأن أهل الكهف، لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة، العالم بكل شيء، أخبره بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده، فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها تختص به، فما أخبر به عنها على السنة رسله، فهو الحق اليقين، الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه، فإن أحداً من الخلق لا يعلمه.

وقوله: ﴿أبصر به وأسمع﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات. ثم أخبر عن

وذلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله ﴿يَحْلُونَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه.

﴿٣٢-٣٤﴾ ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ كلتا الجنتين آتت أكلهما ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً * وكان له ثمر * يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل، والثواب، ليعتبرا بخالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي: زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين، أي: بستانين جنتين، من أعناب.

﴿وحففناهما بنخل﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الشمرات، وخصتوصاً أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حُفَّ بذلك، وداًز به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل بها الثمار، وتنضج وتتجور، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفاً ﴿و﴾ أنها ﴿لم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وكان له﴾ أي: لذلك الرجل ﴿ثمر﴾ أي: عظيم كما يفيد التثنية، أي: قد استكملت جنتاه ثمارها،

وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعاً في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيه من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله:

﴿أولئك لهم جنتان عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك﴾. أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنتان العاليتان التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنينة، والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والاستبرق، وهو ما رق منه. متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجدلة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتقام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نعم الثواب﴾ للعاملين ﴿وحسنت مرتفعاً﴾ يرتفعون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، من الخيرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي: مرتفع أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألقي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأمان، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يجرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان.

﴿فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ أي: لم يبق إلا سبوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ وليس في قوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مال الفريقين فقال: ﴿إنا اعتدنا للظالمين﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي: سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وإن يستغيثوا﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد.

﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته.

﴿يشوي الوجوه﴾ أي: فكيف بالأعضاء والبطون، كما قال تعالى ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ ولهم مقامع من حديد.

﴿بش الشراب﴾ الذي يراد ليطفئ العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم.

﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفعاً﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفع به، فإنها ليس فيها ارتفاع، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يفتقر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون، قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه.

ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره

وَأَرْجَحْتُ أَشْجَارَهُمَا، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا أغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿٣٤-٣٦﴾ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً * أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماكرات المعتادة، مفتخراً عليه:

﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأي: افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجعله وظلمه، وظن لما دخل جنته، في ﴿قال ما أظن أن تبيد﴾ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هذه أبداً﴾ فاطمان إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي﴾ على ضرب المثل ﴿لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفر، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظاً من العقل، فأبي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجعله أن من أعطى في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفياه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه

قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾. فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

﴿٣٧-٣٩﴾ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً * لئن كان هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدنا * ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله * أي: قال له صاحبه المؤمن، ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وأوصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب، وهياً لك ما هياً من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، وتحيد^(١) نعمته، وتزعم أنه لا بيعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك؟! هذا ما لا ينبغي ولا يليق. ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه، قال خيراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لئن كان هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدنا﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم^(٢) طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحد من المخلوقين، ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده، أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والتكال، فقال:

﴿٣٩-٤٤﴾ ﴿إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً﴾ فعسى ربي أن يؤتين خيراً

من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً * أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً * وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً * ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً.

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت - وإن فخرت علي بكثرة مالك وولديك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً - فإن ما عند الله، خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حسباناً من السماء﴾ أي: عذاباً، بمطر عظيم أو غيره، ﴿فتصبح﴾ بسبب ذلك ﴿صعيداً زلقاً﴾ أي: قد اقلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها، ﴿أو يصبح ماؤها﴾ الذي مادتها منه ﴿غوراً﴾ أي: غائراً في الأرض ﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمن غضباً لربه، لكونها غرته وأطفته، واطمان إليها، لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه ﴿وأحيط بشمره﴾ أي: أصابه عذاب أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالشمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه،

(١) في ب: وتجهل.

(٢) في ب: والتزام.

وشرة، ولهذا قال: ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾.

قال الله تعالى: ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾ أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً﴾ فلم يدفعوا عنه من هذا العذاب شيئاً، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر، أي: يكون له أنصار على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا!!

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، وورقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب غرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وأثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحاً، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلاث، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه، فشابهه النبيوي والأخروي، خير^(١) ثواب يرجى ويؤمل، ففي هذه القصة العظيمة، اعتبار بخال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألتهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً، فإنه يجرمها طويلاً، وأن العبد

ينبغي له - إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده - أن يضيف النعمة إلى موليه ومسديها، وأن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله» ليكون شاكراً لله متسبباً لبقاء نعمته عليه، لقوله: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله:

﴿إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً * فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ وفيها أن المال والولد لا ينعفان، إن لم يعينا على طاعة الله كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرىكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ وفيه الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصاً إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم، وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجةها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم في ﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾ أي: عاقبة ومآلاً.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلاً، ولما قام بوراثته بعده تبعاً: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيها أولى بالإثارة، وأن مثل هذه الحياة الدنيا، كممثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تثبت من كل زوج بهيج، فبينما زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ

الآن والنبوت زينة الحياة الدنيا والنبوت الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً ﴿٤٥﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥١﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦١﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧١﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨١﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩١﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾

بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيماً تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناصر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء تراباً، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أضابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته، وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيء أعماله، هنالك بعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قد برى أنك قد ميت، ولا بد أن تموت، فأني: الحاليتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارخة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما

(١) في الجملة إشكال دفع إلى جعلها في بعض الطبقات (شر ثواب) وهي في السخيتين (خير ثواب) وظاهر أن المقصود بذلك من كان مؤمناً تقياً، فهو الذي ثوابه خير ثواب.

الكرام^(١)، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم، نحصى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: «يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها» أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوفة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، «ووجدوا ما عملوا حاضراً» لا يقدرّون على إنكاره «ولا يظلم ربك أحداً» فحيثما يجازون بها،

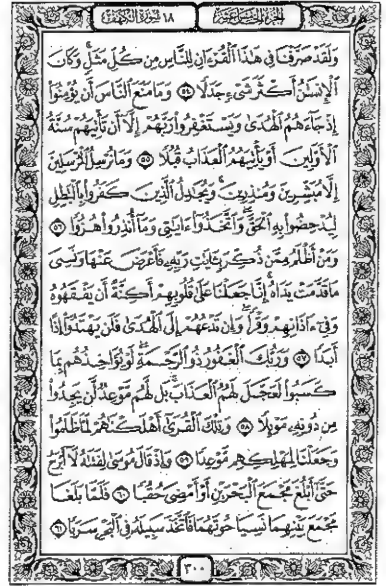
ويقرونها بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

﴿٥٠﴾ «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» يخبر تعالى، عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكراماً وتعظيماً، وامتنالاً لأمر الله، فامتلأوا ذلك «إلا إبليس كان من الجن، فسق عن أمر ربه» وقال: «أأسجد لمن خلقت طيناً» وقال: «أنا خير منه» فتبين هذا عداوته لله ولأبيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين «أولياء من دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» أي: ينس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته. وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً، وترك الولي الحميد؟! الحمد لله

المال والبنون ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات.

﴿٤٧-٤٩﴾ «وَيَوْمَ نَسِيتَ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً» يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأحوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال:

«وَيَوْمَ نَسِيتَ الْجِبَالُ» أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كتيلاً، ثم يجعلها كالعين المنفوش، ثم تضمحل وتتلشى، وتكون هباء منثلاً، وتبرز الأرض فتصير قاعاً صيفصفاً، لا عوج فيه ولا أمتاً، ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما غمزقوا، خلقاً جديداً، فيعرضون عليه صفاً ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: «لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة» أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال، التي عملوها، والكاسب في الخير والشر، التي كتبوها كما قال تعالى: «ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء» وقال هنا، مخاطباً للمتكبرين للبعث، وقد شاهدهوا عياناً: «بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً» أي: أنكزتم أجزاء على الأعمال، ووعد الله ووعده، فما قد رأيتموه وذقتموه، فحيثما تحضر كُتِبَ الأعمال التي كتبته الملائكة



تشتبهه الأنفس وتلد الأعين؟ فهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وريحه من خسارانه، ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة، والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسييح، وتحميد، وتغليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والماليك، والبهاائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخير أملاً، فتوابعها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجراها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستيق إليها العاملون، ويحذ في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها، يتمتع به قليلاً، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته، وهو

قال :

﴿٥٥﴾ «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً» أي : ما منع الناس من الإيمان ، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق ، بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، قد وصل إليهم ، وقامت عليهم حجة الله ، فلم يمنعهم عدم البيان ، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان ، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله ، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب ، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم ، ورأوه مقابلة ومعينة ، أي : فليخافوا من ذلك ، وليتوبوا من كفرهم ، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له .

﴿٥٦﴾ «وما ترسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً» أي : لم ترسل الرسل عبثاً ، ولا ليتخذهم الناس أرباباً ، ولا ليدعوا إلى أنفسهم ، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير ، ويهتدون عن كل شر ، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والأجل ، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والأجل ، فقامت بذلك حجة الله على العباد ، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون ، إلا المجادلة بالباطل ، ليدحضوا به الحق ، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم ، وفي دحض الحق وإبطاله ، واستهزؤوا برسول الله وآياته ، وفرحوا بما عندهم من العلم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ويظهر الحق على الباطل «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» ومن حكمة الله ورحمته ، أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل ، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلتها ، وتبين الباطل فساداً ، فيبنيها تبيين الأشياء .

﴿٥٧-٥٩﴾ «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما

يفرق بينهم وبينهم ، ويبعد بعضهم من بعض ، ويتبين حيثى عدواة الشركاء لشركائهم ، وكفرهم بهم ، وتبرئهم منهم ، كما قال تعالى : «وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين» .

﴿٥٣﴾ «ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً» أي : لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل ، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم ، وحققت كلمة العذاب على المجرمين ، فرأوا جهنم قبل دخولها ، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها ، وهذا الظن قال المفسرون : إنه بمعنى اليقين ، فأيقنوا أنهم داخلوها «ولم يجدوا عنها مصرفاً» أي : معدلاً يعدلون إليه ، ولا شافع لهم من دون إذنه ، وفي هذا من التخويف والترهيب ، ما ترعد له الأفتدة والقلوب .

﴿٥٤﴾ «ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شئاً جدلاً» يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن ، وجلالته ، وعمومه ، وأنه صرف فيه من كل مثل ، أي : من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة ، والسعادة الأبدية ، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك ، ففيه أمثال الحلال والحرام ، وجزاء الأعمال ، والترغيب والترهيب ، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب ، اعتقاداً ، وطمأنينة ، ونوراً ، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة ، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور ، ومع ذلك ، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين ، ويجادلون بالباطل «ليدحضوا به الحق» ولهذا قال : «وكان الإنسان أكثر شئاً جدلاً» أي : مجادلة ومنازعة فيه ، مع أن ذلك غير لائق بهم ، ولا عدل منهم ، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله ، إنما هو الظلم والعدوان ، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه ، وإلا فلو جاءهم العذاب ، وجاءهم ما جاء قبلهم ، لم تكن هذه حالهم ، ولهذا

قال تعالى : «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» .

وقال تعالى : «إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله» .

﴿٥١-٥٢﴾ «ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً» * ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً يقول تعالى : ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المضلين] ، «خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم» أي : ما أحضرهم ذلك ، ولا شاورهم عليه ، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك ؟ بل المنفرد بالخلق والتدبير ، والحكمة والتقدير ، هو الله ، خالق الأشياء كلها ، المتصرف فيها بحكمته ، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين ، يوالون ويपाعون ، كما يطاع الله ، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً ، ولم يعاونوا الله تعالى ؟ ولهذا قال : «وما كنت متخذ المضلين عضداً» أي : معاونين ، مظاهرين لله على شأن من الشؤون ، أي : ما ينبغي ولا يليق بالله ، أن يجعل لهم قسطين من التدبير ، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم ، فاللائق أن يقصهم ولا يندبهم .

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا ، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال ، وحكم بجهل صاحبه وسفه ، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة ، وأن الله يقول لهم : «نادوا شركائي» بزعمكم أي : على موجب زعمكم الفاسد ، وإلا فبالحقيقة ليس الله شريك في الأرض ، ولا في السماء ، أي : نادوهم ، لينفعوكم ، ويخلصوكم من الشدائد ، «فدعوهم فلم يستجيبوا لهم» لأن الحكم والملك يومئذ لله ، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا غيره .

«وجعلنا بينهم» أي : بين المشركين وشركائهم «موبقاً» أي : مهلكاً ،

قدمت يدها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً * ورتك القصور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً * وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً * يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، من عبد دُكر بآيات الله ويُنن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخُوف ورُعب ورُعب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما دُكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يدها من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأت آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف ^(١) ظلماً من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه للذنب، ورضاه لنفسه، حالة الشرم مع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعتها، فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلى القلب، ^(٢) وفي آذانهم وقراً أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل، ^(٣) وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً * لأن الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالماً، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه، وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرعب وزاجر عن

ذلك. ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيغفده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ ^(٤) العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يمهل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ أي: لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم متا ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ أي: وقتاً مقدراً، لا يستقدمون عنه ولا يتأخرون.

﴿٦٠ - ٨٢﴾ ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقاً﴾ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغ فارتداً على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتياه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً * قال إنك لن تستطيع معي صبراً * وكيف تصبر على ما لم

تخط به خبراً * قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً * قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها * إلى قوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ يخبر تعالى عن نبية موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتاه - أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك: - ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي: لا أزال مسافراً وإن طالت علي الشقة، ولحقنتي المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ^(١) أو أمضي حقياً أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه.

﴿فلما بلغا﴾ أي: هو وفتاه ﴿مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ وكان معهما خوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الخوت قُتِم ذلك العبد الذي قصده، فاتخذ ذلك الخوت سبيله، أي: طريقه في البحر سرباً وهذا من الآيات.

قال المفسرون: إن ذلك الخوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بئلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته جياً.

فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين، قال موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدنا من التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً فإن

(١) في ب: فإنه أشد، والسياق يدل على ما أثبت.

(٢) في الأصل واخذ.

الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا عايتهما وجدا من التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة، قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتَ الْخُوتَ﴾ أي: ألم تعلم حين آوينا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَأِنِّي نَسِيتَ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿وَإِخْذْ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه، كان ذلك من العجائب.

قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوث سرياً، ولموسى وقتاه عجباً، فلما قال له الفتى: هذا القول، وكان عند موسى وعده من الله أنه إذا فقد الحوث، وجد الخضر، فقال موسى: ﴿ذلك ما كنا نبغ﴾ أي: نطلب ﴿فارتدا﴾ أي: رجعا على أثرهما قصصاً أي: رجعا يقصان أثرهما، إلى المكان الذي نسيان فيه الحوث فلما وصلا إليه، وجدا عبداً من عبادنا، وهو الخضر، وكان عبداً صالحاً، لا نبياً على الصحيح.

آتيناه [رحمة من عندنا أي: أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه وحسن عمله ﴿وعلمناه﴾] ^(١) ﴿من لنا﴾ [أي: من عندنا] علماً، وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصاً في العلوم الإيمانية والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضّلهم الله على سائر الخلق، بالعلم والعمل، وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه: ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير

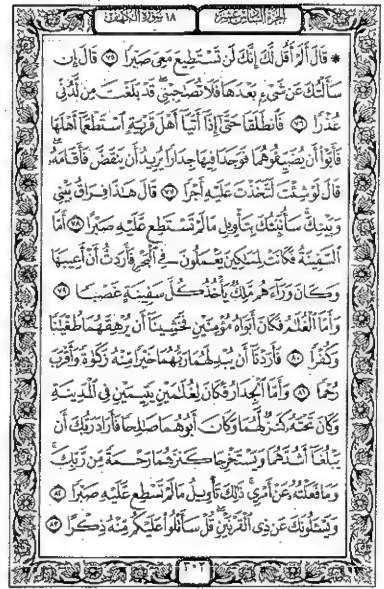
من الأشياء التي خفيت، حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك لن تستطيع معي صبرا. أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا. أي: كيف تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه وظاهره، وعلمت المقصود منه ومآله؟ فقال موسى: «ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا»

وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء المتحتم به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر، فحينئذ قال له الخضر: ﴿فَإِنْ أَتْبَعْتَنِي فَلَا تُسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: لا تتبدنتني بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، ففاهه عن سؤاله، ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر. ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقْتُهَا﴾ أي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك نسيبته، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لفرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخْرَقْتُهَا لِتَفْرُقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: عظيماً شنيعاً، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر: ﴿أَمْ أَتْلُوكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسياناً فقال: ﴿لَا تَوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَى﴾ أي: لا تعسر علي الأمر واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تَوَاخِذْنِي فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أبها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

فَلَمَّا جَاءَهُ قَالَ لَقَدْ أَخَذَ مَنَاسِكَةً فَاعْزَمْ عَلَيَّ أَنْ تَقْبَلَ بَعْدَ مَا هَذَا
 نَسَا ۝ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَيْتَ آلَ الصَّخْرَةِ فَلَا يَفِيضُوا عَلَيْكَ قَدْ عَلِمْتُ
 وَمَا أَنْتَ بِأَمِينٍ ۝ إِلَّا الْفَيْضُ أَنْ أَكْفُرَهُ وَاتَّقِ اللَّهَ يَسْتَفِهُونَ
 الْخَبْرَ عِيسَى ۝ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَمْنَعُ فَأَرْسَلْنَا زَكَرِيَّا إِلَىٰ آلِهَا
 فَصَبَّأُ ۝ فَوَكَّلْنَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا إِذْ هُوَ آتِيهِمُ الرِّزْقَ وَهُوَ غَافِلٌ
 عَنْهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّا عَذَّبْنَا ۝ قَالَ لَقَدْ مُوسِمٌ ۝ هَلْ أَتَيْتُمُوهُ عَلَىٰ
 أَنْ يُصَلِّيَ مَعَكُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّا ۝ قَالَ إِنَّا لَنُفِي ۝ فَتَسْلُبُ يَدَ
 صَبْرًا ۝ وَكَفَيْتَ صَبْرًا عَلَىٰ مَا تُحِيطُ بِخَبْرِهِ ۝
 قَالَ سَتَجِدُنِي إِسَاءَةً اللَّهُ صَبْرًا وَلَا أَصْنَعُ لِلَّهِ أَمْرًا
 قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُخَوِّدَ لِي مِنَهُ وَكُنَّ
 ۝ فَطَلَعْنَا حَتَّىٰ أَلْمَازِكَا فِي السَّمَاءِ ثُمَّ رَفَعْنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَهَذَا
 يُنْفِرُ ۝ فَلَمَّا بَلَغْنَا لَدُنْكَ نَسَخْنَا بِمَا ۝ قَالَ أَوَلَمْ نَقُلْ إِنَّكَ
 تَسْلُبُ يَدَ صَبْرًا ۝ قَالَ لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسَا وَلَا تُخَنِّفْ
 مِنِّي أَمْرًا ۝ فَطَلَعْنَا حَتَّىٰ أَلْمَازِكَا عُلَمَاءُ فَتَقَلَّلْنَا ۝ قَالَ
 أَفَلَا تَنصَرُّوا رَبَّنَا إِلَى اللَّهِ إِنَّا لَمُتَّكِئُونَ ۝ فَتَقَلَّلْنَا رَبَّنَا
 ۝ فَتَقَلَّلْنَا رَبَّنَا ۝ فَتَقَلَّلْنَا رَبَّنَا ۝ فَتَقَلَّلْنَا رَبَّنَا ۝ فَتَقَلَّلْنَا رَبَّنَا ۝

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا﴾ أي: صغيراً ﴿فَنَقَلْتُهُ﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلاماً صغيراً لم يذنب، ﴿قَالَ أَقْتُلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا﴾ وأي: نكر مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحداً؟! وكانت الأولى من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر معاتباً ومذكراً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

فقال [له] موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ﴾ بعد هذه المرة ﴿لَا تَصَاحِبْنِي﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر. ﴿فَانْطَلِقَا إِلَى إِذَا نِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا﴾ أي: استطافاهم، فلم يضيفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فَأَنَامَهُ﴾ الخضر أي: بناء وأعاده جديداً. فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره، وأنت تقدر عليها؟. فحيث لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر



الخضر منه، فقال له:

«هذا فراق بيني وبينك» فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصعبة، «سأنتك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً» أي: سأخبرك بما أنكرت علي، وأنتك بما لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

«أما السفينة» التي خرقتها «فكانت لمساكين يعملون في البحر» يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرأفة بهم. «فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا» أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلماً، فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

«وأما الغلام» الذي قتلته «فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً» وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً، أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه أو يحدهما على ذلك، أي: فقتلته، لإطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي: فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة!! وهو وإن كان فيه

إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: «فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً» أي: ولدًا صالحًا، زكياً، وأصلاً لرحمه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

«وأما الجدار» الذي أقمته «فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً» أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحتهما، لكونهما صغيرين عداً أباهما، وحفظهما الله أيضاً بصلاح والدهما.

«فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما» أي: فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجاًناً. «رحمة من ربك» أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، أتاهما الله عبده الخضر «وما فعلته عن أمري» أي: أتيت شيئاً من قبل نفسي، وبجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

«ذلك» الذي فسرت لك «تأويل ما لم تستطع عليه صبراً» وفي هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، نبه على بعضه بعون الله. فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداء بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الخضر والسفر لكفاية المؤنة وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريد، فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهاراً لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقاً»

وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة. ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى موسى: «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره».

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسلخ وكان صدقاً، لقول موسى: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً»

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكياً فطناً كيساً، ليتم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله: «أتينا غداءنا» إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو وهو جميعاً.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً» والإشارة إلى السفر المجاوز، لمجمع البحرين، وأما الأول، فلم يشك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الخوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: «أتينا غداءنا» فحيث تذكر أنه

نسيه في الموضع الذي إليه انتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه، ليس نبياً، بل عبداً صالحاً، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر مِثَّةَ الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً، لذكر ذلك كما ذكر غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً﴾.

ومنها: أن العلم الذي يعلِّمه الله [لعباده] ^(١) نوعان:

علم مكتسب يدرسه العبد بجدده واجتهاده. ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمتن عليه من عباده لقوله: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب، لقول موسى عليه السلام:

﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أن الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جداً، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للمتعلم ممن دونه، فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه، بمن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة.

فإن موسى عليه السلام من أولى العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه.

فعلى هذا، لا ينبغي للفقير المحدث، إذا كان قاصراً في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله:

﴿تعلمن مما علمت﴾ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق ^(٢) الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإذا أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أن تعلمن مما علمت رشداً﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم ^(٣)، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر - يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه - إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدرسه، أو لا يدرى غايته ولا نتيجه، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به﴾ خبراً. فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول: «إن شاء الله».

ومنها: أن العزم على فعل الشيء، ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالاً، لا يتعلق في موضوع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لا في حق الله، ولا في حقوق العباد، لقوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم، العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: لطريق.

(٣) بدلاً من الجملة: (أنه يفوته... كثير من العلم) جاء في ب: (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في: أ مشطوبة.

نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يَرُدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءُ الْحَسَنِ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَوْ الْمُشْرِكُونَ، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قِصَّةِ ذِي الْقُرْنَيْنِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿سَأَلْتُمُو عَلِيَّكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فِيهِ نَبَأٌ مُفِيدٌ، وَخُطَابٌ عَجِيبٌ.

أَي: سَأَلْتُمُو عَلِيَّكُمْ مِنْ أَحْوَالِهِ، مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ، وَيَكُونُ عِبْرَةً، وَأَمَّا مَا سَوَى ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ، فَلَمْ يَتْلِهِ عَلَيْهِمْ. ﴿إِنَّا مَكْنُئًا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: مُلْكُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَكْنُئًا مِنْ التَّفَوُّذِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَإِقْيَادِهِمْ لَهُ. ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ قَاتِبِعِ سَبِيًّا أَي: أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَوْصَلَةِ لَهُ لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ، مَا بِهِ يَسْتَعِينُ عَلَى قَهْرِ الْبِلْدَانِ، وَسَهُولَةِ الْوُصُولِ إِلَى أَقَاصِي الْعُمَرَانِ، وَعَمِلَ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَي: اسْتَعْمَلَهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ يَسْلُكُهُ، وَلَا كُلُّ أَحَدٍ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى السَّبَبِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الْقُدْرَةُ عَلَى السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ وَالْعَمَلُ بِهِ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ، وَإِنْ عَدِمَا أَوْ أَحَدَهُمَا لَمْ يَحْصُلْ.

وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم يُخَيِّرْنَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ بِهَا، وَلَمْ تَتَنَاقَلْهَا الْأَخْبَارُ عَلَى وَجْهِ يَفِيدُ الْعِلْمَ، فَلِهَذَا لَا يَسْغَنَا غَيْرَ السَّكُوتِ عَنْهَا، وَعَدَمِ الْإِتِّفَاتِ لِمَا يَذْكُرُهُ النُّقْلَةُ لِلْإِسْرَافِيَلِيَّاتِ وَنَحْوِهَا، وَلَكِنَّا نَعْلَمُ بِالْجُمْلَةِ أَنَّهَا أَسْبَابٌ قَوِيَّةٌ كَثِيرَةٌ، دَاخِلِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ، بِهَا صَارَ لَهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ، ذُو عَدُوٍّ وَعَدُوٍّ وَنَظَامٍ، وَبِهِ تَمَكَّنَ مِنْ قَهْرِ الْأَعْدَاءِ، وَمِنْ تَسْهِيلِ الْوُصُولِ إِلَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا وَأَنْحَائِهَا، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ مَا بَلَغَ بِهِ مَغْرِبُ الشَّمْسِ، حَتَّى رَأَى الشَّمْسُ فِي مَرَايِ الْعَيْنِ، كَأَنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حِمَّةٍ، أَي: سُودَاءِ، وَهَذَا الْمُتَعَادِلُ لِمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَفْقِ الشَّمْسِ الْغَرْبِيِّ مَاءً، وَأَهَا تَغْرُبُ فِي نَفْسِ الْمَاءِ وَإِنْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْإِرْتِفَاعِ، وَوُجِدَ عِنْدَهَا، أَي: عِنْدَ مَغْرِبِهَا قَوْمًا ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ

وَمِنْهَا: أَنْ الْعَبْدَ الصَّالِحَ يَحْفَظُهُ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ، وَفِي ذَرِيَّتِهِ. وَمِنْهَا: أَنْ خِدْمَةَ الصَّالِحِينَ، أَوْ مِنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ، أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا، لِأَنَّهُ عِلَلُ اسْتِخْرَاجِ كَنْزِهِمَا، وَإِقَامَةُ جِدَارِهِمَا، أَنْ أَبَاهُمَا صَالِحٌ.

وَمِنْهَا: اسْتِعْمَالُ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَلْفَافِ، فَإِنَّ الْخَضِرَ أَضَافَ عَيْبَ السَّفِينَةِ إِلَى نَفْسِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعْيِيَهَا﴾. وَأَمَّا الْخَيْرُ، فَأَضَافَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ وَقَالَتِ الْجَنُّ: ﴿وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرَ أُرِيدُ بَيْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مَعَ أَنَّ الْكُلَّ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلصَّاحِبِ أَنْ لَا يَفَارِقَ صَاحِبَتَهُ فِي خَالَةِ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَيَتْرَكَ صَحْبَتَهُ حَتَّى يَتَّعِبَهُ، وَيَعْذُرَ مِنْهُ، كَمَا فَعَلَ الْخَضِرُ مَعَ مُوسَى. وَمِنْهَا: أَنْ مُوَافَقَةَ الصَّاحِبِ لِنَاصِحِهِ، فِي غَيْرِ الْأُمُورِ الْمَحْذُورَةِ، مَدْعَاةٌ وَسَبَبٌ لِبَقَاءِ الصَّحْبَةِ وَتَأْكِيدِهَا، كَمَا أَنَّ عَدَمَ الْمَوَافَقَةِ سَبَبٌ لِقَطْعِ الْمِرَاقَةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ هَذِهِ الْقَضَايَا الَّتِي أَجْرَاهَا الْخَضِرُ هِيَ قَدَرٌ مُخَصَّصٌ أَجْرَاهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا عَلَى يَدِ هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ، لِيَسْتَدِلَّ الْعِبَادَ بِذَلِكَ عَلَى الْطَافَةِ فِي أَقْضِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ يَقْدَرُ عَلَى الْعِبَادَةِ أُمُورًا يَكْرَهُهَا جَدًّا، وَهِيَ صَلَاحُ دِينِهِ، كَمَا فِي قِصَّةِ الْغَلَامِ، أَوْ وَهِيَ صَلَاحُ دُنْيَاهُ كَمَا فِي قِصَّةِ السَّفِينَةِ، فَأَرَاهُمْ نَمُودَجًا مِنْ لَطْفِهِ وَكَرَمِهِ، لِيَعْرِفُوا وَيَرْضَوْا غَايَةَ الرِّضَا بِأَقْدَارِهِ الْمَكْرُوهَةِ.

﴿٨٣ - ٨٨﴾ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ ذِكْرًا﴾ * إِنَّا مَكْنُئًا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا * قَاتِبِعِ سَبِيًّا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حِمَّةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَنًا * قَالَ أَنَا مِنْ ظَلَمِ قُتُوفٍ

السَّكُوتِ عَنْهَا، فِي غَيْرِ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي صَحِبَ عَلَيْهَا الْخَضِرُ، فَاسْتَعَجَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَادِرُ إِلَى الْحُكْمِ فِي حَالَتِهَا الْعَامَةِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى هَذَا الْعَارِضِ، الَّذِي يُوْجِبُ عَلَيْهِ الصَّبْرَ، وَعَدَمُ الْمِبَادَةِ إِلَى الْإِنْكَارِ.

وَمِنْهَا: الْقَاعِدَةُ الْكَبِيرَةُ الْجَلِيلَةُ وَهِيَ أَنَّهُ: «يُدْفَعُ الشَّرُّ الْكَبِيرُ بِارْتِكَابِ الشَّرِّ الصَّغِيرِ» وَيُرَاعَى أَكْبَرُ الْمُصْلَحَتَيْنِ بِتَفْوِيتِ أَصْغَرِهِمَا، فَإِنَّ قَتْلَ الْغَلَامِ شَرٌّ، وَلَكِنْ بَقَاؤُهُ حَتَّى يَفْتَنَ أَبُوهُ عَنْ دِينِهِمَا أَعْظَمُ شَرًّا مِنْهُ، وَبَقَاؤُهُ الْغَلَامِ مِنْ دُونِ قَتْلِهِ وَعَصْمَتِهِ، وَإِنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ خَيْرٌ، فَالْخَيْرُ بَقَاؤُهُ دِينَ أَبُوهُ وَإِيمَانُهُمَا خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، فَلِذَلِكَ قَتَلَهُ الْخَضِرُ، وَتَحْتَ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ مِنَ الْفُرُوعِ وَالْفُرُوقِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْخَضِرِ، فَتُزَاحِمُ الْمَصَالِحَ وَالْمَفَاسِدَ كُلُّهَا دَاخِلٌ فِي هَذَا.

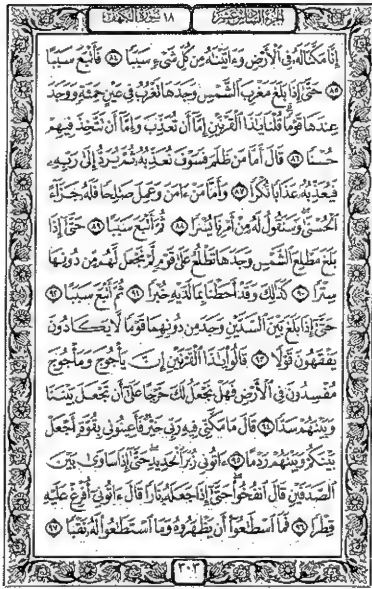
وَمِنْهَا: الْقَاعِدَةُ الْكَبِيرَةُ أَيْضًا وَهِيَ أَنَّ: «عَمَلُ الْإِنْسَانِ فِي مَاكَ غَيْرِهِ» إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْمَصْلُحَةِ وَإِزَالَةِ الْمَفْسَدَةِ، أَنَّهُ يَجُوزُ، وَلَوْ بِلَا إِذْنٍ، حَتَّى وَلَوْ تَرْتَبَ عَلَى عَمَلِهِ إِتْلَافُ بَعْضِ مَالِ الْغَيْرِ» كَمَا خَرَقَ الْخَضِرُ السَّفِينَةَ لِتَعْيِيبِ، فَتَسْلَمُ مِنْ غَضَبِ الْمَلِكِ الظَّالِمِ. فَعِلَى هَذَا لَوْ وَقَعَ حَرْقٌ، أَوْ غَرَقٌ، أَوْ نَحْوُهُمَا فِي دَارِ إِنْسَانٍ أَوْ مَالِهِ، وَكَانَ إِتْلَافُ بَعْضِ الْمَالِ، أَوْ هَدْمُ بَعْضِ الدَّارِ فِيهِ سَلَامَةٌ لِلْبَاقِي جَازٍ لِلْإِنْسَانِ، بَلْ شَرَحَ لَهُ ذَلِكَ، حَفِظًا لِمَالِ الْغَيْرِ، وَكَذَلِكَ لَوْ أَرَادَ ظَالِمٌ أَخْذَ مَالِ الْغَيْرِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ إِنْسَانٌ بَعْضَ الْمَالِ افْتِدَاءً لِلْبَاقِي جَازٌ، وَلَوْ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْعَمَلَ يَجُوزُ فِي الْبَحْرِ، كَمَا يَجُوزُ فِي الْبَرِّ لِقَوْلِهِ: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾. وَلَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهِمْ عَمَلُهُمْ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَسْكِينَ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَالٌ لَا يَبْلُغُ كِفَايَتِهِ، وَلَا يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ اسْمِ الْمَسْكِينَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينُ لَهُمْ سَفِينَةٌ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْقَتْلَ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ لِقَوْلِهِ فِي قَتْلِ الْغَلَامِ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكْرًا﴾.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْقَتْلَ قِصَاصًا غَيْرَ مَنْكَرٍ لِقَوْلِهِ: ﴿يَغِيرُ نَفْسًا﴾.



تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴿أَي: من دونها ستر﴾ أي: وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس، إما ونحوه، وإما أن نحسن إليهم، فخير بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم إما كفار أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق، لم يرخّص له في تعذيبهم، فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به الملح والثناء، لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين: ﴿أما من ظلم﴾ بالكفر ﴿فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي: تحصل له العقوبتان، عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة، ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾ أي: فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة، ﴿وستنقلو له من أمرنا يسراً﴾ أي: وستحسن إليه، ونلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما يليق بحاله.

٨٩ - ٩٨ ﴿ثم أتبع سبباً﴾

حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا * كذلك وقد أخطأنا بما لديه خيراً * ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً * قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً * قال ما مكنتي فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً * أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني أفرغ عليه قطراً * فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً * قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً * أي: لما وصل إلى مغرب الشمس كثر راجعاً، قاصداً مطلعها، متبعاً للأسباب التي أعطاه الله، فوصل إلى مطلع الشمس فوجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم

﴿ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين﴾ قال المفسرون: ذهب متوجهاً من المشرق، قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، سداً بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وجد من دون السدين قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، لعجمة ألسنتهم، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية، ما فقه به السنة أولئك القوم وفقههم، وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما: أمتان عظيمتان من بني آدم، فقالوا:

﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك.

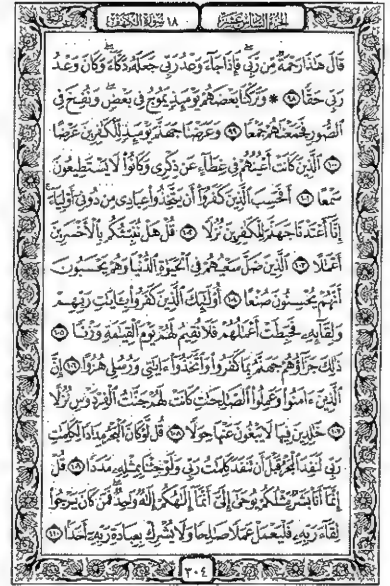
﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ أي: جُعلاً ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنیان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو: إفسادهم في الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركاً لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر

ربه على تمكنه واقتداره، فقال لهم: ﴿ما مكنتي فيه ربي خير﴾ أي: بما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ أي: مانعاً من عبورهم عليكم.

﴿أتوني زبر الحديد﴾ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك.

﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد ﴿قال انفخوا﴾ النار أي: أوقدوها بإقداً عظيماً، واستعملوا لها المنافع لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، الذي يريد أن يوصله بين زبر الحديد ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾ أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾ أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولياها وقال: ﴿هذا رحمة من ربي﴾ أي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعمة الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله، كما



في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴿١٠١﴾ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين، ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فاما الكافرون - على اختلافهم - فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً.

﴿١٠١﴾ ولهذا قال: ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ كما قال تعالى: ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾^(١) أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، ولتتمتعوا بأغلالها وسعيرها، وحيمها، وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب، ما تبكم له القلوب، وتصفم الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى ﴿أي: معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: ﴿قلوبنا في أكنة عما تدعوننا إليه﴾ وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة، كما قال تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾.

﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي: لا يقدرون على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان، ليغضهم القرآن والرسول، فإن المغض لا يستطيع أن يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم^(٢) سمع ولا بصر، ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله ووجدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيراً.

﴿١٠٢﴾ ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ وهذا برهان وبيان، لبطان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء

والأولياء شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام الإنكاري المتقرر بطلانه في العقول: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ أي: لا يكون ذلك ولا يزال ولي الله معادياً لله أبداً، فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون﴾ * قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم.

فمن زعم أنه يتخذ ولي الله ولياً له، وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله، المتنايذون لرسله، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم، ويتفعلونهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسان باطل، وظن قاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس بيدهم من النفع والضرر، شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ * ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴿ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله فيها، أن المتخذ من دونه ولياً ينصره ويؤاليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل لبعض مقصوده.

﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ أي: ضيافة وقرى، فيبش النزل نزلهم، وبشت جهنم ضيافتهم.

﴿١٠٣ - ١٠٦﴾ ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أصماً﴾ * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنأاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا

قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر﴾ بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار تزيدهم أشراً وطرأ.

كما قال قارون - لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة - قال: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾.

وقوله: ﴿فيذا جاء وعد ربي﴾ أي: لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جمعه﴾ أي: ذلك السد المحكم الثفن ﴿دكاه﴾ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ يحتمل أن الضمير، يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس - من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها - يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يمتعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿ونفخ

(١) في النسختين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق قلم.

(٢) في النسختين: له.

وانخذوا آياتي ورسلي هزواً أي: قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار -: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا أي: بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله ومعبودة؟! فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، ذ «خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين».

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كمل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون.

ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدین، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نُزِّلَ، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي: ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيhe الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المفردة المشجية، والمأكَل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فله تلك الضيافة، ما أجلها وأجلها وأدومها وأكملها!!، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تحيط

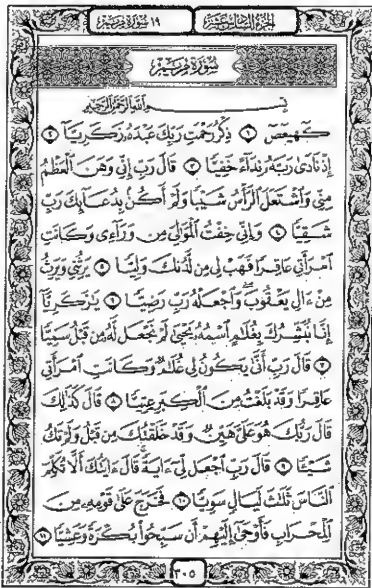
بها. **﴿فحبطت﴾** بسبب ذلك أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً. لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً» لكن تعد أعمالهم وتحصى، ويقروون بها، ويخزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: «ذلك جزاؤهم» أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة، «وزناً» لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزواً يستهزئون بها، ويسخرون^(١) منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتعسوا، وانتكسوا في العذاب. ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم فقال:

﴿١٠٧-١٠٨﴾ «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات

والفردوس نزلاً * خالدین فيها

(١) في النسختين: ويستخرون.

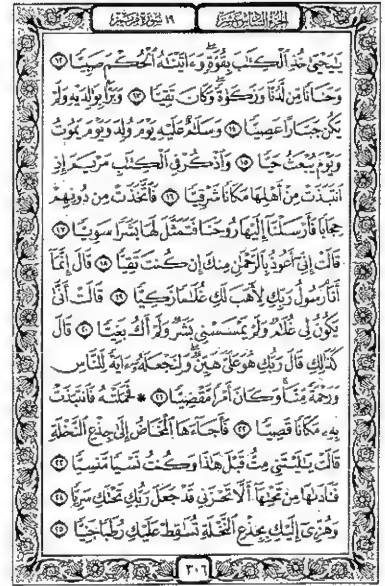
(٢) كذا في أ، وفي ب: وهت.



على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاً تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفدت^(٢)، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: «خالدین فيها» هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع «لا يبعثون عنها حولاً» أي: تحولوا ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

﴿١٠٩﴾ «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً» أي: قل لهم خبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: «لو كان البحر» أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم «مداداً



ومعرفته، والسبب الموصل إليه . وذلك أن الله تعالى اجتنبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم، فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد يتوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً، فقال:

﴿رب إني وهن العظم مني﴾ أي: وهى وضعف، وإذا ضعف العظم، الذي هو عماد البدن، ضعف غيره، ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي: لم تكن يا رب تردني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تزل بي حفيماً ولبدعائي مجيباً، ولم تزل الطافك تتوالى علي، وإحسانك واصلًا إلي، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، أن يتم إحسانه لاحقاً.

﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾ أي: وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا، أنه لم ير فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس بطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومطعة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً، يقوم بالدين

﴿قل﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي: لست بآله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندى خزائن الله، و ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ عبد من عبيد ربي، ﴿يوحى إلي أنما إليكم إله واحد﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما إليكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي: لا يرأى بعمله، بل يعمل خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاتته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد

تفسير سورة مريم وهي مدنية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص﴾ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴿وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴿أي: هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ سنقصه عليك، ونقصه تفصيلاً يعرف به حالة نبيه زكريا، وأثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته ولآياته، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعوا إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره

لكلمات ربي﴾ أي: وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقلام، لنفد البحر، وتكسرت الأقلام ﴿قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد.

وفي الآية الأخرى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾. وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات متقضية منتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأني سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البخر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

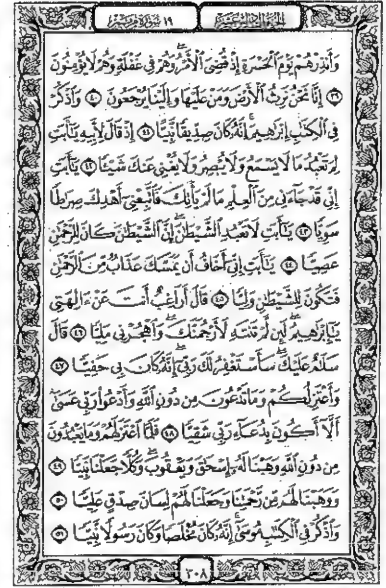
﴿١٠﴾ ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي:

وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه. وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المنع - من أفضل الأعمال.

ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ فأعاضها الله بعفتها، ولدأ من آيات الله، ورسولاً من رسله، فلما رأى جبريل منها الروح والحيقة، قال: ﴿إنما أنا رسول ربك﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه، فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة، فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ والولد لا يوجد إلا بذلك؟! قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس. تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها، لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿ورحمة منا﴾ أي: ولنجعله رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم، وأما رحمته بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء أحسن، والمنافع العظيمة. وأما رحمته بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم، أن بعث فيهم رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، ﴿وكان﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة أمراً مقضياً. قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفسج جبريل عليه السلام في جيها.

انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال: ﴿واذكر في الكتاب﴾ الكريم ﴿مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيتها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين انتبذت أي: تباعدت عن أهلها ﴿مكاناً شرقياً﴾ أي: بمالي الشرق عنهم، فالتحذت من دونهم حجاباً أي: سترأ ومانعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿واذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين. وقوله: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو: جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي: كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معترلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد التحذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت منه فقالت له: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي: ألتجئ به وأعتصم برحمته، أن تنالني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي: إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره يلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،



لم يكن عاقباً، ولا مسيحياً إلى أبويه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل.

﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي: لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعاً، متذللاً، مطيعاً، أواباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلهاذا قال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام، فصولات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦ - ٢١﴾ ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴿فالتحذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾ لما ذكر قصة زكريا، ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة،

﴿٢٢-٢٦﴾ ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ فأجأها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴿فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴿فكلى واشرب وقرى عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لما حلت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿مكاناً قصياً﴾ فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من حالة الناس، وخافت عدم صبرها، غمت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحيثئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداهما من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تحزعي ولا تهتمي، ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي: نهراً تشربين منه، ﴿وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي: طرياً لذيذاً نافعاً ﴿فكلى﴾ من التمر، ﴿واشرب﴾ من النهر ﴿وقرى عينا﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب والهني.

وأما من جهة حالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي: سكوتاً ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام تسترجمي من قولهم وكلامهم. وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن

الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوى، التي لو أقسم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينة هذا الخارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً، ولهذا قال تعالى:

﴿٢٧-٣٣﴾ ﴿فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ يا أخت هارون ما كان أبوك اسماً سوءاً وما كانت أمك بغياً ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ وبراً بالذي لم يجعلني جباراً شقياً ﴿والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ أي: فلما تعلت مريم من نفاسها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأنت غير مبالاة ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لقد جئت شيئاً فرياً﴾ أي: عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك البغاء^(١)، حاشاها من ذلك، ﴿يا أخت هارون﴾ الظاهر، أنه أخ لها حقيقي، فنسبوا إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة، ﴿ما كان أبوك أمراً سوءاً وما كانت أمك بغياً﴾ أي: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟، وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في الإصلاح وضده، فتعجبوا - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن

تقول: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ لأن ذلك لم يجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن، فحيث قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فخطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿إني عبد الله﴾ ومدعون موافقته.

﴿أتاني الكتاب﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتب ﴿وجعلني نبياً﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ أي: في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعده مصاحبه.

﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنا ممثّل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها، ووصاني أيضاً، أن أبر والدي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدّة لها حق الولادة وتوابعها.

﴿ولم يجعلني جباراً﴾ أي: متكبراً على الله، مترفعاً على عباده ﴿شقياً﴾ في دنياي أو آخري، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذلاً، متواضعاً لعباد الله، سعيداً في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني، فلما تم له الكمال، ومحمد الخصال قال: ﴿والسلام علي يوم

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدل من البغي فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

وأقوالهم، ويقولون: ﴿ربنا أبصرنا
وسمعنا فارجعنا لنعمل صالحاً إنا
موقنون﴾ ففي القيامة، يستيقنون
حقيقة ما هم عليه.

﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال
مبين﴾ وليس لهم عذر في هذا
الضلال، لأنهم بين معاند ضال على
بصيرة، عازف بالحق صادف عنه،
وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من
معرفة الحق والصواب، ولكنه راض
بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله،
غير ساع في معرفة الحق من الباطل،
وتأمل كيف قال: ﴿فويل للذين
كفروا﴾ بعد قوله ﴿فاختلف الأحزاب
من بينهم﴾ ولم يقل ﴿فويل لهم﴾ ليعود
الضمير إلى الأحزاب، لأن من
الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت
الصواب، ووافقت الحق، فقالت في
عيسى: ﴿إنه عبد الله ورسوله﴾ فآمنوا
به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير
داخلين في هذا الوعيد، فلهذا
خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم
الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة
وهم لا يؤمنون﴾ إنا نحن نرث
الأرض ومن عليها وإنا يرجعون ﴿
الإنذار هو: الإعلام بالخوف على وجه
الترهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما
ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة
حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون
والآخرون في موقف واحد، ويسألون
عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع
رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها،
ومن لم يؤمن بالله واتبع رسله شقى
شقاوة لا سعادة^(١) بعدها، وخسر
نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر، ويندم
ندامة تنقطع منها القلوب، وتنصدع
منها الأفتدة، وأي: حسرة أعظم من
فوات رضا الله وجنته، واستحقاق
سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من
الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له
إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟ فهذا
قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في

ربي وربكم الذي خلقنا، وصورنا،
ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره.

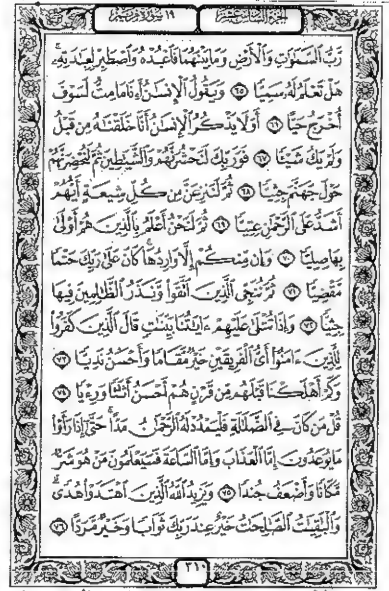
﴿فاعبدوه﴾ أي: أخلصوا له
العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي
هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد
الإلهية، والاستدلال بالأول على
الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط
مستقيم﴾ أي: طريق معتدل، موصل
إلى الله، لكونه طريق الرسل
وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق
الغنى والضلال.

﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿فاختلف الأحزاب
من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد
يوم عظيم﴾ أسمع بهم وأبصر يوم
يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال
مبين ﴿لما بين تعالى حال عيسى ابن
مريم الذي لا يشك فيها ولا يمتري،
أخبر أن الأحزاب، أي: فرق
الضلال، من اليهود والنصارى
وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم
اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن
غبال فيه وجاف، فمنهم من قال:
إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله
ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة. ومنهم
من لم يجعله رسولا، بل رماه بأنه ولد
بغى كاليهود. وكل هؤلاء أقوالهم
باطلة، وآراؤهم فاسدة، مبنية على
الشك والعناد، والأدلة الفاسدة،
والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء
مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا
قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بالله
ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود
والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر
﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: مشهد
يوم القيامة، الذي يشهده الأولون
والآخرون، أهل السماوات وأهل
الأرض، الخالق والمخلوق، المتلى
بالزلازل والأهوال، المشتمل على
الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا
يخفون ويدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾
أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك
اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم

ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴿
أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي
السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم
بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة،
وذلك يقتضي سلامته من الأهوال،
ودار الفجار، وأنه من أهل دار
السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان
باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله
حقا.

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿ذلك عيسى ابن
مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ ما
كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا
قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿
وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط
مستقيم﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك
الصفات، عيسى ابن مريم، من غير
شك ولا مرية، بل قول الحق
وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً،
ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر
اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما
قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع
بطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله
لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه
يمترون﴾ أي: يشكون فيما رآون
بشكهم، ويمجادلون بخبرهم، فمن
قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو
ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم
وتقولهم علواً كبيراً، ﴿ما كان لله أن
يتخذ من ولد﴾ أي: ما ينبغي ولا
يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة،
لأنه الغني الحميد، المالك لجميع
الممالك، فكيف يتخذ من عباده
ومعاليكه ولداً؟! ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه
وتقدس عن الولد والنقص، ﴿إذا
قضى أمراً﴾ أي: من الأمور الصغار
والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب
﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ فإذا كان
قدره ومشيبته نافذاً في العالم العلوي
والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا
كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كن
فيكون﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسى
من غير أب؟! ولهذا أخبر عيسى أنه
عبد مريبوب كغيره، فقال: ﴿وإن الله



أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، ف ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: رحيمًا رؤوفًا بحالي، معنيًا بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو الله، وأنه لا يفيد فيه شيئًا، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته، سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة^(١)، والصبر على ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصنع والعمور، بل بالإحسان القوي والفعل.

فلما أيس من قومه وأبيه قال: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي: أنتم وأصنامكم ﴿وَأدعوني﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿عَسَىٰ أَنْ لَا أَكُونَ بِدَعَاءِ ربي شَقِيًّا﴾ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس من دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم المواعظ، فأصبروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله، ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه، من أشق شيء على النفس، لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراده عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً﴾ من إسحق ويعقوب ﴿جعلنا نبيًّا﴾ فحصل له هبة هؤلاء الصالحين^(٢) المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحية، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

﴿ووهبنا لهم﴾ أي: لإبراهيم وابنيه ﴿من رحمتنا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا﴾ وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب: العالي غير الخفي، فذكرهم ملاً الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت به الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكُتُبِ﴾ موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً * أي: وأذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، ﴿إِنَّهُ كَانَ مَخْلُصًا﴾ قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرئ بكسرها، على معنى أنه مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه بالإخلاص في جميع أحواله، والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من

الذميمة، وترتع في مراتعه الوحيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنتك إن أطعني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَأَيْتَ أَنتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ فتبجح بألوهته [التي هي] من الحجر والأصنام، ولأم إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوحيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لكن لم تنته﴾ أي: عن شتم إلهي، ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لَأَرْجُوكَ﴾ أي: قتلاً بالحجارة ﴿وَاهْجُرْني مليًّا﴾ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً، فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سلام عليك﴾ أي: ستسلم من خطايي إياك بالشتم والسب وبما تكره، ﴿سأستغفر لك ربِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: لا أزال

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: من رتبة إلى رتبة.

(٣) في ب: فحصل له ولهؤلاء الصالحين.

وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾. أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومئة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله: كان مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين الآية. وأن بعضهم من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح: أي: من ذريته ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل هذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿خروا سجداً وبكياً﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرحمن﴾ دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً﴾ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء

للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه [له] (١) وقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ وفي ذلك ومكن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي [هي] أكبر منن الله على عبده، وأهلها (٢) من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاء الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿وإذ ذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ ورفعه مكاناً علياً أي: اذكر في الكتب (٣) على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفايته لوحيه، واختياره لرسالته، ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿٥٨﴾ ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين،

الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إحياء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿وبادينا من جانب الطور الأيمن﴾

أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من المؤمنين والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ وقربناه نجياً والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحائهم.

وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانه عليه.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿وإذ ذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً أي: واذكر في القرآن الكريم، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم.

﴿إنه كان صادق الوعد﴾ أي: لا يعد وعداً إلا وفى به، وهذا شامل

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: وجعله.

(٣) في ب: في الكتاب.

المخلصون^(١) المتبعون لمراضي ربهم، المتببون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيغ، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصلوها، وعلى أي: وجه اتفقت تناولوها.

﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من تاب﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزماً جازماً أن لا يعاودها، ﴿وأمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يدخلون الجنة﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ من أعمالهم، بل يجودها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفاً عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لبعثتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والخيور. ﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى

اسمه ﴿الرحمن﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وسماها تعالى رحته، فقال: ﴿وأما الذين ابضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾. وأيضاً ففي إضافتها إلى رحته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحته، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم كقوله: ﴿وعباد الرحمن﴾ ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بالغيب﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وعد الرحمن﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعداً غائباً، لم يشاهدوه ولم يروه، فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا، مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حباً، وأجل شوقاً، ويحتمل أيضاً، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾

من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مائتياً﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الوعد، وهو أصدق القائلين.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لا غياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيًّا، ولا قولاً فيه معصية لله، أو قولاً مكدرًا، ﴿إلا سلاماً﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحمية، وكلام سرور، وبشارة، ومطاحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور والملائكة والولدان، والنفحات المطرية، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ أي: أرزاقهم من المأكول والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حشماً طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بكرة وعشيا﴾ يعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿التي تورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبعون عنه جِولاً، كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما تنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: ﴿لو تأتينا أكثر مما تأتينا﴾ - تشوقاً إليه، وتوحشاً

(١) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع

لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله -
فأنزل الله تعالى على لسان جبريل:
﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك﴾ أي: ليس
لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدرنا
أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال
عنهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم
ويفعلون ما يؤمرون﴾ فنحن عبيد
مأمورون، ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا
وما بين ذلك﴾ أي: له الأمور الماضية
والمستقبلية والحاضرة، في الزمان
والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله،
وأنا عبيد مدبرون، فبقى الأمر دائراً
بين: «هل تقتضيه الحكمة الإلهية
فيتمذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟» ولهذا
قال: ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي: لم
يكن الله لينسأك ويملكك، كما قال
تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ بل لم
يزل معتنياً بأمرك، مجرباً لك على
أحسن عوائده الجميلة، وتدابيره
الجميلة.

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت
المتعاد، فلا يجوز لك ذلك ولا يملك،
واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما
له من الحكمة فيه، ثم علل إحاطة
علمه، وعدم نسيانه، بأنه «رب
السموات والأرض» فربوبيته
للسموات والأرض، وكونهما على
أحسن نظام وأكمل، ليس فيه غفلة
ولا إهمال، ولا سدى، ولا باطل،
برهان قاطع على علمه الشامل،
فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها
بما ينفعك ويعود عليك طائفة، وهو:
عبادته وحده لا شريك له، «واصطبر
لعبادته» أي: اصبر نفسك عليها
وجاهدتها، وقم عليها أتم القيام
وأكملها بحسب قدرتك، وفي
الاشتغال بعبادة الله تسلياً للعابدين
جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال
تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا
به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا
لتنفنتهم فيه﴾ إلى أن قال: ﴿وأمر أهلك
بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية. «هل
تعلم له سميّاً» أي: هل تعلم الله
مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين.
وهذا استفهام بمعنى الثقي، المعلوم

بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً
ولا مشابهاً، لأنه الرب، وغيره
مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني
من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات
من كل وجه، الكامل الذي له الكمال
المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص
ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله
تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو
المستحق لإفراذه بالعبودية، وأن عبادته
حق، وعبادة ما سواه باطل، فلماذا أمر
بعبادته وحده، والاضطبار لها، وعلل
ذلك بكماله وانفراذه بالعظمة والأسماء
الحسنى.

﴿٦٦-٦٧﴾ «ويقول الإنسان أإذا
مات لسوف أخرج حياً» * أولاً يذكر
الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك
شيئاً* المراد بالإنسان هاهنا، كل منكر
للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول -
مستفهماً على وجه النفي والعناد
والكفر - «أإذا مات لسوف أخرج
حياً». أي: كيف يعيدني الله حياً بعد
الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا
لا يكون ولا يتصور، وهذا بخسب
عقله الفاسد ومقصدته السيئة، وعناده
لرسول الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر،
وتأمل أدنى تأمل، لرأى استنعاذه
للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر
تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً،
يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال:
﴿أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل
ولم يك شيئاً﴾ أي: أولاً يلفت نظره،
ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه
أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على
خلقه من العدم، ولم يكن شيئاً،
مذكوراً، أليس بقادر على إنشائه بعد ما
تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا
كقوله: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم
يعيده وهو أهون عليه».

وفي قوله: «أولاً يذكر الإنسان»
دعوة للنظر، بالدليل العقلي، باللطيف
خطاب، وأن إنكار من أنكّر ذلك،
مبني على غفلة منه عن حاله الأولى،
ولاً فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه،
لم ينكر ذلك.

﴿٦٨-٧٠﴾ «فوريك لنحضرنهم

والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم
جثياً» * ثم لننزعن من كل شيعة أيهم
أشد على الرحمن عتياً * ثم لنحن أعلم
بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أقسم الله
تعالى وهو أصدق القائلين - بربوبيته،
ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم
وشياطينهم فيجتمعهم لميقات يوم
معلوم، «ثم لنحضرنهم حول جهنم
جثياً» أي: جاثين على ركبهم من شدة
الأحوال، وكثرة الزلزال، وفطاعة
الأحوال، منتظرين لحكم الكبير
المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:

﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد
على الرحمن عتياً﴾ أي: ثم لننزعن من
كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين
في الظلم والكفر، والعنوا أشدهم عتواً،
وأعظمهم ظملاً، وأكبرهم كفراً،
فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم
إلى العذاب، الأغلظ إثماً، فالأغلظ،
وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن
بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم
لأولاهم: «ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم
غذاً ضعفاً من النار قال لكل ضعف
ولكن لا تعلمون» * وقالت أولاهم
لأخراهم فما كان لكم علينا من
فضل، وكل هذا تابع لعبدته وحكمته
وعلمه الواسع، ولهذا قال: ﴿ثم
لننحس أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾
أي: علمنا محيط بمن هو أولى صلياً
بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم
واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿٧١-٧٢﴾ «وإن منكم إلا
واردها كان على ربك حتماً مقضياً» *
ثم ينجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها
جثياً﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق،
برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم،
أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار،
حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعد به
عباده، فلا بد من نفوذه، ولا تحيد
عن وقوعه.

واختلف في معنى الورد، فقيل:
ورودها، حضورها للخلائق كلهم،
حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم
يُنْعَد، ينجي الله الثقلين. وقيل:
ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين

برداً وسلاماً. وقيل: الورد، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كمنح البصر، وكالرياح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يحطف فيلقى في النار، كل بخسب تقواه، ولهذا قال: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحذور ﴿ونذر الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فيها جثياً﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم ^(١) الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٧٣-٧٤﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثاً﴾ أي: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أي الفريقين﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خير مقاماً﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وأحسن ندياً﴾ أي: مجلساً. أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة.

والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال

تعالى:

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً﴾ أي: متاعاً، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثاً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثاً ورثاً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب ﴿أفأركم خير من أولئك أم لكم براءة في الزبر؟﴾ وعلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

﴿٧٥﴾ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً حتى إذا رآوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه وسعى فيها، فإن الله يمدد منها، ويزيده فيها خباً، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿حتى إذا رآوا﴾ أي: القائلون: ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ ما يوعدون إما العذاب. يقتل أو غيره ﴿وإما الساعة﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضحكة، ويتقنون أنهم أهل الشر، ﴿وأضعف جنداً﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيحملون غير عملهم الأول. ﴿٧٦﴾ ويزيد الله الذين اهتدوا

هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً﴾ لما ذكر أنه يمد للمظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح، زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً أخرى، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، وبدل عليه قوله تعالى: ﴿ليزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

وبدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت، ثم قال: ﴿والباقيات الصالحات﴾ أي: الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسبيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال خير عند ربك ثواباً وخير مرداً﴾ أي: خير عند الله، ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابها، فإنه ما ثم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع، ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿٧٧-٨٠﴾ أفأرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً * أطلع



باطلة، فقل: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل، والخوف والرجاء، والمحبة والإنابة والدعاء، إلا هو.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسننها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسننها أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسننها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسننها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها، ويحب من يحبها، ويجب من يحفظها، ويجب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها، قال تعالى: ﴿والله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

٩ - ١٢ ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعل آتيكم منها بقبس أو أجده على النار هدى ﴿فلما أتاهم نوري يا موسى﴾ إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستهزاء التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها﴾ هل أتاك حديث موسى ﴿في حاله التي هي مبدأ سعادته، ومنشأ نبوته، أنه رأى ناراً من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه

كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿إلا له الخلق والأمر﴾ وفي قوله: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما﴾ وذلك أنه الخالق الأمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضاً فإن خلقه للخلق فيه التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئاً عبثاً، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان. فلما بين أنه الخالق المدبر، الأمر الناهي، أخبر عن عظمته وكبرائه، فقال: ﴿الرحمن على العرش﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها، ﴿استوى﴾ استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته وجهاله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ﴿له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما﴾ من ملك وإنسي وجني، وحيوان، وجماد، ونبات، ﴿وما تحت الشرى﴾ أي: الأرض، فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مدبرون، مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر﴾ الكلام الخفي ﴿وأخفى﴾ من السر، الذي في القلب، ولم ينطق به، أو السر: ما خطر على القلب. ﴿وأخفى﴾ ما لم يخطر. يعلم تعالى أنه يخطر في وقته، وعلى صفته، المعنى: أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها، وجليلها، خفيها، وظاهرها، فسواء جهرت بقولك أو أسرته، فالكل سواء، بالنسبة لعلمه تعالى.

فلما قرر كماله أطلق، بعموم خلقه، وعموم أمره ونهيه، وعموم رجته، وسعة عظمته، وعلوه على عرشه، وعموم ملكه، وعموم علمه، نتج من ذلك، أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره

السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى * طه * من جملة الحروف المقطعة، المفتحة بها كثير من السور، وليست اسماً للنبي ﷺ، ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين. وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فقلته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة، التي كان مستقراً في عقله حسنهما مجملًا، فوافق التفصيل ما يحده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله ﴿تذكرة﴾ والتذكرة لشيء كان موجوداً، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، وخص بالتذكرة ﴿من يخشى﴾ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، ﴿سيدكر من يخشى﴾ ويتجنبها الأشقى * الذي يصلّي النار الكبرى ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات، المدبر لجميع المخلوقات، أي: فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم.

وكثيراً ما يقرن بين الخلق والأمر،

كليمه موسى لكفى، وقد قال كثير من المفسرين: «إن الله أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمار»، فالله أعلم بذلك.

﴿وَأَنَا اخْشَرْتُكَ﴾ أي: تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فَاسْمَعْ لِمَا يُوْحِي﴾ أي: ألق سمعك للذي أوحى إليك، فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبدئه، وعماد الدعوة الإسلامية، ثم بين الذي يوحى إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا

مثيل ولا كفو ولا سمي، ﴿فَاعْبِدْنِي﴾ بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة، لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح.

وقوله: ﴿لَذِكْرِي﴾ اللام للتعليل أي: أتم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أي: لا بد من وقوعها ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ

لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: تهلك وتشتقى، إن اتبعت طريق من يصد

البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ﴾ أي: أبصرت «ناراً» وكان ذلك في جانب الطور الأيمن، ﴿لَعَلَّ آتِيَكُمْ مِنْهَا بِقُبُسٍ﴾ تصطلون به «أو أجد على النار هدى» أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبه، النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثم النور المعنوي، نور الوحي، الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بباله.

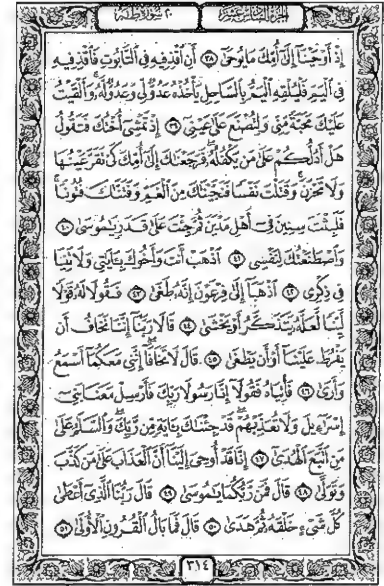
﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النار أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستبعد ويتهيا لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقدسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النار أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستبعد ويتهيا لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقدسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النار أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستبعد ويتهيا لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقدسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النار أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستبعد ويتهيا لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقدسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النار أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستبعد ويتهيا لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقدسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته



﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النار أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستبعد ويتهيا لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقدسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار التي أنساها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النار أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستبعد ويتهيا لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقدسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

عنها، وقوله تعالى:

﴿١٧ - ٢٣﴾ وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * قال فآلقها فإذا هي حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى *.

لما بين الله لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقربه عينه، ويقوى إيمانه، بتأييد الله له على عدوه فقال: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ هذا، مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة، ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخط ونحوه، هش بها، أي: ضرب الشجر، ليتساقط ورقه، فيرعاها الغنم. هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيمة، والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته.

﴿ولي فيها مآرب﴾ أي: مقاصد أخرى غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجابه بعينها، ومنفعتها فقال الله له: ﴿ألقها يا موسى﴾ فآلقها فإذا هي حية تسعى، انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً، فولى موسى هارباً خائفاً، ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى، إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تحييل

لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

فقال الله لموسى: ﴿خذها ولا تخف﴾ أي: ليس عليك منها بأس. ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي: هيئتها وصفتها، إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه - آية، ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أي: أدخل يدك في جيبك، وضم عليك عضدك، الذي هو جناح الإنسان ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي: بياضاً ساطعاً، من غير عيب ولا برص ﴿آية أخرى﴾.

قال الله: ﴿فذاذك برهاتان من ربك إلى فرعون وملئيه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ أي: فعلنا ما ذكرنا، من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى، الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعده الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهاناً لمن أرسلت إليهم.

﴿٢٤ - ٣٦﴾ اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * أشدد به أزري * وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً * قال قد أوتيت سؤالك يا موسى * لما أوحى الله إلى موسى، ونباه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهو للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية.

قبحه الله - أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحداً، إلا بعد قيام الحجة بالرسول، فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل جلا عظيماً، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مضر من الخلق، وموسى عليه السلام، وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي [هي] من تمام الدعوة، فقال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القوي والفعل، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم. ﴿ويسر لي أمري﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن يسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، كما قاله المفسرون، كما قال الله عنه أنه قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ فسأل الله أن يحل منه عقدة، يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني. ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ أي: معيناً^(٢) يعاوانني، ويؤازرن، ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله، لأنه من باب

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في النسختين: عوناً.

الأعداء لله وللموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةَ مَنِيٍّ﴾ فكل من رآه أحبه ﴿وَلَتَصْنَعُ عَلَى عَيْنِي﴾ ولتربي على نظري وفي حفظي وكلاعي، وأي: نظره وكفالة، أجل وأكمل، من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا يتنقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى، ومن حسن تدبيره، أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلقته أمه قلقاً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبته وربط على قلبها، ففي هذه الحالة، حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون ماله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها، مطمئنة ساكنة، قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثدياً، فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ وقللت نفساً وهو القبطي، لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحد من شيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم فر هارباً لما سمع أن الملائ طلبوه، يريدون قتله.

فنجاه الله من الغم من عقوبة الذنب، ومن القتل، ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، ﴿فَلْيَسْتَغْفِرْ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حين فر هارباً من فرعون وملئه، حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين،

لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضاً، أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلاً بحسب حاله، وتعام ذلك، أن يكون لمن هذه صفته، أعوان ووزراء، يساعدونه على مطلوبه، لأن الأصوات إذا كثرت، لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطوها.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم خصوصاً، خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة، فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

﴿٣٧-٤١﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةَ مَنِيٍّ وَلَتَصْنَعُ عَلَى عَيْنِي﴾ إذ عشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقللت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى لما ذكر منته على عبده ورسوله، موسى بن عمران، في الدين، والوحي، والرسالة، وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه، وقت التربية، والتنقلات في أطواره، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ حيث ألهمنا أمك أن تقذفك في التابوت وقت الرضاع، خوفاً من فرعون، لأنه أمر يذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه، وخافت عليه خوفاً شديداً فقذفته في التابوت، ثم قذفته في اليم، أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم، أن يلقه في الساحل، وقيض أن يأخذه، أعدي

البر، وأحق ببر الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ اشد به أزرى أي: قوني به، وشد به ظهري، قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ ﴿وَأُشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أي: في النبوة، بأن تجعله نبياً رسولاً، كما جعلتني.

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال: ﴿كَيْ نَسْجُحَكَ كَثِيرًا وَنَذَكِّرَكَ كَثِيرًا﴾ علم عليه الصلاة والسلام، أن مدار العبادات كلها والدين، على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسييح والتهيل، وغيره من أنواع العبادات.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

فقال الله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسشرح صدرك، وتيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

وهذا السؤال من موسى عليه السلام، يدل على كمال معرفته بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله، المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان^(١)، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام، على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح، يتمكن من التعبير به عن ما يريد ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام، من ألزم ما يكون، لكثرة المراجعات والمراوضات، ول حاجته لتحسين الحق، وتزيينه بما يقدر عليه، ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه،

(١) كذا في ب، وفي أ: عناد وتكبر وطغيان.

﴿ثم جثت على قدر يا موسى﴾ أي: جثت مجتئاً قد مضى به القدر، وعلمه الله وأراد به هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس بجيثك اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام، ولهذا قال: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي، وتربيتي، لتكون لنفسي حبيباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغاً لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم، وإذا كان الحبيب إذا أراد اضطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبذل غاية جهده، ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراد له لنفسه، واصطفاه من خلقه؟!!

﴿٤٢ - ٤٦﴾ ﴿أذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري﴾ * اذهباً إلى فرعون إنه طغى * فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى * قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى﴾ لما امتن الله على موسى بما امتن به، من النعم الدينية والدنيوية قال له:

﴿أذهب أنت وأخوك﴾ هارون ﴿بآياتي﴾ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملأه، ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة ذكري بل استمرا عليه، والزماء كما وعدتما بذلك ﴿كي تسبحك كثيراً وتذكرك كثيراً﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها، ويخفف حملها.

﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: جاوز الحد، في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه.

﴿فقولاً له قولاً لنا﴾ أي: سهلاً لطيفاً، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في

المقال، أو فظاظ في الأفعال، ﴿لعله﴾ بسبب القول اللين ﴿يتذكر﴾ ما ينفعه فيأتيه، ﴿أو يخشى﴾ ما يضره فيتكره، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ * وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ فإن في هذا الكلام، من لطف القول وسهولته، وعدم بشاعته، ما لا يخفى على المتأمل، فيأته أثنى بـ «هل» الدالة على العرض والمشاورة، التي لا يشتمز منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس، التي أصلها التطهر عن الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم، ولم يقل «أزكك» بل قال: «تزكى» أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه، الذي رياه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها، وذكرها فقال: ﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنة بالقلب، علم أنه لا يتنجع فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا، قبل أن تبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة ﴿أو أن يطغى﴾ أي: يتمرد عن الحق، ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه، ﴿قال لا تخافا﴾ أن يفرط عليكما ﴿إني معكما أسمع وأرى﴾ أي: أتما بحفظي ورعايتي، أسمع أقوالكما، وأرى جميع أحوالكما، فلا تخافا منه، فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بوعده ربهما.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئتكم بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾ أي: فأتياه بهذين الأمرين، دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب الشريف بني إسرائيل - من قيده وتعبيده لهم، ليبحروا ويملكوا أمرهم، ويقيم فيهم موسى شرع الله

﴿قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا، قبل أن تبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة ﴿أو أن يطغى﴾ أي: يتمرد عن الحق، ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه، ﴿قال لا تخافا﴾ أن يفرط عليكما ﴿إني معكما أسمع وأرى﴾ أي: أتما بحفظي ورعايتي، أسمع أقوالكما، وأرى جميع أحوالكما، فلا تخافا منه، فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بوعده ربهما.

ودينه.

﴿قد جئتكم بآية﴾ تدل على صدقنا ﴿فألقي موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ إلى آخر ما ذكر الله عنهما. ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ أي: من اتبع الصراط المستقيم، واهتدى بالشرع المبين، حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة.

﴿إنا قد أوحى إلينا﴾ أي: خير من عند الله، لا من عند أنفسنا ﴿أن العذاب على من كذب وتولى﴾ أي: كذب بأخبار الله، وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم يفد فيه هذا الوعد والتذكير، فأنكر ربه وكفر، وجادل في ذلك ظملاً وعداداً.

﴿٤٩ - ٥٥﴾ ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى * الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾



أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فمن ربيكم يا موسى﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح، فقال: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثم هدى﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة^(١) المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيمن من العقل، ما يتمكن^(٢) به على ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ فالذي خلق المخلوقات، وأعطاه خلقها الحسن، الذي لا تقتصر العقول فوق حسنه، وهبها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجوداً، وهو ميكابة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا

(١) في ب: الكاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ما يتمكن.

الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود فقال لموسى: ﴿فما بال القرون الأولى﴾ أي: ما شأنهم وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟ فقال موسى: ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً، فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فذلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناكها، قد تحققت صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدل بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلاً، ما دام اللوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدتها مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال موسى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض، ثم استطرد في هذا الدليل القاطع، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ أي: فرأشاً بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للزادراغ وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها محتعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتنفعون بأسفارهم، أكثر مما يتفنون بإقامتهم.

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ أي: أنزل المطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنبث بذلك جميع أصناف النوايت على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان، ولهذا قال: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوايت الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضراً، كالسوم ونحوه.

﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتبام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحبي الموتى.

وخض الله أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة: ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾.

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن

شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها ياذن ربها، تخرج الثبات المختلف الأنواع، أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليلان على إعادة عقليان واضحيان: إخراج الثبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿٥٦ - ٦١﴾ * ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى * قال أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى * فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم ضحى * فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى * قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري * يخبر تعالى، أنه أرى فرعون من الآيات والعجز والقواطع، جميع أنواعها العيانة، والأفقية والنفسية، فما استقام ولا ازعوى، وإنما كذب وتولى، كذب الخبز، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس، فقال: ﴿أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى، سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليعنضوه، ويسعوا في محاربتة، فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا، واجعل لنا موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى * أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً، ليتمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: ﴿موعدكم يوم

الزينة﴾ وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿وأن يحشركم الناس ضحى﴾ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره، ﴿فتولى فرعون فجمع كيدته﴾ أي: جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشركم السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه علماً مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملا، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضروا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: ﴿هل أنتم مجتمعون﴾ * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظمهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب﴾ أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويغيب سعيكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله، وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن، ما تم أمرهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ﴿لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم، والنجوى التي أسروها فسرّها بقوله: ﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن

يخرجاك من أرضك من أرضكم بسحرهما﴾ كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته، التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿ويذهب بطريقتكم المثل﴾ أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتكم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرئاسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا: ﴿فاجمعوا كيدكم﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم، ﴿ثم اتفوا صفاً﴾ ليكون أسكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، وكثلاً يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام، فله دهره ما أصليهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب ووسيلة ويمكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي عصاك﴾ وإما أن تكون أول من ألقى خيره، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي: حالة كانت، فقال لهم موسى: ﴿بل ألقوا﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم، ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه﴾ أي: إلى موسى ﴿من سحرهم﴾ البالغ ﴿أنها تسمى﴾ أي: أنها حيات تسخى فلما خيل إلى موسى ذلك، ﴿أوجس في نفسه خيفة موسى﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعده الله ونصره، ﴿قلنا﴾ له تثبيتاً وتطميناً: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويدلوا

لك ويخضعوا.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك
﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ
سَاحِرٌ وَلَا يُفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾
أي: كيدهم ومكرهم، ليس بمثير لهم
ولا ناجح، فإنه من كيد السحرة،
الذين يموهون على الناس، ويلبسون
الباطل، ويخيلون أنهم على الحق،
فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا
كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك
الصنيع، فعلم السحرة علماً يقيناً أن
هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا
للإيمان.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾
فوقع الحق وظهر وسطه، وبطل
السحر والمكر والكيد، في ذلك المجمع
العظيم.

فصارت بينة ورحمة للمؤمنين،
وحجة على المعاندين في ﴿قَالَ﴾ فرعون
للسحرة: ﴿أَمْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ﴾
أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون
مراجعة مني ولا إذن؟

استغرب ذلك منهم، لأدبهم معه،
وذلهم، وانقيادهم له في كل أمر من
أمرهم، وجعل هذا من ذاك.

ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه
بعد هذا البرهان، واستخف عقول
قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من
موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه
الحق، بل لأنه تعالى هو والسحرة،
ومكروا، ودبروا أن يخرجوا فرعون
وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا
المكر منه، وظنوه صدقاً ﴿فَاسْتَخَفَّ
قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾
مع أن هذه المقالة التي قالها، لا تدخل
عقل من له أدنى مسكة من عقل
ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من
مدین وحيداً، وحين أتى لم يجمع بأحد
من السحرة ولا غيرهم، بل يبادر إلى
دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات،
فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به
موسى فسعى ما أمكنه، وأرسل في
مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم
فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر

والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية
الحرص، وكادوا أشد الكيد، على
غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان،
فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن
يكونوا دبرواهم وموسى وانفقوا على
ما صدر؟ هذا من أحمل الحال، ثم
توعد فرعون السحرة فقال: ﴿فَلَا تَقْطَعْنَ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾
كما يفعل بالمحارب الساعي
بالفساد، يقطع يده اليمنى، ورجله
اليسرى، ﴿وَلَا تَصْلِبْنَكُمْ فَنِيَّ جُلُودِ
النَّخْلِ﴾ أي: لأجل أن تستهزوا
وتحتزوا، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه
أشد عذاباً من الله وأبقى، قلباً
للحقائق، وترهيباً لمن لا عقل له.

ولهذا لما عرف السحرة الحق،
ورزقهم الله من العقل ما يدركون به
الحقائق، أجابوه بقولهم:

﴿لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نخشاك وما وعدتنا
به من الأجر والتقريب، على ما أرانا الله
من الآيات البينات الدالات على أن الله
هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل
وحده، وأن ما سواه باطل، ونوثرك
على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون
﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به
من القطع، والصلب، والعذاب.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾
أي: إنما توعدنا به غاية ما يكون في
هذه الحياة الدنيا، ينقضي ويزول ولا
يضرنا، بخلاف عذاب الله، لمن استمر
على كفره، فإنه دائم عظيم.

وهذا كأنه جواب منهم، لقوله:
﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وفي
هذا الكلام، من السحرة، دليل على أنه
ينبغي للعاقل، أن يوازن بين لذات
الدنيا، ولذات الآخرة، وبين عذاب
الدنيا، وعذاب الآخرة.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾
أي: كفرنا ومعاصينا، فإن الإيمان
مكفر للسيئات، والتوبة تحب ما قبلها،
وقولهم، ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ
السَّحَرِ﴾ الذي عارضنا به الحق، هذا
دليل على أنهم غير مختارين في عملهم

المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهاً.
والظاهر - والله أعلم - أن موسى
لما وعظهم كما تقدم في قوله: ﴿وَيَلِكُمْ
لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَطَكُمْ
بِعَذَابٍ أَثَرُ مَعَهُمْ﴾، ووقع منهم مرقعاً
كثيراً، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام
والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك،
وأكرههم على المكر الذي أجروه،
ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل
إتيانهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَانِ
لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ
أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا﴾ فجروا على ما سئلهم،
وأكرههم عليه، ولعل هذه النكتة
التي قامت بقلوبهم من كراهتهم
لمعارضته الحق بالباطل وفعلهم، ما
فعلوا على وجه الإغماض، هي التي
أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها،
ووقفهم للإيمان والتوبة، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾
وما وعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه،
وأبقى ثواباً وإحساناً لا ما يقول
فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى﴾ يريد أنه أشد عذاباً وأبقى.
وجميع ما أتى من قصص موسى مع
فرعون، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة
السحرة، أن فرعون توعدهم بالقطع
والصلب، ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم
يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم
بوقوعه أو عدمه، يتوقف على الدليل،
والله أعلم بذلك وغيره، ولكن توعدنا
إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على
وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله،
ولاتفاق الناقلين على ذلك.

﴿٧٤ - ٧٦﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِ
مَجْرماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحْيَا﴾ ومن ياتيه مؤمناً قد عمل
الصالحات فأولئك لهم الدرجات
العليى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ
تَزَكَّى﴾ يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم
عليه مجرماً - أي: وصفه الجرم من كل
وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر
على ذلك حتى مات، فإن له نار
جهنم، الشديد نكالها، العظيمة
أغللالها، البعيد قعرها، الأليم حرها
وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب

الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن العذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محسوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتقر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم، إذا استغاث، أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإن دعا، أجيب بـ ﴿أخسروا فيها ولا تكلمون﴾. ومن يأت ربه مؤمناً به مصداقاً لرسله، متبعاً لكتبه ﴿قد عمل الصالحات﴾ الواجبة والمستحبة، ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ أي: المنازل العالية، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وذلك الثواب﴾، جزاء من تركي أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلفة، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضاً نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التثنية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة، لهذين الأمرين.

﴿٧٧-٧٩﴾ ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر عبادي فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى * لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوه إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا

في القرآن، وينو إسرائيل لا يقدرون أن يظهروا إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عذوبهم، ويمكن لهم في الأرض ليعبدوه جهرًا، وقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى^(١)، أن يزر أو سيروا أول الليل، ليتمادوا^(٢) في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل هم ونساءهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا محجب، فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المداين، من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل ليوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فصار بهم يتبع بني إسرائيل، فأتبعوهم مشرقين، ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظاً وحنقاً، وموسى مطمئن القلب، ساكن البال، قد وثق بوعد ربه، فقال: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، ففصره، فانفرد اثني عشر طريقاً، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين الطرق ويسارها، وأيس الله طرقهم التي انفرد عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد، وينو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله آعينهم بهلاكه^(٣). وهذا عاقبة الكفر

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل ويبدو أنها مشطوبة في أ.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بهلاكهم.



والضلال، وعدم الاهتداء بهدي الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه بإيهم، وما هدهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال.

﴿٨٠-٨٢﴾ ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناك من عدوكم وواعدناك بجانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يجلل عليه غضبي فقد هوى * وإني لغفار لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ يذكّر تعالى بني إسرائيل بمنّة العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعدته لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب، الذي فيه الأحكام الخلية، والأخبار الجميلة، بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضاً عليهم في التيه، بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: واشكروه على ما

ولا تحاف، ولا يدعى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿٩٩-١٠١﴾ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة خلا * يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم عن دراهم، فأخبارك بالحق اليقين من أخبارهم، دليل على أنك رسول الله حقاً، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وقد آتيناك من لدنا﴾ أي: عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا. ﴿ذكر﴾ وهو هذا القرآن الكريم، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكراً للرسول ولأمته، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يستدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابلته بالأعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه﴾ فلم يؤمن به، أو هاون بأوامره ونواهي، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فإنه﴾ يحمل يوم القيامة وزراً. وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران، ﴿خالدين فيه﴾ أي:

يا سامري * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي * قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى الهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفته في اليم نسفاً * أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟ فقال: ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ وهو جبريل عليه السلام، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه، فنبذتها على العجل، ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿فاذهب﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يلدن منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد، ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ فتجاوزي بعملك، من خير وشر، ﴿وانظر إلى الهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي: العجل ﴿لنحرقنه ثم لننسفته في اليم نسفاً﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلهاً، لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذربه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى ذاع إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿٩٨﴾ ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يحب، ولا يَرْجى

على بعض الأشياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

﴿٩٠-٩٤﴾ ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبين أفعصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ أي: إن اتخاذهم العجل، ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته، فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربهم الرحمن، الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنعم وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾

فأقبل موسى على أخيه لاثماً له، وقال: ﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبين﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟ ﴿أفعصيت أمري﴾ في قولي ﴿أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع نسيب المتسدين﴾.

فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يحره من الغضب والعتب عليه، فقال هارون: ﴿يا ابن أم﴾ ترقيق له، وإلا فهو شقيقه ﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك، لشركت ما أمرتني بلزومه وخشيت لا تمتك، و ﴿أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء، فنندم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق لذلك ف ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ ثم أقبل على السامري.

﴿٩٥-٩٧﴾ ف ﴿قال فما خطبك

في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وساء لهم يوم القيامة جهلاً﴾ أي: يئس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأحواله فقال:

﴿١٠٢-١٠٤﴾ «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً* يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً* نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً»

أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كُلُّ على حسب حاله، فالتقون يحشرون إلى الرحمن وفداً، والمجرمون يحشرون زرقاً ألوانهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إن لبثتم إلا يوماً»

والمقصود من هذا، الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوا ساهمين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فما قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾

﴿١٠٥-١١٢﴾ «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً* فيذرها قاعاً صفصفاً* لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً* يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً* يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً* وعنت الوجوه

للحجي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً* ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً* يخبر تعالى عن أحوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثاً، فتضمحل وتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعاً صفصفاً، مستوياً لا ترى فيه أيها الناظر عوجاً، هذا من تمام استوائها ﴿ولا أمناً﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة تبرز الأرض، وتوسع للخلائق، ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوه الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لا عوج له﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً، لجميع الخلق، يسمعون جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافة سراً بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم، أي: تذلل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبطارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يندرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا

يفعل به، قد اشتغل كُلُّ بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحببيه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فحيثُ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحيم الرحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه [فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة]^(١)، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما تعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، وما نشأه في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ مع قوله ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ مع قوله ﷺ: ﴿إن لله مئة رحمة، أنزل لعباده رحمة، بها يتراحون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع جافرها عن ولدها خشية أن تطأه﴾ أي: - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضمَّ هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد».

مع قوله ﷺ: ﴿لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها﴾، فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجَلَّ من غيبي عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا

وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين، يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقيدها.

«ونحشره» أي: هذا المعرض عن ذكر ربه «يوم القيامة أعمى» البصر على الصحيح، كما قال تعالى: «ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً».

قال على وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: «رب لم حشرتني أعمى وقد كنت في دار الدنيا بصيراً» فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة، «قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها» بإعراضك عنها «وكذلك اليوم تنسى» أي: تترك في العذاب، فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وعشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فنحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب، «وكذلك» أي: هذا الجزاء «نحزبه» من أسرف بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له «ولم يؤمن بآيات ربه» الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه.

«ولعذاب الآخرة أشد» من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة «وأبقى» لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

«١٢٨» «أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهي» أي: أفلم يهد هؤلاء المكذبين المعرضين،

ويدهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتابعة، الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم؟

فما الذي يؤمن هؤلاء، أن يحل بهم، ما حل بأولئك؟ «أفكاركم خير من أولكم أم لكم براءة في الزبر» أم يقولون نخزن جميع منتصر لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار، خيراً من أولئك، حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة عزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون أن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحق من ذلك، فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم، من أسباب الهداية، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاؤوهم، وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهي، أي: العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

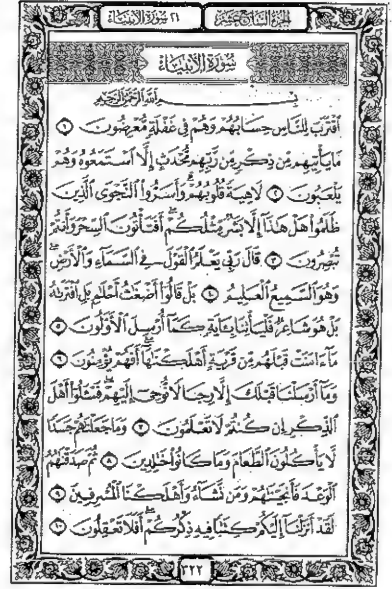
«١٢٩ - ١٣٠» «ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى» فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسيح وأطراف النهار لعنك ترضى» هذا تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لخلول العذاب بهم، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات سبباً وناشئاً عن الذنوب، ملازماً لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ

كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إيان وقتها، ولعلمهم يراجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحق عليهم الكلمة.

ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه، في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس وغروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، لعنك إن فعلت ذلك، ترضى بما يعطيك ربك من الشواب العاجل والأجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتسلمي بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر.

«١٣١» «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى» أي: لا تمد عينيك معجباً، ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والمستعين بها، من المأكول والمشرب واللذية، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملات، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس الغفريين، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين، ويتمتع بها - بقطع النظر عن الآخرة - القوم الظالمون، ثم تذهب سريعاً، وتمضي جميعاً، وتقتل





بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿واصطبر عليها﴾ أي: على الصلاة

بإقامتها، بحدودها وأركانها وأدائها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال:

﴿نحن نرزقك﴾ أي: رزقك علينا

قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿والعاقبة﴾ في الدنيا والآخرة ﴿للمتقوى﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٥﴾ ﴿وقالوا لولا

يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ ولولا أن أهلكتهم بعباد من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا إليك رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ قل كل متريص فتريصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اعتدى﴾ أي: قال الكذبيون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى

تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها فتجيراً﴾ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾.

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم،

ولأن^(١) قولهم: ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات، والآيات القاهرات، ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أولم تأتهم﴾ إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله، ﴿بينة ما في الصحف الأولى﴾ أي: هذا القرآن العظيم، المصدق لما في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقولہ تعالى:

﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا ينتفعون بها، ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب ﴿وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لولا أرسلنا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ بالعقوبة، فهذا جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون، فصدقوه.

قل يا محمد مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المتون ﴿قل كل متريص﴾ فتريصوا بي الموت، وأنا أتريص بكم العذاب ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ أي: الظفر أو الشهادة ﴿ونحن نتريص بكم أن يصيبكم الله بحذاب من عنده أو

عصبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختباراً، ليعلم من يقف عندها ويعتبر بها، ومن هو أحسن عملاً، كما قال تعالى: ﴿إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً.

﴿ورزق ربك﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والأجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خير﴾ مما متعنا به أزواجاً، في ذاته وصفاته ﴿وأبقى﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها، كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ والآخرة خير وأبقى.

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها، أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿١٣٢﴾ ﴿وأمر أهلك بالصلاة

واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى﴾ أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً

بأيدينا». «فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي» أي: المستقيمين، «ومن اهتدى» بسلوكه، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه، والله أعلم.

تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام، وهي مكية

١ - ٤ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْتَرِبْ لِلنَّاسِ حِسَابِهِمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَاوُ الشَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرِ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * هَذَا تَعْجَبُ مِنْ حَالَةِ النَّاسِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْجَعُ فِيهِمْ تَذْكِيرٌ، وَلَا يَرْعَوْنَ إِلَى تَنْذِيرٍ، وَأَنَّهُمْ قَدْ قَرَّبَ حِسَابَهُمْ، وَجَازَاهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ وَالظَّالِحَةِ، وَحَالُ أَنَّهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ، أَي: غَفْلَةٌ عَمَّا خَلَقُوا لَهُ، وَإِعْرَاضٌ عَمَّا زَجَرُوا بِهِ. كَأَنَّهُمْ لِلدُّنْيَا خَلَقُوا، وَلِلْمَتَاعِ بِهَا وَلِدُوا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَزِيلُ بِحُجْدِهِمُ التَّذْكِيرَ وَالْوَعْظَ، وَلَا يَزَالُونَ فِي غَفْلَتِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ يَذْكُرُهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَحْشُهُمْ عَلَيْهِ وَمَا يَضُرُّهُمْ، وَيَرْهَبُهُمْ مِنْهُ ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ سَمَاعًا، تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْحُجَّةُ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ * أَي: قُلُوبُهُمْ غَافِلَةٌ مُعْرِضَةٌ لَاهِيَةٌ بِمَطَالِبِهَا الدُّنْيَوِيَّةِ، وَأَيْدِيهِمْ لَاعِبَةٌ، قَدْ اسْتَغْلَوْا بِتَنَازُلِ الشَّهَوَاتِ وَالْعَمَلِ بِالْبَاطِلِ، وَالْأَقْوَالِ الرَّدِيَّةِ، مَعَ أَنَّ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا بِغَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ، تَقْبِلُ قُلُوبُهُمْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، وَتَسْتَمِعُهُ اسْتِمَاعًا، تَفْقَهُ الْمُرَادَ مِنْهُ، وَتَسْعَى جَوَارِحُهُمْ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، الَّتِي خَلَقُوا لِأَجْلِهَا،

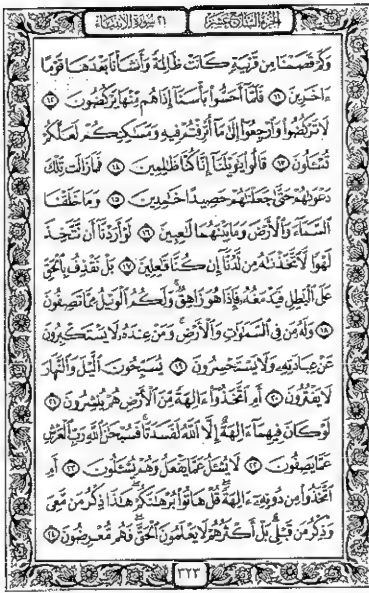
وَيَجْعَلُونَ الْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ مِنْهُمْ عَلَى بَالٍ، فَبِذَلِكَ يَتِمُّ لَهُمْ أَمْرُهُمْ، وَتُسْتَقِيمُ أَحْوَالُهُمْ، وَتَزْكُو أَعْمَالُهُمْ، وَفِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿اقْتَرِبْ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ هِيَ آخِرُ الْأُمَمِ، وَرَسُولُهَا آخِرُ الرُّسُلِ، وَعَلَى أُمَّتِهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، فَقَدْ قَرَّبَ الْحِسَابَ مِنْهَا بِالنِّسْبَةِ لِمَا قَبِلَهَا مِنَ الْأُمَمِ، لِقَوْلِهِ ﷺ «بَعَثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وَقَرَنَ بَيْنَ إِصْبَعِيهِ، السَّبَابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا.

والقول الثاني: أَنَّ الْمُرَادَ بِقَرَّبِ الْحِسَابِ الْمَوْتَ، وَأَنَّ مِنْ مَاتَ، قَامَتْ قِيَامَتُهُ، وَدَخَلَ فِي دَارِ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَأَنَّ هَذَا تَعْجَبُ مِنْ كُلِّ غَافِلٍ مُعْرِضٍ، لَا يَدْرِي مَتَى يَفْجُوهُ الْمَوْتُ، صَبَاحًا أَوْ مَسَاءً، فَهَذِهِ حَالَةُ النَّاسِ كُلِّهِمْ، إِلَّا مَنْ أَدْرَكَتْهُ الْعَنَاءَةُ الرَّبَّانِيَّةُ، فَاسْتَعَدَّ لِلْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَتَنَاجَى بِهِ الْكَافِرُونَ الظَّالِمُونَ عَلَى وَجْهِ الْعِنَادِ، وَمُقَابِلَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَأَنَّهُمْ تَنَاجَوْا، وَتَوَاطَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ، أَنْ يَقُولُوا فِي الرَّسُولِ ﷺ إِنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فَمَا الَّذِي فَضَّلَهُ عَلَيْكُمْ، وَخَصَّهُ مِنْ بَيْنَكُمْ، فَلَوْ ادَّعَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِثْلَ دَعْوَاهُ، لَكَانَ قَوْلُهُ مِنْ جِنْسٍ قَوْلِهِ، وَلَكِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُفَضِّلَ عَلَيْكُمْ، وَيُرَاسَ فَيْكُمْ، فَلَا تَطْغِيهِمْ، وَلَا تُصَدِّقُوهُ، وَأَنَّهُ سَاحِرٌ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْقُرْآنِ سِحْرٌ، فَانْفَرُوا عَنْهُ، وَنَفَرُوا النَّاسُ، وَقُولُوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرِ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ هَذَا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا بِمَا شَاهَدُوا^(١) مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ مَا لَمْ يَشَاهِدْ غَيْرُهُمْ، وَلَكِنْ جَلَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ الشَّقَاءِ وَالظُّلْمِ وَالْعِنَادِ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَا تَنَاجَوْا بِهِ، وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ أَي: الْخَفِيِّ وَالْجَلِيِّ ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ مَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ أَقْطَارُهَا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِسَائِرِ الْأَصْوَاتِ، بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، عَلَى تَفْتِنِ الْحَاجَاتِ ﴿وَالْعَلِيمُ﴾ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ، وَأَكْتَنَتِ

(٢) فِي ب: تَقُولُوهُ فِيهِ.

(١) فِي ب: بِمَا يَشَاهِدُونَ.

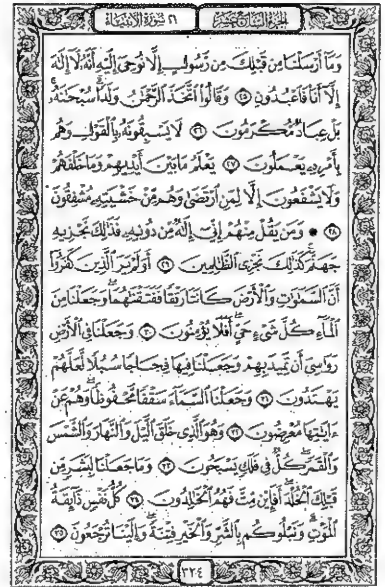


السرائر.

٥ - ٦ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ

أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ قُرْيَةٍ أُهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يَوْمَتُونَ * يَذْكُرُ تَعَالَى انْتِفَاكُ الْمَكْذِبِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُمْ سَفَهُوهُ^(٢)، وَقَالُوا فِيهِ الْأَقْوَالُ الْبَاطِلَةُ الْمُخْتَلَفَةُ، فَتَارَةً يَقُولُونَ: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ بِمَنْزِلَةِ كَلَامِ النَّائِمِ الْهَازِي، الَّذِي لَا يَحْسُ بِمَا يَقُولُ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وَاخْتَلَقَهُ وَقَوْلُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: إِنَّهُ شَاعِرٌ وَمَا جَاءَ بِهِ شَعْرٌ.

وَكُلٌّ مِنْ لَهُ أَدْنَى مَعْرِفَةٍ بِالْوَاقِعِ، مِنْ حَالَةِ الرُّسُولِ، وَنَظَرُ فِي هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ، جَزْمٌ جَزْمًا لَا يَقْبَلُ الشَّكَّ، أَنَّهُ أَجَلُ الْكَلَامِ وَأَعْلَاهُ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ بَعْضِهِ، كَمَا تَحْدَى اللَّهُ أَعْدَاءَهُ بِذَلِكَ، لِيَعَارِضُوا مَعَ تَوْفُرِ دَوَاعِيهِمْ لِمُعَارَضَتِهِ وَعِدَاوَتِهِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ مُعَارَضَتِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ. وَإِلَّا فَمَا الَّذِي أَقَامَهُمْ وَأَعَدَّهُمْ وَأَقْضَى مُضَاجِعَهُمْ وَبَلَّلَ أَلْسِنَتَهُمْ إِلَّا الْحَقُّ الَّذِي لَا يَقْرُمُ لَهُ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِيهِ - حَيْثُ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ - تَنْفِيرًا عَنْهُ لَمْ



يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كاف شاف، فمن طلب دليلاً غيره، أو اقترح آية من الآيات سواء، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من آيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة، لأنهم إن كان^(١) قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة - على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات - لا يؤمنون قطعاً، فلو جاءهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: كمناسبة صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك، قال الله: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة. فالأولون ما آمنوا بها، أفؤمن هؤلاء بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك، وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم

(١) كذا في ب، وفي أ: كانوا.

(٢) في ب: من أهل.

الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبينا عليهم ما يلبسون.

وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ من الكتب السالفة، كآهل التوراة والإنجيل، يخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم يشر من جنس المرسل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر^(١)، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبي، لا مريم ولا غيرها، لقوله ﴿إِلَّا رَجَالاً﴾.

﴿١٠﴾ ﴿لَقَدْ أُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لقد أنزلنا إليكم - أيها المرسل إليهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - كتاباً جليلاً، وقرأنا ميماً ﴿فيه ذكركم﴾ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكروا به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدوها، وامثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من التواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم، ﴿أفلا تعقلون﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا

أبداً. ﴿٧-٩﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالاً نُوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين * هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلاً كان ملكاً، لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلاً كان خالداً؟ فإذا لم يكن كذلك، دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسول، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بآيات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته - بأن الرسل قبل محمد ﷺ، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يُقرُّ بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقرؤا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكاً مخلداً، لا يأكل الطعام، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ

الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها .

﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ * وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحشرون * يستبحون الليل والنهار لا يفترون * يخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجوده، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فإذا هو زاهق﴾ * أي : مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة الله، من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد .

وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدها كذلك ثم قال : ﴿ولكم﴾ أيها الواصفون الله، بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون ﴿الويل﴾ والندامة والخسران .

ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان، ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة، وكيف يجعل الله منها ولداً؟ فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال : ﴿ومن عنده﴾ أي : من الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحشرون﴾ * أي : لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة

معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقاً، مسؤولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزمهم وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟

ولهذا ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ * فما زالت تلك دعواهم أي : الدعاء بالويل والشبور والندم، والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم، ﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ * أي : بمنزلة النبات الذي قد حصد وأيسم، قد خدحت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك .

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لابين﴾ * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ * يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قوله، الصادقة رسله فيما يخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمتهم، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته .

﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ أي : من عندنا ﴿إن كنا فاعلين﴾ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا نحب أن نريه إياكم، فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث والهوى، كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة، فسبحان الخليم الرحيم،

السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخسرتكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيها، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي : رجيح .

وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشفق على الملوك، ما هو أमز معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يهتد به ويترك به، من المقت والضعفة والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب .

﴿١١ - ١٥﴾ ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ * فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ * قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ * يقول تعالى - محذراً لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل - ﴿وكم قصصنا﴾ أي : أهلكنا بعدذاب مستأصل ﴿من قرية﴾ تلفت عن آخرها ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ * وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعدذاب الله وعقابه، وبأشرفهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندماً وقلقاً، وتحسراً على ما فعلوا وهربوا من وقوعه، فقل لهم على وجه التهكم بهم : ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم به ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ * أي : لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه، من اللذات والمشتهيات، ومساكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، وللذات جاني، وفي منازلكم مطمئنين

أبدانهم. ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها ولا خال منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمتهم وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُصرف العبادة لغيره.

﴿٢١-٢٥﴾ ﴿أما اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسيحان الله رب العرش عما يصفون. لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ﴿أما اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون. لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هم ينشرون﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرُونَ على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون﴾ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون. فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله ويديه الأمر والنفع والضر، وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظه، وتوهم جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود، إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد إلا برب واحد.

ولهذا قال: ﴿لو كان فيهما﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿آلهة إلا الله لفسدنا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما، من المخلوقات. وبيان ذلك: أن العالم العلوي

والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير مانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه﴾ الله عما يصفون.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. ولهذا قال هنا: ﴿فسبحان الله﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رب العرش﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبية^(١) ما دونه من باب أولى، ﴿عما يصفون﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه. ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا يقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وهم﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يسألون﴾ عن أفعالهم وأقوالهم،

لعجزهم وفقهرهم، ولكنهم عبيداً، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أما اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلته العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها، برهان وأدلة لما قلت.

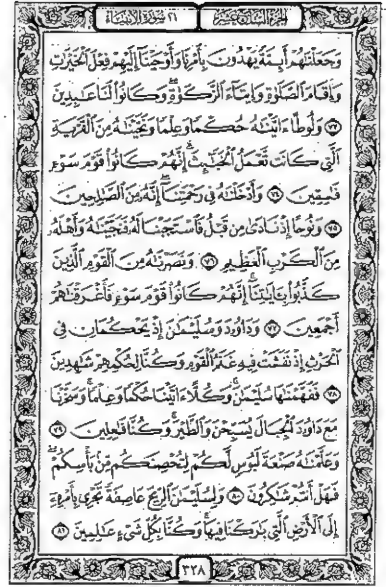
ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع، يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني عن الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لخفاؤه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفقوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فهم معرضون﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بيّنها أتم تبين في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فكل الرسل، الذين من قبلك مع كتبهم، زينة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿٢٦-٢٩﴾ ﴿قالوا اتخذ الرحمن

(١) في النسختين: فربوبيته.



والسبب، «فلا تظلم نفس» مسلمة أو كافرة «شيئاً» بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها.

«وإن كان مثقال حبة من خردل» التي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر «أتينا بها» وأحضرناها، ليجازي بها صاحبها، كقوله: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وقالوا «يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً».

«وكفى بنا حاسبين» يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسباً، أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبِتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

«٤٨ - ٥٠» «ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وللمتقين» الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون * كثيراً ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يترك العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكراً، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبياناً لهما التوراة

والقرآن^(١)، فأخبر أنه أتى موسى أصلاً، وهارون تبعاً «الفرقان» وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها «ضياء» أي: نور يهدي به المهتدون، ويأتهم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية، «وذكراً للمتقين» يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكرون به الخير والشر، وخص «المتقين» بالذكر، لأنهم المتفكرون بذلك، علماً وعملاً، ثم فسر المتقين فقال: «الذين يخشون ربهم بالغيب» أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما أئزم، «وهم من الساعة مشفقون» أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

«وهذا» أي: القرآن «ذكر مبارك أنزلناه» فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكراً يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكراً، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً، وكونه «مباركاً» يقتضي كثرة خيراته^(٢) ونماها وزادها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكراً مباركاً، وجب تلقيه بالقبول

والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به، فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: «أفأنتم له منكرون».

«٥١ - ٧٣» «ولقد أتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاين» إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: «وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين» لما ذكر تعالى موسى وعهداً صلى الله عليهما وسلم وكتابهما، قال: «ولقد أتينا إبراهيم رشده من قبل» أي: من قبل إرسال موسى وعهد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحداً من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشداً بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. «وكنا به عاين» أي: أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلعة، واصطبقناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفاه له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر حاجته لقومه، ونهيهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة، فقال: «إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل» التي مثلتموها، نحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات «التي أنتم لها عاكفون» مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي: فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيت أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجايب، تعبدون ما تحتون.

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في النسختين خيره، وغيرت الكلمة لتوافق مع الضمائر التي بعدها.

عبادة الخالق الرازي المديري؟

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاؤوا به معصوم، لا يغلط ولا يغير بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم، شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلماذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿من الشاهدين﴾ وأي: شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيداً يحصل به إقرارهم بذلك فلماذا قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَا أَكِيدُنَ أَصْنَانَكُمْ﴾ أي: أكسرها على وجه الكيد ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية ﴿فجعلهم جذاذاً﴾ أي: كسراً وقطعاً، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، ﴿إلا كبيراً لهم﴾ أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سببته، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل عمقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: ﴿إلى عظيم الفرس﴾ إلى عظيم الروم ونحو ذلك، ولم يقل ﴿إلى العظيم﴾، وهنا قال تعالى: ﴿إلا كبيراً لهم﴾ ولم يقل: ﴿كبيراً من أصنامهم﴾، فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستعملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾ فرموا إبراهيم

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وجدنا آباءنا﴾ كذلك يفعلون، فسلكتنا سبلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا يجوز به القدوة، خصوصاً في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضملاً للجميع: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي: ضلال أبغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟! أي: فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد، ﴿قالوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم وتسفيه آبائهم: ﴿أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعين﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا، كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم رداً بين به وجه سفههم وقلة عقولهم فقال: ﴿بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق موطوراً مديراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويدع

بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾ أي: يعيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يقال له إبراهيم﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قالوا فأتوا به﴾ أي: بإبراهيم ﴿على عين الناس﴾ أي: بمرأى منهم وسميع ﴿لعلهم يشهدون﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم الناس ضحى﴾ فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أأنت فعلت هذا﴾ أي: التكسير ﴿بالهتنا يا إبراهيم؟﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ أي: كسرها غضباً عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وأراد الأصنام المكسرة، أسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، أسألوه لأي: شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنص نفسها عن يريدها بأذى.

﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمته

﴿٧٤-٧٥﴾ «ولوطاً أتيناها حكماً وعِلْماً ونَجِّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين» * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴿٧٥﴾ هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والساد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم، لأنهم «قوم سوء فاسقين» كذبوا الداعي، وتوعده بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم وميته.

﴿٧٦﴾ «وأدخلناه في رحمتنا» التي من دخلها، كان من الأمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور ونساء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصالح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لجرماته الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: «وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين»

﴿٧٦-٧٧﴾ «ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيمة» * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴿٧٧﴾ وأذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويُبَيِّن فيهم ويعيد، ويدعوهم سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، فلما رأهم لا ينجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ * إنك إن تذرهم

هو العزيز الحكيم ﴿٧٧﴾ ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوت الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس. ﴿ووهبنا له﴾ حين اعتزل قومه ﴿إسحاق ويعقوب﴾ ابن إسحق ﴿نافلة﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين. ﴿وكلاً﴾ من إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴿جعلنا صالحين﴾ أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرهم بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿واقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وكانوا لنا﴾ أي: لا نغيرنا ﴿عابدين﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقانهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

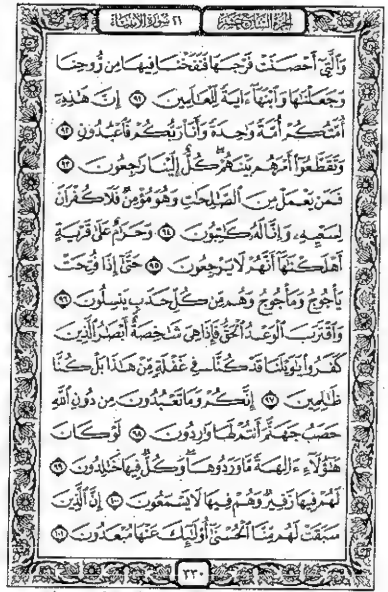
الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن «نكسوا على رؤوسهم» أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحوالهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تهكم بنا وتستعزى بنا وتأمرا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلنًا بشركهم على رؤوس الأشهاد، ومبينًا عدم استحقاق الكهنة للعبادة -: ﴿أنتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ فلا نفع ولا دفع، ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل، وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

فحيثما لما أفضهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ف﴿قالوا حرِّقوه وانصروا آلهم﴾ إن كنتم فاعلين ﴿أي: اقتلوه﴾ أشنع القتلات، بالإحراق، غضباً لآلهتهم، ونصرة لها. فتعساً لهم تعساً، حيث عبدوا من أفرأ أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ فكانت عليه برداً وسلاماً، لم يتله فيها أذى، ولا أحس بمكره.

﴿وأرادوا به كيداً﴾ حيث عزموا على إحراقه، ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه هم الراجحين المفلحين.

﴿ونجيناه ووطاً﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فتجاه الله، وهاجر ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق، «وقال إني مهاجر إلى ربي إنه



ربه أني مسني الضر وأنت أرحم
الراحمين * فاستجبنا له ونفذنا ما به
من ضر وأتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة
من عندنا وذكرى للعابدين * أي :
واذكر عبدنا ورسولنا أيوب - مثنياً
معظماً له، رافعاً لقدره - حين ابتلاه
ببلاء شديد، فوجهه صابراً راضياً عنه،
وذلك أن الشيطان سلط على جسده،
ابتلاء من الله وامتحاناً، فنفخ في
جسده، ففترجح قروحاً عظيمة، ومكث
مدة طويلة، واشتد به البلاء، وماتت
أهله، وذهب ماله، فنادى ربه : رب
﴿أني مسني الضر وأنت أرحم
الراحمين﴾ فتوسل إلى الله بالإخبار عن
حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل
مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة
فاستجاب الله له، وقال له : ﴿اركض
برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾
فركض برجله، فخرجت من ركضته
عين ماء باردة، فاغتسل منها وشرب،
فأذهب الله ما به من الأذى، ﴿وأتيناه
أهله﴾ أي : ردنا عليه أهله وماله .
﴿ومثلهم معهم﴾ بأن منحه الله مع
العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً،
﴿رحمة من عندنا﴾ به، حيث صبر
ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل
ثواب الآخرة .
﴿وذكرى للعابدين﴾ أي : جعلناه

عبرة للعابدين، الذين ينتفعون بالعبء،
فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما
أثابه الله بعد زواله، ونظروا السبب،
وجدوه الصبر، ولهذا أثني الله عليه به
في قوله : ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد
إنه أواب﴾ فجعلوه أسوة وقدوة عندما
يصيهم الضر .

﴿٨٥ - ٨٦﴾ ﴿واسماعيل﴾
وإدريس وذا الكفل كل من
الصابرين * وأدخلناهم في رحمتنا إنهم
من الصالحين * أي : واذكر عبادنا
المصطفين وأنبياءنا المرسلين بأحسن
الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء،
إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا
الكفل، نبيين من أنبياء بني إسرائيل
﴿كل﴾ من هؤلاء المذكورين * من
الصابرين * والضرر : هو حيس النفس
ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا
يشمل أنواع الصبر الثلاثة : الصبر على
طاعة الله، والصبر عن معصية الله،
والصبر على أقدار الله المؤلمة،
فلا يستحق العبد اسم الصبر التام،
حتى يوفي هذه الثلاثة حقها . فهؤلاء
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قد
وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها
حقها، وقامروا بها كما ينبغي،
ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل
صلاح القلوب، بمعرفة الله ومحبة،
والإنابة إليه كل وقت، وصلاح
اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله،
وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله
وكفها عن المعاصي . فبصبرهم
وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته،
وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين،
وأثابهم الثواب العاجل والآجل . ولو لم
يكن من ثوابهم، إلا أن الله تعالى ثوّه
بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان
صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً
وفضلاً .

﴿٨٧ - ٨٨﴾ ﴿وذا النون إذ ذهب
مغاضياً فظن أن لن نقدر عليه فتنادى في
الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك
إني كنت من الظالمين﴾ فاستجبنا له

ونجّيناه من الغم وكذلك ننجي
المؤمنين * أي : واذكر عبدنا ورسولنا ذا
النون، وهو : يونس، أي : صاحب
النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل،
والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى
قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم
بنزول العذاب بأمد سماه لهم .

[فجاءهم العذاب]، ورأوه عياناً،
فعمّجوا إلى الله، وضجروا وتابوا،
فرفع الله عنهم العذاب، كما قال
تعالى : ﴿فلولا كانت قرية آمنت ففجعا
إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا
عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا
ومتعناهم إلى حين﴾ . وقال :
﴿وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون
فآمنوا فممتعناهم إلى حين﴾ . وهذه
الأمّة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة
يونس، من أكبر فضائله، ولكنه عليه
الصلاة والسلام ذهب مغاضياً، وأبق
عن ربه لذنب من الذنوب التي لم
يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا
إلى تعيينها لقوله : ﴿إذ أبقني إلى
الفلك . . . وهو مليم﴾ أي : فاعل ما
يلام عليه^(١) والظاهر أن^(٢) عجلته
ومغاضبته لقومه وخروجه من بين
أظهريهم قبل أن يأمره الله بذلك، وظن
أن الله لا يقدر عليه، أي : يقصق عليه
في بطن الحوت، أو ظن أنه
سيفوت الله تعالى، ولا مانع من
عروض هذا الظن للكامل من الخلق
على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه،
فركب في السفينة مع أناس،
فاقتربوا، ممن يلقون منهم في البحر؟
لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصاب
القرعة يونس، فالتقمة الحوت، وذهب
به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك
الظلمات : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك
إني كنت من الظالمين﴾ فأقر الله تعالى
بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص
وعيب وأفة، واعترف بظلم نفسه
وجنابته، قال الله تعالى : ﴿فلولا أنه
كان من المسيحين، للبت في بطنه إلى
يوم يبعثون﴾ ولهذا قال هنا :

(٢) في الأصل : أنه .

(١) زيادة من هامش : ب .

﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ أي: الشدة التي وقع فيها.

﴿وكذلك نجى المؤمنين﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركني فرداً وأنث خيبر الوارثين﴾ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهياً وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: وأذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لمناقبه وقضائله، التي من حملتها هذه النعمة العظيمة المتضمنة لتصلحه للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نادى ربه رب لا تدركني فرداً﴾ أي: ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب وأجعله رب رضياً﴾.

من هذه الآيات علمنا أن قوله ﴿رب لا تدركني فرداً﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به، ﴿وأنث خيبر الوارثين﴾ أي: خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم عبداً مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه، ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً.

﴿وأصلحنا له زوجه﴾ بعدما كانت عاقراً، لا يصلح رَحْمَهَا للولادة، فأصلح الله رَحْمَهَا للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين.

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين،

كلاً على انفراده، أثنى عليهم عموماً فقال: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها، ﴿ويدعوننا رغباً ورهياً﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا للكمال معرفتهم برَبِّهم.

﴿٩١ - ٩٤﴾ ﴿والتي أحصنت فرجها فنفضنا منها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون﴾ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾ أي: وأذكر مريم عليها السلام مثنياً عليها مبيناً لقدرها، شاهراً لشرفها فقال: ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها.

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سَوِيٍّ تام الخلق والحسن قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله.

﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ حيث حملت به، ووضعت من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها عما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي: هؤلاء المرسل المذكورون، هم أمتكم وأمتكم الذين بهم تأقن، وبهديم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضاً واحد.

ولهذا قال: ﴿وأنا ربكم﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحداً، والنبي واحداً، والدين واحداً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فاعبدون﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، آتيا إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقاً، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر و﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كل﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إلينا راجعون﴾ أي: فنجازيهم أتم الجزاء.

ثم فصل جزاءه فيهم، متطوقاً ومفهوماً، فقال: ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحثت عليها الكتب ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وبرسوله، وما جاوزوا به ﴿فلا كفران لسعيه﴾ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة.

﴿وإنا له كاتبون﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف

التي مع الحفظة . أي : ومن لم يعمل من الصالحات ، أو عملها وهو ليس بمؤمن ، فإنه محروم خاسر في دينه ودينه .

﴿٩٥﴾ «وحرّام على قرية أهلكتها أنهم لا يرجعون» أي : يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا ما فرطوا فيه ، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب ، فليحذر المخاطبون ، أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم ، فلا يمكن رفعه ، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك .

﴿٩٦ - ٩٧﴾ «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون» واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين هذا تحذير من الله للناس ، أن يقيموا على الكفر والمعاصي ، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج ، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم ، وقد سد عليهم ذو القرنين ، لما شكى إليه إفسادهم في الأرض ، وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم ، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف ، الذي ذكره الله ، من كل مكان مرتفع ، وهو الخدب ، ينسلون أي : يسرعون . وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة ، وإسراعهم في الأرض ، إما بدواتهم ، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد ، وتسهل عليهم الصعب ، وأنهم يقهرون الناس ، ويعلون عليهم في الدنيا ، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم .

«واقترّب الوعد الحق» أي : يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه ، ووعد حق وصدق ، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأتراء والأهوال المزعجة والقلقل المفضعة ، وما كانوا يعرفون من جنائياتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ، ويقولون : «قد كنا في غفلة من هذا» اليوم العظيم ، فلم نزل فيها مستغرقين ، وفي

لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين ، ووردنا القيامة ، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة ، لما توار . «بل كنا ظالمين» اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم ، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار ، هم وما كانوا يعبدون ، ولهذا قال :

﴿٩٨ - ١٠٣﴾ «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون» لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون * إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون * أي : إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره «حصب جهنم» أي : وقودها وحطبها «أنتم لها واردون» وأصنامكم .

والحكمة في دخول الأصنام النار ، وهي جناد لا تعقل ، وليس عليها ذنب ، بيان كذب من اتخذها آلهة ، وليزداد عذابهم ، فلها قال : «لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها» وهذا كقولته تعالى : «ليبين لهم الذي يتفلتون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين» وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون ، لا يخرجون منها ، ولا يتقلون عنها .

«لهم فيها زفير» من شدة العذاب «وهم فيها لا يسمعون» صم بكم عمي ، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها ، لشدة غلبتها واشتداد زفيرها وتغيظها .

ودخول آلهة المشركين النار ، إنما هو الأصنام ، أو من عُبد وهو راض بعبادته ، وأما المسيح ، وعزير ، والملائكة ونحوهم ، ممن عبد من الأولياء ، فإنهم لا يعبدون فيها ، ويدخلون في قوله : «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى» أي : سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله ، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا ليسرى الأعمال الصالحة .

﴿أولئك عنها﴾ أي : عن النار «مبعدون» فلا يدخلونها ، ولا يكونون قريباً منها ، بل يبعدون عنها غاية البعد ، حتى لا يسمعوها حسيها ، ولا يروا شخصها ، «وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون» من المأكّل ، والمشرب ، والمناكح والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مستمر لهم ذلك ، يزداد حسنه على الأحقاب ، «لا يحزنهم الفزع الأكبر» أي : لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع ، وذلك يوم القيامة ، حين تقرب النار ، تنغيط على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم ، لعلمهم بما يقدمون عليه ، وأن الله قد أمنهم بما يخافون ، «وتلقاهم الملائكة» إذا بعثوا من قبورهم ، وأتوا على النجائب وفداً لنشورهم ، مهئين لهم قائلين : «هذا يومكم الذي كنتم توعدون» فليهنئكم ما وعدكم الله ، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة ، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمتها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي : الورقة المكتوب فيها ، فتنتشر نجومها ، ويكور شمسها وقمرها ، وتزول عن أماكنها «كما بدأنا أول خلق نعيده» أي : إعادتنا للخلق ، مثل ابتدائنا لخلقهم ، فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً ، كذلك نعيدهم بعد موتهم .

«وعداً علينا إنا كنا فاعلين» ننفذ ما وعدنا ، لكمال قدرته ، وأنه لا تمتنع منه الأشياء .

«ولقد كتبنا في الزبور» وهو الكتاب المزبور ، والمراد : الكتب المنزلة ، كالطورا ونجوها «من بعد

الذكر ﴿أي﴾ كتبناه في الكتب المنزلة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿وَأَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة ﴿يُورِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الذين قاموا بالأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات، كقول أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نبتوا من الجنة حيث نشاء﴾.

ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ الآية.

﴿١٠٦-١١٢﴾ ﴿إِنْ فِي هَذَا لَبَلَاغٌ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿قل إنما يوحى إلي أنما ألهمكم إليه واحد فهل أنتم مسلمون﴾ فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴿قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ ينشئ الله تعالى على كتابه العزيز «القرآن» ويبين كفايته التامة عن كل شيء، وأنه لا يستغنى عنه فقال: ﴿إِنْ فِي هَذَا لَبَلَاغٌ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب. وليس للعابدين، الذين هم أشرف الخلق، وزاء غاية، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبالدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، المبين للأمورات كلها، والمنهيات جميعها، المعروف بعبود النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في ديق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخلة على الإنسان، فمن لم يغتنه

القرآن فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه فلا كفاه الله.

ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهو رحمة المهداة لعباده، فالؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وغيرهم كفرها، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأبوا رحمة الله ونعمته.

﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما يوحى إلي أنما ألهمكم إليه واحد﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: متقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما من عليهم بهذه النعمة التي فاقت المن.

﴿فإن تولوا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلثات، ونزول العقوبة.

﴿فقل أذنتكم﴾ أي: أعلمتكم بالعقوبة ﴿على سواء﴾ أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا - إذا نزل بكم العذاب: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ بل الآن، استوى علمي وعلمكم لما أذنتكم وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً.

﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ أي: من العذاب، لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي: بينا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها.

﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن،

لأنهم حجبوا وجهه في ما أشبهت أنفسهم حجبوا ﴿لَا يَخْرُجُ فِي الْفَجْرِ الْكُفْرُ وَتَتَلَقَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذِهِ أَوْتَاكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ كُلُّنَا رَيْبُكَ إِلَيْنَا كَمَا بَلَغَ آلَ عَلِيٍّ يُخِيدُونَ وَإِنَّا لَكُنَّا لَعَالِيَتٌ وَوَلَدَكَ كَيْتَانِ فِي الْوُجُوهِ تَعْدُ الْكَوَاكِبُ الْأَنْفُسَ يَوْمَ يُكَادَى الصَّلَاةُ خُرْتُ﴾ ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوْحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ مَآذُنَا كُفْرًا وَأَبْنَاوُا رَحْمَةَ اللَّهِ وَنِعْمَتَهُ﴾

ونستعين به على ما تصفون، من قولكم ستظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا، لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعانه به من رحمة، وقد فعل، والله الحمد.

تفسير سورة الحج قيل: مكية، وقيل: مدنية

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا بأمره مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال:

﴿إِنْ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالها،



منهم يومئذ شأن يغنيه^(١).

يدعون إلى النار.

وهناك ﴿بعض الظالم على يديه، يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا وليتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ﴿وتسود حيثذ وجوه وتبيض وجوه، وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر، من الخير والشر، وتنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغافرين.﴾ إذا رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾ ويقال لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها، قال: ﴿اخشعوا فيها ولا تكلمون﴾. قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يقدروا منها نقيراً ولا قطميراً.

هذا، والمتقون في روضات الجنات يجبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتبهت أنفسهم خالدين، فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يعد له عذته، وأن لا يلهمه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره، روح أعماله.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴿أي: ومن الناس طائفة ورفقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله وعلى رسله، معاندين لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين

﴿٥ - ٧﴾ ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ أي: شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلاً عقلياً تشاهدونهما، كل واحد منهما، يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، فقال فيه: ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾ أي: مني،

وتصدعت الجنال واندكت، وكانت كشيئاً مهياً، ثم كانت هباء منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتشر النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل ما تصدع له القلوب، وتجل منه الأفتدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها.

﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ أي: تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى.

﴿ولكن عذاب الله شديد﴾: لذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملاها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم، لا يميزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

ويومئذ يفر المرء من أخيه ﴿وأمنه وأبيه﴾ وصاحبه وبنيه ﴿لكل امرئ

(١) صار في هذه الآيات خطأ وتداخل بين آيات سورة المعارج وآيات سورة عبس فأثبت آيات سورة عبس

وهذا ابتداء أول التخليق، ﴿ثم من علقه﴾ أي: تنقلب تلك النطفة، بإذن الله دماً أحر، ﴿ثم من مضغه﴾ أي: ينتقل الدم مضغة، أي: قطعة لحم، بقدر ما يمزج، وتلك المضغة تارة تكون ﴿خلقته﴾ أي: مصور منها خلق الأدمي، ﴿وغير خلقه﴾ تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، ﴿لنلين لكم﴾ أصل نشأنكم، مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن لئلين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته.

﴿ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ أي: ونقر، أي: نبقى في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام، ما نشاء إبقائه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل. ﴿ثم نخرجكم﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طفلاً﴾ لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق، ثم تنتقلون طوراً بعد طور، حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَّى﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزهُ فيرد إلى أرذل العمر، أي: أخسبه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوى، وضعفت.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾
 أي : لأجل أن لا يعلم هذا العمر شيئاً
 ما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف
 عقله، فقوة الآدمي مخفوفة بضعفين،
 ضعف الطفولة ونقصها، وضعف
 الهرم ونقصه، كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ
 الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ
 بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
 ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ
 الْقَدِيرُ﴾ والدليل الثاني، إحياء الأرض
 بعد موتها، فقال الله فيه : ﴿وَتَرَى
 الْأَرْضَ هَامِدَةً أَي : خاشعة مغيرة
 لا نبات فيها، ولا خضر، ﴿فَإِذَا أُنزِلْنَا
 عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَتْ﴾ أي : تحركت
 بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أي : ارتفعت بعد
 خشوعها وذلك لزيادة نباتها، ﴿وَأَنْتُمْ

من كل زوج أي: صنف من أصناف
النبات **﴿يبيح﴾** أي: يبيح الناظرين،
ويسر المتأملين، فهذان الدليلان
القاطعان، يدلان على هذه المطالب
الخمسة، وهي هذه.

﴿ذلك﴾ الذي أنشأ الآدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها، ﴿بأن الله هو الحق﴾ أي: الرب المعبود، الذي لا تتبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة، ﴿وأنه يحيي الموتى﴾ كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وأنه﴾ على كل شيء قدير ﴿كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فَلَا وَجْهَ لِمُتَّبَعِيهَا، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِنْ فِي الْقُبُورِ﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ حَسَنَتِهَا وَسُئْلِهَا.

﴿٨-٩﴾ «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير» * ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴿المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المرید، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه ﴿يجادل في الله﴾ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق، ﴿بغير علم﴾ صحيح ﴿ولا هدى﴾ أي: غير متبع في جداله هذا من يديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ﴿ولا كتاب منير﴾ أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوجهها إليه الشيطان ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوك﴾ ومع هذا ﴿ثاني عطفه﴾ أي: لأوي جانبه وعطفه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق، ﴿ليضل﴾ الناس، أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال، ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: ﴿له في الدنيا خزي﴾ أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من

[illegible]

آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعياً
من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من
المقت بين العالمين، واللعنة، والبغض،
والذم، ما هو حقيق به، وكل بحسب
حاله.

﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب
الحريق﴾ أي: نذيقه حرّها الشديد،
وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت
يدها، ﴿وأن الله ليس بظلام
للنعيم﴾

﴿١٦ - ١٣﴾ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ * يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضربه أقرب من نفعه لبئس المولى لبئس العشير * أي : ومن الناس من هو ضعيف الإيمان ، لم يدخل الإيمان قلبه ، ولم تحالطه بشاشته ، بل دخل فيه ، إما خوفاً ، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن ، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي : إن استمر رزقه رغداً ، ولم يحصل له من المكروه شيء ، اطمأن بذلك الخَيْر ، لا بإيمانه . فهذا ، ربما أن الله يعافيه ، ولا يقيض له من الفتن ما يصرف به عن دينه ، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ من حصول مكروه ، أو زوال محبوب ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي : ارتد عن دينه ، ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أما في

وجوهها، وأتى بـ ﴿من﴾ المفيدة للتعبير، ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه. فيا أيها المرزوق من فضل الله، أنفق بما رزقك الله ينفق الله عليك، ويزدك من فضله.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ يَسْخَرُنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ * لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك يسخرها لكم لتكثروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴿هذا دليل أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة. وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره، فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره، البدن، أي: الإبل، والبقر، على أحد القولين، فتعظم وتستحسن، وتستحسن، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: المهدي وغيره، من الأكل، والصدقة، والانتفاع، والشواب، والأجر، ﴿فاذكروا اسم الله عليها﴾ أي: عند ذبحها قولوا «بسم الله» وأذبحوها، ﴿صواف﴾ أي: قائمات، بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تنحر.

﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ أي: سقطت في الأرض جنوبها، حين تسليخ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض، فحيث قد استعدت لأن يؤكل منها، ﴿فكلوا منها﴾ وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه، ﴿وأطعموا القانع والمعتر﴾ أي: الفقير الذي لا يسأل، تقنعاً، وتعففاً، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيها.

﴿كذلك يسخرها لكم﴾ أي: البدن ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيرها لكم، لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها، راحة بكم وإحساناً إليكم،

مسمى ﴿مقدر، موقت وهو ذبحها إذا وصلت محلها وهو البيت العتيق، أي: الحرم كله «منى» وغيزها، فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشَرِ الْخَبِيثِينَ﴾ * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمين الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴿أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكاً، أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولننظر أيكم أحسن عملاً، والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً، لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ فاللهكم إله واحد ﴿وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو الوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به ولهذا قال: ﴿قله أسلموا﴾ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. ﴿وبشر المخبتين﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات، لحوقهم ووجلهم من الله وحده، ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ من البأساء والضراء وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربه، محتسين ثوابه، مرتقين أجره، ﴿والمقيمين الصلاة﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الزوجية، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والماليك، والأقارب، والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع

منهياً عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً، ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور.

أمرهم أن يكونوا ﴿حنفاء لله﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه.

﴿غير مشركين به ومن يشرك بالله﴾ فمثله ﴿فكأنما خر من السماء﴾ أي: سقط منها ﴿فتخطفه الطير﴾ بسرعة ﴿أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة.

ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبيات، فإما أن تحطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تحطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودينه.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿ذَلِكَ وَمِنْ بَعْضٍ شَعَائِرِ اللَّهِ فَأَيُّهَا مَنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ * لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق ﴿أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرمانه وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت، وتقدم أن معنى تعظيمها، إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكاملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿لکم فیہا﴾ أي: [في] في الهدايا ﴿منافع إلى أجل مسمى﴾ هذا في الهدايا المسوقة، من البدن ونحوها، ينتفع بها أربابها، بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها ﴿إلى أجل

فاحدوه .

وقوله : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمَافُهَا﴾ أي : ليس المقصود منها ذبحها فقط . ولا ينال الله من لحومها ولا دماها شيئا ، لكونه الغني الحميد ، وإنما يناله الإخلاص فيها ، والاحتساب ، والنية الصالحة ، ولهذا قال : ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ فقي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر ، وأن يكون القصد وجه الله وحده ، لا فخراً ولا رياء ، ولا سمعة ، ولا مجرد عادة ، وهكذا سائر العبادات ، إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله ، كانت كالقشور الذي لا لب فيه ، والجسد الذي لا روح فيه .

﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي : تعظموه وتجلوه ، ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي : مقابلة لهديته بإياكم ، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد ، وأعلى التعظيم ، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بعبادة الله بأن يعبدوا الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبده ، معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم ، ورويته إياهم ، والمحسنين لعباد الله ، بجميع وجوه الإحسان من نفع مال ، أو علم ، أو نجاه ، أو تصح ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو كلمة طيبة ونحو ذلك ، فالمحسنون لهم البشارة من الله ، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم ، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله ، للذين آمنوا ، أن الله يدافع عنهم كل مكروه ، ويدفع عنهم كل شر . بسبب إيمانهم بمن شر الكفار ، وشر وسوسة الشيطان ، وشرور أنفسهم ، وسيئات أعمالهم ، ويحمل عنهم عند نزول المكروه ، ما لا يتحملون ، فيخفف عنهم غاية التخفيف . كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه ، فمستقل ومستكثر .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي : خائن في أمانته التي حمله الله إياها ، فيخس حقوق الله عليه ، ويخون الخلق .

﴿كَفُورٍ﴾ لنعم الله ، يوالي عليه الإحسان ، ويتوالى منه الكفر والعصيان ، فهذا لا يحبه الله ، بل يبغضه ويمقتة ، وسيجازه به على كفره وخيانتة ، ومفهوم الآية ، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته ، شكور لمولاه .

﴿٣٩ - ٤١﴾ ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار ، وأمورين بالصبر عليهم ، لحكمة إلهية ، فلمنا هاجروا إلى المدينة ، وأوذوا ، وحصل لهم منعة وقوة ، أذن لهم بالقتال ، قال تعالى : ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين ، فأذن الله لهم بقتال الذين يُقاتلون ، وإنما أذن لهم ، لأنهم ظلموا ، بمنعهم من دينهم ، وأذيتهم عليه ، وإخراجهم من ديارهم .

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستصروه ، وليستعينوا به ، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال : ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي : أخرجوا إلى الخروج بالأذية والفتنة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أي : إلا أنهم وخذوا الله ، وعبدوه مخلصين له الدين ، فإن كان هذا ذنباً ، فهو ذنبهم كقوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهذا يدل على حكمة الجهاد ، وأن المقصود منه إقامة دين الله ، وذب الكفار المؤذنين للمؤمنين ، البادئين لهم بالاعتداء ، عن

ظلمهم واعتدائهم ، والتمسك من عبادة الله ، وإقامة الشرائع الظاهرة ، ولهذا قال : ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد أي : لهدمت هذه المعابد الكبار ، لطوائف أهل الكتاب ، معابد اليهود والنصارى ، والمساجد للمسلمين ، ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ أي : في هذه المعابد ﴿اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تقام فيها الصلوات ، وتلى فيها كتب الله ، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر ، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لاستولى الكفار على المسلمين ، فخرّبوا معابدهم ، وقتنوه عن دينهم ، فدل هذا ، أن الجهاد مشروع ، لأجل دفع الصائل والمؤذي ، ومقصود لغيره ، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله ، وعمرت مساجدها ، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها ، من فضائل المجاهدين وبركتهم ، دفع الله عنها الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

فإن قلت : ترى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تحرب ، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة ، وحكومة غير منظمة ، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج ، بل ترى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة ، وأهلها آمنون مطمئنون ، مع قدرة ولايتهم من الكفار على هدمها ، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت هذه المعابد ، ونحن لا نشاهد دفعا .

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال ، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها ، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها ، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها ، ودخل في حكمها ، تعتبره عضواً من أعضاء المملكة ، وجزء من أجزاء الحكومة ، سواء كانت تلك الأمة

مقتدرة بَعْدَها أو عُدَّها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب، الدينية والدنيوية، وتحشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد، فإنها - والله الحمد - في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار..

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصراري، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة، التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من [كثير]^(١) ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يرى عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت - والله الحمد - أسبابه [يشعور المسلمون بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل]^(٢)، فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: «ولينصرن الله من ينصره» أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا. «إن الله لقوي عزيز» أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلاق، وأخذ بنواصيهم، فأبشروا، يا معشر المسلمين، فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم، وقوي عدوكم وعدوكم، فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

«يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» وقوموا.

أيها المسلمون، بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم» وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً.

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: «الذين إن مكناهم في الأرض» أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، «أقاموا الصلاة» في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات.

«وآتوا الزكاة» التي عليهم خصوصاً، وعلى رعييتهم عموماً، أتوها أهلها، الذين هم أهلها، «وأما بالمعروف» وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعاً وعقلاً، من حقوق الله، وحقوق آدميين، «ونها عن المنكر» كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعاً، أو غير مقدر، كأنواع التعزيز، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

«والله عاقبة الأمور» أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه،

أولاً للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٤٢﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٤٣﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٤٤﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٤٥﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٤٦﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٤٧﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٤٨﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٤٩﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥٠﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥١﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥٢﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥٣﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥٤﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥٥﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥٦﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥٧﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥٨﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٥٩﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦٠﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦١﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦٢﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦٣﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦٤﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦٥﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦٦﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦٧﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦٨﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٦٩﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧٠﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧١﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧٢﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧٣﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧٤﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧٥﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧٦﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧٧﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧٨﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٧٩﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨٠﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨١﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨٢﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨٣﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨٤﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨٥﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨٦﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨٧﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨٨﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٨٩﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩٠﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩١﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩٢﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩٣﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩٤﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩٥﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩٦﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩٧﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩٨﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿٩٩﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون. ﴿١٠٠﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولعلهم يذكرون.

فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشرومة، وعاقبته مذمومة.

﴿٤٢ - ٤٦﴾ «وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدائن وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبشر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: «إن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها» «فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدائن» أي: قوم شعيب.

«وكذب موسى فأمليت للكافرين» المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم، حتى استمروا في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في أ: وعدتكم، وهو سبق قلتم - والله أعلم -.

كلامه ﴿والذين كفروا﴾ أي: جحدوا نعمة ربهم وكذبوا رسله وآياته فأولئك أصحاب الجحيم أي: الملازمون لها، المصاحبون لها في كل أوقاتهم، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتر عنهم لحظة من عقابها.

﴿٥٢-٥٧﴾ ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴿يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد﴾ من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ﴿أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم﴾ ألقى الشيطان في أمنيته ﴿أي: في قراءته، من طرقة ومكايدة، ما هو متناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يزيله ويذهب ويبطله، وبين أنه ليس من آياته، و ﴿يحكم الله آياته﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، والله عزيز﴾ أي: كامل القوة

والاقتدار، فبكمال قوته، يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقى الشياطين، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال حكمته، مكن الشياطين من الإلقاء المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾ لطائفتين من الناس، لا يبالي الله بهم، وهم الذين ﴿في قلوبهم مرض﴾ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿والقاسية قلوبهم﴾ أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿إن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي: مشاققة الله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقيه الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك﴾ لأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقضي بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمال النفوس الخيرة والشريرة، ﴿فيؤمنوا به﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه.

﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي: تخشع وتغضض، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، ﴿وإن الله لهادي الذين

الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم ﴿والذين كفروا في قلوبهم مرض﴾ والذين كفروا في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴿يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد﴾ من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ﴿أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم﴾ ألقى الشيطان في أمنيته ﴿أي: في قراءته، من طرقة ومكايدة، ما هو متناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يزيله ويذهب ويبطله، وبين أنه ليس من آياته، و ﴿يحكم الله آياته﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، والله عزيز﴾ أي: كامل القوة

آمنوا﴾ بسبب إيمانهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات، فيها بيان أن الرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين، لما وقع منه عند قراءته ﷺ: ﴿والنجم﴾ فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان في قراءته: ﴿تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن﴾ لترجي، فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿٥٥-٥٧﴾ ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأهم لا يزالون في شك عما جنتهم به يا محمد، لعنادهم، وإعراضهم، وأهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال ﴿حتى تأتيتهم

(١) كذا في ب، وفي أ: شفاعتهم.

(٢) في النسخين: وأنه.

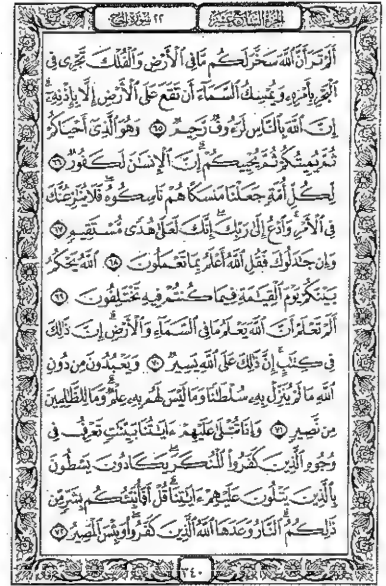
عليه وظلم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته، فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم، فإن يُعني عليه بعد هذا، فإن الله ينصره، لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يُعني عليه، بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره، بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا ظلم وجني عليه، فالتصبر إليه أقرب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُو غَفُورٌ﴾ أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تغفروا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف، في تقديره وتديره، الذي ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك، قيام الفصول، ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى ديب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حلیم هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهداً في سبيل الله، ﴿لِيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المعنى ^(١) أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل برزقه في الدنيا، رزقاً واسعاً حسناً، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيداً، فكلهم مضمون له الرزق، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيراً، حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد فاجتبروا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس، ويكون على هذا القول، قوله: ﴿لِيَدْخُلْنَهُمْ مَدْخَلًا يُرْضُونَهُ﴾ إما ما يفتح الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة، فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا، ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالأمور، ظاهرها، وباطنها، متقدمها، ومتأخرها، ﴿حلیم﴾ يعصيه الخلائق، وبارزونه بالعظائم، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿٦٠﴾ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عَاقَبَ بِهِ ثُمَّ بُنِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصَرَّتْهُ أَلَّهُ﴾ إن الله لعفو غفور ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ جُنِي



الساعة بغتة﴾ أي: مفاجأة ﴿أَوْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة، فإذا جاءتهم الساعة، أو أتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم التندم، وأبلسوا وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلاً، ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَهُ تَعَالَى، لَا لغيره﴾، ﴿يُحْكَمُ بَيْنَهُمْ﴾ بحكمه العدل، وقضائه الفصل، ﴿فَاللَّيْنِ آمَنُوا﴾ بالله ورسله، وما جاؤوا به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والسيد، مما لا يصفه الوصفون، ولا تدركه العقول.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله وكذبوا بآياته الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها، أو عاندوها، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لهم، من شدة، وألم، وبلغه للافئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله بالعذاب.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ تَوَلَّوْا أَوْ مَاتُوا لِيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُو

﴿ذلك﴾ صاحب الحكم والأحكام
﴿يأن الله هو الحق﴾ أي: الثابت،
الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي
ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده
شيء، كامل الأسماء والصفات،
صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه
حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق،
النافعة الباقية على الدوام.

﴿وأن ما يدعون من دونه﴾ من
الأصنام والأنداد، من الحيوانات
والجمادات، ﴿هو الباطل﴾ الذي، هو
باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها
متعلقة بمضمحل فإن، فتبطل تبعاً
لغايتها ومقصودها، ﴿وأن الله هو
العلي الكبير﴾ العلي في ذاته، فهو عال
على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو
كامل الصفات، وفي قهره لجميع
المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي
أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمت
وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم
القيامة، والسموات مطويات بيمينه،
ومن كبريائه، أن كرسيه وسع
السموات والأرض، ومن عظمت
وكبريائه، أن نواصي العباد بيده،
فلا يتصرفون إلا بمشيئته،
ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا
هو، لا ملك مقرب، ولا نبي
مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال
وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من
تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن
كبريائه، أن العبادات كلها، الصادرة
من أهل السموات والأرض، كلها
المقصود منها، تكبيره وتعظيمه،
وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير
شعاراً للعبادات الكبار، كالصلاة
وغيرها.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل
من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة
إن الله لطيف خبير﴾ له ما في
السموات وما في الأرض وإن الله لهو
الغني الحميد ﴿هذا حث منه تعالى،
وترغيب في النظر بآياته الدالات على

وحدانيته، وكماله فقال: ﴿ألم تر﴾
أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك
﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾ وهو:
المطر، فينزل على أرض خاشعة مجربة،
قد اغبرت أرجاؤها، وبس ما فيها،
من شجر ونبات، فتصبح مخضرة قد
اكتست من كل زوج كريم، وضار لها
بذلك منظر بهيج، إن الذي أحيها بعد
موتها وهموها لمحيي الموتى بعد أن
كانوا رميمًا.

﴿إن الله لطيف خبير﴾ اللطيف
الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها،
وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده
الخير، ويدفع عنه الشر^(١)، بطرق
لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه
يري عبده، عزته في انتقامه وكمال
اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف
العبد على الهلاك، ومن لطفه، أنه يعلم
مواقع القنطر من الأرض، ويذور
الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء
إلى ذلك البذر، الذي خفي على علم
الخلائق فنبت منه أنواع النبات،
﴿خبير﴾ بسرائر الأمور، وخبايا
الصدور، وخفايا الأمور.

﴿له ما في السموات وما في
الأرض﴾ خلقاً وعبداً، يتصرف فيهم
بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس
لأحد غيره من الأمر شيء.

﴿وإن الله لهو الغني﴾ بذاته الذي له
الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه،
ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من
خلقه، ولا يراليهم من ذلة،
ولا يتكثر بهم من قلة، ومن غناه، أنه
ما اتخذ صاحبة ولا ولداً، ومن غناه،
أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب،
ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه
من الوجوه، فهو يُطعم ولا يُطعم،
ومن غناه، أن الخلق كلهم مفتقرون
إليه، في إيجادهم، وإعدادهم
وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم، ومن
غناه، أنه لو اجتمع من في السموات
ومن في الأرض، الأحياء منهم

والأموات، في صعيد واحد، فسأل
كل منهم ما بلغت أميته، فأعطاهم
فوق أمانيتهم، ما نقص ذلك من ملكه
شيء، ومن غناه، أن يده سبحانه بالخير
والبركات، الليل والنهار، لم يزل
إفضاله على الأنفاس، ومن غناه
وكرمه، ما أودعه في داز كرامته، مما
لا عين رأت، ولا أذن سمعت،
ولا خطر على قلب بشر.

﴿الحميد﴾ أي: المحمود في ذاته،
وفي أسمائه، لكونها حسنى، وفي
صفاته، لكونها كلها صفات كمال،
وفي أفعاله، لكونها دائرة بين العدل
والإحسان والرحمة والحكمة، وفي
شرعه، لكونه لا يأمر إلا بما فيه
مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى
إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة،
الذي له الحمد، الذي يملأ ما في
السموات والأرض، وما بينهما، وما
شاء بعدها، الذي لا يحصي العباد ثناء
على حمده، بل هو كما أثني على نفسه،
وفوق ما يشني عليه عباده، وهو
المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان
من يخذله، وهو الغني في حمده،
الحميد في غناه.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿ألم تر أن الله سخر
لكم ما في الأرض والفلك تجري في
البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على
الأرض إلا بذاته إن الله بالناس لرؤوف
رحيم﴾ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم
ثم يحييكم إن الإنسان لَكفور ﴿أي: ألم
تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك
السابغة، وأياديه الواسعة، و﴿أن الله
سخر لكم ما في الأرض﴾ من
حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع
ما في الأرض، مسخر ليني آدم،
حيواناتها، لركوبه، وحمله، وأعماله،
وأكله، وأنواع انتفاعه، وأشجارها،
وثمارها، يقتاتها، وقد سلط على
غرسها واستغلالها، ومعادنها،
يستخرجها، وينفع بها، ﴿والفلك﴾
أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن

﴿تجري في البحر بأمره﴾ تحملكم، وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمته بكم أنه ﴿يمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ فلولا رحمته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضرر، ومن رحمته، أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿وهو الذي أحياكم﴾ أوجدكم من العدم ﴿ثم يميتكم﴾ بعد أن أحياكم، ﴿ثم يحييكم﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿إن الإنسان﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله ﴿للكفور﴾ لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرته ربه.

﴿٦٧ - ٧٠﴾ ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعملى هدى مستقيم﴾ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴿يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿منسكاً﴾ أي: معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم﴾ الآية، ﴿هم ناسكوه﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصاً من الأميين أهل الشرك والجهل المبين، فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول

والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فلا ينازعك في الأمر﴾ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جنتهم به، يعقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد، يقولون: «تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله»، وكقولهم «إنما البيع مثل الربا» ونحو ذلك من اعتراضاتهم، التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة وعجاجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال، فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فلاقتصار على هذه، دليل أن مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعتضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لأنك ﴿على هدى مستقيم﴾ أي: معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به، فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم، وآرائهم، ويوقفك اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾. مع أن في قوله: ﴿إنك لعملى هدى مستقيم﴾ إرشاد لأجوبة المعارضين على جزئيات الشرع، بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدى: ما تحصل به الهداية، من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسننها وعدلها وحكمتها بالعقل والفطرة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾

أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فمن وافق الصراط المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه، أن يكون حكماً بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها، خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها، أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبتته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم، قال له: «اكتب» قال: ما أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

﴿إن ذلك على الله يسير﴾ وإن كان تصوره عندهم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴿يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو - في نفس الأمر - له حجة ما علمها، فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطاناً، أي: حجة تدل عليه وتجوّزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فسادهم وبطلانهم، ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ ينصرونهم من عذاب الله إذا نزل بهم وحل. وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قضد في اتباع

تم تفسير سورة الحج،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المؤمنون^(١) وهي مكية

﴿١١-١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
الرحيم قد أفلح المؤمنون * الذين هم
في صلاتهم خاشعون * والذين هم
عن اللغو معرضون * والذين هم
للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم
حافظون * إلا على أزواجهم أو ما
ملكتم أيماهم فإنهم غير ملومين *
فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم
العادون * والذين هم لأماناتهم
وعهدهم راعون * والذين هم على
صلواتهم يحافظون * أولئك هم
الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم
فيها خالدون * هذا تنويه من الله،
بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم
وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى
ذلك، وفي ضمن ذلك، الجث على
الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها.
فليزّن العبد نفسه وغيره على هذه
الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع
غيره من الإيمان، زيادة ونقصاً، كثرة
وقلة، فقول: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾
أي: قد فازوا وسعدوا وتجنبوا،
وأذكروا كل ما يرام: المؤمنون الذين
آمَنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من
صفاتهم الكاملة أنهم ﴿في صلاتهم
خاشعون﴾

والخشوع في الصلاة: هو حضور
القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً
لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن
نفسه، وتسكن حركاته، ويقل ثقافته،
متأدياً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما
يقوله ويفعله في صلاته، من أول
صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك
الوساوس والأفكار الرديئة، وهذا روح
الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي
يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع
فيها ولا حضور قلب، وإن كانت
جزئة مثاباً عليها، فإن الشواب على

ربما توهم متوهم أن هذا من باب
تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما
يشق، احترز منه بقوله: ﴿وما جعل
عليكم في الدين من حرج﴾ أي: مشقة
وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله
بغاية السهولة، فأولاً ما أمر وألزم إلا
بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها
ولا يؤدها، ثم إذا عرض بعض
الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما
أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط
بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة
شرعية وهي أن المشقة تجلب التيسير
و «الضرورات تبيح المحظورات»،
فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية،
شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ أي: هذه
الملة المذكورة، والأوامر المزيورة، ملة
أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها،
فالزموها واستمسكوا بها.
﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾
أي: في الكتب السابقة، تذكرون
ومشهورون، ﴿وفي هذا﴾ أي: هذا
الكتاب، وهذا الشرع، أي: ما زال
هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً،
﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾
بأعمالكم خيرها وشرها ﴿وتكونوا
شهداء على الناس﴾ لكونكم خير أمة
أخرجت للناس، أمة وسطاً عدلاً
خياراً، تشهدون للرسول أنهم بلغوا
أمرهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم
بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه،
﴿فأقيموا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها
وحُدودها، وجميع لوازمها، ﴿وآتوا
الزكاة﴾ المفروضة لمستحقها شكراً لله
على ما أولاكم، ﴿واعتصموا بالله﴾
أي: امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك،
ولا تتكلموا على حولكم وقوتكم،
﴿هو مولاكم﴾ الذي يتولى أموركم،
فيديركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على
أحسن تقديره، ﴿فنعم المولى ونعم
النصير﴾ أي: نعم المولى لمن تولاه،
فحصل له مطلوبه ﴿ونعم النصير﴾ لمن
استنصره فدفع عنه المكروه.

والسجود، لفضلهما وركنيتهما،
وعبادته التي هي قرة العيون، وسلوة
القلب المحزون، وأن ربوبيته وإخسانه
على العباد، يقتضي منهم أن يخلصوا له
العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً.

وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور
فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾. أي:
تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون
من المكروه المرهوب، فلا طريق
للفلاح سوى الإخلاص في عبادة
الخالق، والسعي في نفع عبيده، فمن
وفق لذلك، فله الفلاح المعلن، من
السعادة والنجاح والفلاح.

﴿وجاهدوا في الله حق جهاد﴾
والجهاد بذل الوسع في حصول
الغرض المطلوب، فالجهاد في الله حق
جهاده، هو القيام التام بأمر الله،
ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق
موصِل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم
وقِتال وأدب وزجر ووعظ، وغير
ذلك.

﴿هو اجتباكم﴾ أي: اختاركم - يا
معشر المسلمين - من بين الناس،
واختار لكم الدين، ورضيه لكم،
واختار لكم أفضل الكتب وأفضل
الرسول، فقابلوا هذه المنحة العظيمة،
بالقيام بالجهاد فيه حق القيام، ولما كان
قوله: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاد﴾

حسب ما يعقل القلب منها .

﴿والذين هم عن اللغو﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿معرضون﴾ رغبة عنه، وتنزيهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فأعرضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه - إلا في الخير - كان مالكاً لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كفّ عليك هذا»، فالؤمنون من صفاتهم الحميدة، كفّ ألسنتهم عن اللغو والمحرمات .

﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزيكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة .

﴿والذين هم لقروضهم حافظون﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما . فحفظوا فروجهم من كل أحد ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ من الإماء المملوكات ﴿فإنهم غير ملومين﴾ بقربيهما، لأن الله تعالى أحلها .

﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ غير الزوجة والسرية ﴿فأولئك هم العادون﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرؤون على معارم الله . وعموم هذه الآية، يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك .

ويبدل قوله: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ أنه يشترط في حل المملوكة،

أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها^(١) ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان .

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، قال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمينات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ﴿إن الله يامرکم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها، ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشرطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص .

﴿أولئك الموصوفون بتلك الصفات﴾ هم الوارثون ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم و^(٢) مراتبهم، كل بحسب حاله، ﴿هم فيها

(١) في أ: لأنه، وفي ب: لأن، ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في ب: في مراتبهم .

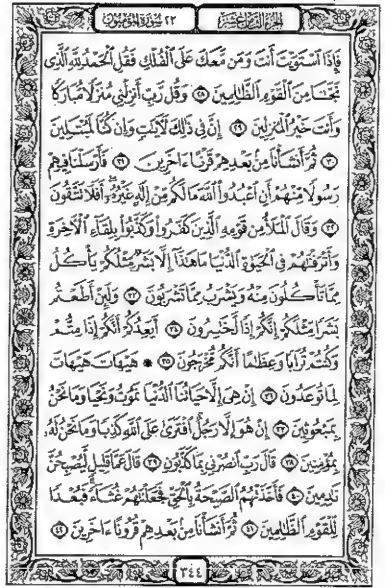


خالدون﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبغيون عنها جواراً، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه، من غير مكدر ولا منغص .

﴿١٢ - ١٦﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ ذكر الله في هذه الآيات أطوار الأدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿من سلالة من طين﴾ أي: قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك .

﴿ثم جعلناه﴾ أي: جنس الآدميين ﴿نطفة﴾ تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿في قرار مكين﴾ وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك .

﴿ثم خلقنا النطفة﴾ التي قد استقرت قبل ﴿علقة﴾ أي: دماً أحمر،



بعد مضي أربعين يوماً من النطفة، ثم خلقنا العلقة بعد أربعين يوماً مضفة. أي: قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمزج من صغرها، فخلقنا المضفة اللينة عظماً صلبة، قد تحللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها، فكسونا العظام لحماً. أي: جعلنا اللحم، كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عماداً للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ثم أنشأناه خلقاً آخر، نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جياداً، إلى أن صار حيواناً، فتبارك الله. أي: تعالى وتعظم وكثر خيره أحسن الخالقين. الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون. فخلقكم كله حسناً، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

ثم إنكم بعد ذلك الخلق، ونفخ الروح لميتون. في أحد أطواركم وتنقلاتكم، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون فتجازون بأعمالكم، حسنها

وسئها. قال تعالى: أحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعاب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للأكليين. لما ذكر تعالى خلق الأدمي، ذكر سكنه، وتوفر النعم عليه من كل وجه فقال:

ولقد خلقنا فوقكم سقفاً للبلاد، ومصلحة للعباد سبع طرائق. أي: سبع سموات طباقاً، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع، وما كنا عن الخلق غافلين. فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلنا أيضاً يحيط بما خلقنا، فلا تغفل مخلوقاً ولا تنساه، ولا تغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار وجوانب الفلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها. وما من دابة في الأرض إلا عل الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها. وكثيراً ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله: ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير. بلى وهو الخلاق العليم. لأن خلق المخلوقات، من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

وأنزلنا من السماء ماء. يكون رزقاً لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا ينقصه، بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بحيث يتلف الساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند الضرر من

دوامه، فأسكنناه في الأرض. أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرته منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضاً معدداً في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلاً، حتى لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره، وإنا على ذهاب به لقادرون. إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب نازلاً لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدروا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين.

فأنشأنا لكم به. أي: بذلك الماء جنات. أي: بساتين. من نخيل وأعاب. خصن تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرها من الأشجار، لفضلهما ومتافعهما، التي فأت بها الأشجار، ولهذا ذكر الغمام في قوله: لكم فيها. أي: في تلك الجنات فواكه كثيرة ومنها تأكلون. من تين، وأترج، ورمان، وتفاع وغيرها، وشجرة تخرج من طور سيناء. وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها، خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولما فاعها، التي ذكر بعضها في قوله: تنبت بالدهن وصيغ للأكليين. أي: فيها الزيت، الذي هو دهن، يستعمل^(١) استعماله من الاستصباح به، واصطبغ الأكليين، أي: يجعل إداماً للأكليين، وغير ذلك من المنافع.

﴿٢١ - ٢٢﴾ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم بما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون. وعليها وعلى الفلك يحملون. أي: ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام، الإبل والبقر، والغنم، فيها عبدة للمعتبرين، ومنافع للمتفتحين. تسقيكم بما في بطونها. من لبن، يخرج من بين فرث ودم، خالص سائغ للشاربين، ولكم فيها منافع كثيرة. من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجعل لكم من

(١) كذا في النسختين، وقد شطبت كلمة يستعمل في ب، وكتب فوقها بخط مغاير: يكثر. وهي كذلك في الطبقات المختلفة للتفسير.

جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم
ظعنكم ويوم إقامتكم ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾
أفضل المأكَل من لحم وشحم.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾
أي: جعلها سفناً لكم في البر، تحملون
عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه
إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم
السفن في البحر تحمّلكم، وتحمل
متاعكم، قليلاً [كان] أو كثيراً، فالذي
أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع
الإحسان، وأدر علينا من خيره
المدار، هو الذي يستحق كمال
الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في
عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على
معاصيه.

﴿٢٣ - ٣٠﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى آخر القصة
وهي قوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا
لَمُبْتَلِينَ﴾ يذكر تعالى رسالة عبده
ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول
أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى
قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم
بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له العبادة،
لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها.
﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾ فيه إبطال ألوهية
غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى،
لأنه الخالق الرازق، الذي له الكمال
كله، وغيره بخلاف ذلك. ﴿أَفَلَا
تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان
والأصنام، التي صورت على صور قوم
صالحين، فعبدوها مع الله، فاستبصر
على ذلك، يدعوهم سراً وجهاراً،
وليلاً ونهاراً، ألف سنة إلا خمسين
عاماً، وهم لا يزدادون إلا عتواً
ونفوراً.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ من قومه الأشراف
والسادة المتبوعون - على وجه المعارضة
لنبيهم نوح، والتحذير من اتباعه -:
﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَرِيدُ أَنْ
يُفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما هذا إلا بشر
مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن

يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعاً،
وإلا فما الذي يفضل عليه، وهو من
جنسكم؟ وهذه المعارضة ما زالت
موجودة في مكذبي الرسل، وقد
أجاب الله عنها بجواب شاف، على
السنة رسله كما في قوله: ﴿قَالُوا﴾
أي: لرسولهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
تَرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مَبِينٍ﴾ قالت لهم
رسولهم إن نحن إلا بشر مثلكم،
ولكن الله يمن على من يشاء من
عباده ﴿فَأَخْبِرُوا أَنْ هَذَا فَضْلُ اللَّهِ
وَمَتْنُهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَحْجَرُوا عَلَى اللَّهِ،
وَتَنْعَمُوا مِنْ إِصَالِ فَضْلِهِ عَلَيْنَا.

وقالوا هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ
مَلَائِكَةً﴾ وهذه أيضاً معارضة بالمشيئة
باطلة، فإنه وإن كان لو شاء أنزل
ملائكة، فإنه حكيم رحيم، حكمته
ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من
جنس آدميين، لأن الملك لا قدرة
لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون
إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس
عليهم كما كان.

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بهذا﴾ أي:
بإرسال رسول ﴿فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾
وأي حجة في عدم سماعهم إرسال
رسول في آبائهم الأولين؟ لأنهم لم
يحيطوا علماً بما تقدم، فلا يجعلوا
جهلهم حجة لهم، وعلى تقدير أنه لم
يرسل فيهم رسلاً، فلما أن يكونوا
على الهدى، فلا حاجة لإرسال
الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على
غيره، فليحمدوا ربهم ويشكروه أن
خصهم بنعمة لم تأت آباءهم،
ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم
الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم
للإحسان إليهم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أي:
مجنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ أي: انتظروا به
﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يأتيه الموت.
وهذه الشبهة التي أوردوها^(١)،
معارضة لنبوة نبيهم، دالة على شدة
كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية

الجهل والضلال، فإنها لا تصلح
للمعارضة بوجه من الوجوه، كما
ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة
متعارضة. فقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ يَرِيدُ أَنْ يُفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أثبتوا
أن له عقلاً يكيدهم به، ليعلوهم
ويسودهم، ويحتاج - مع هذا - أن
يخدر منه لئلا يغتر به، فكيف يلتزم مع
قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾
وهل هذا إلا من شبه ضال، متقلب
عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق
اتفق له، غير عالم بما يقول!!
ويأبى الله إلا أن يظهر خزي من عاداه
وعادى رسله.

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه
إلا فراراً ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا
كُذِّبْتُ﴾ فاستنصر ربه عليهم،
غضباً لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا
رسوله وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى
الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ * إنك إن
تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا
فاجراً كفاراً ﴿قَالَ تَعَالَى﴾ ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا
نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عند استجابتها له،
سبباً ووسيلة للنجاة، قبل وقوع
أسبابه، ﴿أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ أي:
السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾ أي: بأمرنا
لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا
وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإرسال الطوفان
الذي غذبوا به ﴿وَفَارَ الْشُّورُ﴾ أي:
فارت الأرض، وتفجرت عيوناً، حتى
محل النار، الذي لم تجر العادة إلا ببعده
عن الماء، ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
اثنَيْنِ﴾ أي: أدخل في الفلك من كل
جنس من الحيوانات، ذكراً وأنثى،
تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات، التي
اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في
الأرض، ﴿وَأَهْلِكَ﴾ أي: أدخلهم
﴿إِلَّا مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ كابنه،
﴿وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي:
لا تدعني أن أنجيهم، فإن القضاء
والقدر، قد حتم أنهم مغرقون.

بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر.

وهذا نظير قولهم: ﴿قالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لقي ضلال وسعر﴾ ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشرف فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال فقتلوا: ﴿أبعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾ هيهات هيهات لما توعدون﴾ أي: بعيد بعيد ما يعدكم به، من البعث، بعد أن تمزقتم وكنتم تراباً وعظاماً، فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن، فقاوسوا قدرة الخالق بقدرهم، تعالى الله. فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز، ونسبوا خلقهم أول مرة، وأن الذي أنشأهم من العدم، فإعادته لهم بعد البلى أهون عليه، وكلاهما هين لديه، فلم لا ينكروا أول خلقهم، ويكابرون المحسوسات، ويقولون: إنا لم نزل موجودين، حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث، وينتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟

وهنا دليل آخر، وهو: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير، وثم دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجب﴾ إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد فقال في جوابهم: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي: في البلى، ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾.

﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي: يموت أناس، ويحيا أناس ﴿وما نحن بمبعوثين﴾

﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ (١) فلماذا أتى بما أتى به، من توخيد الله،

بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين (١) قال رب انصربي بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين * ما ذكر نوحاً وقومه، وكيف أهلكهم قال: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ الظاهر أنهم «ثمود» قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهنم﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد عن اشمزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أمهم ﴿أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أمهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أفلا تتقون﴾ ربكم، فتجنبوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة، وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ أي: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطاعناهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيباً وتحذيراً منه: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي: من جنسكم ﴿يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾ أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً، وهو مثلكم إنكم لملسولوب العقل، نادمون على ما فعلتم. وهذا من العجب، فإن الخسارة والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم يتفكده. والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر، خصه الله

﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ أي: علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحدوا الله على النجاة والسلامة. فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وهذا تعليم منه له ولن معه، أن يقولوا هذا شكراً له وحيداً على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن ينزل الله لكم منزلاً مباركاً، فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ إلى أن قال: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

﴿إن في ذلك﴾ أي: في هذه القصة ﴿لآيات﴾ تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض. والفلك أيضاً من آيات الله، قال تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿ولن كنا لمبتلين﴾

﴿٣١-٤١﴾ ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أبعادكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: (إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) وهذا سبق قلم منه - رحمه الله -؛ وسيفسرها فيما يلي على نحو مما أثبت وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.

(٢) ينظر التعليق السابق.

المهلكين ﴿ في الغرق في البحر ﴾، وينو إسرائيل ينظرون.

﴿ولقد آتينا موسى﴾ بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حيثد من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه الثوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾. ولهذا قال هنا: ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

ولهذا، الأعمال الصالحة، التي هي صلاح في جميع الأزمنة، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، ومحبتة، وخوفه، ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى، والحثُّ والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم، والكتب السابقة، والعقل، حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه، كما جرى له قبله، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء، الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

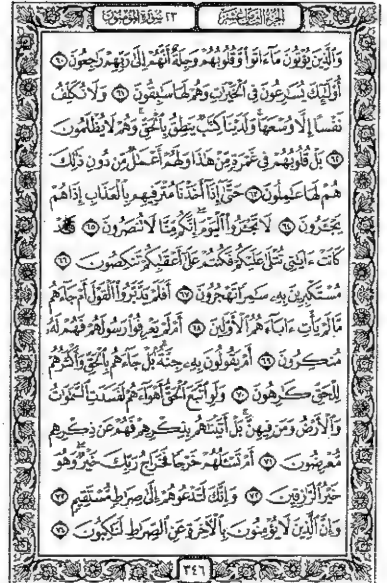
ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وإن هذه أمركم أمه﴾ أي: جماعتكم - يا معشر الرسل - جماعة واحدة متفقة على دين واحد، وريكم واحد.

﴿فاتقون﴾ بامتثال أوامري، واجتناب زواجري. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ فالواجب من كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمشثوا هذا، ويعملوا به، ولكن أبى الظالمون المفسدون إلا عصياناً، ولهذا قال: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ أي: تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿أمرهم﴾ أي: دينهم ﴿بينهم زبراً﴾ أي: قطعاً كل حزب بما لديهم

﴿ولقد آتينا موسى﴾ بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حيثد من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه الثوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾. ولهذا قال هنا: ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿٥٠﴾ ﴿وجعلنا ابن مريم وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ أي: وأمنتنا على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة، حيث حملته وولذته من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى، ﴿وأويناهما إلى ربوة﴾ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها، ﴿ذات قرار﴾ أي: مستقر وراحة ﴿ومعين﴾ أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿قد جعل ربك تحتك﴾ أي: تحت المكان الذي أنت فيه، لارتفاعه، ﴿سرياً﴾ أي: نهراً وهو المعين، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً * فكلوا واشربوا وقرى عينا﴾.

﴿٥١ - ٥٦﴾ ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ وإن هذه أمركم أمه واحدة وأنا ربيكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون * فذرهم في غمرتهم حتى حين * يحسبون أننا نمدهم به من مال وبئس * نसार لهم في الخيرات بل لا يشعرون * هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله، بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة. ويخبرهم أنه بما يعملون عليم، فكل عمل عملوه، وكل سعي



وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئيه * ك «هامان» وغيره من رؤسائهم، ﴿فاستكبروا﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه، ﴿وكانوا قوماً عالين﴾ أي: وصفهم العلو، والقهر، والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

﴿فقالوا﴾ كبراً وتبهاً، وتحذيراً للضعفاء العقول، وقمويماً: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا مئة الله عليهما بالرسالة.

﴿وقومهما﴾ أي: بنو إسرائيل لنا عابدون﴾ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة، كما قال تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟! ونظير قولهم، قول قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرذلنا بادي الرأي﴾. من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاندة.

ولهذا قال: ﴿فكذبوها فكانوا من

الخير، همهم ما يقرهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوه. ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجلده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسمن السابقين فقال:

﴿وهم لها﴾ أي: للخيرات ﴿سابقون﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعييل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون. ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم وأهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿نفساً إلا وسعها﴾ أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمير جادة السالكين في كل وقت إليه. ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقاً، ﴿وهم لا يظلمون﴾ ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴿مستكبرين به سامراً تيجرون﴾ يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يبتدون به، ولا يصل

أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم برهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي: إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وتفكرون أيضاً في الآيات القرآنية ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعوا إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه، وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

ويتفكرون أيضاً في الآيات الأفقية، كما في قوله: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الألباب﴾ إلى آخر الآيات.

﴿والذين هم برهم لا يشركون﴾ أي: لا شركاً جلياً، كاتخاذ غير الله معبوداً، يدعوه ويرجوه ولا شركاً خفياً، كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله، في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ أي: يعطون من أنفسهم ما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدر عليهم، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك، ﴿و﴾ مع هذا ﴿قلوبهم وجل﴾ أي: خائفة ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم برهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ أي: في ميدان التسارع في أفعال

أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فرحون﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم، من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون.

﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم ﴿المحقون﴾ حتى حين ﴿أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفع فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟﴾

﴿المجسبون﴾ إنما تمدهم به من مال وبئس ﴿تسارع لهم في الخيرات﴾ أي: أيتنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك.

﴿بل لا يشعرون﴾ إنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم، ليزدادوا إثماً، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾.

﴿٥٧ - ٦٢﴾ ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴿والذين هم برهم لا يشركون﴾ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ ولا تكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ﴿لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً

يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله ونسال عنه مَنْ له به خبرة، أي: لم يكن الأمر كذلك، فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة «الأمين» فلم لا يصدقونه، حين جاءهم بالحق العظيم، والصدق المبين؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، فلهذا قال ما قال، والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه، لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف.

قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الثابت، الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق، أيضاً فإن في هذا الانتقال مما تقدم، أي: بل الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق ﴿وَأَوَّاهُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العباداة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله. وقد علم كراحتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فيكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكاً ولا تكدياً للرسول، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَكْذِبُونَ﴾ فإن قيل: لم لم يكن الحق موافقاً لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَوَجْهَ ذَلِكَ أَنَّ أَهْوَاءَهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالظُّلْمِ وَالْكَفْرِ وَالْفُسَادِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، فَلَوْ تَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، لِفُسَادِ التَّصَرُّفِ وَالتَّجْدِيرِ الْمُبْنِيِّ عَلَى الظُّلْمِ وَعَدَمِ الْعَدْلِ،

﴿تَهْجُرُونَ﴾ [أي: تقولون الكلام الهجر الذي هو القبيح في] (٢) هذا القرآن. فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن، الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضاً بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقال الله عنهم: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ.

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها، لم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيث ينقذهم، ويريدون عند ذلك هذه الأعمال الساقطة ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه، لأوجب لهم الإيمان، ولنعيم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن، يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أظفاله.

﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أن منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك، ولهذا قالوا، هم ومن أشبههم من الكفار، ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ فأجابهم بقوله: ﴿قَالَ أُولَئِكَ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق، فأجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي: أو منعهم من اتباع الحق، أن رسولهم محمداً ﷺ، غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟

إلى قلوبهم منه شيء. ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا * فَلَمَّا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْهُ، عملوا بحسب هذا الحال، من الأعمال الكفرية، والمعاندة للشرع، ما هو موجب لعقابهم، ﴿وَلَكِنْ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ﴾ هم لها عاملون أي: فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال، التي بقيت عليهم مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها، انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ أي: متنعيمهم، الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكارة، فإذا أخذناهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ ووجدوا منه ﴿إِذَا هُمْ بِمِجَارُونَ﴾ يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ أَنْكُمْ مَنَا لَا تَنْصُرُونَ﴾ وإذا لم تأتهم النصرة من الله، وانقطع عنهم (١) الغوث من جانبه، لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل ﴿كُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنْكَصُونَ﴾ أي: راجعين القهقري إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قال المفسرون معناه: مستكبرين به، الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين، أو الحرم، أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلى، ﴿سَامِرًا﴾ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت

(٢) زيادة من هامش: ب.

(١) كذا في ب، وفي أ: عنه.

فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل **﴿بل أثبتناهم بذكرهم﴾** أي: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم، حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس.

﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق **﴿نسوا الله﴾** فنسيهم **﴿نسوا الله﴾** فأنساهم أنفسهم **﴿فالقرآن ومن جاء به، أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟﴾**

﴿٧٢﴾ **﴿أم تسألهم خرجاً فخرج ربك خيرٌ وهو خيرُ الرازقين﴾** أي: أو منعهم من اتباعك يا محمد، أنك تسألهم على الإجابة أجراً **﴿فهم من مغرم مثقلون﴾** يتكلفون من اتباعك، بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك **﴿فخرج ربك خير وهو خير الرازقين﴾** وهذا كما قال الأنبياء لأمتهم: **﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الله﴾** أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحاً لهم، وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الزلزل أنصخ للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن أعمهم خير الجزاء، ورزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ **﴿وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾** وإن الدين لا يؤمنون بالأخيرة عن الصراط لناكبون **﴿ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات، كل سبب موجب للإيمان، وذكر الموانع، وبين فسادها، واحداً بعد واحد، فذكر من الموانع أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يدبروا القول، وأنهم اقتدوا بآبائهم، وأنهم قالوا: برسولهم جنة، كما تقدم الكلام عليها، وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم، تدبر القرآن، وتلقى نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال**

الرسول محمد **﴿ص﴾**، وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجراً، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود، من قرب حنيئة سمحة، حنيئة في التوحيد، سمحة في العمل، فدعوتك إليهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن يتبعك، لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغيثهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم **﴿عن الصراط لناكبون﴾** متجنبون منحرفون، عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.

وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفاً في جميع أموره، قال تعالى: **﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾**.

﴿٧٥ - ٧٧﴾ **﴿ولو رحناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾** ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون **﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾** هذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر، دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه. إن الله إذا كشف الضر عنهم لجوا، أي: استمروا في طغيانهم يعمهون، أي: يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.

كما ذكر الله حالهم عند زكوب الفلك، وأنهم يدعونه مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم إذا هم يبعثون في الأرض بالشرك وغيره.

﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ قال المفسرون: المراد بذلك: الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم

﴿ولو كشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون **﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾** وهو الذي أنشأكم السم والابصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون **﴿وهو الذي أنشأكم السم والابصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾** وهو الذي أنشأكم في الأرض واليه تحشرون **﴿وهو الذي يحيي ويميت وله أسخايف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾** بل قالوا في آيات الله الكبر **﴿قالوا له آياتنا وتؤمنون﴾** وكنا نرى آياتك عظاماً **﴿فإنما لتؤمنون﴾** لقد وعدنا نحن وآبائنا أن نبعث فيك نبياً **﴿فإنما لتؤمنون﴾** قل إن الله أسخايف الأولين **﴿قل إن الأرض ومن فيها كنز ثمين لا تعلمون﴾** سيؤولون يومئذ أفلا تذكرون **﴿قل إن ربك السكوت السميع العليم﴾** سيؤولون يومئذ أفلا تتقون **﴿قل إن ربكم لملكون حكيم﴾** وهو خير ولا يخاف عليه **﴿إن كثر تكفون﴾** سيؤولون يومئذ أفلا تتقون

بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد، **﴿فما استكانوا لربهم﴾** أي: خضعوا وذلوا **﴿وما يتضرعون﴾** إليه ويفتقرون، بل مر عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصيبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله: **﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد﴾** كالقتل يوم بدر وغيره، **﴿إذا هم فيه مبلسون﴾** أيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليخذروا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما ألقع عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤدب الله بها عباده. قال تعالى فيها: **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾**.

﴿٧٨ - ٨٠﴾ **﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾** وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون **﴿وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾** يخبر تعالى بمنته على عباده الداعية^(١) لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال: **﴿وهو الذي أنشأ لكم**

ما يوعدون * رب فلا تجعلني في القوم الظالمين * وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون * لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يدعوا لها، حتى عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قل رب إما تريني ما يوعدون﴾ أي: أي وقت أريتنى عذابهم، وأحضرتني ذلك، ﴿رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ أي: اعصمني واحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضاً من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العاصي وغيره، قال الله في تقريب عذابهم: ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ ولكن إن أخرته فلحكمة، وإلا، فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم.

﴿٩٦ - ٩٨﴾ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون * هذا من مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك، أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، ولتصف العاصي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب، قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ وقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ وما يلقاها﴾ أي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل﴾ إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ

ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿وإنهم لكاذبون﴾.

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال: ﴿إِذَا﴾ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون ﴿لذهب كل إله بما خلق﴾ أي: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبة، ﴿ولعل بعضهم على بعض﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة، والسيارة، فإنها منذ خلقت، وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدر، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً، ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين ربَّين!!

﴿سبحان الله عما يصفون﴾ قد نطقت بلسان خالها، وأفهمت ببدع أشكالها، أن المدبر لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات، في ربوبيته لها، وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك، لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة، ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحيلات والمستكنات، ﴿والشهادة﴾ وهو ما نشاهد من ذلك، ﴿فتعالى﴾ أي: ارتفع وعظم، ﴿عما يشركون﴾ به، من لا علم عنده، إلا ما علمه الله^(١).

﴿٩٣ - ٩٥﴾ قل رب إما تريني

وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿أفلا تذكرون﴾ ﴿أفلا تتقون﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى. ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي: ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره؟

و «الملكوت»: صيغة مبالغة، بمعنى الملك. ﴿وهو يحير﴾ عبادته من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم، ﴿ولا يجار عليه﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿سيقولون لله﴾ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه.

﴿قل﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزماً لهم، ﴿فأنى تسحرون﴾ أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتهم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي - بلا شك - قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحروا عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿٩٦ - ٩٧﴾ بل أنيناهم بالحق وإنهم لكاذبون * ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعل بعض بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون * يقول تعالى: بل أنينا هؤلاء المكذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم

(١) في ب: شطب حرف الجر (من) وغيرت الجملة فصارت (ولا علم عندهم إلا ما علمه الله).

عظيم.

وقوله: ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾

أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فانت - يا محمد - ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه ^(١) وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر، وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزنه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة في مقابلته، أن يسترشد ما أرشد الله إليه

رسوله فقال: ﴿وقل رب أعوذ بك﴾

أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من

حولي وقوتي ﴿من هزات الشياطين﴾

وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي:

أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب

مباشرتهم وهزمهم ومستمهم، ومن الشر

الذي يسبب حضورهم ووسوستهم،

وهذه ^(٢) استعاذة من مادة الشر كله

وأصله، ويدخل فيها، الاستعاذة من

جميع نزغات الشيطان، ومن منبه

ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا

الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل

شر، ووفق لكل خير.

﴿٩٩-١٠٠﴾ ﴿حتى إذا جاء

أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ لملي

أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة

هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم

يبعثون﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره

الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يتندم

في تلك الحال، إذا رأى ماله، وشاهد

قيح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا،

لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها

وإنما ذلك يقول:

﴿لملي أعمل صالحاً فيما تركت﴾

من العمل، وفرطت في جنب الله.

﴿كلا﴾ أي: لا رجعة له ولا إسهال،

قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون،

﴿إنها﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها

الرجوع إلى الدنيا ﴿كلمة هو قائلها﴾

أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد

صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً

غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما

نهي عنه.

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم

يبعثون﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم

برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين، فهو

هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي

هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب

العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون،

أي: فليعدوا له عُدته، وليأخذوا له

أهبة.

﴿١٠١-١١٤﴾ ﴿فإذا نفخ في

الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا

يتساءلون﴾ فمن ثقلت موازينه

فأولئك هم المفلحون﴾ ومن خفت

موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم

في جهنم خالدون﴾ تلفح وجوههم

النار وهم فيها كالخون﴾ ألم تكن آياتي

تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾ قالوا

ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً

ضالين﴾ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا

فإننا ظالمون﴾ قال اخسأوا فيها ولا

تكلمون﴾ إنه كان فريق من عبادي

يقولون ربنا إنما فاجفروا لنا وأرحنا وأنت

خير الراحمين﴾ فاتخذتهم سخرى

حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم

تضحكون﴾ إني جزيتهم اليوم بما

صبروا أنهم هم الفائزون﴾ قال كم

لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ قالوا

لبثنا يوماً أو بعض يوم فأسأل

العادين﴾ قال إن لبثتم إلا قليلاً لو

أنكم كنتم تعلمون﴾ يخبر تعالى عن

هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم،

من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ

في الصور نفخة البعث، فحشر الناس

أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه

يضييهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم،

التي هي أقوى الأسباب، فغير

الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل

أحد أحداً عن حاله، لاشتغاله بنفسه،

فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة

بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة

بعدها؟ قال تعالى: ﴿يوم يفر المرء من

أخيه﴾ وأمه وأبيه﴾ وصاحبه

وبنيه﴾ لكل امرئ منهم يومئذ شأن

يغنيه ^(٣)

وفي القيامة مواضع، يشتد كرها،

ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به

أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له

وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من

الخير والشر، ﴿فمن ثقلت موازينه﴾

بأن رجحت حسناته على سيئاته

﴿فأولئك هم المفلحون﴾ لنجاتهم من

النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم

بالثناء الجميل، ﴿ومن خفت موازينه﴾

بأن رجحت سيئاته على حسناته،

وأحاطت بها خطيئاته ﴿فأولئك الذين

خسروا أنفسهم﴾ كل خسارة، غير

هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها -

سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة،

لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها،

خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد

خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها

من السعادة الأبدية فقوتها هذا النعيم

المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿في جهنم خالدون﴾ لا يخرجون

منها أبد الأبدين، وهذا الوعيد، إنما

هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته

بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً،

فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن

حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات

لهم، ولكن تُعد أعمالهم وتحصى،

فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون

بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن

عظمت سيئاته، فرجحت على

حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد

فيها، كما دلت على ذلك نصوص

الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين

(١) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٢) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٣) في النسختين وقع تداخل بين آيات سورة عبس وآيات سورة المعارج فكانت أقرب إلى آيات سورة عبس فأثبتها منها.



قليلاً * سواء عيشتم بعده، أم لا * لو أنكم كنتم تعلمون *.

﴿١١٥-١١٦﴾ * أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم * أي: * أفحسبتم * أيها الخلق * أنما خلقناكم عبثاً * أي: سدى وباطلاً، تأكلون وتشربون وتفرحون، وتتمتعون ببلذات الدنيا، وترككم لا نأمركم، ولا [لا] نهاكم ولا نهيكم، ونعاقبكم؟ ولهذا قال: * وأنكم إلينا لا ترجعون * لا يخطر هذا ببالكم، * فتعالى الله * أي: تعظم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدر في حكمته. * الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم * فكونه مَلِكاً للخلق كله حقاً، في صدقه، ووعده، ووعيده، مألوهاً معبوداً، لما له من الكمال * ربُّ العرش الكريم * فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثاً.

﴿١١٧-١١٨﴾ * ومن يسد مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين * أي: ومن دعا

خير الراحمين * فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم، * فاتخذوهم * أيها الكفرة الأندال ناقصو العقول والأحلام * سخرياً * تزهوون بهم وتحقرونهم، حتى اشتغلتم بذلك السفه.

﴿حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جرأة؟! * إني جزيتهم اليوم بما صبروا * على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي.

﴿أنهم هم الفائزون﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ الآيات.

﴿قال﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام، حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون [من] الخير، الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربه.

﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم * كلامهم هذا، مبني على استقصارهم جداً، لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فلهاذا قالوا: ﴿فاسأل العادين﴾ أي: الضابطین لعدده، وأما هم، ففي شغل شاغل^(١)، وعذاب مذهل، عن معرفة عدده، فقال لهم: ﴿إن لبثتم إلا

فقال: ﴿تلفح وجوههم النار﴾ أي: تخشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لبهها عن وجوههم، * وهم فيها كالحون * قد عبت وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، فيقال لهم - توبيحاً ولوماً -: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنظروا، * فكنتم بها تكذبون * ظلماً منكم وعناداً، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبيئات للمحق والمبطل، فحيث أنفروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا * أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع * وكنا قوماً ضالين * في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾.

﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ ولم يُبَيَّنْ الله لهم حجة، بل قطع أعضائهم، وعمرهم في الدنيا، ما يتذكر فيه [من] المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جواباً لنسوالهم: ﴿اخشوا فيها ولا تكلمون﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العافية - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأيس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايته من عذاب الجحيم، ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا أنفأ غفر لنا وارحمنا وأنت

(١) كذا في ب، وفي أ: كلمة غير واضحة كأنها: مناغل.

صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخير أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله، والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه، مع تحريم الله لذلك، لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والنكاح زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً، لم يقدم على ذلك، وهذا دليل ضريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الإقترانات والازدواجيات، وقد قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي: قرنائهم، فحرم الله ذلك، لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، وإلحاق الأولاد، الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها، مما بعضه كاف للتحريم^(١)، وفي هذا دليل أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم الملح، الذي هو الإيمان المطلق.

﴿٤-٥﴾ «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون» * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم لما عظم تعالى أمر

رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وفرضناها﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وانزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أحكاماً جلية، وأوامر وزواجر، وحكماً عظيمة ﴿لعلكم تذكرون﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿٢-٣﴾ «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عداهما طائفة من المؤمنين».

هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مئة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهما، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فتحن وإن رحمتها لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليستهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا ينقص، والله أعلم.

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ هذا بيان لرديلة الزنا، وأنه يندنس عرض



مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئاً، لأنه كافر، ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿وقل﴾ داعياً لربك غلصاً له الدين ﴿رب اغفر﴾ لنا حتى نتجنبنا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير. ﴿وأنت خير الراحمين﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنين، من فضل الله وإحسانه

تفسير سورة النور وهي مدنية

﴿١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ أي: هذه ﴿سورة﴾ عظيمة القدر ﴿أنزلناها﴾

الزاني^(١) بوجوب جلده، وكذا رجمه إن كان محصناً، وأنه لا تجوز عقوبته، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر، بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا فقال: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾** أي: النساء الأحرار العفاف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرَّمْيِ الرَّمْيُ بالزنا، بدليل السياق، **﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾** على ما رموا به **﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ﴾** أي: رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً، **﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾** بسوط متوسط، يؤلم فيه، ولا يبلغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإللاف، وفي هذا تقدير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المذنب كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب التعزير.

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولن تحُدَّ على القذف، حتى يتوب كما يأتي، **﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسلط الناس على الكلام بما تكلم به، وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب.

وقوله: **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾** فإن الله غفور رحيم، فالتوبة في هذا الموضع، أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه، أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء، فإذا تاب القاذف وأصلح عمله بدل إساءته إحساناً، زال عنه الفسق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح، فإن الله غفور رحيم يغفر

الذنوب جميعاً، لمن تاب وأناب، وإنما يجلد القاذف، إذا لم يأت بأربعة شهداء، إذا لم يكن زوجاً، فإن كان زوجاً، فقد ذكر بقوله:

﴿٦٠-١٠﴾ **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾**

وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته، دائرة عنه الحد، لأن الغالب، أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي يندسه ما يندسها إلا إذا كان صادقاً، ولأن له في ذلك حقاً، وخوفاً من إحقاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره فقال: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾** أي: الحرائر^(٢) لا المملوكات.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ على رميهم بذلك **﴿شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾** بأن لم يقيموا شهداء، على ما رمواهم به **﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** سماها شهادة، لأنها نائية مناب الشهود، بأن يقول: «أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميته به».

﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكداً تلك الشهادات، بأن يدعو على نفسه، باللعة إن كان كاذباً، فإذا تم لعانه، سقط عنه حد القذف، ظاهر الآيات، ولو سمي الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط حقه تبعاً لها. وهل يقام عليها الحد، بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل، أنه يقام عليها الحد، بدليل قوله: **﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ**

إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالْهَبَاءِ نُفُثٍ وَلَا تَحْسَبُوهُ شَيْئًا وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنَّهُمْ مَخْلُوقَاتُ الْفُلْكِ لَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَمْرَهُمْ بِبَعْضٍ وَلَئِنْ لَمْ يَأْتِ الْبَيِّنَاتُ لَوَلَّوْا أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنَّهُمْ مَخْلُوقَاتُ الْفُلْكِ لَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَمْرَهُمْ بِبَعْضٍ وَلَئِنْ لَمْ يَأْتِ الْبَيِّنَاتُ لَوَلَّوْا أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنَّهُمْ مَخْلُوقَاتُ الْفُلْكِ لَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَمْرَهُمْ بِبَعْضٍ وَلَئِنْ لَمْ يَأْتِ الْبَيِّنَاتُ لَوَلَّوْا أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنَّهُمْ مَخْلُوقَاتُ الْفُلْكِ لَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَمْرَهُمْ بِبَعْضٍ وَلَئِنْ لَمْ يَأْتِ الْبَيِّنَاتُ لَوَلَّوْا أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٨﴾ وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنَّهُمْ مَخْلُوقَاتُ الْفُلْكِ لَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَمْرَهُمْ بِبَعْضٍ وَلَئِنْ لَمْ يَأْتِ الْبَيِّنَاتُ لَوَلَّوْا أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

تشهد إلى آخره، فلولا أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه، لم يكن لعانها درأاً له.

ويدرأ عنها، أي: يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج، بشهادات من جنسها.

﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وتزيد في الخامسة، مؤكداً لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما، فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاحق عليه، وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما، ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله، ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين، لشدة الحاجة إليه، وأن بين

(١) في أ: الزنا، وفي ب: الكلمة مشطوبة.

(٢) في النسختين: الأحرار ولعل الصواب ما أثبت.

من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة، «والذي تولى كبيره» أي: معظم الإنك، وهو المتأفق الخبيث، عبد الله بن أبي بن سلول - لعنه الله - «له عذاب عظيم» ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة بما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل، «وقالوا» بسبب ذلك الظن «سبحانك» أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تبثلي أصفياءك بالأمور الشنيعة، «هذا إفك مبين» أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء، وأبينها. فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

«لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء» أي: هلا جاء الرامون على ما رموا به، بأربعة شهداء أي: عدول مرضيين. «فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك، من دون أربعة شهود، ولهذا قال: «فأولئك عند الله هم الكاذبون» ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون»، وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على زميه، من دون نصاب الشهادة بالصدق.

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة» بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم، «لأنكم فيما أفضيتكم» أي: خضتم فيه «من شأن الإفك» عذاب عظيم «لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته، أن

الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، وروى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحسب الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ.

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالصواب النافعة. ف قوله تعالى: «إن الذين جاؤوا بالإفك» أي: الكذب الشنيع، وهو زمني أم المؤمنين «عصبة منكم» أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق [في إيمانه ولكنه اغتر بترويج المنافقين] (١) ومنهم المتأفق.

«لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عنوم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم، ففيه أن المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم، واجتماعهم على مصالحهم، كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد، أن يقدح في أخيه المؤمن، الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحه.

«لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم» وهذا وعيد للذين جاؤوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا



لكم شدة الرضا وفضاعته، وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

«١١- ٢٦» «إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» إلى آخر الآيات وهو قوله: «لهم مغفرة ورضق كريم» لما ذكر فيما تقدم، تعظيم الزماني بالزنا عموماً، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات، نزلت في قصة الإفك المشهورة، الثابتة في الصحيح والسنن والمسانيد.

وحاصلها أن النبي ﷺ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فأنجبت في طلبه ورحلوا جملها وهو دجها، فلم يفقدها، ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن العطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقودها بعد ما نزل

شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾ أي: تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل. ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم، ﴿وتحسبونه هيناً﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك، ﴿وهو عند الله عظيم﴾ وهذا فيه الزجر البالغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه الشهاون بها، فإن العبد لا يقبده حسابانه شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقفته مرة أخرى.

﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ أي: وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿قلتم﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمتنع إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿هذا بهتان﴾ أي: كذب عظيم. ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾ أي: لتظيره، من رَمَى المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، على ما بين لنا ﴿إن الله نعماً يعظكم به﴾. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات. ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ المشتملة على بيان الأحكام، والوعظ، والزجر، والترغيب، والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جلياً. ﴿والله عليم﴾ أي: كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته، أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبعة المستعظمة، فيحبون أن تشيع الفاحشة ﴿في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة، صادرة أو غير صادرة.

وكيل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فلذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلون.

﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ قد أحاط بكم من كل جانب ﴿ورحمته﴾ عليكم ﴿وأن الله رؤوف رحيم﴾ لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي، ما لن تحصوه، أو تعدوه.

ولما نبه عن هذا الذنب بخصوصه، نبه عن الذنوب عموماً فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: طريقه ووساوسه. وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب، واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى، أن بين الحكم، وهو: النهي عن اتباع خطوات الشيطان. والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه، من الشر المقتضي، والداعي لتركه فقال: ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه﴾ أي: الشيطان ﴿يأمر بالفحشاء﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب

العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه. ﴿والمنكر﴾: هو ما تنكره العقول ولا تعرفه. فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان، لا تخرج عن ذلك، فنهى الله عنها للعباد، نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالردائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم، أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلى وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يترك منكم من تركي.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكها، أنت وليها ومولاها»، ولهذا قال: ﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ من يعلم منه أن يزكى بالتركية، ولهذا قال: ﴿والله سميع عليم﴾.

﴿ولا يأتل﴾ أي: لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم والسعة﴾ أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ﴿كان من جملة الخائضين في الإفك﴾ مسطح بن أثانة وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا يفتق عليه، لقوله الذي قال.

فنزلت هذه الآية، ينهاهم^(١) عن هذا الحلف المتضمن لقطع الثقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعدّه بمغفرة الله إن غفر له، فقال:

حيث قال «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالسرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناساً، لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة، «وتسلموا على أهلها» وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، آذخل»؟

«ذلكم» أي: الاستئذان المذكور «خير لكم لعلكم تذكرون» لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن.

«فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا» أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو مشرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبير والاشتمار من هذه الحال، «هو أركي لكم» أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتميتكم بالحنسات. «والله بما تعملون عليم» فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه، هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله:

«ليس عليكم جناح» أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم،

للخبثات» أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبث، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء - خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإنك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي!! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها، ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لبطل مقالا، ولا لشك وشبهة مجالا، فقال: «أولئك مبرؤون مما يقولون» والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً «لهم مغفرة» تستغرق الذنوب «ورزق كريم» في الجنة صادر من الرب الكريم.

«٢٧- ٢٩» «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون» * فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أركي لكم والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاصد: منها ما ذكره الرسول ﷺ،

«ألا تخبرون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» إذا عاملتم عبيده، بالعرف والصفح، عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية -: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: «إن الذين يرمون المحصنات» أي: العفاف عن الفجور «الغافلات» التي لم يخطر ذلك بقلوبهن «المؤمنات» «لعنوا في الدنيا والآخرة» واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين «ولهم عذاب عظيم» وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته.

وذلك العذاب يوم القيامة «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم، «يومئذ يوفيه الله دينهم الحق» أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق، الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً، «ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً» ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعده ووعيدته، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا ثم حق، إلا في الله وما من الله.

«الخبثات للخبثين والخبثون

وفيه حرج ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ وهذا من احترازات القرآن العجيبة، فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لفظ عام في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه، وفيها متاعه، وليس فيها ساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْذُلُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أحوالكم الظاهرة والخفية، وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية.

﴿٣٠﴾ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: أُرشد المؤمنين، وقُلْ لهم: الذين معهم إيمان، يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبية، وإلى المردان، الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن البوطة الحرام، في قُبُل أو دُبُر، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها. ﴿ذَلِكَ﴾ الحفظ للأبصار والفروج ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾: أظهر وأطيب، وأمنى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذي^(١) تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه، ومن غص ببصره عن المحرم، أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته، مع داعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظاً، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما، أوقعا في

بلايا وعن، وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً، لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أتى بأداة «من» الدالة على التبعض، فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال الحاجة، ونحو الشاهد والعامل والمخاطب، ونحو ذلك. ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم، ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ بَخْمَرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَأَبْأَتُهُنَّ وَأَبْنَاؤُهُنَّ وَأَخُوتُهُنَّ وَأُخْوَانُهُنَّ وَآلُهَا وَمَنْ يَزْنِ فَإِنَّ عَذَابَهُ لَشَدِيدٌ﴾ أي: قل للمؤمنات: يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن وأبائهن وأبنائهن وأخواتهن وأخوانهن وآلهن ومن يزن فإن عذابه لشديد. ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ بَخْمَرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَأَبْأَتُهُنَّ وَأَبْنَاؤُهُنَّ وَأَخُوتُهُنَّ وَأُخْوَانُهُنَّ وَآلُهَا وَمَنْ يَزْنِ فَإِنَّ عَذَابَهُ لَشَدِيدٌ﴾ أي: قل للمؤمنات: يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن وأبائهن وأبنائهن وأخواتهن وأخوانهن وآلهن ومن يزن فإن عذابه لشديد. ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ بَخْمَرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَأَبْأَتُهُنَّ وَأَبْنَاؤُهُنَّ وَأَخُوتُهُنَّ وَأُخْوَانُهُنَّ وَآلُهَا وَمَنْ يَزْنِ فَإِنَّ عَذَابَهُ لَشَدِيدٌ﴾

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ بَخْمَرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَأَبْأَتُهُنَّ وَأَبْنَاؤُهُنَّ وَأَخُوتُهُنَّ وَأُخْوَانُهُنَّ وَآلُهَا وَمَنْ يَزْنِ فَإِنَّ عَذَابَهُ لَشَدِيدٌ﴾

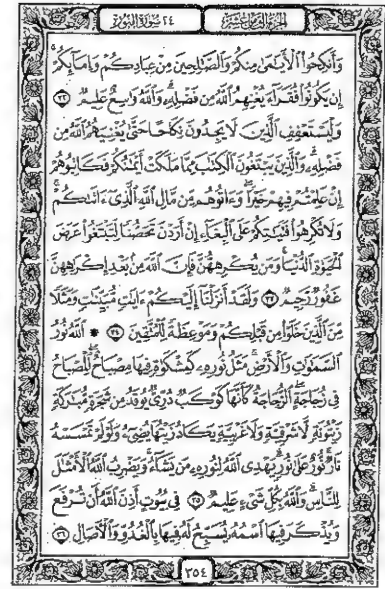
أبائهن أو آباء بعولتهن، يشمل الأب بنفسه، والجد وإن علا، ﴿أو أبائتهن أو أبناء بعولتهن﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا ﴿أو إخوانهن أو بني إخوانهن﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأُم. ﴿أو بني إخوانهن أو نساتهن﴾ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقاً، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية، أي: النساء المسلمات، اللاتي من جنسكم، ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية.

﴿أو ما ملكت إيمانهن﴾ فيجوز للملوك إذا كان كله للأشي، أن ينظر لسيدته، ما دامت مالكة له كله، فإن زال الملك أو بعضه، لم يجوز النظر.

﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ أي: أو الذين يتبعونكم، ويتعلقون بكم، من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة، كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعنن الذي لم يبق له شهوة، لا في قرجه، ولا في قلبه، فإن هذا لا عذور من نظره.

﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ أي: الأطفال الذين دون التمييز، فإنه يجوز نظرهم للنساء

(١) كذا في ب، وفي أ: التي.



عادة، ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للزواج المحتاجون إليه^(١)، من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه، قبل حاجته إلى الزواج. ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أي: الأزواج والمزوجين ﴿يَغْنِيهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فلا يمنعكم ما تنهون، من أنه إذا تزوج، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على الزواج، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما، بمن لا يستحق، فيعطي كلاً ما علمه واقتضاه حكمه.

﴿وَلَيْسَتَعْتَفُفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأنساب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يقدرون نكاحاً، إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم [وليس لهم]^(٢)، من قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير، أحسن من تقدير من قدر «لا يجدون مهر نكاح»، وجعلوا المضاف إليه نائباً مناب المضاف، فلان في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف.

والثاني: كون المعنى قاصراً على من له حالان، حالة غنى بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه، كما ذكرنا.

﴿حَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعد

الفلاح إلا بالتزوية، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى: ما يحبه ظاهراً وباطناً، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يتفنون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفورٌ رحيم﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياد، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامي وهم: من لا أزواج لهم، من رجال، ونساء ثيب، وأبكار، فيجب على القريب وولي التيسر، أن يزوجه من يحتاج للزواج، ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ يحتمل أن المراد بالصالحين، صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً - مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له على صلاحه، وترغيباً له فيه، ولأن الفاسد بالزنا، منهى عن تزوجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة، أن نكاح الزاني والزانية حرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصلاح في العبيد والإماء دون الأحرار، لكثرة وجود ذلك في العبيد

الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد ودل هذا، أن المميز تستتر منه المرأة، لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليُصَوِّرَ ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة، فقال:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لِعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى

(١) في النسختين: الصالحين للزواج المحتاجين إليه.

(٢) زيادة من ب بخط مغاير، وقد حذف بعدها حرف (من).

للمستعفف أن الله سيغنيه ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لئلا يشق عليه ما هو فيه.

وقوله ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكتابوه، ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خَيْرًا﴾ أي: قدرة على التكسب، وصلاًحاً في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه. وربما جد واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استخياب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعاونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿مَنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة، فأحسنوا العباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يتدبّر بكتابه، وأنه إذا لم يعلم منه خيراً، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كلاً على الناس، ضائعاً، وإما أن يخاف إذا عتق، وصار في حرية نفسه، أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر

بكتابه، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ﴾ أي: إماءكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أي: أن تكون زانية ﴿إِنْ أُرِدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصناً فإنها تكون بغياً، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهي لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمتة على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال: ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيراً منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، متاع قليل يعرض ثم يزول.

فكسبكم النزاهة، والنظافة، والمروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿وَمَنْ يَكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فُلِّبَ إلى الله، ولْيُفْلِحْ عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكائها من العذاب، وكما رحم أمتة بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مِثَالٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات، التي تلاها على عباد، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحققها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مِثَالٍ وَمِثَلًا مِنْ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من أخبار الأولين، الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم تعتبرونه مثلاً ومعتبراً، لمن فعل

مثل أفعالهم أن يجازى مثل ما جوزوا. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿٣٥﴾ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُوِّرْ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي، وذلك نه تعالى بذاته نور، وحجابه - الذي لولا لطفه، لأحرقت سبجات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكروسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة.

وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا، كل محل يفقد نوره قُتِمَ الظلمة والخضر، ﴿مِثْلُ نَوْرِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والنوران في قلوب المؤمنين، ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أي: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿المصباح في زجاجة الزجاج﴾ من صفاتها وبهاؤها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: مضيء إضاءة الدر. ﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاج الدرية ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي تاره من أنور ما يكون، ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس [أولاً] (١) النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام،

(١) في النسختين آخر النهار، ولعل الصواب ما أثبت، ثم إن الكلمة معدلة من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.

لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن تجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على «ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة». بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبواً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيباً وترهيباً - فقال: «يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار» من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه، «ليجزئهم الله أحسن ما عملوا» والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون الباطحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن، كقوله تعالى: «ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» «ويزيدهم من فضله» زيادة كثيرة عن الجزء المقابل لأعمالهم، «والله يرزق من يشاء بغير حساب» بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جداً.

﴿٣٩-٤٠﴾ «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب» أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» هذان مثلاً، ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها

بالغدو والأصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب.

أي: يتعبد الله «في بيوت» عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد. «أذن الله» أي: أمر ووصى «أن ترفع» ويذكر فيها اسمه» هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها، بناؤها، وكسها، وتنظيفها من النجاسة والأذى، وصونها عن المخانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

«ويذكر فيها اسمه» يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، وتفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوباً عند أكثر العلماء، أو استحباباً عند آخرين. ثم مدح تعالى عمارتها بالعبادة فقال: «يسبح له» إخلاصاً «بالغدو» أول النهار «والأصال» آخره «رجال». خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته. ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادها عند الصباح والمساء. أي: يسبح فيها لله، رجال، وأي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، «لا تلهيهم تجارة» وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: «ولا بيع» من باب عطف الخاص على العام،

تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أقصى لزيته، ولهذا قال: «يكاد زيتها» من صفاته «يضيء ولو لم تمسه نار» فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة «نور على نور» أي: نور النار، ونور الزيت.

وجوه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفاته من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاج الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك، قال: «يهدي الله لنوره من يشاء» ممن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. «ويضرب الله الأمثال للناس» ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علماً واضحاً، «والله يكل شيء عليم» فعلمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفصيلها، وأنها مصلحة للعباد، فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها متوها بها فقال:

﴿٣٦-٣٨﴾ «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها

فقال: ﴿والذين كفروا﴾ برهم وكذبوا رسله ﴿أعمالهم كسراب بقيعة﴾ أي: بقاع، لا شجر فيه ولا نبت.

﴿بحسب الظمآن ماء﴾ شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه، ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، تَرَى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور، أصحلاً نافعة، فيغره صورتها، ويغلبه خيالها، وبحسبها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها بل مضطراً إليها، كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً، والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل ﴿وجد الله عنده فوفاه حسابه﴾. لم يخف عليه من عمله نقير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً، ﴿والله سريع الحساب﴾ فلا يستبطيء الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي بقيعة، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر، فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني، لبطان أعمال الكفار ﴿كظلمات في بحر لجي﴾ بعيد قعره، طويل مداه ﴿ينشأ موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾ ظلمة البحر اللجي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المترامية، ثم فوق ذلك، ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جداً، بحيث إن الكائن في تلك الحال ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها، كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة، التي لا خير

فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك، ظلمة الجهل، وفوق ذلك، ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره، ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ لأن نفسه ظلمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور، إلا ما أعطاها مولاها، ومنحها ربه. يحتمل أن هذين المثالين، لأعمال جميع الكفار، كل منهما، منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال، لطائفة وفرقة. فالأول، للمتبعين، والثاني، للتابعين، والله أعلم.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ والله عليم بما يفعلون ﴿والله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير﴾ ينه تعالى عباده على عظمتهم، وكمال سلطانه، واقتدار جميع المخلوقات له في ربوبيتها، وعبادتها فقال: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض﴾ من حيوان وجماد ﴿والطير صافات﴾ أي: صافات أجنحتها، في جو السماء، تسبح ربه. ﴿كل﴾ من هذه المخلوقات ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللاتقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها^(١) شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا، قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

(٣) في النسخين: خالقها، ولعل الصواب ما أثبت.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْمِعُوا بَيْنَهُمْ لَوْ سَمِعْتُمْ أَوَّلَ نَدْوَاهُمْ فَقُلُوا هَذَا عَلَى اللَّهِ وَأَعْلَانُ لَهُمْ مَخْلُوعًا وَمَا لَكُم مِّنْ بَاطِلٍ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿١﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرٌّ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرٌّ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرٌّ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرٌّ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿٥﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرٌّ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرٌّ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿٧﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرٌّ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرٌّ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿٩﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرٌّ لِّمَن يَعْلَمُ الْبَاطِلَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُدَبَّرُونَ بِغُورٍ ﴿١٠﴾

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا - أيها العباد - منها، إلا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقولها تعالى: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.

فلما بين عبوديتهم واقتدارهم إليه - من جهة العبادة والتوحيد - بين اقتدارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال:

﴿والله ملك السماوات والأرض﴾ خالقهما^(٣) ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي [والقدر]، في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، بدليل قوله: ﴿والى الله المصير﴾ أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿ألم تر أن الله يزوجي سبحاً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ الله سنا برقه يذهب بالأبصار ﴿يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي

(٤) زيادة من هامش: ب.

(١) في النسخين (منه).

(٢) كذا في ب، وفي أ: علمها.



المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم.

﴿٤٥﴾ «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير» ينبه عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض، «من ماء» أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: «وجعلنا من الماء كل شيء حي».

فالحيوانات التي تتولد، مادتها ماء النطفة، حين يلقح الذكر الأنثى. والحيوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء، يتولد من غير ماء أبداً، فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة، «فمنهم من يمشي على بطنه» كالحية ونحوها، «ومنهم من يمشي على رجلين» كالآدميين، وكثير من الطيور، «ومنهم من يمشي على أربع» كبهيمة الأنعام ونحوها. فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال: «يخلق الله ما يشاء» أي: من المخلوقات، على ما يشاؤه من الصفات، «إن الله على كل شيء قدير» كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف «وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون».

﴿٤٦﴾ «لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» أي: لقد رحمتنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: واضحات الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب الحمودة، والمعارف الرشيدة، فاتضح بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي،

والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كمل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان «ليهلك» بعد ذلك «من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة»، «والله يهدي من يشاء» ممن سبقت لهم سابقة الحسن، وقدم الصدق، «إلى صراط مستقيم» أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به. عمو البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحاجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

﴿٤٧﴾ «ويقولون آتنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين» وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون * يخبر تعالى عن حالة الظالمين، عن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون بألسنتهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلَّياً عظيماً، بدليل قوله: «وهم معرضون» فإن التولي، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا التولي معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير من يدعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً: العبادات التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والنفقات الزوجية والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

«وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم» أي: إذا صار بينهم وبين أحد

الأبصار» أي: ألم تشاهد بصرك، عظيم قدرة الله، وكيف «يزجي» أي: يسوق «سحاباً» قطعاً متفرقة ثم يؤلف بين تلك القطع، فيجعلها سحاباً مترامكماً، مثل الجبال.

«فترى الودق» أي: النوايل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطاً متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلى بذلك الغدران، وتندفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبث الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب برداً يلطف ما يصيبه.

«فيمصّب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء» بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يمد عليها، «يكاد سنا برقه» أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته «ينهب بالابصار» أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع ويتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟

«يقلب الله الليل والنهار» من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، من ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويبدّل الأيام بين عباد، «إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار» أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية. فالبصير ينظر إلى هذه

حكومة، ودعوا إلى حكم الله ورسوله
﴿إذا فريق منهم معرضون﴾ يريدون
أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام
القوانين غير الشرعية على الأحكام
الشرعية، لعلمهم أن الحق عليهم،
وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق
الواقع، ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا
إليه﴾ أي: إلى حكم الشرع ﴿مذعنين﴾
وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي،
وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم،
فليسوا عمد وحين في هذه الحال، ولو
أتوا إليه مذعنين، لأن العبد حقيقة،
من يتبع الحق فيما يجب ويكره، وفيما
يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع
عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته،
ويقدم الهوى على الشرع، فليس بعبد
على الحقيقة، قال الله في لومهم على
الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أنفي
قلوبهم مرض﴾ أي: علة، أخرجت
القلب عن صحته وأزالت حاسته،
فصار بمنزلة المريض، الذي يعرض
عما يفعه، ويقبل على ما يضره، ﴿أم
ارتابوا﴾ أي: شكوا، وقلقت قلوبهم
من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه
لا يحكم بالحق، ﴿أم يخافون أن
يخيف الله عليهم ورسوله﴾ أي: يحكم
عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا
وصفهم ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾

وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية
العدالة والقسط، وموافقة الحكمة.
﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم
يوقنون﴾. وفي هذه الآيات، دليل على
أن الإيمان، ليس هو مجرد القول حتى
يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان
عمن تولوا عن الطاعة، ووجوب
الانقياد لحكم الله ورسوله في كل
حال، وأن من ينقذه دل على مرض
في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يحرم
إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن
بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم
الشرعي، ذكر حالة المؤمنين
الممدوحين، فقال:

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿إنما كان قول
المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله
ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا
وأولئك هم المفلحون﴾ ومن يطع الله
ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم
الفائزون﴾.

أي: ﴿إنما كان قول المؤمنين﴾
حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم
حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم
بينهم، سواء وافق أهواءهم أو
خالفها، ﴿أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾
أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا
من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة،
سالة من الحرج.

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ حصر
الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز
بالمطلوب، والنجاة من المكروه،
ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله،
وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم
خصوصاً، ذكر فضلها عموماً، في
جميع الأحوال، فقال: ﴿ومن يطع الله
ورسوله﴾ فيصدق خبرهما ويمثل
أمرهما، ﴿ويخش الله﴾ أي: يخافه
خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى
عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا
قال: ﴿ويتقه﴾ بترك المحظور، لأن
التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها،
فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند
اقتنائها بالبر أو الطاعة - كما في هذا
الموضع - تفسر بتوقفي عذاب الله،
بترك معاصيه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا
بين طاعة الله وطاعة رسوله،
وخشية الله وتقواه، ﴿هم الفائزون﴾
بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه،
ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه،
فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف
بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب
ما قصر عنه من هذه الأوصاف
الحميدة، واشتملت هذه الآية، على
الحق المشترك بين الله وبين رسوله،
وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق
المختص بالله، وهو الخشية والتقوى،

وبقي الحق الثالث المختص بالرسول،
وهو التعزيز والتوقير، كما جمع بين
الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في
قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه
وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾.

﴿٥٣-٥٤﴾ ﴿وأقسموا بالله جهد
أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل
لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير
بما تعملون﴾ قل أطيعوا الله وأطيعوا
الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل
وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا
وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يخبر
تعالى عن حالة المتخلفين عن
الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين،
ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان
أنهم يقسمون بالله، ﴿لئن أمرتهم﴾ فيما
يستقبل، أولئن نصصت عليهم حين
خرجت ﴿ليخرجن﴾ والمعنى الأول
أولى. قال الله - راداً عليهم -: ﴿قل
لا تقسموا﴾ أي: لا نحتاج إلى
إقسامكم ولا إلى أعذاركم، فإن الله
قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم
معروفة، لا تخفى علينا، قد كنا نعرف
منكم التناقل والكسل من غير عذر،
فلا وجه لعذركم وقسمكم، إنما يحتاج
إلى ذلك، من كان أمره محتماً، وحاله
مشتبهاً، فهذا ربما يفيد العذر براءة،
وأما أنتم فكلا ولما، وإنما ينتظر بكم
ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته،
ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إن الله خبير
بما تعملون﴾ فيجازيكم عليها أتم
الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر،
وأما الرسول عليه الصلاة والسلام،
فوظيفته أن يأمركم وينهاكم، ولهذا
قال:

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
فإن استلبوا، كان حظكم
وسعادتكم^(١)، وإن تولوا فإنما عليه
ما حمل﴾ من الرسالة، وقد أداها.
﴿وعليكم ما حملتم﴾ من الطاعة، وقد
بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم
وغيكم واستحقاقكم العذاب. ﴿وإن
تطيعوه تهتدوا﴾ إلى الصراط المستقيم،

(١) في ب: كان حظهم وسعادتهم.

قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال.

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي: تبليغكم البين الذي لا يَبْقَى لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يجاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿٥٥﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ هذا من أو عاده ^(١) الصادقة، التي شرهه تأويلها وغبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فرعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن الشتام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه

الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكتهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجبية الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويُبدلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ التمكن والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا للصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك. ودلت هذه الآية، أن الله قد مكن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقال تعالى: ﴿ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض﴾.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحون﴾ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وماؤاهم النار وليئس المصير. يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بأركانها وشروطها وأدائها، ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى

العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ لعلكم ﴿ترحون﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتَمَنٍّ كاذب، وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ فلا يغركم ما متعوا به في الحياة الدنيا، فإن الله، وإن أهملهم فإنه لا يهملهم ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿وماؤاهم النار وليئس المصير﴾ أي: بئس المآل، مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنهم محاليتهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم: قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلما كان في الغالب قليلاً، قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة، فيده بقوله: ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي: للفاصلة، وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال، يكون المالك والأولاد الصغار كغيرهم، لا يُمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما

ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طوافون عليكم بعضكم على بعض﴾ أي: يشتردون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ بياناً مقروناً بحكمته، ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعها وحكمته، ولهذا قال: ﴿والله عليم حكيم﴾ له العلم المحيط بالواجبات والمستحبات والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بيناها وبيننا مأخذها وحسنها.

﴿٥٩﴾ ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ وهو إنزال المنى يقظة أو مناماً، ﴿فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم، هم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾ الآية.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ ويوضحها، ويفصل أحكامها ﴿والله عليم حكيم﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير، مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾ الآية، ولا يمكن ذلك، إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾.

ومنها: الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن

المحل والمكان، الذي مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستجماء، ونحو ذلك.

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط، ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين للقلولة وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يُمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن تُرى عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم، إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضاً، لا يجوز أن يرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للمواظ والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل، لأن الله - لما بين الحكم المذكور - عليه بقوله: ﴿ثلاث عورات لكم﴾.

ومنها: أن الصغير والعبد، مخاطبان، كما أن وليهما مخاطب لقوله: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾.

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة، كالقيء، لقوله تعالى: ﴿طوافون عليكم﴾ مع قول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوائف عليكم والطوافات».

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده، من الأطفال على وجهه

قَالَ اللَّهُ وَالْمُتَوَكِّلُونَ لَقَدْ نَبَأْنَا آدَمَ مَا جَعَلْنَا لَهُ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُ وَلَقَدْ نَبَأْنَا نُوحًا وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا إِبْرَاهِيمَ وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا يُونُسَ وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا زَكَرِيَّا وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا يَحْيَى وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا إِسْمَاعِيلَ وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا إِسْحَاقَ وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا يُوْنُسَ وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا زَكَرِيَّا وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا يَحْيَى وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا إِسْمَاعِيلَ وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ وَلَقَدْ نَبَأْنَا إِسْحَاقَ وَآلَهُ بِمَا جَعَلْنَا لَهُمْ وَالْجَنَّةَ مَأْوَى لَهُمْ

معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: ﴿طوافون عليكم﴾.

ومنها: أن الحكم المذكور المفصل، إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ، حصل بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف، هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنبات للعانة، والله أعلم.

﴿٦٠﴾ ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم﴾ والقواعد من النساء أي: اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة ﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ أي: لا يطعن في النكاح، ولا يُطمع فيهن، وذلك لكونها عجوزاً لا تُشتهي، أو دميمة الخلقة لا تُشتهي ولا تُشتهي^(١)، ﴿فليس عليهن جناح﴾ أي: حرج وإثم ﴿أن يضعن ثيابهن﴾ أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾. فهؤلاء،

(١) كذا في السخنين، ولعل في الكلام قلباً فالأقرب أن يقال: (عجوزاً لا تُشتهي ولا دميمة الخلقة لا تُشتهي).

طيبة أي: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت، «تحية من عند الله» أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، «مباركة» لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، «طيبة» لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال: **«كذلك يبين الله لكم الآيات»** الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها، «لعلكم تعقلون» عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد به العقل، ويتموه به القلب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: «أن العرف والعادة غصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ». فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو

متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿٦٢ - ٦٤﴾ «إنا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم إن الله غفور رحيم * لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم * ألا إن الله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبتهم بما عملوا والله بكل شيء عليم» هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين، أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع، أي: من ضرورته أو من مصلحته، أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهاد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم، فالمؤمن بالله ورسوله حقاً، لا يذهب لأمر من الأمور، لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الخواص التي يشذ بها عنهم، إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان، عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: «إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله» ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين:

أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم، وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر، فلا يؤذن له.

والثاني: أن يشاء الإذن له فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالآذن، قال:

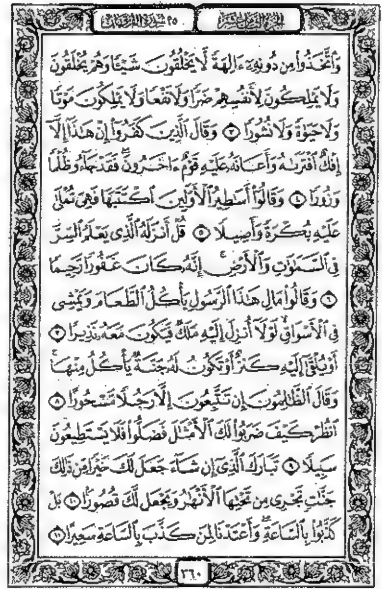
«فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم» فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم



ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله رسوله أن يستغفر له، لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان، ولهذا قال: «واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم» يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.

«لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً» أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم ودعائكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوباً، حتى إنه يجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولاً يجب على الأمة قبول قوله والعمل به، إلا الرسول، لعصمته، وكوننا مخاطبين باتباعه، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا: «يا محمد» عند نداءكم، أو «يا محمد بن عبد الله» كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتميزه ﷺ عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله.

«قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً» لما مدح المؤمنين بالله ورسوله، الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه، وتوعد من لم



ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر
العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿والله
بكل شيء عليم﴾

تفسير سورة الفرقان وهي مكية عند الجمهور

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى
عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ
مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا * هَذَا بَيَانٌ لِعَظَمَتِهِ
الْكَامِلَةِ، وَتَفَرُّدِهِ [بِالْوَحْدَانِيَّةِ] ^(١) مِنْ
كُلِّ وَجْهِ، وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ وَإِحْسَانِهِ،
فَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعظيم، وكملت
أوصافه، وكثرت خيرات، الذي من
أعظم خيرات ونعمه، أن نزل هذا
القرآن الفارق بين الحلال والحرام،
والهدى والضلال، وأهل السعادة من
أهل الشقاوة، ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ
الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع
المرسلين، ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال
للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾
ينذرهم بأمر الله ونقمته، ويبين لهم
مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن
من قبل نذارته وعمل بها، كان من
الناجين في الدنيا والآخرة، الذين
حصلت لهم السعادة الأبدية، والمملك
السرمدى، فهل فوق هذه النعمة وهذا
الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي
هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف فيها
وحده، وجميع من فيها ممالك وعبيد
له، مذعنون لعظمته، خاضعون
لربوبيته، فقراء إلى رحمته، الذي لم
يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في
الملك، وكيف يكون له ولد أو
شريك، وهو المالك، وغيره مملوك،
وهو القاهر، وغيره مقهور، وهو
الغني بذاته من جميع الوجوه،
والمخلوقون مفتقرون إليه، فقرا ذاتيا

من جميع الوجوه!!
وكيف يكون له شريك في الملك،
ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا
يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون
إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علواً
كبيراً، فلم يقدره حق قدره من قال فيه
ذلك، ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾
شمل العالم العلوي، والعالم السفلي،
من حيواناته، ونباتاته، وجاداته،
﴿فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي: أعطى كل
خلق منها ما يليق به، ويناسبه من
الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك،
بحيث صار كل خلق لا يتصور العقل
الصحيح أن يكون بخلاف شكله
وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو
من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير
عمله الذي هو فيه. قال تعالى: ﴿سُبْحِ
اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ
فَسْوًى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدًى﴾ وقال
تعالى: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ ثُمَّ هَدًى﴾ ولما بين كماله
وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك
مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب
المألوه العظيم، المفرد بالإخلاص
وحده، لا شريك له ناسب أن يذكر
بطلان عبادة ما سواه، فقال:

﴿٣﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً
لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا
يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾
أي: من أعجب العجائب، وأدل
الدليل على سفههم، ونقص عقولهم،
بل أدل على ظلمهم وجراءهم على
ربهم، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في
كمال العجز، أنها لا تقدر على خلق
شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم ما
عملته أيديهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ
ضُرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا قليلاً ولا
كثيراً، لأنه نكرة في سياق النفي.
﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا
نُشُورًا﴾ أي: بعثاً بعد الموت، فأعظم
أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها
وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء

يفعل ذلك وذهب من غير استئذان،
فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه
خفي، وهو المراد بقوله: ﴿يَسْتَلْبِثُونَ
مِنْكُمْ لَوْ آذًا﴾ أي: يلوذون وقت
تسللهم وانطلاقهم بشيء ينجبهم عن
العيون، فالله يعلمهم، وسيجازيهم على
ذلك أتم الجزاء، ولهذا ترعدهم
بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ
أَمْرِ﴾ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم
عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم
يذهب إلى شأن من شؤونهم!! وإنما
ترك أمر الله من دون شغل له.

﴿أَنْ تَصِيَّبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك وشر
﴿أَوْ يَصِيَّبَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾
﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَافِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبداً، يتصرف فيهم
بحكمه القدري، وحكمه الشرعي.
﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: قد أحاط
علمه بما أنتم عليه، من خير وشر،
وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه،
وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم
الحفظة الكرام الكاتبون.

﴿وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ﴾ في يوم
القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم
بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها،
إخباراً مطابقاً لما وقع منهم، ويستشهد
عليهم أعضاؤهم، فلا يعلمون منه
فضلاً أو عدلاً.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن - الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله - بأنه كذب واقتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك، أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه، للمخلوق الكامل من كل وجه، بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول قد علمت حالته، وهم أشد الناس علماً بها، أنه لا يكتب، ولا يجتمع بمن يكتب له، وهم قد زعموا ذلك.

فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ أي: أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض، من الغيب والشهادة، والجرى والسر، كقوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ نزل به الروح الأمين ﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾.

ووجه إقامة الحجة عليهم، أن الذي أنزله، هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحيل دماء من خالفه وأموالهم، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك فهو يؤيده ويتصره على أعدائه، ويمكنه من رقابهم وبلادهم، فلا يمكن أحداً أن ينكر هذا القرآن، إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم، سوى الفلاسفة الدهرية.

وأيضاً، فإن ذكر علمه تعالى العام، ينههم ويحضهم على تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا، لرأوا فيه من علمه وأحكامه، ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة، ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف الله بهم، أنه لم يذغهم وظلمهم، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه، ووعدهم بالمغفرة والرحمة، إن هم تابوا ورجعوا، فقال: ﴿إنه كان غفوراً﴾ أي: وصفه المغفرة، لأهل الجرائم والذنوب، إذا فعلوا أسباب المغفرة،

للمخلوق لسائر المخلوقات، من غير مشارك له في ذلك، الذي يديه النفع والنصر، والعطاء والمنع، الذي يجيي ويميت، ويبعث من في القبور، ويجمعهم ليوم النشور، وقد جعل لهم دارين، دار الشقاء والخزي والنكال، لمن اتخذه معه آلهة أخرى، ودار الفوز والسعادة والتعظيم المقيم، لمن اتخذه وحده معبوداً.

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، قرر صحة الرسالة، وبطلان قول من عارضها واعترضها، فقال:

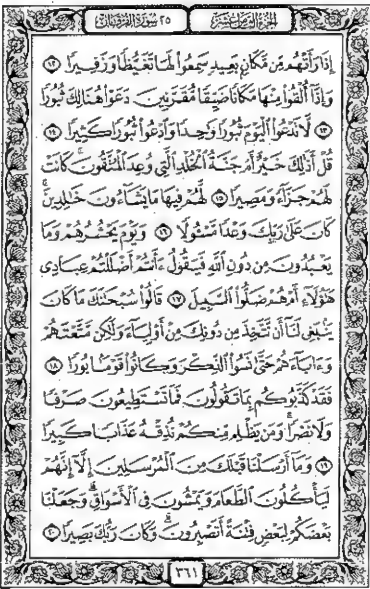
﴿٤-٦﴾ «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظليماً وزوراً» وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً * قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً».

أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كفرهم، أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب، كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون.

فرد الله عليهم ذلك، بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ، وكمال صدقه، وأمانته، وبره التام، وأنه لا يمكنه، لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن، الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك، فقد جاؤوا بهذا القول ظليماً وزوراً.

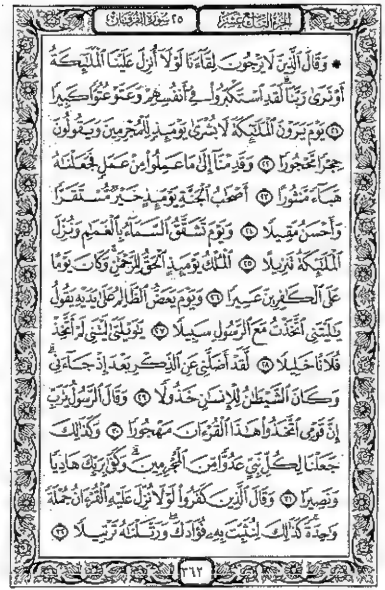
ومن جملة أقوالهم فيه، أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﴿أساطير الأولين اكتتبها﴾ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد، استنسخها محمد ﴿فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ وهذا القول منهم فيه عدة عظام:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب، والجرأة العظيمة.



وهي الرجوع عن معاصيه والتوبة منها. ﴿رحيماً﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محاماً سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده، والمقبل عليه بعد إعراضه، إلى حالة الطيعين المبينين إليه.

﴿٧-١٤﴾ «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً * تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويعجل لك قصوراً * بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا أنهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً * هذا من مقال الكاذبين للرسول، التي قدحوا بها في رسالته، وهو أنهم اعترضوا بأنه: هلا كان ملكاً أو ملكاً، أو يساعده ملك، ما فقالوا: ﴿ما لهذا الرسول﴾ أي: ما لهذا الذي ادعى الرسالة؟ تمكناً منهم



واستهزاء. «يا أكل الطعام» وهذا من خصائص البشر، فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، «ويمشي في الأسواق» للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولا، مع أن الله قال: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق».

«لولا أنزل إليه ملك» أي: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه، «فيكون معه نذيراً» وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

«أو يلقى إليه كنز» أي: مال مجموع من غير تعب، «أو تكون له جنة يأكل منها» فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق.

«وقال الظالمون» حلهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم، «إن تبعون إلا رجلاً مسحوراً» هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن. ولما كانت هذه الأقوال منهم، عجيبة جداً، قال تعالى: «انظر كيف ضربوا لك الأمثال» وهي: أنه هلا كان ملكاً، وزالت عنه خصائص البشر أو معه ملك، لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان

مسحوراً.

«فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً»

قالوا أقوالاً متناقضة، كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدح في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها، يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن زدها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا فقال: «تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك» أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: «جنان تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً» مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيته، لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة - أعطى منها أوليائه ورسله، ما اقتضته حكمته منها، واقترح أعدائهم بأنهم، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً، ظلم وجراءة.

ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا اتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً، وتكذيباً بالحق، فقالوا ما يقلوبهم من ذلك، ولهذا قال: «بل كذبوا بالساعة» والمكذب المتعنت، الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته، ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فلهذا قال: «وأعدنا لمن كذب بالساعة سعيراً» أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها. «إذا رآهم من مكان بعيد» أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم، «سمعوا لها تغيظاً» عليهم «وزفيراً» تفلق منه الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لديها لزيادة كفرهم وشركهم.

«وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً

مقرنين» أي: عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتزاحم السكان، وتقرينهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس، وحسوا في أثر حبس «دعوا هنالك ثبوراً» دعوا على أنفسهم بالثبور والحزني والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: «لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً، وادعوا ثبوراً كثيراً» أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم والنغم والحزن.

لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

«١٥ - ١٦» قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً * لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً.

أي: قل لهم - مينا لسفاهة رأيهم، واختيارهم الضار على النافع -: «أذلك» الذي وصفت لكم من العذاب «خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون» التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى، فالله قد وعده إياها، «كانت لهم جزاء» على تقواهم «ومصيراً» موثلاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائماً أبداً.

«لهم فيها ما يشاؤون» أي: يطلبون، وتتعلق بهم أمانيتهم ومشيتهم، من المطاعم، والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات، والحداثق المرجحنة، والفواكه التي تسر ناظرها وأكلها، من حسناتها وتنوعها، وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها، حيث شاؤوا يصرفونها، ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، وأنهاراً من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومسكن

مزخرفة، وأصوات شجية، تأخذ من حسناتها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه، وزيادته على عمر الأوقات، وتعاقب الآنات * كان دخولها والوصول إليها على ربك وعداً مسؤولاً يسأله إياها، عبادته المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأبي: الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي: العاملين، عمال دار الشقاء، أو عمال دار السعادة، أولى بالفضل والعقل والفخر، يا أولى الألباب؟

لقد وضح الحق، واستنار السبيل، فلم يبق للمقرط عذر في تركه الدليل، فنجرك يا من قضيت على أقوام بالشقاء، وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء، ونسألك العافاة منها.

﴿١٧ - ٢٠﴾ * ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً * فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً * وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً * يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة، وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم، فقال: * ويوم يحشرهم * أي: الكاذبين المشركين * وما يعبدون من دون الله فيقول * الله غاطباً للمعبودين على وجه التقرير لمن عبدتهم: * أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا

السبيل * هل أمرعوهم بعبادتكم، وزينت لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿قالوا سبحانه﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك، * ما كان ينبغي لنا: أي: لا يليق بنا، ولا يحسن منا، أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم، ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك، متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا؟ هذا لا يكون. أو، سبحانه عن * أن نتخذ من دونك من أولياء وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: * وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أتنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم الآية.

وقال تعالى: * ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين * فلما نزهوا أنفسهم، أن يدعوا لعبادة غير الله، أو يكونوا أضلوه، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: * ولكن متعتهم وآباءهم * في لذات الدنيا وشهواتها، ومطالبها النفسية، * حتى نسوا الذكر * اشتغالا في لذات الدنيا، واكباباً على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم * وكانوا قوماً بوراً * أي: بائسين لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرّفهم عن الهدى، وعدم المقتضي للهدى، وهو:

أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضي، ووجد المانع، فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرؤوا منهم، قال الله توبيخاً وتقريعاً للعبادين^(١): * فقد كذبوكم بما تقولون * إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب، * فما تستطيعون صرفاً * للعذاب عنكم بفعلكم، أو بقاء، أو غير ذلك، * ولا نصراً * لعجزكم، وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير.

وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: * ومن يظلم منكم * بترك الحق ظمناً وعناداً * نذقه عذاباً كبيراً * لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره.

ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين: * وما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق * * وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق * فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة. وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كما قال: * وجعلنا بعضكم لبعض فتنة * الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العصاة^(٢)، والرسول فتنة بدعوة الخلق، والغنى فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتن والابتلاء والاختبار.

والقصد من تلك الفتنة * أتصبرون * فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبية، فيثيبكم مولاكم^(٣)، أم لا تصبرون فتستحقون العقوبة؟

﴿وكان ربك بصيراً﴾ يعلم أحوالكم، ويصطفى من يعلمه يصلح

(١) كذا في ب، وفي أ: مولاهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: المعاصي.

(٣) في ب: للمعاندنين.

منه شيء، لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم، كقوله: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿٢٥ - ٢٩﴾ ﴿يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ * الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً * ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً * يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتنفطر له السماوات وتشقق، وتنزل الملائكة كل سماء فيقفون صفّاً صفّاً، إما صفّاً واحداً محيطاً بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفّاً، ثم السماء التي تليها صفّاً، وهكذا.

القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخلق، مذعنين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصاً الذي بارز ماله بالعبث، وأقدم على مساخطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجوز، ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر أمره عليه، بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه، خفيف الحمل.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً.

وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين، مُلك ولا صورة مُلك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، ويتشرح له

الموت، إذا تنزلت عليهم الملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. ثم في القبر، حين يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبیهم ودينهم، فلا يجيبون جواباً ينجيهم، فيحلون بهم النعمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة، حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحيثذ يتعوذون من الملائكة، ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ * يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان.

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيراً وتعبوا فيها، ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أي: باطلاً مضمحلاً، قد خسروه وحرّموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقد الإيمان، وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص، المصدق للرسول، المتبع لهم فيه.

﴿٢٤﴾ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحاً، واثقوا ربهم ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ من أهل النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة، لاشتغال ذلك على تمام النعيم، الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقراً ومقيلاً وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر

لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

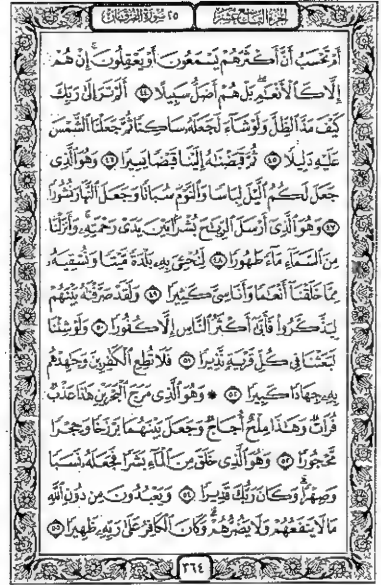
﴿٢١ - ٢٣﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَغَتَوْا عَتَوْا كَبِيرًا﴾ * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً * وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً * أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعيد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ أي: هلا نزلت الملائكة، تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمننا، ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعز.

﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروّوا هذه الجرأة، فمن أنتم بنا فقراء، وبنا مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعّموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأيّ كبر أعظم من هذا؟

﴿وغتوا عتواً كبيراً﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قسوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين، فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلو أصدق الخلق وأنصحبهم، وآيات الله البينات، بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأى: عتوا أكبر من هذا العتو؟! ولذلك، بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرّموا غاية الحرمان.

﴿يوم يرون الملائكة﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وذلك أنهم لا يرونها، مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم، إلا لعقوبتهم، وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند



ومعلم، وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم، يدبر أمر الخلق فكلما حدث موجب، أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمواظ على الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلفين، من الجهمية ونحوهم، ممن يرى أن كثيراً من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا - على قولهم - لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن - على زعمهم - تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفاً.

﴿٣٤﴾ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً. يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله، وسوء مآلهم، وأنهم يحشرون على وجوههم أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويمجرونهم إلى جهنم. الجامعة لكل عذاب وعقوبة. أولئك الذين بهذه الحالة شر مكاناً. ممن آمن بالله وصدق رسله، وأضل سبيلاً. وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في

الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿٣٥ - ٤٠﴾ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً. فقلنا اذهب إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً. وقوم جعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً. وعاداً وثمود وأصحاب الرّس قروناً بين ذلك كثيراً. وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تبيراً. ولقد أتوا على القرينة التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً. أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات أخر، ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين قرباً منهم، ويعرفون قصصهم بما استفاد واشتبه عنهم.

ومنهم من يرون آثارهم عياناً، يقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء، بحجارة من سجيل، يمرون عليهم مصبحين، وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شراً منهم، ورسلم ليسوا خيراً من رسول هؤلاء. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر. ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان - مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم كانوا لا يرجون بعثاً ولا نشوراً، فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله، فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم من الآيات، ما لا يبقى معه شك ولا شبهة، ولا إشكال، ولا ارتياب.

﴿٤١ - ٤٤﴾ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا. إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرتنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً. أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم

أضل سبيلاً. أي: وإذا رآك يا محمد، هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات الله^(١)، المستكبرون في الأرض، استهزؤوا بك واحتقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار -: «أهذا الذي بعث الله رسولا» أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم، وقلوبهم الخقائق، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره، لكان أنسب.

﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ فهذا الكلام، لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلمهم، أو من أعظمهم عناداً، وهو متجاهل، قصده ترويع ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ، وجده رجل العالم وهماهم، ومقدمهم في العقل، والعلم، واللب، والرزانة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة، والشجاعة، والكرم، وكل خلق فاضل، وأن المحقر له، والشائن له، قد جمع من السفة والجهل، والضيال، والتناقض، والظلم، والعدوان، ما لا يحصى غيره، وحسبه جهلاً وضللاً، أن يقدح بهذا الرسول العظيم، والهام الكريم.

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به، تصلبهم على باطلهم، وغروراً لضغفاء العقول^(٢)، ولهذا قالوا: «إن كاد هذا الرجل ليضلنا عن آلهتنا» بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً لولا أن صبرنا عليها. لأضلنا، زعموا - قبحهم الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك، فهذا تراصوا بالصبر عليه. وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم.

وهنا قالوا: «لولا أن صبرنا

(٢) المراد: (وتغريراً بضغفاء العقول).

(١) زيادة مني يقتضيها السياق.

الحق، وعبادة غيره باطلة، لقوله:

﴿٥٥﴾ «ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً أي: يعبدون أصناماً وأموالاً، لا تضر ولا تنفع، ويعملونها أنداداً لمالك النفع والضرر والغطاء والمنع، منع أن الواجب عليهم، أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذاببن عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿٥٦﴾ «وكان الكافر على ربه ظهيراً» فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد، أعداء الله، فالكافر عاونها وظاهرها على ربها، وصار عدواً لربه، مبارزاً له في العداوة والحرب، هذا، وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو - بجعله - مستمر على هذه المعادة والمبارزة.

﴿٥٦ - ٦٠﴾ «وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً * قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً * وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً * الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً * وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً * غير تعالى: أنه ما أرسل رسوله محمداً ﷺ، مسيطراً على الخلق، ولا جعله ملكاً، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله «مبشراً» يبشر من أطاع الله، بالثواب العاجل والآجل «ونذيراً» ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك - يا محمد - لا تسألكم على إيلಾಗهم القرآن والهدى أجر، حتى يمنهم ذلك من اتباعك، وتكلفون من الغرامة. «إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً» أي: إلا من شاء، أن يتفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فليست

أجبركم عليه، وليس أيضاً أجراً لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم، وسلوكم للسبيل الموصلة إلى ربكم، ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به، فقال: «وتوكل على الحي الذي لا يموت الحياة الكاملة المطلقة» الذي لا يموت وسيخ بحمده: أي: اعبدوه وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق. «وكفى به بذنوب عباده خبيراً» يعلمها، ويجازي عليها، فأنت ليس عليك من هدام شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله، بيد الله «الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى» بعد ذلك «على العرش» الذي هو سقف المخلوقات، وأعلىها، وأوسعها، وأجلها. «الرحمن» استوى على عرشه، الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسع رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات. فأثبت بهذه الآية، خلقه للمخلوقات، وإطلاعه على ظاهريهم وباطنيهم، وعليه فوق العرش، وما بينته إياهم.

﴿٦١﴾ «فاسأل به خبيراً» يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته، ما تبعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستنكفوا عن ذلك، ولهذا قال: «وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن» أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم. «قالوا» جحداً وكفراً: «وما الرحمن» بزعمهم القاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إليها آخر، يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك، كما قال تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى» فأسماءه تعالى كثيرة، لكثرة أوصافه، وتعدد كماله،



به، بل أبذل جهدك في تبلغ ما أرسلت به. «وجاهدكم» بالقرآن جهاداً كبيراً أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت، فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تياس من هدايتهم، ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿٥٣﴾ «وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً» أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، «وجعل بينهما برزخاً» أي: حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منهما «وحجراً محجوراً» أي: حاجزاً حصيناً.

﴿٥٤﴾ «وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً» أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق الأدمي، من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: «وكان ربك قديراً» ويدل على أن عبادته هي

النموت، فوصفهم بأنهم ﴿يمشون على الأرض هوناً﴾ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله و لعباده. ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل، وإسناده لهذا الوصف، ﴿قالوا سلاماً﴾ أي: خاطبهم خطاباً يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بنجمله. وهذا مدح لهم، بالحلل الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والغفو عن الجاهل، ورزاقه العقل الذي أوصلمه إلى هذه الحال.

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ أي: يكثر من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، متذللين له، كما قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون.

﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي: ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعذاب. ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ أي: ملازماً لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه. ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ وهذا منهم، على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاعتهم احتمال هذا العذاب، ولتذكروا مئة الله عليهم، فإن صرف الشدة، بحسب شدتها وفظاعتها، يعظم وقعها ويشد الفرح بصرفها.

﴿والذين إذا أنفقوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لم يسرفوا﴾ بأن يزيدوا على الحد، فيدخلوا في قسم التبذير، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿ولم يقتصروا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿وكان﴾ إنفاقهم ﴿بين ذلك﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قواماً﴾ يبدلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، من

ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله ورد من الليل أو النهار، فمن فاته وزده من أحدهما، أدركه في الآخر، وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار، يتوالى على العباد ويتكرران، ليحدث لهم الذكر والنشاط، والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوراد العبادات، تتكرر بتكرار الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات، أحدث للعبادة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمد، فلولاً ذلك لذوى غرس الإيمان ويس. فله أتم حمد وأكمل على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات، التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات فقال:

﴿٦٣ - ٧٧﴾ ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً﴾ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴿إلى آخر السورة الكريمة.

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مربيون مدبرون ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ وعبودية لألوهيته، وعبادته، ورحمته، وهي عبودية أنبيائه، وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل

فكل واحد منها، دل على صفة كمال. ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي: لمجند أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته، ﴿وزادهم﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نفوراً﴾ هرباً من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً متباً﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خلقاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴿كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تبارك﴾ ثلاث مرات، لأن معناها كما تقدم، أنها تدل على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيرات وإحسانه. وهذه السورة، فيها من الاستدلال على عظمتهم، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته. وفيها، ما يدل على سعة رحمته، وواسع جوده، وكثرة خيرات، الدينية والدنيوية، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن، فقال: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجمعولة للحراسة، فإنها رجوم للشياطين.

﴿وجعل فيه سراجاً﴾ فيه النور والحرارة، وهو: الشمس. ﴿وقمراً﴾ منيراً في النور، لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمتهم، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر، والتدبير المنتظم، والجمال العظيم، ذال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع، دليل على كثرة خيرات.

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلقاً﴾ أي: يذهب أحدهما، فيخلق الآخر، هكذا أبداً، لا يجتمعان، ولا يرتفعان، ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما

غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين، حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه.

﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾ وهي نفس المسلم، والكافر المعاهد، ﴿إلا بالحق﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله. ﴿ولا يزنون﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يلقى أثاماً﴾ ثم فسر بقوله: ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه﴾ أي: في العذاب ﴿مهاناً﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد، على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القتاتل والزاني في العذاب، فإنه لا يتناولهُ الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إلا من تاب﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزماً جازماً أن لا يعود، ﴿وآمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وعمل عملاً صالحاً﴾ مما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم

حسنات﴾ أي: تبدل أفعالهم وأقوالهم، التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعُدَّها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب، إن لي سيئات لا أراها هاتنا والله أعلم.

﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رحيماً﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعصاة، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿ومن تاب وصلى صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: فلْيَعْلَمْ أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فلْيَخْلِصْ فيها، ولْيَخْلُصْها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالقصد من هذا، الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه فيوفيه^(١) أجره، بحسب كمالها.

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القبول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس، المشتملة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجidal الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه. وشهادة الزور داخلية في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولية، ﴿وإذا مروا باللغو﴾ وهو الكلام الذي

لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مروا كراماً﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربُّوا بأنفسهم عنه.

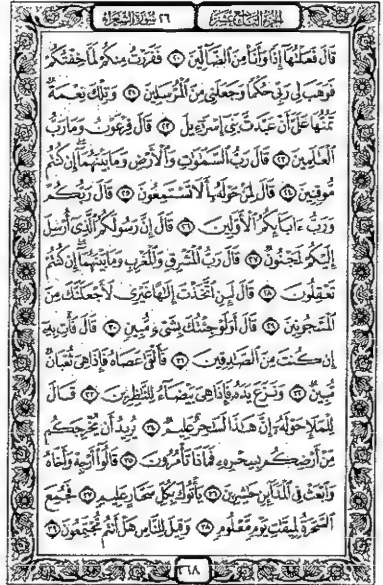
وفي قوله: ﴿وإذا مروا باللغو﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتمام بها، ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ يقابلونها بالقبول والانقياد إليها، والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم أذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيمانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واعتباطاً.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ أي: قرنائنا من أصحاب وأقربان وزوجات، ﴿وذرياتنا قررة أعين﴾ أي: تقرُّ بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تقرُّ أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عاملين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هب لنا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير من يتعلق بهم، وينتفع بهم.

(١) في ب: فيوفيه.



تفسير سورة الشعراء وهي مكية عند الجمهور

﴿١-٩﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين * وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسألتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون * أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم * يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح، الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ يذره به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله المحقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم، حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم.

فلهذا قال تعالى عنه: ﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي: مهلكها وشاق عليها،

﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أدبت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزلها ليؤمنوا بها، فإنه كاف شاف، لمن يريد الهداية، ولهذا قال: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ أي: من آيات الاقتراح، ﴿فظلت أعناقهم﴾ أي: أعناق المكذبين ﴿لها خاضعين﴾ ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت، يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع، الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾ الآية.

﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث﴾ يأمرهم ونهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم. ﴿إلا كانوا عنه معرضين﴾ بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث، الذي جرت العادة، أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا، لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم الموعظ، ولهذا قال: ﴿فقد كذبوا﴾ أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سجيبة، لا تتغير ولا تتبدل، ﴿فسألتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: سيق بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حققت عليهم كلمة العذاب. قال الله منبهاً على التفكير الذي ينفع صاحبه: ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها، ﴿إن في ذلك لآية﴾ على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي، ﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل

حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿١٠-٦٨﴾ ﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين﴾ إلى آخر القصة قوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ * وإن ربك لهو العزيز الرحيم * أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة، وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونباه وأرسله، فقال:

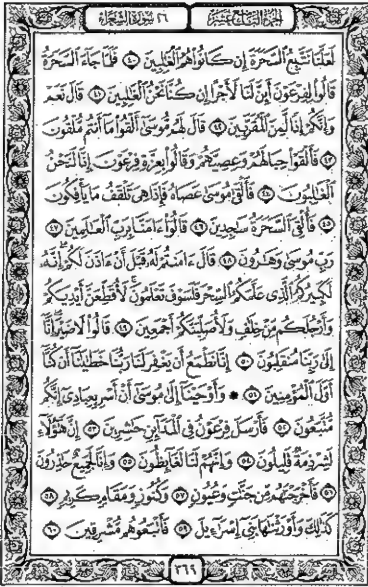
﴿إن ائت القوم الظالمين﴾ الذين تكبروا في الأرض، وعلموا على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية، ﴿قوم فرعون ألا يتقون﴾ أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة ﴿ألا تتقون﴾ الله الذي خلقكم ورزقكم، فتتقون ما أنتم عليه من الكفر.

فقال موسى عليه السلام، معتذراً من ربه، ومبيناً لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل ﴿قال رب إني أخاف أن يكذبون﴾ ويضيق صدري ولا ينطلق لساني.

فقال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخني * فأرسل إلى هارون * فأجاب الله طلبته، ونبا أخاه هارون كما نبأه ﴿فأرسله معي زده﴾ أي: معاوناً لي على أمري أن يصدقني.

﴿ولهم على ذنب﴾ أي: في قتل القبطي ﴿فأخاف أن يقتلون﴾.

﴿قال كلا﴾ أي: لا يتمكنون من قتلك، فإنا سنجعل لكما سلطاناً، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون. ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع متابذته له غاية المنابذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه، ﴿فأذهب بآياتنا﴾ الدالة على



لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة، فعند التصور، يتبين أن الحقيقة، أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم، وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تبت بها وتدلي بها؟

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ وهذا إنكار منه لربه، ظلماً وعلواً، مع يقين صحة ما دعاه إليه موسى، قال: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية. ومن جملة ذلك، أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلسوقات، وفاطر الأرض والسماوات، ﴿إن كنتم موقنين﴾ فقال فرعون متجرهما، ومعجباً لقومه: ﴿ألا تسمعون﴾ ما يقول هذا الرجل، فقال موسى:

﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعنتم. فقال فرعون معانداً للحق، قادحاً بمن جاء به: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق، والعقل عنده، أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه، والمجنون عنده، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فقال موسى عليه السلام، مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾ من سائر المخلوقات ﴿إن كنتم تعقلون﴾ فقد أدبت لكم من البيان والتبيين، ما يفهمه

صدقكم، وصحة ما جئتما به، ﴿إنا معكم مستمعون﴾ أحفظكم ما وأكلوكم، ﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ أي: أرسلنا إليك، لتؤمن به وبنا، وتنقاد لعبادته، وتدع لتوحيد، ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ فكف عنهم عذابك، وارفع عنهم يدك ليعبدوا ربهم ويقيموا أمر دينهم.

فلما جاء فرعون وقال له ما قال الله لهما، لم يؤمن فرعون ولم يلب، وجعل يعارض موسى، ف ﴿قال ألم نريك فينا وليداً﴾ أي: ألم نعلم عليك، ونشؤم بتربيتك، منذ كنت وليداً في مهدك، ولم ترزل كذلك.

﴿ولبث فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ وهي قتل موسى للمقطي، حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عذوه ﴿فركزه موسى فقضى عليه﴾ الآية.

﴿وأنت من الكافرين﴾ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسبيلك سبيلنا، في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

فقال موسى: ﴿فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾ أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي، ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ حين تراجعت بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتكم. ﴿فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾

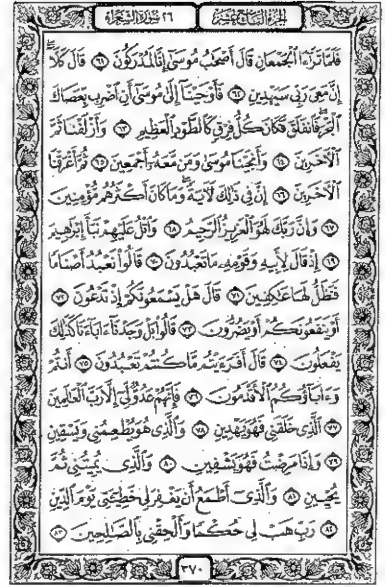
فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى، اعتراض جاهل أو متجاهل، فإنه جعل المانع من كونه رسولاً، أن جرى منه القتل، فبين له موسى، أن قتله على وجه الضلال والخطأ، الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد، فلم منعتم ما منحني الله، من الحكم والرسالة؟ بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿ألم نريك فينا وليداً﴾ وعند التحقيق، يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى: ﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾ أي: تدلي علي بهذه المنة

كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالك تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه داؤكم فرميتم أركى الخلق عقلاً، وأكملهم علماً، بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدقوه، فأبي: شيء تثبتون؟ وإذا لم جهلتموه، فأبي: شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فأبي: شيء - بعد الله وآياته - تؤمنون؟ تالله، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم، أعقل منكم، وإن الأنعام السارخة، أهدى منكم.

فلما خنقت فرعون الحجة، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة ﴿قال﴾ متوعداً لموسى بسلطانه ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ زعم - فبحه الله - أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلهاً غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو ومن معه، على بصيرة من أمرهم.

فقال له موسى: ﴿أو لو جئتكم بشيء مبين﴾ أي: آية ظاهرة جلية، على صحة ما جئت به، من خوارق العادات.

﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ فألقى عصاه فإذا هي



ضعيف، عاجز من كل وجه، إلا أنه قد تجبر، وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قَسَمٌ منهم بعزة فرعون، والمقسم عليه أنهم غالبون.

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تتلف وتأخذ ﴿مَا يَأْكُونُ﴾ فالتفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي، لأنها إفك وكذب وزور، وذلك كله باطل، لا يقوم للحق ولا يقاومه.

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة، تيقنوا - لعلمهم - أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تنبئ بصدق موسى، وصحة ما جاء به.

﴿فَأَلْقَى السَّحرة سَاجِدِينَ﴾ لربهم. ﴿قَالُوا آتِنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رب موسى وهارون. وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤسؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون إلا عتوا وضللاً، وتنادياً في غيه وعناداً، فقال للسحرة: ﴿أَمْتَمْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آتَنَّا لَكُمْ﴾ يتعجب، ويعجب قومه من جرائهم عليه، وإقدامهم على الإنسان من غير إذنه ومؤامراته. ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ﴾ هذا، وهو الذي جمع السحرة وملاؤه، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاؤوا من السحر بما يخير الناظرين ويهملهم، ومع ذلك، فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يستكر على أهل هذه العقول، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان، إنه على خلاف حقيقته، صدقوه.

ثم تواعد السحرة فقال: ﴿لَا تُطْعَمُنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، كما يفعل بالمفسد في الأرض،

العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

﴿فَجَمَعَ السَّحرة لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود ﴿لَعَلَّنا تَتَّبِعُ السَّحرة﴾ إن كانوا هم الغالبين. أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتتظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فتتبعهم وتعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق، لقالوا: لعلنا نتبع الحق منهم، ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك، إلا قيام الحجة عليهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحرة﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿إِن لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لموسى؟ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وثواب ﴿وَأَنْتُمْ إِذَا لَمْ الْقُرْبِينَ﴾ عندي، وعندهم الأجر والقربة منه، ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

فلما اجتمعوا للموعود، هم وموسى، وأهل مصر، وعظمهم موسى وذكرهم، وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَنتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ فتنازعوا وتخاصموا، ثم شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضاً.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي: ألخوا كل ما في خواطركم الإقاه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاؤوا به من معارضة الحق.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ﴾ فإذا هي حيات تسعي، وسحروا بذلك أعين الناس، ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فرعون إِنَّا لَنِحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فاستعانوا بعزة عبد

ثعبان. أي: ذكر الحيات، ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد، لا خيال ولا تشبيه. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ﴾ أي: لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها. ﴿قَالَ فرعونَ﴾ للملأ حوله ﴿معارضاً للحق ومن جاء به:﴾ ﴿إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ موه عليهم، لعلهم بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، لأنه من المقرر عندهم، أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخرقهم أن قصده بهذا السحر، التوصل إلى إخراجهم من وطنهم، ليجدوا ويبتعدوا في معادة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أن نفعل به؟

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخرهما ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ جامعين للناس ﴿يَأْتُوكَ﴾ أولئك الحاشرون ﴿يَكُلُ سَحَارَ عَلِيمٍ﴾ أي: ابعث في جميع مدنك، التي هي مقر العلم ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في سحره، فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحره. وهذا من لطف الله أن يري العباد بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال المضل، أن ما جاء به موسى سحر، فيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق

«ولا أصليكنم أجمعين» لتختزوا، وتذلوا. فقال السحرة - حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته - : «لا ضمير» أي : لا نبالي بما توعدتنا به «إننا إلى ربنا منقلبون» * «إننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا» من الكفر والسحر وغيرهما «أن كنا أول المؤمنين» بموسى، من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه واقتداره إذ ذلك، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه، لئلا تكشف الله عنهم، ليؤمن به، وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم يكتفون، فلما يش موسى من إيمانهم، وحققت عليهم كلمة العذاب، وأن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى : «أن أسر بعبادي» أي : أخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم. «إنكم متبعون» أي : سيتبعكم فرعون وجنوده.

ورفع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

«فأرسل فرعون في المداين حاشرين» يجمعون الناس، ليقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعا لقومه : «إن هؤلاء» أي : بني إسرائيل «لشردة قليلون» * «وإنهم لنا لغائظون» ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أبغوا منا.

«وإنا لجميع حاذرون» أي : الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، وغير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعدار، الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى : «فأخرجناهم من جنات وعيون» أي : بساتين مصر

وجناتها الفائقة، وعبوها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيمهم، وعمرت بها حاضرتهم وباديهم.

«ومقام كريم» يعجب الناظرين، ويلهي التاملين، تمتعوا به دهرًا طويلا، وقضوا بلذاته وشهوته عمرا مديدا، على الكفر والعناد، والتكبر على العباد والته العظيم.

«كذلك وأورثناها» أي : هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم، «بني إسرائيل» الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يوتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

«فأتبعوهم مشرقين» أي : اتبع قوم فرعون قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحق قادرين.

«فلما تراءى الجمعان» أي : رأى كل منهما صاحبه، «قال أصحاب موسى» شاكين لموسى وحزينين : «إننا لمدركون» ف «قال» موسى مشتا لهم، وغبرا لهم بوعده الصادق : «كلا» أي : ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون، «إن معي ربي سيهدين» لما فيه نجاتي ونجاتكم، «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر» فضربه «فانفلق» اثني عشر طريقا «فكان كل فرق كالطود» أي : الجبل العظيم «فدخله موسى وقومه»

«وألحقناهم» أي : فرعون وقومه، قربانهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسى وقومه.

«وأتجينا موسى ومن معه أجمعين» استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

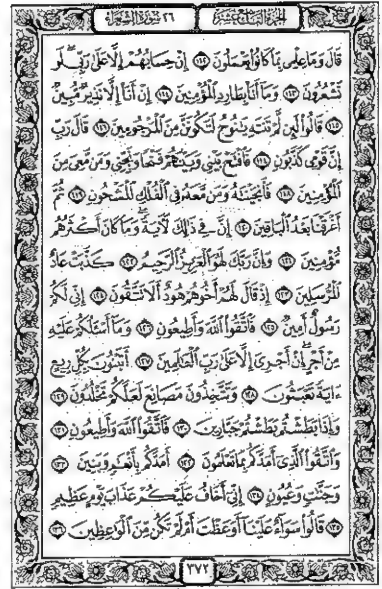
«ثم أغرقنا الآخرين» لم يتخلف منهم عن الغرق أحد، «إن في ذلك لآية» عظيمة على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، «وما كان أكثرهم مؤمنين» مع هذه الآيات المقتضية

وَأَجْعَلْ لِي سَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن رَّوَاهِ الْيَمِينِ ﴿١٠٥﴾ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١٠٦﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْقِصَّةَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٧﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١٠٨﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١٠٩﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١١﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١٢﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١٣﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١٤﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١٦﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١٧﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١٨﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١١٩﴾ وَإِنَّمَا تَعْلَمُ الْغُيُوبَ ﴿١٢٠﴾

للإيمان، لفساد قلوبكم، «وإن ربك لهو العزيز الرحيم» يعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

«٦٩ - ١٠٤» «واتل عليهم نبأ إبراهيم» إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون «إلى آخر هذه القصة» «وإن ربك لهو العزيز الرحيم» أي : واتل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها، هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته وقومه، وعاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف، فقال : «إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون» قالوا : متبحرين بعبادتهم : «تعبد أصناما» نحتناها ونعملها بأيدينا. «ففضل لها عاكفين» أي : مقيمين على عبادتها في كثير من أوقانتنا. فقال لهم إبراهيم، مبينا لعدم استحقاقها للعبادة : «هل يسمعونكم إذ تدعون» فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟

«أو ينفعونكم أو يضرون» فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمح دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها وقال : «بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون» قالوا له : «لقد علمت ما



هؤلاء ينطقون * أي : هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك، فلجئوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا : **«بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون»** فتبعناهم على ذلك، وسلكنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم، فقال لهم إبراهيم : **«أنتم وآباؤكم، كلكم خصوم في هذا الأمر، والكلام مع الجميع واحد»**.

«أنفأ أنتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنيهم عدو لي» فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني فلا يقدرون.

«إلا رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين» هو المفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية، للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال : **«والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين»**.

فهذا هو وحده المفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم، ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة،

لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى : **«وحاجه قومه قال أحاجوني في الله وقد هديت»** الآيات.

ثم دعا عليه السلام ربه فقال : **«رب هب لي حكماً»** أي : علماً كثيراً، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، **«والحقني بالصالحين»** من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

«واجعل لي لسان صدق في الآخرين» أي : اجعل لي لسان صدق، مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وأحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً، معظماً مثني عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى : **«وتركنا عليه في الآخرين»** * سلام على إبراهيم * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين.

«واجعلني من ورثة جنة النعيم» أي : من أهل الجنة، التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، ورفع منزلته في جنات النعيم.

«واغفر لأبي إنه كان من الضالين» وهذا الدعاء، بسبب الوعد الذي قال لأبيه : **«سأستغفر لك ربي إنه كان يـحـفياً»** قال تعالى : **«وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم»** **«ولا تحزني يوم يبعثون»** أي : بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي **«لا ينفع»** فيه **«مال ولا بنون»** * إلا من أتى الله بقلب سليم. فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي يتجوز به من العقاب، ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم، معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحنة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم

من سلامته مما ذكر، اتصافه بأضدادها، من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبه تابعة لمحبة الله، وهواه تبعاً لما جاء عن الله، ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم، وما فيه من الثواب والعقاب فقال : **«وأزلفت الجنة»** أي : قربت **«للمتقين»** ربه، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه.

«وبرزت الجحيم» أي : برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب، **«للعاوين»** الذين أوضاعوا في معاصي الله، وتجروا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاؤهم به من الحق **«وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون»** * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرونكم بأنفسهم أي : فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم. **«فكفيوا فيها»** أي : اقروا في النار **«هم»** أي : ما كانوا يعبدون، **«والغاوون»** العابدون لها، **«وجنود إبليس أجمعون»** من الإنس والجن، الذين أُرهم إلى المعاصي أژاً، وتسلب عليهم بشرتهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعاة، والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته، ومحجب لهم ومقلد لهم على شركهم.

«قالوا» أي : جنود إبليس الغاؤون، لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها : **«تالله إن كنا لفي ضلال مبين»** * إذ نسويكم برب العالمين في العبادات والمحبة، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حيثئذ ضلالهم، وأقرؤا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلبها، وهم لم يسووه برب العالمين، إلا في العبادة، لا في الخلق، بذليل قولهم : **«رب العالمين»** إنهم منقرون أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جعلتهم أصنامهم وأوثانهم.

«وما أضلنا» عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي

والفسق، **﴿إلا المجرمون﴾** وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، **﴿فما لنا﴾** حيثذ **﴿من شافعين﴾** يشفعون لنا، لينقذونا^(١) من عذابه، **﴿ولا صديق حميم﴾** أي: قريب مضاف، يتفغنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا، فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها **﴿فنكون من المؤمنين﴾** لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب، هيهات هيهات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون.

﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا **﴿آية﴾** لكم **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** مع نزول الآيات.

﴿١٠٥ - ١٢٢﴾ **﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾** إلى آخر القصة. يذكر تعالى، تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: **﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾** جميعهم، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم، تكذيب بجمع ما جاؤوا به من الحق، كذبوه **﴿إذ قال لهم أخوهم﴾** في النسب **﴿نوح﴾** وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشتمزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم خاطباً بالطف خطاب - كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم - **﴿ألا تتقون﴾** الله تعالى، فتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده، **﴿إني لكم رسول أمين﴾** فكونه رسولاً إليهم بالخصوص، يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خصهم بهذا

الرسول الكريم، وكونه أميناً، يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

﴿فأتقوا الله وأطيعون﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم، أميناً، فلذلك رتب به البقاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: **﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾** فتكلفون من المغم الثقيل، **﴿إن أجري إلا على رب العالمين﴾** أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل، وأما أنتم فميتي، ومنتهى إرادتي منكم، النصح لكم وسلوككم الصراط المستقيم.

﴿فأتقوا الله وأطيعون﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: **﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾** وقال: **﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾** فلم يزدحم دعائي إلا فراراً **﴿الآيات﴾** فقالوا رداً لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: **﴿أنؤمن لك وأتبعك الأذلون﴾** أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسقطتهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته - بين لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك، ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأراذل، من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكامل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده، بقطع

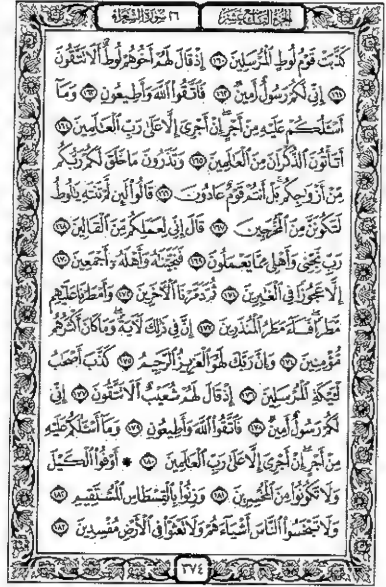


النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: **﴿أنؤمن لك وأتبعك الأذلون﴾** فبنوا على هذا الأصل، الذي كل أحد يعرف فساده زد دعوته - عرفنا أنهم ضالون مخطؤون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

فقال نوح عليه السلام: **﴿وما علمي بما كانوا يعملون﴾** * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون **﴿أي﴾** أعمالهم وحسابهم على الله، إنما على التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتم به الحق، فانقادوا له، وكل له عمله.

﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ كأنهم - قبحهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً وتجبراً، ليؤمنوا، فقال: **﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾** فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعل، كما قال تعالى: **﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾** كتب ربكم على نفسه الرحمة.

﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصيح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.



فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، فلم يزدادوا إلا نفوراً، و قالوا لئن لم تنته يا نوح من دعوتك إيانا، إلى الله وحده لتكونن من المرجومين أي: لتقتل شر قتلة، بالرمي بالحجارة، كما يقتل الكلب. فتبأ لهم، ما أقبح هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم، بشر مقابلة. لا جرم لما انتهى ظلمهم، واشتد كفرهم، دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم، فقال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» الآيات. وهنا «قال رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً» أي: أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: «ونجني ومن معي من المؤمنين». «فأنجيناه ومن معه في الفلك» أي: السفينة المشحون من الخلق والحيوانات، ثم أفرقنا بعد أي: بعد نوح، ومن معه من المؤمنين «الباقيين» أي: جميع قومه.

«إن في ذلك» أي: نجاة نوح وأتباعه، وإهلاك من كذبه «آية» دالة على صدق رسلنا، وصحة ما جاؤوا به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم.

بعزه أعداءه، فأغرقهم بالطوفان الرحيم بأوليائه، حيث نجى نوحاً ومن معه، من أهل الإيمان. «١٢٣ - ١٢٤» كذبت عاد المرسلين إلى آخر القصة. أي: كذبت القبيلة المسماة عاداً، رسولهم هوداً، وتكذيبهم له تكذيب لغيره، لاتفاق الدعوة.

«إذ قال لهم أخوهم في النسيب هود بلطف وحسن خطاب: ألا تتقون الله، فتركون الشرك وعبادة غيره، إني لكم رسول أمين» أي: أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين، تعزفون ذلك مني، رتب على ذلك قوله: «فاتقوا الله وأطيعون» أي: أدوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقى، بطاعتي فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجراً، حتى تستقلوا ذلك المغرم. «إن أجري إلا على رب العالمين» الذي رباهم بنعمه، وأدرّ عليهم فضله وكرمه، خصوصاً ما ربى به أوليائه وأنبياءه.

«أتبينون بكل رب» أي: مدخل بين الجبال «آية» أي: علامة تمييز» أي: تفعلون ذلك عبثاً لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم. «وتتخذون مصانع» أي: بركاً وجباي للمياه «لملككم تهلدون» والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

«وإذا بطشتم بالخلق بطشتم جبارين» قتلاً وضرباً، وأخذ أموال. وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخروا واستكبروا، وقالوا: «من أشد منا قوة» واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والنسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك.

«فاتقوا الله» واتركوا شرككم ويطركم «وأطيعون» حيث علمتم أني رسول الله إليكم، أمين ناصح،

«واتقوا الذي أمركم» أي: أعطاكم بما تعلمون» أي: أمركم بما لا يجهل ولا ينكر من الإنعام، «أمركم بأنعام» من إبل وبقر وغنم «وبئين» أي: وكثرة نسل، كثير أموالكم، وكثر أولادكم، خصوصاً الذكور، أفضل القسمين.

هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكرهم حلول عذاب الله، فقال: «إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» أي: إني - من شفقتي عليكم وربي بكم - أخاف أن ينزل بكم عذاب عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمريرتم على كفركم وبغيكم.

فقالوا معاندين للحق مكذبين لنبيهم: «سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين» أي: الجميع على حد سواء، وهذا غاية العتو، فإن قوماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله، التي تذيب الخيالات الضم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها وعدمها - عندهم - على حد سواء، لقوم انتهى ظلمهم، واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا: «إن هذا إلا خيلق الأولين» أي: هذه الأحوال والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين، تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر، لا أن هذه نحن ومنح من الله تعالى، وإيتلاء لعباده «وما نحن بمعذبين» وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتهكم به، إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما أدركت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

«فكذبوه» أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه رادع. «فأهلكناهم» «يريح صرصر عاتية» سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

«إن في ذلك لآية» على صدق نبينا هود عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه، من الشرك والجبروت، «وما كان أكثرهم



ويغضبه، من الكفر والمعاصي، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعوه، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكاييل والموازين، فلذلك قال لهم: ﴿أوفوا الكيل﴾ أي: أتموه وأكملوه ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكاييل والميزان، ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي: بالميزان العادل، الذي لا يميل، ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ أي: الخليفة الأولين، فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكركه.

قالوا له، مكذبين له، راؤين لقوله: ﴿إنما أنت من المسحرين﴾ فأنت تهذي وتتكلم بكلام المسحور، الذي غايته أن لا يؤاخذ به.

﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فليس فيك فضيلة اختصاصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، عن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصلون، ويتفقون عليها، لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾.

﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطوا على خلافه، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات، ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصاً شعبياً عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم.

﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ أي: قطع عذاب تستأصلنا. ﴿إن كنت من الصادقين﴾ كقول إخوانهم ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح، التي لا يلزم تنميم مطلوب من سألها.

﴿قال﴾ شعيب عليه السلام: ﴿ربي أعلم بما تعملون﴾ أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، وليس علي إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب.

﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين، لظلمها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا

العمل، ولا يفتّر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

﴿إن في ذلك لآية﴾ دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، ويطلان رد قومه عليه، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاة فيهم، ولا خير لديهم ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق. ﴿الرحيم﴾ الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها، جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له. ومن عزته، أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته، أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿١٩٢ - ٢٠٣﴾ ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ نزل به الروح الأمين ﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾ بلسان عربي مبين ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴿فيائتهم بغثة وهم لا يشعرون﴾ فيقولوا هل نحن متظرون ﴿لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم، و [ما] ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة.

ذكر هذا الرسول الكريم، والنبى المصطفى العظيم، وما جاء به من الكتاب، الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ فالذي أنزله، فاطر الأرض والسموات، المربي جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهديتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يريهم أيضاً، بهديتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به، إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي

طول المدة. القصد أن الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم له. وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿٢٠٨ - ٢١٢﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منكرون﴾ * ذكرى وما كنا ظالمين * وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيهم النذير بالآيات البينات، ويدعوهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

﴿ذكرى﴾ لهم وإقامة حجة عليهم. ﴿وما كنا ظالمين﴾ فنهلك القرى قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ * وما ينبغي لهم﴾ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وما يستطيعون﴾ ذلك. ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

﴿٢١٣ - ٢١٦﴾ ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتشكون من المعذبين﴾ * وأنذر عشيرتك الأقرين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ ينهي تعالى رسوله أصلاً، وأمه أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدى، لكونه

أفصح الخلق، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقّيه بالتسليم والقبول، ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض الكفر والعناد، وأمر قد توارثه الأمم المكذبة، فلهذا قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ أي: أدخلنا التكذيب، وأنظمناه في قلوب أهل الإجمام، كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بفتة وهم لا يشعرون﴾ أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

﴿فيقولوا﴾ إذاك: ﴿هل نحن منظرون﴾ أي: يطلبون أن يُنظروا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يفتر ساعة.

﴿٢٠٤ - ٢٠٧﴾ ﴿أفبعذابنا يستمعجون﴾ * أفرايت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ يقول تعالى: ﴿أفبعذابنا﴾ الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به ولا يحتقر، ﴿يستمعجون﴾ فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدر على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

﴿أفرايت إن متعناهم سنين﴾ أي: أفرايت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يمتعون في الدنيا ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب.

ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ من اللذات والشهوات، أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت، وبطلت، واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند

اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ من تعظيمة وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم، ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، ﴿الأمين﴾ الذي قد آمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿على قلبك﴾ يا محمد ﴿لتكون من المنذرين﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق البغي.

﴿بلسان عربي﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بُعث إليهم، وياشر دعوتهم أصلاً، اللسان اللين الواضح، وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أولم يكن لهم آية﴾ على صحته، وأنه من الله ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الذي قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في غلم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرّون على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فقراه﴾ عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴿يقولون﴾: ما نفقه ما يقول، ولا ندرى ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان

والشهادة. فاستحضر العيد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما يتطوي عليه قلبه، من الهم والعزم والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان.

﴿٢٢١ - ٢٢٧﴾ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ

مَنْ تَنْزَلَ الشَّيَاطِينُ﴾ * تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاؤون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً

وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي متقلب ينقلبون * هذا جواب لمن قال من مكذب الرسول: إن عمداً ينزل عليه شيطان. وقول من قال: إنه شاعر، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص، الذين تنزل عليهم الشياطين. ﴿تَنْزَلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل، ﴿أَثِيمٌ﴾ في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم؟

﴿يَلْقَوْنَ﴾ عليه ﴿السمع﴾ الذي يسترقونه من السماء، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب^(٢)، فيصدق واحدة، ويكذب معها مئة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه^(٣) صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيمهم له.

وأما محمد ﷺ، فحاله مبينة لهذه الأحوال أعظم مبينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال

ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم عليه وانصحبهم، وأبذل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه، وهذا لدفع، احتراز وهم من يتوهم، أن قوله: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

﴿٢١٧ - ٢٢٠﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم * أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وجسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرخته به يفعل ذلك. ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ * وتقلبك في الساجدين * أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك وتقلبك راکعاً وساجداً خضعاً بالذكر، لفضلها وشرورها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خضع وذل، وأكملها، وتكملها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

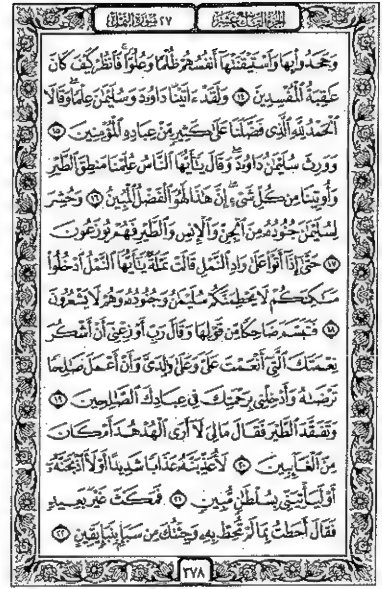
﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، على اختلافها وتشتتها وتنوعها، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب

شركاً، ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ والنهي عن الشيء أمر بضده، فالنهي عن الشرك، أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبة، وخوفاً، ورجاء، وذللاً، وإنابة إليه في جميع الأوقات. ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له ﴿أَحْسِنْ إِلَى قَرَابَتِكَ﴾، فيكون هذا خصوصاً^(١) دالاً على التأكيد وزيادة الحق، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعى سائر بطون قریش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يبق ﷺ من مقدوره شيئاً، من نصيحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض، ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد. فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعة؟ [و] إن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من الفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، قد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمل نفسه

(١) وفي ب: الخصوص.

(٢) في النسخين: كذباً.

(٣) في النسخين: هذا.



أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق، فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يقيمون الصلاة﴾ فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها، وشروطها، وواجباتها، بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة، وهو الخشوع الذي روحها ولبها، باستحضار قرب الله، وتدبر ما يقول المصلي ويفعله.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة لمستحقيها. ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الواصل إلى القلب، الداعي إلى العمل. ويقينهم بالآخرة، يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من جاء بإثباتها، ﴿زيناً لهم أعمالهم﴾ فهم يعمهون حائزين مترددين، مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقاً، والحق باطلاً.

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي: أشده وأسوأ وأعظمه، ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ حصر الخسار فيهم، لكونهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعته إلى الرسل.

﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك وتلقفه وتنتقله، ينزل من عند ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها. ﴿عليم﴾ بأسرار الأمور^(١) وبواطنها، كظواهرها. وإذا كان من عند ﴿حكيم عليم﴾^(٢) علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي [هو] أعلم بمصالحهم منهم؟

﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً﴾ إلى آخر قصته، يعني: أذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران، ابتداء الوحي إليه، واصطفائه برسالته، وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إني آنست ناراً﴾ أي: أبصرت ناراً من بعيد ﴿سأتيكم منها بخبر﴾ عن الطريق، ﴿أو أتيكم بشهاب قيس لعلكم تصطلون﴾ أي: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه، ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فلما جاءها تودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ أي: ناداه الله تعالى وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته، أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.

﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ عن أن يُظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله. ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى ﴿إني أنا الله لا

إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ ﴿العزيز﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذنت له كل المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته، أن أرسل عبده موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه. ومن عزته، أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من انفردك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله، وحرركاتهم وسكونهم بتدبيره.

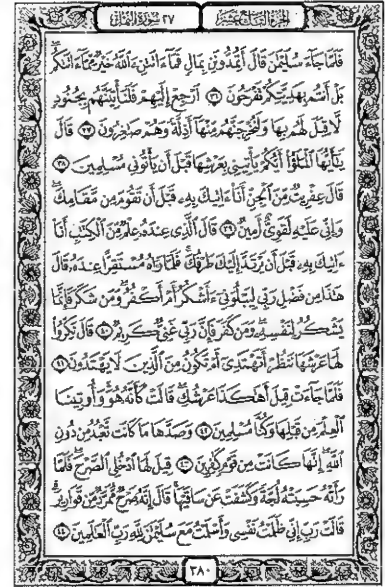
﴿وأتى عصاك﴾ فألقاها ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ وهو ذكر الحيات، سريع الحركة، ﴿ولي مدبراً ولم يعقب﴾ سريع الحية التي رأى، على مقتضى الطباع البشرية، فقال الله له: ﴿يا موسى لا تحف﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿أقبل ولا تحف إنك من الأمنين﴾ ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته، واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والحظوة بتكليمه.

﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون، فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب، فبدل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضاً من غير سوء﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض ينهر الناظرين شعاعه. ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من

(١) في ب: الأحوال.

(٢) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: (حكيم خير) فصحتها، وأبقيت التفسير كما هو.



والجبروت . والرسل منزهون عن ذلك .

وقال شاكرًا لله الذي أوصله إلى هذه الحال : ﴿رب أوزعني﴾ أي : ألهمني ووفني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد . فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته ، الدينية والدنيوية ، عليه وعلى والديه ، ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي : ووفني أن أعمل صالحاً ترضاه ، لكونه موافقاً لأمرك ، مخلصاً فيه ، سالماً من المفسدات والمنقصات ، ﴿وادخلني برحمتك﴾ التي منها الجنة ﴿فني﴾ جملة ﴿عبادك الصالحين﴾ فإن الرحمة مفعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم . فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها .

ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير ، فقال : ﴿وتفقد الطير﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه ، وحسن تنظيمه لجنوده ، وتديبه بنفسه للأمور الصغار والكبار ، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر ، وهو تفقد الطيور ، والنظر : هل هي موجودة كلها ، أم مفقودة منها شيء ؟ وهذا هو المعنى للآية . ولم يصنع شيئاً من قال : إنه تفقد الطير ، لينظر أين الهدهد منها ^(١) ، ليدل على بعد الماء وقربه ، كما زعموا عن الهدهد ، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة ، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل ، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه ، أما العقلي ، فإنه قد عرفت بالعادة والتجارب والملاحظات ، أن هذه الحيوانات كلها ، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة ، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة ، ولو كان كذلك ، لذكره الله ، لأنه من أكبر الآيات .

وأما الدليل اللفظي ، فلو أريد هذا المعنى ، لقال : ﴿وطلب الهدهد لينظر له الماء﴾ فلما فقدته قال ما قال «أو فتش عن الهدهد» ، أو : «بحث عنه» ونحو

ذلك من العبارات ، وإنما تفقد الطير ، لينظر الحاضر منها والغائب ، ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها . وأيضاً . فإن سليمان عليه السلام ، لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء ، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد ، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ، ما يخفرون له الماء ، ولو بلغ في العمق ما بلغ . وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواجها شهر ، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد ؟ !!

وهذه التفاسير التي توجد ، وتشتهر بها أقوال ، لا يعرف غيرها ، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة ، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة ، وتطبيقها على الأقوال ، ثم لا تزال تتناقل ، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم ، حتى يظن أنها الحق ، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع ، واللبيب الفطن ، يعرف أن هذا القرآن الكريم ، العربي المبين ، الذي خاطب الله به الخلق كلهم ، عالمهم وجاهلهم ، وأمرهم بالتفكير في معانيه ، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني ، التي لا تجهلها العرب العرباء ، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ ، ردها إلى هذا الأصل ، فإن وافقته قبلها ، لكون اللفظ دالاً عليها ، وإن خالفته لفظاً ومعنى ، أو لفظاً أو معنى ، ردها وجزم ببطلانها ، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها ، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته .

والشاهد ، أن تفقد سليمان عليه السلام للطير ، وفقده الهدهد ، يدل على كمال حزمه وتديبه الملك بنفسه ، وكمال فطنته ، حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائين﴾ أي : هل عدم رؤيتي إياه ، لقلة فطنتي به ، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة ؟ أم علي بابها ، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري ؟ فحينئذ تغيب عليه وتورعه ، فقال :

قالت نملة : منبهه لرفقتها وبني جنسها : ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ فنصحت هذه النملة ، وأسمنت النمل ، إما بنفسها ، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعاً خارقة للعادة ، لأن التنبيه للنمل ، الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة ، من أعجب العجائب . وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل ، ثم سرى الخبر من بعضهم لبعض حتى بلغ الجميع ، وأمرتهم بالجذر ، والطريق في ذلك ، وهو دخول مساكنهم .

وعرفت حالة سليمان وجنوده ، وعظمة سلطانه ، واعتذرت عنهم ، أنهم إن حطموكم ، فليس عن قصد منهم ولا شعور ، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه ، ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ إعجاباً منه بفصاحتها ^(٢) ونصحها ، وحسن تعبيرها . وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، الأدب الكامل ، والتعجب في موضعه ، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم ، كما كان الرسول ﷺ جل ضحكه التبسم ، فإن الحقيقة تدل على خفة العقل وسوء الأدب . وعدم التبسم والعجب عما يتعجب منه ، يدل على شراسة الخلق

(٢) في ب : منه .

(١) في ب : بنصح أمته .

﴿لَاعَذِبْنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل،
﴿أَوْ لَأَذْبَحْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مِّينَ﴾
أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا
من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم
على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل،
لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب،
وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح،
فلذلك استثناءه، لورعه وفطنته.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ثم جاء، وهذا
يدل على هيبة^(١) جنوده منه، وشدة
اتتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد،
الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على
التخلف زمناً كثيراً، ﴿فَقَالَ﴾
لسليمان: ﴿أَحْطَطْتُ بِمَا لَمْ يَحْطُ بِهِ﴾
أي: عندي من العلم علم ما أحطت
به، على علمك الواسع، وعلو درجتك
فيه، ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ القبيلة
المعروفة في اليمن ﴿بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ أي:
خبر متيقن.

ثم فسر هذا النبأ فقال: ﴿وَإِنِّي
وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي: تملك قبيلة
سبأ، وهي امرأة. ﴿وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ يَؤْتَاهُ الْمَلُوكُ، مِنْ الْأَمْوَالِ،
وَالسِّلَاحِ، وَالْجُنُودِ، وَالْخَصْيُونِ،
وَالْقِلَاعِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ﴾ أي: كرسي ملكها الذي تجلس
عليه، عرش هائل، وعظم العروش
تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان
وكثرة رجال الشورى.

﴿وَوَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هم مشركون
يعبدون الشمس. ﴿وَوَزِنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ﴾ فرأوا ما هم عليه هو الحق،
﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لأن الذي يرى أن
الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته
حتى تتغير عقيدته.

ثم قال: ﴿الَّا﴾ أي: هلا
﴿يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم الخفي
الخبيء، في أقطار السماوات، وأنحاء
الأرض، من صغار المخلوقات،
وبذور النباتات، وخفايا الصدور،
ويخرج خبء الأرض والسماء، بإنزال

المطر، وإنبات النبات، ويخرج خبء
الأرض عند النفخ في الصور وإخراج
الأموات من الأرض، ليجازيهم
بأعمالهم، ويعلم ما تخفون وما
تعلنون.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تنبغي
العبادة، والإنابة، والذل، والحب، إلا
له، لأنه المألوه، لما له من الصفات
الكاملة، والنعم الموجبة لذلك. ﴿وَرَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف
المخلوقات، ووسع الأرض
والسماوات، فهذا الملك العظيم
السلطان، كبير الشأن، هو الذي يدل
له ويخضع، ويسجد له ويركع، فسلم
الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ
العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي
عليه.

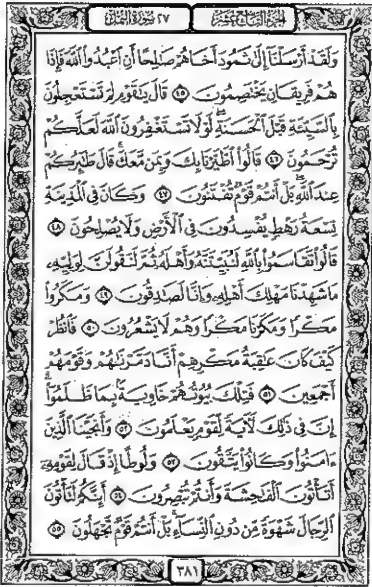
وقال متبثاً لكمال عقله ورزاقته:
﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ﴾ * اذهب بكتابي هذا وسيأتي
نصه ﴿فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي:
استأخر غير بعيد ﴿فَانْظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ﴾ إليك وما يراجعون به.

فذهب به فألقاه عليها، فقالت
لقومها: ﴿إِنِّي أَلْقِي إِلَيْكُمْ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾
أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك
الأرض.

ثم بينت مضمونه فقالت: ﴿إِنَّهُ مِنْ
سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ﴾ * ألا تعملوا عليّ وأتوني
مسلمين؟ أي: لا تكونوا فوقّي، بل
اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا
لأوامري، وأقبلوا إليّ مسلمين.

وهذا في غاية الوجازة مع البيان
التام، فإنه تضمن نهيهم عن العلو
عليه، والبقاء على حالهم التي هم
عليها، والانقياد لأمره، والدخول
تحت طاعته، وعيبتهم إليه، ودعوتهم
إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء
الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم
في أول عنوان الكتاب، فمن حزمها
وعقلها، أن جمعت كبار دولتها ورجال
ملكيتها، وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي

(١) كذا في ب، وفي أ: هيته.



في أمري؟ أي: أخبروني، ماذا نجيته
به؟ وهل ندخل تحت طاعته ونقاد؟ أم
ماذا نفعل؟ * ما كنت قاطعة أمراً حتى
تشهدون؟ أي: ما كنت مستبدة بأمر
دون رأيكم ومشورتكم.

فـ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَىٰ قُوَّةً وَأُولُو بَأْسٍ
شَدِيدٍ﴾ أي: إن رددت عليه قوله، ولم
تدخل في طاعته، فإننا أقرباء على
القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي،
الذي لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم
أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا:
﴿الْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي: الرأي: ما رأيت،
لعلمهم بعقلها وحزمها، ونصحها لهم
﴿فَانْظُرِي﴾ نظر فكر وتدبر ﴿مَاذَا
تَأْمُرِينَ﴾.

فقال لهم - مقنعة لهم عن رأيهم،
ومبينة سوء مغية القتال - ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ
إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ قتلاً،
وأسراً، ونهباً لأموالها، وتخريباً
لديارها، ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذْءَةً﴾
أي: جعلوا الرؤساء السادة أشراف
الناس من الأذلين، أي: فهذا رأي:
غير شديد، وأيضاً، فلست بمطبعة له
قبل الاختيار وإرسال من يكشف عن
أحواله ويتدبرها، وحيث تكون على
بصيرة من أمرنا، فقالت: ﴿وَإِنِّي
مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ
الْمُرْسِلُونَ﴾ منه. هل يستمر على رأيه

لعقلها ﴿أعتدي﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أم تكون من الذين لا يهتمون﴾.

﴿فلما جاءت﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عندها به، قد خلفته في بلدها، و ﴿قيل لها أهلكذا عرشك﴾ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قالت كأنه هو﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغير فيه والتكبر، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفت، فأتت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين، فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ أي: الهداية، والعقل، والحزم، من قبل هذه الملكة، ﴿وكننا مسلمين﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبا: ﴿وأوتينا العلم من ملك سليمان وسلطانه، وزيادة اقتداره، من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذعنا له، وجئنا مسلمين له، خاضعين لسلطانه﴾.

قال الله تعالى: ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي: عن الإسلام، وإلا، فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم، من أنذر ما يكون، فلهدا لا يستغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهّر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهي المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قواريير، تجري تحته الأنهار.

ف ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسيت حسنة﴾ ماء، لأن القواريير شائعة،

﴿أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين﴾ والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبا نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهاباً، وشهران إياباً، ومع ذلك، يقول هذا العفريت: أنا ألتزم بالمجيء به، على كبره وثقله وبُعده، قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. والمعتاد من المجالس الطويلة، أن تكون معظم الضحى، نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك، أو أكثر، وهذا الملك العظيم، الذي عند أحاد رعيته هذه القوة والقدرة، وأبلغ من ذلك أن ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾: قال المفسرون: هو رجل عالم صالح، عند سليمان يقال له: «أصف بن برخيا» كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم [هل هذا المراد أن عنده علماً من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشئد] (١).

﴿فلما رآه﴾ سليمان ﴿مستقراً عنده﴾ حمد الله تعالى على إقداره وملكه، وتيسير الأمور له، و ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني﴾ أشكر أم أكفر؟ أي: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها، ثم قال لمن عنده: ﴿تكرروا لها عرشها﴾ أي: غيرهو بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿نظروا﴾ ختبرين



وقوله؟ أم تخدعه الهدية، وتبدل فكرته، وكيف أحواله وجوده؟

فأرسلت له هدية مع رسل من عقلاء قومها، وذوي الرأي: منهم، ﴿فلما جاء سليمان﴾ أي: جاءه الرسل بالهدية ﴿قال منكر﴾ عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم: ﴿أئذنون بما لى أنا الله خير مما أتاكم﴾ فليست تقع عندي موقعاً، ولا أفرح بها، قد أغثنى الله عنها، وأكثر على النعم، ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

ثم أوصى الرسول من غير كتاب، لما رأى من عقله، وأنه سيتقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ارجع إليهم﴾ أي: بهديتكم ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم﴾ أي: لا طاقة لهم ﴿بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ فرجع إليهم، وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ أي: لأجل أن تنصرف فيه قبل أن يسلموا، فتكون أموالهم محترمة، ﴿قال عفريت من الجن والعفريت: هو القوي النشيط جداً:

يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء، ﴿وَكَشَفْتُ عَنْ سَاقِيهَا﴾ للخياضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء، بعد ما رأت ما رأت.

فلما استعدت للخوض قيل لها: **﴿إِنَّهُ صِرْحٌ مَرْدٌ﴾** أي: علس **﴿من قوارير﴾** فلا حاجة منك لكشف الساقين. فحيث لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها، و **﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾**

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الحزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها، أو أكثرها، ليس كذلك، فالحزم كل الحزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفسير، والله أعلم.

﴿٤٥﴾ - ﴿٥٣﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. يُخَيِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى ثَمُودَ الْقَبِيلَةِ الْمَعْرُوفَةِ، أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ صَالِحًا، وَأَنَّهُ أَمَرَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَيَتْرَكُوا الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ، ﴿فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ، وَمِنْهُمْ الْكَافِرُ، وَهُمْ مَعْظَمُهُمْ.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ الْحُكْمِ﴾ أي: لم تبادرون فعل النسيئات والمحضون عليها، قبل فعل الحسنات، التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدنيوية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب

لِفِعْلِ السَّيِّئَاتِ؟ ﴿لَا تَسْتَغْفِرُونَ﴾ **اللَّهُ** بِأَنْ تَتُوبُوا مِنْ شُرَكَائِكُمْ وَعُصْيَانِكُمْ، وَتَدْعُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ، **لِعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ** ﴿فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وَالتَّائِبِينَ مِنَ الذُّنُوبِ، هُوَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

﴿قَالُوا﴾ لنبيهم صالح، مكذّبين ومعارضين: ﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾ زعموا - قبحهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سبباً لئ بعض مطالبهم الدنيوية، فقال لهم صالح: ﴿طائركم عند الله﴾ أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم، ﴿بل أنتم قوم تقعون﴾ بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تفلعون وتوترون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابله به.

﴿وكان في المدينة﴾ التي فيها صالح، الجامعة لعظم قومه ﴿تسعة﴾ رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴿أي﴾: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح والطعن في دينه، ودعوة قومهم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ ولا تنطيعوا أمر المفسرين ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾.

فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة، حتى
انهم من عداوتهم ﴿تقاسموا﴾ فيما
بينهم، كل واحد أقسم للآخر:
﴿لنبيته وأهله﴾ أي: نأية^(١) ليلاً، هو
وأهله، فلقتلهم، ﴿ثم لقولن لوليه﴾
إذا قام علينا، وأدعى علينا أننا قتلناه،
ننكر ذلك، وننفيه ونحلف ﴿إننا
لصادقون﴾ فتواطؤوا على ذلك،
﴿ومكروا مكرًا﴾ دبوا أمرهم على قتل
صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى
﴿أمن﴾ قومهم، خوفاً من أوليائه،
﴿ومكرنا مكرًا﴾ بنصر نبينا صالح عليه
السلام، ونيسير أمره، وإهلاك قومه
المكذبين ﴿وهم لا يشعرون﴾

أَن تَبْدُوا الْحَقَّ حُرْمَةً مِّنْ رَبِّكُمْ فَكَذَّبُوا لَهُمْ فِي السَّاعَةِ الْأُولَىٰ
 لَمْ يَتَّعَمِدُوا الْقَوْلَ هَٰذَا قَوْلُكَ نَحْنُ وَاللَّيْلِ الْعَبِيدُ ۖ إِنَّ أَشَدَّ
 لَنَا بَعْدَ ذَٰلِكَ ۖ مِنَ الْبُسُوفِ وَالْأَرْحَامِ ۚ الْعَبِيدُ إِلَى اللَّهِ
 وَمَا يَشْعُرُونَ ۖ أَيَّانَ يُشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ قُلِ اللَّهُ عَلِيمُ الْغُيُوبِ
 يَلَهُمْ فِي حَقِّهِ بِمَا لَهُمْ مِنْهَا عَشْرُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا أَهَٰؤُلَاءِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ بِأَعْيُنِنَا ۖ قُلْ كَيْفَ لِي بِمَا
 عَصَيْتُمْ وَأَنَا تَارِكٌ مُّوَدَّاعِينَ ۚ قُلِ إِن هَٰذَا إِلَّا سُلُوكُ السَّبِيلِ
 ۖ فَتَسْأَلُونَ لِمَ قَامُوا بِالْأَرْضِ قَاطِفِينَ ۚ وَكَانَ قَوْلُكَ نَقِصَةً
 فِي الْعَجْرِ ۚ وَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيْهِمْ وَلَا حِجْرٌ فِي سِتْوَتِهِمْ ۚ يَكُونُونَ
 قُلُوبُهُمْ مِّثْلَ هَٰذَا ۚ الْوَعْدُ لَكُمْ مَسْجُودِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ عَسَىٰ
 أَن يَكُونَ رَدِفٌ لِّبَعْضِ الَّذِينَ تَتَّبَعُونَ ۖ وَتَلْفُوتُهُمْ ۚ وَأَن يَكُونَ
 لَدُونِ قَوْمٍ عَلَىٰ الْبَاسِ ۚ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾
 وَأَن يَكُونَ لَكُمْ سُلُوكٌ سَاهُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَدُونَ اللَّهِ مُتَمِيزُونَ ۖ وَأَن
 يَكُونَ لَكُمْ سُلُوكٌ سَاهُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَدُونَ اللَّهِ مُتَمِيزُونَ ۖ إِنَّ هَٰذَا الْقَوْلَ
 يَنْفَعُ عَلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أَكْثَرُ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَلٍ مُّشْتَبِهِينَ ۚ

﴿فَانظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ﴾
هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك
المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم
الأمر، ولهذا قال: ﴿أَنَادِمْنَاهُمْ
وَقَرَّمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أهلكتناهم،
واستأصلنا شأفتهم، فجاءتهم صيحة
عذاب، فأهلكوا عن آخرهم.

﴿فَإِنَّكَ بِبُيُوتِهِمْ خَاوٍ﴾ قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من تازليها، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: هذا عاقبة ظلمهم وشرهم بالله، وبغيهم في الأرض. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق، ويتدبرون وقائع الله، في أولياته وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

ولهذا قال: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

﴿٥٤-٥٨﴾ ولوطاً إذ قال لقومه
أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴿٥٤﴾ إلى
آخر القصة. أي: وأذكر عبدنا وزموتنا
لوطاً، ونبأه الفاضل، حين قال

وهباته وعدله، وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلم أيضاً على عباده، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله من العالمين، وذلك لرفع ذكرهم، وتنوياً بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقاظ والعيوب.

﴿الله خير أما يشركون﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف، أي: الله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم اللطاف، خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعبادها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة [ما] سواه هي الباطل، فقال:

﴿٦٠﴾ «أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أله مع الله بل هم قوم يعدلون».

أي: من خلق السماوات وما فيها، من الشمس والقمر والنجوم والملائكة، والأرض وما فيها، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك؟

﴿وأنزل لكم﴾ أي: لأجلكم ﴿من السماء ماء فأنبتنا به حدائق﴾ أي: بساتين ﴿ذات بهجة﴾ أي: حسن منظر، من كثرة أشجارها وتبرعها، وحسن ثمارها، ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ لولا مئة الله عليكم بإنزال المطر. ﴿أله مع الله﴾ فعل هذه الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به؟

﴿بل هم قوم يعدلون﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

﴿٦١﴾ «أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي

فكانه قيل: ما نقتسم منهم، وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج، فقالوا: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور. فحبهم الله، جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجهم، والبلاء موكل بالمنطق، فهم قالوا: ﴿أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾.

ومفهوم هذا الكلام: «وانتم متلوثون بالخبث والقذر، المقتضي لنزول العقوبة بقريبتكم، ونجاة من خرج منها».

ولهذا قال تعالى: ﴿فأنجيناه وأهلكه إلا أمراته قدرناها من الغابرين﴾ وذلك لما جاءت الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن جليلة الحال، وأنهم جاؤوا لاستنقاده وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمره أن يسري بأهله ليلاً، إلا امراته فإنه سيصحبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصحبهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ميسومة عند ربك.

ولهذا قال هنا: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ أي: بشس المطر مطرهم، وبشس العذاب عذابهم، لأنهم أنذروا وخوفوا، فلم ينجروا ولم يرددوا، فأجل الله بهم عقابه الشديد.

﴿٥٩﴾ «قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أله خير أم ما يشركون﴾ أي: قل «الحمد لله» الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء، لكمال أوصافه، وجعل معروفه،



لقومه - داعياً لهم إلى الله وناصحاً - : ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الفعل الشنعاء، التي تستفحشها العقول والفطر، وتستحبها الشرائع ﴿وانتم تبصرون﴾ ذلك، وتعلمون قبحه، فعاندهم، وارتكبتم ذلك، ظلماً منكم وجراً على الله.

ثم فسر تلك الفاحشة، فقال: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال، وأدبارهم محل الغائط والتجو والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء، من المحال الطيبة، التي جبلت النفوس إلى الميل إليها وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنت القبيح، واستقبحتم الحسن، ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ متجاوزون لحدود الله، متجرون على محارمه.

﴿فما كان جواب قومه﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده. فمما كان جواب قومه ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾. وفسرها على هذا، فصححت الآية، وأبقيت التفسير كما هو.

السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون * بل أذكركم علمهم في الآخرة بل هم في شك منها إذا كنا تراباً وأبائنا أننا لمخرجون * لقد وعدنا هذا نحن وأبائنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين * يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السموات والأرض، كقوله تعالى: «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» وكقوله: «إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام» إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها، اخضع الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، المحيط علمه بالسرائر والباطن والخفايا، فهو الذي لا تبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال:

﴿وما يشعرون﴾ أي: وما يدرون ﴿أيان يبعثون﴾ أي: متى البعث والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا، ﴿بل أذكركم علمهم في الآخرة﴾ أي: بل ضعف، وقُلْ ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصلًا إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه وهاؤه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما هم في شك منها: أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك، ﴿بل هم منها﴾ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾ قد غميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقورها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبائنا إنا لمخرجون﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرتهم الضعيفة، ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي: البعث ﴿نحن وأبائنا من قبل﴾ أي:

تذكرون﴾ أي: قليل تذكركم وتذكركم للأمور، التي إذا تذكروها أذكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما أروعيتم ولا اهتديتم.

﴿٦٣﴾ ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد، قبل نزول المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده، الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ تعظم وتزده وتقدس عن شركهم وتسميتهم به غيره.

﴿٦٤﴾ ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض، بالمطر والنبات؟ ﴿إله مع الله﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حجتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ وإلا، فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له، في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوى، صدقوها بالبرهان، وإلا، فاعرفوا أنكم مبطلون، لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات، وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿٦٥ - ٦٨﴾ ﴿قل لا يعلم من في

وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي جعل الأرض قراراً يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى، والحرق، والبناء، والذهاب، والإياب. ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي: جعل في خلال الأرض، أنهاراً ينتفع بها العباد، في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم.

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي: جبالات ترسيها وتثبتها، لثلاث غايات، وتكون أوتاداً لها، لثلاث تضطرب. ﴿وجعل بين البحرين البحر المالح والبحر العذب حاجزاً﴾ يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها، ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون بالله، تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئاً.

﴿٦٦﴾ ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أقلفته الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمدلكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمته، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قليلاً ما

معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ

بحكمه وهو العزيز العليم﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لحفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها، وهو العزيز ﴿الذي قهر الخلائق فأذعناؤه، العزيم﴾ بجميع الأشياء ﴿العليم﴾ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كل بما علمه فيه.

﴿٧٩﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ * إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ وَلَا تَسْمَعُ الدَّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضاً، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حلت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ وَلَا تَسْمَعُ الدَّعَاءَ﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً إذا ولوا مدبرين، فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين ينتقادون لك، الذين يؤمنون

لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب.

﴿٧٣﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ

عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِيمٌ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ ينه عباده، على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا، فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم. ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَعَلِيمٌ مَا تَكُنْ﴾ أي: تنظوي عليه صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلي أو خفي، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ * وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن، على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقضى هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبين الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة، من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بين أن نفعه ونوره وهذاه، يختص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى﴾ من الضلالة والغي والشبه و﴿وَرَحَةً﴾ تنلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في

فلم يحشوا، ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأخبارهم، التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عسى، ثم الإخبار بأنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وبسبب هذه الأحوال ترجل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، ففسدوا دنياهم وآخرهم.

﴿٦٩﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿ثُمَّ نَبْهَهُمْ عَلَى صَدَقِ مَا

أَخْبَرْتَ بِهِ الرُّسُلَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلا تجدون مجزماً قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٠﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين، وعدم إيمانهم، فإنك لو علمت ما فهم من الشر، وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ويقول المكذبون بالمعاد، وبالحق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى مخذراً

السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣.

المجلد السادس من تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من من الله على الفقير إلى المعيد المبيدي، عبده وابن عبده وابن أمته، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له آمين.

تفسير سورة القصص وهي مكية

﴿١٦-٥١﴾ بسم الله الرحمن الرحيم طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إلى آخر القصة * تلك الآيات المستحقة

للتعظيم والتفخيم * آيات الكتاب المبين * لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبين، وجلاها للعباد ووضحها.

من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾. فإن نبأها غريب، وخبرها عجيب.

﴿لقوم يؤمنون﴾ فإليهم يساق الخطاب، ويوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون إيماناً و يقيناً، وخيراً إلى خيرهم، وأما من عداهم، فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانته الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه، فأول هذه القصة ﴿إن فرعون علاني في الأرض﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلى فيها. ﴿وجعل أهلها

ألفاظه ومعانيه، فهذا الذي علي وقد أدبته، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه ﴿ومن ضل فقل إنما أنا من النذرين﴾ وليس بيدي من الهداية شيء.

﴿وقل الحمد لله﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصاً أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والثناء على ربهم، أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه، وكثرة خيراته عليهم.

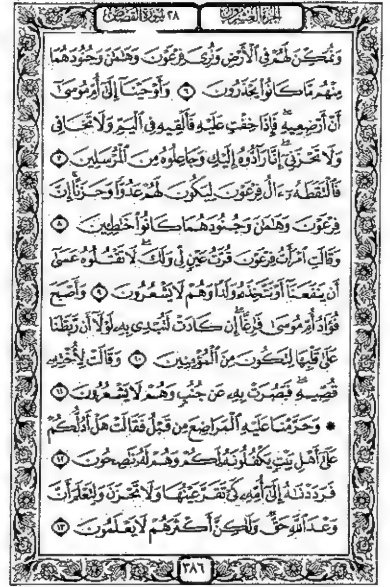
﴿سيريكم آياته فتعترفونها﴾ معرفة تدلکم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنبطون به في الظلمات. ﴿إلهك من هلك عن بينة ويخيا من حي عن بينة﴾.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسبحكم بينكم حكماً تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانتة وتيسيره

ونسأله تعالى أن لا تزال ألطافه ومعونته مستمرة علينا، وواصله منة إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، وعمد مائدة خيراته وميراثه للمتفكرين، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامععه ومعلمه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله



﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ اسم جنس، يشمل كل سيئة ﴿فكبت وجوههم في النار﴾ أي: ألجوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

﴿٩١-٩٣﴾ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من النذرين * وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعترفونها وما ربك بغافل عما تعملون * أي: قل لهم يا محمد ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ أي: مكة المكرمة التي حرّمها وأنعم على أهلها، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول. ﴿وله كل شيء﴾ من العلويات والسفليات، أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده. ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي: أبادر إلى الإسلام، وقد فعل ﷺ، فإنه أول هذه الأمة إسلاماً، وأعظمها استسلاماً، ﴿و﴾ أمرت أيضاً ﴿أن أتلو﴾ عليكم ﴿القرآن﴾ لتهتدوا به وتقتدوا وتعلموا

يترقب ﴿ هل يشعر به آل فرعون أم لا ؟
 وإنما خاف ، لأنه قد علم ، أنه
 لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال
 سوى موسى من بني إسرائيل .

فبينما هو على تلك الحال ﴿فإذا﴾
الذي استنصره بالأمس ﴿على عدوه﴾
﴿يستمرخه﴾ على قبطي آخر. ﴿قال﴾
له موسى ﴿موبخاً له على حاله﴾ ﴿إنك﴾
لغوئي مبين ﴿أي: بين الغواية، ظاهر﴾
الجرأة، ﴿فلما أن أراد أن يبطش﴾
موسى ﴿بألذي هو عدو لهما﴾ ﴿أي: له﴾
وللمخاضم المسترخ، ﴿أي: لم يزل﴾
اللاجج بين القبطي والإسرائيلي، وهو
يستغيث بموسى، فأخذته الحمية،
حتى هم أن يبطش بالقبطي، ﴿قال﴾
له القبطي زاجراً له عن قتله: ﴿أتريد﴾
أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن
تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴿فإن﴾
لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض،
قتل النفس بغير حق.

﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾
 وإلا، فلو أردت الإصلاح لَحَلَّتْ بِنِي
 وبينه من غير قتل أحد، فأنكفَ موسى
 عن قتله، وأرعوى لوعظه وزجره،
 وشاع الخبر بما جرى من موسى في
 هاتين القضيتين، حتى تراود ملا
 فرعون وفرعون على قتله، وتشاوروا
 على ذلك، وقبض الله ذلك الرجل
 الناصح، وبأدرهم إلى الإخبار لموسى
 بما اجتمع عليه رأي ملئهم. فقال:
 ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾
 أي: ركضاً على قدميه من نصحه
 لموسى، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن
 يشعر، ف ﴿قال يا موسى إن الملأ
 يأثرون﴾ أي: يتشاورون فيك
 ﴿ليقتلوك فأخرج﴾ عن المدينة ﴿إني
 لك من الناصحين﴾ فامتثل نصحه،
 ﴿فأخرج منها خائفاً يترقب﴾ أن يوقع
 به القتل، ودعا الله، و ﴿قال رب
 نجني من القوم الظالمين﴾ فإنه قد تاب
 من ذنبه وفعله غضباً من غير قصد منه
 للقتل، فتوَعَّدَهم له ظلم منهم
 وجراًء.

﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي :
قاصداً بوجهه مدين، وهو جنوبي

فلسطين، حيث لا ملك لفرعون،
 قال عسى ربي أن يهديني سواء
 السبيل. أي: وسط الطريق المختصر،
 الموصل إليها بسهولة ورفق، فهداه الله
 سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة
من الناس يسقون﴾ مواشيهم، وكانوا
أهل ماشية كثيرة ﴿ووجد من دونهم﴾
أي: من دون تلك الأمة ﴿أمرأتين
تندودان﴾ غنمهما عن حياض الناس،
يعجزهما عن مزاحمة الرجال ويخلعهما،
وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَظِبَكُمَا﴾
 أي: ما شأنكما بهذه الحالة، ﴿قَالَتَا﴾
 لا نسقي حتى يصدر الرءاء ﴿أَي:﴾ قد
 جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي
 حتى يصدر الرءاء مواشيهم، فإذا خلا
 لنا الجوسقينا، ﴿وَابُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾
 أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا
 قوة نتقدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون
 الرءاء. فرق لهما موسى عليه السلام
 ورؤسهما ﴿فَسَقَى لهُمَا﴾ غير طالب
 منهما الأجرة، ولا له قصد غير
 وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان
 ذلك وقت شدة حر، وسط النهار،
 بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾
 مستريحاً لذلك الظلال بعد التعب.

﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة، مستزقاً ربه ﴿وَبِإِنِّي لَأَنْزِلْتُ إِلَيْكَ خَيْرَ تَفْصِيلٍ﴾ أي: إني مفتقر للتفصيل الذي تنسوقه إلي وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً.

وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما أحدهما إلى موسى، فجاءته ﴿عَمْسِي﴾ على استحياء ﴿وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَرَمِ عَصْرِهَا، وَخُلُقِهَا الْحَسَنِ، فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَخُصُوصاً فِي نِسَاءِ

ويدل على أن موسى عليه السلام،
لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة
الآجير والخادم الذي لا يستجنى منه
عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأته من

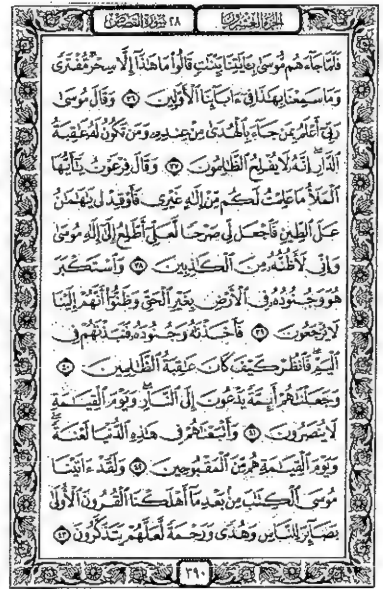
﴿٢٨﴾ فَكَانَ قَصِي مَوْسَى الْكَلِمَلِ وَسَكَرَ بِأَخِيهِ هَارُونَ
 جَانِبَ الطُّورِ نَكَارًا قَالَ لَأَقْبِلَهُ أَمْسِكْهُ ثُمَّ ارْجِعْ إِلَى نَارِشِ
 قَالَ لَعَلَّ عَيْنِي عَلَيْهِ يَتَمَتَّعُ بِأُجْدَةٍ وَوَقْتُهِ انْزَالُ الْمَآئِ
 فَتَطْلُوتُ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا انْهَارَ هَارُونَ مِنْ شَطْلِ الْوَلَاةِ الْآخِرِ
 فِي الْقُبُورِ الْبَرِيكِ وَرَمِ الْبَشِيرَةَ أَنَّ نَعْمَتِي إِلَى آتَا
 اللَّهُ رُؤْيَا الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنَّ أَلِيَّ عَمِلَ ذَلِكَ فَهَارُونَ هَارُونَ
 كَمَا جَاءَهُمْ قَوْلِي مُبِيرًا وَلَوْ تَعَقَّبَ يَتَمَتَّعُ أَقْبَلُ وَلَا تَخَفْ
 وَلَوْ أَنَّ الْوَعْدَ ﴿٣١﴾ أَسْلَفَ بِكَ فِي حَبِيلِي فَخَالِجُ
 ضَمَّةً مِنْ عَوْنِي وَمَوْ وَنَهْمُهُمْ إِلَى جَنَابِكَ مِنَ الرَّغْبِ
 فَتَذَكَّرَ مُرْتَدِّكَ مِنْ تَوَلَّى إِلَى وَجْهِكَ وَمَلَكِيَّةَ يَهْدِي كَانُوا
 تَوَلَّوْا فَتَقَبَّلَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَجِي إِلَى قَلْبِكَ مِنْهُمْ نَفْسَ فَكَلَّمَ
 أَيْدِيَهُمْ ﴿٣٣﴾ وَأَخْبَرَهُمْ هُوَ أَفْضَحُ مَوْسَى لِسَانًا
 أَيْدِيَهُمْ مَوْسَى وَهَارُونَ فِي لَيْلٍ لَأَنْفَاقَ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ
 ﴿٣٤﴾ قَالَ سَمِعْتُ عَنْ عَبْدِكَ وَأَخِيكَ وَتَحْمِلُ أَعْمَ أَسَاطِنَ
 لَأَصْلَحَ لَوَالِي كَمَا بَلَّغُوا أَشْوَاقَ مِنْ جَعَلُوا الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾

حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياء منه، ف ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنْ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: لا ليمنن عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده فأجابها موسى.

﴿فلما جاءه وقصّ عليه القصص﴾
من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن
وصل إليه ﴿قال﴾ له مسكناً روعه،
جابر أجلي: ﴿لا تخف نجوت من الظوم
الظالمين﴾ أي: ليذهب خوفك
وروعك، فإن الله نجاك منهم، حيث
وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم
عليه سلطان.

﴿قَالَ إِحْدَاهُمَا﴾ أي : إحدى ابنتيه
﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي : اجعله أجيراً
عندك ، يرعى الغنم ويسقيها ، ﴿إِنْ
خَيْرٌ مِّنْ اسْتَأْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ﴾ أي :
إن موسى أولى من استؤجر فإنه جمع
القوة والأمانة ، وخير أجير استؤجر ،
من جمعهما ، أي : القوة والقدرة على ما
استؤجر عليه ، والأمانة فيه بعدم
الخيانة ، وهذان الوصفان ، ينبغي
اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان
عملاً ، بإجارة أو غيرها .

فإن الخلل لا يكون إلا بفقد هـما أو فقد إحداهما، وأما اجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند



على ما نقول وكيل ﴿حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدا عليه.

وهذا الرجل، أبو المراتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يندك عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين.

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه ١١٩ ولو كان ذلك الرجل شعيباً، لذكره الله تعالى، ولسمته المراتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا البنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ.

﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفاته، اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه. ﴿سار بأهله﴾ قاصداً مصر، ﴿آتس﴾ أي: أبصر ﴿من جانب الطور نارا﴾ قال لأهله امكثوا إني آتست نارا لعلني آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾ وكان قد أصابهم البرد، وتأهوا الطريق.

﴿٣٠﴾ فلما أتاه نودي ﴿يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ فأخبره بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك، أن

يأمره بعبادته وتألوه، كما صرح به في الآية الأخرى ﴿فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾. ﴿وأن ألق عصاك﴾ فآلقها ﴿فلما رآها همز﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها صورة مهيلة ﴿كأنها جان﴾ ذكر الحيات العظيم، ﴿ولي مدبراً ولم يعقب﴾ أي: يرجع لاستيلاء الروح على قلبه، فقال الله له: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف.

﴿فإن قوله﴾ ﴿أقبل﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿ولا تخف﴾ أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمالاً، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إنك من الأمنين﴾ فحيث أن دفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً، وثاقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون ﴿٣١﴾ أجراً له وأقوى وأصلب، ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿اسلك يدك﴾ أي: أدخلها ﴿في جيبك﴾ فخرج بيضاء من غير سوء، فسلكتها وأخرجها، كما ذكره الله تعالى.

﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف. ﴿فذلك﴾ انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿برهانان من ربك﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله، إلى فرعون وملته إنهم كانوا قوماً فاسقين، فلا يكفهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت. ﴿فقال﴾ ﴿موسى عليه السلام،

السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى، ﴿قال﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تاجرني﴾ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثماني حجج﴾ أي: ثمان سنين. ﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك. ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلك أعبالاً شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه. ﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

﴿قال﴾ موسى عليه السلام - عجيباً له فيما طلب منه - ﴿ذلك بيني وبينك﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك. ﴿أيما الأجلين قضيت الثماني عدوان علي﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿والله

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ليكون.

الأمر، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم ببلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها، (ولا دنياها)^(٣) ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بآم موسى، وتمييزه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والههم البالغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه تطمين به نفسها، وتقر به عينها، وترداد به غبطة وسرورها.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَطَبْنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده، و [أعظم] معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضعف فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه - فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي

من هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقاوتهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿وَلَقَدْ وُضُّنَا لَهُمُ الْقَوْلُ﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، رحمة بهم ولطفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها. فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟

فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها أن آيات الله تعالى وغيره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم، فلا يعاب الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هيباً أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإيأس من ارتقائها إلى أعلى

فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونتا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ كَافِرُونَ﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر. ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفروهم بما طلباً للحق، واتباعاً لأمور عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟

قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَبِعْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلها، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبياناً، ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق^(١).

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصول إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء^(٢)، فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل

(١) كذا في ب، وفي أ: لغيره حق.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الشقاء.

(٣) زيادة من هامش: ب.

[يعمل] للإنسان، أن يكون قوياً أميناً. ومنها: أن من مكارم الأخلاق، أن يحسن خلقه لأخيه وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد، لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الفرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيئاته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً، وتأسيساً موافقاً، قصه قصاً، صدق به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووجي أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قوماً جاهلين، وعن النذر والرسول غافلين.

فصلوات الله وسلامه، على من مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبئ العقول النيرة، أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ

ترتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى، لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب^(١) إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يد] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يرجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله. كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها، لأنه تعالى، يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكته، كما قال موسى: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾.

ومنها: أن الحياء - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق المدحوة. ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معرفته الذي لم يتبع له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف. ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضاعاً.

ومنها: أن خطية الرجل لا ينته الرجل الذي يتخير له يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل

أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك، اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبيده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيئاته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عزم لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطي الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهيب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ على وجه التقرر له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك تميمة - بل قد يكون واجباً - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحاً له وعذراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين، إذا كان لا بد من ارتكاب أحدهما، أنه

(١) كذا في ب، وفي أ: ويذهب.

الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار، بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان.

ولم تزل الأمم المعاندة، والملوك الكفرة المتعاضدة، ترميه بقوس واحدة، وتكيد له المكائد، وتمكر لإطفائه وإخفائه، وإخماده من الأرض، وهو قد بهرهما وعلاهما، لا يزداد إلا نمواً، ولا آياته وبراهينه إلا ظهوراً، وكل وقت من الأوقات، يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونور وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿٥٢ - ٥٥﴾ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * يذكر تعالى عظمة القرآن وضدقة وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه ويؤمنون به ويقررون بأنه الحق، فقال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ وهم أهل التوراة، والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ﴿هم به﴾ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يؤمنون﴾.

﴿وإذا يتلى عليهم﴾ استمعوا له وأذعنوا و﴿قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة.

وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم، وينفع قولهم، لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، لأنهم أهل الصنف^(١)، وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة، فضلاً عن الحجة، لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق.

قال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ الآيات.

وقوله: ﴿إنا كنا من قبله مسلمين﴾ فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب، إيمانه بالكتاب الأول.

﴿أولئك﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يؤتون أجرهم مرتين﴾ أجرأ على الإيمان الأول، وأجرأ على الإيمان الثاني، ﴿بما صبروا﴾ على الإيمان، واثبتوا على العمل، فلم تزعزعهم عن ذلك شبهة، ولا نأههم عن الإيمان رياسة ولا شهوة.

﴿و﴾ من خصالهم الفاضلة، التي من آثار إيمانهم الصحيح، أنهم ﴿يدرؤون بالحسنة السيئة﴾ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل، ليعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

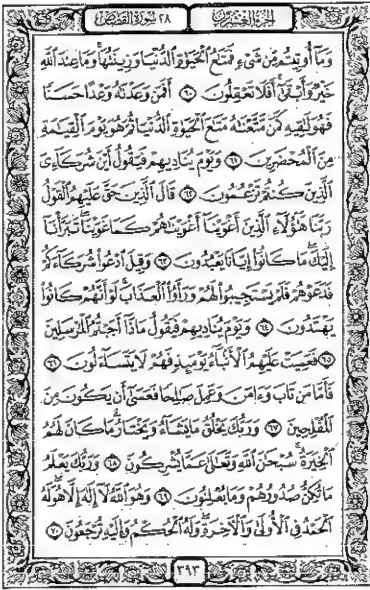
﴿وإذا سمعوا اللغو﴾ من جاهل خاطبهم به، ﴿قالوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي: كل سبجازي بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك، أنهم يتبرؤون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سلام عليكم﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللثيم، فإننا نزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ من كل وجه.

﴿٥٦﴾ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم

(٢) كذا في ب، وفي أ: يززععهم من.

(١) في ب: الخبرة.

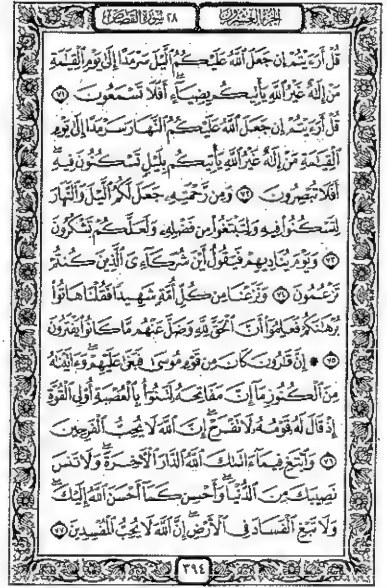


بالمهتدين * يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبدل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقه بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا، لو كان قادراً عليها، لهدى من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح الشام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالى.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ وقالوا إن نشييع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون * وكما أهلكنا من قرية



الأماكن، قد حَفَّ بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فَلْيُخْذُوا رِبْهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير، الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون. وَلْيُتَّبِعُوا هذا الرسول الكريم، ليتم لهم الأمن والرغد، وإياهم وتكذيبه، والبطر بنعمة الله، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفاً، وبعد عزهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً، ولهذا توعدهم بما فعل بالأُمم قبلهم، فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: فخرت بها وألتهت، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم النعمة. ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لِمَ تَسْكُنُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيجاشها من بعدهم.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ للعباد، نعيمهم، ثم ترجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم^(١) إلينا فنجازيهم بأعمالهم. ومن حكيمته ورحمته أن لا يعذب الأُمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي: بكفرهم وظلمهم ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ﴾ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها.

﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة. والحاصل: أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه، وإقامة الحجة عليه.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ * أفضن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقية كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴿هَذَا حُصْ مِنْ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَلَى الرَّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَعَدَمُ الْاِغْتِرَارِ بِهَا، وَعَلَى الرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَى، وَجَعَلَهَا مَقْصُودَ الْعَبْدِ وَمَطْلُوبِهِ، وَبَغْيَهُمْ أَنْ جَمِيعَ مَا أَوْتِيَهُ الْخَلْقُ، مِنَ الذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ، وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْأَمْتَعَةِ، وَالنِّسَاءِ، وَالْبَشِيِّينَ، وَالْمَأْكُلِ، وَالْمَشَارِبِ، وَاللَّذَاتِ، كُلِّهَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ [الدُّنْيَا] وَزِينَتُهَا، أَيْ: يَتَمَتَّعُ بِهِ وَقَتاً قَصِيراً، مَتَاعاً قَاصِراً، حَشَوُا بِالْمُنْغَصَاتِ، مَزُوجاً بِالْغَصَصِ.

ويزين به زماناً يسيراً، للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعاً، ويتنقضي جميعاً، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والحياة والحرمان. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النعيم المقيم، والغيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، مستمر سرمداً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تزنون أي: الأمور^(٢) أولى بالإشارة، وأي: الدارين أحق للعمل لها، فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد، يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما أثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي: هل يستري مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له، بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، فهو لاقية من

بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة، يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِنْ تَبِعَ الْهَدْيَ مَعَكَ تَنَحَّطَفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعتك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة. وهذا الكلام منهم، يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق. قال الله مبيناً لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: ﴿أَوْ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمٌ آمِنًا يُحْبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: أُلِّم نجعلهم متمكنين [ممكنين] في حرم يكثره المتابرون، ويقصده الزائرُونَ، قد أحترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصونه بقليل [ولا كثيراً]. والخال أن كل ما حولهم من

(١) كذا في ب، وفي أ: ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم، وهو خطأ ظاهر من الناسخ.

(٢) في ب: الأمرين.

غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمَرْضَاتِهِ وجَانِبِ سَخَطِهِ، ﴿كَمَنْ مَتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنيّاه عن آخرته، ولم يرفع يدهى الله رأساً، ولم ينقذ للمرسّلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدّم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحقّ الأمرين بالإيثار.

﴿٦٢-٦٦﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيتاننا يعبدون ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فمدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورواوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ هذا إخبار من الله تعالى، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿ويوم يناديهم﴾ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أين شركائي﴾ وليس الله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم واقتراحهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فأين هم، يدواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟ ومن المعلوم أنه^(١) يتبين لهم في تلك الحال، أن الذي عبدوه ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا

منه، فيقرّون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ الرؤساء والقادة، في الكفر والشرك، مقرّين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربنا هؤلاء التابعون الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

﴿تبرأنا إليك﴾ من عبادتهم، أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيتاننا يعبدون﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿وقيل لهم﴾: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ على ما أمّلت فيهم من النفع فأمرؤا بدعائهم في ذلك الوقت الخرج، الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده.

﴿فمدعوهم﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء. ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعدما كانوا مكذّبين به منكرين له.

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ هل صدقتموهم، [واتبعتموهم] أم كذبتموهم وخالفتموهم؟

﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ أي: لم يخبروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينجلي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا

يجيئون به، ولو كان كذباً. ﴿٦٧﴾ ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المقبلين﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعيده، وآمن برسله فصّدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسل، ﴿فعسى أن يكون﴾ من جمع هذه الخصال، ﴿من المقبلين﴾ الناجحين بالمطلوب، الناجين من المهروب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿٦٨-٧٠﴾ ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ هذه الآيات، فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانتفاده باختيار من يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر، [والأزمان] والأماكن، وأن أحداً^(٢) ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركونه به، من الشريك، والظهير، والعوين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، بما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتته الصدور وما أعلنوه، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا، بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وزرأ، والحكم الديني، الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿والإله

(١) في ب: أنهم.

(٢) في هامش أ: كل.

ترجمون ﴿ فيجازي كلاً منكم بعمله، من خير وشر. ﴾

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿ هذا امتنان من الله على عباده، يدعوه به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليتبتغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعاشهم في ضيائه، والليل ليهذؤوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده. ﴾

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل ﴿عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل ﴿عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ مواقع العبر، ومواضع الآيات، فتستنير بصائرهم، وتسلكون الطريق المستقيم.

وقال في الليل: ﴿أفلا تسمعون﴾ وفي النهار: ﴿أفلا تبصرون﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار. وفي هذه الآيات، تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنّة، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً، ولا يزال. وعمي قلبه عن الشناء على الله، بنعمته، وروية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكراً ولا ذكراً.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعملوا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿ أي: ويوم ينادي الله المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة، أراد الله أن يظهر جراتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم ^(١) لأنفسهم ف ﴿يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي: بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يستبغون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

فإذا حضروا وإياهم، نزع ﴿من كل أمة﴾ من الأمم المكذبة ﴿شهيداً﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المنتخبين.

أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ حججتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية ^(٢)، وليروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فعملوا﴾ حيثذا بطلان قولهم وفسادهم، و ﴿أن الحق لله﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حججهم، وأفلجت حجة الله، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والإفك، اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها:

﴿٧٦-٨٢﴾ ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن حالة قارون وما فعل، وفعل به ونصح ووعد، فقال: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتدّ الله عليهم بما امتدّ به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية. ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أي: كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة﴾ [أولي القوة] والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك. أي: حتى إن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟ ﴿إذ قال له قومه﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكبين على محبتها.

﴿وابغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي: لا تأمر أن تنصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بأخرك، ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله﴾ عليك هذه الأموال، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم، ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فـ ﴿قال﴾ قارون - راداً لنصيحتهم، كافراً لنعمة ربه -: ﴿إنما

(١) كذا في ب، وفي أ: وتكذيب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فيهم إلهية.

أوتيته على علم عندي» أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أن أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟ قال تعالى مبيناً أن عطائه ليس دليلاً على حسن حالة المعطي: «أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً» فما المانع من إهلاك قارون، مع مضي عادتنا وستنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟

«ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون» بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك دافعاً عنهم من العذاب شيئاً، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً قد أعجبته نفسه، وغره ما أوتيته من الأموال، «فخرج» ذات يوم «في زينته» أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجهل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فزمقته في تلك الحالة العيون، وملأت برؤته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

«قال الذين يريدون الحياة الدنيا» أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها، «يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون» من الدنيا ومتاعها وزهرتها «إنه لئذو حظ عظيم» وصدقوا إنه لئذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهاً إلى رغباتهم، وأنه ليس

وراء الدنيا، دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التمتع^(١) بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم، بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهاى مطلبها، لأن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية والمطالب الغالية.

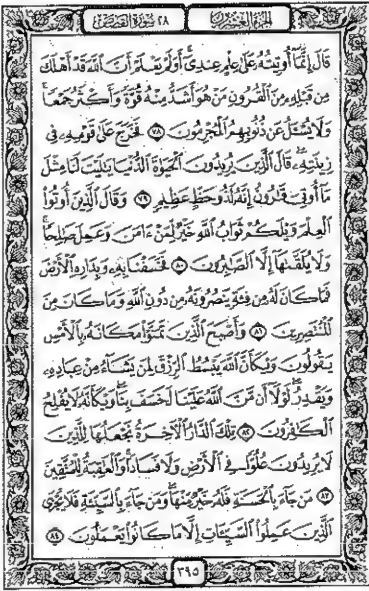
«وقال الذين أوتوا العلم» الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر^(٢) أولئك إلى ظاهرها: «ويلكم» متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثنين لحالهم، منكرين لمقالمهم: «ثواب الله» العاجل، من لذة العبادة ومحبه، والإنابة إليه، والإقبال عليه. والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين «خير» من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذا حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلْقَى ذلك ويوفق له «إلا الصابرون» الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقذاره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وأزيت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب «فخسفنا به وبداره الأرض» جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثائه ومتاعه.

«كما كان له من فئة» أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود «ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين» أي: جاءه العذاب، فما نصّر

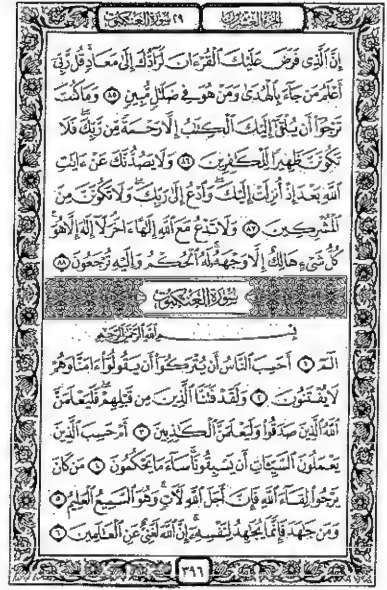
(١) كذا في ب، وفي أ: التمتع.

(٢) كذا في ب، وفي أ: نظروا.



ولا انتصر. «وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس» أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: «يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون» «يقولون» متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: «ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر» أي: يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلاً على خير فيه، وأنها غالطون في قولنا: «إنه لئذو حظ عظيم» و «لولا أن من الله علينا» فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته «لخسف بنا» فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول. «ويكأنه لا يفلح الكافرون» أي:

لا في الدنيا ولا في الآخرة. «٨٣» «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين» لما ذكر تعالى قارون وما أوتيته من الدنيا، وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: «ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً» رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالنسب الموصول إليها فقال: «تلك الدار الآخرة» التي أخبر الله بها



في كتبه وأخبرت [بها] رسله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿فَجْعَلَهَا﴾ داراً وقراراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَاداً﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق، ﴿وَلَا فُسَاداً﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانتقاد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب^(١).

﴿٨٤﴾ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يغير تعالى عن مضاعفة فضله، وتماثل عدله، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترب بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يبيء بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾]^(٢).

هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه، وقد يقترب بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه وعمله ومكانه، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ وَهِيَ كُلُّ مَا نَهَى الشَّارِعُ عَنْهُ نَهَى تَحْرِيمٍ﴾ فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴿كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾﴾.

﴿٨٥-٨٨﴾ ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين * وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا راحة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدّك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم.

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحته لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك والقدح بما جئت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والحق والمبطل. ولهذا قال: ﴿قُلْ ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي: لم تكن متحزياً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً. ﴿إلا راحة من ربك﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه، فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: معيماً لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة. ﴿وَلَا يَصْدُكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وَادْعَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فإرضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعهم وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

(١) في ب: حظ.

(٢) في ب: وحقوق العباد.

(٣) زيادة من هامش: ب.

﴿ولا تدع مع الله الها آخر﴾ بل أخلص لله عبادتك، فإنه ﴿لا إله إلا هو﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد، إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وإذا كان كل شيء هالكاً مضمحلاً، سواه فعبادة الهالك الباطل باطلة بطلان غايتها، وفساد نهايتها. ﴿وله الحكم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿والإله لا إلى غيره ترجعون﴾ فإذا كان ما سوى الله باطلاً هالكاً، والله هو الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلاق كلهم، يجازيهم بأعمالهم، تعيين على من له عقل، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدنيه، ويجذر من سخطه وعقابه، وأن يقدم على ربه غير تائب، ولا مقلع عن خطئه وذنوبه.

تم تفسير سورة القصص
— والله الحمد والثناء
والمجد دائماً أبداً —

تفسير سورة العنكبوت وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ يخبر تعالى عن [تمام] حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال «إنه مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول

والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها^(١) بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهرته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكاً ورباً، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدقه عن الراجبات، دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يشتتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبر، يخرج خبثها وطبها.

﴿٤﴾ ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنائيات، أن أعمالهم ستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟

﴿سوء ما يحكمون﴾ أي: سوء حكمهم، فإنه حكم جائر، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

﴿٥-٦﴾ ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقاءه، وسر نحوه،



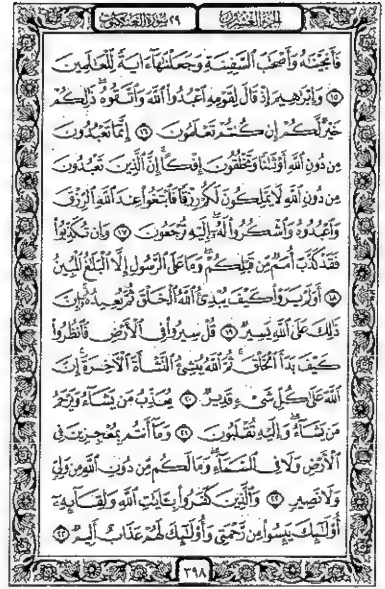
مستصحباً الرجاء، مؤملاً الوصول إليه، ولكن، ما كل من يدعي يعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقاً في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذباً لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح.

﴿ومن جاهد﴾ نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر، ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم.

وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتأقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهض عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه، كما ينبغي، وكل هذا معارضة تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد.

﴿٧﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ يعني أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم، ولنجزيتهم أحسن الذي

(١) كذا في ب وفي أ: ويدفعه.



الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

﴿١٠ - ١١﴾ «ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين» لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: «ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله بضرب، أو أخذ مال، أو تغيير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل، جعل فتنة الناس كعذاب الله» أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صاء عما هو سببه.

«ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم» لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين».

«أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين» حيث خبركم بهذا الفريق، الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته. «وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين» أي: فلذلك قدّر محناً وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرد، لأنهم قد يحتجون على الله، أنهم لو ابتلوا لكتبتوا.

﴿١٢ - ١٣﴾ «وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بخاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون *

وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون» يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاعتراض بهم والوقوع في مكرهم، فقال: «وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا» فاتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ولنحمل خطاياكم». وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلماذا قال: «وما هم بخاملين من خطاياهم من شيء» لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه «أن لا تزر وازرة وزر أخرى».

ولما كان قوله: «وما هم بخاملين من خطاياهم من شيء» قد يثوهم منه أيضاً، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال: «أخبراً عن هذا الوهم»^(١) «وليحملن أثقالهم» أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها «وأثقالاً مع أثقالهم» وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرائمهم، فالذنب الذي فعله التابع [لكل من التابع، والمتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع] لأنه تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجراها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب. «وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون» من الشر وتزيينه، [وقولهم]^(٢) «ولنحمل خطاياكم».

﴿١٤ - ١٥﴾ «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فليتب فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * آية للعالمين» يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبة^(٣) الأمم المكذبة،

كانوا يعملون» وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحات أيضاً، وغيرها.

﴿٨﴾ «وصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم الإنسان، ووصينا بوالديه حسناً، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله.

«وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم» وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك، «فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتبكم بما كنتم تعملون» فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتهم، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿٩﴾ «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين» أي: من آمن بالله وعمل صالحاً، فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله.

(٣) في ب: عقوبات.

وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فلبث فيهم نبياً داعياً ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ وهو لا يني بدعوتهم، ولا يفتر في نصيحهم، يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يرشدوا ولم يهتدوا، بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام، مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ﴿فأخذهم الطوفان﴾ أي: الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة ﴿وهم ظالمون﴾ مستحقون للعذاب.

﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن آمن به. ﴿وجعلناها﴾ أي: السفينة، أو قصة نوح. ﴿آية للعالمين﴾ يعتبرون بها، على أن من كذب الرسل، آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.

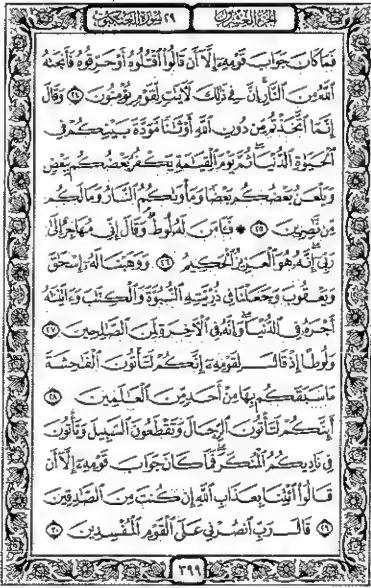
وجعل الله أيضاً السفينة، أي: جنسها آية للعالمين، يعتبرون بها رحمة ربهم، الذي قيض لهم أسبابها، ونسّر لهم أمرها، وجعلها تحملهم وتحمل متاعهم من محل إلى محل ومن قطر إلى قطر.

﴿١٦ - ٢٢﴾ ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير﴾ قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل

شيء قدير﴾ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله، فقال [لهم]: ﴿اعبدوا الله﴾ أي: وحده، وأخلصوا له العبادة، وامثلوا ما أمركم به، ﴿واتقوه﴾ أن يغضب عليكم، فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي، ﴿ذلكم﴾ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خير لكم﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق «أفعل التفضيل» بما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه، لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ذلك، فاعلموا الأمور وانظروا ما هو أولى بالإيثار، فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً﴾ تحتونها وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون الكذب بالأمم بعبادتها والتمسك بذلك، ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، ﴿لا يملكون لكم رزقاً﴾ فكانه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى من هذا مقدار مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تأله وتسأله حوائجها، فقال - حاثاً لهم على من يستحق العبادة - ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ فإنه هو

الميسر له، المقدّر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه^(١)، ﴿واعبدوه﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير، ﴿واشكروا له﴾ وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ﴿إليه ترجعون﴾ يجازيكم على ما عملتم، وينشئكم بما أسرتهم وأعلمتم، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه، ويشيكم - عند القدوم - عليه.

﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده﴾ يوم القيامة ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾. ﴿قل﴾ لهم، إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء: ﴿سيروا في الأرض﴾ بأبداً نكم وقلوبكم ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ فإنكم ستجدون أمماً من آدميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجود النباتات والأشجار، كيف تحدث وقتاً بعد وقت، وتجود السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجدها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة، فانظر



قومه، فقالوا له: ﴿لَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله. ﴿إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿إِنَّا مَنزُلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ أي: عذاباً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فأمروه أن يسئروا بأهله ليلاً، فلما أضحوا، قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم، فصاروا سَمَرًا من الأسفار، وعبرة من العبر، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: تركنا من ديار قوم لوط، آثاراً بيينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم، ﴿فَيَتَفَقَّهُونَ بِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنكُمْ لَمُتْرُونَ عَلَيْهِمْ مَصْبِحِينَ﴾ وبالليل أفلا تعقلون؟.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴿أي:﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَى مَدِينٍ الْقَبِيلَةَ الْمَعْرُوفَةَ الْمَشْهُورَةَ شُعَيْبًا﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ببخس المكائيل والموازين، والسعي بقطع الطرق، فكذبوه فأخذهم عذاب الله ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسَاكِنِهِمْ وَزِينِ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمَنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمَنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمَنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء

ناديكم المنكر فما كان جواب قومهم إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴿قال رب انصرنى على القوم المفسدين﴾ إلى آخر القصة. تقدم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم، وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم.

فقرله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وإن كان عاماً، فلا يناقض كون لوط نبياً رسولاً وهو ليس من ذريته، لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي، والله أعلم.

فأرسل الله لوطاً إلى قومهم، وكانوا مع شركهم، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطيع السبيل، وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قباحها في نفسها، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يراعوا ولم يذكروا. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و ﴿قال رب انصرنى على القوم المفسدين﴾ فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل، وشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إِنْ فِيهَا لَوطٌ﴾ فقالوا له: ﴿لَنُتَجَبِّنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطاً، فساء مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً، بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من

يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم، وهجرته من بين أظهرهم.

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومهم باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن لعل من أسرار ذلك، أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلمهم] وأجلهم، فلم يدع على قومهم كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجري بسببه عذاباً عاماً.

وما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومهم، والله أعلم بالخال.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: بعدما هاجر إلى الشام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وهذا [آمن] أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد، الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبتة، والإنابة إليه.

﴿وَلَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعمالهم منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿٢٨ - ٣٥﴾ ﴿وَلُوطٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في

تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم.

﴿وَرَيْنَ لَهُمِ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران، بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم يتقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله فأذلّوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدرُوا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة] ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ الله، ولا فائتين، بل سلّموا واستسلموا.

﴿فَكَلَّا﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة «أخذنا بذنبه» على قدره، ويعقوبة مناسبة له، ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي: عذاباً يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و «سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففرى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية».

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ كقوم صالح، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ كقارون، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما.

﴿وما كان الله﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق. ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ منعوا حقها التي هي بصده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، ففرضوا غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿٤١-٤٣﴾ ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كما مثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزُّز والتَّقوُّي والنفع، وأن

الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتاً يقبها من الحر والبرد والآفات، ﴿وإن أوهن البيوت﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لبيت العنكبوت﴾. فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم، ووهناً إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا عليهم، وتخلّوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معرفتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرؤوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مؤونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله.

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها، وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق، يتبين للمعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً، ولا إلهاً له حقيقة، كقوله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ وقوله: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي له القزة جميعاً، التي قهر بها جميع المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل

شيء خلقه، وأتقن ما أمره.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بنبيها، فهي مصلحة لعموم الناس.

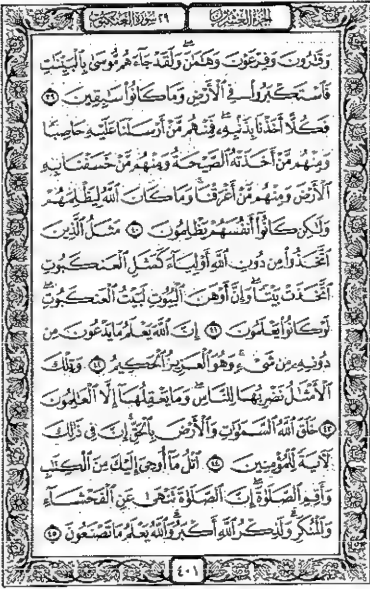
﴿و﴾ لكن «ما يعقلها» يفهمها وتدبرها، وتطبقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب «إلا العالمون» أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبدلون جهدهم في معرفتها.

وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى. ولهذا، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

﴿٤٤﴾ ﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق، أي: لم يخلقها عبثاً ولا سدى، ولا لغبر فائدة، وإنما خلقها، ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وفهرو وتدبيره، ما يدلهم على أنه وحده مغبردهم ومحبوبهم وإلههم. ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ على كثير من



الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر.

﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

﴿٤٦﴾ ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، وزد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحسب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد﴾ أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم [على وجه] يحصل به^(٢) القبح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدر بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً. وأيضاً، فإن بناء

المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

﴿٤٥﴾ ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته اتباعه، بامتنال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخله في تلاوة الكتاب. فيكون قوله: ﴿وأقم الصلاة﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفصل الصلاة وشرورها، وأثارها الجميلة، وهي ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

والفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشبهها النفوس. والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمسك لأركانها وشروطها وخشوعها، يستتير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق^(١) لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾.

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج

مناظرة أهل الكتاب، على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب، وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ، قد بينتها ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني، دون الكتاب الفلاني وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

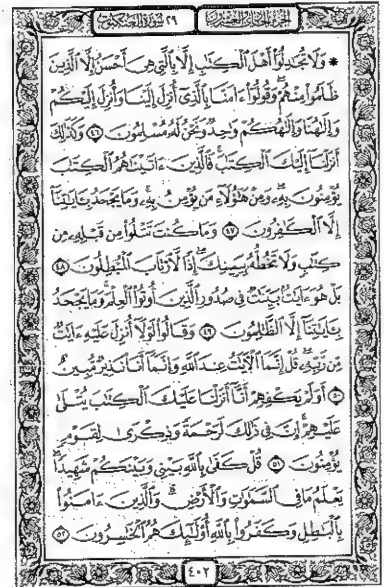
وأيضاً، فإن كل طريق تثبت به^(٣) نبوة أي: نبي كان، فإن مثلها وأعظم منها، دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقدر بها في نبوة محمد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره، فثبت بطلانها في حقه ﷺ أظهر وأظهر.

وقوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي: منقادون مستسلمون لأمره. ومن آمن

(١) في ب: العباد.

(٢) في أ: بها.

(٣) وفي ب: بها.



به، واتخذها لها، وأمن بجميع كتبه ورسله، وانقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

﴿٤٧-٤٨﴾ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون * أي: ﴿وكذلك أنزلنا إليك﴾ يا محمد، هذا ﴿الكتاب﴾ الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون.

﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى. ﴿يؤمنون به﴾ لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبيح، والصدق والكذب.

﴿ومن هؤلاء﴾ الموجودين ﴿من يؤمن به﴾ إيماناً على بصيرة، لا عن رغبته ولا رهبة. ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له. وهذا حصن لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق،

والأ، فكل من له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل من له عقل، أولقى السمع وهو شهيد.

وبما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال، من أظهر البينات القاطعة، التي لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وما كنت تتلو﴾ أي: تقرأ ﴿من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ إذا لم كنت بهذه الحال ﴿لارتاب المبطلون﴾ فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك، كتاباً جليلاً، تحدت به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء، أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثهم أنفسهم بالمعارضة، لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر، لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿٤٩﴾ ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾. أي: ﴿بل﴾ هذا القرآن ﴿آيات بينات﴾ لا خفيات، ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكامل منهم.

فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿٥٠-٥٢﴾ ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون * أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذوبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها، كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات. فتعين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء. ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلماً وجوراً، وتكبراً على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟ ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أولم يكفهم﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد وهو أمني، من أكبر الآيات على صدقه.

على مقصودهم، فأهانهم^(٧) الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون. هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الآخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل.

﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ فإن أعمالكم انقلبتم عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فيأيادي فاعبدون * كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لبئسنتهم من الجنة غرماً نجزي من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون * يقول تعالى: يا عبادي الذين آمنوا * بي وصدقوا رسولي * إن أرضي واسعة فيأيادي فاعبدون * فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها، واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية، والمنازل الأنيفة الجامعة لما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وأتم فيها خالدون.

فلتكفيكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلاً، فإنه يعلم ما في السماوات والأرض. ومن جملة معلوماته جالي وحالكم، ومقالكم^(٥) فلو كنتم متقولاً عليه، مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبيتي، لكان [قدحاً في علمه وقدرته وحكمته] كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين﴾.

﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون * يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

يقول تعالى: ﴿ولولا أجل مسمى * مضروب لنزوله، ولم يأت بعد، لجاءهم العذاب﴾ بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلما أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن - مع ذلك - فلا يستبطئون^(٦) نزوله، فإنه سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لـ «بدر» بطرين مفاخرين، طائنين أنهم قادرون

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم^(١)، آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يشن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين^(٢)، والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهي، فمما أمر بشيء فقال العقل «ليته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «ليته لم ينه عنه»، بل هو مطابق للعقل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول [ثم مسارية إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تضلح الأمور إلا به]^(٣).

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له^(٤)، فلذلك قال: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتركبة القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذباً، أحل بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصري ويسر لي الأمور،

(٧) في النسخين: فأهانهم، ولعلها كما أثبت والله أعلم.

(٤) في ب: فإنه رحمة له وخير.

(٥) كذا في ب، وفي أ: ومقالكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يستعجلون.

(١) في ب: وتحديهم إياه.

(٢) في ب: السابقين.

(٣) زيادة من هامش: ب.

الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه. أليس في جهنم مثوى للكافرين * والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين * يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التهديد في الدنيا والتشويق للآخرة، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾ في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾. تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالية للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفس الباطلة الباطلة، ثم تزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها نفعها إلا على الندم والخسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿الحياة﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المأكّل، والمشرب، والمنكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعلمون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار الله واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذا ألداهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى^(٢) من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال^(٣) عنهم مشقة.

فهلاً أخلصوا لله الدعاء في حال

موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون * هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، والزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأجابه الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿ليقولن الله﴾ وحده، ولا غترقوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك.

فأعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً، وسجل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً، وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، ويسط الرزق على من يشاء، وضيقة على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.

﴿٦٤ - ٦٩﴾ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ فإذا ركبوا في الفلك دعا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون * أولم يروا أننا جعلنا خرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون * ومن أظلم ممن افترى على

ف. ﴿نعم﴾ تلك المنازل، في جنات النعيم ﴿أجر العاملين﴾ الله، ﴿الذين صبروا﴾ على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في ذلك. فصبرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك.

وتوكلهم، يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلياً في الصبر، لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿٦٠﴾ ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم * أي: الباري تبارك وتعالى، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قويم وعاجزهم، فكهم ﴿من دابة﴾ في الأرض، ضعيفة القوى، ضعيفة العقل. ﴿لا تحمل رزقها﴾ ولا تدخره، بل لم تزل، لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق، في كل وقت وبوقته.

﴿الله يرزقها وإياكم﴾ فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم، وهو السميع العليم * فلا يخفى عليه خافية، ولا تمهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ * الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأجابه الأرض من بعد

(١) في ب: حال.

(٢) كذا في ب، وفي أ: نجاهم.

(٣) كذا في ب، وفي أ: زال.

ويحلوا بساحته. وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرقي العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بنيت كثير، منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير^(١).

﴿٨- ١٠﴾ ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس يلقاء بهم لكافرون﴾ * أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم كان عاقبة الذين أسأوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذوبون لرسول الله ولقائه في أنفسهم﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون^(٢) بها، أن الذي أوجدهم من الغد، سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتزكهم سبدي مهملين، لا يهنون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [أي] ليلوكم أيكم أحسن عملاً. ﴿وأجل مسمى﴾ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا، وتجيء به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

﴿وإن كثيراً من الناس يلقاء بهم لكافرون﴾ فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دلت على البعث والجزاء،

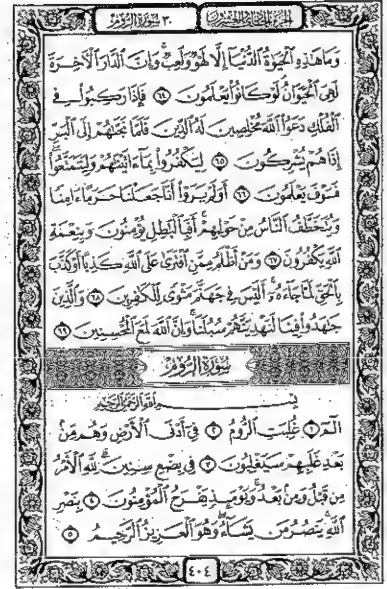
أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإزاداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتحشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية^(١) والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبلذ الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رأهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون^(٢). نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم^(٣) نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، و[ما] خرموا من العقل العالي، فعرفوا^(٤) أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا^(٥) ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم، من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه،



لا يدخل في الحساب.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عيونها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بنوع الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم اعتقدت

(٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف

(٤) في ب: عدلت إلى: لعرفوا.

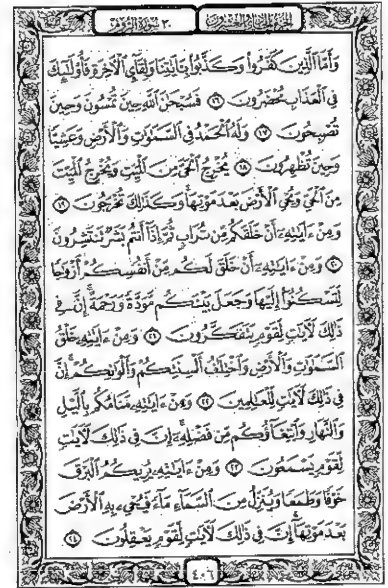
(١) كذا في ب، وفي أ: النارية.

(٥) في ب: عدلت إلى ولخافوا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يتردون.

(٦) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها وقد نقلته من طبعة السلفية.

(٣) هكذا في النسختين، وقد شطبت الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو).



النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحية، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿ويخرج الميت من الحي﴾ يعكس المذكور ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ﴿وكذلك تخرجون﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية، وكمال

عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة إقداره، وجعل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة] ^(١) وبكم في أقطار الأرض أو أرجائها ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبكم في أقطار الأرض ^(٢) هو الرب العبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط، ﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا﴾ تناسبكم وتناسبونهم، وتشاكلهم وتشاكلونهم، ﴿لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يعملون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، وينقلون من شيء إلى شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم واللوانكم﴾ إن في ذلك لآيات للعالمين والعالمون: هم أهل العلم، الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال إقداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة،

وكمال حكمته، لما فيها من الإتيان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿ألا يعلم من خلق﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد، الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده، الذي يستحق أن يعبد ويوحّد، لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها.

﴿و﴾ كذلك في ﴿اختلاف السنتكم واللوانكم﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ونحارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقيين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

﴿وآمن﴾ ^(٣) عنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف، لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يستمعون﴾ أي: سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك. إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى، كما قال: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت، ليستريحوا به ^(٤) ويستجموا ^(٥)، وانتشارهم في وقت، لمصالحهم الدنيوية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك، هو المستحق للعبادة.

﴿٢٤﴾ ﴿ومن آياته يريكم البرق

(١) زيادة بخط المؤلف من هامش أ.

(٢) زيادة من ب.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) زيادة من أ.

(٥) الكلمة غير واضحة في النسختين وكأنها (ويجموا) وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارت يستجموا.

خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿٢٥﴾ أي : ومن آياته ، أن ينزل عليكم المطر ، الذي تحيا به البلاد والعباد ، ويريكهم قبل نزوله مقدماته ، من الرعد والبرق ، الذي يخاف ويطمع فيه .

﴿إن في ذلك لآيات﴾ [دالة] على عموم إحسانه ، وسعة علمه ، وكمال إتقانه ، وعظيم حكمته ، وأنه يحيي الموتى ، كما أحيا الأرض بعد موتها . ﴿لقوم يعقلون﴾ أي : لهم عقول ، تعقل بها ما تسمعه ، وتراه وتحفظه ، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه .

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ * وله من في السماوات والأرض كل له قانتون ﴾ * وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ أي : ومن آياته العظيمة ، أن قامت السماوات والأرض واستقرتا ، وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا ، ولم تسقط السماء على الأرض ، فقدرة العظيمة ، التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا ، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض ، إذا هم يخرجون ﴿خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ .

﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الكل خلقه ومما يليه ، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض ، وكلهم قانتون لجلاله ، خاضعون لكماله .

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو﴾ أي : الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أهون عليه﴾ من ابتداء خلقهم ، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول ، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به ، كانت ^(١) قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى .

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به

يعتبر المعتبرون ، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون ، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير ، فقال : ﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ وهو كل صفة كمال ، والكمال من تلك الصفة ، والمحبة ، والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين ، والذكر الجليل ، والعبادة منهم . فالمثل الأعلى ، هو وصفه الأعلى ، وما ترتب عليه .

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى ، فيقولون : كل صفة كمال في المخلوقات ، فخالقها أحق بالاتصاف بها ، على وجه لا يشاركه فيها أحد ، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه ، فتزبه الخالق عنه من باب أولى وأحرى .

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي : له العزة الكاملة ، والحكمة الواسعة ، فعزته ، أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات ، وحكمته ، أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه .

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿ضرب لكم مثلاً﴾ من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى ، لقبح الشرك وتبعيته ، مثلاً من أنفسكم ، لا يحتاج إلى حل وترحال ، وإعمال الجمال .

﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي : هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم ، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء .

﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي : كالأحرار الشركاء في الحقيقة ، الذين يخاف من قسمه ، واختصاص كل شيء بحاله ؟

ليس الأمر كذلك ، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما

رزقكم الله تعالى

هذا ، ولستم الذين خلقتهموهم ورزقتهموهم ، وهم أيضاً أماليك مثلكم ، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه ، وتجعلونه بمنزلته ، وعديلاً له في العبادة ، وأنتم لا ترضون مساواة ماليكمكم لكم ؟ هذا من أعجب الأشياء ، ومن أدل شيء على [سفه] ^(٢) من اتخذ شريكاً مع الله ، وأن ما اتخذه باطل مضمحل ، ليس مساوياً لله ، ولأله من العبادة شيء .

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ بتوضيحها بأمثلها ﴿لقوم يعقلون﴾ الحقائق ويعرفون ، وأما من لا يعقل ، فلو فصلت له الآيات ، وبينت له البينات ، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين ، ولا لب يعقل به ما توضح ، فأهل العقول والألباب ، هم الذين يساق إليهم الكلام ، ويوجه الخطاب .

وإذا علم من هذا المثال ، أن من اتخذ من دون الله شريكاً يعبده ويتوكل عليه في أموره ، فإنه ليس معه من الحق شيء ، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل ، توضح له بطلانه وظهر برهانه ؟ [لقد] ^(٣) أوجب لهم ذلك اتباع الهوى ، فلماذا قال : ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ هويت أنفسهم الناقصة ، التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها ، أمراً يحزم العقل بفساده ، والفطر برده ، بغير علم دلهم عليه ، ولا برهان قادهم إليه .

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي : لا تعجبوا من عدم هدايتهم ، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم ، ولا طريق لهداية من أضل الله ، لأنه ليس أحد معارضاً لله ، أو منازعاً له في ملكه .

﴿وما لهم من ناصرين﴾ يتصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب ، وتنقطع بهم الوصل والأسباب .

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم

(٣) زيادة من : ب .

(٢) زيادة من : ب .

(١) في النسختين : كان .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون * يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام، والإيمان، والإحسان، بأن تشوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، وترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مقبلا على الله في ذلك، معرضاً عما سواه.

وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ ووضع في عقولهم حسنها، واستقبح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. ﴿ذلك﴾ الذي أمرنا به ﴿الدين القيم﴾ أي: الطريق المستقيم الموصول إلى الله، وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين ختيفاً، فإنه سالك الصراط المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه، ﴿ولكن أكثر

الناس لا يعلمون﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه. ﴿منيبين إليه واتقوه﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضى الله تعالى.

ويلزم من ذلك، حمل (٢) البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: ﴿واتقوه﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات. وخص من المأمورات الصلاة، لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فهذا إعانتها على التقوى.

ثم قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فهذا حثها على الإنابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ لكون الشرك مضاداً للإنابة، التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال: ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومناوذة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كل حزب بما لديهم﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرحون﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وفرقهم فرقا، كل فريق يتعصب لما معهم من حق

وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد.

وأكثر الأمور الدينية، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية، قد عقدتها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يلغى، ويبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كاد بها للمسلمين؟

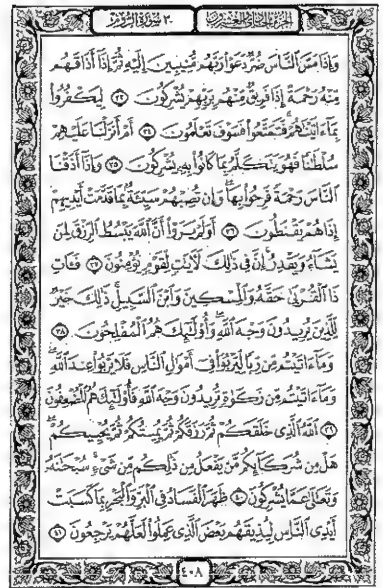
وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق، المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟

ولما أمر تعالى بالإنابة إليه - وكان المأمور بها، هي الإنابة الاختيارية، التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإنابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكربه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿٣٣ - ٣٥﴾ ﴿وإذا مسَّ الناس ضرر دعوهم منيبين إليه ثم إذا أفاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون * أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾

﴿وإذا مسَّ الناس ضرر﴾ مرض، أو خوف من هلاك، ونحوه. ﴿دعوا ربهم منيبين إليه﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

﴿ثم إذا أفاقهم منه رحمة﴾ شفاهم من مرضهم، وأمنهم من خوفهم، ﴿إذا فريق منهم﴾ يقضون تلك الإنابة



أي: استعلن الفساد في البر والبحر، أي: فساد معاشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء، وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة، المفسدة بطبيعتها.

هذه المذكورة «ليذيقهم بعض الذي عملوا» أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا «لعلهم يرجعون» عن أعمالهم، التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم.

فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٢﴾ «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين» والأمر بالسير في الأرض، يدخل فيه السير بالأبدان^(٢)، والسير في القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

﴿٤٣﴾ «كان أكثرهم مشركين» تجردون عاقبتهم شر العواقب، وما كسبوا شر ما كسبوا، عذاب استأصلهم، وذم ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل، فاجدروا أن تفعلوا فعالهم، يحذو بكم حذوهم، فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ «فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون» من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليعجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين» أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واسع بيدك، لإقامة الدين القيم المستقيم، نفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، «من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله» وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون

أن يستأنفوا^(٣) العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا جزاء العمال. «يومئذ يصدعون» أي: يتفرون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين، ليُزَوَّروا أعمالهم.

﴿٤٤﴾ «من كفر» منهم «فعليه كفره» ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، «ومن عمل صالحاً» من الحقوق التي لله، أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة، «فلأنفسهم» لا لغيرهم «يمهدون» أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلتها وغرفاتها، ومع ذلك، جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزئهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم. وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فلماذا قال: «إنه لا يحب الكافرين».

﴿٤٦﴾ «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود، «أن يرسل الرياح أمام المطر» مبشرات «بإثارتها للسحاب» ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

﴿وليذيقكم من رحمته﴾ فينزل عليكم من رحمته مطراً، تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والجالية لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزائن الرحمة.

﴿ولتجري الفلك﴾ في البحر

ودل قوله: «وما اتيم من زكاة» أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمتفق، أو مع ذنب عليه لم يقضه، ويقدم عليه الصدقة، أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد، ويرد تصرفه شرعاً، كما قال تعالى في الذي يمدح: «الذي يؤتي ماله يتزكى» فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو: أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

﴿٤٠﴾ «الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركاكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون» يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم، وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوههم المشركون، من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء.

فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه!

فسبحانه وتعالى، وتقدس وتزه، وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم^(١) عليهم.

﴿٤١﴾ «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون»

(٢) كذا في ب، وفي أ: في الأبدان. (٣) في ب: ليستأنفوا.

(١) في ب: وباله.

﴿بِأَمْرِهِ﴾ الْقَدْرِي ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ﴾ بِالتَّصَرُّفِ فِي مَعَايِشِكُمْ
وَمَصَالِحِكُمْ .

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من سخر لكم
الأسباب، وسير لكم الأمور. فهذا
المقصود من النعم، أن تقابل بشكر الله
تعالى، ليزيدكم الله منها، ويبقيها
عليكم.

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي،
فهذه حال مَنْ بَدَّلَ نعمة الله كُفْراً،
ونعمته محنة، وهو معرض لها للزوال،
والانتقال منه إلى غيره.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رِسَالًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فجاؤوهم بالبينات فانتهقنا من الذين أجمعوا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ في الأمم السابقين ﴿رِسَالًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص، والتصديق بالحق، وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاؤوهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزلوا عن غيرهم. ﴿فانتهقنا من الذين أجمعوا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل: ﴿وَوَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتبعة وعدناهم به، فلا بد من وقوعه.

فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ ، إن بقيتم على تكذيبكم ، حلت بكم العقوبة ، ونصرناه عليكم .

﴿٤٨﴾ - ٥٠ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقطه في السماء كيف يشاء ويبعثه كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبشرين * فانتظر إلى أنار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحبي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ * غير تعالى عن كمال قدرته، وتما نعمته،

أنه ﴿يرسل الرياح فتنشیر سحاباً﴾ من الأرض، ﴿فیبسطه فی السماء﴾ أي: یمده ونوسعه ﴿کیف یشاء﴾ أي: علی أي: حالة أرادها من ذلك، ثم یمجعله ﴿أي: ذلك السحاب الواسع کسفاً﴾ أي: سحاباً ثخیناً، قد طبق بعضه فوق بعض.

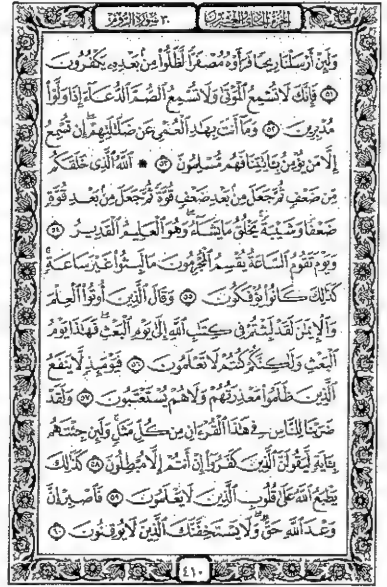
﴿فتزى الودق يخرج من خلاله﴾
أي: السحاب، نقطاً صغاراً متفرقة،
لا تنزل جميعاً، فتفسد ما أتت عليه.

﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بذلك المطر ﴿مَنْ﴾
 يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴿﴾
 يبشر بعضهم بعضاً بنزوله، وذلك
 لشدّة حاجتهم وضرورتهم إليه، فلهذا
 قال: ﴿وَأِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزَلَ﴾
 عليهم من قبله لمبلسين ﴿﴾ أي: آيسين
 قانطين لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما
 نزل في تلك الحال، صار له موقع
 عظيم [عندهم]^(١)، وفرح واستبشار.
 ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي﴾
 الأرض بعد موتها ﴿﴾ فاهتزت وربت
 وأنتت من كل زوج كريم.

﴿إِنْ ذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها للمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿فقدرته تعالى﴾ لا يتعاصى عليها شيء، وإن تعاصى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحارب فيه عقولهم.

[illegible][illegible]

زجر ﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ وبالأولى ﴿إذا ولوا ملءبرين﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع، كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسى.



اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا.

ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: ما زالوا - وهم في الدنيا - يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا، كذبوا الحق الذي جاءهم به المرسلون، وفي الآخرة، أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.

﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان﴾

أي: من الله عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم، العلم بالحق، والإيمان المستلزم إيثار الحق، وإذا كانوا عالين بالحق، مؤثرين له، لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع، مناسباً لأحوالهم.

فلهذا قالوا الحق: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم، وفي حكمه ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَيْعِ﴾ أي: عمرتم غمراً يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعبر، حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ فلذلك أنكروا عهده في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا من عملهم﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم، بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأنهم يزودون ولا يعودون لما غموا عنه،

لم يمكنوا، فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم، ولا هم يستعيبون: أي: يزال عتبهم والعتاب عنهم.

﴿٥٨ - ٦٠﴾ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جَحْتَهُمْ بَابَةٌ لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَبْطُلُونَ﴾ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴿تتضح به الحقائق، وتعرف به الأمور، وتقطع به الحجة. وهذا عام في الأمثال، التي يضرها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة. وفي الإخبار بما سيكون، وجلاء حقيقته، [حتى] كأنه وقع.

ومنه في هذا الموضع، ذكر الله تعالى، ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب.

ولكن أبى الظالمون الكافرون، إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ جَحْتَهُمْ بَابَةٌ﴾ أي: أي: تدل على صحة ما جئت به ﴿لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَبْطُلُونَ﴾ أي: قالوا للحق: إنه باطل. وهذا من كفرهم وجراءتهم، وطبع الله على قلوبهم، وجهلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يدخلها خير، ولا يدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

﴿فاصبر﴾ على ما أمرت به، وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراباً، فلا يصدك ذلك. ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملاً، هان عليه ما يلقاه من

ذاك في غاية الضعف، وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور، ورجع إلى الضعف والشية والهرم.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بحسب حكمته. ومن حكمته، أن يري العبد ضعفه، وأن قوته مخفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له، لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة، لطنى وبغى وعتا.

وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة، يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا من عملهم ولا هم يستعيبون﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بالله أنهم ﴿مَا لَبِثُوا﴾ في الدنيا إلا ﴿سَاعَةً﴾ وذلك

فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿يَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: جلي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١٢-١٩﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴿١﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق] ^(١) على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكماً.

وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزیده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبال ذلك عليه. والله غني [عنه] ^(٢) حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره، فغنائه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جيل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر

أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لَابِنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ لِّظُلْمٍ عَظِيمٍ﴾ ووجه كونه عظيماً، أنه لا أظلم وأبشع من سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئاً يمن له الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لم ينعم بمثل ذرة [من النعم] ^(٣) بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! ^(٤)

وهل أعظم ظلماً من خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أحسن المراتب] ^(٥) جعلها عابدة لمن لا يسرى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِأَبِيهِ إِِلَهِهِ وَجَعَلْنَاهُ وَصِيَّةً عِنْدَهُ، سَتَلُمْنَاهُ عَنِ الْقِيَامِ بِهَا، وَهَلْ حَقَّقَهَا أَمْ لَا؟ فَوَصَّيْنَاهُ ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وَقُلْنَا لَهُ: ﴿اشْكُرْ لِي﴾ بِالْقِيَامِ بِعِبَادَتِي وَأَدَاءِ حَقوقي، وَأَنْ لَا تَسْتَعِينَ بِنَعْمِي عَلَى مَعْصِيَتِي، ﴿وَلَوْلَا دَلِيلُكَ﴾ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا بِالْقَوْلِ الْلين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهنما [أو إكرامهما] ^(٥) وإجلالهما، والقيام بموؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيانه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: سترجع إليها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه

الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيشيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فَصَالَهُ فِي غَمٍّ﴾ وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها، أما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وَأَنْ جَاهِدْكَ﴾ أي: اجتهد والداك ﴿عَلَى أَنْ تَشْرَكَ بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمَهُمَا﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و ﴿لَا طَاعَةَ لِمُخْلَقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ﴾.

ولم يقل: ﴿وَأَنْ جَاهِدْكَ عَلَى أَنْ تَشْرَكَ بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَقَعْمَهُمَا﴾، بل قال: ﴿فَلَا تُطْعِمَهُمَا﴾ أي: بالشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربه، المنيبون إليه.

واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكتهم في الإجابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ الطائع والغاصي والنيب، وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(٥) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّا إِن تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي: جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه، وتام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى أطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قل أو كثُر.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأَنزِلْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنهْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهي.

ولما علم أنه لا بد أن يتبل إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عِزِّ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تَغْلُ وتعيى بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضماً.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ أي: بطراً، فخرًا بالنعم، ناسياً للنعم، معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ مَغْتَالٍ﴾^(١) في نفسه وهيئته وتعاضمه

﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مَشْيَ البطر والتكبر، ولا مشي التماوت.

﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي: أظفعتها وأبشعها ﴿لِلصَّوْتِ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمير، الذي قد علمت حسنة وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبين له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبين له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احتز بأن محل برهما وامتنال أوامرهما ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمزح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، والصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: ﴿فَحَقِّقْ بَيْنَ أَوْصِيَ إِلَيْهِهِنَّ﴾ أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها. ولهذا من مَنَّة الله عليه وعلى سائر عباد، أن قص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمَنِ النَّاسُ مِنْ مُجَادِلٍ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴿يَمُنْ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ نِعَمَهُ، ويدعوهم إلى شكرها ورويتها، وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لرفع العباد.

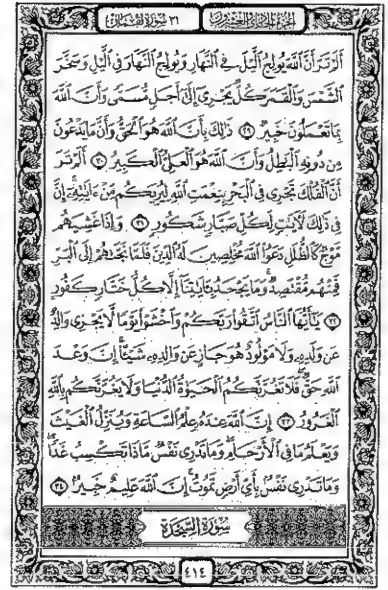
﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عممكم وغمركم نعمة الظاهرة والباطنة التي نعلم بها، والتي تحفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة النعم والخضوع له، وضرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿و﴾ لكن مع توالي هذه النعم، ﴿مَنِ النَّاسُ مَنٌّ﴾ لم يشكرها، بل كفرها وكفر بمن أنعم بها، ووجد الحق الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَابٌ مُنِيرٌ﴾ [غير مبين للحق فلا معقول ولا متقول ولا اقتداء بالمهتدين]^(٢) وإنما جداله في الله مبني

(١) كذا في: ب، وزاد في: أ قوله تعالى: فخور.

(٢) زيادة من: ب.



﴿والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر﴾ مداداً يستمد بها، لتكسرت تلك الأقسام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله تعالى، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل، من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت^(١) بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة. وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاده، بل لدينا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاد له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته «وأن إلى ربك المنتهى».

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله

وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاهما للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال:

﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه جميع السموعات، ويضره لجميع المصبرات، فقال: ﴿إن الله سميع بصير﴾

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير وهذا فيه أيضاً، انفراده بالتصرف والتدبير، وبسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما،

القدرية، وأحكامه الأمرية. وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق. «ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون».

وأن أعمال النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأغناهم في دنياهم وأخرهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه بحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه بحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، بحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتحير فيه الأفتلدة، وتسيح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ يكتب بها

لوطفه وإحسانه، ﴿ليرىكم من آياته﴾ فيها الانتفاع والاعتبار^(١).

﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ فهم المنتفعون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلم فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [الله]^(٢) والعبادة: ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ انقسموا فريقين:

فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وما يبيحذ بآياتنا إلا كل ختار﴾^(٣) أي: غدار، ومن غدره أنه غاهد ربه، لكن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر، ولم يف بذلك، ﴿كفور﴾ يتعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

﴿٣٣﴾ ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجه، ويستلقتهم خشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد لا يهيم إلا نفسه، ف ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

ليقيم بذلك من مصالح العباد ومناقضهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون ويستفنون.

و ﴿كل﴾ منهما ﴿يجري إلى أجل مستقًى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانها، وتعطل سلطانها، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة.

﴿وأن الله بما تعملون﴾ من خير وشر ﴿خبير﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالشواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

و ﴿ذلك﴾ الذي بين لكم من عظمتهم وصفاته، ما بين ﴿بأن الله هو الحق﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته هي الحق.

﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد الله له لما وجد، ولولا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً، كانت عبادته أطل وأبطل.

﴿وأن الله هو العلي﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته، أن يقاس بها صفات أحد من المخلوق، وعلا على المخلوق فقهرهم، ﴿الكبير﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

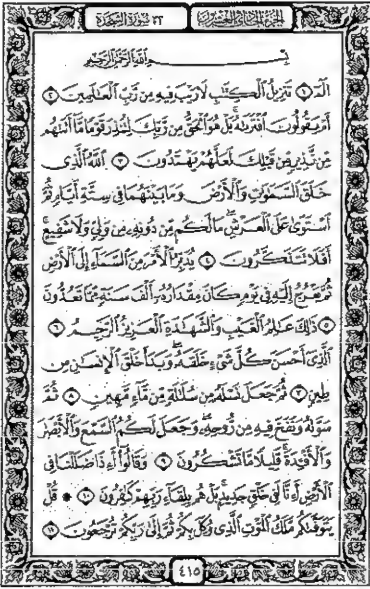
﴿٣١-٣٢﴾ ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليرىكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ وإذا غشيه موج كالظلمل دعوا الله خالصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فممنهم مقتصد وما يبيحذ بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ أي: ألم تر من آثار قبرته ورجته وعنايته بعباده، أن سخر البحر، تجري فيه الفلك بأمره القدري

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: كالظلم.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) كذا في ب، وزاد في أ: قوله تعالى: ﴿كفور﴾.



فلقت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إن وعد الله حق﴾ فلا غمروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بزيبتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن.

﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ الذي هو الشيطان، الذي ما زال يتجذع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن الله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وقوا حقه أم قصروا فيه.

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليه.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتناء، والشيطان

ربك ﴿ أنزله رحمة للعباد ﴾ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴿ أي : هم في حال ضرورة وفاقه لإرسال الرسول وإنزال الكتاب، لعدم النذير، بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون، فأنزلنا الكتاب عليك ﴿ لعلمهم بهتدون ﴾ من ضلالهم، فيعرفون الحق فيؤثرونه.

وهذه الأشياء التي ذكرها الله، كلها مناقضة لتكذيبهم له، وإنما تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو كونه ﴿ من رب العالمين ﴾ وأنه ﴿ الحق ﴾ والحق مقبول على كل حال، وأنه ﴿ لا ريب فيه ﴾ بوجه من الوجوه، فليس فيه ما يوجب الريبة، لا بخبر لا يطابق للواقع ^(٢)، ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان.

﴿ ١ - ٩ ﴾ ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴿ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق ﴿ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم.

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، استواء يليق بجلاله. ﴿ ما لكم من دونه من ولي ﴾ يتولاكم في أموركم فينتفعكم ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لكم إن توجه عليكم العقاب.

بالأرحام ربه : هل هو ذكر أم أنثى ؟ فيقضي الله ما يشاء .

﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ من كسب دينها ودنياها، ﴿ وما تدري نفس بأي : أرض تموت ﴾ بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه .

ولما خصص هذه الأشياء، عظم علمه بجميع الأشياء فقال : ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ محيط بالظواهر والباطن، والخفايا والخبائيا والسرائر، ومن حكمته التامة، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد، لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

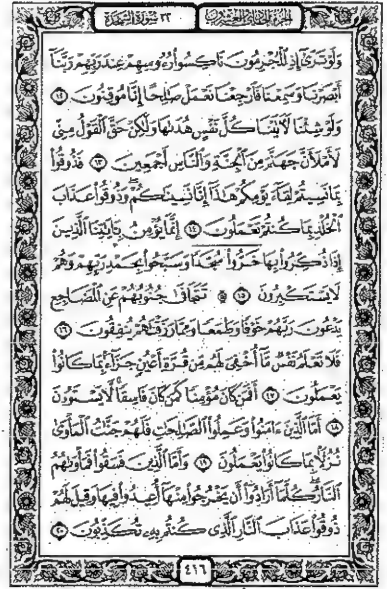
تم تفسير سورة لقمان
بفضل الله وعونه، والحمد لله

تفسير سورة السجدة وهي مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم آمَن ﴾ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴿ أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلمهم بهتدون ﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم، أنه تنزيل نزل من رب العالمين، الذي رباهم بنعمته.

ومن أعظم ما رباهم به، هذا الكتاب، الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم، وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك : افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه، وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ، بأعظم الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق.

وكل واحد من هذه من الأمور العظام، قال الله - راداً على من قال : افتراه : - ﴿ بل هو الحق ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ﴿ من



الموسوس المسؤل، فنهى تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

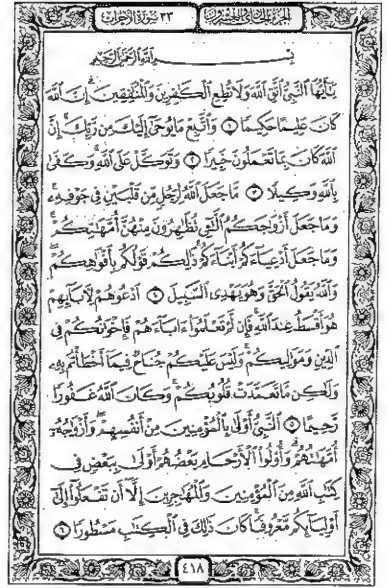
﴿ ٣ - ٤ ﴾ ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي : أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والباطن، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه [الأمور] الخمسة، من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما، فقال : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ أي : يعلم متى مرساها، كما قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربّي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ الآية.

﴿ وينزل الغيث ﴾ أي : هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله.

﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثى، ولهذا يسأل الملك الموكل

(٢) في ب: بخبر غير مطابق للواقع.

(١) زيادة من : ب.



ثبوتاً لا تغير فيه .

﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي .
﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي : يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستذكروا ما فاتهم، قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك، أي : بما عرضتم عنه وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه .

﴿إننا نسيناكم﴾ أي : تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نسينكم، ﴿وذوقوا عذاب الخلد﴾ أي : العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعاذنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها .
﴿بما كنتم تعملون﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي .

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمدهم وهم

لا يستكبرون﴾ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون﴾ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال : ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ [أي :] إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم : ﴿الذين إذا ذكروا﴾ بآيات ربهم فتلث عليهم آيات القرآن، وأتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودعوا إلى التذكر، سمعوا فقبلوها، وانقادوا، و ﴿خروا سجداً﴾ أي : خاضعين لها، خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته .

﴿وسبحوا بحمدهم وهم لا يستكبرون﴾ لا يقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، والتسليم وقابلوها بالانشرح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم .

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي : ترتفع جنوبهم، وتزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو الذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومتاجاة الله تعالى .

ولهذا قال : ﴿يدعون ربهم﴾ أي : في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهم . ﴿خوفاً وطمعاً﴾ أي : جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه .

﴿وما رزقناهم﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿ينفقون﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء

وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم .

وأما جزاؤهم، فقال : ﴿فلا تعلم نفس﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق التثنية . أي : فلا يعلم أحد ﴿ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله : ﴿أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر﴾ .

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال : ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾

﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستترون﴾ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون﴾ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ يبه تعالى العقول على ما تقرر فيها، من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال : ﴿أفمن كان مؤمناً﴾ قد عمر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله، التي ^(٢) يضر وجودها بالإيمان .

﴿كمن كان فاسقاً﴾ قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وأزع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بقسقه عن طاعة الله .

أفيستوي هذان الشخصان؟
﴿لا يستويون﴾ عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة .

﴿أما الذين آمنوا وعملوا

(٢) كذا في ب وفي أ: الذي .

(١) زيادة من : ب .

الصالحات ﴿من فروض وتوافل﴾ فلمهم جنات المأوى ﴿أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

﴿نزلاً﴾ لهم، أي: ضيافة وقرى ﴿بما كانوا يعملون﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بساكنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أي: مقرهم ومحل خلودهم، النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُقْتَرُ عنهم العقاب ساعة.

﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

﴿٢١﴾ ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾

أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ ثم

يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلائلها ظاهرة، فإنه قال: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين متقمنون﴾ أي: لا أحد أظلم وأزبد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد العقاب، ولهذا قال: ﴿إنا من المجرمين متقمنون﴾.

﴿٢٣-٢٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴿لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله موسى الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي

قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما، ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل.

﴿وجعلناه﴾ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هدى لبني إسرائيل﴾ يهدون به في أصول دينهم وفروعه^(١)، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق، في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكماله وعلوه وإثباته في أم الكتاب لدينا لعل حكيم.

﴿وجعلنا منهم﴾ أي: من بني إسرائيل أئمة يهدون بأمرنا ﴿أي: علماء بالشرع وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماعها في المعاصي واسترسالها في الشهوات.

﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعليماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وتم مسائل تختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمداً، والله تعالى يفصل بينهم يوم القيامة فيما

(١) في النسختين: وفروعه، ولعل الصواب - والله أعلم - ما أثبت.

كانوا فيه يختلفون ﴿ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.﴾

﴿٢٦-٢٧﴾ ﴿أولم يبد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾ ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدم إلى الصواب. ﴿كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾ الذين سلكوا مسلكهم، يمشون في مساكنهم ﴿فيشاهدونها عياناً، كقوم هود وصالح، وقوم لوط.﴾

﴿إن في ذلك لآيات﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، ويظان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، فُعل بهم كما فُعل بأشياعه من قبل.

وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد. ﴿أفلا يسمعون﴾ آيات الله فيعونها فينتفون بها، فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة^(١) يجزم بها بالهلاك.

﴿أولم يروا﴾ بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا ﴿أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار. ﴿فنخرج به زرعاً﴾ أي: نباتاً مختلف الأنواع ﴿تأكل منه أنعامهم﴾ وهو نبات البهائم، ﴿وأنفسهم﴾ وهو طعام الآدميين.

﴿أفلا يبصرون﴾ تلك المنة، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهدون بذلك البصر وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك

بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير.

﴿٢٨-٣٠﴾ ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين﴾ ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾ ﴿فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون﴾ أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب، جهلاً منهم ومعاندة.

﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعدينا على زعمكم ﴿إن كنتم﴾ أيها الرسل ﴿صادقين﴾ في دعواكم.

﴿قل يوم الفتح﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل، حصل إهمالكم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقيناً، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة محل ف ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم﴾ لأنه صار إيمان ضرورة، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿فأعرض عنهم﴾ لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿وانتظر﴾ الأمر الذي يحل بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر. ﴿إنهم منتظرون﴾ بك رب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله
ومنه فله تعالى كمال الحمد
والثناء والمجد

تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ﴿واتبع ما يوحى إليك من

ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالته، وأد إلى عبادته وحيه، وابدل النصيحة للخلق.

ولا يصدك عن هذا المقصود صاد، ولا يزدك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعمهم في بعض الأمور، التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، بضلوك عن الصواب.

﴿ولكن﴾ ﴿اتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وأزج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خبير، يجازيك بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماداً من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك تعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرجح بعبده من نفسه، ومن والديه، وأرأف به من كل أحد،

(١) كذا في ب، وفي أ: على حالة لم يجزم، والصواب - والله أعلم - حذف لم.



﴿ولكن﴾ يؤاخذكم بما ﴿تعمدت قلوبكم﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم وديناكم، فله الحمد تعالى.

﴿٦﴾ ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تعملوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴿يخبر تعالى المؤمنين خبراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة والسلام، بذل لهم من النصيحة والشفقة والرأفة، ما كان به أرحم الخلق وأرفهم، فرسول الله أعظم الخلق مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسيه.

فلذلك، وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس،

مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد، كائناً من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبة على حبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه. وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يريهم كما يري الولد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان قبل يدعى: ﴿زيد بن محمد﴾ حتى أنزل الله ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ فقطع نسيبه وانتسابه منه، فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول، فلا مزية لأحد عن أحد وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يحزن ولا يأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا يحملن لأحد من بعده، كما الله صرح^(١) بذلك: ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾.

﴿وأولوا الأرحام﴾ أي: الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ [أي: في حكمه، فيرتب بعضهم بعضاً، ويبر بعضهم بعضاً، فهم أولى من الخلف والنصرة.

والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب، دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك وجعله للأقارب، لطفاً منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة، لحصل من الفساد والشر والتحليل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير.

﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك، وهذه الآية حجة

على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات، كولايات النكاح والمال، وغير ذلك.

﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتهم، إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعاً تعطوهم معروفاً منكم، ﴿كان﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أي: قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من نفوذه.

﴿٧-٨﴾ ﴿وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴿يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون - خصوصاً، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم، محمد ﷺ، وأمر الناس بالالتداء بهم.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل وفوا فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا، فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

﴿٩-١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحشهم على شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا

(٢) زيادة من: ب.

(١) في: ب: كما سيصرح بذلك.

﴿هَلُمُّنَا إِلَيْنَا﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾

وهم مع تعويقتهم وتخذيْلهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم أشد الناس حرصاً على التخلّف، لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للجبن، من الشقاق وعدم الإيمان.

﴿أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ﴾ بأبدانهم عن القتال، وأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ رأيتهم ينظرون إليك ﴿نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ﴾ من الموت من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة، ﴿سَلْقُوكُمْ بِالسِّنَةِ﴾ أي: خاطبوكم وتكلّموا معكم بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة.

وحين تسمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام، ﴿أَشْحَةٌ عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بما له أن يتفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم، ﴿وَكُنَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سِيرًا﴾.

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووقفهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿يُحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي:

يظنون أن هؤلاء الأحزاب، الذين تحزّبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابهم.

﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ مرة أخرى ﴿يُودُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، وذو هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنباءكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبأ لهم، وبعداً فليسوا عن بيالي^(١) بحضورهم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، البطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟! فتأسوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دلّ الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ، فإن المتأسي به، سالك الطريق المؤصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم. وأما الأسوة بغيره إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار^(٢) حين دعتهم الرسل للتأسي [بهم]^(٣): ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، مَنْ كان برّجواً لله واليوم الآخر، فإن ما معه^(٤) من الإيمان،

وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ. لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزّبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فإننا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ في قلوبهم ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله لا يولون الأديار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: وفوا به، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّأوا أنفسهم في طاعته.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم يقصه شيئاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارب في قضاء ما عليه، وفاء نحيه ولما يكمله، وهو في رجاء تكمله، سارع في ذلك مجد.

﴿وَمَا يَنْبَذُوا تَسْدِيلًا﴾ كما بذل غيرهم، بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون، فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن^(٥) عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم وأفعالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ

(٥) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: فإن ذلك ما معه.

(١) في ب: يغالي.

(٢) في ب: المشركين.

صدقه لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً الآية .

أي : قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل ، ليتبين الصادق من الكاذب ، فيجزي الصادقين بصدقه قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن ، ولم يوافق بما عاهدوا الله عليه .

﴿إن شاء﴾ تعذيبهم ، بأن لم يشأ هدايتهم ، بل علم أنهم لا خير فيهم فلم يوفقهم .

﴿أو يتوب عليهم﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة ، وهذا هو الغالب على كرم الكريم ، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان فقال : ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ غفوراً للذنوب السرفين على أنفسهم ، ولو أكثروا من العصيان إذا أتوا بالتائب . ﴿رحيماً﴾ بهم ، حيث وفقهم للتوبة ، ثم قبلها منهم وستر عليهم ما اجترحوه .

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ أي : ردهم خائبين ، لم يحصل لهم الأيمن الذي كانوا خائفين عليه ، مغتاطين قادرين [عليه] ^(١) جازمين ، بأن لهم الدائرة ، قد غرهم جمعهم ، وأعجبوا بتعذيبهم ، وفرحوا بغيظهم وغديهم .

فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمة ، وهي ^(٢) ريح الصبا ، فزعزعت مراكزهم ، وقوضت خيامهم ، وكفأت قذورهم وأزعجتهم ، وضرهم الله بالرعب ، فأنصرفوا بغيظهم ، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين .

﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بما صنع لهم من الأسباب العبادية والقدرية ، ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾ لا يغالبه أحد إلا غلب ، ولا يستنصره أحد إلا غلب ، ولا يعجزه أمر أراد ، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم ، إن لم يعنهم يقوته وعزته .

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي : عاونوهم ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أي : اليهود ﴿ من ضياعهم ﴾ أي : أنزلهم من حصونهم ، نزولاً مظفوراً بهم ، مجعولين تحت حكم الإسلام .

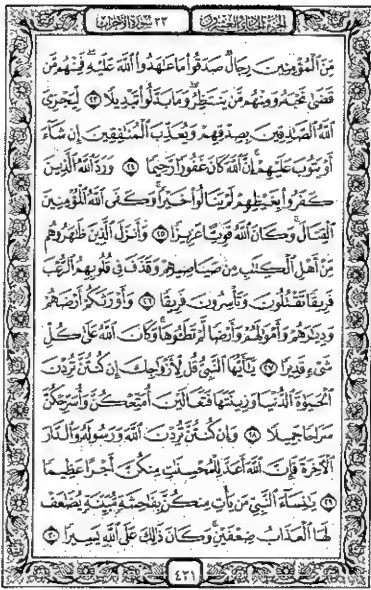
﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ فلم يقووا على القتال ، بل استسلموا وخضعوا وذلوا . ﴿ فريقاً تقتلون ﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿ وفاسرون فريقاً ﴾ من عداهم من النساء والصبيان .

﴿ وأورثكم ﴾ أي : غنمكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطووها ﴾ أي : أرضاً كانت من قبل ، من شرفها وعزتها عند أهلها ، لا تتمكنون من وطئها ، فمكنكم الله وخذلهم ، وغنمتم أموالهم ، وقتلتموهم وأسرتموهم . ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ لا يعجزه شيء ، ومن قدرته قدر لكم ما قدر .

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب ، هم بنو قريظة من اليهود ، في قرية خارج المدينة غير بعيد ، وكان النبي ﷺ [حين] ^(٣) هاجر إلى المدينة وادعاهم وهادهم ، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه ، وهم باقون على دينهم ، لم يغير عليهم شيئاً .

فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكرتهم ، وقلة المسلمين ، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين ، وساعد على ذلك [تدجيل] ^(٤) بعض رؤسائهم عليهم ، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، ومالبؤوا المشركين على قتاله .

فلما خذل الله المشركين ، تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم ، فحاصروهم في حصنهم ، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فحكم فيهم ، أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى



ذرايعهم ، وغنم أموالهم ، فاتم الله لرسوله والمؤمنين المنة ، وأسغ عليهم النعمة ، وأقر أعينهم بخذلان من انخزل من أعدائهم ، وقتل من قتلوا ، وأسر من أسروا ، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمراً .

﴿ ٢٨ - ٢٩ ﴾ ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً ﴾ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً ﴿ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة ، وطلبن منه النفقة والكسوة ، طلبن منه أمراً لا يقدر عليه في كل وقت ، ولم يزلن في طلبهن متفتقات ، في مرادهن متعتات ، فشئ ذلك على الرسول ، حتى وصلت به الحال إلى أنه ألى منهن شهراً .

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله ، وأن يرفع درجة زوجاته ، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجزن ، فأمر رسوله أن يخبرهن ^(٥) فقال : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا ﴾ أي : ليس لكن في غيرها مطلب ، وصرتن ترضين لوجودها ،

(٥) في أ : يخبرهن .

(٣) زيادة من : ب .

(٤) زيادة من : ب .

(١) زيادة من : ب .

(٢) في أ : وهو . ولعل الصواب ما أثبت .



وتغضبن لفقدها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنش هذه الحال.

﴿فتعالين أمتعكن﴾ شيئاً مما عندي من الدنيا ﴿وأسرحن﴾ أي: أفرقن ﴿سراحاً جميلاً﴾ من دون مغاضبة ولا مشاقة، بل بسعة صدر، وإشراح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي.

﴿وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾ أي: هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لكم الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها، ويسرها وعسرها، وقتعن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه، ﴿فإن الله أعدل للمحسنات منكم أجراً عظيماً﴾ رتب الأجر على وصفهن بالإحسان، لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول، فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

(١) في أ: نساء.

منها: الاعتناء برسوله وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعه حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾.

ومنها: تنزيهه عن لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله.

فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجتهن، وبيان علو همهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار، للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه^(١) كاملات مكملات، طيبات مطيبات الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات.

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب، ويشرح لها الصدر، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا، سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكن بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال:

﴿يا نساء النبي من

يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً﴾ ومن يقنت منكم ﷺ وتعمل صالحاً نؤمها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً

لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن، ومضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى منهن، ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿ومن يقنت منكم﴾ أي: تطيع ﷺ ورسوله وتعمل صالحاً ﴿فليلاً أو كثيراً﴾ ﴿نؤمها أجرها مرتين﴾ أي: مثل ما تعطي غيرها مرتين، ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ وهي الجنة، فقتن الله ورسوله، وعملن صالحاً، فعلم بذلك أجرهن.

﴿٣٢-٣٤﴾ ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً﴾ ﴿وفرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأمنن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ ﴿أذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ يقول تعالى: ﴿يا نساء النبي﴾ خطاب لهن كلهن ﴿لستن كأحد من النساء إن اتقيتن﴾ الله، فإنكن بذلك تفقن النساء، ولا يلحقن أحد من النساء، فكملمن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها.

فلهذا أرشدن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فتلن في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿الذي في قلبه مرض﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرک يحركه، لأن قلبه غير صحيح، فإن القلب

أي: فاحمدوا ربكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتتزكى نفوسكم، ولتتطهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبين لهن طريقه، فقال: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله، القرآن: والحكمة، أسرار: أو سنة رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه، بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكير فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يدرك أسرار^(٥) الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسر.

فلطفه وخبرته، يقتضي جهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً^(٦) آله إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يش^(٢) لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليُعرف أن ذلك مرض.

فليُجْتَهد في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرديئة، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لكن، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي: لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه.

ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها [الحاجة]^(٣) النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبد.

ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِيعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر أمراً به أمر إيجاب أو استحباب.

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أمركن به، ونهيكن بما^(٤) نهاكن عنه، ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي: الأذى والشر والخبث، يا أهل البيت ويظهركم تطهيراً حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

الصحيح^(١)، ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدعوه إلى الحرام، يجنب دعوته، ولا يتعاضى عليه، فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بليّن خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: ﴿فَلَا تَلِينَ بِالْقَوْلِ﴾ وذلك لأن المنهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً ليناً ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَمَا رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ لَنتْ لَهُمْ﴾ وقال موسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى.

ودل قوله: ﴿فِي طَمَعٍ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثناؤه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد

(١) زيادة من: ب، لا يستقيم الكلام بدونها.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: يشتهي، والأقرب ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: عفا.

(٥) في ب: سرائر.

(٦) زيادة من: ب.

عظيماً لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن [لو قدر عدم الامتثال^(١)] وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن .

ولما كان حكمهن والرجال واحداً، جعل الحكم مشتركاً، فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ أي: الطاعينين لله ورسوله ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ في مقالهم وفعالهم ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾ والصابرين على الشدائد والمصائب ﴿وَالصَّابِرَاتِ وَالْحَاشِعِينَ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصاً في عبادتهم، خصوصاً في صلواتهم ﴿وَالْحَاشِعَاتِ﴾ والمصدقين ﴿فَرْضاً وَنَفْلاً﴾ والتصدقات والصائمين والصائمات ﴿شَمِلَ ذَلِكَ الْفَرْضُ وَالنَّفْلُ﴾. ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزنا ومقدماته ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ ﴿وَالَّذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ أي: [٣٦] في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأوراد المفيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، وتنع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بالمغفرة

لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات. ﴿وَأَجْرًا عَظِيماً﴾ لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم .

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق بمن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتنال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحثماً به والزماء به ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا﴾ أي: بيناً، لأنه ترك الضوابط المستقيمة الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الآليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضللال، الدال على العقوبة والنكال.

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ لِلْكِ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم نكاحهن .

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً أجعل له سبباً، وكان زيد بن خثالة يدعى «زيد بن محمد» قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَنَّهُمْ﴾ فقيل له: «زيد بن خثالة».

وكانت تحت زينب بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وقد كان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن خثالة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعق^(٣)، حين جاءك مشاوراً في فراقها: فَقُلْتَ لَهُ نَاصِحاً وَغَيْرَ مُبْصِلِحَةٍ^(٤)، مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى تحت على الصبر وتأمر به.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد لتزوجها ﷺ.

﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾^(٥) وأن لا تباليهم شيئاً، فلما قضى زيد منها وطراً، أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها. ﴿زَوَّجْنَاكَ﴾ وإنما

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) في هامش ب: والإرشاد والتعليم.

(٤) في هامش ب: مقدماً لها على رغبتك.

(٥) في هامش ب: فإن خشيتك جالبة لكل خير، [مانعة] من كل شر (مع أن كلمة مانعة غير واضحة في الأصل).



ظاهرة، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل في هذا النوع بعموم النهي المذكور، فقال: «ولكن رسول الله وخاتم النبيين» أي: هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له، الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من به [ونصحه]،^(١) كأنه أب لهم.

«وكان الله بكل شيء عليمًا» أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

﴿٤١-٤٤﴾ «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً» وسبحوه بكرة وأصيلاً * هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً * تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً * يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً، من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك، أن يلازم الصلوات الخمس، وعند العواض والأنساب.

وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح.

«وسبحوه بكرة وأصيلاً» أي: أول النهار وآخره، لفضلها وشرورها، وسهولة العمل فيها.

«هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً» أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حلة عرشه أفضل الملائكة، ومن حوله يسبحون بحمدهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم» ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تقي السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم.

فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا. وأما رحمته بهم في الآخرة: فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف كنهه، إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: «تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً».

﴿٤٥-٤٨﴾ «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً *

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً * ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً» هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته وزيدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه «شاهداً» أي: شاهداً على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني، والثالث: كونه «مبشراً ونذيراً» وهذا يستلزم ذكر المبشر والمندر، وما يبشر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشر هم: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشري في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي ودنيي، رتب على الإيمان والتقوى، وفي الآخرة بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور، من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والمندر، هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم، وفي الآخرة، بالعقاب الويل، والعذاب الطويل.

وهذه الجملة تفصيلها، ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة، المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه «داعياً إلى الله» أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم^(٢) لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم

الطلاق بعد النكاح، فدل على أنه قبل ذلك لا عمل له.

وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهار أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أوضح قولي العلماء.

وبدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، على وجه لم يلمهم عليه ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جواز قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول.

وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء، كما هو مجمع عليه؟ أو وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول تنصّف المهر، وكفى عن المتعة، وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جميلاً، يحمد فيه كل منهما الآخر.

ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج، لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ﴾ دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة [وعلى أن المفارقة

يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام الترهيب، العقوبات المرتبة على ما يرهّب منه، ليكون عوناً على الكف عما حرم الله.

ولما كان ثم طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصدد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان،

وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً، نهي الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْعَمُوا كُفَّارِينَ وَمُنَافِقِينَ﴾ أي: في كل

أمر يصعد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، [بل لا تطعمهم] ﴿وَدَعُوا إِلَى قَبُولِ الْإِسْلَامِ﴾ وإلى كفو كثير من أذيتهم له ولأهله،

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك، ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

توكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿٤٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَمُوهُنَّ وَسِرَّوَهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا

نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدنها^(٣) أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعيهن^(٤) بهذه الحالة،

بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخاطرهن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جميلاً، من غير غصامة ولا مشاقمة ولا مطالبة، ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح. فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علّق طلاقها على نكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فجعل

بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه «سراجاً منيراً» وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدي به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها^(١)، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به معرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ذكر في هذه الجملة المبشر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكرب، وكثرة الأرزاق، والداوة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به

(١) كذا في ب، وفي أ: جهاتها.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في السختين ولعل الصواب تعتدنها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بتمتعهن.

يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرتة ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضت حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿٥١﴾ ﴿ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿ترجي من تشاء منهم﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها]، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي: تضمها وتبيت عندها.

﴿وما مع ذلك لا يتعين هذا الأمر﴾ من ابتغيت: أي: تؤويها ﴿فلا جناح عليك﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين إن هذا خاص بالوهابات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له وإن شاء لم يقبلها والله أعلم] (٦).

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذلك﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعاً إليك وبإيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجباً، ولم تفرط في حق لازم.

النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿وأحللنا لك﴾ امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴿بمجرد هبتها نفسها﴾.

﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ يعني: إباحة المؤهبة (٧). وأما المؤمنون، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فرائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وأباحت لك يا أيها النبي ما لم ينح لهم، ووسعنا لك ما لم توسع على غيرك، ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لم

بالوفاة تعتد مطلقاً لقوله: ﴿ثم طلقتموهن﴾ الآية (٨).

وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يقول تعالى، ممتناً على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك هو والمؤمنون، وما ينفرد به ويختص: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي: أعطيتهن مهرهن، من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين [فإن المؤمنين] (٩)، كذلك يباح لهم ما (١٠) آتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿وكذلك أحللنا لك﴾ وما ملكت يمينك: أي: الإماء التي ملكت ﴿مما أفاء الله عليك﴾ من غنمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحلات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة

(١) زيادة من: ب.

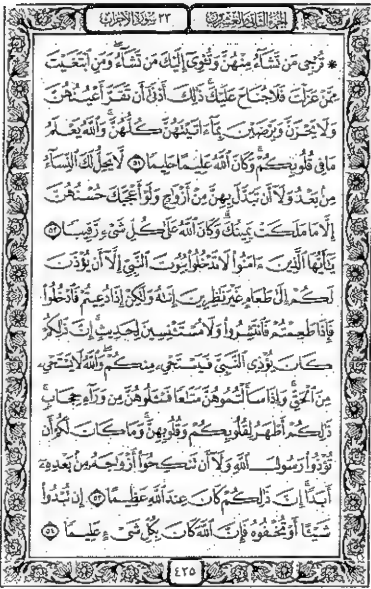
(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: المؤهبة.

(٥) زيادة من: ب.

(٦) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.



وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته، فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك، أم لا يحتاج إليه، فإن لم يحتاج إليه فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يُسألن متاعاً، أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يُسألن «من وراء حجاب» أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه.

فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله، ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: «ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن» لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأظهر لقلبه.

فلهذا، من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: «وما كان لكم» يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء «أن تؤذوا رسول الله» أي: أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به، «ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً» هذا من جملة ما يؤذيه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته

النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً * إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً» يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام» أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام. وأيضاً لا تكونوا «ناظرين إناه» أي: متظرين ومتأنين لانتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين:

الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: «ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث» أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: «إن ذلكم» أي: انتظاركم الزائد على الحاجة، «كان يؤذي النبي» أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شؤون بيته، واشتغاله فيه «فيستحيي منكم» أن يقول لكم: «اخرجوا» كما هو جاري العادة، أن الناس - وخصوصاً أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم، «ولو» ليكن «الله لا يستحيي من الحق».

فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياءً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء. والله تعالى لا يستحيي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كأنما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته،

«والله يعلم ما في قلوبكم» أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاحمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك. «وكان الله عليماً حليماً» أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه، أن شرع لكم ما هو أصلاح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصبرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿٥٢﴾ «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً» وهذا شكر من الله، الذي لم يزل شكوراً لزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث احترن الله ورسوله والدار الآخرة، أن رحمن، وقصر رسوله عليهن، فقال: «لا يحل لك النساء من بعد» زوجاتك الموجودات «ولا أن تبدل بهن من أزواج» أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بديلاً.

فحصل بهذا أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة.

«ولو أعجبك حسنهن» أي: حسن غيرهن، فلا يحلن لك «إلا ما ملكت يمينك» أي: السراري، فذلك جائز لك، لأن المملوكات في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. «وكان الله على كل شيء رقيباً» أي: مراقباً للأموال، وعالماً بما إليه توول، وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي

المسلمين.

ولم يذكر المعمول الذي يتتهون عنه، ليعلم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم وتوسوس به وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسبب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لنغريئك بهم﴾ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تنفيهم.

وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسن للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿ملمعونين﴾ أي: متبعدين أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ أي: متبعدين أين وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر^(٤) لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يجسوا، أو يعاقبوا.

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أن من عماد في العصيان، وتجراً على الأذى، ولم يتنه منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة. ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي: تغييراً، بل سنة الله تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها^(٥).

﴿٦٣- ٦٨﴾ ﴿يسألك الناس من الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ إن الله لمن الكافرين وأعد لهم سعيراً ﴿خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا

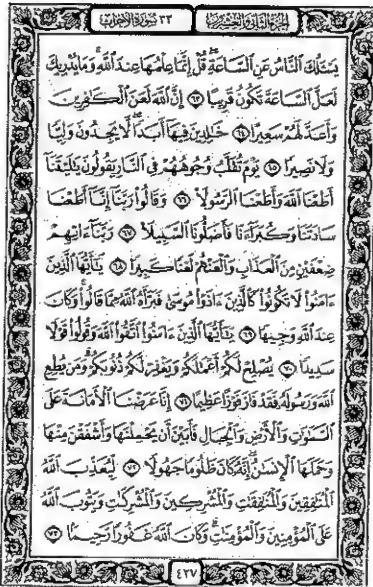
لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾ لكن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴿ملمعونين﴾ أي: متبعدين أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ هذه الآية التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزواجهات وبناته، لأنهن أكد من غيرهن، ولأن الأمر [الغيره]^(١) ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾.

أن يدنين عليهن من جلابيبهن ومن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه، أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن.

ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ دل على وجود أدية إن لم يحتججن، وذلك لأنهن إذا لم يحتججن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذين، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر. فالاحتجاب حاسم لطامع الطامعين فيهن.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحكم، بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتهن.

وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله: ﴿لكن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي: مرض شك أو شهوة ﴿والمرجفون في المدينة﴾ أي: المتخوفون المرهبون الأعداء، المحدثون^(٢) بكثرتهم وقوتهم، وضعف



وكبراءنا فأضلونا السبيلاً﴾ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ أي: يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها، وبعضهم تكذيباً لوقوعها، وتعجزاً للذي أخبر بها. ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنما علمها عند الله﴾ أي: لا يعلمها إلا الله، فليس لي ولا لغيري بها علم، ومع هذا، فلا تستبطؤوها.

﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ ومجرد مجيء الساعة، قريباً وبعداً، ليس تحت نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة والخسار والربح، والشقاء^(٣) والسعادة، هل يستحق العبد العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقها.

فوصف مستحق العذاب، ووصف العذاب، لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة، فقال: ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ [أي: ^(٤) الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسله، وبما جاؤوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقاباً، وأعد لهم سعيراً﴾ أي: ناراً موقدة، تسعر

(٦) كذا في ب، وفي أ: قد.

(٧) في ب: والشقاوة.

(٨) زيادة من: ب.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا يقر.

(٥) كذا في النسختين ولعله والله أعلم بالمقتضية لمسيبتها.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: المتحدثون.

(٣) في ب: حيث.

القول الموافق للصواب، أو المقارب له عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقول القول السديد فقال: ﴿يصلح لكم أعمالكم﴾ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً] بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلاص بالتقوى والقول السديد، سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها.

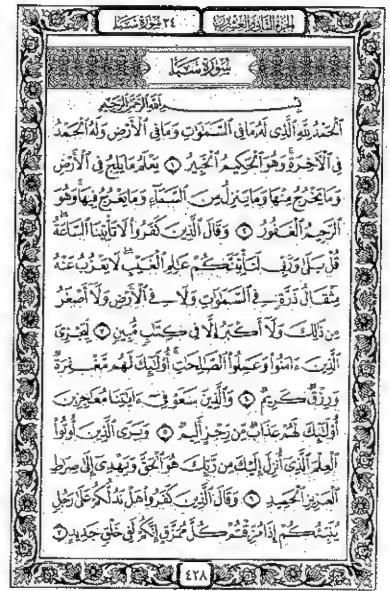
﴿ويغفر لكم﴾ أيضاً ﴿ذنوبكم﴾ التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل عذور ولهذا قال: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

﴿٧٢-٧٣﴾ ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً يعظم تعالى شأن الأمانة التي اتّمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه

مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشتفوا عن أصلهم، فقالوا: ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ فيقول الله لكل ضعف، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿٦٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن آذية رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي: أظهر الله لهم براءته. والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عبادة المخلصين، فلم يترجرهم ما له من الفضائل عن آذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى^(١) لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: ﴿إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه أدر﴾ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاعتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمز به على مجالس بني إسرائيل، قرأوه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

﴿٧٠-٧١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقلوا قولا سديداً﴾ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو



في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أشدته، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يفتّر عنهم ساعة.

ولا يجدون لهم ولياً فيعطيهم ما طلبوه ﴿ولا نصيراً﴾ يدفع عنهم العذاب، بل قد تغل عنهم الولي والتصير، وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾ فيذوقون حرها، ويشد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ فسلمنا من هذا العذاب، واستحققتنا كالطامعين جزيل الثواب. ولكن أمانة فات وقتها، فلم تدهم إلا حسرة وندماً، وهماً، وغماً، وألماً.

﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾ وقلدناهم على ضلالهم، ﴿فأضلونا السبيلاً﴾.

كقوله تعالى: ﴿يوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ليتني ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراءهم

يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه.

وحمد نفسه هنا، على أن ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحمده. ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه، ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم ورأى الناس والخلق كلهم، ما حكم به، وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والشواب، فذلك شيء قد تواردت به الأخبار، وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي، فإنهم في الجنة، يرون من توالي نعم الله، وإدراك خيره، وكثرة بركاته، وسعة عطايه، التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة، إلا وقد أعطي، فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم يتعلق به أمانيتهم، ولم يخطر بقلوبهم.

فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال، مع أن في الجنة تضمحل العوارض والقواطع، التي تقطع عن معرفة الله ومحبة والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم، وألذ عليهم من كل لذة، ولهذا إذا رأوا الله تعالى، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم، أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالنفس، متواصلاً في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كل وقت، من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله، ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه.

﴿وهو الحكيم﴾ في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيهِ. ﴿الخبير﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي: من مطر، وبذر، وحيوان ﴿وما يخرج منها﴾ من

تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تخميم، وأنت إن قُمت بها وأديتها على وجهها فلك الثواب، وإن لم تقومي بها [ولم تؤديها] فعليك العقاب.

﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ أي: خوفاً أن لا يقمن بما حملن، لا عصبية لربهن، ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانتقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام:

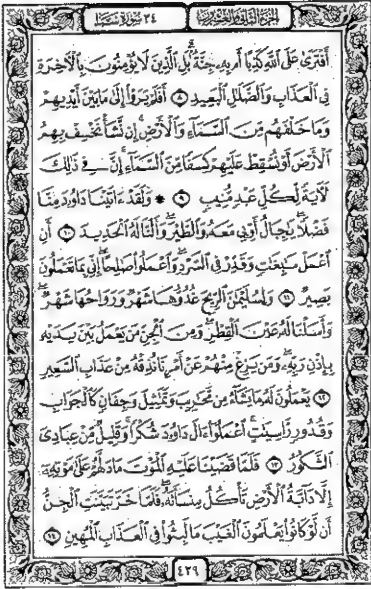
منافقون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قاتمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾. فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه

تفسير سورة سبأ وهي مكية

﴿١-٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحمن الغفور الحميد: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة، فله تعالى الحمد، لأن جميع صفاته يحمد عليها، لكونها صفات كمال، وأفعاله يحمد عليها، لأنها دائرة بين الفضل الذي



أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأملاك والأزراق والأقدار، ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك.

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تزل آثارها تنزل على عباده كل وقت، بحسب ما قاموا به من مقتضياتها.

﴿٣-٥﴾ ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم * لما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربه حق قدره، ولم تعظمه حق عظمتهم، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي: بالله ويرسله، وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا.

من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

﴿٧-٩﴾ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد * أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد * أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب * أي: ﴿وقال الذين كفروا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد.

أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ يعنون بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه كيف يقول: «إنكم مبعوثون» بعدما مزقكم البلي، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟!!

فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل ﴿أفترى على الله كذباً﴾ فتجراً عليه وقال ما قال، ﴿أم به جنة﴾؟ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فتون، وكل هذا منهم، على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم، أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه، فلو كان كاذباً مجنوناً لم ينبغ لكم

لايمانهم. ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب. ﴿ورزق كريم﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي: سعوا فيها كفراً بها، وتعجزوا لمن جاء بها، وتعجزوا لمن أنزلها، كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار هو الحق، أي: الحق متحضر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه ﴿يهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق ما أخبر به، ومن جهة موافقته للأموال الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تركي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد التعامل وغيره، كالصدق، والإخلاص، وبر الوالدين، وضلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر،



فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث، وأنه سيأتهم، واستدل على ذلك بدليل من أفتر به، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لا يغرب﴾ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مشقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها.

﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ، فالذي لا يخفى عن علمه مشقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم ^(١) ما تنقبض الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم، من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسوله تصديقاً جازماً، ﴿وعملوا الصالحات﴾ تصديقاً

لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴿١٠﴾

ولما ذكر ما امتنَّ به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿١٢- ١٤﴾ ﴿١٤﴾ «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن ينغ منهم عن أمرنا ندقه من عذاب السعير ﴿١٣﴾ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات أعمالوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴿١٢﴾ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴿١١﴾ لما ذكر فضله على داود عليه السلام، ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جداً في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين. ﴿غدوها شهر﴾ أي: أول النهار إلى الزوال ﴿ورواحها شهر﴾ من الزوال، إلى آخر النهار ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ أي: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسياح في استخراج ما يستخرج منها من الآواني وغيرها.

وسخر الله له أيضاً الشياطين والجن، لا يقدر أن يستعصوا عن أمره، ﴿ومن ينغ منهم عن أمرنا ندقه من عذاب السعير﴾ وأعمالهم، كل ما شاء سليمان عملوه، ﴿من محاريب﴾ وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة، ﴿وتماثيل﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات، من إتيان صنعتهن،

لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمَرْضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة.

﴿١٠- ١١﴾ ﴿١١﴾ «ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد ﴿١٠﴾ أن يعمل سابغات وتقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴿١١﴾ أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والتَّعَمُّدِ الدينية والدنيوية، ومن نَعَمه عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجبال والحيوانات، من الطيور، أن تُؤَوِّبَ معه، وتُرَجَّعَ التسبيح بحمد ربها مجاوبة له، وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربها وتمجيده وتكبيره وتحميده، كان ذلك مما يبيح على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك - كما قال كثير من العلماء - أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رَجَّعَ التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل مَنْ سمعه، من الإنس والجن، حتى الطيور والجنات، وسبحت بحمدها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبيح تبعاً له. ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره حلقاً، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض. قال تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس

يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ.

ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته، ولكن «ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ولهذا قال تعالى: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة، ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب، وأي: شقاء وضلال، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزأهم به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق، فرأوا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقاً وهدي. ثم نبههم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعدوه، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمت ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذاك خبر غيبي إلى الآن، ما شاهده، فلذلك كذبوا به.

قال الله: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي: من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فنتعاقبكم أشد العقوبة. ﴿إن في ذلك﴾ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿لآية لكل عبد منيب﴾. فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم،

وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان،
﴿وجفان كالجواب﴾ أي: كالبرك
الكبار، يعملونها لسليمان للطعام،
لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره،
﴿و﴾ يعملون له قدوراً راسيات
لا تزول عن أماكنها، من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم
بشكرها، فقال: ﴿اعملوا آل داود﴾
وهم داود وأولاده وأهله، لأن المنة على
الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد
لكلهم. ﴿شكراً﴾ لله على ما أعطاهم،
ومقابلته لما أولاهم. ﴿وقليل من عبادي
الشكور﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى
على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم
من النقم.

والشكر: اعتراف القلب بمنة الله
تعالى، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرفها
في طاعة الله تعالى، وصونها عن
صرفها في المعصية.

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان
عليه الصلاة والسلام كل بناء، وكانوا
قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم
يعلمون الغيب ويطلعون على
المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُريَ
العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا
يعملون على عملهم، وقضى الله
الموت على سليمان عليه السلام، وأتكا
على عصاه وهي المنسأة، فصاروا إذا
مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حياً،
وهايوه.

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة
على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض
على عصاه، فلم تزل ترعاه، حتى ياد
وسقط، فسقط سليمان عليه السلام
وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن
الجن ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا
في العذاب المهين﴾ وهو العمل الشاق
عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا
موت سليمان، الذي هم أحزص شيء
عليه، ليسلموا مما هم فيه.

﴿١٥ - ٢١﴾ ﴿لقد كان لسبأ في
مستكنهم آية جنتان عن يمين وشمال
كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة
طيبة ورب غفور﴾ فأعرضوا فأرسلنا

عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم
جنتين ذواتي أكل حط وأثل وشيء من
سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا
وهل تجازي إلا الكفور * وجعلنا
بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى
ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها
ليالي وأياماً آمنتين * فقالوا ربنا باعد
بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم
أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك
لآيات لكل صبار شكور * ولقد
صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا
فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم
من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة
ممن هو منها في شك وربك على كل
شيء حفيظ * سبأ قبيلة معروفة في
أداني اليمن، ومستكنهم بلدة يقال لها
«مأرب»، ومن نعم الله ولطفه بالناس
عموماً، وبالعرب خصوصاً، أنه قص
في القرآن أخبار المهلكين والمعاقين،
ممن كان يجاور العرب ويشاهد آثاره
ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك
أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة
فقال: ﴿لقد كان لسبأ في مستكنهم﴾
أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾
والآية هنا: ما أودر الله عليهم من
النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي
يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله
ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله:
﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ وكان لهم
واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا
بنوا سداً محكماً، يكون مجعاً للماء،
فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء
عظيم، فيفرونه على بساتينهم، التي
عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتغل
لهم تلك الجنتان العظمتان، من الثمار
ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة
والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي
أدركها عليهم من وجوه كثيرة. منها:
هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم
منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة
طيبة، لحسن هوائها، وقلّة وخبها،
وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن
شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم،

ولهذا قال: ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾.
ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في
تجاراتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة
- الظاهر أنها: [قرى صنعاء] قاله غير
واحد من السلف، وقيل إنها: الشام -
هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر
وصولهم إليها بغاية السهولة، من
الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى
بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم
مشقة بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين
القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة
وقدرنا فيها السير﴾ أي: [سيراً] مقدراً
يعرفونه ويحكمون عليه، بحيث
لا يتيهون عنه ﴿ليالي وأياماً آمنتين﴾
أي: مطمئنين في السير، في تلك
الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من
تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من
الخرف.

فأعرضوا عن النعم، وعن عبادته،
وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم
طلبوا وقتوا، أن تتباعد أسفارهم بين
تلك القرى التي كان السير فيها
متيسراً.

﴿وظلموا أنفسهم﴾ بكفرهم بالله
وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة
التي أقطعهم، فأبادها عليهم، فأرسل
عليها سيل العرم، أي: السيل المتورع،
الذي خرب سدّهم، وأتلف جنتاتهم،
وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنتات
ذات الحداثق المعجبة، والأشجار
الثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع
فيها، ولهذا قال: ﴿وبدلناهم بجنتيهم
جنتين ذواتي أكل﴾ أي: شيء قليل من
الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً ﴿حط
وأثل وشيء من سدر قليل﴾ وهذا كله
شجر معروف، وهذا من جنس
عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر
القيح، بدلوا تلك النعمة بما ذكر،
ولهذا قال: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا
وهل تجازي إلا الكفور﴾ أي: وهل
تجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق -
والأمن كفر بالله وبطير النعمة؟
فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا



من السماوات والأرض فأنهم لا بد أن يقولوا أنه الله، ولئن لم يقولوا فقل الله فإنك لا تجد من يدفع هذا القول، فإذا تبين أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض، وينزل لكم المطر، وينبت لكم النبات، ويفجر لكم الأنهار، ويطلع لكم من ثمار الأشجار، وجعل لكم الحيوانات جميعها، لنفعمكم ورزقكم، فليمن تعبدون معه من لا يرزقكم شيئاً، ولا يقيدكم نفعاً؟

وقوله: ﴿وإنا أو إياكم لمعل هدى أو في ضلال مبين﴾ أي: إحدى الطائفتين منا ومنكم، على الهدى، مستعجلة عليه، أو في ضلال مبين، منغمرة فيه، وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه وبطلان ما عليه خصمه.

أي: قد ترحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم، ما به يعلم علماً يقيناً لا شك فيه، من المحق منا ومن المبط، ومن المهتدي ومن الضال؟ حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا قائلة فيه، فإنك (٢) إذا وازنت بين من يدعو إلى عبادة الخالق لساناً المخلوقات، المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة، ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله والملك كله، وكل أحد من الملائكة فما دونهم خاضعون لهيئته، متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير، في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال، وكل جلال، وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه، وبين من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور، لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك لأنفسها ولا لمن عبدها، نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً

ومن علوه، أن حكمه تعالى يعلو، وتدعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركون.

وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سمعته الملائكة، فصعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم، العلي الكبير، الذي - من عظمته وجلاله - أن الملائكة الكرام والمقرين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقولون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركين، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه. فتعال العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم.

﴿٢٤ - ٢٧﴾ ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لمعل هدى أو في ضلال مبين﴾ قل لا تسألون عما أجرمتنا ولا تسأل عما تعملون ﴿٢٧﴾ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴿٢٨﴾ قل أروني الذين الحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴿٢٩﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه: ﴿من يرزقكم

والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول بزعمه (١) أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي عبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدوه وهو الشيطان.

وقوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فيدا لهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم. ﴿وهو العلي﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار ﴿الكبير﴾ في ذاته وصفاته.

(١) في النسختين: يزعمهم، ولعل الأقرب - والله أعلم - ما أثبت.

(٢) ورد في الهامش هنا: فعل الشرط.

ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جهادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويترأون منهم، ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله، فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين لله ويجاربه، ويكذب رسل الله الذين جاؤوا بالإخلاص لله وحده، تبيين^(١) لك أي: الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتاج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿قل﴾ لهم [﴿لا تسألون عما أجرة منّا، ولا نسأل عما تعملون﴾] أي: كل منّا ومنكم له عمله أنتم [﴿لا تسألون﴾] عن إجراننا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منّا ومنكم طلب الحقائق، وسلوك طريق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق، فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق ويحتمل الباطل، وأما الأعمال، فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكم الحاكمين، ويفصل بين المختصين، أعدل العادلين.

ولهذا قال: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا﴾ أي: يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للشواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين. ﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن تاب منّا، ﴿أروني الذين أحقتم به شركاء﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك. ﴿ويعبدون من دون الله ما

لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم﴾ الآية ﴿وما يتبع الذين يذعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيا أيها المشركون أروني الذين أحقتم بزعمتكم الباطل بالله ﴿شركاء﴾.

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أي: ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد، بل هو الله الذي لا يستحق التآله والتعبد إلا هو ﴿العزيز﴾ الذي قهر كل شيء، فكل ما سواه فهو مقهور مسخر مبدى. ﴿الحكيم﴾ الذي أتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بترجيده وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى^(٢) بذلك برهاناً على كمال حكمته، فكيف، وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة!!

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿قل﴾ لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴿يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله﴾، إلا يبشر جميع الناس بشواب الله، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم. ومن عدم علمهم، جعلهم عدم

الإجابة لما اقترحوه على الرسول، موجباً لرد دعوته.

فما اقترحوه، استعجالهم العذاب الذي أنذره به، فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا ظلم منهم. فأبى: ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وشفه في العقل؟ أليس النذير [في أمر] في أحوال الدنيا، لو جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعدو لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم. فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً، أم يحكم بسفهه وجنونه؟

هذا، والمخير يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنخل عزمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه؟ أليس رد خبره بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه!!

﴿قل﴾ لهم - مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه - ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

﴿٣١ - ٣٣﴾ ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يزجع بعضهم إلى بغض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له

(١) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يكفى، ولعل الصواب ما أثبت.

فإن يُعْثِنَا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا. فأجابهم الله تعالى، بأن يسط الرزق وتضييقه، ليس دليلاً على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء يسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليست الأموال والأولاد بالتتي تقرب إلى الله زلفى وتدنى إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، «وهم في الغرفات آمنون». أي: في المنازل العاليات المرتفعات جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا، والتكذيب، فـ «أولئك في العذاب محضرون».

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه «يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له». ليرتب عليه قوله: «وما أنفقتم من شيء» نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك، «فهو» تعالى «يخلفه» فلا تشوهوا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يسط الرزق لمن يشاء ويقدر «وهو خير الرازقين» فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ «ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون» قالوا سبحانه أنت ولينا من دوعهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون «فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون» «ويوم يحشرهم جميعاً» أي: العابدين لغير الله

[وأنه] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم، خوفاً من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم. وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار، يظهرون ذلك الندم جهراً.

«ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً» يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً» الآيات.

«وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير «وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا» يغنون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه كما قال تعالى: «إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون» في الحميم ثم في النار يسجرون» الآيات.

«هل يجزون» في هذا العذاب والنكال، وتلك الأغلال الثقال «إلا ما كانوا يعملون» من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿٣٩ - ٣٩﴾ «وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون» وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين «قل إن ربي يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون» وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون «والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون» قل إن ربي يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين» يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها.

«وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً» أي: ممن اتبع الحق «وما نحن بمعذبين» أي: أولاً، لئلا بمبعوثين،

أنداداً وأسروا التندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» لما ذكر تعالى أن معاد المستعجلين بالعذاب لا يد من وقوعه عند حلول أجله، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنت لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لرأيت أمراً عظيماً وهو لا جسيماً، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، فـ «يقول الذين استضعفوا» وهم الأتباع «للبذين استكبروا» وهم القادة: «لولا أنتم لكنا مؤمنين» ولكنكم حلّتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر [إن]، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دوعهم.

«قال الذين استكبروا للذين استضعفوا» مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: «أنحن صدناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم» أي: بقوتنا وقهرنا لكم. «بل كنتم مجرمين» أي: مختارين للإجرام، لنتم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

«وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً» أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبّرتموه من المكر، في الليل والنهار، إذ تحشّون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقدحون في الحق وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا، حتى أغويتمونا وقتلتمونا.

فلم تعد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض، والتندامة العظيمة، ولهذا قال: «أسروا التندامة لما رأوا العذاب» أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق،

والمعبودين من دونه، من الملائكة. **﴿ثم يقول الله للملائكة﴾** على وجه التريخ لمن عيدهم: **﴿هؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾** فبنوا من عبادتهم. و **﴿قالوا سبحانك﴾** أي: تنزيهاً لك وتقديساً، أن يكون لك شريك أو ند **﴿أنت ولينا من دونهم﴾** فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء؟!!

ولكن هؤلاء المشركون **﴿كانوا يعبدون الحن﴾** أي: الشياطين، يأمرون ^(١) بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك، وطاعتهم هي عبادتهم، لأن العبادة الطاعة، كما قال تعالى مخاطباً لكل من اتخذ معه آلهة **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾** وأن **﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾** أي:

مصدقون للحق، منقادون لهم، لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد. فلما تبرأوا منهم، قال تعالى [مخاطباً] لهم: **﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضررا﴾** تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض. **﴿ونقول للذين ظلموا﴾** بالكفر والمعاصي - بعدما ندخلهم النار - **﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾** فاليوم عاينتموها ودخلتموها، جزاء لتكذيبكم، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب، من عدم الهرب من أسبابها.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾** وما آتيناكم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير * وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناكم فكذبوا رسل فكيف

كان تكبير **﴿يغير تعال عن حالة المشركين، عندما تتلى عليهم آيات الله البينات، وحججه الظاهرات، وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم، وميزة وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالآيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي، ويكذبون من جاءهم بها ويقولون: ﴿ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾** أي: هذا قصده حين يأمركم بالإخلاص لله، لتتركوا عوائد آباؤكم الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق بقول الضالين، ولم يوردوا ^(٢) برهاناً ولا شبهة.

فأي: شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق، فادعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزلوا عليه؟ وهذه السفاهة، ورد الحق بأقوال الضالين، إذا تأملت كل حق رد، فإذا هذا مآله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين، والدهريين، والفلاسفة، والصابئين، والملاحدين في دين الله المارقين، فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آباؤهم، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل، طعنوا بعد هذا بالحق، **﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾** أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به. **﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾** أي: سحر ظاهر بين لكل أجد، تكذيباً بالحق، وترويحاً على السفهاء.

ولما بين ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً أن تكون حجة، ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم، فإنهم لا مستند لهم، ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال: **﴿وما آتيناكم من كتب يدرسونها﴾** حتى تكون عمدة لهم **﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾** حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به

وهم يحضرون جميعاً يقولون لا اله الا الله اعلم انهم كانوا يعبدون آباءهم فقالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كنتم تعبدون قالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين وما آتيناكم من كتب يدرسونها حتى تكون عمدة لهم وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير حتى يكون عندهم من اقواله واحواله ما يدفعون به

ما جتتهم به، فليس عندهم علم، ولا إثارة من علم.

ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم [فقال: **﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا﴾** أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون **﴿معشار ما آتيناكم﴾** فكذبوا] أي: الأمم الذين من قبلهم **﴿رسل فكيف كان تكبير﴾** أي: إنكارهم عليهم، وعقوبيتهم إياهم، قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أفرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة، وبالحسيف بالارض، وبإرسال الحاصب من السماء، فاحذروا يا هؤلاء المكذبون، أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم، ويصيبكم ما أصابهم.

﴿٤٦ - ٥٠﴾ **﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾** قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد * قل إن ربي يقذف بالحق عظام الغيوب * قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد * قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحى إلي ربي إنه سميع قريب * أي:

(٢) كذا في ب، وفي أ: ولم يوردوا.

(١) في ب: يأمرهم.

وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان **«علام الغيوب»** الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوسوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، ويبتها لهم، ولهذا قال: **«قل جاء الحق»** أي: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه **«وما يبدىء الباطل وما يعيد»** أي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبدىء ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به.

وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره.

«وإن أهديت نفسي وحولي وقوتي، وإنما هدايتي بما «يوحى إلي ربي» فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري. إن ربي «سميع» للأقوال والأصوات كلها «قريب» ممن دعاه وسأله وعبه.

«٥١ - ٥٤» **«ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب»** وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد **«وقد كفروا به من قبل ويصدقون بالغيب من مكان بعيد»** وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشباعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب **«يقول تعالى: «ولو ترى»** أيها الرسول، ومن قام مقامك، حال هؤلاء المكذبين، **«إذ فزعوا»** حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مقلعاً، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب.

الخلق، أدباً، وسكينة، وتواضعاً، ووقاراً، لا يكون [إلا] لأرزن الرجال عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي غلا القلوب أمناً وإيماناً، وتركى النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وترهب^(٢) عن مساوئ الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رفقته العيون، هبة وإجلالاً وتعظيماً.

فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعريدهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟!!

فكل من تدبر أحواله، ومقصده استعمال هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، ونبيه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وتم مانع للنفوس آخر من اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجرة على دعوته. فبين الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر، فقال: **«قل ما سألتكم من أجر»** أي: على اتباعكم للحق **«فهو لكم»** أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم، **«إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد»** أي: محيط علمه بما أدعوا إليه، فلو كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق وبطلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن **«يقذف بالحق»** على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لأنه بين من الحق في هذا الموضع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبرة للمعتبرين، وآية للمتأملين. فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم



«قل» يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصددين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: **«إنما أعظكم بواحدة»** أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: **«أن تقوموا لله مثنى وفرداً»** أي: تنهضوا بهمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرداً، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله مثنى وفرداً، استعمالتم فكركم وأجلمتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم، بما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون، لأن هيئاته^(١) ليست كهيات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل

(٢) في ب: وتزجر.

(١) في ب: هيته.



الأعمال الصالحات لهم مغفرة ﴿٨﴾ لنزولهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿أجر كبير﴾ يحصل به المطلوب.

﴿٨﴾ ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليهم بما يصنعون ﴿يقول تعالى﴾ ﴿أفمن زين له عمله السيئ القبيح، زين له الشيطان، وحسنه في عينه﴾ ﴿فرآه حسناً﴾ أي: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟

فالاول: عمل السيئ، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

والثاني: عمل الحسن، ورأى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم﴾ أي: على

الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصددهم الشيطان عن الحق ﴿حسرات﴾ فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله [هو] الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾

﴿٩﴾ ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت﴾ فأنزله الله عليها ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾.

فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، وزرعت في تلك الخيرات، ﴿كذلك﴾ الذي أحيأ الأرض بعد

موتها، ينشر الله الأموات من قبورهم، بعدما منزههم البلى، فيسوق إليهم مطراً، كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزل عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

﴿١٠﴾ ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون

وعبد الله بالبعث والجزاء على الأعمال، ﴿حق﴾ أي: لا شك فيه، ولا مرية، ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقاً، فتهيؤوا له، وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ الذي هو ﴿الشيطان﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة ﴿فانخذوه عدوا﴾ أي: لتكون منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربته كل وقت، فإنه يراكم، وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد.

﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ هذا غايته ومقصوده فمن تبعه، أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما، فقال: ﴿الذين كفروا﴾ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لهم عذاب شديد﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبداً.

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿وعملوا﴾ بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم،

السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ أي: يامن يريد العزة اطلبها عن هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ من قراءة وتسييح وتحميد وتهليل، وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه، ويشي الله على صاحبه بين الملأ الأعلى، ﴿والعمل الصالح﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يرفعه﴾ الله تعالى إليه أيضاً، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً، ولهذا قال: ﴿والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد﴾ يهانون فيه غاية الإهانة. ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل.

﴿١١﴾ ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي، وتنقله في هذه الأطوار، من تراب إلى نطفة وما بعدها.

﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي: لم يزل ينقلكم، طوراً بعد طور، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكراً يتزوج أنثى، ويزاد بالزواج، الذرية والأولاد، فهو وإن كان الشكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلوه، ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ وكذلك أطوار الآدمي، كلها بعلمه وقضائه.

ومن غناه تعالى: أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه لأنها حسنى، وأوصافه لكونها غليا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه [الغنى في حده].

﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾. يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك: إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتك بعد موتكم خلقاً جديداً، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾. أي: بممتنع، ولا معجز له.

وبدل على المعنى الأخير، ما ذكره بعده في قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾. أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد. ﴿وإن تدع مثقلة﴾. أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب، تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها. ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾. فإنه لا يحمل عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل يوم القيامة، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه.

﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾. أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة ويتفجعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وأوجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه

ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم [إياها]، لما استعدوا لأي: عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرزق والتنعيم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم، وتفرجه لكراباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

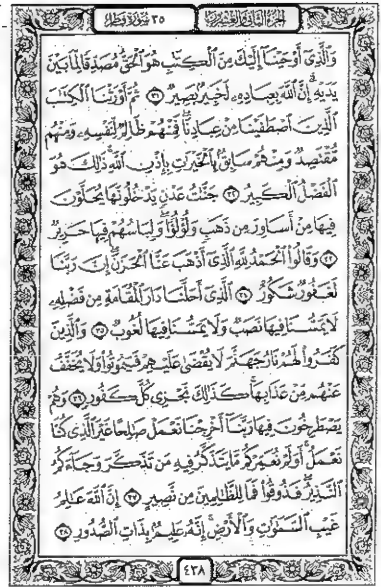
فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير.

فقراء إليه، في تالهم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلولا يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموقف منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا آخرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿والله هو الغني الحميد﴾. أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت وجلال.



ومع هذا ﴿إن تدعوهم﴾. لا يسمعونكم لأنهم ما بين جناد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم. ﴿ولو سمعوا﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿ما استجابوا لكم﴾ لأنهم لا يملكون شيئاً، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾. أي: يتبرزون منكم، ويقولون: ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾.

﴿ولا ينبتك مثل خبير﴾. أي: لا أحد ينبتك، أصدق من الله الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تتر. فتضمنت هذه الآيات، الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود، الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة باطل، لا تفيد عباده شيئاً.

﴿١٥ - ١٨﴾. ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾. إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز * ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم

العذاب، والنصلا تدعو إلى الخير، وتتهى عن الفحشاء والمنكر.

﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أي: وَمَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ بِالتَّزَكُّيِّ مِنَ الْعِيوبِ، كَالزَّيِّاءِ وَالْكِبَرِ، وَالْكَذْبِ وَالْعُشِّ، وَالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ وَالنِّفَاقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَحَلَّىٰ بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، مِنَ الصِّدْقِ، وَالْإِحْلَاصِ، وَالتَّوَّاضُعِ، وَلِيْنِ الْجَانِبِ، وَالتَّصَبُّعِ لِلْعِبَادِ، وَسَلَامَةِ الصِّدْرِ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ، فَإِنَّ تَزَكِّيَتِهِ يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ، وَيَصِلُ مَقْصُودُهَا إِلَيْهِ، لَيْسَ يَضِيعُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ.

﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿١٩٤ - ٢٤﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير * إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير * يغير تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ فَاقِدَ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرُ﴾ ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات * فكما أنه من المقرر عندكم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإتيار.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ سماع فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قبل منك أم لا.

ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ إنا أرسلناك بالحق * أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل، وطموح من السبل، واندراش من العلم، وضرورة عظيمة إلى بعثتك، فبعثك الله رحمة للعالمين.

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم، والصرط المستقيم، حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به، من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم، حق وصديق * ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاعك، بشواب الله العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك، بعقاب الله العاجل والآجل، ولست ببدع من الرسل.

فما ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿لِيَهْلِكَ مِنْ هَلَكٍ عَنْ بَيْتَةٍ وَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْتَةٍ﴾.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ وبالكتاب المنير * ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير * أي: وإن يكذبك أيها الرسول، هؤلاء المشركون، فلست أول رسول كُذِّبَ، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام، ﴿وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور بما جاءهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَخَذَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك، من العذاب الأليم والحزى الوخيم.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مَخْتَلَفًا لَوَاقِحِهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور * يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته ويدبج حكيمته.

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفة، والنباتات المتنوعة، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتاداً للأرض، تمجدها جبلاً مشبكة، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحر، وفيها غرايب سود، أي: شديدة السواد جداً.

ومن ذلك: التناس والدواب والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالابصار، مشهود للنتظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدرته الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضاً، ما هو معلوم.

وذلك أيضاً، دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث مَنْ فِي الْقُبُورِ، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له

التذكر، وإنما يتنفع بها مَنْ يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فكل مَنْ كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء مَنْ يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين.

﴿٢٩٩ - ٣٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ أيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخبازه فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتتبّعها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعدما عمّ، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في جميع الأوقات.

﴿يَرْجُونَ﴾ [بذلك] تجارة لن تبور أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون^(١) بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ أي: أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه، ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ زيادة عن أجورهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿٣١ - ٣٥﴾ ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴿الَّذِي أَحْلَلْنَا لَكُمْ ذِكْرَهُ وَالَّذِي لَمْ يَحْلِلْ لَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ مَلَائِكَةٌ يَخْلُفُونَكُمْ وَالَّذِي نَزَّلَ فِي الْقُرْآنِ الْفَصْلَ﴾ أي: الذي أحل لنا أن نذكر الله تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كان الحق منحصراً فيه، فلا يمكن في قلبكم حرج منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يزاد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب والرسول، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحد أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبداً، لأن كفره به ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله. ومن ذلك، أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها،

ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسولا بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع، الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو خير في كل وقت.

ولهذا، لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالمعاصي، [التي] هي دون الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مَّقْتَصِدٌ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، الكثير من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى، لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب، لأن المراد بوراثته الكتاب، وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لئلا يفتخر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفاه الله تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جمع النعم بالنسبة إليه، كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثته هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي:

الدنيا، وأدركنا عليكم الأرزاق،
وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا^(١)
لكم في العمر، وتابعنا عليكم
الآيات، وأوصلنا إليكم النذر،
وابتليناكم بالسراء والضراء، لتبينا إلينا
وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار،
ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم
العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم
وقمت أعماركم، ورحلتم عن دار
الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى
هذه الدار دار الجزاء على الأعمال،
سألتم الرجعة؟ هيئات هيئات، فات
وقت الإمكان، وغضب عليكم
الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب
النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها
خالدین خلدین، وفي العذاب مهانین،
ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا قِصَّةَ لِلْظَّالِمِينَ مِنْ
نَصِيرٍ﴾ ينصرونهم فيخرجهم منها، أو
يخفف عنهم من عذابها.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل
الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر
تعالى عن سعة علمه تعالى، وإطلاعه
على غيب السفوات والأرض، التي
غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم،
وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه
الصدور من الخير والشر والزكاء
وغیره، فيعطي كلا ما يستحقه، وينزل
كل أحد منزلته.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ
فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا
يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾
ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً
يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته
بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن
يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض،
ويُرسل لكل أمة من الأمم النذر،
فينظر كيف يعملون، فمن كفر بالله
وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه،
وعليه إثم وعقوبته، ولا يحمل عنه
أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت
ربه له ويغضه إياه، وأي: عقوبة أعظم

فيها لغوب ﴿أي: لا تعب في الأبدان
ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة
التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى
يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويبقى
لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما
يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسه
نصب ولا لغوب، ولا هم
ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة،
لأن النوم فائدته زوال التعب،
وحصول الراحة به، وأهل الجنة
بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر،
وأهل الجنة لا يمتوتون، جعلنا الله
منهم، بمنه وكرمه.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ
نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا
يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي
كُلَّ كَافٍ﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا
أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا
نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من
تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما
للظالمين من نصير ﴿لما ذكر تعالى حال
أهل الجنة ونعيمهم، ذكر حال أهل
النار وعذابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾
أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من
الآيات، وأنكروا لقاء ربهم.

﴿لهم نار جهنم﴾ يعذبون فيها أشد
العذاب، وأبلغ العقاب. ﴿لا يقضى
عليهم﴾ بالموت ﴿فيموتوا﴾
فيستريحوا، ﴿ولا يخفف عنهم من
عذابها﴾ فشدّة العذاب وعظمه،
مستمر عليهم في جميع الآتات
واللحظات.

﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ وهم
يصطرخون فيها ﴿أي: يصرخون
ويتصاحجون ويستغيثون ويقولون:
﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي
كنا نعمل﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا
أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا
الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم:
﴿أولم نعمركم ما﴾ أي: دهرأ وعمراً
﴿يتذكر فيه من تذكر﴾ أي: يتمكن فيه
من أراد التذكر من العمل، متعناكم في

جنات مشتملات على الأشجار،
والظل، والظليل، والحدائق الحسنة،
والأنهار المتدفقة، والقصور العالية،
والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول،
وعيش لا ينفد.

والعدن «الإقامة» فجنات عدن أي:
جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن
الإقامة والخلود وصفها ووصف
أهلها.

﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ آسَاوَرٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾
وهو الحلي الذي يجعل في اليدين، على
ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره،
الرجال والنساء في الحلية في الجنة
سواء. ﴿و﴾ يحلون فيها ﴿لؤلؤاً﴾
ينظم في ثيابهم وأجسادهم.
﴿وليأسهم فيها حيرى﴾ من سندس،
ومن إستبرق أخضر.

﴿و﴾ لما تم نعيمهم، وكملت لذتهم
﴿قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا
الحزن﴾ وهذا يشمل كل حزن،
فلا حزن يمرض لهم بسبب نقص في
جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم،
ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم،
ولا في دوام لبثهم، فهم في نعيم ما
يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد
الآباد.

﴿إن ربنا لغفور﴾ حيث غفر لنا
الزلات ﴿شكور﴾ حيث قبل منا
الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله
ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا،
فبمغفرته نجوا من كل مكروه
ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم
كل مرغوب محبوب.

﴿الذي أحلنا﴾ أي: أنزلنا نزول
حلل واستقرار، لا نزول معبر
واعتبار. ﴿دار المقامة﴾ أي: الدار التي
تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب
في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي
مسراتها، وزوال كدوراتها، وذلك
الإحلال ﴿من فضله﴾ علينا وكرمه،
لا بأعمالنا، فلولاً فضله، لما وصلنا
إلى ما وصلنا إليه...
﴿لا يمسن فيها نصب ولا يمسن﴾

من مقت الرب الكريم؟
﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسار﴾ أي: يخسرون أنفسهم وأهلهم وأعمالهم ومنازلهم في الآخرة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والحزني عند الله وعند خلقه الحرمان.

﴿٤٠﴾ **﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرؤي ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾** يقول تعالى مُعْجِزاً لآلهة المشركين، ومبيناً نقصها، وبطلان شركهم من جميع الوجوه.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهم: **﴿أرأيتم﴾** أي: أخبروني عن شركائكم **﴿الذين تدعون من دون الله﴾** هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، فـ **﴿أرؤي ماذا خلقوا﴾** [من الأرض] هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبلاً أو خلقوا حيواناً، أو خلقوا جاداً؟ سيقررون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى، أم لشركائكم شركة **﴿في السموات﴾** في خلقها وتبديلها؟ يقولون: ليس لهم شركة.

إذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدوهم ودعواهم مع إقراركم بعمجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً منتف، فلهذا قال: **﴿أم آتيناهم كتاباً﴾** يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. **﴿فهم﴾** في شركهم **﴿على بينة﴾** من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإننا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا**

نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى، **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾**.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلّ على بطلان الشرك، فما الذي حل المشركين على الشرك، وفيهم ذور العقول والذكاء والفطنة؟

أجاب تعالى بقوله: **﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾** أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالتقدم الضال، وأمانى متأها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فيحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿٤١﴾ **﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾** يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتعام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما.

ولكنه تعالى، قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والتفجع والاعتياز، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بامهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه **﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾**.

﴿٤٢﴾ **﴿٤٣﴾** **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما**

زادهم إلا نفوراً﴾ استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي: وأقسم هؤلاء، الذين كذبوك يا رسول الله، قسماً اجتهدوا فيه بالإيمان الغليظة: **﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾** أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل الكتب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود.

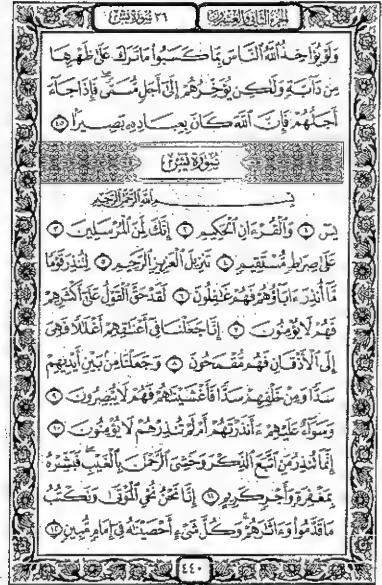
﴿فلما جاءهم نذير﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل **﴿ما زادهم﴾** ذلك **﴿إلا نفوراً﴾** زيادة ضلال وغبى وعناد.

وليس إقسامهم المذكور، لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهرجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون.

﴿ولا يحيق المكر السيئ﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، وماله وما يرمى إليه سيئ باطل **﴿إلا بأهله﴾** فمكرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نجورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.

فلم يبق لهم إلا انتظار ما يجلب بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يجلب به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فلْيَتَرَقَّبْ هؤلاء، ما فعل بأولئك.

﴿٤٤﴾ **﴿٤٥﴾** **﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا**



من الكتب، عادمين الرسل، قد عنتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، يزيههم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فنعمة الله به على العرب خصوصا، وعلى غيرهم عموما. ولكن هؤلاء الذين بعثت فيهم لإنذارهم بعدما أنذرتهم، انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم «لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون» أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحيث عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: «إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا» وهي جمع «غل» و «الغل»: ما يغل به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، وهذه الأغلال التي في الأعناق^(١)، عزيمة قد وصلت إلى أذنانهم ورفعت

رؤوسهم إلى فوق، «فهم مقمحون» أي: رافعو رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

«وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا» أي: حاجزا يحجزهم عن الإيمان، «فهم لا يبصرون» قد غمّرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة. «وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون» وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلاً والباطل حقاً! والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، وقد ذكرهم بقوله: «إنما تنذر» أي:

إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بنصحك «من أتبع الذكر» [أي: من قصده اتباع الحق وما ذكر به، «وخشي الرحمن بالغيب» أي: من اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين «فيشره بمغفرة» لذنوبه، «وأجر كريم» لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة.

«إنما نحن نحيي الموتى» أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازهم على الأعمال، «ونكتب ما قدموا» من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وياشروها في حال حياتهم، «وآثارهم» وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيهِ عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقبدي به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس،

وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وهذا الموضع، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليفة، وأشدّهم جرماً، وأعظمهم إثماً.

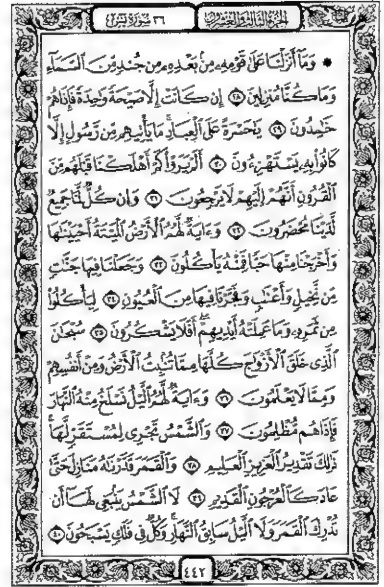
«وكل شيء» من الأعمال والنيات وغيرها «أحصيناه في إمام مبين» أي: كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

«١٣ - ٣٠» «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون» إلى آخر القصة. أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلاً يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير، وذلك المثل: أصحاب القرية، وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله.

وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين «إذ جاءها

(١) كذا في ب، وفي أ: الأذنان.



بأنواع الثوبات والمسرّات، أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم.

قال الله في عقوبة قومه: [وما أنزلنا على قومه] من بعده من جند من السماء. أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السماء لإتلافهم، [وما كنّا منزلين] لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم. [إن كانت] أي: كانت عقوبتهم [إلا صيحة واحدة] أي: صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله، [فإذا هم خامدون] قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبرهم عليهم.

قال الله متوجعاً للعباد: [يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون] أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!

(١) كذا في ب، وفي أ: فأصابها.

أوجد الله هذه الشمار، غير محتاجة لطبخ ولا شيء، تؤخذ من أشجارها، فتؤكل في الحال. [أفلا يشكرون] من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم، اليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأثبت فيها الزروع والأشجار، وأودع فيها للذيذ الشمار، وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون، بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل، إنه على كل شيء قدير.

[سبحان الذي خلق الأزواج كلها] أي: الأصناف كلها، [وما تنبت الأرض] فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده. [ومن أنفسهم] فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخلقتهم، وأوصافهم الظاهرة والباطنة. [وما لا يعلمون] من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد، فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهور، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سمي، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يریده.

[٣٧ - ٤٠] [وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون] والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم [والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم] لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون. أي: [وآية لهم] على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وإحيائه الموتى بعد موتهم. [الليل نسلخ منه النهار] أي: نزيل الضياء العظيم الذي طبق الأرض، فنبذله بالظلمة، ونحلها غله [فإذا هم مظلمون] وكذلك نزيل هذه الظلمة، التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس، فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومضالحهم، ولهذا قال: [والشمس تجري لمستقر

٣١-٣٢] [ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون] وإن كل لما جميع لدينا محضرون. يقول تعالى: ألم يروا هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، [وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً].

[٣٣ - ٣٦] [وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حياء فمنه يأكولون] وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون [ليأكلوا] من ثمره وما عملته أيديهم [أفلا يشكرون] سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون. أي: [وآية لهم] على البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال، هذه [الأرض الميتة] أنزل الله عليها المطر، فأحيّاها^(١) بعد موتها، [وأخرجنا منها حياء فمنه يأكولون] من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله أنعامهم، [وجعلنا فيها] أي: في تلك الأرض الميتة [جنات] أي: بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار، [وفجرنا فيها] أي: في الأرض [من العيون] جعلنا في الأرض تلك الأشجار، والنخيل والأعناب، [ليأكلوا] من ثمره [قوتاً وفاكهة، وأدماً ولذة]، [والحال أن تلك الثمار] ما عملته أيديهم [لولا لهم فيه صنع، ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأيضاً فلم تعمله أيديهم] بطبخ ولا غيره، بل

لها [أي: دائماً تجري مستقر لها] قدره الله لها، لا تتعداه، ولا تقصر عنه، وليس لها تصرف في نفسها، ولا استعصاء على قدرة الله تعالى. ذلك تقدير العزيز الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة، بأكمل تدبير، وأحسن نظام. العلم الذي بعلمه، جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم.

والقمر قدرناه منازل، ينزل بها، كل ليلة ينزل منها واحدة، حتى يصغر جداً، فيعود كالمرجون القديم، أي: عرجون النخلة، الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك، ما زال يزيد شيئاً شيئاً، حتى يتم [نوره] ويتسق ضياؤه.

وكل من الشمس والقمر، والليل والنهار، قدره [الله] تقديراً لا يتعداه، وكل له سلطان ووقت، إذا وجد عدم الآخر، ولهذا قال: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، أي: في سلطانه الذي هو الليل، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، ولا الليل سابق النهار، فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه، وكل من الشمس والقمر والنجوم في فلك يسبحون، أي: يترددون على الدوام، فكل هذا دليل ظاهر، وبرهان باهر، على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع.

٤١ - ٥٠ ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومناعاً إلى حين * وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحون * وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله

أطعمهم إن أنتم إلا في ضلال مبين * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * أي: ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعمة، الصارف للنقم، الذي من جملة نعيمه ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال كثير من المفسرين: المراد بذلك: آبؤهم.

﴿وخلقنا لهم﴾ أي: للموجودين من بعدهم من مثله، أي: من مثل ذلك الفلك، أي: جنسه، ما يركبون به، فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن، لأن النعمة عليهم، نعمة على الذرية. وهذا الموضع من أشكال المواضع على في التفسير، فإن ما ذكره كثير من المفسرين، من أن المراد بالذرية الآباء، مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإيهام وإخراج الكلام عن موضوعه، ما يباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده.

وتم احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية [بني] آدم، ولكن ينتقض هذا المعنى قوله: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي: لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكثيراً للمعنى، تأباه فصاحة القرآن.

فإن أريد بقوله: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ الإبل، التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضاً، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وآية لهم أننا حملناهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال:

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومناعاً إلى حين * وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحون * وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمهم إن أنتم إلا في ضلال مبين * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * أي: ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعمة، الصارف للنقم، الذي من جملة نعيمه ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال كثير من المفسرين: المراد بذلك: آبؤهم.

الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه الثام من كل وجه، للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلية، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده، عن حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن.

فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم [صنعة] الفلك [البحرية] الشراعية مبتها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، [المراكب البرية] مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية، نبه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياته فقال: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوء ركباً وأمتعة.

فحملهم الله تعالى، وتجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها، من

كانوا يكسبون ﴿أي﴾ : تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء .

﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ بأن نذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم . ﴿فاستبقوا الصراط﴾ أي : فبادروا إليه، لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة، ﴿فأنى يبصرون﴾ وقد طمسنا أبصارهم .

﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم﴾ أي : لأذهبنا حركتهم ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ إلى الأمام ﴿ولا يرجعون﴾ إلى ورائهم ليعبدوا عن النار . والمعنى : أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم .

وفي ذلك الموطن، ما تمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يبتدأ إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر . المقصود : أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة .

﴿٦٨﴾ ﴿ومن نعمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾ يقول تعالى : ﴿ومن نعمه﴾ من بني آدم ﴿ننكسه في الخلق﴾ أي : يعود إلى الحالة التي ابتدأ حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة . ﴿أفلا يعقلون﴾ أن الأدمي ناقص من كل وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم .

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال : ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ أن يكون شاعراً، أي : هذا من

المجرمون ﴿أي﴾ : تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم : ﴿ألم أعهد إليكم﴾ أي : آمركم وأوصيكم، على السنة رسل، [وأقول لكم] : ﴿يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي : لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿و﴾ أمرتكم ﴿أن اعبدوني﴾ بامثال أوامري وترك زواجري، ﴿هذا﴾ أي : عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صراط مستقيم﴾ فعلموا الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين، أي : فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، ف ﴿أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ أي : خلقاً كثيراً . ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي : فلا كان لكم عقل يأمركم بموااة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً، فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك، فإذا أطلعتم الشيطان، وعاديتهم الرحمن، وكذبتهم بلقائه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب ف ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عياناً، فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفرع الأكبر .

ثم يكمل ذلك، بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم : ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي : ادخلوها على وجه تصلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسول الله .

قال الله تعالى في بيان وصفهم القطع في دار الشقاء : ﴿اليوم نخسف على أفواههم﴾ بأن نجعلهم خرساً فلا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب . ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما

جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق . ﴿في ظلال على الأرائك﴾ أي : على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن . ﴿متكئون﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة والطمأنينة واللذة .

﴿لهم فيها فاكهة﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين وزمان، وغيرها، ﴿ولهم ما يدعون﴾ أي : يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه .

ولهم أيضاً ﴿سلام﴾ حاصل لهم من رب رحيم ﴿ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله : ﴿قولا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثليها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً، فلولوا أن الله تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور، لحصل ذلك .

فترجوا ربنا أن لا يجرنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم .

﴿٥٩ - ٦٧﴾ ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ؟ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ؟ هذه جهنم التي كنتم توعدون ؟ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ؟ اليوم نخسف على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ؟ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ؟ ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ؟ لما ذكر تعالى جزاء المتقين، ذكر جزاء المجرمين ﴿و﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿امتازوا اليوم أيها

جنس المجال أن يكون شاعراً، لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم الغاؤون، ولأن الله تعالى جسم جميع الشبه التي يتعلّق بها الضالّون على رسوله، فحسب أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب، جميع المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم احتمال، وهو يذكر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح.

﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: مبين لما يطلب بيانه. ولهذا حذف المعمول، ليدل على أنه مبين لجميع الحق، بأدلته التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه، أنزله الله كذلك على رسوله.

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: حي القلب واعيه، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية. ﴿وَيُحَقِّقُ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يذّلون بها.

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مَا مَلَكَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ وذلكنا لها فتمتلكها ركوهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون * يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلكها، وجعلهم مالكيها لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومخاملتهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دافع، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها، ﴿أَفَلَا

(١) كذا في ب، وفي أ: الذي.

يشكرون﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبادة والفكرة.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴿هَذَا بَيَانٌ لِبُطْلَانِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ﴾ التي ^(١) اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها، فإنها في غاية العجز: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة [والقدرة] ^(٢)، فإذا استطاع، يبقى: هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ فتفتي الاستطاعة، ينفي الأمرين كليهما.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ﴾ أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبري بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضرر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسِرُونَ وَمَا يَعْهَدُونَ﴾ أي: فلا يحزنك يا أيها الرسول، قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول، أو فيما جاء به.

أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسِرُونَ وَمَا يَعْهَدُونَ﴾ فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئاً.

﴿٧٧-٨٣﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ وضرب لنا مثلاً وننسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون *

أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿هذه الآيات منكري البعث، فيها إذكراً شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ﴾ المنكر للبعث والشك فيه، أمراً يفيد اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحاليتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم، قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتغرق، من باب أول.

﴿وَضَرْبَ لَنَا مِثْلًا﴾ لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق.

فسر هذا المثل [بقوله]: ﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان ﴿مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت.

هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لابتداء خلقه، فلو فطن لخلق بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً فوجد عياناً، لم يضرب هذا المثل.

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف، فقال: ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا بمجرد تصويره، يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة

(٢) زيادة من هامش ب، ويبدو - والله أعلم - أن الشرطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقية كلام الشيخ - رحمه الله - يدل على ذلك.

قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور، وهو بكل خلق عليم.

هذا أيضاً دليل ثان من صفات الله تعالى، وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة، فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم، علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم.

ثم ذكر دليلاً ثالثاً ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ فإذا أخرج [النار] اليابسة من الشجر الأخضر، الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادها وشدة تخالفهما، فأخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك.

ثم ذكر دليلاً رابعاً فقال: ﴿أوليس الذي خلق السماوات والأرض﴾ على سعتهما وعظمهما ﴿يقادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي: [أن] يعيدهم [بأعينهم]. ﴿بلى﴾ قادر على ذلك، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. ﴿وهو الخلاق العليم﴾ وهذا دليل خامس، فإنه تعالى الخلاق، الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه.

فإعادته للأموات، فرد من أفراد [آثار] خلقه، ولهذا قال: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء. ﴿أن يقول له كن فيكون﴾ أي: في الحال من غير تمنع.

﴿فنبحن الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ وهذا دليل سادس، فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء، الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له، وعبيد مسخرون ومدبرون، يتصرف فيهم بأقداره الحكيمية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية. فإعادته إياهم بعد موتهم، لينفذ

فيهم حكم الجزاء، من تمام ملكه، ولهذا قال: ﴿واليه ترجعون﴾ من غير امتراء ولا شك، لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك. فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس، فله [تعالى] الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وصلى الله على محمد وآله وسلم

تفسير سورة الصافات، وهي مكية

﴿١- ١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والصافات صفاً﴾ فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً * إن إلهكم لواحد * رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق * إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب * فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب * هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام، في حال عبادتها وتبديرها ما تدبره بإذن ربها، على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿والصافات﴾ صفناً أي: صفوفاً في خدمة ربهم، وهم الملائكة، ﴿فالزاجرات زجراً﴾ وهم الملائكة، يزجرون السحاب وغيره بأمر الله، ﴿فالتاليات ذكراً﴾ وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى.

فلما كانوا متألّهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفة عين، أقسم بهم على ألوهيته فقال: ﴿إن إلهكم لواحد﴾ ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة.

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾ أي: هو الخالق

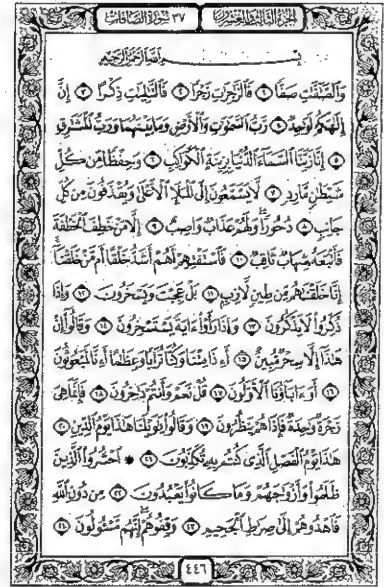
أولئك الذين أنعم الله عليهم من عباده الذين آمنوا وكنوا ربهم وهم لا يشركون ﴿١٢﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿١٣﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿١٤﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿١٥﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿١٦﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿١٧﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿١٨﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿١٩﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢١﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣١﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤١﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥١﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦١﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧١﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨١﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩١﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿والله الذي خلقكم من طين لازب﴾ ﴿١٠٠﴾

لهذه المخلوقات، والرازق لها، المدبر لها، فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته، وكثيراً ما يقرر تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، لأنه دال عليه. وقد أقر به أيضاً المشركون في العبادة، فيلزمهم بما^(١) أقروا به على ما أنكروه.

وخص الله المشارق بالذكر، لدلائها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها، فهذا قال: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدةين العظيمتين:

إحداها: كونها زينة للسماء، إذ لولاها، لكانت السماء جرمًا مظلمًا لا ضوء فيها، ولكن زينتها فيها لتستثير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل.

والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان مارد، يصل بتمرده إلى استماع الملأ الأعلى، وهم الملائكة، فإذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب * من كل جانب * طرداً لهم، وإبعاداً عن استماع ما يقول الملأ الأعلى.



صلصال من حمًا مسنون ﴿١٢﴾

الأولون ﴿٢١﴾

ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يحيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم^(١)، فقال: ﴿قل نعم﴾ سبعتون، أنتم وآباؤكم الأولون ﴿وأنتم داخرون﴾ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله.

﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿فإذا هم﴾ مبعوثون من قبورهم ﴿ينظرون﴾ كما ابتدئ خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلا، وفي تلك الحال، يظهرن الندم والحزى والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ فقد أقرروا بما كانوا في الدنيا به يستهزون.

فيقال لهم: ﴿هذا يوم الفصل﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

﴿٢٢-٢٦﴾ ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون﴾ من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴿وقفوههم﴾ إنهم مسؤولون ﴿ما لكم لا تنصرون﴾ بل هم اليوم مستسلمون ﴿أي﴾ إذا أحضروا يوم القيامة، وعاینوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿احشروا الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، ﴿وأزواجهم﴾ الذين من جنس عملهم، كل يضم إلى من يمانسه في العمل.

﴿وما كانوا يعبدون﴾ من دون الله، من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجعوهم جميعاً ﴿فاهدوهم﴾ إلى صراط الجحيم ﴿أي﴾ سوقوهم سوقاً عنيفاً إلى جهنم، وبعد ما يتعين أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل

ويستخرون ﴿وإذا ذكروا لا يذكرون﴾ وإذا رأوا آية يستسخرون ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا ليعبثون ﴿أو آباؤنا الأولون﴾ قل نعم وأنتم داخرون ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ فإذا هم ينظرون ﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴿بل عجب﴾ يا أيها الرسول وأيها الإنسان، من تكذيب من كذب بالبعث، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب واستغراب، لأنه ما لا يقبل الإنكار، ﴿و﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه، أنهم يستخرون ﴿من جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى زادوا السخرية بالقول الحق﴾

﴿و﴾ من العجب أيضاً أنهم إذا ذكروا ما يعرفون في فطرتهم وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظره إليه لا يذكرون ﴿ذلك﴾، فإن كان جهلاً، فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة، حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً وعناداً، فهو أعجب وأغرب: ومن العجب أيضاً أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال والباب الألباء، يسخرون منها ويعجبون. ومن العجب أيضاً، قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها، وهو الحق، في رتبة أخص الأشياء وأجهرها.

ومن العجب أيضاً، قياسهم قدرة رب الأرض والسموات، على قدرة آدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعاداً وإنكاراً: ﴿إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا ليعبثون﴾ أو آباؤنا

﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي: دائم، معد لهم، لتوردهم عن طاعة ربهم. ولولا أنه [تعالى] استثنى، لكان ذلك دليلاً على أنهم لا يسمعون شيئاً أصلاً، ولكن قال: ﴿إلا من خبط الخاطئة﴾ أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة، ﴿فأتبعه شهاب ثاقب﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فيقطع خير السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مئة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء. ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فاستفتهم﴾ أي: أسأل منكري خلقهم بعد موتهم، ﴿أهم أشد خلقاً﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقاً وأشق؟ أم من خلقنا من [هذه] المخلوقات؟ فلا بد أن يقرروا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

فيلزمهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ أي: قوي شديد كقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من

دار البرار، يقال: ﴿وقفوههم﴾ قبل أن
توصلوهم إلى جهنم ﴿إنهم مسؤولون﴾
عما كانوا يفترونه في الدنيا، يظهر على
رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

فيقال لهم: ﴿مالك لا تنصرون﴾
أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما
الذي طرفكم لا ينصر بعضكم بعضاً،
ولا يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم
تزعمون في الدنيا، أن آلهتكم ستدفع
عنكم العذاب وتغيثكم وتشفع لكم
عند الله، فكأنهم لا يجيئون هذا
السؤال، لأنهم قد علاهم الذل
والصغار، واستسلموا للعذاب النار،
وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم
ينطقوا.

ولهذا قال: ﴿بل هم اليوم
مستسلمون﴾.

﴿٢٧ - ٣٩﴾ ﴿وأقبل بعضهم على
بعض يتساءلون﴾ قالوا إنكم كنتم
تأتوننا عن اليمين ﴿قالوا بل لم تكونوا
مؤمنين﴾ وما كان لنا عليكم من
سلطان بل كنتم قوماً طاغين ﴿فحق
علينا قول ربنا إنا لذائقون﴾ فأغوياناكم
إنا كنا غاوين ﴿فإنهم يومئذ في
العذاب مشتركون﴾ إنا كذلك نفعل
بالمجرمين ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم
لا إله إلا الله يستكبرون﴾ ويقولون
أدنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴿بل
جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ إنكم
لذائقوا العذاب الأليم ﴿وما تجزون إلا
ما كنتم تعملون﴾ لما جمعوا هم
وأزواجهم وآلهتهم، وهدوا إلى صراط
الجهنم، ووقفوا، فسئلوا، فلم
يجيبوا، أقبلوا فيما بينهم، يلوم بعضهم
بعضاً على إضلالهم وضلالهم، فقال
الأتباع للمتبعين الرؤساء: ﴿إنكم
كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ أي: بالقوة
والغلبة، ففضلونا، ولولا أنتم لكنا
مؤمنين.

﴿قالوا﴾ لهم: ﴿بل لم تكونوا
مؤمنين﴾ أي: ما زلتم مشركين، كما
نحن مشركون، فأبي: شيء فضلكم
علينا؟ وأي: شيء يوجب لومنا؟

﴿والحال أنه﴾ ما كان لنا عليكم من
سلطان ﴿أي: قهر لكم على اختيار
الكفر﴾ بل كنتم قوماً طاغين ﴿متجاوزين للحد﴾.

﴿فحق علينا﴾ نحن وإياكم ﴿إنا
لذائقون﴾ العذاب، أي: حق علينا
قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق
العذاب، ونشترك في العقاب ﴿ف﴾
لذلك ﴿أغوياناكم إنا كنا غاوين﴾ أي:
دعوناكم إلى طريقنا التي نحن عليها،
وهي الغواية، فاستجبتم لنا،
فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ﴾
يوم القيامة ﴿في العذاب مشتركون﴾
وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب
جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على
الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائهم،
ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نفعل
بالمجرمين﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ
الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿إنهم
كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله﴾
فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه
﴿يستكبرون﴾ عنها وعلى من جاء بها.

﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إنا
لتاركوا آلهتنا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن
وآبائنا ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾
يعنون عمداً ﷺ. فلم يكفهم
- قبحهم الله - الإعراض عنه،
ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه
بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً
مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف
الشعر والشعراء، ولا وصفه
وصفهم، وأنه أعقل خلق الله،
وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم:
﴿بل جاء﴾ محمد ﴿بالحق﴾ أي: بحجته
حق، وما جاء به من الشرع والكتاب
حق. ﴿وصدق المرسلين﴾ أي:
وحجته صدق المرسلين [فلولا حجته
وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو
آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم
أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم
العهد والميثاق، لئن جاءهم لؤمنن به

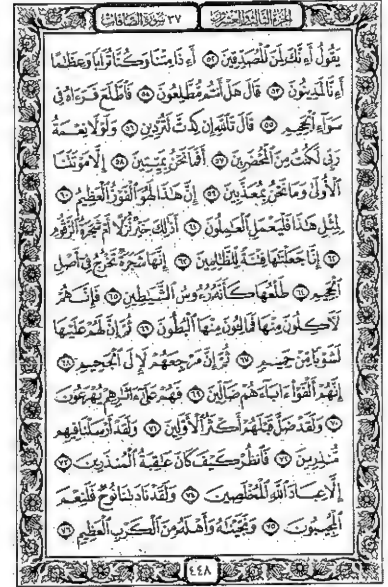
ما كنتم تصرون ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾
على بعض رءسائهم ﴿قالوا﴾ كنتم تأتوننا عن اليمين
﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾
بل كنتم قوماً طاغين ﴿فحق علينا﴾ نحن وإياكم
﴿إنا لذائقون﴾ العذاب، أي: حق علينا
قدرة ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق
العذاب، ونشترك في العقاب ﴿ف﴾ لذلك
﴿أغوياناكم إنا كنا غاوين﴾ أي: دعوناكم
إلى طريقنا التي نحن عليها، وهي الغواية،
فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.
قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ﴾ يوم القيامة
﴿في العذاب مشتركون﴾ وإن تفاوتت مقادير
عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا
على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائهم،
ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾
ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز
النهاية، فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم
لا إله إلا الله﴾ فدعوا إليها، وأمروا بترك
إلهية ما سواه ﴿يستكبرون﴾ عنها وعلى من
جاء بها. ﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إنا
لتاركوا آلهتنا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن
وآبائنا ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون
عمداً ﷺ. فلم يكفهم - قبحهم الله -
الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى
حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً
مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر
والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل
خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أمهم،
فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين
قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو
قدر عدم حجته، وهم قد أخبروا به،
لكان ذلك قادحاً في صدقهم.
وصدق أيضاً المرسلين، بأن جاء بما
جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن
بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم
وشرعهم.

ولما كان قولهم السابق: ﴿إنا
لذائقون﴾ قولاً صادراً منهم، يحتمل أن
يكون صدقاً أو غيره، أخبر تعالى
بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير
الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه
تعالى، فقال: ﴿إنكم لذائقوا العذاب
الأليم﴾ أي: المؤلم الموجه، ﴿وما
تجزون﴾ في إذافة العذاب الأليم ﴿إلا
ما كنتم تعملون﴾ فلم نظلمكم، وإنما
عدلنا فيكم؟

ولما كان هذا الخطاب لفظه عاماً،
والمراد به المشركون، استثنى تعالى
المؤمنين فقال:

﴿٤٠ - ٤٩﴾ ﴿إلا عباد الله
المخلصين﴾ أولئك لهم رزق معلوم ﴿في
جنات النعيم﴾ على سرر متقابلين ﴿يطاف
عليهم بكأس من معين﴾ بيضاء لذة
للشاربين ﴿لا فيها غول ولا هم عنها



ينزفون * وعندهم قاصرات الطرف
عين * كأنهن بيض مكنون *

يقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم غير ذائقى العذاب الأليم، لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برخته، وجاد عليهم بلطفه، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه، فسرّه بقوله: ﴿فَوَاكِهَ﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تتفكه بها النفس، للذتها في لونها وطعمها. ﴿وَهُمْ مَكْرُومُونَ﴾ لا مهانون محتقرون، بل معظمون مجلون موقرون، قد أكرم بعضهم بعضاً، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهتوونهم ببلوغ أهنا الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي: الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعتها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل خلل بنعيمها، من جميع المكدرات والمنقصات.

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضاً، أنهم على ﴿سُرُورٍ﴾ وهي المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية

الفاخرة، المخرفة المجملة، فهم متكثرون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على تقابل قلوبهم، وتأدب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم بالأسربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المخترم بالمسك، وهي كاسات الخمر.

وتلك الخمر، تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿بيضاء﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ يتلذذ شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة من غول العقل وذهايه ونزفه وتنزف مال صاحبها، وليس فيها صداد ولا كدر، فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم، وعموم النعيم وتفاضيله داخلية في قوله: ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم تشتاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم فقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ عَيْنٍ﴾ أي: وعند أهل دار النعيم، في محلاتهم القرية، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف، إما أنها قصرت طرفها على زوجها، لعقتها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكمالها، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها، وقصر الطرف أيضاً، يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح، و[كل] هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً، محبة لا يطمح إلى غيره، وشدة غفقتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباعد

ولا تشاحن، وذلك لانقفاء أسبابه. ﴿عَيْنٍ﴾ أي: حسن الأعين جميلاً، ملاح الحدق، ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ أي: الحور. ﴿بَيضٌ مَكْنُونٌ﴾ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفتهن وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين.

﴿٥٠ - ٦١﴾ ﴿فَاقْبَلْ مِنْهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ﴾ قال قائل منهم إني كان لي قريين * يقول إنك لمن المصدقين * إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون * قال هل أنتم مطمئنون * فاطلع فرأه في سواء الجحيم * قال تالله إن كنت لثردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين * أما نحن بميتين * إلا موتنا الأولى وما نحن بمعذبين * إن هذا لهُوَ الفوز العظيم * لمثل هذا فليعمل العاملون * لما ذكر تعالى نعيمهم وتام سرورهم، بالمأكل والمشرب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارتحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك بهم، إلى أن قال قائل منهم: ﴿إني كان لي قريين﴾ في الدنيا ينكر البعث، ويؤمنني على تصديقي به، و ﴿يقول﴾ لي ﴿أأنك لمن المصدقين﴾ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون * أي: مجازون بأعمالنا؟ أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا تراباً وعظاماً، أننا نبعث ونعاد، ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا؟!!

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري، أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمناً مصدقاً، وهو ما زال مكذباً منكراً للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب. ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْمَئِنُونَ﴾ لنظر إليه، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه، ويكون ذلك رأي عين؟ والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم

ببعض، وموافقة بعضهم بعضاً، أنهم
أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له،
للاطلاع على قبره، ﴿فاطلع﴾ فرأى
قبره ﴿في سواء الجحيم﴾ أي: في
وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد
أحاط به.

ف ﴿قَالَ﴾ له لائماً على حاله،
 وشاكراً لله على نعمته أن نجاه من
 كيدِهِ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لِتَرْدِيَنِي﴾ أي: **أَيُّ**
 تهلكني بسبب ما أدخلت علي من الشَّبه
 بزعمك، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ على أن
 ثبتني على الإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ
 الْمَحْضَرِّينَ﴾ في العذاب معك ﴿أَفَمَا
 نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ إلاموتنا الأولى وما
 نحن بمبعذين ﴿أَيُّ﴾ يقول المؤمن
 مبتهجاً بنعمة الله على أهل الجنة
 بالخلود الدائم فيها والسلامة من
 العذاب استفهام بمعنى الإنبات
 والتقريب أي: يقول لقرينه المعبذ:
 أفترحم أننا لسنا نموت بنوى الموتة
 الأولى، ولا نبعث بعدها ولا
 عذاب ^(١)

وقوله: ﴿فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يتساءلون ﴿وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلبثون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والاشكال.

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوق العاملين، وحثهم على العمل، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، وانذع عنهم به كل مخذوم ومكروه، فهل فوز يطلب

فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات، وفرحوا بقربه، وتعموا بمعرفته، واستروا برؤيته، وطربوا للكلامه؟

﴿مَثَلُ هَذَا الْقَوْمِ الْغَافِلُونَ﴾ فهو
أحق ما أنققت فيه نفائس الأنفاس
وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس،
والحسرة كل الحسرة، أن يمضي على
الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشغول
بالعمل الذي يقرب لهذه الدار، فكيف
إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟!
﴿٦٢ - ٧٤﴾ ﴿أَذِلَّكَ خَيْرٌ لَّامٍ﴾

شجرة الزقوم * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً
لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّمَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ
الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ
الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَكَالُونَ مِنْهَا فَمَالَتْ
مِنْهَا الْبُطُونُ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا
مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى
الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ آلَفُوْا أَبَاءَهُمْ ضَالِينَ *
فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ مُّبْرِعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ
قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
فِيهِمْ مُّذَرِّينَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُذَرِّينَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ ﴿١٠٠﴾
﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ﴾ أَي: ذَلِكَ النِّعَمِ الَّذِي
وَصَفَنَاهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ، أَمْ الْعَذَابُ
الَّذِي يَكُونُ فِي الْجَحِيمِ مِنْ جَمِيعِ
أَصْنَافِ الْعَذَابِ؟ فَأَي: الطَّعَامِينَ أَوَّلِي؟
الَّذِي وَصَفَ فِي الْجَنَّةِ ﴿أَمْ﴾ طَعَامُ أَهْلِ
النَّارِ؟ وَهُوَ «شَجَرَةُ الزُّقُومِ» * إِنَّمَا
جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً ﴿أَي: عَذَابًا وَتَكَالًا
لِّلظَّالِمِينَ﴾ أَنْفَسَهُم بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي:
﴿إِنَّمَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ
الْجَحِيمِ﴾ أَي: وَسَطُهُ، فَهَذَا تَخْرُجُهَا،
وَمَعْدِنَهَا أَشْرُ الْمَعَادِنِ وَأَسْوَرُهَا، وَشَرُّ
الْمَغْرَسِ يَدُلُّ عَلَى شَرِّ الْغَرَاثِ وَخُسْتِهِ،
وَلِهَذَا نَبِهْنَا اللَّهُ عَلَى شَرِّهَا بِمَا ذَكَرَ آيُنَ
تَتَبَعَ، وَبِمَا ذَكَرَ مِنْ صِفَةِ ثَمَرِهَا.

وأنا كـ ﴿رؤوس الشياطين﴾
فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما
تفعل في أجوافهم ويطوهم، وليس
لهم عنها مندوحة ولا معدل^(١)

[illegible]

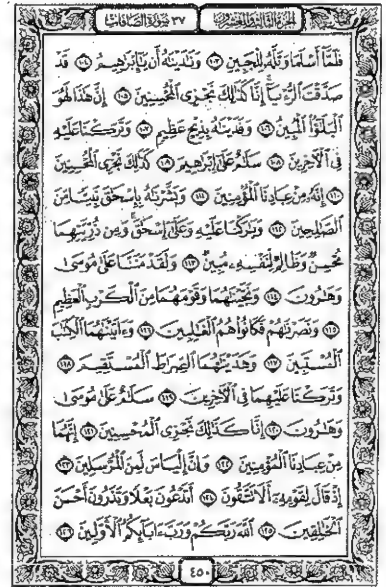
ولهذا قال: ﴿فَانْهَيْهُمْ لِأَكْلُوْنَ مِنْهَا فَمَا لَئِنْ أَكَلُوا مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فهذا طعام أهل النار، فيئس الطعام طعامهم، ثم ذكر شرايهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنْ لَهُمْ عَلَيْهَا أَمْرٌ﴾ أي: على أن هذا الطعام ﴿لَنُشَوِّبَهُ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء جاراً، قد انتهى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعْ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِنْ مَرَّ بِهِمْ﴾ أي : ما لهم
ومقرهم ﴿وَمَا وَاهُمْ﴾ ﴿لِلْإِلَهِ الْجَحِيمِ﴾
يَذُوقُوا مِنْ عَذَابِهِ الشَّدِيدِ وَحَرِّهِ
الْعَظِيمِ ، مَا لَيْسَ عَلَيْهِ مَزِيدٌ مِنَ الشَّقَاءِ
وَكأنه قيل : ما الذي أُرسلهم إلى
هذه الدار؟ فقال : ﴿إِنَّمَا أَفْتُوا﴾ أي :
وجدوا ﴿أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ فهم على
آثَارِهِمْ يَسْرِعُونَ ؟ أي : يسرعون في
الضلال ، فلم يلتفتوا إلى ما دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ
الرَّسَلُ ، وَلَا إِلَى مَا حَذَّرَتْهُمْ عَنْهُ
الْكِتَابُ ، وَلَا إِلَى أَقْوَالِ النَّاصِحِينَ ، بَلْ
عَارَضُوهُمْ بِأَن قَالُوا : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَهْلَ الْأَرْضِ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ﴾
هؤلاء المخاطبين ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾
وقليل منهم آمن واعتدى
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾

(١) ما بين الخاصرتين زيادة من: ب، وما بعد الحاصرة الثانية شطب عليه فيها. ورأيت إبقاء لعدم شطبه في: أ.

(۲) کذا فی: ب، وقیم: أ: معین.



ينذرونهم عن غيهم وضلالهم،
فانظر كيف كان عاقبة المذنبين
كانت عاقبتهم الهلاك والخزي
والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا
على ضلالهم، فيصيبهم مثل ما
أصابهم.

ولما كان المندرون ليسوا^(١) كلهم
ضالين، بل منهم من آمن وأخلص
الذين لله، استثناه الله من الهلاك
فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي:
الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته
لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت
حميدة.

ثم ذكر أنموذجاً من عواقب الأمم
المكذبة، فقال:

﴿٧٥-٨٢﴾ ولقد نادانا نوح
فلنسمع الجييون * ونجينا وأهله من
الكراب العظيم * وجعلنا ذريته هم
الباقين * وتركنا عليه في الآخرين *
سلام على نوح في العالمين * إنا كذلك
نجزي المحسنين * إنه من عبادنا
المؤمنين * ثم أغرقتنا الآخرين * يخبر
تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه
السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه
إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزددهم
دعاؤه إلا فراراً، أنه نادى ربه فقال:
﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين
دياراً﴾ الآية.

وقال: ﴿رب أنصرك على القوم
المفسدين﴾ فاستجاب الله له، ومدح
تعالى نفسه فقال: ﴿فَلْيَنْفَعِ الْغُثَيَّوْنَ
لِدَعَاءِ الدَّاعِينَ، وَنَسْمَاعِ الْبَغِيَّةِ
وَتَضَرُّعِهِمْ، أَجَابَهُمْ بِإِجَابَةٍ طَابِقٍ مَا
سَأَلَ، نَجَاةً وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ،
وَأَغْرَقَ جَمِيعَ الْكَافِرِينَ، وَأَبْقَى نَسْلَهُ
وَذَرِيَّتَهُ مُتَسَلِّسِينَ، فَجَمِيعَ النَّاسِ مِنْ
ذُرِّيَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَ لَهُ نَسَباً
حَسَباً مُسْتَمِراً إِلَى وَقْتِ الْآخِرِينَ،
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ عَمَسَنَ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ،
عَمَسَنَ إِلَى الْخَلْقِ، وَهَذِهِ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي
الْمُحْسِنِينَ، أَنْ يَنْشُرَ لَهُمْ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى
حَسَبِ إِحْسَانِهِمْ.

ودل قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنَّ الْإِيمَانَ أَرْفَعَ مَنَازِلَ
الْعِبَادَةِ، وَأَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى جَمِيعِ شَرَائِعِ
الْدِينِ وَأَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ مَدَحَ
بِهِ خَوَاصَّ خَلْقِهِ.

﴿٨٣-١١٣﴾ ﴿وَأَنْ مِنْ شِيعَتِهِ
لِإِبْرَاهِيمَ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ، أَيْ: وَإِنْ
مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَنْ هُوَ
عَلَى طَرِيقَتِهِ فِي النَّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، وَدَعْوَةِ
الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ، وَاجَابَةِ الدَّعَاءِ، إِبْرَاهِيمَ
الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مِنَ الشَّرْكِ وَالشُّبْهِ،
وَالشَّهَوَاتِ الْمَانِعَةِ مِنْ تَصَوُّرِ الْحَقِّ
وَالْعَمَلِ بِهِ، وَإِذَا كَانَ قَلْبُ الْعَبْدِ
سَلِيماً، سَلِمَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وَحَصَلَ لَهُ
كُلُّ خَيْرٍ، وَمِنْ سَلَامَتِهِ، أَنَّهُ سَلِيمٌ مِنْ
غَشِّ الْخَلْقِ وَحَسَدِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ، وَلِهَذَا نَصَحَ الْخَلْقُ
فِي اللَّهِ، وَبَدَأَ بِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ، فَقَالَ: ﴿إِذْ
قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هَذَا
اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى^(٢) الْإِنْكَارِ، وَالزَّامُ لَهُمْ
بِالْحُجَّةِ.

﴿أَفَكُلَّ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ﴾ أَيْ:
أَتَعْبُدُونَ [مِنْ دُونِهِ] آلِهَةً كَذِباً، لَيْسَتْ
بِآلِهَةٍ، وَلَا تَنْصَلِحُ لِلْعِبَادَةِ، فَمَا ظَنُّكُمْ
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَفْعَلَ بِكُمْ وَقَدْ عَبَدْتُمْ
مَعَهُ غَيْرَهُ؟ وَهَذَا تَرْهِيْبٌ لَهُمْ بِالْجَزَاءِ
بِالْعِقَابِ عَلَى الْإِقَامَةِ عَلَى شُرْكِهِمْ.
وَمَا الَّذِي ظَنَنْتُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِنْ

النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء.
فأراد عليه السلام أن يكسر
أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانتهز
الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى
عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فَنَظَرَ
نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فقال إني سقيم.
ففي الحديث الصحيح: ﴿لَمْ يَكْذِبْ
إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ:
قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله عن زوجته ﴿إِنَّمَا
أَخْتِي﴾، والقصد أنه تخلف عنهم، ليتم
له الكيد بالكهنة ﴿فَإِذَا هَذَا﴾ تولوا عنه
مدبرين ﴿فَلَمَّا وَجَدَ الْفُرْصَةَ﴾ ﴿فَوَاقَ
إِلَى الْكَهَنَةِ﴾ أَيْ: أَسْرَعَ إِلَيْهَا عَلَى وَجْهِ
الْخَفَةِ وَالْمَرَاوَعَةِ، ﴿فَقَالَ﴾ مَهْكُمْ بِهَا
﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْتَقِرُونَ
أَي: كَيْفَ يَلِيقُ أَنْ تُعْبَدَ، وَهِيَ أَنْقَصُ
مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَأْكُلُ أَوْ تَكْلَمُ؟ فَهَذِهِ
جَهَادٌ لَا تَأْكُلُ وَلَا تَكْلَمُ. ﴿فَوَاقَ عَلَيْهِمْ
ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ أَيْ: جَعَلَ يَضْرِبُهَا
بِقُوَّتِهِ وَنَشَاطِهِ، حَتَّى جَعَلَهَا جِذَاذاً، إِلَّا
كَبِيراً لَهُمْ، لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ،
﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ أَيْ: يَسْرِعُونَ
وَيَهْرِعُونَ، أَيْ: يَزِيدُونَ أَنْ يَوْقِعُوا بِهِ،
بَعْدَمَا بَحِثُوا وَقَالُوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا
بِأَلْهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.
وقيل لهم: ﴿سَمِعْنَا قَتْلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
يَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ يَقُولُ: ﴿ثَالِثُ الْكُذِبِ
أَصْنَامُكُمْ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مَدْبِرِينَ﴾
فَوَبَّخُوهُ وَلَا مَوْهَ، فَقَالَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا
يَنْتَقِرُونَ﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا
إِنْكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى
رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ
يَنْتَقِرُونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ
الآيَةُ. وَ ﴿قَالَ﴾ هُنَا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا
تَنْحِتُونَ﴾ أَيْ: تَنْحِتُونَهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَتَصْنَعُونَهُ؟ كَيْفَ تَعْبُدُونَهُمْ، وَأَنْتُمْ
الَّذِينَ صَنَعْتُمُوهُمْ، وَتَشْرِكُونَ
الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ الَّذِي ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً أَيْ:
عَالِياً مَرْتَفِعاً، وَأَوْقِدُوا فِيهَا النَّارَ

(٢) في ب: على وجه.

(١) كذا في: ب، وفي أ: ليس.

﴿فألقوه في الجحيم﴾ جزاء على ما فعل من تكسير ألتهيم.

﴿فأرادوا به كيداً﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم، ﴿قال إني ذاهب إلى ربي﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام. ﴿سبيهم﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوني عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾.

﴿رب هب لي﴾ ولداً يكون ﴿من الصالحين﴾ وذلك عندما أيس من قومه ولم يرَ فيهم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته وبعد مماته، فاستجاب الله له وقال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده الإشارة ﴿بإسحاق﴾ ولأن الله تعالى قال في بشرناه بإسحاق ﴿فبشرناها﴾ بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿فدل على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عمن جنى﴾.

﴿فلما بلغ الغلام معه السمي﴾ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًا يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا^(١) الأنبياء وحي، ﴿فانظر ماذا ترى﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه، ﴿قال﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بالولد: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿ستجدني إن﴾

شاء الله من الصابرين﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فلما أسلما﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وتله للبحرين﴾ أي: تل إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿ونادينا﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أن يا إبراهيم﴾ قد صدقت ﴿أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه، ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

﴿إن هذا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لهو البلاء المبين﴾ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبيب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفى وده ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدم حب الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلماذا قال: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ وفديناه بذبح عظيم﴾ أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم

القيامة.

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلاماً على إبراهيم﴾ أي: وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه [فيه] محبوب معظم مثني عليه.

﴿سلام على إبراهيم﴾ أي: تحيته عليه كقوله: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾.

﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه، أن نفرح عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ هذه الإشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً، والله أعلم.

﴿١١٤ - ١٢٢﴾ ﴿ولقد مننا على﴾

(١) كذا في: ب، وفي: أ، ورأي.

أي: من ربه مغاضباً له، ظاناً أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما دُكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقبض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أبقى لجأ ﴿إلى الفلك المشحون﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكانهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن من قرع وغلب، ألقي في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

فلما اقترعوا أصابت القرعة يونس ﴿فكان من المدحضين﴾ أي: المغلوبين، فألقي في البحر ﴿فالتقمه الحوت وهو﴾ وقت التقامه ﴿مليماً﴾ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين﴾.

﴿لئلي في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد. ﴿فنبذناه بالعماء﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعماء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿وهو متقيم﴾ أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ المعوط من البياض.

﴿وأنبأنا عليه شجرة من يقطين﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها بادرة باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية. ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: الذين أخلصهم الله ومن عليهم باتباع نبيهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله جزيل الثواب. ﴿وتركنا عليه﴾ أي: على إلياس ﴿في الآخرين﴾ ثناء حسناً، ﴿سلام على إل ياسين﴾ أي: تحية من الله ومن عباده عليه.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٨﴾ ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾ إذ نجيناه وأهله أجمعين. ﴿إلا صجوراً في الغابرين﴾ ثم دمرنا الآخرين. ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ وبالليل أفلا تعقلون. وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، ونبيه عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً فنجوا.

﴿إلا عجوراً في الغابرين﴾ أي: الباقين المذبذبين، وهي زوجة لوط لم تكن على دينه. ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ بأن قلنا عليهم ديارهم ﴿فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ حتى همدوا وخذوا.

﴿وإنكم لتمرون عليهم﴾ أي: على ديار قوم لوط ﴿مصبحين﴾ وبالليل. أي: في هذه الأوقات يكثرت تردكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية. ﴿أفلا تعقلون﴾ الآيات والعبر، وتنزجرون عمّا يوجب الهلاك؟

﴿١٣٩ - ١٤٨﴾ ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى آخر القصة. وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إذ أبقى﴾

موسى وهارون ﴿إلى آخر القصة يذكر تعالى مثته على عبده ورسوله موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواظف وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومن عليهما بسلوكه.

﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ سلام على موسى وهارون ﴿أي: أبقى عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين﴾ ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنهما من عبادنا المؤمنين.

﴿١٢٣ - ١٣٢﴾ ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ إذ قال لقومه ألا تتقون. ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾ الله ربكم ورب آبائكم الأولين. ﴿فكذبوه فأنهم لمحضرون﴾ إلا عباد الله المخلصين. ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على إل ياسين. ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنه من عبادنا المؤمنين. ﴿يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له «بعل»، وتركهم عبادة الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورياهم فأحسن تربيتهم، وأدرّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة الله من هذا شأنه، إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم!! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغف!!

﴿فكذبوه﴾ فيما دعاهم إليه، فلم يتقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿فأنهم لمحضرون﴾ أي: يوم القيامة



الأولين، لأخلصنا لله العباد، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

وهم كذبة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق، فسوف يصلحهم العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وخنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر يقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عن من عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ من يحل به النكال، فإنه سيحل بهم. ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: نزل عليهم، وقريباً منهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال. ثم كرر الأمر بالتولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من

أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ أي: تنزه وتعالى ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ [أي: الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصقونه به، وسلام على المرسلين] لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات.

﴿والحمد لله رب العالمين﴾ الألف واللام للاستغراق، فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربي بها العالمين، وأدر عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكنهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى، فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. [وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة].

تم تفسير سورة الصفات

في ٦ شوال سنة ١٣٤٣هـ على يد جامعهم وكاتبه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المجلد السابع من تيسير الكريم المنان في تفسير آيات القرآن لجامعهم: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

تفسير سورة ص وهي مكية

﴿١- ١١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاق * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب * وانطلق للآلئ منهم أن أمشوا واضربوا على آلئكم إن هذا

لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أنزل عليه الذكر من بينا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب الوهاب * أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرشقوا في الأسباب * جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب * هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن، وحال المكذبين به معه ومع من جاء به، فقال: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه.

وهنا لا يحتاج إلى ذكر القسم عليه، فإن حقيقة الأمر، أن القسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن، فإذا كان القرآن بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقينه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه.

فهدي الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به ويمن أنزله، وصار معهم ﴿عِزَّةً وَشِقَاقٍ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاقة وخصامة في رده وإبطاله، وفي القدر بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ولكن ﴿لَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فليخذ هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم، فيصيبهم ما أصابهم.

أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

﴿٣٠ - ٤٠﴾ ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾ ردها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ والشياطين كل بناء وغواص ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ لما أثنى تعالى على داود، وذكر ما جرى له ومنه، أثنى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ أي: أنعمنا به عليه، وأقرنا به عيته.

﴿نعم العبد﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إنه أواب﴾ أي: رجأع إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمجبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء.

ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات، أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائع، وجمال معجب، خصوصاً للمحتاج إليها كالمملوك، فما زالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديم حب الله على حب غيره: ﴿إني أحببت حب الخير﴾ وضمن «أحببت» معنى «أثرت» أي: أثرت حب الخير، الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد الخيل. ﴿عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾

النار ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴿يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً، أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة. ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾ برهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن السبعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر.

ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأ الله.

﴿ليدبروا آياته﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركنته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على

﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وإن كثيراً من الخطاء ليبغي بعضهم على بعض﴾ لأن الظلم من صفة النفوس. ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمتنعهم من الظلم. ﴿وقليل ما هم﴾ كما قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾. ﴿وظن داود﴾ حين حكم بينهما ﴿أنما فتناه﴾ أي: اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه ﴿فاستغفر ربه﴾ لما صدر منه، ﴿وخز راكم﴾ أي: ساجداً ﴿وأناب﴾ لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿ففقرنا له ذلك﴾ الذي صدر منه، وأكرمته الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ أي: منزلة عالية، وقربة منا، ﴿وحسن مآب﴾ أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فقال تعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع عنه، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه، إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، ﴿ولا تتبع الهوى﴾ فتميل مع أحد، لقراءة أو صداقة أو محبة، أو بغض لآخر ﴿فيضلك﴾ الهوى ﴿عن سبيل الله﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم، ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ خصوصاً المتعمدين منهم، ﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من

بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمتنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو «ياغ علي» لقولهما: «خصمان بغى بعضنا على بعض».

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه، لا يغضب ولا يشتمن، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشتمن ولم يغضب، ولم يشنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغى بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعنصل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لذنوبهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطير والبهم، يجاوبنه إذا رجّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفياه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويأدرهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام [كان] في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه

رُدُّوها عليَّ فردوها ففطقت فيها مسحاً بالسوق والأعناق أي: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

«ولقد فتنا سليمان» أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، «وألقينا على كرسیه جسداً» أي: شيطاناً قضى الله وقدر أن يجلس على كرسی ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، «ثم أناب» سليمان إلى الله تعالى وتاب.

ف: «قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب» فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاة وأوثقه. وقلنا له: «هذا عطاؤنا» فقر به عينا «فما شئت» على من شئت، «أو أمسك» من شئت «بغير حساب» أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا سليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: «وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب» أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقربروا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا في هذا الموضع لما ذكر الله ما ذكر من أذى قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيسبى به.

قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزیز على الكريم الغفار.

ومنها : أن الحكم بين الناس مرتبة دينية ، تولاهـا رسل الله وتخصـاص خلقه ، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى ، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمر الشرعي ، والعلم بصورة القضية المحكوم بها ، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي ، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم ، ولا يجز له الإقدام عليه .

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل حجة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده، أن يهب له ولداً صالحاً، فإن كان عالماً، كان نوراً على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان
ومدحه في قوله: ﴿نعم العبد إنه
أواب﴾

ومنها: كثرة خير الله ونزله بعباده،
أن يمتن عليهم بصلاح الأعمال ومكازم
الأخلاق، ثم يشتم عليهم بها، وهو
المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد
عن الله، فإنه مشرؤوم مذموم، فليُفَارِقْهُ
وليُقْبَلْ على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة «مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِلَّهِ عَوضَهُ اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ» فليمان عليه السلام عَمَّرَ الجهاد الصائفات المحبوبة للنفوس، تقدماً لمحبة الله، فعوضه الله خيراً من ذلك، بأن سحَّرَ له الريح الرخاء اللينة، التي تجزي بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر

ورواحها شهر، وسخر له الشياطين،
أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر
عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام، كان ملكاً نبياً، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل.

﴿٤١-٤٤﴾ ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾

إذا نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب
وعذاب * اركض بركلك هذا مفتسل
بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم
معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب *
وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحث
إننا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴿١٠﴾
أي: ﴿واذكر﴾ في هذا الكتاب ذي
الذكر ﴿عبدنا أيوب﴾ بأحسن الذكر،
وأنن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه
الضر، فصبر على ضره، فلم يشك
لغيره، ولا لجأ إلا إليه.

فنادى ربه داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: رَبِّ **وَإِنِّي مُسْنِي** الشَّيْطَانُ بِتَضْيِبٍ وَعَذَابٍ **أَيُّ** بَأْسٍ مَشَقٍّ مُتَعَبٍ مُعَذِّبٍ، وَكَانَ سُلْطَ عَلَى جِسَدِهِ تَفْطِخُ فِيهِ حَتَّى تَقْرَحَ، ثُمَّ تَفْتِخُ بَعْدَ ذَلِكَ وَاسْتَدْبَه الْأَمْرَ، وَكَذَلِكَ هَلَكَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ.

فَقِيلَ لَهُ: «إِرْكَضْ بِرَجْلِكَ» أَي: اضْرِبْ الْأَرْضَ بِهَا، لِيَبْعَ لَكَ مِنْهَا عَيْنَ تَغْتَسِلُ مِنْهَا وَتَشْرَبَ، فَيَذْهَبَ عَنْكَ الضَّرُّ وَالْأَذَى، فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَذْهَبَ عَنْهُ الضَّرُّ، وَشَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿ووهبنا له أهله﴾ قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿ومثلهم معهم﴾ في الدنيا، وأغناهم الله، وأعطاهم مالا عظيماً ﴿رحمة منا﴾ بعدنا أيوب، حيث صبر فأنبأهم من رحمتنا ثواباً عاجلاً وآجلاً ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾ أي: ولتذكر أولو العقول بخالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر، أن الله تعالى يشبه ثواباً عاجلاً

[illegible]

وَأَجَلًا، وَيَسْتَجِيبُ دَعَاءَهُ إِذَا دَعَاهُ.

﴿وَحَدَّ يَدَكَ ضَغْفًا﴾ أي: حزمة شماريخ (فأضرب به ولا تحتث). قال المفسرون: وكان في مرضه وضربه قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه الله، ليضربها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته سالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فافتأه أن يضربها بضغت فيه مائة شمارخ ضربة واحدة، فبر في يمينه.

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ أي: أيوب
﴿صَابِرًا﴾ أي: ابتليناه بالضر العظيم،
فصبر لوجه الله تعالى. ﴿نَعَمْ الْعَبِيدُ﴾
الذي كمل مراتب العبودية، في حال
السراء والضراء، والشدة والرخاء.
﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: كثير الرجوع
إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية،
كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة
والتأله.

﴿٤٥-٤٧﴾ واذكر عبدنا
إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي
والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة
ذكرى الدار * وإنهم عندنا لمن
المصطفين الأخيار * يقول تعالى:
﴿واذكر عبدنا﴾ الذين أخلصنا
العبادة ذكراً حسناً، ﴿إبراهيم﴾ الخليل
﴿و﴾ ابنه ﴿إسحق﴾ و﴿بن﴾ ابنه
﴿يعقوب﴾ أولي الأيدي * أي: القوة على
عبادة الله تعالى ﴿والأبصار﴾ أي:

﴿هَذَا مَا توعِدُونَ﴾ أيها المتقون
﴿ليوم الحساب﴾ جزاء على أعمالكم
الصالحة.

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا﴾ الذي أوردناه على
أهل دار النعيم ﴿مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ أي:
انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع
الأوقات، متزايد في جميع الآتات.

وليس هذا يعظم على الرب
الكريم، الرؤوف الرحيم، البر
الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف
الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل
المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم
التواتر، الذي لا تحصى نعمه،
ولا يحاط ببعض بزه.

﴿٥٥ - ٦٤﴾ ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ
لَشَرَّ مَأْبٍ﴾ جهنم يصلونها فيئس
المهاد ﴿هَذَا فليذوقوه حميم وغساق﴾
وآخر من شكله أزواج ﴿هَذَا فوج
مقتحم بمحكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا
النار﴾ قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم
أنتم قدمتموه لنا فيئس القرار ﴿قالوا
ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً مضاعفاً في
النار﴾ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا
نعدهم من الأشرار ﴿اتخذناهم سخرى
أم زأغت عنهم الأبصار﴾ إن ذلك لحق
تخاصم أهل النار ﴿هَذَا﴾ الجزاء
للمتقين ما وصفناه ﴿وإن للطَّاغِينَ
أي: المتجاوزين للحد في الكفر
والمعاصي ﴿لَشَرَّ مَأْبٍ﴾ أي: لشر
مرجع ومقلب، ثم فصله فقال:
﴿جهنم﴾ التي جمع فيها كل عذاب،
واشتد حرها، وانتهى قرها
﴿يصلونها﴾ أي: يعذبون فيها عذاباً
يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم
ظلل من النار ومن تحتهم ظلل.

﴿فيئس المهاد﴾ المعد لهم مسكناً
ومستقراً ﴿هَذَا﴾ المهاد، هذا العذاب
الشديد، والخزي والفضيحة والتكال.
﴿فليذوقوه حميم﴾ ماء حار، قد اشتد
حره، يشربونه فيقطع أمعاءهم.
﴿وغساق﴾ وهو أكره ما يكون من
الشراب، من قيح وصدید، مر المذاق،
كرهه الراحه.

﴿وآخر من شكله﴾ أي: من توغه
﴿أزواج﴾ أي: عدة أصناف من

الزكية، وما نشر لهم من الشئ بين
البرية.

فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر
أهل الخير، ومن أنواع الذكر، ذكر
جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا
قال:

﴿٤٩ - ٥٤﴾ ﴿وإن للمتقين لحسن
مأب﴾ جنات عدن مفتحة لهم
الأبواب ﴿متكئين فيها يدعون فيها
بفاكهة كثيرة وشراب﴾ وعندهم
قاصرات الطرف أشراب ﴿هَذَا مَا
توعِدون ليوم الحساب﴾ إن هذا لَرِزْقُنَا
ماله من نفاذٍ أي: ﴿وإن للمتقين﴾
ربهم، بامتثال الأوامر واجتناب
النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة،
﴿لحسن مأب﴾ أي: لمأب حسناً،
ومرجعاً مستحسناً.

ثم فسره وفصله، فقال: ﴿جنات
عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا ينبغي
صاحبها يدلاً منها، من كمالها وتمام
نعيمها، وليسوا بخارجين منها
ولا بمنخرجين.

﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ أي: مفتحة
لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها،
لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم
مخدومون، وهذا دليل أيضاً على الأمان
الثام، وأنه ليس في جنات عدن، ما
يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

﴿متكئين فيها﴾ على الأرائك
المزيئات، والمجالس المزخرفات.
﴿يدعون فيها﴾ أي: يأمرون
خدامهم، أن يأتوا بفاكهة كثيرة
وشراب من كل ما تشتهي نفوسهم،
وتلذه أعينهم، وهذا يدل على كمال
النعيم، وكمال الراحة والطمأنينة،
وتمام اللذة.

﴿وعندهم﴾ من أزواجهم، الحور
العین ﴿قاصرات﴾ طرفهن على
أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن،
لجمالهم كلهن، ومحبة كل منهما
للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه
لا ينبغي بصاحب بدلاً، ولا عنه
عوضاً. ﴿أشرب﴾ أي: على سن
واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه
والذنه.



البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم
النافع، والعمل الصالح الكثير.

﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾ عظيمة،
وخصيصة جسيمة، وهي ﴿ذكرى
الدار﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في
قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم،
والإخلاص والمراقبة لله وصفهم
الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر
بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعبر،
ويذكرون بأحسن الذكر.

﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين﴾ الذين
اصطفاهم الله من صفوة خلقه،
﴿الأخيار﴾ الذين لهم كل خلق كريم،
وعمل مستقيم.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿واذكر اسماعيل
واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾
هذا ذكر أي: واذكر هؤلاء الأنبياء
بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن
الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين
اختارهم الله من الخلق، واختار لهم
أكمل الأحوال، من الأعمال
والأخلاق، والصفات الحميدة،
والخصال السنية.

﴿هَذَا﴾ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء
الصفوة وذكر أوصافهم، ﴿ذكر﴾ في
هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم
المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء
بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف
ما من الله عليهم به من الأوصاف

أصناف العذاب، يعذبون بها ويحزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتتم بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ النار ﴿لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار﴾.

﴿قالوا﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه﴾ أي: العذاب ﴿لنا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم وتسبيكم: ﴿فبئس القرار﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المغوين لهم ف ﴿قالوا﴾ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار. وقال في الآية الأخرى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وقالوا﴾ وهم في النار: ﴿مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ أي: كتبنا نزعهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدتهم أهل النار - قبحهم الله - هل يرونهم في النار؟

﴿أخذناهم سخرى﴾ أم زاغت عنهم الأبصار؟ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين:

إما أننا غلطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلابنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير البراحين﴾ فاتخذتموه سخرى حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون.

والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، غمكت من قلوبهم، وصارت صيغة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا، موهوا حتى في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إن ذلك﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لحق﴾ ما فيه شك ولا مزية ﴿فخاصم أهل النار﴾.

﴿٦٥ - ٨٨﴾ ﴿قل إنما أنا نذير

وما من إله إلا الله الواحد القهار﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴿قل هو نبي عظيم﴾ أنتم عنه معرضون ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون﴾ إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين﴾ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين﴾ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾ وإن عليك لعني إلى يوم الدين ﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾ قال فإنك من النظرين ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ قال فبِعزتك لأعوينهم أجمعين ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ قال فالحق والحق أقول ﴿لأملأن جهنم منك ومنك﴾ ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الكاذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إنما أنا نذير﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فله تعالى، ولكني آمركم وأنهاكم، وأحثكم على الخير وأزجركم عن الشر فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليه. ﴿وما من إله

إلا الله﴾ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿الواحد القهار﴾ هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهارين متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية فقال: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالقهما، ومربيهما، ومدبرها^(١) بجميع أنواع التدابير. ﴿العزيز﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة. ﴿الغفار﴾ لجميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقبل منها.

فهذا الذي يحب ويستحق أن يعبد، دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضرب ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿قل﴾ لهم، مخوفاً ومخذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هو نبي عظيم﴾ أي: ما أنبأكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله، ولكن أنتم عنه معرضون، كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتهم في قولي، وامترستم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب، فأخبرني بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، أكبر شاهد لصدقي، وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى﴾ أي: الملائكة ﴿إذ يختصمون﴾ لولا تعليم الله إياي، وإجاءة إلي، ولهذا قال: ﴿إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾ أي: ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبليغ من نذارته ﷺ.

ثم ذكر اختصاص الملائكة على فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ عَلَيَّ وَجْهُهُ الْإِخْبَارُ﴾ [إني خالق بشرأ من طين] أي: مادته من طين ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: سويت جسمه وتم، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فوطن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربهم، وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنح الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في علم الله تعالى.

و ﴿قَالَ﴾ الله موبخاً ومعانياً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ أي: شرفته وكرمه واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه.

﴿اسْتَكْبَرْتَ﴾ في امتناعك ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْ خَلْقَتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾. وبرغم أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة وعنصر الطين مادة الرزاة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس.

ف ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء والمحل الكريم. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مبعث مذكور. ﴿وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردي

وإبعادي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: دائماً أبداً.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَئِثُونَ﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

و ﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى يوم الوقت المعلوم حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.

فلما علم أنه منظر، بادى ربه، من خبئه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن الباء للقسمة، وأنه أقسم بعزة الله ليغويهم كلهم أجمعين.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ علم أن الله سيحفظهم من كيده.

ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يفضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقاً.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمه، فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك، ورحمتك التواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إليناها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تغيبنا على محاربتة وعداوته، والسلامة من شره وشره، وتحسن الظن بك أن تحييب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ أي: الحق وصفي، والحق قولي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على

دعائي إياكم ﴿مَنْ أَجْرُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أدعي أمراً ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إلي.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا الرحي والقرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعالمين به، وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة، مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين. فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿وَادْكُرْ عِبَادَنَا﴾ - وادكر عبادنا - ﴿رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَذِكْرَى﴾ - هذا ذكر -.

اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك. ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنه تعالى وعونه.

تفسير سورة الزمر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار. يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أي: الذي وصفه الألوهية للمخلوق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذو له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل من هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى

الشقاء، فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به، وأخبر بدم من أشرك به فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، [معتذرين] ^(١) عن أنفسهم وقائلين: ﴿ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي: لترفع جوانبنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا، فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئاً.

أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرؤوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وزعموا يعقلونهم الفاسدة ورأيهم السقيم، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلاً ونقلاً وقطرة، فإن الملوك، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه [ويسترهم لهم] ^(٢)، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقتضون حوائج من توسطوا لهم، ومراعاة لهم، ومداراة لخواطبرهم، وهم أيضاً فقراء، قد يمتنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد

الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن، دال على مرتبته.

ولكنه - مع هذا - زاد بياناً لكمالته بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق فبعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مزية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملاً على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولما كان نازلاً من الحق، مشتملاً على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والسرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه لا غير ذلك من المقاصد.

﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به، لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، ولإلانة إليه في عبوديته، والإلانة إليه في تحصيل مطالب عبادته.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشَقٌّ لِلنَّفْسِ غَايَةً

(١) في أ: متعذرين.

(٢) كذا في النسختين ولعل الصواب (ويسترهم له).



من خلقه يجعله زاحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم والديهم، وهو الذي يحشهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كل واحد منهم ما سأل، وتغنى، لم ينقصوا غناه شيئاً، ولم ينقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخط.

وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

في هذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراتهم عليه.

ويعلم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى، لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال - حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركون، وفي ضمنه التهديد للمشركون - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن

رأى من آياته العظيمة، ثم تاب وأناب.

ومن عزته أن «خلقكم من نفس واحدة» على كثرتكم وانتشاركم، في أنحاء الأرض، «ثم جعل منها زوجها» وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة. «وأنزل لكم من الأنعام» أي: خلقها بقدر نازل منه، رحمة بكم. «ثمانية أزواج» وهي التي ذكرها في سورة الأنعام «ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين» «ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين».

وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.

ولما ذكر خلق أينا وأما، ذكر ابتداء خلقنا، فقال: «خلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق» أي: طوراً بعد طور، وأنتم في خال لا يد خلقكم تمسككم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق «في ظلمات ثلاث» ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، «ذلكم» الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم «الله ربكم» أي: المألوه المعبود، الذي رباكم وديركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له، ولهذا قال: «لا إله إلا هو فأنى تصرفون» بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئاً، وليس لها من الأمشيء.

«إن تكفروا فإن الله غني عنكم» لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم. «ولا يرضى لعباده الكفر» لكمال إحسانه بهم،

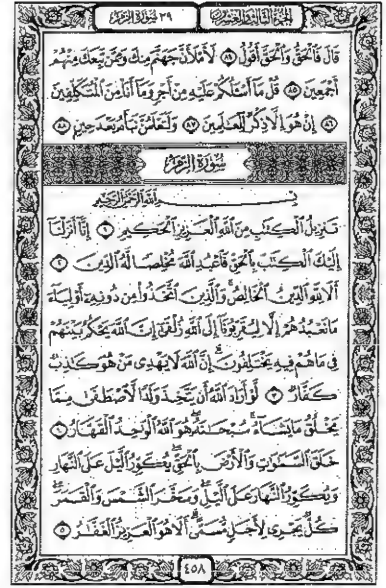
مقهوراً، ولكان له إلال على أبيه ومناسبة منه.

ووحده تعالى وقهره مثلاً زمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشراكة له من كل وجه.

«هـ - ٧» «خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار» خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون * إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور * يخبر تعالى أنه «خلق السموات والأرض» أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد ونهاهم، ويهيئهم ويعاقبهم.

«يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» أي: يدخل كلاً منهما على الآخر، ويجعله محله، فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتى أحدهما انزعز الآخر عن سلطانه. «وسخر الشمس والقمر» بتسخير منظم، وسير مقنن. «كل» من الشمس والقمر «يجري» متأثراً عن تسخيرته تعالى «لأجل مسمى» وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلائها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار.

«ألا هو العزيز» الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصى عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري بأمره. «الغفار» لذنوب عباده التوابين المؤمنين، كما قال تعالى: «واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى». الغفار لمن أشرك به بعدما



يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار. «إن الله لا يهدي» أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم «من هو كاذب كفار» أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتبه المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما انتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدنها ويكفر بها ويكذب، فهذا أنى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن!!

«لو أراد الله أن يتخذ ولداً» لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار» أي: لو أراد الله أن يتخذ ولداً كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق. «لاصطفى مما يخلق ما يشاء» أي: لاصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاؤه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ الصاحبة. «سبحانه» عما ظنه به الكافرون، أو نسبوه إليه الملحدون. «هو الله الواحد القهار» أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مائل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه.

القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن

فأتى بالملزوم ليدل على اللازم.

﴿قل﴾ لهذا العاتي، الذي بذل نعمة الله كفراً: ﴿تمتع بكفر قليل إنك من أصحاب النار﴾ فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المال النار.

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين﴾ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾.

﴿٩﴾ ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تبيانها، وعلم علماً يقيناً تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء، رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن.

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿والذين لا يعلمون﴾ شيئاً من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار.

﴿إنما يتذكر﴾ إذا ذكروا ﴿أولو الألباب﴾ أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته، لأن لهم عقولاً ترشدتهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه.

﴿١٠﴾ ﴿قل يا عباد الذي آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى

وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله.

﴿وإن تشكروا﴾ لله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له ﴿يرضه لكم﴾ لرحمته بكم، ومحبته للإحسان عليكم، ولعلمكم ما خلقكم لأجله.

وكما أنه لا يتضرر بشرككم، ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيديكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فنبشركم بما كنتم تعملون﴾ إخباراً أحاط به علمه، وجرى عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلًا منكم ما يستحقه.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بنفس الصدور، وما فيها من وصف برٍّ أو فجور، والمقصود من هذا، الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿٨﴾ ﴿وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفر قليل إنك من أصحاب النار﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضرر، من مرض أو فقر، أو وقوع في كربة بخر أو غيره، أنه يعلم أنه لا ينجيهِ في هذا الحال إلا الله، فيدعوه متضرعاً منيباً، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلج في ذلك.

﴿ثم إذا خوله﴾ الله ﴿نعمته منه﴾ بأن كشف ما به من الضرر والكربة، ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ أي: نسي ذلك الضرر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضرر، واستمر على شركه.

﴿وجعل لله أنداداً ليضل عن مبيله﴾ أي: ليضل بنفسه، ويضل غيره، لأن الإضلال فرع عن الضلال،



الصابرون أجْرهم بغير حساب﴾ أي: قل منادياً لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، أمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما من الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، كما تقول: أيها الكريم تصدّق، وأيها الشجاع قاتل.

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا﴾ بعبادة ربهم لهم ﴿حسنة﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشراح، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾.

﴿وأرض الله واسعة﴾ إذا منعتهم عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

ولما قال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع، وهو أن النص عام، أنه كل من أحسن فله في الدنيا حسنة، فما بال من آمن في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك، دفع هذا الظن بقوله: ﴿وأرض الله واسعة﴾ وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على



الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما مُنعتهم من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذلك إلا لفضيلة الصبر وعمله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ قُلْ إِنَّا خَاسِرُونَ إِلَّا خَرْنَا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۚ لَهُمْ مِنْ

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأنِّي الداعي الهادي للمخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أول من ألتزم بما أمر به، وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، وعن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فسي ما أمرني به من الإخلاص والإسلام. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى. ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ فاعبدوا ما شئتم من دونه كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۚ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ ۚ﴾

﴿قُلْ إِنَّا خَاسِرُونَ﴾ حقيقة هم ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ حيث حرموها الثواب، واستحققت بسببهم وخيم العقاب ﴿وأهلهم يوم القيامة﴾ أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿ومن تحتهم ظلل﴾

﴿ذلك﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحته، ﴿يَخُوفُ﴾ الله به عباده، يا عباد فاتقون﴾ أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو

عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب. فسبحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغبت تشاقق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذروهم من العمل لغيره^(١) غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَمِشْرَ عِبَادَ ۚ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ۚ﴾ لما ذكر حال المجرمين ذكر حال الميئين وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوا في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ التي لا تقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه يريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشرى، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فَيُشْرَ عِبَادَ ۚ﴾ الذين يستمعون القول، وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إثارة

(١) كذا في ب، وفي أ: وحذروهم من المعالة.

ما ينبغي اجتنبه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء المدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية.

الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وأولئك هم أولو الألباب﴾ أي: العقول الزاكية.

ومن لهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن من غيره، وأثروا ما ينبغي إثارة على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسننها وقبحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعاً لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعند الله لا يخلف الله الميعاد ﴿أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيبه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة، لكن الغنى كل الغنى، والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر قدره...﴾

﴿لهم غرف﴾ أي: منازل عالية

مزخرفة، من حسننها وبهاثها وصفاتها، أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها، [أنها] ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿من فوقها غرف﴾ أي: بعضها فوق بعض ﴿مبنية﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿وعجري من تحتها الأنهار﴾ المتدفقة، المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، تغلغل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة.

﴿وعند الله لا يخلف الله الميعاد﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى، ليوفهم أجورهم.

﴿٢١﴾ ﴿الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيئ قتره مصفراً ثم يجعله حطاباً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ يذكر تعالى أولي الألباب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعاً يستخرج بسهولة ويسر، ﴿ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ من بر وذرّة، وشعير وأرز، وغير ذلك. ﴿ثم يهيئ قتره﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث آفة فيه ﴿قتره مصفراً ثم يجعله حطاباً﴾ متكرساً ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء، وحزته بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم.

ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

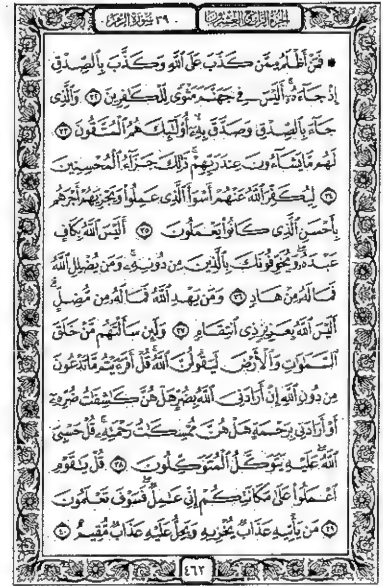
اللهم اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول، وأريتهم من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

﴿٢٢﴾ ﴿أفمن شرع الله صدره

أفمن شرع الله صدره بالإسلام فهو على نور من ربه قيل للقياسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في صلال مبين ﴿أي: أفمن شرع الله صدره بالإسلام، فأتبعوا من ضلال مبين﴾ أي: أفمن شرع الله أحكام الله والعمل بها، من شرعاً قرير العين، على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فهو على نور من ربه﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿قويل للقياسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي: لا تلين لكتابته، ولا تذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربه، ملتفتة إلى غيره، فهو لأهلهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أولئك في ضلال مبين﴾ أي: ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن ولية؟ ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقتنا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره!!

﴿٢٣﴾ ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ يجر تعالى عن كتابه الذي نزل أنه ﴿أحسن الحديث﴾ على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه



أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه، أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والاختلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهز الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فالمراد بها، التي تشبه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابهاً، أي: في حسنه، لأنه قال: ﴿أحسن الحديث﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً كما ذكرنا.

﴿مثنى﴾ أي: تثني فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثني فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزيكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي

الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدهما بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه، ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى، غير مراعاة لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، التدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالى: ﴿تقشعر من جلود الذين يخشون ربهم﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهيبهم من عمل الشر.

﴿ذلك﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هذه﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يهدي به﴾ أي: بسبب ذلك ﴿من يشاء﴾ من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذلك﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هذه﴾ الله الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿يهدي به﴾ من يشاء من عباده من حسن قصده كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾.

﴿ومن يضل الله فما له من هادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المين والشقاء.

﴿٢٤ - ٢٦﴾ ﴿أمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ كذب الذين من قبلهم فأناهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴿فأذاقهم الله الحزني في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلك الطريق الموصلة لدار كرامته، كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب لأنه قد غلت يده ورجلاه، ﴿وقيل للظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾.

﴿كذب الذين من قبلهم﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء، ﴿فأناهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون، ﴿فأذاقهم الله﴾ بذلك العذاب ﴿الحزني في الحياة الدنيا﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿٢٧ - ٣١﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعليهم يتذكرون﴾ قرآناً عربياً غير ذي عوج لعليهم يتقون ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إنك ميت وإنهم ميتون ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لعليهم يتذكرون﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ أي: جعلناه قرآناً عربياً، واضح الألفاظ،

سهل المعاني، خصوصاً على العرب. **﴿غير ذي عوج﴾** أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾** قیماً.

﴿لعلهم يتقون﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً﴾** أي: عبداً **﴿فيه شركاء متشاكسون﴾** فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تتمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿ورجلاً مسلماً لرجل﴾ أي: خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. **﴿هل يستويان﴾** أي: هذان الرجلان **﴿مثلاً﴾** لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في مرضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، ف **﴿هل يستويان مثلاً﴾** الحمد لله **﴿على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال﴾**. **﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾**

﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ أي: كلكم لا بد أن يموت **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾**.

﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلأ ما عمله **﴿أحصاه الله ونسوه﴾**.

﴿٣٢-٣٥﴾ فمن أظلم ممن

كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون **﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾** ذلك جزاء المحسنين **﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾** يقول تعالى، محذراً ومخبراً: أنه لا أظلم وأشد ظلماً **﴿ممن كذب على الله﴾** إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالى: **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** إن كان جاهلاً، وإلا فهو أشنع وأشنع،

﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾ (١) أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والكذب بالحق، كان ظلماً على ظلم. **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر. **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنابته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: **﴿والذي جاء بالصدق﴾** في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

﴿وصدق به﴾ أي: بالصدق لأنه قد يحيي الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يُصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في الملح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.

﴿أولئك﴾ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين **﴿هم المتقون﴾** فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق

والتصديق به.

إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق والصدق **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون **﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾** ذلك جزاء المحسنين **﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾** يقول تعالى، محذراً ومخبراً: أنه لا أظلم وأشد ظلماً **﴿ممن كذب على الله﴾** إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالى: **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** إن كان جاهلاً، وإلا فهو أشنع وأشنع،

﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ من الشواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيتهم، من أصناف اللذات والمشتبهات، فإنه حاصل لهم، معد مهياً، **﴿ذلك جزاء المحسنين﴾** الذين يعبدون الله كأنهم يروونه، فإن لم يكونوا يروونه فإنه يراهم **﴿المحسنين﴾** إلى عباد الله.

﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ عمل الإنسان له ثلاث حالات

إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ المعاصي كلها، والأحسن الطاعات كلها، فهذا التفصيل يتبين معنى الآية، وأن قوله: **﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾** أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم، **﴿ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾** أي: بحسناتهم كلها. **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾**.

(١) في النسختين: أو كذب بالحق لما جاءه.

مَنْ كَانَ مَاتَ، أَوْ قُضِيَ أَنْ يَمُوتَ فِي مَتَامِهِ.

﴿وِيرْسِلُ﴾ النفس ﴿الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى استكمال رزقها وأجلها. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جنس قائم بنفسه، يخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع فتتحدث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.

﴿٤٣- ٤٤﴾ ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقْلِقُونَ﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿يَنْكَرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ وَيُعَذِّبُهُمْ﴾ قُلْ لَهُمْ - مِثْلًا لِّجَهْلِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ -: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا﴾ أي: مَنْ اتَّخَذَ مِنَ الشُّفَعَاءِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: لَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ، بَلْ وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ يَسْتَحْقِقُونَ أَنْ يَمْدُخُوا بِهِ، لِأَنَّهُا جِمَادَاتٌ مِنْ أَحْجَارٍ وَأَشْجَارٍ وَصُورٍ وَأَمْوَاتٍ، فَهَلْ يَقَالُ: إِنْ لَمْ نَتَّخِذْهَا عَقْلًا؟ أَمْ هُوَ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَعْظَمِهِمْ ظِلْمًا؟

﴿قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَكُلُّ شَفِيعٍ فَهوَ يَخَافُهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا أَرَادَ رَحْمَةً عِنْدَهُ، أَذِنَ لِلشَّفِيعِ الْكَرِيمِ عِنْدَهُ أَنْ يَشْفَعَ، رَحْمَةً بِالْآثِنِينَ. ثُمَّ قَرَّرَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لَهُ يَقُولُ: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جَمِيعُ مَا فِيهِمَا مِنَ الْبُذُوتِ وَالْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ. فَالْوَاجِبُ أَنْ تَطْلُبَ الشَّفَاعَةَ مِمَّنْ يَمْلِكُهَا، وَتُخْلِصَ لَهُ الْعِبَادَةَ. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فَيَجَازِي الْمَخْلُصَ لَهُ بِالشَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَمَنْ

أَشْرَكَ بِهِ بِالْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

﴿٤٥- ٤٦﴾ ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قُلْ لِلَّهِ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا الَّذِي اقْتَضَاهُ شُرْكُهُمْ أَنَّهُمْ ذَكَرَ اللَّهَ﴾ تَوْحِيدًا لَهُ، وَأَمْرًا بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَتَرْكُ مَا يَبْعُدُ مِنْ دُونِهِ، أَنَّهُمْ يَشْمَتُونَ وَيَتَفَرَّحُونَ، وَيَكْرَهُونَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْكَرَاهَةِ.

﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، وَدَعَا الدَّاعِيَ إِلَى عِبَادَتِهَا وَمَدْحِهَا، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بِذَلِكَ، فَرَحًا بِذِكْرِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وَلِكُونِ الشَّرْكِ مُوَافِقًا لِأَهْوَائِهِمْ، وَهَذِهِ الْحَالُ أَشْرَ الْخِيَالَاتِ وَأَشْنَعُهَا، وَلَكِنْ مَوْعِدُهُمْ يَوْمَ الْجَزَاءِ. فَهَنَّاكَ يُوْخِذُ الْحَقُّ مِنْهُمْ، وَيَنْظُرُ: هَلْ تَنْفَعُهُمُ آلِهَتُهُمْ الَّتِي كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا؟

ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خَالِقُهُمَا وَمُدَبِّرُهُمَا، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ الَّذِي غَابَ عَنْ أَبْصَارِنَا وَعِلْمِنَا، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الَّذِي نَشَاهِدُهُ.

﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وَإِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْاِخْتِلَافِ اِخْتِلَافُ الْمُوحِدِينَ الْمُخْلِصِينَ الْقَائِلِينَ: إِنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، وَإِنْ لَهُمْ الْحَسَنَى فِي الْآخِرَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِكَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ، وَسَوَّاهُ فَبَيْنَ مَنْ لَا يَسُوْى شَيْئًا، وَتَنْفَصُوكَ غَايَةَ التَّنْقِصِ، وَاسْتَبْشَرُوا عِنْدَ ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ، وَاشْمَتُوا عِنْدَ ذِكْرِكَ، وَزَعَمُوا مَعَ هَذَا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَغَيْرِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَأَنْ لَهُمُ الْحَسَنَى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها

بقوله: ﴿هَذَانِ حَصْمَانِ اخْتَصِمُوا فِي رَيْبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * إلى أن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسْبَاطٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ ظُلْمًا أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴿فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ، بَيَانُ عَمُومِ خَلْقِهِ تَعَالَى وَعَمُومِ عِلْمِهِ، وَعَمُومِ حُكْمِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَقَدَرْتَهُ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْهَا الْمَخْلُوقَاتِ، وَعِلْمُهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، دَالٌ عَلَى حُكْمِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَبَعْثُهُمْ، وَعِلْمُهُ بِأَعْمَالِهِمْ، خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، وَبِمَقَادِيرِ جَزَائِهَا، وَخَلْقُهُ دَالٌ عَلَى عِلْمِهِ﴾ (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ).

﴿٤٧- ٤٨﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلنَّاسِ ظُلْمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدَرُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ﴾ وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ﴿لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَذَكَرَ مَقَالَ الْمُشْرِكِينَ وَشَنَاعَتِهَا، كَانُ النَّفُوسِ تَشْرُوتُ إِلَى مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ لَهُمْ «سُوءَ الْعَذَابِ» أَي: أَشَدَّهُ وَأَقْظَعَهُ، كَمَا قَالُوا أَشَدَّ الْكُفْرِ وَأَشْنَعَهُ، وَأَنَّهُمْ عَلَى - الْفُرْضِ وَالتَّقْدِيرِ - لَوْ كَانَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، مِنْ ذَهَبِهَا وَفُضَّتِهَا وَلُؤْلُؤِهَا وَحَيَوَانَاتِهَا وَأَشْجَارِهَا وَزُرُوعِهَا وَجَمِيعِ أَوَانِهَا وَأَنْثَاهَا وَمِثْلِهِ مَعَهُ، ثُمَّ بَذَلُوهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَقْتَدَرُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَيَنْجُوا مِنْهُ، مَا قَبِلَ مِنْهُمْ، وَلَا أَغْنَى عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ﴾ أَي: يَظُنُّونَ مِنَ السَّخَطِ الْعَظِيمِ، وَالْمَقْتِ الْكَبِيرِ، وَقَدْ كَانُوا

يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم. ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

﴿٤٩-٥٢﴾ ﴿فلذا مسَّ الإنسان ضرٌّ دُعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾ أولم يعلموا أنَّ الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسّه ضرٌّ، من مرض أو شدة أو كرب، ﴿دعانا﴾ ملحاً في تفريج ما نزل به ﴿ثم إذا خولناه نعمة منا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بره كافراً، ولمعرفه منكراً، و ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أي: علم من الله، أي له أهل، وأي مستحق له، لأي كرم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: ﴿بل هي فتنة﴾ ينبت الله به عباده، لينظر من يشكره عن يكفره. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشبهه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

قال تعالى: ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي: قولهم ﴿إنما أوتيته على علم﴾ فما زالت متواردة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ولم يغن عنهم ما كانوا يكسبون ﴿حين جاءهم العذاب﴾.

﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه. ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾ فليسوا خيراً من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يسط الرزق لمن يشاء﴾ من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً ﴿ويقدر﴾ الرزق، أي: يضيقة على من يشاء، صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية. ﴿إن في ذلك، لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: بسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك، عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده، فقد يضيقة عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيًا في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

﴿٥٣-٥٩﴾ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ إن الله هو الغفور الرحيم ﴿وأنبئوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ ثم لا تنصرون ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ وأنتم لا تشعرون ﴿أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴿أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كسرة فأكون من المحسنين﴾ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب.

﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ أي: لا تياسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق

يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً، من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للموجود، تسح يده من الخيرات آتاء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته وتليهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والأجل، والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال: ﴿وأنبئوا إلى ربكم﴾ بقلوبكم ﴿وأسلموا له﴾ بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا.

وفي قوله: ﴿إلى ربكم وأسلموا﴾ له دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً. ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ مجيباً لا يدفع ﴿ثم لا تنصرون﴾. فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك.

ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة،

والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو النيب المسلم، ﴿من قبل أن ياتيكم العذاب بغتة وأنتُمْ لا تشعرون﴾. وكل هذا جئت على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم ﴿أَنْ﴾ لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيتهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة، و﴿تَقُولُ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّقْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي: في جانب حقه، ﴿وَإِنْ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا لَمِنَ السَّاحِرِينَ﴾ في إتيان الخزاء، حتى رأيتهم عياناً.

﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ و «لو» في هذا الموضع للتعني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست «لو» هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محججين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾
وتخزم بيزوده ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرْهُ﴾ أي:
رجعة إلى الدنيا لكنت ﴿مِنَ
الْمُحْسِنِينَ﴾. قال تعالى: إِنْ ذَلِكَ غَيْرِ
مُمْكِنٍ وَلَا مُفِيدٍ، وَإِنْ هَذِهِ أَمَانِي بَاطِلَةٌ
لَا حَقِيقَةَ لَهَا، إِذْ لَا يَتَجَدَّدُ لِلْعَبْدِ لَوْ
رُدَّ، بَيَانٌ بَعْدَ الْبَيَانِ الْأَوَّلِ.

﴿يَلِيْ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي﴾ الدالة دلالة لا يمرى فيها على الحق ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عن اتباعها ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فسؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث، ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نَهَوْا عَنْهُ وَانْهَمُ لَكَذِبُونَ﴾.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى
الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوَجَّهُهُمْ مَسْوَدٌ
أَلْسِنُهُمْ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾
وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ
لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يُخَيِّرُ
تَعَالَى عَنْ خِزْيِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَيْهِ، وَأَنْ
وَجْهَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَسْوَدٌ كَأَنَّهَا اللَّيْلُ
الْبَهِيمُ، يَعْرِفُهُمْ بِذَلِكَ أَهْلُ الْمَوَاقِفِ،

فالحق أبلج واضح كأنه الصبح، فكما
سُودُوا وجه الحق بالكذب، سود الله
وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق، وعن عبادة ربه، المتكبرين عليه؟ بلى والله، إن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

ولما ذكر حالة المتكبرين، ذكر حالة
المتقين، فقال: ﴿وَنَجِيَّ اللَّهِ الَّذِينَ
اتَّقَوْا بِمَقَامَتِهِمْ﴾ أي: بنجاتهم، وذلك
لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله
تعالى، التي هي العلة عند كل هول
وشدة. ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ﴾ أي:
العذاب الذي يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ
يُحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم مباشرة العذاب
وخوفه، وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى
يوصلهم إلى دار السلام، فحيث
يأمنون من كل سوء ومكره، وتجري
عليهم نضرة النعيم، ويقولون:
الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن
ربنا لغفور شكور.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ له مقابليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴿يختر تعالى عن عظمته وكماله، المرجب لخسران من كفر به فقال: ﴿الله خالق كل شيء﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل على أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها رد على كل من قال بقديم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بقديم الأرض والسماوات، وكالقائلين بقديم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

[illegible]

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمه، ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرفها ويديرها على ما هو الآتيقن، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك فهو نقص فيها.

ومن العلوم المتقرر، أن الله تعالى منزه عن كل نقص في صفة من صفاته، فأخباره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكيمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

﴿٦٢﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أَي: مَفَاتِحُهَا، عِلْمُ

فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات - على سعتها وعظمتها - مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تنزهه وتعظمه عن شركهم به.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴿٦٩﴾ ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴿٧٠﴾ لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبهم ورهبهم فقال: ﴿ونفخ في الصور﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حلة عرش الرحمن.

﴿فصعق﴾ أي: غشي أوزمات، على اختلاف القولين: ﴿من في السماوات ومن في الأرض﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إلا من شاء الله﴾ من ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق ونفخة الفزع.

﴿ثم نفخ فيه﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿ينظرون﴾ ماذا يفعل الله بهم.

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك، فإن الله أخبر أن الشمس تكور،

من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ من جميع الأنبياء ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام - لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾.

﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ دينك وأخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بل الله فاعبد﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بل الله فاعبد﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لله على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية، كالنعم على الإخلاص، والتقوى، بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿٦٧﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.



وتدبيراً، ف ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك العزيم فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم﴾. فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالاً وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ الدالة على الحق اليقين والصرط المستقيم، ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الأنس من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعرضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعرضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴿بل الله فاعبدون﴾ من الشاكرين ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصاً

بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والخذل من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قالوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم. ﴿يلى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وخذرونا من هذا اليوم. ﴿ولكن حققت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

﴿ف قيل﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خالدين فيها﴾ أبداً، لا يطعنون عنها، ولا يفترعونهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فيئس مثوى المتكبرين﴾ أي: بشئ المقر، الناز مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾ بتوجيه والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وقدأ على النجائب. ﴿إلى الجنة زمراً﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبة والمنازل الأنيقة، وهب عليهم ريحها ونسيمها، وأن خلودها ونعيمها. ﴿وفتحت﴾ لهم ﴿أبوابها﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تهنئة لهم وترحيباً: ﴿سلام عليكم﴾ أي: سلام من كل آفة وشر حال عليكم. ﴿طيبتم﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿ف﴾ بسبب طيبكم ﴿ادخلوها خالدين﴾

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حققت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فيئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض تنبأ من الجنة حيث نشاء فنمض أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين * لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقمهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾ أي: سوقاً عنيقاً، يُضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتاعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زمراً﴾ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضاً، ويبرا بعضهم من بعض. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فتبخت﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أبوابها﴾ لقدومهم وقرى لزولهم.

﴿وقال لهم خزنتها﴾ مهنيين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿ألم يأتيكم رسول منكم﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يتلون عليكم آيات ربكم﴾ التي أرسلهم الله

والقمر يحسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَفُوزُونَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿ووضع الكتاب﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فتسرى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ربنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾. ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

﴿وجيء بالنبئين﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أمهم، ويشهدوا عليهم. ﴿والشهداء﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض. ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه حساب صادر عن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعترفون به من عظمتهم وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم، ولهذا قال: ﴿وفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾.

﴿٧١-٧٥﴾ ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم

لأهل الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار: ﴿فتحت أبوابها﴾ وفي الجنة: ﴿وفتحت﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير انتظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم حرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعاة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحققهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿وقالوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومن عليهم وهذا هم: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي: وعدنا الجنة على السنة رسله، إن آمنا وصلحنا، فوق لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما مآنا. ﴿وأورثنا الأرض﴾ أي: أرض الجنة ﴿نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ أي: ننزل منها أي: مكان شئنا، ونتناول منها أي: نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنا شيء نريده. ﴿فنبعم أجمع العاطلين﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فقالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً.

. وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خراص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما يبعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء.

﴿وترى الملائكة﴾ أيها الرائي ذلك

اليوم العظيم ﴿حافين من حول الصرخ﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وقضي بينهم﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بالحق﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، فمن عليه الحق. ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ لم يذكر القائل من هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حد فضل وإحسان، وحد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه

تفسير سورة المؤمن مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم، بأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراذه بأفعاله، العزيز الذي قهر بعزته كل مخلوق، العليم بكل شيء، ﴿غافر الذنب﴾ للمذنبين ﴿وقابل التوب﴾ من التائبين، ﴿شديد العقاب﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذو الطول﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجياً لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني.

فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نعيمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذو الطول﴾.

وإما إخبار عن يقوه الشديدة، وعنا يوجها ويقضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شديد العقاب﴾.

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب المعاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إليه المصير﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿٤-٦﴾ ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يفرك تقلبهم في البلاد﴾ كذبت قلوبهم قوم نوح والأحزاب من بدمهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا، دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فلا يفرك﴾

تفضل بالأسباب ومسبباتها.

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به سبباً لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴿ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يشرِك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ أي: إياكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي: حين دعيتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البيئات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له،

وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا أكبر من مقتكم أنفسكم ﴿أي: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فالיום حل عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه، فتمنوا الرجوع، و﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين﴾ يريدون الموت الأولى وما بين النفتين على ما قيل، أو العدم

واجتهدوا اجتهاد المحيين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يحبهم الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعوا إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ التنبية اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون المتدبر مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراد، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ.

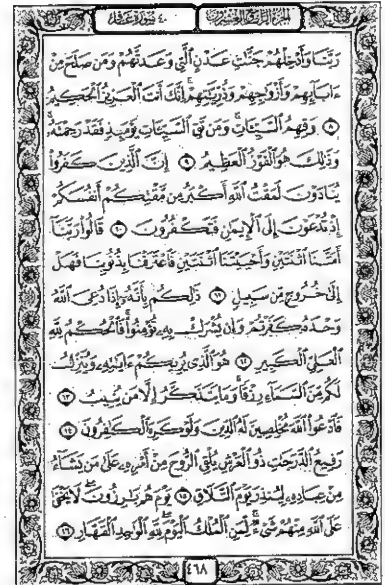
والذي يوجب له الجزم بأن الله أراد أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه.

الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحاً، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من به الله علينا.

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآتات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله، أن يفتينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصل رحمته، إنك الكريم الوهاب، الذي

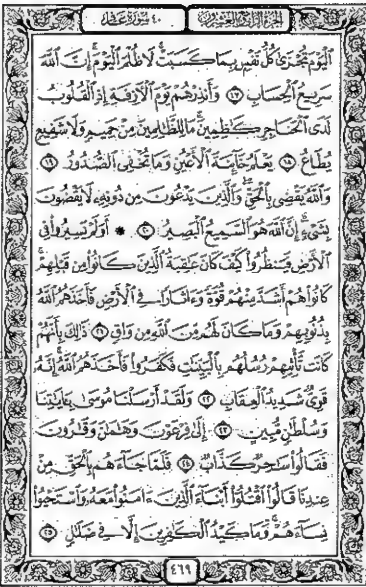


﴿فقد رحمته﴾ لأن رحمته لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقبته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وذلك﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة، ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً، توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُبلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها،



عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يري عباده من آياته النفسية والأفاقية والقرآنية، الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم ينبئ الحق مشتهاً، ولا الصواب ملتبساً، بل نوع الدلالات ووضح الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة وكلما كانت المسائل أجمل وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلى التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾

ولما ذكر أنه يري عباده آياته، نبه على آية عظيمة فقال: ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ أي: مطراً، به ترتزقون وتعيشون أنتم وبها تمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه، فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها. والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم.

﴿وما يتذكر﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إلا من ينسب﴾ إلى الله تعالى، بالإقبال على عبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

ولما كانت الآيات تشرح التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخليص

المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدتهم، ﴿وأحييتنا النتين﴾ الحياة الدنيا والحياة الأخرى، ﴿فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، وويخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده﴾ أي: إذا دُعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كفرت﴾ به واشمازت لذلك قلوبكم ونفرت غاية النفور. ﴿وإن يشرك به تؤمنوا﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل، وبرأكم هذا المقيبل والمحمل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصالح في الدنيا والآخرة. تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب، وتزهون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر ﴿وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾.

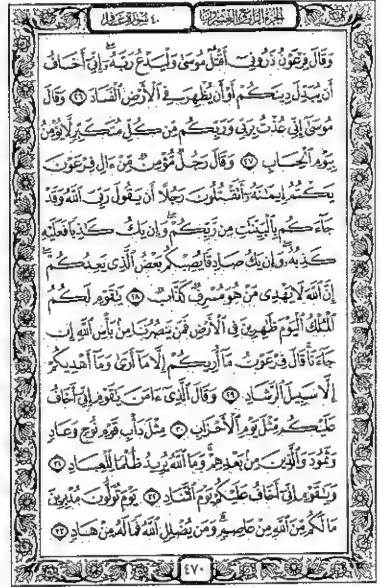
﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر ومن علو قدره، كمال عبده تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار. ﴿الكبير﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله المنتزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿١٣-١٧﴾ ﴿هو الذي يرسلكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينسب﴾ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴿لن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على

القصيد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده. أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدبونه به وتتقربون به إليه.

﴿ولو كره الكافرون﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يشكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعاً باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه، وتعالى ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الظاهر المطهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويعملهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يلقي الروح﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يلقي الروح من أمره﴾ الذي فيه



نفع العباد ومصلحتهم.

﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وأخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وأخرتهم، ولهذا قال: ﴿لِنُنْذِرَ مَنْ أَلْقَى إِلَهَ الْوَحْيِ﴾ يوم التلاق: أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.

وسماه «يوم التلاق»، لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد، لا عوج ولا أمث فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر.

﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ أي: مَنْ هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للأولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشراكة في الملك، وتقطعت الأسباب،

ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي:

المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿الْقَهَّارُ﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه، ﴿الْيَوْمَ نَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير.

﴿لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: لا تستبطئوا ذلك اليوم، فإنه آت، وكل آت قريب. وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿١٨-٢٠﴾ ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ﴾ ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير * يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزنت وقربت، وأن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروح والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كَاطْمِينَ﴾ لا يتكلمون إلا مَنْ أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروح الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم بنفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فإله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها. ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وَمَا تَخْفَى

الصدور﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فإله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أوليائه وأحبابه.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْءٌ﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير وأستطاعتهم لفعله. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تقن الحاجات. ﴿الْبَصِيرُ﴾^(١) بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف مقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتغالها على الترهيب والترهيب.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُ فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بقلوبهم وأبصارهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في العَدَد والمُدَد وكبر الأجسام. ﴿وَأَشَدَّ اثَارًا فِي

(١) في السخنين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير).

الأرض ﴿من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمتعها بها. ﴿فأخذهم الله﴾ بعقوبته بذنوبهم حين أصروا واستمروا عليها، ﴿إنه قوي شديد العقاب﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول، وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿٢٣-٤٦﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى آخر القصة.

﴿٢٣﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿موسى﴾ ابن عمران، ﴿بآياتنا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقيقة ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه. ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة بيّنة، تتسلط على القلوب فتدفع لها، كالحجة والعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيد الله بها موسى، ومكنه مما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم ﴿فرعون وهامان﴾ وزيره ﴿وقارون﴾ الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فقالوا ساحر كذاب﴾ فلما جاءهم بالحق من عندنا وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد التترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقبوا، ويقوا في رقبهم وتحت عبوديتهم.

فما كيدهم إلا في ضلال، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما

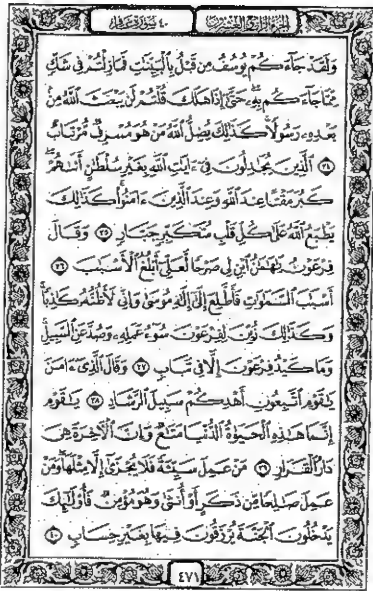
قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سبق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين.

فلهذا لم يقل ﴿وما كيدهم إلا في ضلال﴾ بل قال: ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾

و ﴿قال فرعون﴾ متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء: ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾ أي: زعم - قبحه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشك في الأرض فقال: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ الذي أنتم عليه ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾. وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويح، الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿وقال موسى﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجهاها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعيناً بربه: ﴿إني خشيت أن يبدل دينكم﴾ أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقبض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون

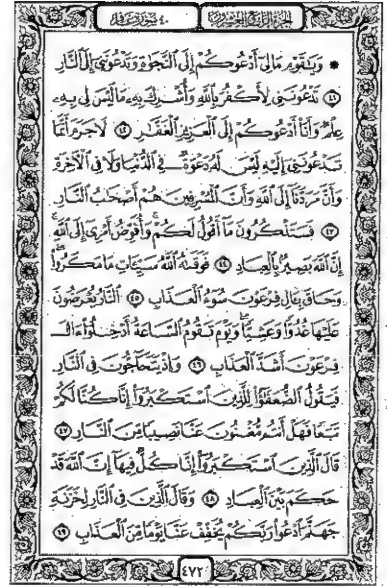


وملئه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت الملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قریش، حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم، موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبلاً فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنب وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البينات، ولهذا قال: ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ لأن بيئته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلأ أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرت: هل يحل قتله إذا ظهرت عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه،



ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

ثم جذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يَا قَوْم لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ على رعييتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا؟﴾ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا؟﴾ وقوله: ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

وحيث ينادي أهل النار مالِكاً ﴿لِيَقْضِ غَلِيظَتُكُمْ﴾ يقول: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾. وحين ينادون ربه: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَذَبْنَا ظَالِمُونَ﴾ فيجيبهم: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُونَ﴾. وحين يقال للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾. فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم الممول، وتوقع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَوَلَوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿مَالِكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تَبِلُ السَّرَائِرُ﴾ فما له من قوة ولا ناصر.

وكذب في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، الضلال.

وقال الذي آمن ﴿مَكْرَراً دَعْوَةَ قَوْمِهِ﴾ غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعوة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربه، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنى عليهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يَا قَوْم إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعني

فيبتكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي: حالة قدرت، فقال: ﴿وَأَنْ يَكْذِبَ كَذِباً فَعَلِمَ كَذِبَهُ وَإِنْ يَكْصِدَ يَصْبِحُ بِكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مخصص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تحيروه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

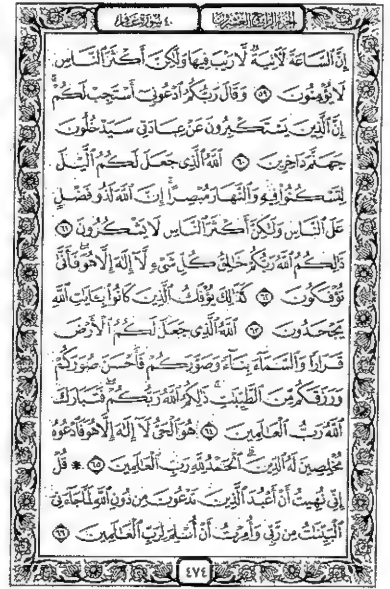
وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفة وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿كَذَابٌ﴾ بنسبه ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله،

وَمَنْ يَضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَأَنَّ الْهُدَى بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لحبه، فلا سبيل إلى هدايته.

ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب عليهما السلام من قبل إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فَمَا

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ مكرراً دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعوة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربه، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنى عليهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يَا قَوْم إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعني



ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً.

﴿وأن مردنا إلى الله تعالى فسيجازي كل عامل بعمله.﴾ وأن المسرفين هم أصحاب النار، وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجبر^(١) على ربهم، بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذروهم وأنذروهم، ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ من هذه النصيحة، وسترون غنية عدم قبولها حين يحل بكم العقاب، وتغرمون جزيل الثواب.

﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي: ألجأ إليه واعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مضاجي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيته، فإن سلطكم علي، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيته صدر ذلك.

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي: وقى الله القوي الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون

وآله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم، ﴿وحاق بال فرعون سوء العذاب﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي نحل بالمكذبين لرسول الله، المعاندين لأمره.

﴿٤٧-٥٠﴾ ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد. ﴿وقال الذين في النار لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال. ﴿يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وإذ يتحاجون في النار﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فيقول الضعفاء﴾ أي: الأتباع للقادة ﴿للذين استكبروا﴾ على الحق، ودعواهم إلى ما استكبروا لأجله. ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشر، ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ أي: ولو قليلاً.

﴿قال الذين استكبروا﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إنا كل فيها﴾ إن الله قد حكم بين العباد، وجعل لكل قبضته من العذاب، فلا يزداد في ذلك ولا ينقص

منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿وقال الذين في النار﴾ المستكبرين والضعفاء ﴿لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ لعله تحصل بعض الراحة، ف ﴿قالوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاهم لا يفيدهم شيئاً: ﴿أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات﴾ التي تبين بها الحق والبراط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟

﴿قالوا بلى﴾ قد جاؤنا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبين. ﴿قالوا﴾ أي: الحزنة، لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فادعوا﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء، هل يغني شيئاً أم لا؟

قال تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: باطل لاغ، لأن الكفر يحبط لجميع الأعمال، صاذ لإجابة الدعاء.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار القظيعة، الذين نابذوا رسله وحاربوهم، قال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أي: بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم لهم، ولأتباعهم بالثواب، ولن حاربهم بشدة العقاب.

﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ حين يعتذرون ﴿ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء نازلها.

﴿٥٣-٥٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ هدى وذكرى لأولي الألباب. ﴿فأصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبِّح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾ لما ذكر



والإهانة، جزاء على استكبارهم.

﴿٦١-٦٥﴾ **﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فإني توفكون * كذلك يوفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون * الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين * هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين * تدبر هذه الآيات الكريمات، الدالة على سعة رحمة الله تعالى وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وعام زبوبيته وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمور شيء، ولا من القدرة شيء، فينتج من ذلك، أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئاً، كما لم يستحق من الربوبية شيئاً، وينتج من ذلك، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى

ومحبته وخوفه ورجائه، وهذان الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصولان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخرية، وهما اللذان هما أشرف عطايا الكرم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فأت كل خير وحضر كل شر.

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبه، وأن يجعل حرركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاضمه سؤال، ولا يخفيه نوال.

فقوله تعالى: **﴿الله الذي جعل لكم الليل﴾** أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلماً، **﴿لتسكنوا فيه﴾** من حرركاتكم، التي لو استمرت لضررت، فتأوون إلى فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي لا يعيش بدونه، ويسكن أيضاً، كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل.

﴿و﴾ جعل تعالى **﴿النهار مبصراً﴾** منيراً بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره براً وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصلح حيواناته.

﴿إن الله لذو فضل﴾ أي: عظيم، كما يدل عليه التثنية **﴿على الناس﴾**. حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره، **﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** بسبب جهلهم وظلمهم. **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾** الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿ذلكم﴾ الذي فعل ما فعل **﴿الله ربكم﴾** أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية، لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته، **﴿لا إله إلا هو﴾** تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، **﴿خالق كل شيء﴾** تقرير الربوبية.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: **﴿فإني توفكون﴾** أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعدما أبان لكم الدليل وأثار لكم السبيل!!

﴿كذلك يوفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون﴾ أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله، وتعديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: **﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾**.

﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي: قارة ساكنة، مهية لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها.

﴿والسما بناء﴾ سقفاً للأرض التي أتم فيها، قد جعل الله فيها ما تتفنون به من الأنوار والعلامات التي يهدي بها في ظلمات البر والبحر، **﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾** فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم، كما قال تعالى: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾**.

وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه، فانظر إليه عضواً عضواً، هل تجد عضواً من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضاً، إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الآدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجل الصور.

﴿ورزقكم من الطيبات﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكّل،

أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثم في النار يسجرون * ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين * ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون * ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله الواضحة البينة متعجبا من حالهم الشنيعة. ﴿أَتَى يَصْرَفُونَ﴾ أي: كيف يتعدلون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شبهاً توافق أهواءهم، ويصلون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسوله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولاً، فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فسوف يعلمون﴾ إذ الأغلال في أعناقهم التي لا يستطيعون معها حركة. ﴿والسلاسل﴾ التي يقرنون بها هم وشياطينهم ﴿يسحبون﴾ في الحميم أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره. ﴿ثم في النار يسجرون﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

ويقال ﴿لهم أين ما كنتم تشركون﴾ من دون الله هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئا﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفدهم، ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، وزيد على هذا قوله تعالى: ﴿كذلك يضل الله

تدعون من دون الله﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله. ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقاداً لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق، كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهي عنه على الإطلاق، ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم، والمطور لخلقكم، فكما خلقكم وحده فاعيدوه وحده، فقال: ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلقه أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم من نطفة﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار، من العلقه، فالمضغة، فالعظام، فنفخ الروح، ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة. ﴿ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل﴾ بلوغ الأشد ﴿ولتبلغوا﴾ بهذه الأطوار المقدرة إلى أجل مسمى تنتهي عنده أعماركم. ﴿ولعلكم تعقلون﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه. ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير. ﴿فإذا قضى أمراً﴾ جليلاً أو حقيراً ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ لا رد في ذلك، ولا مشورة، ولا تمتع.

﴿٦٩ - ٧٦﴾ ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أتى يصرفون﴾ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون * إذ الأغلال في

ومشرب، ومنكح، وفليس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده، ويسر لهم أسبابها، ومنعهم من الخبايا التي تضادها، وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم، ﴿ذلكم﴾ الذي دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿الله ربكم﴾ ﴿فتبارك الله رب العالمين﴾ أي: تعظم وكثر خيره وإحسانه، المربي لجميع العالمين بنعمه.

﴿هو الحي﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها، كالسمع، والبصر، والقدرة، والعلم، والكلام، وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا وجهه الكريم. ﴿فادعوه﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي: جميع المحامد والمدايح والثناء، بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل، كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له، لكماله في أوصافه وأفعاله، وقام نعمه.

﴿٦٦ - ٦٨﴾ ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون * هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبيانات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قل﴾ يا أيها النبي ﴿إني نهيت أن أعبد الذين

تتكبرون ﴿ يمتن تغالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام :

منها : منافع الركوب عليها والحمل .

ومنها : منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها .

ومنها : منافع الدفء ، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، إلى غير ذلك من المنافع .

﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة ، وحصول السرور بها ، والفرح عند أهلها . ﴿ وعليها وعلى الفلئك تحملون ﴾ أي : على الرواحل البرية والفلئك البحرية يحملكم الله الذي سخرها وهيا لها ما هيا من الأسباب التي لا تتم إلا بها .

﴿ ويرىكم آياته ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته ، وهذا من أكبر نعمه ، حيث أشهد عباده آياته النفسية ، وآياته الأفقية ، ونعمته الباهرة ، وعددها عليهم ، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه .

﴿ فأي آيات الله تنكرون ﴾ أي : أي آية من آياته لا تعتبرونها ؟ فإنكم قد تقررون عنكم ، أن جميع الآيات والنعم من الله تعالى ، فلم يبق للإنكار محل ، ولا للإعراض عنها موضع ، بل أوجب لذوي الألباب بذل الجهد ، واستفراغ الوسع ، للاجتهاد في طاعته والتبذل في خدمته والانقطاع إليه .

﴿ ٨٢ - ٨٥ ﴾ ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأكثر إثارة في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك

والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ في الدنيا فذاك ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل عقوبتهم ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ فنجازهم بأعمالهم ، ﴿ فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ . ثم سلاؤه وصبره بذكر إخوانه المرسلين فقال :

﴿ ٧٨ ﴾ ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾ أي : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً كثيرين إلى قومهم ، يدعوهم ويصبرون على أذاهم . ﴾ منهم من قصصنا عليك خبرهم ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ . وكل الرسل مدبرون ، ليس بيدهم شيء من الأمر .

وما كان لأحد منهم ﴿ أن يأتي بآية ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي : بمشيئته وأمره ، فاقترح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات ، ظلم منهم وتعنّت وتكذيب ، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به . ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم ، والفتح . ﴿ قضي ﴾ بينهم ﴿ بالحق ﴾ الذي يقع الموقع ، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم ، وإهلاك الكاذبين ، ولهذا قال : ﴿ وخسر هنالك ﴾ أي : وقت القضاء المذكور ﴿ المبطلون ﴾ الذين وصفهم الباطل ، وما جاؤوا به من العلم والعمل باطل ، وغايتهم المقصودة لهم باطلة ، فليخذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم فيخسروا كما خسر أولئك ، فإن هؤلاء لا خير منهم ، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة .

﴿ ٧٩ - ٨١ ﴾ ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلئك تحملون ﴿ ويرىكم آياته فأي آيات الله

الكافرين ﴾ أي : كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا ، الضلال الواضح لكل أحد ، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة ، ويتبين لهم معنى قوله تعالى : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ﴾ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ الآيات .

ويقال لأهل النار ﴿ ذلكم ﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿ بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون ﴾ أي : تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه ، وبالعلوم التي خالفتكم بها علوم الرسل وتفرحون على عباد الله ، بغيا وعدوانا وظلماً وعصياناً ، كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .

وكما قال قوم قارون له : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ .

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب ، بخلاف الفرح المدحوح الذي قال الله فيه : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح .

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿ خالدين فيها ﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ مثوى يخزون فيه ويهانون ويحسبون ويعذبون ويترددون بين حرها وزمهريرها .

﴿ ٧٧ ﴾ ﴿ فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ أي : ﴿ فاصبر ﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى ، واستعن على صبرك بإيمانك ﴿ إن وعد الله حق ﴾ سينصر دينه ، ويغلب كلمته ، وينصر رسله في الدنيا والآخرة ، واستعن على ذلك أيضاً ، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا

بأسنا» أي: في تلك الحال، وهذه «سنة الله» وعادته «التي خلت في عبادته» أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

«وخسر هنالك» أي: وقت الإهلاك وإذاقة اليأس «الكافرون» دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه، دائماً أبداً.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعوته، لا بحولنا وقوتنا، فله الشكر والثناء.

تفسير سورة فصلت^(١) مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد * فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون * يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل «تنزيل» صادر «من الرحمن الرحيم» الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير، ما هو

الكافرون» يثبت تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين. «فينظروا» نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال.

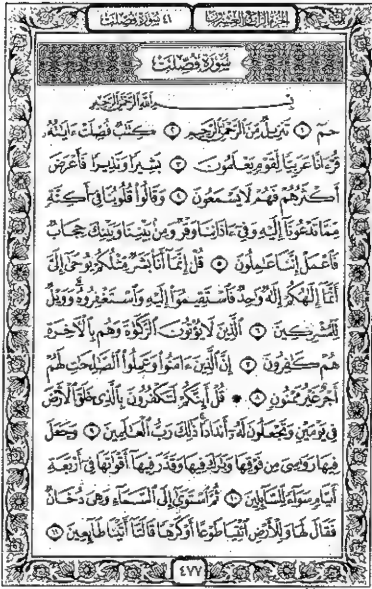
«كيف كان عاقبة الذين من قبلهم» من الأمم السالفة، كعباد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أمراً وأشد أثراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيفة، والزروع الكثيرة «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» حين جاءهم أمر الله، فلم تغني عنهم قوتهم، ولا اقتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

ثم ذكر جرمهم الكبير فقال: «فلما جاءهم رسلهم بالبينات» من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل «فرحوا بما عندهم من العلم» المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم، أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعادة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رذت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تفيد شيئاً من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة فالله المستعان.

«وحاق بهم» أي: نزل «ما كانوا به يستهزئون» من العذاب. «فلما رأوا بأسنا» أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار «قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين» من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل. «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا»

(١) كذا في الأصل والاسم المشتهر للسورة هو (سورة فصلت).



من أجل نعيمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال: «فصلت آياته» أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق: «قرآناً عربياً» أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربياً. «لقوم يعلمون» أي: لأجل أن يتبين لهم معناه كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغنى من الرشد.

وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البيان إلا عمى فهو لاء لم يسبق الكلام لأجلهم، «وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون».

«بشيراً ونذيراً» أي: بشيراً بالشواب العاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتلقى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، «فهم

دخان فقال لها وللأرض اثنيان طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم * ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه، ويبدلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار، فكمل خلقها، ودحاها، وإخراج أقرانها، وتوابع ذلك * في أربعة أيام سواء للسائلين * عن ذلك، فلا يثبتك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

ثم * بعد أن خلق الأرض * استوى * أي: قصد * إلى * خلق السماء وهي دخان * قد ثار على وجه الماء، * فقال لها * ولما كان هذا التخصيص يومهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: * وللأرض اثنيان طوعاً أو كرهاً * أي: انقادا لأمري طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه. * قالتا أتينا طائعين * ليس لنا إرادة تخالف إرادتك. * فقضاهن سبع سموات في يومين * فتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رقيق، فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النزاعات، لما ذكر خلق السماوات قال: * والأرض بعد ذلك دحاها * يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

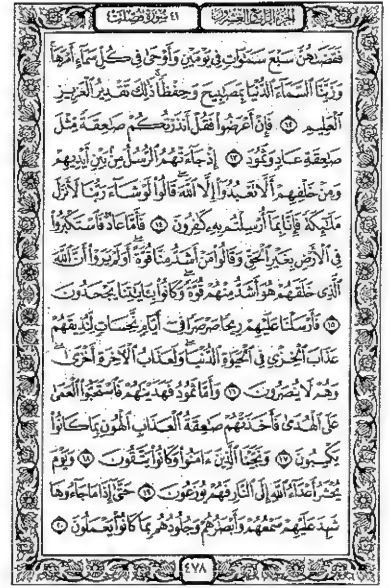
والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق الأرض وصورتها

بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: * إليه * تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد - ولو حرص على الاستقامة - لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: * واستغفروه * ثم توعّد من ترك الاستقامة فقال: * وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة * أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وندسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها. * وهم بالآخرة هم كافرون * أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم في الآخرة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم وجزاءهم، فقال: * إن الذين آمنوا * بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا بإيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة. * لهم أجر * أي: عظيم * غير ممنون * أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتبهات.

٩ - ١٢ * قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي



لا يسمعون * له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

وقالوا * أي: هؤلاء المرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: * قلوبنا في أكفئ * أي: أغطية مغطاة * بما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر * أي: صمم فلا نسمع لك * ومن بيننا وبينك حجاب * فلا نراك.

القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: * فاعمل إننا عاملون * أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

قل * لهم يا أيها النبي: * إننا أنا بشر مثلكم يوحى إلي * أي: هذه صفتي ووظيفتي، أي بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضّلني الله عليكم وميّزني وخصّني بالوحي الذي أوحاه إلي وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه.

فاستقيموا إليه * أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى،

متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ والجبال أرساها ﴿متأخر عن خلق السماوات كما في سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ ﴿أخرج منها﴾ إلى آخره ولم يقل: ﴿والأرض بعد ذلك خلقها﴾.

وقوله: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، التي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين. ﴿ورزقنا السماء الدنيا بمصابيح﴾ هي النجوم يستار بها ويتهدى، وتكون زينة وجالاً للسماء ظاهراً، وجالاً لها باطناً، يجعلها رجوماً للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها. ﴿ذلك﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها ﴿تقدير العزيز العليم﴾ الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات والغائب والشاهد.

فَتَرَكُ الْمُشْرِكِينَ الْإِخْلَاصَ لِهَذَا الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الَّذِي انْقَادَتِ الْمَخْلُوقَاتُ لِأَمْرِهِ وَنَفَذَ فِيهَا قَدْرَهُ مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَنْدَاداً يَسْوَوْنَهُمْ بِهِ، وَهُمْ نَاقِصُونَ فِي أَوْصَافِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ، وَلَا دَوَاءَ لَهُؤُلَاءِ إِنْ اسْتَمَرَّ إِعْرَاضُهُمْ، إِلَّا الْعُقُوبَاتُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْآخِرِيَّةُ، فَلِهَذَا خَوْفُهُمْ يَقُولُهُ:

﴿١٣-١٤﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ﴾ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴿

أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بين لهم من أوصاف الإله العظيم الحميدة، ومن صفات الإله العظيم ﴿فقل﴾ أنذرتكم صاعقة ﴿أي: عذاباً يستأصلكم ويبتاححكم، مثل صاعقة

عاد وثمود﴾ القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحتهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم.

حيث ﴿جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة. ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: يأمرون بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبهم، و﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي: وأما أنتم فبشر مثلنا ﴿فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾ وهذه الشبهة لم تنزل متوارثة بين المكذبين [من الأمم]، وهي من أوهى الشبه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فليَقْذَحُوا إِنْ اسْتَطَاعُوا بِصَدَقِهِمْ بِقَادِحِ عَقْلِي أَوْ شَرْعِي، وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مِنْ أَشَدِّ مَنَاقِبَةٍ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لننذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴿هذا تفصيل لقصة هاتين الأممين: عاد وثمود. ﴿فأما عاد﴾ فكانوا - مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله - مستكبرين في الأرض، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم. ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾ قال تعالى رداً عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ فلولاً خلقه إياهم، لم يوجدوا فلولاً نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً، لم يغتروا بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها.

وَقَالُوا لَوْلَا رَبُّهُمُ لَمْ يَرْفَعْنَا إِلَى مَنَاكِبِهَا فَأَنَّا لَمَبُكُونُ ﴿١٥﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿١٨﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿١٩﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢٤﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢٥﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢٧﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢٨﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَكِنَّا لَمَنَكِبُ الْوَجْدِ ﴿٣٠﴾

﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ أي: ريحاً عظيمة، من قوتها وشدها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله عليهم ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿نحسات﴾ فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم. وقال هنا: ﴿لننذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ الذي اختروا به واقتضوا بين الخليفة. ﴿ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾ أي: لا يمنعون من عذاب الله، ولا يمنعون أنفسهم.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَجَبُوا عَلَى الْهَدْيِ فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً صَاعِقَةَ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَتَجِئَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وأما ثمود وهزم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وجواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يوماً، ويشربون من الماء يوماً، وليسوا يتفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ أي:

بربكم ﴿الظن السيء﴾ حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله. ﴿أرداكم﴾ أي: أهلككم، ﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة.

﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ فلا جلدٌ عليها ولا صبر، وكل حالة قدر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفاً، وعظم غليان حميمها، وزادت نيران صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامتها، وغلظ خزانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك شحط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿اخصروا فيها ولا تكلمون﴾.

﴿وإن يستعذبوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب ويرجعوا إلى الدنيا ليستأنفوا العمل. ﴿فما هم من المعتبين﴾ لأنه ذهب وقته، وعمرها ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقضت حجتهم مع أن استعابهم كذب منهم ﴿ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

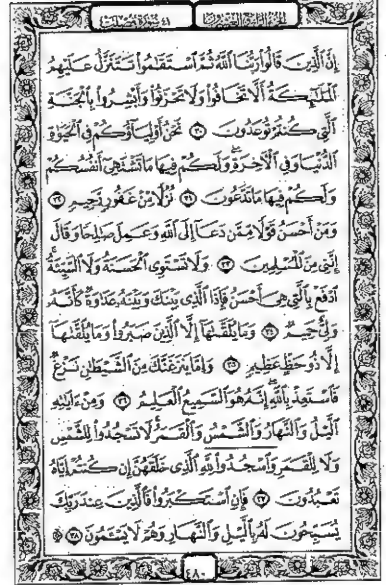
﴿٢٥﴾ ﴿وقيضنا لهم قرناء فزيناو لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ أي: وقيضنا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قرناء﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ أي: تزعجهم إلى المعاصي وتختهم عليها، بسبب ما زينوا ﴿لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ فالدينا زخرفها بأعينهم، ودعروهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأفندموها على معاصي الله، وسلكوا ما شأوا من محاربة الله ورسله، والآخره بعدوها

من المعتبين ﴿يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشيعة حين يحشرون، أي: يجمعون. إلى النار فهم يوزعون﴾ [أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوفاً غنياً، لا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون، ﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾ أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ عموم بعد خصوص [﴿بما كانوا يعملون﴾] أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

﴿فإذا شهدت عليهم عاتبوها، وقالوا لجلودهم﴾ هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: ﴿لم شهدتم علينا﴾ ونحن نناقض عنكم؟ ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد.

﴿وهو خلقكم أول مرة﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضاً صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. ﴿وإليه ترجعون﴾ في الآخرة، فيجزىكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ أي: وما كنتم تخفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك. ﴿ولكن ظننتم﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾. فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم



هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنشاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى.

ولكنهم - من ظلمهم وشرهم - استحبوا العمى - الذي هو الكفر والضلال - على الهدى - الذي هو العلم والإيمان - فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون لا ظلماً من الله لهم. ونجيننا الذين آمنوا وكانوا يتقون. أي: نجى الله صالحاً عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾ حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعذبوا فما هم

عليهم وأنسؤهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لأديانهم وآخرتهم، ومن خسِر، فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

﴿٢٦- ٢٩﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمِعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون. ﴿ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا يأتينا﴾ ويجحدون. ﴿وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ أي: أغرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، فـ ﴿الغوا فيه﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكثوا - مع قدرتكم - أحداً يملك عليكم الكلام به وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن، ﴿لعلكم﴾ إن فلعتم ذلك ﴿تغلبون﴾ [وهذه^(١) شهادة من الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لن

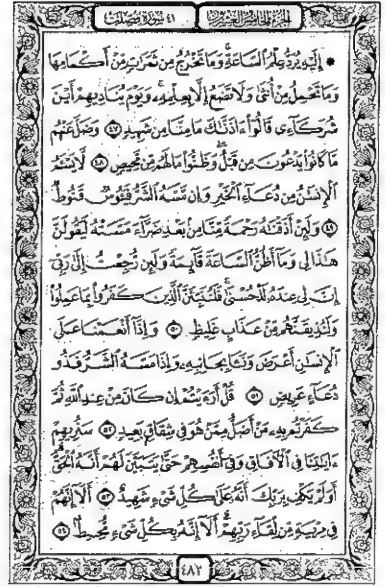
(١) في السختين (وهذا).

(٢) في (ب) (الشرك).



ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. ﴿نزلا من غفور رحيم﴾ يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تشييطهم والحث على الاقتداء بهم فقال: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علماً وعملاً، فلهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تنزل عليهم الملائكة﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار. ﴿ألا تخافوا﴾ على ما يستقبل من أمركم، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما مضى، فنفا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً. ويقولون لهم أيضاً مشبتين لهم ومبشرين: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويشبثونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشده، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأحوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون



وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن الدعوة إلى الله، تحبيبه إلى عباده بذكر تفضيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك، الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر

الوالدين. ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم والعبوارض والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفرادها، مما يشمل الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَمِلْ صَالِحًا﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، يادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يرضي ربه. وقال إنني من المسلمين. أي: المتقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الورثة التامة من الرسل، كما أن من أشرف الناس قولاً، من كان من دعاة الضالين^(١) السالكين لسبيله.

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداها إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق، ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون. ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي

حيم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابلته بالإحسان إليه، فإن قطعك فصلة، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك وترك خطابك فطُيب له الكلام، وابدل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: كأنه قريب شقيق.

﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان!!

فإذا صبر الإنسان نفسه، وأمثلة أمر ربه، وغرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بخس عمل لا يفيد شئاً، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك مثلاً مستحلياً له.

﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ ويقولون لهم أيضاً: ﴿ولكم فيها﴾ أي: في الجنة ﴿ما تشتهي أنفسكم﴾ قد أعد وهيء. ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي: تطلبون من كل ما تشعق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿نزلنا من غفور رحيم﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والتعظيم المقيم، نزل وضيافة من غفور غفر لكم السيئات، ﴿رحيم﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم. فبمغفرتة أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿٣٣﴾ ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المقرر أي: لا أحد أحسن قولاً. أي: كلاماً وطريقة، وحالة ممن دعا إلى الله، بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه، الدعوة إلى أصل دين الإسلام

ظاهرة وباطنه، وسيجازه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَقْمِن يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المتجني من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أي: يمحذون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، المغلي لقدر من اتبعه، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. ﴿وَرَى الْحَالَ إِنَّهُ لِكِتَابٍ﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عَزِيزٍ﴾ أي: منيع من كل من أراد به تحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزلها منازلها. ﴿حَكِيمٌ﴾ على ما له من صفات الكمال، وتغوت الجلال، وعلى ما له من العبدان والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمدها عليها.

﴿٤٣﴾ ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

اعيدوه وحده لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضرروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يَسْبَحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي: المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ ثم: أثبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد.

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها وهو دها، ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ من قبرهم إلى يوم بعثهم، وشورهم ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الإلهاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتضريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معان لها ما أرادها الله منها.

فتوعد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على

لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿٣٥ - ٣٩﴾ ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يَسْبَحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴿لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا يِقَابِلُ بِهِ الْعَدُوَّ مِنَ الْإِنْسِ، وَهُوَ مُقَابِلَةٌ إِسَاءَتِهِ بِالْإِحْسَانِ ذَكَرَ مَا يَدْفَعُ بِهِ الْعَدُوَّ الْخَفِيِّ، وَهُوَ الْاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ وَالْإِحْتِمَاءُ مِنْ شَرِّهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أي: أي وقت من الأوقات، أحسنت بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشتر، وتكسيه عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: أسأله، مفتقراً إليه، أن يعيدك ويعصمك منه، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطراك إلى عصيته وحمايته.

ثم ذكر تعالى أن ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: هذا بمتعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمتعة ظلمته، وسكون الخلق فيه. ﴿وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان. ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي : المشرّكين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً للكذبهم، فيقول لهم : ﴿أَين شركائي﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم وجادلتهم على ذلك، وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوا﴾ مقرّين بظلال الإيهتهم وشركتهم مع الله : ﴿أَذلكم ما متّامن شهيد﴾ أي : أعلمناك يا ربنا، وأشهد علينا أنه ما متّأ أحد يشهد بصحة الإيهتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال : ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ ما كانوا يدعون من دون الله، أي :

فإن قلتم، أو شككتهم بصحته وحقيقته، فسيقم الله لكم ويرىكم من آياته في الآفاق، كآيات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الخوارث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق. ﴿وفي أنفسهم﴾ ما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين، ونصر المؤمنين. ﴿حتى يتبين لهم﴾ من تلك الآيات، بياناً لا يقبل الشك. ﴿أنه الحق﴾ وما اشتمل عليه حق.

وقد فعل تعالى، فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء.

﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ أي: أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة الله تعالى، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصراً متضمناً لشهادته القولية عند من شك فيها.

﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ علماً وقدره وعزة.

تم تفسير سورة السجدة

— بمته تعالى —

تفسير سورة الشورى مكية

﴿١-٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم عسق﴾ كذلك يوحى إليك الحكيم ﴿له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم﴾ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم

ثم قال تعالى: ﴿ولئن أذقناه﴾ أي: الإنسان الذي لا يسأم من دعاء الخير، وإن منه الشر فيؤوس قنوط ﴿رحمة﴾ متناً أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويطنى، ويقول: ﴿هذا لي﴾ أي: أناني لأنني له أهل وأنا مستحق له ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له. ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة وهذا من أعظم الجبرأة والقول على الله بلا علم، فلعلنا توعدنا الله بقوله: ﴿فلننبئن الذين كفروا بما صملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ أي: شديد جداً.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما، ﴿أعرض﴾ عن ربه وعن شكره ﴿ونأى﴾ أي: ترفع ﴿بجانبه﴾ عجباً وتكبراً. وإن ﴿مسه الشر﴾ أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما ﴿فذو دعاء عريض﴾ أي: كثير جداً، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه الله ومن عليه.

﴿٥٢-٥٤﴾ ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي: شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ علماً وقدره وعزة.

ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم وتدفع عنهم العذاب وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئاً ﴿وظنوا﴾ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: منقذ ينقذهم، ولا مغيث ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، بيئنا الله لعباده ليحذروا الشرك به.

﴿٤٩-٥١﴾ ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ أي: لا يمل دائماً من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالباً للزيادة.

﴿وإن مسه الشر﴾ أي: المكروه، كالمرض والفقر وأنواع البلاء ﴿فيؤوس قنوط﴾ أي: ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضى عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب.

﴿ألا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدرجاً وإمهالاً، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم ييأسوا.

بوكيل * وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير * ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمة والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير * أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير * يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين، ففيه بيان فضله، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، سابقاً ولاحقاً، وأن محمداً ﷺ ليس بدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاؤوا به، لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من انصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدري والشرعي.

وأنه ﴿العلي﴾ بذاته، وقدره، وفهره. ﴿العظيم﴾ الذي من عظمته ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ على عظمها وكونها جماداً، ﴿والملائكة﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو ﴿الغفور الرحيم﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى هذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - أجمعين - خصوصاً، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من

معرفته ومحبه وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أئداد الله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. ﴿الله حفيظ عليهم﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ تسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أدبت وظيفتك.

ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قرآناً عربياً﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة المكرمة ﴿ومن حولها﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق. ﴿وتنذر﴾ الناس ﴿يوم الجمع﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لا ريب فيه﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فريق في الجنة﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، ﴿وفريق في السعير﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

﴿٨﴾ ﴿و﴾ مع هذا ﴿لو شاء الله﴾ لجعل الناس، أي: جعل الناس أمة واحدة على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمة من شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لضالحي، فإنهم محرومون من الرحمة، ف ﴿ما لهم﴾ من دون الله ﴿ومن ولي﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه.

والذين ﴿اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بعبادتهم وإياهم، فقد غلطوا أقبح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما

أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عموماً بتدبيره وتفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين خصوصاً، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم.

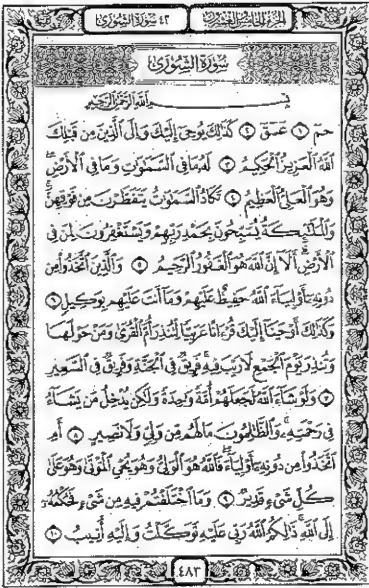
﴿وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وتفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب * فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يدرؤكم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير * له مقاليد السماوات والأرض ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم * يقول تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فحكمه إلى الله﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، كما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل. ﴿ذلكم الله ربي﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المذبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقاً به تعالى في الإسعاف بذلك. ﴿إليه أنيب﴾ أي: أتوجه بقلبي وبديني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثير ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته



الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾.

﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما بقدرته ومشيته وحكمته. ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل.

﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي: ومن جميع أصنافها نوعين، ذكرًا وأنثى، لتبقى وتنبو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل، أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿يبدؤكم فيه﴾ أي: يبتكم ويكرّم ويكثر مواشيك، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً.

﴿ليس كمثله شيء﴾ أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفة^(١) كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحيده بالكمال من كل وجه. ﴿وهو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾ يرى ديب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها، دليل للمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿وهو السميع البصير﴾.

وقوله: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي: له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة

ولهذا قال: ﴿إن أقيموا الدين﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان. ﴿ولا تفرقوا فيه﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، وأحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً، وتكونون شيعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ وقولهم: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب: (صفات).



﴿الله يجتبي إليه مَنْ يشاء﴾ أي يختار من خليفته مَنْ يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته ومنه أن اجتبي هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

﴿ويهدي إليه مَنْ يَنْتِيب﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنباته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فحين مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ نَسِلَ السَّلَامِ﴾.

وفي هذه الآية، أن الله يهدي إليه مَنْ يَنْتِيب مع قوله: ﴿واتبع سبيل مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنباتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ببقيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا

وإليه المصير﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فإنهم تباغضوا وتحادوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي: بتأخير العذاب القاصي إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم.

﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ أي: الذين ورثوه وصاروا خلفاً لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لفي شك منه مريب﴾ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعدواناً، فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتباباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿فلذلك فادع﴾ أي: فللذين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه مَنْ لم يقبله، ﴿واستقم﴾ بنفسك ﴿كما أمرت﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفرط ولا إفراط، بل امثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك.

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: ﴿ولا تتبع دينهم﴾ لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم،

ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿وقل﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليهم جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقاً بهذا القرآن وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحتها.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل، ﴿الله ربنا وربكم﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا. ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ من خير وشر ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي: بعدما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ وإنما المراد ما ذكرنا.

﴿الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ يوم القيامة، فيجزى كلا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿١٦﴾ ﴿والذين يماجون في الله من بعد ما استجيب له حجبتهم داخضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ وهذا تقرير لقوله: لا حجة بيننا وبينكم، فأخبر هنا أن ﴿الذين يماجون في الله﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة ﴿من بعد ما استجيب له﴾ أي: من بعد ما استجاب الله أولو الألباب والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهو لا المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حجبتهم داخضة﴾ أي: باطلة مدفوعة ﴿عند ربهم﴾ لأنها مشتملة على رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل.

﴿وعليهم غضب﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيئاته وتكذيبها. ﴿ولهم عذاب شديد﴾ هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿١٧- ١٨﴾ ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا أن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بيّنة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بيّنات، وأدلة واضحة، على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الأفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل،

والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباد، ليزنوا به ما أشبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين عن الكتاب والميزان مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل وما أخذها، وعرف التمييز بين راجع الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالعبارة المزخرفة، والألفاظ الموهمة، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوافقه وخلافه سيان.

ثم قال تعالى مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها، فقال: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ أي: ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، خوف وجبتها. ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ عناداً وتكديباً، وتعجيزاً لربهم. ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم برهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ الذي لا مزية فيه، ولا شك يعتريه ﴿إلا أن الذين يمارون في الساعة﴾ أي: بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة وخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق، وأي بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها، وهي دار عبور وعمر، لا محل استقرار.

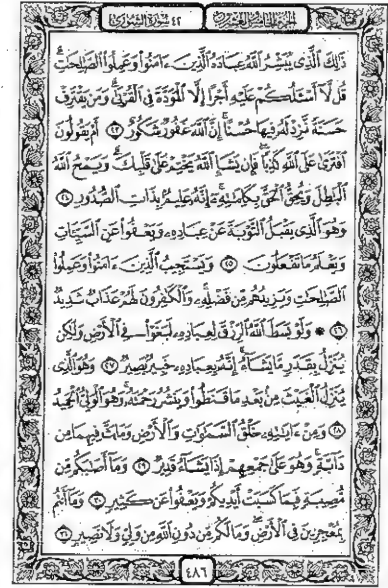
والذين يماجون في الله من بعد ما استجيب له حجبتهم داخضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا أن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا أن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا أن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد

فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وتكذبوا بالدار الآخرة، التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً، وأغزرهم علماً، وأعظمهم فطنةً وفهماً.

﴿١٩- ٢٠﴾ ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾ من كان يريد حرث الآخرة نزل في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾ يخبر تعالى بلطفه بعباده ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك، من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام، أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية، التي بها تقوى عزائمهم وتنبعث همهم، ويحصل منهم التنافس



على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قِيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْزُقُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أجرها وثوابها، فأمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿تَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ بأن تضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿وَمَنْ كَانَ يَرْزُقُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يحش عقابها. ﴿تَنْوَتْهُ مِنْهَا﴾ نصيبه الذي قسم له، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية، شبهة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْزُقُ حَرْثَ الدُّنْيَا وَزَيْتَهَا﴾ نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. إلى آخر الآيات.

﴿٢١-٢٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير * ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى ومن يترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور * يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشاركونهم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفسقة المشركين هم وأباؤهم على الكفر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة الحق وإهلاك المبطل، لأن مقتضى الإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

وفي ذلك اليوم ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مَشْفُقِينَ﴾ أي: خائفين وجلين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع، أخبر أنه ﴿وَاقِعٌ بِهِمُ﴾ العقاب الذي خافوه،

لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعاً فات فيه الإنظار والإمهال.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم بالله وكتبه ورسله وما جاؤوا به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهولاء ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية، المطربة، والاجتماع بكل حبيب والأخذ من العاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسناً وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقاً إلى لذاتها ورداداً، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟

﴿ذَلِكَ الَّذِي يَبْشُرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشراً بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه. ﴿أَجْرًا﴾ فليست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والرأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا الْمُدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجراً إلا أجراً واحداً هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني

الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباد خبير بصير * وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد * هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتبام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سببا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿ويعفو عن السيئات﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من الغيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط، ويعبه ويوقفه لما يقترنه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصها، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان على ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ فإله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقشروا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه وينقادون له ويلبون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

وزادهم من فضله توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به ورسله، فـ ﴿لهم عذاب شديد﴾ في الدنيا والآخرة، ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة، تضر بأديانهم فقال: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ أي: لغفلوا

على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجروون على هذا الكذب الصراح؟

بل تجرؤوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكنتك من هذه الدعوة العظيمة، المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنته الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعني شيئاً ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته، وسنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿ويحق الحق بكلماته﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الأبواب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يقبض له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبياناته، فظهر من نوره وهذا ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكتته ولم تبده.

﴿٢٥-٢٨﴾ ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكاثرون لهم عذاب شديد * ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في

في القرابة، أي: لأجل القرابة. ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقدير محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ولرسول الله ﷺ، فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد بالمودة: الله تعالى الضادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إلا المودة في القربى﴾ أي: في التقرب إلى الله، وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجراً بالكلية، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وقولهم: ﴿ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك﴾.

﴿ومن يقترف حسنة﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿نزد له فيها حسناً﴾ بأن يشرح الله صدره، ويبسر أمره، وتكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

﴿إن الله غفور شكور﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فيمغفرته يغفر الذنوب ويستز العيوب، ويشكره يتقبل الحسنات ويضاعفهاضاعفاً كثيرة.

﴿٢٤﴾ ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله نختم على قلبك ويصح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ يعني أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جراً منهم وكذباً: ﴿افترى على الله كذباً﴾ فمؤك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء

عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأرجيت لهم الإكباب على ما تشتهي نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً.

﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته. إنه بعباده خبير بصير. كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض، ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خير بصير».

﴿وهو الذي ينزل الغيث﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، «من بعد ما قنطوا» وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسروا وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فينزل الله الغيث «وينشر» به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعا عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وهو الولي﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. ﴿الحميد﴾ في ولايته وتديره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

﴿٢٩﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم، «خلق» هذه «السماوات والأرض» على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتيقان والإحكام دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وإن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وما بث فيهما﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده. ﴿وهو على جمعهم﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة. ﴿إذا يشاء قدير﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخير الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير. يخبر تعالى، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أيدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزاً عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون. ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾. وليس إله إلا الله تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم. ﴿وما لكم من دون الله من ولي نصير﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿٣٢-٣٥﴾ ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور. ﴿أو يوقهن بما كسبوا ويعف عن كثير﴾ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص. أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده. ﴿الجوار في البحر﴾ السفن، والمراكب النارية والشراعية، التي من عظمها «كالأعلام» وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التظام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان مبعوثاً

على ذلك.

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ التي جعلها الله سبباً لمشياها، ﴿فيظللن﴾ أي: الجوار «ورواكد» على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشياها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المضايقات عن التسخط، ﴿شكور﴾ في الرضاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي يتفجع بآيات الله.

وأم الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه مغرض أو معاند لا يتفجع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ليطولوا بها طيلهم﴾. ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: لا يتقدم

مقدمات حل بهم من العقوبة. ﴿٣٦-٣٩﴾ ﴿فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ والذي يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم يتفقون﴾ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون. هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فما أوتيتهم من شيء﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية. ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ لذة منغصة منقطعة. ﴿وما عند الله﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم. ﴿حسين﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما «وأبقى»

لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر، ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الشواب فقال: **«للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»** أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل، الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فقير تام، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

«والذين يمتنعون كبائر الإثم والفواحش» والفرق بين الكبائر والفواحش - مع أن جميعهما كبائر - أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتراح، وأما مع أفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه.

«وإذا ما غضبوا هم يغفرون» أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح.

فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: **«ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم»** وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

«والذين استجابوا لربهم» أي: انقادوا لطاعته، ولَبَّوا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فبذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وتفضله فقال: **«وأقاموا الصلاة»** أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها. **«ومما رزقناهم ينفقون»** من النفقات

الواجبة، كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة، كالصدقات على عموم الخلق.

«وأمرهم» الديني والدنيوي **«شورى بينهم»** أي: لا يستبد أحد منهم بزيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم وتوافقهم وتواددهم وتحابهم وكفال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى أعمال الفكر والرأي: فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي: في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً، فلها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

«والذين إذا أصابهم البغي» أي: وضل إليهم من أعدائهم **«هم يتصرون»** لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتباب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار على أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم، فعل ما هو دونه، وانتفاء ضدها.

«٤٠ - ٤٣» **«وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين»** * ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولئن صبر وغفروا إن ذلك لمن عزم الأمور * ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس



بالنفس، وكل جازحة بالجازحة الماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: **«فمن عفا وأصلح فأجره على الله»** يجزيه أجراً عظيماً، وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يجب أن يعامله الله به، فكما يجب أن يعفو الله عنه، فلْيَغْفِرْ عنهم، وكما يجب أن يساعده الله، فليساعدهم، فإن الجزء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: **«إنه لا يحب الظالمين»** الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

«ولئن انتصر بعد ظلمه» أي: انتصر عن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه **«فأولئك ما عليهم من سبيل»** أي: لا حرج عليهم في ذلك.

ودل قوله: **«والذين إذا أصابهم البغي»** وقوله: **«ولئن انتصر بعد ظلمه»** أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة



ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديباً يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إنما السبيل﴾ أي: إنما تتوجه الخجة بالعقوبة الشرعية ﴿على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي: موجه للقلوب والابدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿ولن صبر﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وغفر﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

﴿٤٤-٤٦﴾ ﴿ومن يضل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿من يضل الله﴾ بسبب ظلمه ﴿فما له من ولي من بعده﴾ يتولى أمره ويهديه.

﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب﴾ مرأى ومنظراً فظيعاً، ضعیباً شنيعاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم، ﴿ويقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي: على النار ﴿خاشعين من الذل﴾ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً، من هيبتها وخوفها.

﴿وقال الذين آمنوا﴾ حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إن الخاسرين﴾ على الحقيقة ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم. ﴿ألا إن الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿في عذاب مقيم﴾ أي: في سوائه ووسطه، متغمرين لا يخرجون منه أبداً، ولا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ كما كانوا في الدنيا يمتنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم

عذاب الله لم يدفع عنهم. ﴿ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ تحصل به هدايته، فهو لا ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فبين حينئذ ضلالهم.

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتنال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخلق من خلفهم، ونودوا ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذوا إلا بسلطان﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فإن أعرضوا﴾ عما جتته به بعد البيان التام ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ تحفظ أعمالهم وتسال عنها، ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ فإذا أدبت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذقه الله رحمة، من صحة بدن، ورزق رغد، وجاه ونحوه ﴿فرح بها﴾ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المتغير.

فخير، وإن شراً فشر. ثم تفسير سورة الشورى، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على تيسيره وتسهيله.

تفسير سورة الزخرف مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْدٌ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ لَعِلْمًا لِّدُنَا لَعَلَّكُمْ أَتَّعِزُّبَ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا المقسم عليه، أنه يجعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لَدُنَّا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ أي: لعلي في قدره وشرفه وعمله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملًا، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي: أفنعرض عنكم، ونترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم، وعدم انقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن آمنتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

﴿٦-٨﴾ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا

إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهاً. ﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كلمه الرحمن.

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، ف ﴿يُرْسِلُ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة.

﴿فِيُوحِي بِآذَنِهِ﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى علي الذات، علي الأوصاف، عظيمها، علي الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات. حكيم في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن يحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تحيط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وَإِنَّا لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: تبينه لهم وتوضحه، وتبينه وترهبهم منه، ثم فسّر الصراط المستقيم فقال:

﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته، ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازى كلا بحسب عمله، إن خيراً

﴿وإن تصيبهم سبئة﴾ أي: مرض أو فقر، أو نحوهما ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيْدِيَهُمْ﴾ فإن الإنسان كفورٌ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَنْبَغُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءٌ وَيَنْبَغُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورُ * أَوْ يَزُوجَهُمْ ذَكَرَانًا وَانثَاءً وَيُجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى، من عمومها، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق من يهب له إنثاء، ومنهم من يهب له ذكوراً، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكوراً وإنثاء، ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، ويقدرته في مخلوقاته.

﴿٥١-٥٣﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِي بِآذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّا لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ لما قال المكذبون لرسول الله، الكافرون بالله: ﴿لَوْ لَا يَكْلِمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، ولأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه.

إما أن يكلمه الله وحياً بأن يلقي الرحي في قلب الرنبول، من غير

بالبنين * وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقتهم شكك شهداتهم ويسألون *

وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يغرصون * أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلناهم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين * يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه :

منها : أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها : أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مبين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فبحال أن يكون لله تعالى ولد.

ومنها : أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهن بالبنين، ويفضلهم بها؟! فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها : أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين، وأكرهما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك ﴿إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً﴾ من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

ومنها : أن الأنثى ناقصة في

جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار. ﴿لعلكم تهتدون﴾ في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضاً بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال : ﴿فأنشأنا به بلدة ميتاً﴾ أي : أحييناها بعد موتها، ﴿كذلك تخرجون﴾ أي : فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعدما تستكملون في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم.

﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ أي : الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك. ﴿وجعل لكم من الفلك﴾ أي : السفن البحرية، الشراعية والنارية، ما تركبون ﴿و﴾ من الأنعام ما تركبون ﴿تستقروا عليها﴾ أي : لتستقروا على ظهوره، وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام، أي : لتستقروا عليها، ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ بالاعتراف بالنعمة من سخرها، والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال : ﴿وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ أي : لولا تسخيرنا لما سخر من الفلك، والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلّلها ويسر أسبابها.

والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره، من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد.

﴿١٥-٢٥﴾ ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم

كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين * يقول تعالى : إن هذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم هباءً، فكم ﴿أرسلنا من نبي في الأولين﴾ يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم.

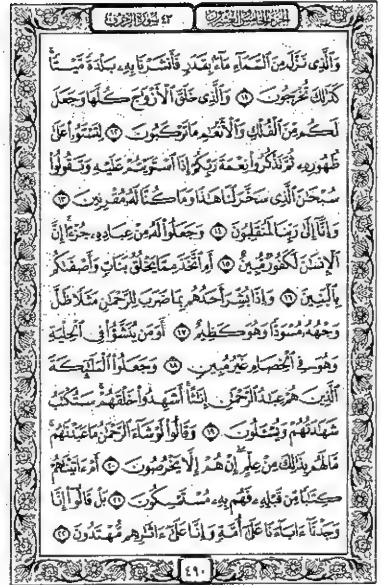
﴿وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون﴾ جحداً لما جاء به، وتكبيراً على الحق.

﴿فأهلكنا أشد﴾ من هؤلاء ﴿بطشاً﴾ أي : قوة وأفعالاً وآثراً في الأرض، ﴿ومضى مثل الأولين﴾ أي : مضت أمثالهم وأخبارهم، وبيناً لكم منها ما فيه عبرة ومزجج عن التكذيب والإنكار.

﴿٩-١٤﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ الذي جعل لكم الأرض مهجداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون * والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشأنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستقروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون * يخبر تعالى عن المشركين، أنك لو سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله وحده لا شريك له، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يميت ولا يحيي؟!

ثم ذكر أيضاً من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره، بما خلقه لعباده من الأرض التي مهجداً وجعلها قراراً للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

﴿وجعل لكم فيها سبلاً﴾ أي :



فقال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يترى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه. ﴿وَرَسُولٌ مَّبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبفسد دعوته ﷺ.

﴿وَمَا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي يوجب على مَنْ له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخيب الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك، طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

﴿وَقَالُوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: معظم عندهم، مبيجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله ردّاً لاقتراحهم: ﴿أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ﴾ أي: أهم الحزان

لرحمة الله، ويذهبهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة مَنْ يشاؤون، ويمنعونها مَنْ يشاؤون؟

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في الحياة الدنيا، ﴿وَالْحَالُ أَنَّ رَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيسقط الرزق على مَنْ يشاء، ويضيقه على مَنْ يشاء، بحسب حكيمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها، دينيها ودنيويها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم، من جهة غلظهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رأياً، وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون مَنْ لم يشم مثقال ذرة من كماله؟! ومن جرمة ومنتهى حقته، أن جعل إلهه الذي يعبد ويدعوه ويتقرب إليه، صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا مَنْ فعل

السفهاء والمجانين؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يقولون.

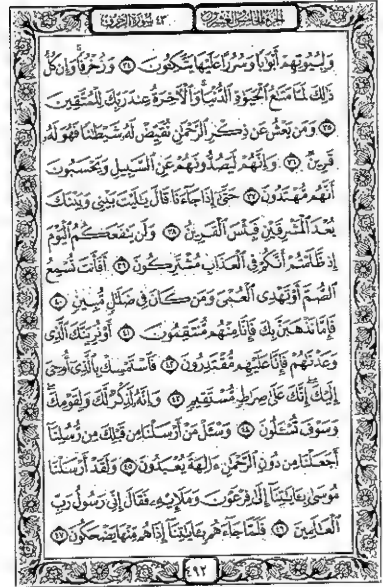
وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضاً، في الأعمال والحرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتاج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿٣٣-٣٥﴾ ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوئ عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، لوسّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، وجعل ﴿لبيوتهم سُقْفًا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: درجاً من فضة ﴿عليها يظهرون﴾ على سطوحهم.

﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زخرفاً﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، متغصّة، مكدرة، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره



عليه، ويذكركم الشر ويهيبكم عنه،
﴿وسوف تسألون﴾ عنه، هل قمتم به
فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به
فيكون حجة عليكم، وكفرا منكم بهذه
النعمة؟

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من
رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة
يعبدون﴾ حتى يكون للمشركين نوع
حجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل،
فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن
أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى
اتخاذ إله آخر مع الله مع أن كل
الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون
إلى عبادة الله، وحده لا شريك له.
قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة
رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت﴾ وكل رسول بعثه الله،
يقول لقومه: اعبدوا الله لا لكم من إله
غيره، فدل هذا، أن المشركين ليس لهم
مستند في شركهم، لا من عقل
صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿٤٦- ٥٦﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى
بآياتنا إلى فرعون وملئه﴾ إلى آخر
القصة^(١) لما قال تعالى:

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا
أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾
بين تعالى حال موسى ودعوته، التي
هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل،

ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في
كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال:
﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ التي دلت
دلالة قاطعة على صحة ما جاء به،
كالعصا، والحية، وإرسال الجراد،
والقمل، إلى آخر الآيات.

﴿إلى فرعون وملئه فقال إني رسول
رب العالمين﴾ فدعاهم إلى الإقرار
بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه،
﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها
يضحكون﴾ أي: ردوها وأنكروها،
واستهزؤا بها، ظلماً وعلواً، فلم يكن
لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها،
ولهذا قال: ﴿وما نريهم من آية إلا هي
أكبر من اختها﴾ أي: الآية المتأخرة
أعظم من السابقة، ﴿وأخذناهم
بالعذاب﴾ كالجراد، والقمل،
والضفادع، والدم، آيات مفصلات.
﴿لعلهم يرجعون﴾ إلى الإسلام،
ويذعنون له، ليحول شركهم وشركهم.

﴿وقالوا﴾ عندما نزل عليهم
العذاب: ﴿يا أيها الساحر﴾ يعنون
موسى عليه السلام، وهذا، إما من
باب التهكم به، وإما أن يكون هذا
الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه
بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون
أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا:
﴿يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد
عندك﴾ أي: بما خصك الله به،
وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن
يكشف عتاء العذاب ﴿إننا لمهتدون﴾ إن
كشف الله عتاء ذلك، ﴿فلما كشفنا

عنهم العذاب إذا هم ينكتون﴾ أي: لم
يقفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا
على كفرهم. وهذا كقوله تعالى:
﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد
والقمل والضفادع والدم آيات
مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً
مجرمين﴾ ولما وقع عليهم الرجز قالوا
يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك
لئن كشفت عتاء الرجز لنؤمنن لك
ولنرسلن معك بني إسرائيل * فلما
كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه

إذا هم ينكتون﴾ إذا هم ينكتون﴾
﴿ونادى فرعون في قومه قال﴾
مستعلياً بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه
ماله وجنوده: ﴿يا قوم أليس لي ملك
مضرب﴾ أي: أأست المالك لذلك،
المتصرف فيه، ﴿وهذه الأنهار تجري من
تحتي﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل،
في وسط القصور والبساتين. ﴿أفلا
تبصرون﴾ هذا الملك الطويل العريض،
وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر
بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر
بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿أم أنا خير من هذا الذي هو
مهين﴾ يعني - قبحه الله - بالهين،
موسى بن عمران، كليم الرحمن،
الوجيه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو
الذليل المهان المحقر، فأينا خير؟ ﴿و﴾
مع هذا فلا ﴿يكاد يبين﴾ عتاً في
ضميره بالكلام، لأنه ليس بفصيح
اللسان، وهذا ليس من العيوب في
شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو
كان ثقيلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: ﴿فلولا لقي عليه
أسورة من ذهب﴾ أي: فهل كان
موسى بهذه الحالة، أن يكون مزبناً
جمللاً بالجلي والأساور؟ ﴿أو جاء معه
الملائكة مقبزين﴾ يعاونونه على
دعوته، ويؤيدونه على قوله.

﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ أي:
استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه
الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من
جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً
على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا
على ضعفاء العقول.

فأي: دليل يدل على أن فرعون
حق، لكون ملك مصر له، وأتاهه
تجري من تحته؟

وأي: دليل يدل على بطلان ما جاء
به موسى، لقلة أتباعه، وثقل لسانه،
وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملاً
لا يعقول عندهم، فمهما قال اتبعوه،
من حق وباطل، ﴿إنهم كانوا قوماً
فاسقين﴾ فيسبب فسقهم، فيض لهم

(١) وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخرها.

فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

﴿فلما أسفونا﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿٥٧-٦٥﴾ ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ وقالوا ألهتنا خير أم هو ما ضربه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل﴾ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴿وإنه لعلم للساعة فلا تترنوا بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾ ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتبعوا الله وأطيعون﴾ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ يقول تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً﴾ أي: نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد. ﴿إذا قومك﴾ المكذبون لك ﴿منه﴾ أي: من أجل هذا المثل المضروب، ﴿يصدون﴾ أي: يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم، وأفلجوا.

﴿وقالوا ألهتنا خير أم هو﴾ يعني: عيسى، حيث نهي عن عبادة الجميع، وشرك بينهم بالوعيد على من عيدهم، ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾

﴿ولم قلتم﴾: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ حسب جهنم أنتم لها وازدون ﴿. وهذا لفظ بزعمهم، يعص الأصنام، وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها، هذا أنهى ما يقررون به هذه الشبهة [الذي] ^(١) فرحوا بها واستبشروا، وجعلوا يصدون ويتباشرون.

وهي - والله الحمد - من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عبادة الأصنام، لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق، فأى: شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟

وليس تفضيل عيسى عليه السلام، وكونه مقرباً عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال تعالى: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾ بالنسبة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.

وأما قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ حسب جهنم أنتم لها وازدون ﴿فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ أن «ما» اسم لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.

الثاني: أن الخطاب للمشركين، الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثاناً ولا يعبدون المسيح.

الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إن الذين سبقتم لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ فلا شك أن

عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون في هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ أي: لجعلنا بدلاً منكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى ترسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلاً من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

﴿وإنه لعلم للساعة﴾ أي: وإن عيسى عليه السلام، لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو وإن عيسى عليه السلام، سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة. ﴿فلا تترنوا بها﴾ أي: لا تشكروا في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر. ﴿واتبعون﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتنب ما نهيتكم، ﴿هذا صراط مستقيم﴾ موصل إلى الله عز وجل، ﴿ولا يصدنكم الشيطان﴾ عما أمركم الله به، فإن الشيطان ﴿لكم عدو﴾ خريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك. ﴿ولما جاء عيسى بالبينات﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به،

(١) في النسختين (الذي) ولعل الصواب (التي).

والثمار اللذيذة تأكلون^(١).

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿٧٤-٧٨﴾ **﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مَبْلُوسُونَ * وَمَا ظَلَمْتَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِيكٌ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ * لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾**

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ الذين أجزموا بكفرهم وتكذيبهم **﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾** أي: منغمرون فيه، محبطينهم العذاب من كل جانب، **﴿خَالِدُونَ﴾** فيه، لا يخرجون منه أبداً، و **﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ﴾** العذاب ساعة، بإزالته، ولا بتحويل عذابه، **﴿وَهُمْ فِيهِ مَبْلُوسُونَ﴾** أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون بهم فيقولون: **﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَدْنَا فَأَنَا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾** وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿وَنَادَوْا﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، **﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِيكٌ﴾** أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. **﴿قَالَ﴾** لهم مالك خازن النار: حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم - **﴿إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ﴾** أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غماً إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: **﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾** الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه، لفزتم وسعدتم، **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾** لذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

﴿٧٩-٨٠﴾ **﴿أَمْ أَمْرًا أَمَّا إِنَّا مِيرْمُونَ * أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ**

سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ يقول تعالى: **﴿أَمْ أَمْرًا﴾** أي: كادوا كيداً، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، **﴿فَإِنَّا مِيرْمُونَ﴾** أي: محكمون أمراً، ومديرون تدبيراً يعلمو تدبيرهم، وينقضه ويبطله، وهو ما قَبَضَهُ اللهُ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْأَدَلَّةِ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ، كما قال تعالى: **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾**

﴿أَمْ يَحْسِبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم **﴿أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾** الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم **﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾** أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: **﴿بَلَى﴾** أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم، **﴿وَرَسَلْنَا﴾** الملائكة الكرام، **﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾** كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا خاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿٨١-٨٣﴾ **﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَلَرَّهْمُ يَخْشَوْنَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾** أي: قل يا أيها الرسول الكريم: للذين جعلوا لله ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأمور المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفياً، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سباً إليه وتكميلاً له، وكل شر

فهم أول الناس تركاً له وإنكاراً له ويُعداً منه، فلو كان على هذا الرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله، أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فإنما أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقاً، لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلاً ونقلاً. **﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** من الشريك والظهير، والعوين والولد، وغير ذلك، مما نسبته إليه المشركون. **﴿فَلَرَّهْمُ يَخْشَوْنَ وَيَلْعَبُونَ﴾** أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلمهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وفسادة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: **﴿حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾** فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

﴿٨٤-٨٩﴾ **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَأْتَيْنَهُمْ مِنْ خَلْقِهِمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** يخبر تعالى، أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة (أ) مقدماً على تفسير الآية السابقة (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون).

لجلاله، ويفتقرون لكماله.

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ ﴿والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾.

فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألوه الخلائق كلهم، طائعتين مختارين، وكرهين. وهذه كقوله تعالى: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ أي: ألوهيته ومحبته فيهما. وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة. ﴿العليم﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يغرب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفرّد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تحيى الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿والله ترجعون﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي: كل من دعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة

وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاؤوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه. ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فأنى يؤفكون﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فيأقراهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وقيل له يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حلیم، يمهّل العباد ويستأني بهم، لعلمهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال:

﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يُقابل به أولو الأبواب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاباً بمقتضى جهلهم ﴿قالوا سلاماً﴾ فامثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب

الجميل.

فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم، الذي فضل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: غيب ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان مكية

﴿١٦-١٧﴾ ﴿يسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب اليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون * إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿في ليلة مباركة﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوماً عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيؤوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الآخروي، ولهذا قال: ﴿إنا كنا منذرين﴾ فيها: أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يفرق كل أمر حكيم﴾ أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدره وشرعي حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان،



إنا منتقمون ﴿١٧﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم .

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين ، لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك .

بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة ، وهذا الذي يظهر عندي ويرجح ، والله أعلم .

﴿١٧ - ٣٣﴾ ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ إلى آخر القصة ^(١) لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ ، ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين ، فذكر قصتهم مع موسى ، وما أحل الله بهم ، ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه ، فقال : ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ أي : ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم ، الرسول الكريم ، الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره ، ﴿أن أدوا إلي عباد الله﴾ أي : قال لفرعون وملائته : أدوا إلي عباد الله ، يعني بهم : بني إسرائيل ، أي : أرسلوهم ، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إليهم سوء العذاب ، فإنهم عشتري ، وأفضل العالين في زمانهم . وأنتم قد ظلمتموهم ،

واستعبدتموهم بغير حق ، فأرسلوهم ليعيدوا ربهم ، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي : رسول من رب العالمين ، أمين على ما أرسلني به ، لا أكتكم منه شيئاً ، ولا أزيد فيه ولا أنقص ، وهذا يوجب تمام الانقياد له .

﴿وأن لا تعملوا على الله﴾ بالاستكبار عن عبادته ، والعلو على عباد الله ، ﴿إني أتاكم بسلطان مبين﴾ أي : بحجة بينة ظاهرة ، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات ، والأدلة القاهرات ، فكذبوه وهما يقتله ، فلجأ بالله من شرهم ، فقال : ﴿وإني عدت بربي وربيكم أن ترجون﴾ أي : تقتلوني أشر القتلات ، بالرجم بالحجارة .

﴿ولن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي : لكم ثلاث مراتب : الإيمان بي ، وهو مقصودي منكم ، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة ، فاعتزلوني ، لا علي ولا لي ، فاكفوني شركم ، فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية ، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله ، عارين لنبه موسى عليه السلام ، غير محكين له من قومه بني إسرائيل ، ﴿فدعاهم أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ أي : قد أجمعوا جرماً ، يوجب تعجيل العقوبة .

فأخبر عليه السلام بحالهم ، وهذا دعاء بالخال ، التي هي أبلغ من المقال ، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً ، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه ، ﴿واترك البحر رهوا﴾ أي : بحاله وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله ، ثم تبعهم فرعون ، فأمر الله موسى أن يضرب البحر ، فضربه ، فصار اثني عشر طريقاً ، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة ، فسلكه موسى وقومه .

فلما خرجوا منه ، أمره الله أن يتركه رهواً ، أي : بحاله ، ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إنهم جند مغرقون﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه ، وقوم

فرعون داخلين فيه ، أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم ، فغرقوا عن آخرهم ، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا ، وأورثه الله بني إسرائيل ، الذين كانوا مستعبدين لهم ، ولهذا قال : ﴿كم تركوا من جنات وعيون ﴾ وزروع ومقام كريم ﴾ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ كذلك وأورثناها﴾ أي : هذه النعمة المذكورة ﴿قوماً آخرين﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ .

﴿فما بك عليهم السماء والأرض﴾ أي : لما أتلّفهم الله وأهلكهم ، لم تيك عليهم السماء والأرض ، أي : لم تحزن عليهم ، ولم يؤس على فراقهم ، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم ، حتى السماء والأرض ، لأنهم ما خلقوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم ، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين .

﴿وما كانوا منظرين﴾ أي : مبهلين عن العقوبة ، بل اصطلمتهم في الحال . ثم امتنّ تعالى على بني إسرائيل ، فقال : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ الذي كانوا فيه ﴿من فرعون﴾ إذ يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم .

﴿لأنه كان عالياً﴾ أي : مستكبراً في الأرض بغير الحق ، ﴿من المسرفين﴾ المتجاوزين لحدود الله ، المتجرتين على محارمه .

﴿ولقد اخترناهم﴾ أي : اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿على علم﴾ منا بهم ، وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿على العالمين﴾ أي : عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ ، ففَضَّلوا العالمين كلهم ، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس ، وامتّن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم .

﴿واتيناهم﴾ أي : بني إسرائيل ﴿من الآيات﴾ الباهرة ، والمعجزات الظاهرة ، ﴿ما فيه بلاء مبين﴾ أي :

(١) في نسخة (ب) ذكر الآيات كاملة .

واضحات، على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضاً على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه، إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتفكرون فيرفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألباهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعاً تقوم به الحجة عليهم، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تترك قلبه، ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل فقال:

﴿ويل لكل أفلاك أثيم﴾ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعاله. وأخبر أن له غذاباً أليماً، وأن من ورائهم جهنم تكفي في عقوبتهم البليغة.

وأنه لا يغني عنهم ما كسبوا من الأموال ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ يستنصرون بهم فخذلهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

فلما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية، أنه هدى، فقال: ﴿هذا هدى﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه، وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالملتدون اهتموا به، فأفلحوا وسعدوا، ﴿والذين كفروا

لعلهم يتذكرون﴾ ما فيه نفعهم فيعملونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

﴿فارتقب﴾ أي: انتظر ما عندك ربك من الخير والنصر، ﴿إنهم مرتقبون﴾ ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

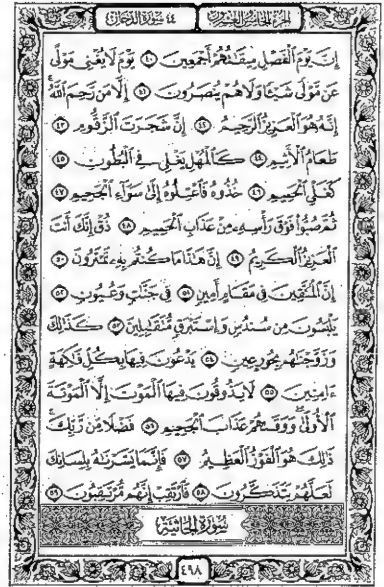
تم تفسير سورة الدخان،

ولله الحمد والمآلة

تفسير سورة الجاثية مكية

﴿١-١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما بين من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفلاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم * يخبر تعالى خيراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿تنزيل﴾ من الله المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة، ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء، الذي يحيي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة



يحار الطرف في حسنهن، وينهر العقل بجمالهن، وينقلب القلب لكمالهن، ﴿عين﴾ أي: ضحام الأعين حسانها.

﴿يدعون فيها﴾ أي: الجنة ﴿بكل فاكهة﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، ﴿آمنين﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرتهم، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لا يدعون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ فضلاً من ربك، أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟

﴿فإنما يسرناه﴾ أي: القرآن ﴿بلسانك﴾ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أنفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فيسر به لفظه، وتيسر معناه.

بآيات ربهم ﴿الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه، ﴿لهم عذاب من رجز أليم﴾

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿يخبر تعالى بفضلله على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، ﴿لتبتغوا من فضله﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب، والثوابت، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والشمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دال على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنعة، وحسن الخلقة، دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفاعل لما يريد، وما فيها من المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه

وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود، الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاؤوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة، لا تقبل ريباً ولا شكاً.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق، والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله، أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين، يجزيكم على إيمانكم، وصفحكم وصبركم، ثواباً جزيلاً، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿ثم قال تعالى: ﴿ولقد أتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وورقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾ وأتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وأتيناهم ﴿الكتاب﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿الحكم﴾ بين الناس، و ﴿النبوة﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ورقناهم من الطيبات﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

(١) في أ: هذه الجملة غير واضحة وفيها شطب وتصويه من: ب.



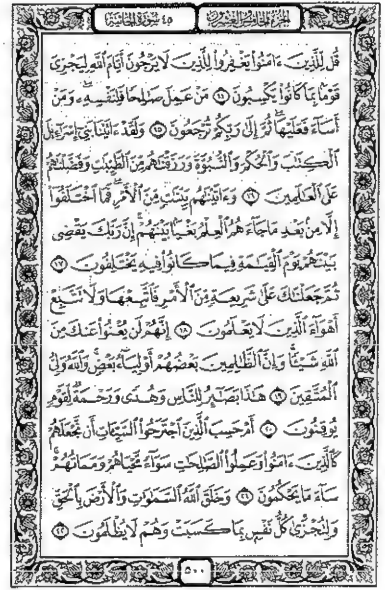
الأمّة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمّة، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل، ويميزهم عن غيرهم، وأيضاً فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة، وغيرها من النعمت، قد حصلت كلها لهذه الأمّة، وزادت عليهم هذه الأمّة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيم على سائر الكتب السابقة، وعحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.

﴿وأتيناهم﴾ أي: أتينا بني إسرائيل ﴿بينات﴾ أي: دلائل تبين الحق من الباطل ﴿من الأمر﴾ القدر الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رآوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أي: الموجب لعدم



الاختلاف، وإنما حللهم على الاختلاف البني من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إِنَّ رِبْكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز الحق من المبطل، والذي حله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

﴿١٨ - ١٩﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِي الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماثية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هوواه وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفقونك عند الله، فَيَحْضُرُوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿وَاللَّهُ وَلِي الْمُتَّقِينَ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿٢٠﴾ ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ﴿هذا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بصائر للناس﴾ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهدتو به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحاجة على من أصبر وعاند.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أم حسب السيئون، المكشرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم.

﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسنوا أن يكونوا ﴿سواء﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب، في العاجل والآجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء، في الدنيا والآخرة.

﴿٢٢﴾ ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ أي: خلق الله السموات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالأمر؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿٢٣ - ٢٦﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاءً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتنوا بآياتنا إن كنتم صادقين * قل الله يبييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿أفرأيت﴾ الرجل الضال الذي ﴿اتخذ إلهه هواه﴾

فما هويه سلكه، سواء كان يرضى الله أو يسخطه. ﴿وأضله الله على علم﴾ من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها. ﴿وختم على سمعه﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وقلبه﴾ فلا يعي الخير، ﴿وجعل على بصره غشاة﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو ظلم نفسه، وتبب لنزع رحمة الله عليه ﴿أفلا تذكرون﴾ ما يتفككم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وقالوا﴾ أي: منكروا النبث ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي: إن هي إلا عادات، وجزي على رسوم الليل والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس، ومات فليس يرجع إلى الله، ولا يجازي بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إن هم إلا يظنون﴾ فأبكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستيعادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتنوا بآياتنا إن كنتم صادقين﴾ وهذا جراءة منهم على الله،

أليم العقاب .

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد، ويستعد له العباد، فقال: ﴿وترى﴾ أي الرائي لذلك اليوم ﴿كل أمة جاثية﴾ على ركبها خوفاً وذعراً، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن .

﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسى وكلفت به، شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ .

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ فهذا كتاب الأعمال، ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، ومن واجبات ومستحبات، ﴿فدخلهم ربهم في رحمته﴾ التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي: الفوز والنجاة والريح، والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، وانذفع عنه كل شر .

﴿وأما الذين كفروا﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ وقد دلتم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو

حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم، وأنهم لو جاؤوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتهم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وإلا فلر وصل العليم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالاً وتبوءوا له .

﴿٢٧ - ٣٧﴾ ﴿والله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ ينصر المبطلون﴾ وتري كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزؤون ما كنتم تعملون ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ﴿وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين﴾ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أواكم النار وما لكم من ناصرين ﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ فله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه ﴿يوم تقوم الساعة﴾ ويمح الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسران على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على

وفقتم لها، ولكن استكبرتم عنها، وأعرضتم، وكفرت بها، فجنيتهم أكبر جناية، وأجرتم أشد الجرم، فاليوم تجزؤون ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضاً بقوله: ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة﴾ ﴿وما نحن بمستيقنين﴾ إن نظن إلا ظناً وما نحن بالهال في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، ورده قول من جاء به . قال تعالى: ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: نزل بهم العذاب، الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به وبوقوعه وبمن جاء به . ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ أي: نترككم في العذاب ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿وما أواكم النار﴾ أي: هي مقركم ومصيركم، ﴿وما لكم من ناصرين﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه .

﴿ذلكم﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿ب﴾ سبب ﴿أنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ مع أنها موجهة للمجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح .

﴿وغرتم الحياة الدنيا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية .

﴿فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً .

﴿فله الحمد﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رب السماوات ورب الأرض رب العالمين﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعيم الظاهرة والباطنة، ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد .

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، وعجبه تعالى وإكرامه،

أنبتوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟

لا شيء من ذلك، بإقرارهم بأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله، فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقل، فقال: ﴿اثبتني بكتاب من قبل هذا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك، ﴿أو أثارة من علم﴾ موزون عن الرسل يأمر بذلك. من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل تجزم وتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم، ونهاوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وكل رسول قال لقومه: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فعلم أن جدال المشركين في شركهم، غير مستندين فيه على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وأراء كاسدة، وعقول فاسدة.

يدلُّك على فسادها استقرار أحوالهم، وتبعية علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته، هل أفادهم شيئاً في الدنيا أو في الآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ أي: مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به بمشقة ذرة، ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم. ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾ يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

﴿٧-١٠﴾ ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ أم يقولون افتراه قبل أن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما فيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما

سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً.

وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاها مقدر إلى أجل مسمى.

فلما أخبر بذلك - وهو أصدق القائلين وأقام الدليل، وأثار السبيل أخير - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إغراضاً عن الحق، وصدوفاً عن دعوة الرسل، فقال: ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر.

﴿٤-٦﴾ ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرأيتم ماذا خلقوا من السماوات أم لهم شرك في السماوات اثبتني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، أو ثناءً وأنشاداً، لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، قل لهم - مبيناً عجز أو ثائهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة -: ﴿أروني ماذا خلقوا من السماوات أم لهم شرك في السماوات﴾ هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبالاً؟ هل أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل

والكبرياء فيها عظمتة وجلاله، والعبادة مبنية على ركنين، محبة الله، والذل له، وهما ناشتان عن العلم بمحمد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وهو العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا حكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الأحقاف، والله الحمد والنعمة والفضل

تفسير سورة الأحقاف مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما﴾ وكما قال تعالى: ﴿يتنزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فأتقون﴾ خلق السماوات والأرض بالحق ﴿فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكنتهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وعمر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سيتنقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والبقاء، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار،

﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾

أي: لست بأول رسول جاءكم، حتى تستغبروا رسالتي وتستنكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلاي: شيء تنكر رسالتي؟ ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أي: لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي، ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبتهم دعوتي، فهو حظكم ونصيبيكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتهم ذلك علي فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ أي: أخبروني، لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته المرفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا به وأتبعوا، فمطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء، واستكبرتم أيما الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

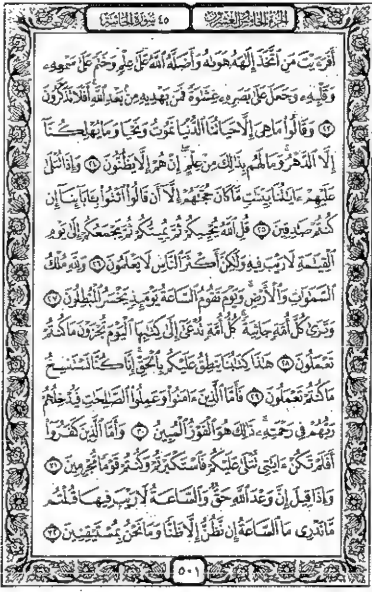
﴿١١-١٢﴾ ﴿وقال الذين كفروا

للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربياً لينذر الذين ظلموا ويشرى للمحسنين﴾ أي: قال الكفار بالحق معاندين له، وراذلين لدعوته: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادر به، وسابق إليه، وهذا من البهجة في مكان، فأي دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أذكى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعزّون به أنفسهم

يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين﴾ قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: وإذا تتلى على المكذبين ﴿آياتنا بينات﴾ بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك في وقوعها وحققها، لم تفدهم خيراً، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافتراءهم ﴿للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ أي: ظاهر لا شك فيه، وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يزوج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وبين السحر من المنافاة والمخالفة، أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتقاعاً على الأفلاك، وفاق بضوته ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولئ البصائر والعقول الرزينة - بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس، خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله، وهل هذا إلا من البهجة؟

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه، فليس هو من عند الله.

﴿قل لهم﴾: ﴿إن افتريته﴾ فإله علي قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟ فهل ﴿تملكون لي من الله شيئاً﴾ إن أراذني الله بضراً، أو أراذني برحمة ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ فلو كنت متقولاً عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاضسته، فقال: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم للخير، ويهيئكم جزيل الأجر.



بمثلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه، الذي قد وافق الكتب السماوية خصوصاً، أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿إماماً ورحمة﴾ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وهذا القرآن﴾ كتاب مصدق للكتب السابقة، شهد بصدقها، وصدقها، بموافقتها لها، وجعله الله ﴿لساناً عربياً﴾ ليسهل تناوله، وتيسر تذكره، ﴿لينذر الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر والفسق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعباد الويل، ويشر المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالشواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها، والأعمال التي يشر بها.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي: إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته

غيرها: ﴿وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ في جملة ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ فحصل لهم الخير والمحجوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وَعَدَ الصَّدَقَ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾ أي: هذا البوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفْ لَكُمْ أَنْتُمُ الدَّانِيُونَ أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِي وَهِيَ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهُ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهن أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ﴾ إذ دعاه ^(١) إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعوه إلى ما فيه سعاده الأبدية، وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأجيب مقابلة، فقال: ﴿أَفْ لَكُمْ﴾ أي: تباً لكم ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أَنْتُمُ الدَّانِيُونَ أَنْ أُخْرِجَ﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاذ؟ ﴿وَهُمَا﴾ أي: والداه ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ عليه، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - استغاثا الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، وبينان له الحق، فيقولان: ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، ولدهما لا يزداد

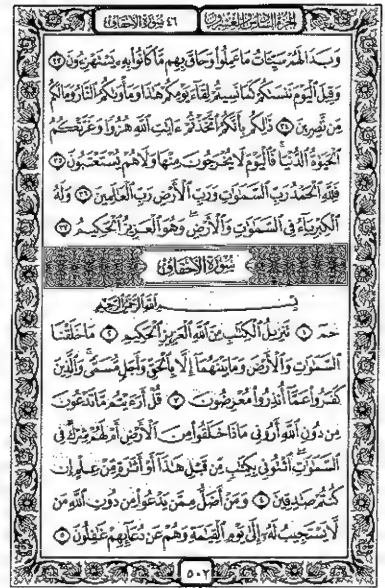
وما قاسته من المكارة وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي سنتان - إذا سقطت منها الستة أشهر، مدة للحمل، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ رِزْقِهِمْ﴾ أي: أوزعني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته بثقة، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الشناء بها على الله، والنعم على الوالدين، نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أساليبها وآثارها، خصوصاً نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً عما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويشب عليه. ﴿وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿وَأَصْلَحَ لِي﴾.

﴿إِنِّي تَيْتُ إِلَيْكَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعَاصِي، وَرَجَعْتُ إِلَى طَاعَتِكَ﴾ وإني من المسلمين.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ذَكَرْتُ أَوصافهم﴾ الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضاً



وداموا على ذلك، و ﴿استقاموا﴾ مدة حياتهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من كل شر أمامهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلّفوا وراءهم، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبغفون عنها حولاً، ولا يريدون بها بدلاً، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ جزاء بما كانوا يعملون من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَلَلَتْ أُمُّ كَرهًا وَوَضَعَتْهُ كَرهًا وَحَمْلُهُ وَفُصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أولئك الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴿هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحمله الأم من ولدها



وعمرناهم عمراً، يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عاداً كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً.

﴿وجعلنا لهم سمماً وأبصاراً وأفئدة﴾ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله. ﴿فما أغنى عنهم سمهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم ﴿يجهلون بآيات الله﴾ الدالة على توحده وإفراده بالعبادة.

﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزون﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لآلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴿يخذر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة

العرب، كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرف لهم الآيات، أي: نوعها من كل وجه، ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم ألتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لآلهة﴾ أي: يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بل ضلوا عنهم﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم، ﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ من الكذب، الذي يمتنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنفعهم، فضلت وبطلت.

﴿٢٩-٣٢﴾ ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴿يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم﴾ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ﴿كان الله تعالى قد أرسل رسوله عمداً ﷺ إلى الخلق، إنشئهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس، يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن، فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ أي: وصى بعضهم بعضاً بذلك، ﴿فلما قضي﴾ وقد وعوه، وأثر ذلك فيهم ﴿ولو إلى قومهم منذرين﴾ نصيحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقضيمهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾ لأن كتاب موسى

أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشريعة، وإنما الإنجيل متم ومكمل ومغير لبعض الأحكام.

﴿مصدقاً لما بين يديه يهدي﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه ﴿إلى الحق﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخبر، ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبنوا محله ومرتبته، دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يا قومنا اجيبوا داعي الله﴾ أي: السدي لا يدعوا إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربهكم، ليثيبكم، ويزيل عنكم كل شر ومكره، ولهذا قالوا: ﴿يغفر لكم من

ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم﴾ وإذا أجازهم من العذاب الأليم، فما ثم بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب. ﴿وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر ۱۱۹.

﴿٣٣﴾ ﴿أولم يروا أن الله السدي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بل إنه على كل شيء قدير﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عظيمهما وسعتهما وإتقان خلقهما، من دون أن يكثر بذلك، ولم يعي بخلقهن فكيف تعجزه إعادتك بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير ۱۱۹.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فاصبر كما صبر أولو العزم

إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، وبعض من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلاق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.

«فهل يهلك» بالعقوبات «إلا القوم الفاسقون» أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءهم به الرسل. وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القتال، وهي مدنية

﴿١-٣﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * هَذِهِ آيَاتُ مُحْتَمَلَاتٍ عَلَى ذِكْرِ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِقَابِ الْعَاصِينَ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، وَدَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِذَلِكَ، فَقَالَ: **«الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»** وهؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه.

فهؤلاء **«أضل»** الله **«أعمالهم»** أي: أبطلها وأشقام بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون أن يشابوا عليها، أن الله سيحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان،

من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون * يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: **«أليس هذا بالحق»** فقد حضرته وشاهدته عياناً؟ **«قالوا بلى وربنا»** فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم **«قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»** أي: عذاباً لازماً دائماً، كما كان كفركم صفة لازمة.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لأنارهم، والاهتداء بمنارهم. فامتثل **«لأمر ربه»** فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمحاربة، وهو **«لم يزل صادعاً بأمر الله»** مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمهته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: **«ولا تستعجل لهم»** أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحقهم، فلا يَسْتَحْفِظُكَ بجهلهم، ولا يملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب، و **«كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا»** في الدنيا **«إلا ساعة من نهار»** فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صابرون إلى العذاب الويل.

«بلاغ» أي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة متغصنة، ودفع وقت حاضر قليل.

وهذا القرآن العظيم، الذي بيّنّا لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد



والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

وأما **«والذين آمنوا»** بما أنزل الله على رسله عموماً، وعلى محمد **«ﷺ»** خصوصاً، **«وعملوا الصالحات»** بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة.

«كفر» الله **«عنهم سيئاتهم»** صغارها وكبارها، وإذا كُفِّرَتْ سيئاتهم، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة. **«وأصلح بالهم»** أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتخيته وتركته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: **«اتبعوا الحق»** الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر من ربهم. الذي رباهم بتعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم، متعلقة بالحق النسب إلى الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقياً ثوابها.

«كذلك يضرب الله للناس أمثالهم» حيث بيّن لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون **«ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة»**.

تعالى للمؤمنين، أن يتصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصير أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاة، ويسير له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا برهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وأضل أعمالهم﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيّدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كرهوا ما أنزل الله﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فأحبط أعمالهم﴾

﴿١٠-١١﴾ ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴿أي: أفلا ينسیر هؤلاء المكذوبون بالرسول ﷺ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون بمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم، قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخذلوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾

كان قتال وحزب. فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذلك﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون خضراءهم.

﴿ولكن ليلو بعضكم ببعض﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.

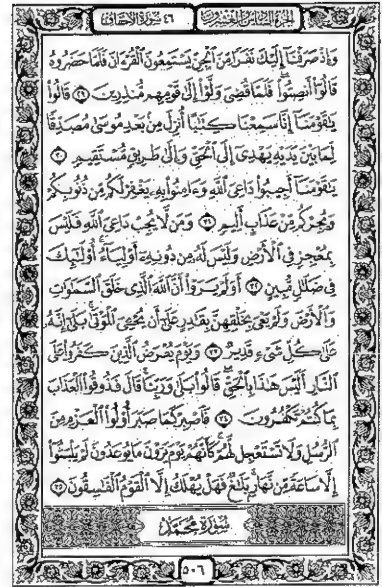
﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جليل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يخطئها ويخطئها، بل يتقبلها ويتميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدنيا والآخرة.

﴿سيهديهم﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، ﴿ويصلح بهم﴾ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنقيص بوجه من الوجوه.

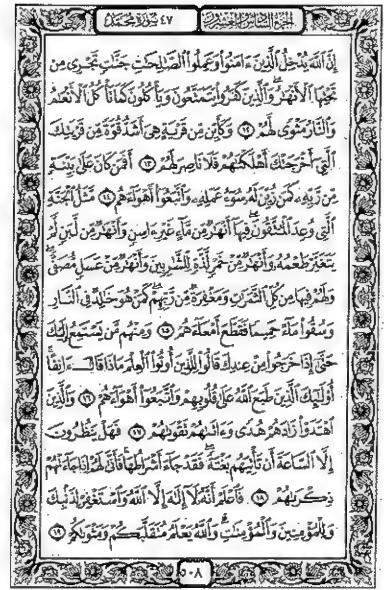
﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي: عرفها أولاً، بأن شوقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها القتل في سبيله، ووفقههم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

﴿٧-٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾ هذا أمرته



﴿٤-٦﴾ ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشذوا الوثاق فإما متا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم * يقول تعالى - مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم على أعدائهم -: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا﴾ في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واضربوا عنقه الأعناق، حتى تثخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرهم، فإذا فعلتم ذلك، ورأيتم الأسر أولى وأصلح، ﴿فشذوا الوثاق﴾ أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شذ منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار بين المن عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم.

وهذا الأمر مستمر حتى تضع الحرب أوزارها أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسألة والمهادنة، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا



ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿١٩﴾ «فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم» العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفة، بمعنى ما طلب منه علمه، وتماه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته^(١)، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبيد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالالوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدنيوية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبة، والتأله له وحده لا شريك له. الرابع: ما تراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحدة المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعبادها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا يفتعونهم بمقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على

ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولا، ورأياً وصواباً، وعلماً - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، ويديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرار الباطل والشبه - إلا نمواً وكمالاً.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجملة ما لا يحصل في غيره.

وقوله: «واستغفر لذنبك» أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والخساعات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿٢٠﴾ «استغفر أيضاً للمؤمنين والمؤمنات» أي: اطلب من الله لهم حق على كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يجب لهم من الخير ما

أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم» أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهتدون فيها إلا بالباطل.

ثم بين حال المهتدين، فقال: «والذين اهتدوا» بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله «زادهم هدى» شكراً منه تعالى لهم على ذلك، «وأتاهم تقواهم» أي: وفقه للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿١٨﴾ «فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة» فقد جاء أشرطها فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة» أي: فجأة، وهم لا يشعرون «فقد جاء أشرطها» أي: علاماتها الدالة على قربها.

﴿٢١﴾ «فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.



وقول معروف ﴿أي: فأولى لهم أن يمثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، ويفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي: جاءهم الأمر جدد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امثاله ﴿لكان خيراً لهم﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتقر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتأني الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه^(١) عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي: فهما أمران، إما التزام طاعة الله، وامتنال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولي عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

﴿أولئك الذين﴾ أنفسدوا في

يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعاصيهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿والله يعلم متقلبكم﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم، ﴿ومشواكم﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٢٠-٢٣﴾ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * يقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ استعجلاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ أي: ملزم العمل بها، ﴿وذكر فيها القتال﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ من كراحتهم لذلك، وشدة عليهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

ثم ندهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فأولى لهم﴾ طاعة

الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لعنهم الله﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله. ﴿فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرون، فلم أذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيانات.

﴿٢٤﴾ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لذئتهم على كل خير، وحذروهم من كل شر، ولما قلوبهم من الإيمان، وأفشدتهم من الايقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكلماتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعزهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

﴿أم على قلوب أقفالها﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت،

(١) في ب: وتوعد نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل ثم شطبها الشيخ - رحمه الله - وعذّلها إلى: وطن نفسه.



فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع.

﴿٢٥-٢٨﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾** ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم **﴿يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾** ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم **﴿يُخَيِّرُ تَعَالَى عَنْ حَالَةِ الْمُرْتَدِينَ عَنِ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالْكَفَرَانِ، ذَلِكَ لَا عَنْ دَلِيلٍ دَلَّهِمْ وَلَا بِزَهَانٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَسْوِيلٌ مِنْ عَدُوِّهِمُ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينٌ لَهُمْ، وَإِمْلَاءٌ مِنْهُ لَهُمْ: يُعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يُعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾**

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و **﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ وَارْتَدَوْا عَنِ الْإِيمَانِ﴾** من المارزين العداوة لله ولرسوله **﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾** أي: الذي يوافق أهنؤاهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فلذلك فضيحههم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورويتهم الفظيعة **﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ**

الملائكة **﴿الْمَوْتُ يَنْقُصُ أَرْوَاحَهُمْ، يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾** بالمقامع الشديدة؟

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه **﴿بِ﴾** سبب **﴿أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ﴾** من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقرهم إليه، ولا يدينهم منه، **﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾** أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضى الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

﴿٢٩-٣١﴾ **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾** ولو شاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم **﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾** وليلوتكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم **﴿يَقُولُ تَعَالَى﴾** **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾** من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن رده على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أباه الامتحان، جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية، مع أنه تعالى قال: **﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾** أي: بعلاماتهم التي هي كالرسم في وجوههم **﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾** أي:

لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، وتبين بقلات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾** فيجازيكم عليها.

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله،

فقال: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾** أي: نختبر إيمانكم وصبركم، **﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾** فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.

﴿٣٢﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾** هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه.

﴿وَشَاقُوا الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال، فإنهم **﴿لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا﴾** فلا يتقص به ملكه.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: مساعيتهم التي بذلوا في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿٣٣﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على التوجه المأمور به بالإخلاص وتتمام المتابعة:

وقوله: **﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، من من بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.

فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها، كلها داخلية في هذا، ومنتهى عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع

قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿٣٤﴾ هذا تزيهد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهياً في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمأكّل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لأعباء كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسارته وخرماته، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يتم به ما ذكره بقوله: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمريضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي يتفق العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمة والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً، ليثيبهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعنتكم من أخذ أموالكم، ويقائكم بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم، ولهذا قال: ﴿إن يسألكموها فيحلفكم بئخلوا ويخرج أضغانكم﴾ أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذلك.

والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحقاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها، أنكم ﴿تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ على هذا الوجه، الذي فيه فصلتكم الدينية والدنيوية.

﴿فمنكم من يبخل﴾ أي: فكيف لو سألكم، وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترويه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك.

الحال أنكم ﴿أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم﴾ أي: ينقصكم أعمالكم ﴿٣٥﴾.

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتضى للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين، أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً وهدداً، وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن التفقة تضاعف فيه، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقال تعالى:

﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا يتألون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴿٣٦﴾.

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ إن يسألكموها فيحلفكم بئخلوا ويخرج أضغانكم ﴿٣٩﴾ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل

النفل، من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمر بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، على الوجه الذي تصلح به علماً وعملاً.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾ فلا تمنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴿٣٦﴾ هذه الآية والتي في البقرة قوله: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ مقيدتان، لكل نص مطلق، فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إن الذين كفروا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وصلوا﴾ الخلق ﴿عن سبيل الله﴾ بتزهدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل، وترزينه، ﴿ثم ماتوا وهم كفار﴾ لم يتوبوا منه، ﴿فلن يغفر الله لهم﴾ لا بشفاعة ولا غيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفين أعمالهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقلها عن أحد، ما دام حياً متمكناً من التوبة.

وسبحان الخليم، الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيه، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿فلا تمنوا﴾ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا وأثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد، طلباً لمرضاة ربكم، ونصيحة للإسلام، وإغضباً للشيطان.

ولا تدعوا إلى المسألة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة، ﴿و﴾

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً.

فإن الله هو ﴿الغني وأنتم الفقراء﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم، لجميع أموركم.

﴿وإن تتولوا﴾ عن الإيمان بالله، وامتثال ما يأمركم به ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ في التولي، بل يطيعون الله ورسوله، ويحبون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

ثم تفسير سورة القتال،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفتح وهي مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً * هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الخريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود

في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك^(١) الفتح، وزب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿ويتم نعمته عليك﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدى.

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي: قوياً لا يتضعف فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال: ﴿٤-٦﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيمًا﴾ * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً * ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً.

يغير تعالى عن مِثْلِهِ على المؤمنين بإزالة السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمر الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن

نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يشبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابا رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وخط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿والله جنود السماوات والأرض﴾ أي: جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليهم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر. ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات.

﴿وكان ذلك﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عند الله فوزاً عظيماً﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريمهم ما يسوؤهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فآدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا،

﴿وغضب الله عليهم﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله، ولعنهم أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمة ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

﴿٧﴾ ﴿والله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ كرر

الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيها من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ ﴿وكان الله عزيزاً﴾ أي: قوياً غالباً، قاهراً لكل شيء، وضع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتديبه، يجزي على ما تقتضيه حكمته وإفقانه.

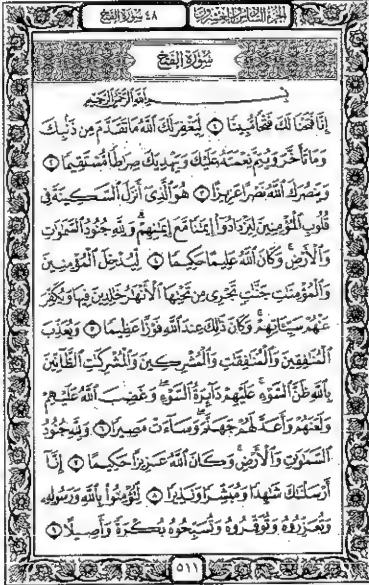
﴿٨٩﴾ ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي: ﴿إنا أرسلناك﴾ أيها الرسول الكريم ﴿شاهداً﴾ لامتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهداً على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهداً لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿ومبشراً﴾ من أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والآخروي، ومنذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والنذارة، بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتها في جميع الأمور.

﴿وتعزروه وتوقروه﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أي: تعظموه وتخلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة برقابكم، ﴿وتسبحوه﴾ أي: تسبحوا لله ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أول النهار وآخره، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزيز والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقدس بصلاته أو غيرها.

﴿٩٠﴾ ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى

بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي «بيعة الرضوان» التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ، على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالى: أن الذين يبايعون حقيقة الأمر أنهم ﴿يبايعون الله﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بثلث المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحلهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فمن نكث﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ أي: لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته وأصله له، ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾ أي: أتى به كاملاً موفراً، ﴿فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

﴿٩١-٩٣﴾ ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً﴾ يذم تعالى المخلفين عن رسوله، في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم



بالذنوب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار الرسول نافعاً لهم، لأنهم قد تابوا وأنابوا، ولكن الذي في قلوبهم، أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء.

فظنوا ﴿أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ أي: إنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمثون إليه، حتى استحكمت، وسبب ذلك أمران:

أحدهما: أنهم كانوا ﴿قوماً بوراً﴾ أي: هلكت، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم وبقينهم بوعد الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي: فإنه كافر مستحق للعقاب، ﴿فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً﴾.

﴿٩٤﴾ ﴿والله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ وهو من قام

ثم ذكر الأعداء التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع.

﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في امتثال أمرهما، واجاب نهيهما ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿يعذبه عذاباً أليماً﴾ فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته وغالته.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً * وعدكم الله مغنماً كثيرة تأخذونها فميجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً * يخبر تعالى بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها «بيعة الرضوان» لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها «بيعة أهل الشجرة» - أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجيء لقتال أحد، وإنما جاء زائراً هذا البيت، معظماً له، فبحث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ملكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق، أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحواً من ألف وخمس مئة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين، وأن لا يقرؤا حتى يموتوا، فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات، ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ من الإيمان، ﴿فأنزل

رشدكم، لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودنيوية، ولهذا قال: ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تنولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً﴾ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة، قال تعالى مخمناً لهم: ﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ أي: سيدعوك الرسول ومن تاب مثابه من الخلفاء الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم. ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ أي: إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبدلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أئحتهم المسلمون، وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبدلوا الجزية، ﴿فإن تطيعوا﴾ الداعي لكم إلى قتال هؤلاء ﴿يؤتكم الله أجراً حسناً﴾ وهو الأجر الذي رتبته الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تنولوا كما توليتم من قبل﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾. ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين، الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه يجب طاعتهم في ذلك.



بما أمره الله به ﴿ويعذب من يشاء﴾ من تهاون بأمر الله، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار، آتاء الليل والنهار.

﴿١٥﴾ ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تبعونكم كذلك قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية، أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿ذرونا تبعكم تريدون﴾ بذلك ﴿أن يبدلوا كلام الله﴾ حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم، شرعاً وقدراً. ﴿قل﴾ لهم ﴿لن تبعونكم كذلك قال الله من قبل﴾ إنكم عرومون منها بما جئتم على أنفسكم، وبما تركتم القتال أول مرة.

﴿سيقولون﴾ محيين لهذا الكلام، الذي منعوا به عن الخروج: ﴿بل تحسدوننا﴾ على الغنائم، هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا



بشارة من الله لعباده المؤمنين، بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لَوَلُوا الْأَدْبَارَ﴾، ثم لا يجدون ولياً يتولى أمرهم، ﴿وَلَا نصيراً﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالهم، بل هم مخذولون مغلوبون وهذه سنة الله في الأمم السابقة، أن جند الله هم الغالبون، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً * هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمة من يشاء لو تزولوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً يقول تعالى ممثلاً على عبادته بالعافية، من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أهل مكة ﴿عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً، انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين منتبهيين فأمسكوكهم، فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصددهم رسول الله ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة وهم الذين أيضاً صدوا الهدى معكوفاً أي: محبوساً أن يبلغ محله وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً، وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم، ولكن ثم مانع هو: وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين،

السكينة عليهم ﴿شَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ شكرهم على ما في قلوبهم، زادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم، ﴿وَأَنَابَهُمْ فَتَحَّا قُريَّا﴾ وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر، وغنائمها، جزاء لهم، وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وكان الله عزيزاً حكيماً أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكَافِر.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمون إلى يوم القيامة، ﴿فَمَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي: غنيمة خيبر أي: فلا تحسبوا وحدها، بل ثم شيء كثير من الغنائم ستبعتها، ﴿وَأَحْمَدُوا اللَّهَ إِذْ كَفَّ أَيْدِي النَّاسِ﴾ القادرين على قتالكم، الحريصين عليه ﴿عَنْكُمْ﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم. ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ هذه الغنيمة آية للمؤمنين يستدلون بها على خبر الله الصادق، ووعدته الحق، وشوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها، ﴿وَيَهْدِيكُمْ﴾ بما يقض لكم من الأسباب ﴿صُرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ من العلم والإيمان والعمل.

﴿وَأُخْرَى﴾ أي: وعدكم أيضاً غنيمة أخرى لم تقدرها عليها وقت هذا الخطاب، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: هو قادر عليها، وتحت تدبيره ومملكته، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به، لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلُوا الْأَدْبَارَ﴾ ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً * سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً هذه

وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى، فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون، والنساء المؤمنات، الذين لا يعلمهم المسلمون أن تطوؤهم أي: خشية أن تطوؤهم ﴿فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والمعة: ما يدخل تحت قتالهم، من نيلهم بالأذى والمكره، وفائدة أخرى، وهو: أنه ليدخل في رحمة من يشاء فممن عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب.

﴿لَوْ تَزِيلُوا﴾ أي: لو زلوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

﴿٢٦﴾ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لئلا يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقريش»، وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت



من كثير من المعاصي، ﴿فأقول الله سكتته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمان الله ولو كانت ما كانت، ولم ينالوا بقول القائلين، ولا لوم اللاتمين.

﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ وهي «لا إله إلا الله» وحققها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، ﴿وكانوا أحق بها﴾ من غيرهم ﴿وكانوا أهلها﴾ الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴿يقول تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويظفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام

منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم نخبرنا أننا ستأتي البيت ونطوف به؟ فقال: ﴿أخبرتكم أنه العام؟﴾ قالوا: لا، قال: ﴿فإنكم ستأتونه وتطوفون به﴾، قال الله هنا: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالخلق والتقصير، وعدم الخوف، ﴿فعلم﴾ من المصلحة والمنافع ﴿ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك﴾

الدخول بتلك الصفة ﴿فتحاً قريباً﴾ ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمته، فبين تعالى حكمته ومنفعتيها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية، فإنها كلها هدى ورحمة.

أخبر بحكم عام، فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

﴿ودين الحق﴾ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مُرَكَّب للقلوب، مطهر للنفس، مُرَبِّ للأخلاق، مُغْلٍ للأقدار.

﴿ليظهره﴾ بما بعثه الله به ﴿على الدين كله﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والستار.

﴿٢٩﴾ ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً﴾ يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين

والأنصار، أنهم بأكمل الصناعات، وأجل الأحوال، وأهم ﴿أشداء على الكفار﴾ أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون، ﴿رحماء بينهم﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخلق فإنك تراهم ركعاً سجداً أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود.

﴿يبتغون﴾ بتلك العبادة ﴿فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه.

﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم، حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت أبا الجلال [ظواهرهم].

﴿ذلك﴾ المذكور ﴿مثلهم في التوراة﴾ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا.

وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كزرع أخرج شطأه فآزره﴾ أي: أخرج فراخه، فآزرته فراخه في الشباب والاستواء.

﴿فاستغلظ﴾ ذلك الزرع أي: قوي وغلظ ﴿فاستوى﴾ على سوقه ﴿جمع ساق﴾، يعجب الزراع من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنه، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، بقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق وازره وعاونه على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه،

ولم نجىء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا»، فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغيم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغيرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهموها»، ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فانزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عُمَّاراً، وادعهم إلى الإسلام».

وأمره أن يأتي رجلاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق

عشرة مئة، قال: يرحمه الله وهم، وهو جدثني أنهم كانوا خمس عشرة مئة، قلت: وقد صح عن جابر القولان، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربع مئة، بخيلنا ورجلنا، يعني: فازسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب، ومعلق بن يسار، وسلمة بن الأكوع، في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربع مئة، وغلظ غلظاً بيئاً من قال: كانوا سبع مئة، وعذرة^(١) أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربع مئة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربع مئة.

فصل

فلما كانوا بذي الحليفة، قبلد رسول الله ﷺ الهذلي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عتيلاً به بين يديه من خزاعة، يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريباً من عسفان، أتاه عتيه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأخابيش، وجمعوا لك جمعاً، وهم مقاتلونك وصادوك عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه: أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عتقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين،

كالزروع الذي أخرج شطأه، فأزره فاستغلظ، ولهذا قال: «ليغظ بهم الكفار» حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك التزال، ومعامع القتال.

«وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا» فالصحابه رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديبية بطولها، كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدى النبوي»، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكليم على معانيها وأسرارها، قال - رحمه الله تعالى -:

فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقاتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمس مئة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربع مئة، وفيهما، عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاث مئة، قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوابيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مئة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع

كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى حية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخبرينك عن حية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي: غدر، أولست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فليست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمي أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه. وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضأ، كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفصوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر، تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي: قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى، وقيصصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد، ومحمد، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفصوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطبة رشيد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني أنه، فقالوا: اتته.

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فلما فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت فقام مكرز بن

عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزولاً أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلون، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرمت بهم، فإن شأوا أمادهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شأوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جئوا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره»، قال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعت يقول قولاً، فإن شئتم عرضه عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نحدثنا عنه شيء، وقال ذوو الرأي: منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطبة رشيد، فاقبلوها، ودعوني أنه، فقالوا: اتته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي: محمد، أرايت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبله؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوباشاً من الناس، خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها، لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما

عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عثمارة، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى تطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتمن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بسمنا ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ. ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ، كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجند بن قيس، وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه



النبي ﷺ: «أفجزه لي»، فقال: ما أنا بمجيزه، فقال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه.

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أريد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأثبت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله أأست نبي الله؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» فقلت: علام نعطي الذنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تمحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به».

قال: فأثبت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلبي الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقيم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر يذنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فتحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: «إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فبلغن» يعصم الكوافر» فطلق عمر

حفص، وقال: دعوني آتة، فقالوا: آتته، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتهموني، اكتب: محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «على أن تحلوا بيننا وبين البيت فتطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته علينا.

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه، أن ترد، فقال النبي ﷺ: «إنما لنقص الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً، فقال

يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداها معاوية، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة. وفي مرجعه أنزل الله عليه: «إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً» إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقال الصحابة: حينئذ لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين» الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة.

لوصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥. وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين. بقلم الفقير إلى ربه سليمان بن حمد العبد الله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات^(١).

المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعد.

العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب^(٤)، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿٤-٥﴾ «إِنَّ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم. نزلت هذه الآيات الكريزمات في أناس من الأعراب، الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وخجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد [أي: أخرج إلينا]، فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب.

فأدب العبد، عنوان عقله، وأن الله يريد به الخير، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالأدب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثالات.

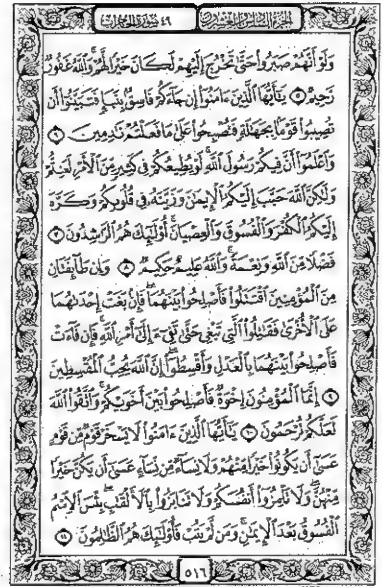
وفلاحه، وفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي، وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائنات ما كان^(١).

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والزاجيات والمستحيلات والممكنات^(٢).

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه - حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكریم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحد، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك مخذوراً، وخشية أن يحبط عمل



تفسير سورة الحجرات وهي مدنية

﴿١-٣﴾ «يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ» يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم. هذا متضمن للأدب مع الله تعالى، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر [الله] عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متعينين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، [وأن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمرأ حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد

(١) في ب: من كان.

(٢) في ب: والجائزات.

(٣) في ب: عن ضده.

(٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا فيها ونعمت، وإن **بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** أي: ترجع إلى ما جده الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال، [وقوله] **«فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل»** هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والخيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقربة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل، **«إن الله يحب المقسطين»** أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

«إنما المؤمنون إخوة» هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي: شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ **«أمرأ بأحقق الأخوة الإيمانية: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبيع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المؤمن أخو المؤمن،**

وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإنابة إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق أي: الذنوب الكبائر، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب^(١)، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساد وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له^(٢).

«أولئك» أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان **«هم الراشدون»** أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والضراط المستقيم. وضدهم الغاؤون، الذين حجب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما **«زاعوا أزاغ الله قلوبهم»** ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

وقوله: **«فضلاً من الله ونعمة»** أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم.

«والله عليم حكيم» أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوقفه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

«٩-١٠» «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين» إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون **«هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبيع بعضهم على بعض، ويقاتل^(٣) بعضهم بعضاً، وأنه**

«٦» «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بئاً فتيئوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيبوا على ما فعلتم نادمين» وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يشبوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كذب ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

«٧-٨» «وأصلحوا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون» فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم **«أي: ليكون لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته،**

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار.

(٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

(٣) في ب: ويقتل.

لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره^(١). وقال ﷺ^(٢): «المؤمن للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأكيد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفريق القلوب وتباغضها [وتدابرها]، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنائهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين ويتقوى الله، الرحمة [فقال: ﴿لعلكم ترحمون﴾]، وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكيثر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دمائهم وقت استمرارهم على بغيتهم خاصة، دون أموالهم.

﴿١١﴾ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تملزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴿١٢﴾ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا يحسبوا ولا يفتب بعضهم بعضاً يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴿١٣﴾ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا السوء^(١) بالظن، فـ ﴿إن بعض الظن إثم﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يفتقر به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

ثم قال: ﴿ولا تملزوا أنفسكم﴾ أي: لا يعيب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ الآية، وسمى الأخ المؤمن^(٢) نفساً لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه^(٣)، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا.

﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي: بئسما تبدلتن عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه بالإغراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فهذا [هو] الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله والاستغفار، والمدح له مقابلته [على] ذمته.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا تَمَّ قسم ثالث غيرهما.

﴿١٢﴾ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا يحسبوا ولا يفتب بعضهم بعضاً يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴿١٣﴾ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا السوء^(١) بالظن، فـ ﴿إن بعض الظن إثم﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يفتقر به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

﴿ولا يحسبوا﴾ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا^(٢) المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله^(٣)، التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

(١) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تحاسدوا ولا تناحشوا ولا تباغضوا ولا تنابزوا) وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه) متفق عليه.

(٢) في ب: وفيهما عن النبي ﷺ.

(٣) في ب: وهو الغالب.

(٤) في ب: المسلم.

(٥) في ب: بلقب يكره أن يقال فيه.

(٦) في ب: السيء.

(٧) في ب: ودعوا.

(٨) في ب: عن زلاته.

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾
والغيبة كما قال النبي ﷺ «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه».

ثم ذكر مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال: ﴿أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ شبه أكل لحم ميتاً المكروه للنفوس [غاية الكراهة] باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً، فاقد الروح، فكذلك [فلكرهموا] غيبته وأكل لحمه حياً.

﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ والتواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوقفه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ إن الله عليم خبير بخير نجر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله [تعالى] بثبنتهما رجلاً كثيراً ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوباً وقبائل أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتواثر، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله اتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أشرفهم نسباً، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلا بما يستحق.

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك.

﴿١٤-١٨﴾ ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم﴾ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم﴾ يمتون عليك أن أسلموا قل لا تمتنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا أي: إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهراً وباطناً، كاملاً.

﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك.

﴿و﴾ السبب في ذلك، أنه ﴿لما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وإنما آمنت خوفاً أو رجاءً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم، وفي قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيراً منهم، من الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾ بفعل خير، أو ترك شر ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي: لا ينقصكم منها مثقال

ذرة، بل يوفيكهم إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها شيئاً ولا كبيراً، ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: غفور لمن تاب إليه وأتاب، رحيم به، حيث قبل توبته.

﴿إنما المؤمنون﴾ أي: على الحقيقة الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان الثام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم التريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصديق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مبدآن السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب، وظن بالله، ولهذا قال: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ والله بكل شيء عليم﴾ وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازي عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن

تفسير سورة ق وهي مكية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ * بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ * يَقْسِمُ تَعَالَى بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَيْ: وَسِعَ الْمَعَانِي عَظِيمُهَا، كَثِيرُ الْوُجُوهِ كَثِيرُ الْبَرَكَاتِ، جَزِيلُ الْبَرَاتِ. وَالْمَجْدُ: سَعَةُ الْأَوْصَافِ وَعَظَمَتُهَا، وَأَحَقُّ كَلَامٌ يَوْصَفُ بِهَذَا، هَذَا الْقُرْآنُ، الَّذِي قَدْ اِحْتَوَى عَلَى عُلُومِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، الَّذِي خَوَى مِنَ الْفَصَاحَةِ أَكْمَلُهَا، وَمِنِ الْأَلْفَاظِ أَجْزَلُهَا، وَمِنَ الْمَعَانِي أَعْمَاهَا وَأَحْسَنُهَا، وَهَذَا مُوجِبٌ لِكَمَالِ اتِّبَاعِهِ [وَأَسْرَعُ] الْإِنْقِيَادِ لَهُ، وَشَكَرَ اللَّهُ عَلَى الْمُنَّةِ بِهِ.

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجَبُوا﴾ أَيْ: الْمَكْذِبُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ، ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: يَنْذِرُهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، وَيَأْمُرُهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَهُوَ مِنْ جَنْسِهِمْ، يُمْكِنُهُمُ التَّلَقِّيُّ عَنْهُ، وَمَعْرِفَةُ أَحْوَالِهِ وَصِدْقُهُ.

فَتَعَجَبُوا مِنْ أَمْرٍ لَا يَنْبَغِي لَهُمُ التَّعَجُّبُ مِنْهُ، بَلْ يَتَعَجَّبُ مِنْ عَقْلِ مَنْ تَعَجَّبَ مِنْهُ.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ الَّذِينَ حَمَلَهُمْ كُفْرُهُمْ وَتَكْذِيبُهُمْ، لَا تَنْقُصُ بِذَكَائِهِمْ وَأَرَائِهِمْ^(٥).

﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أَيْ: مُسْتَعْرَبٌ، وَهُمْ فِي هَذَا الْاسْتَعْرَابِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا ضَادِقُونَ فِي [اسْتَعْرَابِهِمْ] وَ[تَعَجُّبِهِمْ]، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ جَهْلِهِمْ،

يَكُونُ ذَلِكَ تَعْلِيمًا لِلَّهِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُمْ بِهَذَا الْكَلَامِ الْمُنَّةَ عَلَى رَسُولِهِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا لَهُ [وَتَبَرَّعُوا] بِمَا لَيْسَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ، بَلْ هُوَ مِنْ حَظْوِظِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَهَذَا تَجْمُلُ بِمَا لَا يَجْمُلُ، وَفَخَرٌ بِمَا لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَفْتَخَرُوا عَلَى رَسُولِهِ بِهِ^(١)، فَإِنَّ الْمُنَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، فَكَمَا أَنَّهُ تَعَالَى يَمُنُ^(٢) عَلَيْهِمْ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَالنَّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَمُنَّتَهُ عَلَيْهِمْ بِهَدَايَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَمُنَّتَهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ، أَعْظَمُ^(٣) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا مَعَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كَمُ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: الْأُمُورَ الْخَفِيَّةَ فِيهَا، الَّتِي تَخْفَى عَلَى الْخَلْقِ، كَالَّذِي فِي لُجْجِ الْبَخَارِ، وَمَهَامِهِ الْقَفَارِ، وَمَا جُثَّ اللَّيْلِ أَوْ وَارَاهُ النَّهَارُ، يَعْلَمُ قَطْرَاتِ الْأَمْطَارِ، وَحَبَّاتِ الرَّمَالِ، وَمَكُونَاتِ الصُّدُورِ، وَخَبَايَا الْأُمُورِ.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مبین﴾.

﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يَحْصِي عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَيُوفِيكُمْ بِإِبَاهَا، وَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا بِمَا تَقْتَضِيهِ رَحْمَتُهُ الْوَاسِعَةُ وَحُكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ.

ثم تفسير سورة الحجرات،
يعون الله ومنه وجوده وكرمه،
فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه،
ومن الجود أفضله وأغمه^(٤).

وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يشعجب من لقاء الفارس للفارس، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأى: ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟ وإما أن يكونوا متعجبين، على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنع.

ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فِقَاسُوا قُدْرَةَ مَنْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْكَامِلُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، بِقُدْرَةِ الْعَبْدِ الْفَقِيرِ الْعَاجِزِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَقَاسُوا الْجَاهِلَ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ، بِمَنْ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، الَّذِي يَعْلَمُ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ مَدَّةَ مَقَامِهِمْ فِي بَرَزَخِهِمْ، وَقَدْ أَحْصَى فِي كِتَابِهِ الَّذِي هُوَ عَنْده مَحْضُوعٌ عَنِ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، كُلَّ مَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ وَمَاتِهِمْ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِكَمَالِ عِلْمِهِ، وَسَعَتِهِ الَّتِي لَا يَحِيطُ بِهَا إِلَّا هُوَ، عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أَيْ: ﴿بَلْ﴾ كَلَامُهُمُ الَّذِي صَدَرَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا هُوَ عِنَادٌ وَتَكْذِيبٌ لِلْحَقِّ الَّذِي هُوَ أَعْلَى أَنْوَاعِ الصِّدْقِ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أَيْ: مُخْتَلَطٌ مُشْتَبِهٌ، لَا يَسْتَوِي عَلَى شَيْءٍ، وَلَا يَسْتَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ، فَتَارَةً يَقُولُونَ عَنْكَ إِنَّكَ سَاحِرٌ، وَتَارَةً يَجْنُونَ، وَتَارَةً شَاعِرٌ، وَكَذَلِكَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عَضْبِينَ، كُلُّ قَالٍ فِيهِ مَا اقْتَضَاهُ رَأْيُهُ الْفَاسِدُ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ كَذَبَ بِالْحَقِّ، فَإِنَّهُ فِي أَمْرٍ مُخْتَلَطٍ، لَا يَدْرِي لَهُ وَجْهَةً^(٦) وَلَا قَرَارًا، [فَتَسْرَى أَمْرُهُ مَثَاقِظُهُ مُؤْتَفِكَةً] كَمَا أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الْحَقَّ

(١) في ب: لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله.

(٢) في ب: هو المأن.

(٣) في ب: أفضل.

(٤) في ب: بعد قوله وكرمه: والحمد لله.

(٥) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقلوبهم وعقولهم.

(٦) في ب: وجه.

وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قبله.

﴿١١-١٢﴾ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴿١﴾ لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته ^(١) الأفقية، كي يعتبروا، ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشدة رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كيف بنيناها﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيباً، ولا فروجاً، ولا خللاً، ولا إخلالاً.

قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿١٣﴾ إلى الأرض كيف مددناها * وسعناها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار ^(٢)، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال، لتستقر من الزلزل والتلويح، ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقر عين رامقها، لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم، وخص من تلك المنافع بالذكر، الجنات المشتملة على

الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأنرج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن التخييل الباسقات أي: الطوال، التي يطول ^(٣) نفعها وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد، في قناتها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواسيهم وكذلك ما يخرج الله بالطرز، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض، والتي تحتها من حب الحصيد، أي: من الزرع المحصود، من بُرٍّ وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿تبصرة﴾ يتبصر بها من عمى الجهل، ﴿وذكرى﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل ﴿لكل عبد منيب﴾ إلى الله أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذب أو المعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة، دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان، وبديع الصنعة، وبديع الخلقة ^(٤)، دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلقة وبديع النظام، دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً

أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، لجازيم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾.

ولما ذكرهم هذه الآيات السماوية والأرضية، خوفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فصيهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿١٢-١٥﴾ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * والأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد * أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد * أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام، ك «نوح» كذبه قومه [وثمود كذبوا صالحاً] ^(٥)، وعاد كذبوا «هوداً»، وإخوان لوط كذبوا «لوطاً»، وأصحاب الأيكة كذبوا «شعيباً»، وقوم تبع، وتبع كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام ^(٦) فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي: تبع من التبايع، لأنه - والله أعلم - كان مشهوراً عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل، الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا

(١) كذا في ب، وفي أ: آيات الله.

(٢) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغ إليه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلقة.

(٥) زيادة من هامش ب.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وقوم تبع وهو كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق يقال له تبع.

رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما أصابهم.

ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو المنشأ الأول^(١) - على الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.

فكما^(٢) أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى [الرفات و] الرمم، فقال: «أفعميتنا» أي: أفعمجرتنا وضعت قدرتنا «بالخلق الأول»؟ ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعي عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك، وإنما هم في لبس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة أهون من الابتداء، كما قال تعالى: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه».

﴿١٦ - ١٨﴾ «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» إذ يتلقى الملقين عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق^(٣) جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره، ويوسوس في صدره^(٤)، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق^(٥) المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه^(٦) في جميع

أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نراه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكائنين منه على بال، فيجلهم ويقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: «إذ يتلقى الملقين» أي: يتلقين عن العبد أعماله كلها، واحد «عن اليمين» يكتب الحسنات، «و» الآخر «عن الشمال» يكتب السيئات، وكل منهما «قعيد» بذلك متبهي لعمله الذي أعد له، ملازم له^(٧) «ما يلفظ من قول» خير أو شر «إلا لديه رقيب عتيد» أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: «وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون».

﴿١٩ - ٢٢﴾ «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد» ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» أي: «وجاءت» هذا الغافل المكذب بآيات الله «سكرة الموت بالحق» الذي لا مرد له ولا مناص، «ذلك ما كنت منه تحيد» أي: تتأخر وتنكص^(٨) عنه، «ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد» أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب، «وجاءت كل نفس معها سائق يسوقها إلى موقف القيامة، فلا

يمكنها أن تتأخر عنه، «وشهيد» يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: «لقد كنت في غفلة من هذا» أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً أي: لقد كنت مكذباً بهذا، تاركاً للعمل له فالآن «كشفنا عنك غطاءك» الذي غطى قلبك، فكشرك، واستمر^(٩) إعراضك، «فبصرك اليوم حديد» ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

أو هذا خطاب من الله للعبد فإنه في الدنيا في غفلة^(١٠) عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويحول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿٢٣ - ٢٩﴾ «وقال قرينه هذا ما لدي عتيد * ألقيا في جهنم كل كفار عنيد * متاع للعبيد معتد مريب * الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد * قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد * قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد» يقول تعالى: «وقال قرينه» أي: قرين هذا المكذب

(١) في ب: النشأة الأولى.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وأنه كما أنه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق.

(٤) في ب: وتوسوس به نفسه.

(٥) في ب: العظيم.

(٦) في ب: إليه.

(٧) في ب: لذلك.

(٨) كذا في ب، وفي أ: تحيد.

(٩) كذا في ب، وفي أ: ودام.

(١٠) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.

تلمووني ولوموا أنفسكم... الآية^(٤)

قال الله تعالى مجيباً لاختصاصهم: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدِي﴾ أي: لا فائدة في اختصاصكم^(٥) عندي، ﴿وَالْحَالُ أَنِي﴾ قد قدمت إليكم بالوعيد^(٦) أي: جاء تكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حججتكم، وقدمتم علي بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدِي﴾ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به، لأنه لا أصدق من الله قبلاً، ولا أصدق حديثاً.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل أجزيم بما عملوا من خير وشر، فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٣٥-٣٠﴾ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد* وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد* هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ* من خشني الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود* لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد* يقول تعالى غروراً لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لْجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتَ﴾ وذلك من كثرة ما ألقى فيها، ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أي: لا تزال تطالب الزيادة من المجرمين العصاة، غصياً لربها، وغيظاً على الكافرين.

وقد وعدنا الله ملاها، كما قال تعالى: ﴿لَا مَلَأَنَ جَهَنَّمَ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه،

المعرض، من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدِي عَيْدٌ﴾ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه من حفظه وحفظ عمله، فيجازي بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكشمر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمآثم.

﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أي: يمنع الخير الذي عنده^(١)، الذي أعظمه الإيمان بالله ﴿وَمَلَأْنِي﴾^(٢) وكتبه ورسله مناع، لنفع ماله وبدنه، ﴿مَمْتَدٌ﴾ على عباد الله، وعلى حدوده^(٣)، ﴿مَرِيْبٌ﴾ أي: شاك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشك والريب والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ﴿فَالْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان الثقينان ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ الذي هو معظمها وأشدّها وأشنعها.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ الشيطان، متبرئاً منه، حاملاً عليه إثمه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان، ولكن كان في الضلال البعيد، فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا

(١) في ب: قَيْلَةٌ.

(٢) زيادة من هامش ب.

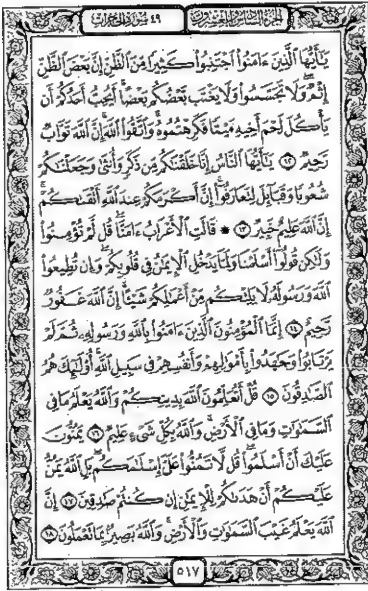
(٣) في أ زيادة هنا هي (أثم) أي كثير الإثم) ويبدو أن الشيخ سبق قلمه لآيات سورة القلم. وقد شطبت الزيادة من ب.

(٤) في ب وقف عند قوله: (فأخلفتكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: خصامكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يزيد.

(٧) في ب: أثم.



فينزوي بعضها على بعض، وتقول قط، قد اكتفيت وامتألت، ﴿وَأَزْلَفْتُ الْجَنَّةَ﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والحيرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت، لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، المتشاكين لأوامر ربهم، المتقادين له، ويقال لهم على وجه التهنية: ﴿هَذَا مَا تَوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي: هذه الجنة وما فيها مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، هي التي وعد الله كل أوَّاب أي: راجع إلى الله في جميع الأوقات، بذكره وحيه، والاستعانة به، ودعائه وخوفه وزجائه.

﴿حَفِيظٌ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتناله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل^(٧) الوجوه، حفيظ حدوده، ﴿مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولازم على



خشية الله في حال غيبه أي : مغيبه عن أعين الناس ، وهذه هي الخشية الحقيقية ، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم ، فقد تكون رياء وسمعة ، فلا تدل على الخشية ، وإنما الخشية النافعة ، خشية الله في الغيب والشهادة ويعتدل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضروريا لا اختياريا حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر^(١)

﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي : وصفه الإنابة إلى مولاه ، وانجذاب نواحيه إلى مرضيه ، ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار : ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي : دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشروء ، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور ، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص ، ﴿ذلك يوم الخلود﴾ الذي لا زوال له ولا موت ، ولا شيء من المكدرات ، ﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾ أي : كل ما تعلقت به مشيتهم فهو حاصل فيها ولهم فوق ذلك ﴿مزيد﴾

أي : ثواب يمددهم به الرحمن الرحيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وأعظم ذلك وأجله وأفضله ، النظر إلى وجه الله الكريم ، والتمتع بسماع كلامه ، والتنعم بقربه ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم .

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيٍ﴾ * إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿يقول تعالى - خوفاً للمشركين المكذبين للرسل - : ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي : أما كثيرة هم أشد من هؤلاء بطشاً أي : قوة وأثراً في الأرض .

ولهذا قال : ﴿فتنبهوا في البلاد﴾ أي : بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة ، وغرسوا الأشجار ، وأجروا الأنهار ، وزرعوا ، وعمروا ، ودمروا ، فلما كذبوا رسل الله ، وجحدوا آيات الله ، أخذهم الله بالعقاب الأليم ، والعذاب الشديد ، فـ ﴿هل من محيٍ﴾ أي : لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ ، فلم تغن عنهم قوتهم ، ولا أموالهم ، ولا أولادهم ، ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ أي : قلب عظيم حي ذكي زكي ، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله ، تذكر بها ، وانتفع فارتفع^(٢) ، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله ، واستمعها استماعاً يسترشد به ، وقلبه ﴿شهيد﴾ أي : حاضر ، فهذا له أيضاً ذكرى وموعظة ، وشفاء وهدى .

وأما المعرض ، الذي لم يلق^(٣) سمعه إلى الآيات ، فهذا لا تفيده شيئاً ، لأنه لا قبول عنده ، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته .

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ * فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴿وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة ، ومشيتته النافذة ، التي أوجد بها أعظم المخلوقات﴾ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴿أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، من غير تعب ولا نصب ، ولا لغوب ، ولا إعياء ، فالذي أوجدنا - على كبرها وعظمتها - قادر على إحياء الموتى ، من باب أولى وأحرى ، ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به ، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه ، أول النهار وآخره ، وفي أوقات الليل ، وأدبار الصلوات . فإن ذكر الله تعالى مُسَلِّبٌ للنفس ، مؤنس لها ، مَهْوٍ للصبر .

﴿٤١ - ٤٥﴾ ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾ * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير * نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي : ﴿واستمع﴾ بقلبك نداء المنادي وهو إسماعيل عليه السلام ، حين ينفخ في الصور ﴿من مكان قريب﴾ من الخلق^(٤) ﴿يوم يسمعون الصيحة﴾ أي : كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المبهولة ﴿بالحق﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء .

﴿ذلك يوم الخروج﴾ من القبور ، الذي انفرد به القادر على كل شيء ، ولهذا قال : ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ * يوم تشقق الأرض

(١) من قوله : ويحتمل إلى : هذا هو الظاهر ليس في ب .

(٢) كذا في ب ، وفي أ : وارتفع .

(٣) في ب : لم يصغ .

(٤) في ب : من الأرض .

عنهم ﴿أي: عن الأموات﴾ (١).

المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون.

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذر في هبوبها ﴿ذرواً﴾ بلينها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها، ﴿والحاملات وقرأ﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد، و﴿الجاريات يسراً﴾: النجوم التي تجري على وجه النسر والسهولة، فتزين بها السماوات، ويمتد بها في ظلمات البر والبحر، ويتنفع بالاعتبار بها، و﴿المقسمات أمراً﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمر الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما أخذ ورسم، ولا ينقص منه.

﴿٧-٩﴾ * والسماء ذات الحجب * إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك * أي: والسماء ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حجب الرمال، ومياه الغدران، حين يحركها النسيم، ﴿إنكم﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ، ﴿لفي قول مختلف﴾ منكم من يقول ساحر، ومنكم من يقول كاهن، ومنكم من يقول مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة، الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل، ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه، واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه، كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ، متفق [يصدق بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿١٠-١٤﴾ * قتل الخراصون * الذين هم في غمرة ساهون * يسألون أيان يوم الدين * يوم هم على النار يفتنون * ذوقوا فنتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴿يقول تعالى﴾: ﴿قتل

﴿سراعاً﴾ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة، ﴿ذلك حشر علينا يسيراً﴾ أي: حين على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة، ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ لك عما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمرورك، ونصرنا لك على أعدائك، فليفرح قلبك، ولتعظم نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرفق من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والثأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي: مسلط عليهم ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ ولهذا قال: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والقطر، من حجة الخير وإثارة فعله، ومن بغض الشر ومجانته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: ﴿ها جاءنا من بشير ولا نذير﴾.

آخر تفسير سورة ق، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير سورة الذاريات مكية

﴿١-٦﴾ * بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات ذرواً * فالحاملات وقرأ * فالجاريات يسراً * فالمقسمات أمراً * إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع * هذا قسم من الله الصادق في قوله، بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أنه وعده صادق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به

(١) في ب: عن الخلاق.

(٢) في ب: سهل.

(٣) في ب: وصلوا بها.



الخراصون ﴿أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، الذين هم في غمرة﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿ساهون﴾ ﴿يسألون﴾ على وجه الشك والتكذيب أيان يبعثون أي: متى يبعثون، مستعجلين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء ما لهم ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي: يعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم]: ﴿ذوقوا فنتنكم﴾ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال، ﴿هذا﴾ العذاب، الذي وصلت إليه، [هو] ﴿الذي كنتم به تستعجلون﴾ فالأن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال.

﴿١٥-١٩﴾ ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسين * كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسفار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم * يقول تعالى في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم، التي أوصلتهم إلى

فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم^(٣)، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي^(٤) وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه الملح له والشأن.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلاً، ومكرمون أيضاً عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام^(٥)، فرد عليهم إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الشبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قوم منكرون﴾ ولم يقل: ﴿أنكرتكم﴾ [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله [ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قري أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي

معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحي للولادة أصلاً، فكم مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾.

﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر^(١) أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

﴿٣٢﴾ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ مسؤمة عند ربك للمسرفين^(٢) أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه^(٣)، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾.

﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين^(٤) وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدوقون.

فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴿فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشره بغلام عليم﴾ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴿قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ مسومة عند ربك للمسرفين ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يقول تعالى: ﴿هل أتاك﴾ أي: أما جاءك ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾. ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجأؤوه في صورة أضياف.

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾ نجياً لهم ﴿سلام﴾ أي: عليكم ﴿قوم منكرون﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعترفوا إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراهم، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ فقربه إليهم وعرض عليهم الأكل، ف ﴿قال ألا تأكلون﴾ فأوجس منهم خيفة ﴿حين رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ ﴿قالوا لا تخف﴾ وأخبروه بما جأؤوا له ﴿وبشره بغلام عليم﴾ وهو إسحاق عليه السلام، فلما سمعت المرأة البشارة ﴿أقبلت﴾ فرحة مستبشرة ﴿في صرة﴾ أي: صيحة ﴿فصكت وجهها﴾ وهذا من جش ما يجري من النساء عند السرور [ونحوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي: أتى لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن، ما لا تلد

(٥) في ب: في ابتداء السلام.

(٣) في ب ليعتبروا بهم.

(٤) أمر الله محمداً وأمته.

(١) كذا في ب، وفي أ: علم.

(٢) في ب على كل حجر اسم صاحبه.

كالريم ﴿٤٥﴾: أي: كالرمم البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم، دليل على [كمال] قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المتقم بمن عصاه.

﴿٤٣ - ٤٥﴾: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم غمتموا حتى حين﴾ * ففتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴿٤٥﴾: ﴿وفي ثمود﴾ [آية عظيمة]، حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزددهم ذلك إلا عتوا ونفورا.

﴿٤٦﴾: ﴿لهم غمتموا حتى حين﴾ * ففتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة ﴿٤٦﴾: أي: الضيحة العظيمة المهلكة ﴿وهم ينظرون﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم، ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ ينجون به من العذاب، ﴿وما كانوا منتصرين﴾ لأنفسهم.

﴿٤٦﴾: ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾: أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السيوف والارض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى [عن آخرهم]، ولم يبق من الكافرين دياراً، وهذه عادة الله وستة فيمن عصاه.

﴿٤٧ - ٥١﴾: ﴿والسمااء بنيانها بأييد وإننا لموسعون﴾ * والارض فرشناها فنعلم الماهدون * ومن كل شيء خلقنا زوجين لملككم تذكرون * ففروا إلى الله إن لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إن لكم منه نذير مبين﴾ يقول تعالى مبيناً لقدرته العظيمة: ﴿والسمااء بنيانها﴾ أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفاً للارض وما عليها.

﴿بأييد﴾: أي: قوة وقدرة عظيمة

المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة بغيام عليهم.

﴿٣٨ - ٤٠﴾: ﴿وقوله تعالى﴾: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان منين﴾ * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ﴿٤٠﴾: ﴿وفي موسى﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئيه بالآيات السينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى ﴿بذلك﴾ السلطان المين، فتولى فرعون ﴿بركنه﴾: أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقذح فيه أعظم القذح، فقالوا: ﴿ساحر أو مجنون﴾: أي: إن موسى، لا يخلو إما أن يكون ساحراً وما أتى به شعيرة ﴿٧﴾ ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يواخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هذا، وقد علموا، خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [ظلماً وغلوا]، وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والارض﴾ [بصائر] الآية، ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم﴾: أي: مذهب طاع، عاث على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤١ - ٤٢﴾: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ * ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم ﴿٤٢﴾: ﴿وفي عاد﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة ﴿٨﴾: ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾: أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام، ﴿ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته

قد أعدت لغير الضيف الحاضر ﴿١﴾، إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم، من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضراً عنده ﴿٢﴾، وفي بيته معداً، لا يحتاج إلى أن يأتي به ﴿٣﴾ من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبير من ضيف الضيفان.

ومنها: أنه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: ﴿تفضلوا، أو اثناؤا إليه﴾ لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم غرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿ألا تأكلون﴾ ولم يقل: ﴿كلوا﴾ ونحوه من اللفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿ألا تأكلون﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من اللفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: ﴿ألا تأكلون﴾ أو: ﴿ألا تفضلون علينا وتشرفونا وتحسنون إلينا﴾ ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان ﴿٥﴾ لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: ﴿لا تخف﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصرتها غير

(٨) في ب: تقديم وتأخير في هذا الكلام.

(٦) كذا في ب، مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتى فرعون.

(٧) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذة.

(١) كذا في ب، وفي أ: الخاص.

(٢) في ب: لديه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أن يستلحقه.

(٤) في ب: وسيد.

(٥) في ب: من أحد.

﴿وإنا لموسعون﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون [أيضاً] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات، ﴿والأرض فرشناها﴾ أي: جعلناها فراشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش قد يكون صالحاً للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فتنعم الماهدون﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكيمته و] رحمته وإحسانه، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي: صنفين، ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لعلكم تذكرون﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم] في تقدير ذلك، وحكيمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من النافع.

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لحشيتة والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية

المراد (٢) والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكابر، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن (أو السرور) والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، وخوف بين النذارة، ﴿ولا تميلوا مع الله إليها آخر﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿٥٢-٥٣﴾ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ يقول الله مسلماً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزّه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال اتواصوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: ﴿أم هم قوم طاغون﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال

الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿٥٤-٥٥﴾ فتقول عنهم فما أتت بمعلوم ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يقول تعالى آمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿فتقول عنهم﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك.

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدبت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول (٣)، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع، فإنه من التذكير، وتقام التذكير، أن يذكر ما في الأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو (٤) معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمية، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع منهم الموعظة موقعها، كما قال تعالى: ﴿فذكر إن تفتت الذكرى﴾ سيذكر من يخشى ﴿ويتجنبها

(١) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم.

(٢) في ب: غاية المراد.

(٣) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ما.

كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عد ولا ثمن.

﴿وكتاب مسطور﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب^(٤)، أنزله الله محتويًا على نبأ الأولين والآخرين، وعلموم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿في رق﴾ أي: ورق ﴿منشور﴾ أي: مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تحفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿والبيت المعمور﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ليتعبدون فيه لربهم ثَمًا، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالزفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وحقيق بيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أخذ أركان الإسلام، ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنًا، أن يقسم الله به، وبين من عظمت ما هو اللاتق به وبخرمته.

﴿والسقف المرفوع﴾ أي: السماء، التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنتازها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿والبحر المسجور﴾ أي: المملوء

منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

﴿٥٩-٦٠﴾ ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستمعلون﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴿أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا﴾^(٣) محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذنوباً﴾ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فلا يستمعلون﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقح عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله يوم القيامة، فقال: ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

تفسير سورة الطور، مكية

﴿١٦-١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والطور﴾ وكتاب مسطور ﴿في رق منشور﴾ والبيت المعمور والسقف المرفوع ﴿والبحر المسجور﴾ إن عذاب ريك لواقع ﴿ماله من دافع﴾ يوم غور السماء موراً ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ فويل يومئذ للمكذبين ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أنسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة، المشتتة على الحكم الجلية، على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور الذي هو الجبل الذي

الأسقى ﴿وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿٥٦-٥٨﴾ ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، ويحث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبه، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن^(١) معرفته تعالى، فإن تمام العباداة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿إن الله هو الرزاق﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذو القوة المتين﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذ مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يعث الأموات بعدما مرقهم إلى، وعصفت بترابهم^(٢) الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمرقوا في مهامه الفقار، ولجج البحار، فلا يفوته

(١) في ب: وذلك متوقف.

(٣) في ب: بتكذيبهم.

(٢) في ب: عصفت بهم.

(٤) في ب: الكتب.

وأن حجة الله قامت عليهم^(٣).
﴿اصلوها﴾ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم^(٤)، وتطلع على أفئدتكم.

﴿فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم﴾ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست^(٥) من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال] ﴿إنما نجحوا ما كنتم تعملون﴾.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ فأكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * متكئين على سُرر مصفوفة وزوجناهم بحور عِين * لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إن المتقين﴾ لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسابيه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿في جنات﴾ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار المثمرة، والأنهار التدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة، ﴿ونعيم﴾ [وهذا] شامل لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿فأكهين بما آتاهم ربهم﴾ أي: معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم المحبوب،

بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يوم يدفعون إليها دفعاً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرع: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون» أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين:

أما كونه سحراً، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف^(٦) للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الخلية.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: ﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾] إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحر أم عدم بصيرة بكم، حتى أشبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق،

ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، منع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض، من أنواع الحيوان وقيل: إن المراد بالمسجور، الموقد الذي يوقد [ناراً] يوم القيامة، فيصير ناراً تُلظى، ممثلة على عظمتها وسعته من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿ما له من دافع﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب، ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه^(٧) العذاب، فقال: ﴿يوم تمور السماء مورا﴾ أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بالزجاج وعدم سكون، ﴿وتسير الجبال سيرا﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك [حتى تبصر] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور الزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف؟! ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ والويل كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف، ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿الذين هم في خوض يلعمون﴾ أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلومهم وبخوتهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به.

(٢) في ب: المنافي.

(٣) بعد قوله والصراط المستقيم جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نص في ب: (أي: أفتبصرون من له عقل أن يقول عنه: إنه سحر، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا).

(٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: وليس.

الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، منبر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيّب النادمة، ولا يسمعون من ربه، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [ومحبته لهم].

﴿ويطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي: خدم شباب ﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه^(٥)، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قالوا﴾ في ذكر بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحيرة والسرور: ﴿إننا كنا قبل﴾ أي: في دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿فمن الله علينا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿ووقانا عذاب السموم﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿إننا كنا من قبل ندعوه﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة أي: لم نزل نستقرب إليه بأنواع القربات^(٦)، وتدعوه في سائر الأوقات، ﴿إنه هو البز الرحيم﴾ فمن بزه بنا ورحته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿٢٩-٤٣﴾ ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ أم يقولون شاعر نترصد به رب المنون ﴿قل تربصوا إني معكم من المترصدين﴾ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغوت ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون﴾ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴿

ولا تأثيم﴾ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون﴾ قالوا ﴿إننا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴿إننا كنا من قبل ندعوه إنه هو البز الرحيم﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون، يلحقهم الله بمنزلة آبائهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لأبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً، ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرتبه بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من قرائه إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وأمددناهم﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العليم، ﴿بفاكهة﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿ولحم مما يشتهون﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحم الطير وغيرها. ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي: تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الرلدان المخلدون بأكراب وأباريق وكأس ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت

ونجاهم من المهوب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه وبأباه.

﴿كلوا واشربوا﴾ أي: مما تشتهي أنفسكم، من [أصناف] المأكّل والمشارب اللذيذة، ﴿هتيئلاً﴾ أي: متهئين بتلك المأكّل والمشارب^(١) على وجه الفرح والسرور والبهجة والخيور. ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي: نلتكم ما نلتكم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة، ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وضرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض^(٢)، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يحظر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المأكّل والمشارب [اللذيذة]، والمجالس الحسنة الآتية، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن^(٣)، فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهائنها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسنة الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش^(٤) شوقاً إليهن، ورغبة في وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿٢٨-٢١﴾ ﴿والذين آمنوا واتبعهم﴾ ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها

(٥) في ب: وقضاء أشغالهم.

(٦) في ب: العبادات.

(٣) في ب: إلا بهن.

(٤) في ب: تطير.

(١) في ب: متهئين بذلك على وجه.

(٢) في ب: وملاطفه بعضهم بعضاً.

أمر عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون * أم لهم سلم يستمعون فيه فليات مستمعهم سلطان مبن * أم له البنات ولكم البنون * أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون * أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون * أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون * يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكر الناس، مسلمهم وكافرهم، ليقيم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وأنه لا يبالي بقول المشركين المكذبين وأدبهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به، فقال: ﴿فما أنت بتعمه ربك﴾ أي: منه ولطفه، ﴿بكاهن﴾ أي: له رأي من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب، التي يضم إليها مئة كذبة، ﴿ولا مجنون﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم وأكملهم، وتارة ﴿يقولون﴾ فيه: إنه ﴿شاعر﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾.

﴿تترى به ربك المنون﴾ أي: نتظر به الموت^(١)، فسيبطل أمره، [ونستريح منه]، ﴿قل﴾ لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تربصوا﴾ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فإني معكم من التربصين﴾ تترى بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا، ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾ أي: هذا التكذيب لك، والأقوال التي قالوها؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبش العقول والأحلام، التي أثرت ما

أثرت، وصدر منها ما صدر^(٢). فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً مجنوناً، وأصدق الصدق^(٣) وأحق الحق كذباً وباطلاً، لهما العقول التي ينزه المجانين عنها، أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد^(٤) يقف عليه، فلا يستغرب من الطاغية المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه.

﴿أم يقولون تقوله﴾ أي: تقول عمداً القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟ ﴿بل لا يؤمنون﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا.

﴿٣٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أنه تقوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البليغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدق معارضتكم أو تقرروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله، فحيث أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ وهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبين ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم. وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمور لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال. أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم^(٥). فإذا بطل [هذان] الأمران، وبان

والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين. ﴿٣٥﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٣٦﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٣٧﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٣٨﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٣٩﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤٠﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤١﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤٢﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤٣﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤٥﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤٦﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤٧﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤٨﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٤٩﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥٠﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥١﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥٢﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥٣﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥٥﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥٦﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥٧﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥٨﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٥٩﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦٠﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦١﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦٢﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦٣﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦٥﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦٦﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦٧﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦٨﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٦٩﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧٠﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧١﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧٢﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧٣﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧٥﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧٦﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧٧﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧٨﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٧٩﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨٠﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨١﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨٢﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨٣﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨٥﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨٦﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨٧﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨٨﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٨٩﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩٠﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩١﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩٢﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩٣﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩٥﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩٦﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩٧﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩٨﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿٩٩﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. ﴿١٠٠﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي: يقولون تقوله، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين.

استحالتهما، تعين [القسم الثالث] أن الله الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أم خلقوا السماوات والأرض﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء الله، وهذا أمر واضح جداً.

ولكن المكذبين ﴿لا يوقنون﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون﴾ أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاؤون ويمنعون من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضرر، ولا موت ولا حياة ولا نشور.

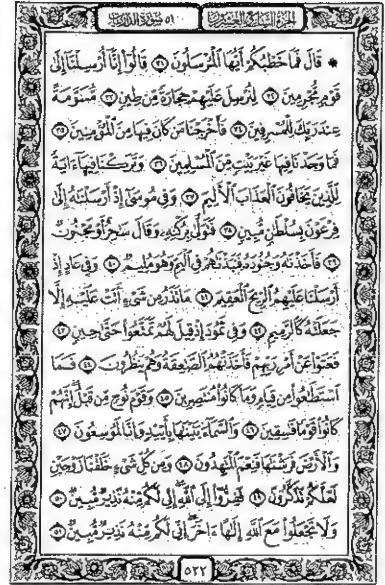
(١) كذا في ب، وفي أ: تربص به الموت، ونتظره فيه.

(٢) في ب: التي هذه نتائجها، وهذه ثمراتها.

(٣) في ب: وجعلت أصدق الصدق.

(٤) كذا في ب، وفي أ: لا حد له.

(٥) في ب: أن يوجد أحد نفسه.



﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسما بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

﴿أهم هم المصيطرون﴾ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء، ﴿أهم لهم سلم يستمعون فيه﴾ أي: ألهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟

﴿فليات مستمعهم﴾ المدعي لذلك ﴿يسلطان مبین﴾ وأتى له ذلك؟

والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه [أحدًا] (١) إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد الله، ووعدته، ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد، فأئي المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصاً

والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره (٢) عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلاً عن إقامة حجة.

وقوله: ﴿أهم له البنات﴾ كما زعمتم ﴿ولكم البنون﴾ فتجمعون بين المحذورين؟ جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لزب العالمين غاية أو دونه نهاية؟

﴿أهم تسألهم﴾ يا أيها الرسول ﴿أجراً﴾ على تبليغ الرسالة، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص على تعليمهم، تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة، على قبول رسالتك، والاستجابة [لأمرك و] دعوتك، وتعطي المؤلفة قلوبهم [ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم].

﴿أهم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبياء الله من علم الغيب على ما لم يُطْلَغ عليه أحدًا من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض، وقوله: ﴿أهم يريدون﴾ بقدهم فيك وفيما جئتهم به ﴿كيداً﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟

﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾ أي: كيدهم في تحورهم، ومضرتهم غائدة

إليهم، وقد فعل الله ذلك - والله الحمد - فلم يبق الكيفار من مقدورهم من المكر شيئاً إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم (٣)، وخذلهم وانتصر منهم.

﴿أهم لهم إله غير الله﴾ أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره، غير الله تعالى؟ ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحباً مكرهم فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ﴿يقول تعالى في ذكر﴾ بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق] وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، وخالفوه وعاندوه، ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطع كبار من العذاب ﴿يقولوا سحباً مكرهم﴾ أي: هذا سحب متراكم على العادة أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين.

(٣) في ب: فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم.

تفسير سورة النجم [وهي] مكية

يصعقون وهو يوم القيامة الذي يصيبهم [فيه] من العذاب والنكال، ما لا يقادر قدره، ولا يوصف أمره.

﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيثون به زمناً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مناعيتهم، ولا ينتصرون من عذاب الله ولا هم ينصرون.

﴿٤٧ - ٤٩﴾ «وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون» واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم» ذكر [الله] عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة^(١)، وذلك شامل لعذاب الدنيا، بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر، «ولكن أكثرهم لا يعلمون» أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب.

ولما بين تعالى الحجاج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعيا بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القنطري والشرعي بلزومه والاستقامة عليه، ووعد الله بالكفاية بقوله: ﴿فإنك بأعيننا﴾ أي: بمرأى منا وحفظ، واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: «وسبح بحمد ربك حين تقوم» أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله: «ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم» أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة والطور والحمد لله

﴿١ - ١٨﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى يقسم تعالى بالنجم عند هويته أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم، اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولو العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.

والمقسم عليه، تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والنغي في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً، حسن القصد، ناصحاً للأمم^(٢)، بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد^(٣)، وقال «صاحبكم» لينبههم على ما يعرفونه منه، من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره، «وما ينطق عن الهوى» أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه، «إن هو

كذلك تأنى الذين هم قايمة رسول إلا قالوا ساحر متحور
أو أصابهم من قوت طاعون
وذكر في الآية الكريمة نفع المؤمنين وما خلفت الجحش
والإنس إلا يسعدون ما أرادهم من رزق وما أراد
أن يفسدوا إن الله هو الرزاق ذو القدر العليم
الذين ظلموا فويل لقلوبهم أصبحهم فلا يستعجلون
فويل للذين كفروا إن ربهما الذي وعدون

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم
والنجم
والنجم إذا هوى
فما ضل صاحبكم وما غوى
وما ينطق عن الهوى
إن هو إلا وحي يوحى
علمه شديد القوى
ذو مرة
فاستوى
وهو بالأفق الأعلى
ثم دنا
فتدلى
فكان قاب قوسين أو أدنى
فأوحى إلى عبده ما أوحى
ما كذب
الفؤاد ما رأى
أفتمارونه على ما يرى
ولقد رآه نزلة أخرى
عند سدرة المنتهى
عندها جنة المأوى
إذ يغشى السدرة ما يغشى
ما زاغ البصر وما طغى
لقد رأى من آيات ربه الكبرى
يقسم تعالى بالنجم
عند هويته أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل
عند إدبار الليل وإقبال النهار
لأن في ذلك من آيات الله العظيمة
ما أوجب أن أقسم به
والصحيح أن النجم
اسم جنس شامل للنجوم كلها
وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي
لأن في ذلك مناسبة عجيبة
فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء
فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض
فلولو العلم الموروث عن الأنبياء
لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم

إلا وحي يوحى» أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره.

ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة» وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شريعته، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى، ثم ذكر العلم للرسول ﷺ، وهو جبريل عليه السلام، أفضل الملائكة [الكرام] وأقواهم وأكملهم، فقال: «علمه [شديد القوى]» أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام، «شديد القوى» أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

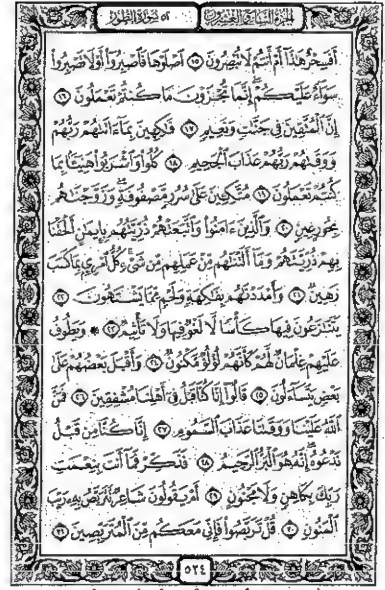
«ذو مرة» أي: قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن.

«فاستوى» جبريل عليه السلام

(١) في ب: في الآخرة أخبر أن لهم عذاباً قبل عذاب...

(٢) في ب: للخلق.

(٣) في ب: وسوء.



«وهو بالأفق الأعلى» أي: أفق السماء الذي هو أعلى من^(١) الأرض، فهو من الأرواح العلوية التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

«ثم دنا» جبريل من النبي ﷺ، لإيصال الوحي إليه.

«فقلدي» عليه من الأفق الأعلى «فكان» في قربه منه «قاب قوسين» أي: قدر قوسين، والقوس معروف، «أو أدنى» أي: أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة^(٢) للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

«فأوحى» الله بواسطة جبريل عليه السلام «إلى عبده» محمد ﷺ «ما أوحى» أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبأ المستقيم.

«ما كذب الشؤد ما رأى» أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، وهذا دليل على كمال الرحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك بذلك. ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﷺ ليلة

أسري به، من آيات الله العظيمة، وأنه تيقنه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا [هو] الصحيح في تأويل الآية الكريمة، وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء، وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأثبتوا هذه رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية [التي هو عليها] مرتين، مرة في الأفق الأعلى، تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ، ولهذا قال: «ولقد رآه نزلة أخرى» أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه.

«عند سدرة المنتهى» وهي شجرة عظيمة جداً، فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم الخلق^(٣) إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض، فهي المنتهى في علوها^(٤)، أو لغير ذلك، والله أعلم.

فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

عند تلك الشجرة «جنة المأوى» أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه^(٥) الأماني، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة.

«إذ يغشى السدرة ما يغشى» أي: يغشاها من أمر الله، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.

«ما زاغ البصر وما طغى» أي: ما زاغ يمنه ولا يسره عن مقصوده «وما

طغى» أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما أن لا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفريط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الحيدة يميناً وشمالاً، وهذه الأمور كلها متفية عنه ﷺ.

«لقد رأى من آيات ربه الكبرى» من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

«١٩ - ٢٥» «أفرأيتم اللات والعزى» ومناة الثالثة الأخرى * «الكم الذكر وله الأنثى» تلك إذا قسمة ضيزى * «إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى» * أم للإنسان ما تمنى * «فلله الآخرة والأولى» لما زكى تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مشقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «الإله» المستحق للعبادة، و «العزى» من «العزیز»، و «مناة» من «المنان»، إلخاداً في أسماء الله وتمجيراً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة

(٥) كذا في ب، وفي أ: إليها.

(٣) في ب: علم المخلوقات.

(٤) كذا في ب، وفي أ: علوها.

(١) كذا في ب، وفي أ: الأعلى على.

(٢) في ب: مباشرته.

عن المعاني، فكل من له أدنى منة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿الكم الذكر وله الأنثى﴾ أي: أتعملون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ أي: ظالة جائزة، [وأي ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعال عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي: الذي يرشدكم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بيها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يمتنون الأمانى، ويغترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ قلله الآخرة والأولى، فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وكم من ملك في السماوات﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة: ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن العلوم المقررة، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعاة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ ﴿إن النذيرين لا يؤمنون بالآخرة ليسئون الملائكة تسمية الأنثى﴾ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يثبت في الحق شيئاً. فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن اهتدى. ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى. يعني أن المشركين بالله المكذبين لرسوله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويحلوه عن تسميتهم إياهم إنثاء، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزّه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون



إلى الله، قائمون بخدمة الله. لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. والمشركون^(١) إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو^(٢) الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم^(٣) لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم، ما تهواه نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض عما تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبا الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن العلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصلوها، وبأي طريق سحت ابتدروها، ذلك مبلغهم من العلم. أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، بمن لا يستحق

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: إلا.

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم.

موجود مشاهد منكم حين أنشأكم^(٤) الله من الأرض، وإذا كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلكم تعال بأحوالكم هذه، ناسب الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآتات، وفراره من الذنوب التي يتمت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفتنة بعد الفتنة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين^(٥)، أرحم عباده من الوالدة بولدها، فلا بد لئلا هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً وأن يكون الله له في جميع أحواله محبوباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح^(٦)

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَائرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إِلَّا اللَّيْمَ﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصير صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلّة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها غرضاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ﴾ فلولا مغفرته لهلك البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنب الكبائر»، [وقوله]: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٧) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف

من أعمال الشر بالعقوبة البليغة^(٨). ﴿وَيُحْزِنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ حِسَابَهُمْ﴾ أي: يحزنون لأنهم لا يرجون أن يحاسبهم الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَيُحْزِنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ حِسَابَهُمْ﴾ أي: يحزنون لأنهم لا يرجون أن يحاسبهم الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَيُحْزِنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ حِسَابَهُمْ﴾

﴿وَيُحْزِنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ حِسَابَهُمْ﴾ أي: يحزنون لأنهم لا يرجون أن يحاسبهم الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَيُحْزِنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ حِسَابَهُمْ﴾ أي: يحزنون لأنهم لا يرجون أن يحاسبهم الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَيُحْزِنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ حِسَابَهُمْ﴾

﴿وَيُحْزِنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ حِسَابَهُمْ﴾ أي: يحزنون لأنهم لا يرجون أن يحاسبهم الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَيُحْزِنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ حِسَابَهُمْ﴾

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٧) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٧) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف

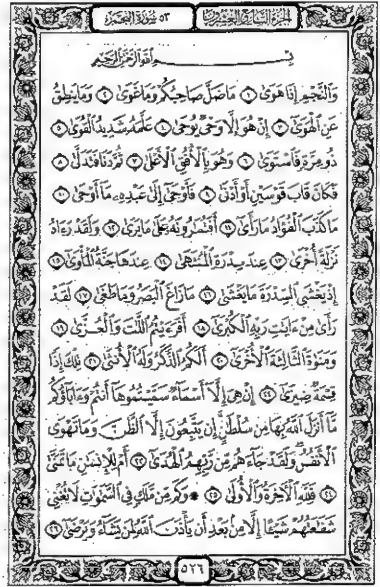
﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٧) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٧) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٧) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٧) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٧) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف



ذلك فيكمله إلى نفسه، ويحذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيُحْزِنَ الَّذِينَ أَسَؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيُجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ الذين يَحْتَبُونَ كِبَائرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّيْمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ أَنْتَقَى يُخَبِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ، الْمُتَفَرِّدُ بِمُلْكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ جَمِيعٌ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُلْكُ اللَّهِ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ تَصَرَّفَ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ، فِي عِبِيدِهِ وَمَمَالِكَه، يَنْفِذُ فِيهِمْ قُدْرَهُ، وَيُجْزِي عَلَيْهِمْ شَرْعَهُ، وَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، وَيُجْزِيهِمْ عَلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَنَهَاهُمْ [عنه]، فيثبت المطيع، ويعاقب العاصي، ليحزي الذين أسأوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا

(١) في ب: الفطعية.

(٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل.

(٤) في ب: حين أخرجكم.

(٥) في ب: وأجود الأجودين.

(٦) كذا في ب، وفي أ: تظهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.

﴿وأنه خلق الزوجين﴾ فسر الزوجين^(٦) بقوله: ﴿الذكر والأنثى﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمةا، فهو المنفرد بخلقها، ﴿من نقطة إذا غنى﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها كبيرها من نقطة ضعيفة^(٧) من ماء مهين، ثم نماءها وكملها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الأدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عِلين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبنداء على الإعادة، فقال: ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم يوم الميقات، ويمجّزهم على الحسنات والسيئات، ﴿وأنه هو أغنى وأغنى﴾ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأغنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يضيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى^(٨)، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له، ﴿وأنه هو رب السمى﴾ وهي النجم المعروف بالشعرى العصور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون مريبوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله^(٩)، ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا

وإحسانه الخليفة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ من يرى أن القرب لا يفيد^(١٠) إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فوصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهده ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات، ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيبيدهم بعد موتهم، ويمجّزهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا،

عليه النشأة الأخرى﴾ إلى آخر السورة يقول تعالى: ﴿أفأريت﴾ قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدى ويمتنع.

فإن المعروف ليس سجيبة له وطبيعة^(١١)، بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجريء على الجمع بين الإساءة والتزكية^(١٢)، كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿أم لم يثبأ﴾ هذا المدعي ﴿بما في صحف موسى﴾ وإبراهيم الذي وفي أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وقرعته، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿الأتزر وازرة وزر أخرى﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً، ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ في الآخرة فيميز حسنته من سيئته، ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسن، والسيئ الخالص بالسوء، والمشرب بحسبه، جزاء تقرر بعدله

(١) في ب: فإن الإحسان ليس سجيبة له وطبعاً.

(٢) فتجريء عليه جامع بين المجدورين الإساءة والتزكية.

(٣) في ب: لا يجوز.

(٤) في ب: فسرهما.

(٥) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

(٦) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه.

(٧) في ب: فكيف تتخذ مع الله آلهة.

غافلون عنه، لاهون عن تدبيره، وهذا من قلة عقولكم وأبائكم، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله^(٦)، وأنه سر العبادة ولها، فإن ليها الخشوع لله^(٧) والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد^(٨)، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض الهيمنة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ثم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا تحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

تفسير سورة اقتربت مكية

﴿١٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة وإنشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم * وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مردجر * حكمة بالغة فما تغني النذر * يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، وحين وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويرسم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد الرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين؟

﴿أزفت الآزفة﴾ أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها، ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعّد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن^(٩) العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً، وتسديداً وثباتاً، وإيماناً وبقيناً والذي^(١٠) ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهة وضلاله.

﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة، ﴿وانتم سامدون﴾ أي:

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، ﴿وثمود﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم^(١١) الناقة آية، ففعلوها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فما أبقى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم^(١٢)، ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أقلم وأطغى﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم، ﴿والمؤتفة﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أهوى﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿نفغشاهما غشي﴾ أي: غشيها من العذاب الأليم الرخيص ما غشي أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه، ﴿فبأي: آلاء ربك تتماوى﴾ أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس يبدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلا شيء تنكر رسالته؟ وبأي: حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلا] أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟^(١٣)

(١) في ب: لهم.

(٢) في ب: بل أبادهم عن آخرهم.

(٣) في ب: أليس يدعو إلى كل خير، وينهي عن كل شر.

(٤) في ب: القرآن.

(٥) في ب: بل الذي.

(٦) في ب: يدل على فضله.

(٧) في ب: فإن روحها الخشوع لله.

(٨) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها العبد لمناسبة الكلمة للسياق لقوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).

مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به] وصدقته، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقطين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى^(١) الكاشنة في العالم العلوي، التي لا يتقدر الخلق على التمويه بها والتخيل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يستوعبوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم^(٢) إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحرهم، لا^(٣) يتقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: «سحر مستمر» سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل^(٤) والرد لها، ولهذا قال: «وإن يروا آية يعرضوا» ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: «وإن يروا بل قال: «وإن يروا آية يعرضوا» وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: «وكذبوا واتبعوا أهواءهم» كقوله تعالى: «فإن لم

يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم» فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لأمنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه^(٥) من البيئات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، «وكل أمر مستقر» أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى: «مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى: «ولقد جاءهم من الأنبياء» أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة «ما فيه مزدجر» أي: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك «حكمة» منه تعالى «بالغة» أي: لتقوم حجته على المخالفين^(٦)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، «فما تغن النذر» كقوله تعالى: «ولو جاءهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم».

٦- ٨ «فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر» خشياً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر» مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر» يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال: «فتول عنهم» وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين

(١) في ب: العظيمة.

(٢) في ب: من ورد.

(٣) في ب: لم.

(٤) في ب: بالتكذيب.

(٥) كذا في النسختين والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.

(٦) في ب: العالمين.

(٧) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.



يدعو الداع» إسرافيل عليه السلام إلى شيء نكر» أي: إلى أمر فطعن تنكره الخلق، فلم تر منظرًا أظنع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة، «خشعاً أبصارهم» أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

يخرجون من الأجداث» وهي القبور، «كأنهم» من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض «جراد منتشر» أي: مبثوث في الأرض، متكاثراً جداً، «مهطعين إلى الداع» أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي^(٧)، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، «يقول الكافرون» الذين قد حضر عذابهم: «هذا يوم عسر» كما قال تعالى «على الكافرين غير يسير»



[مفهوم ذلك أنه يسيّر سهل على المؤمنين]^(١)

٩٦ - ١٧ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبيدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ فدعاه ربه أني مغلوب فانتصر ﴿ففتحت أبواب السماء بماء منهمر ﴾ وفجرنا الأرض عيوناً فالتمى الماء على أمر قد قدر ﴿وهملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ تجري بأعيننا جزء لمن كان كفر ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾ فكيف كان عذابي ونذر ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسول، وكيف أهلكتهم الله وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لا تذرنا ألهتكم ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ﴾ ولا يغوث ويغوث ونسراً. ولم يزل نوح يدعوه إلى الله ليلاً

ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزددهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبهم، ولهذا قال هنا: ﴿فكذبوا عبيدنا وقالوا مجنون ﴾ لزعهم أن ما هم عليه وأبائهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله]: ﴿وازدجر ﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال]: ﴿أي مغلوب ﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فانتصر ﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿ففتحت أبواب السماء بماء منهمر ﴾ أي: كثير جداً متتابع، ﴿وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ فجعلت السماء يتزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تحجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لآته موضع النار.

﴿فالتقى الماء ﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿على أمر ﴾ من الله له بذلك، ﴿قد قدر ﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، ﴿وهملناه على ذات

ألواح ودسر ﴾ أي: ونجيناً عبيدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدسر أي: المسامير [التي] قد سميرت [بها] ألواحها وشدها أسيرها^(٢)، ﴿تجري بأعيننا ﴾ أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ [منه] لها عن الغرق [ونظر]، وكلاهما منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل، ﴿جزء لمن كان كفر ﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرد عنه راد، ولا صده عنه^(٣)، صاده، كما قال [تعالى] عنه في الآية الأخرى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ﴾ الآية.

ويحتمل أن المراد: أنا أهلكتنا قوم نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والحزى، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف، ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكتهم الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده^(٤) نوح عليه السلام، ثم أبقي الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمة بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، ويذيع صنعتته، ﴿فهل من مدكر ﴾؟ أي: فهل متذكر^(٥) للآيات، ملئ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟ ﴿فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يئقي لأحد عليه حجة.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا

(٣) في ب: ولا صده عن ذلك صاده.

(٤) في ب: لرسوله.

(٥) في ب: فهل من متذكر.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وشدت أسرها.

القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدق معنى، وأبين تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاقلون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواظب والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أمين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان [عليه]؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ﴾.

﴿١٨ - ٢٢﴾ * كَذِبْتَ عَادَ فَكَيْفَ
 كَانَ عَذَابِي وَنَذْرُ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
 رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ *
 تَنْزِعُ النَّاسَ كَانِهِمْ أَعْجَازًا نَخْلًا مُنْقَعَرٍ *
 فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذْرُ * وَلَقَدْ يَسِّرْنَا
 الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ * ﴿وَعَادَ﴾
 هِيَ الْقَبِيلَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْيَمَنِ، أَرْسَلَ اللَّهُ
 إِلَيْهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُوهُمْ إِلَى
 تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، فَكَذَّبُوهُ،
 فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾
 أَيُ : شَدِيدَةً جَدًّا، ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾
 أَيُ : شَدِيدِ الْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ عَلَيْهِمْ،
 ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ
 حُسُومًا، ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ مِنْ شَدِيدِهَا،
 فَتَرْفَعُهُمْ إِلَى جَوْ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَدْفَعُهُمْ
 بِالْأَرْضِ فَتَهْلِكُهُمْ، فَيُصْبِحُونَ ﴿كَأَنَّهُمْ
 أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعَرٍ﴾ أَيُ : كَأَن جِثَّتْهُمْ
 بَعْدَ هَلَاكِهِمْ مِثْلَ جَذَعِ النَّخْلِ الْخَاوِي
 الَّذِي أَصَابَتْهُ ^(١) الرِّيحُ فَسَقَطَ عَلَى
 الْأَرْضِ، فَمَا أَهْوَنَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ إِذَا
 عَصَوْا أَمْرَهُ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
 وَنَذْرُ﴾ كَانَ [وَاللَّهُ] الْعَذَابُ الْإِلِيمُ،
 وَالنَّذَارَةُ الَّتِي مَا أَبْقَتْ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ
 حِجَّةً، ﴿وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
 مِنْ مُدْرِكٍ﴾ كَرَّرَ تَعَالَى ذَلِكَ رَحْمَةً بِعِبَادِهِ

وعناية بهم ، حيث دعاهم إلى ما يصلح
نيلهم وأخراهم .

﴿٢٣- ٢٢﴾ ﴿كذبت ثمود
بالنذر * فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه
إنا إذا لفي ضلال وسعر * ألقي الذكر
عليه من بيننا بل هو كذاب أشعر *
سيعلمون غداً من الكذاب الأشر * إنا
مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقهم
واضطرب * وتبهم أن الماء قسمة بينهم
كل شرب محتضر * فنادوا أصحابهم
تعاطى فعقر * فكيف كان عذابى
ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة
فكانوا كهيثم المحتظر * ولقد يسرنا
القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أى :

كذبت ثمود وهم القبيلة المعروفة الشهيرة في أرض الحجر، نبيهم صالحاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، أنذرهم العقاب إن هم خالفوه، فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا - كثيراً وتبها - : ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾ أي : كيف نتبع بشراً، لا ملكاً منا، لا من غيرنا، من هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إننا إذا﴾ أي : إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لفي ضلال وسعر﴾ أي : إننا لضالون شقياء، وهذا الكلام من ضلالهم وشقاقهم، فأنهم أنفروا أن يتبعوا رسولا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين لشجر والحجر والصور ﴿القي الذكر عليه من بيننا﴾ أي : كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأي : مزية خصه من بيننا؟ وهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزلوا يدلون به، يصلولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأمتهم : ﴿قالت سلهم إن نحن إلا بشر مثلكم لكن الله يمشي على من يشاء من عباده﴾ فالرسل من الله عليهم بصفات أخلاق وكمالات، بها صلحوا بالسلالات منهم والاختصاص به،

[illegible]

ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لحاجل الله المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

والمقصود بهذا الكلام الصادر من
ثمود لنبيهم صالح، تكذيبه، ولهذا
حكموا عليه بهذا الحكم الجائر،
فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشرف أي:
كثير الكذب والشر، فقيحهم الله ما
أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم
مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب
الشنيع، لا جرم عاقبهم الله حين اشتد
طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي
من أكبر النعم عليهم، آية من
آيات الله، ونعمة يحتسبون من
ضرعها^(٢) ما يكفيهم أجمعين، ﴿فئنة
لهم﴾ أي: اختياراً منه لهم وامتحاناً
﴿فارتقبهم واصطبر﴾ أي: اصبر على
دعوتك إياهم، وارقب ما يحل بهم،
أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟
﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي:
أخبرهم أن الماء أي: موردهم الذي
يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة،
لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر
معلوم، ﴿كل شرب شتضر﴾ أي:
يحضره من كان قسمته، ويحظر على من

من العير ما لم يشهد عليه أحدًا غيرهم^(٣)، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده^(٤).

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس] والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿إكفاركم خير من أولئكم﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصيبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم لم يكونوا شراً منهم، فليسوا بخير منهم، ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نحن جميع منتصرون﴾ قال تعالى: ﴿نبينا لتضعفهم﴾ وأنهم مهزومون: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾. فوقع كما أخبر، هزم الله جميعهم الأكبر يومئذ، وقتل من^(٥) صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به^(٦)، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين. ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع ببلذاته، ولهذا قال: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ أي:

عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاؤهم^(١) مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبحهم، وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته ﴿فتماروا بالنذر﴾ ﴿ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر﴾ قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿٤١-٥٥﴾ ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إكفاركم خير من أولئكم﴾ أم لكم براءة في الزبر ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴾ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مذكر ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ وكل صغير وكبير مستطر ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿أي: ولقد جاء آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النذر﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرة^(٢)، وأشهدهم



ليس بقسمة له.

﴿فنادوا صاحبهم﴾ الذي باشر عقربها، الذي هو أشقى القبيلة ﴿فتماطى﴾ أي: انقاد لما أمره به من عقربها ﴿فمقر﴾ فكيف كان عذاب ونذر، كان أشد عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحاً ومن آمن معه، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿٣٣-٤٠﴾ ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴿نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ ولقد أنذرهم بطشنا فتماروا بالنذر ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذاب ونذر﴾ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴿فذوقوا عذاب ونذر﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴿أي: كذبت قوم لوط﴾ لوطاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم

(١) في ب: جاءوا.

(٢) في ب: بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات.

(٣) في ب: ما لم يشهد غيرهم.

(٤) في ب: فأغرقه وجنوده في اليم.

(٥) في ب: وقتلت.

(٦) في ب: فأذلوا.

أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم،
أويدور بالبال^(١).

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ أي: الذين أكثرُوا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: هم ضالون في الدنيا، ضَلَالٌ عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتمل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهاها.

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وخبه خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها^(٢)، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجمع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهذا قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ فإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير مانعة ولا صعوبة.

﴿ولقد أهلكنا أشيعاكم﴾ من الأمم
السابقين الذين عملوا كما علمتم،
وكذبوا كما كذبتهم ﴿فهل من مدكر﴾
أي: متذكر يعلم أن سنة الله في
الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته
كما اقتضت إهلاك أولئك الأشعرار،
فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين
الفريقين ﴿وكل شيء فعلوه في
الزبر﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر
مكتوب عليهم في الكتب القدرية
﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ أي:
مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء

والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لله ، بفعل أو امره
وترك نواحيه ، الذين اتقوا الشرك
والكبائر والصغائر .

﴿في جنات ونهر﴾ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار الياضعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمأكّل والمشارب اللذيذة، والبحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، وروضان الملك الديان، والفوز بقره، ولهذا قال: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدّهم به من إحسانه ومنته، جعلنا الله منهم، ولا حرماناً خيراً ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير سورة اقترت،
ولله الحمد والشكر

تفسير سورة الرحمن
[وهي] مكية

﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ * الرَّحْمَنُ * عِلْمُ الْقُرْآنِ *
خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عِلْمُهُ الْبَيَانُ *
الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا
وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي
الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ
الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرِّيحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تَكْذِبَانِ ﴿١٥﴾ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ الْجَلِيلَةُ،
افْتَتَحَهَا بِاسْمِهِ «الرَّحْمَنِ» الدَّالُّ عَلَى سَعَةِ

وَمَا أَفْرَأُ إِلَّا أَوَّحْدَةً كُتِبَ عَلَيْهَا ٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ تَدَكَّرٍ ٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ قَوْلُهُ فِي
الْزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَقَرٌّ ٥٣ إِنْ لَمْ يَكُنْ
فِي جَنَّتٍ وَنَهَرٍ ٥٤ فَمَقْعَدُ وَدٍ عِنْدَ إِلَهِكَ فَتُفْلِحُ ٥٥

سُورَةُ الْحَجِّ

[illegible]

رحمته، وعموم إحصائه، وجريل بره،
رواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على
رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده
من النعم الدينية والدنيوية [والأخرية
وبعد كل جنس ونوع من نعمه، يشبه
التقليل لشكره، ويقول: ﴿فَبَإِيَّ آلاءِ
ربكما تكذبان﴾].

فذكر أنه ﴿علم القرآن﴾ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسرها على عباده، وهذا أعظم منه ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآنًا عربيًّا بأحسن ألفاظه، وأحسن تفسيره، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿خلق الإنسان﴾ في أحسن تقويم،
كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء،
محكم البناء، قد أتقن البديع تعالى^(٣)
خلقه أي اتقان، وميزه على سائر
الحيوانات، بأن ﴿علمه البيان﴾ أي:
التيبين عما في ضميره، وهذا شامل
للتعليم النظفي والتعليم الخطي،
فالبيان الذي ميز الله به الأدمي على
غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه،
﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي:
خلق الله الشمس والقمر، وسخرهما
بحرمان بحساب مقدر، وتقدير مقدر،

(٢) في ب: في الخيال.

(۲) فی ب: خلقه .

(۲) فی ب: قد أتقن الباري تعالى البديع خلقه.



﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿وَلَا تَحْسُرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَمَهَا﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف [أوصافها و] أحوالها ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي: للمخلوق، لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفرشاً يبنون بها، ويعرثون ويغرسون ويحفرّون ويسلكون سبلها فجاجاً، ويتنفّعون بمعادنها وجميع ما فيها، مما تدعو إليه حاجتهم، بل ضرورتهم.

وتشرح لها النفوس: ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مر بقوله: ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ﴿٢١﴾ ولا شيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي^(٢٢) للعبد إذا تليت عليه نعم الله والآؤه، أن يقرّها ويشكر، ويحمد الله عليها.

﴿١٤ - ١٦﴾ ثم قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ * وخلق الجن من مارِج من نار * فبأي آلاءِ ربكما تكذبان.

وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم [من] آثار قدرته وبديع صنعته، أن ﴿خُلِقَ﴾ أبأ الإنسان وهو آدم عليه السلام ﴿من صلصال كالفخار﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي يطبخ على النار^(٢٣)، ﴿وَوُحِّلَ الْجَانُ﴾ أي: أبأ الجن، وهنأ إبليس اللعين^(٢٤) ﴿من مارِج من نار﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان. وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزاة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجن وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك^(٢٥)، وكان ذلك منة منه [تعالى]

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين والرمان والتفاح، وغير ذلك، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الرعاء الذي يتفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتا يؤكل ويدخر، يشترود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذينة من أحسن الفواكه، ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ أي: ذو الساق الذي يداس، فيتفقع بتينه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البير والشعير والذرة [والأرز] والدخن، وغير ذلك، ﴿وَالرِّيحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأزراق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من نبات عطفت العنام على الخاص، ويكون الله قد امتن على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأن الله امتن على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التي تسر الأرواح،

رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب، ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي: نجوم السماء، وأشجار الأرض، تعترف ربهما وتسجد له، وتطيع وتخضع^(٢٦)، وتنفذ لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم، ﴿وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا﴾ سقفاً للمخلوقات الأرضية، ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿الْأَنظُرُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم، لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

(١) في ب: وتخضع.

(٢) في ب: فكلما مر بقوله: ﴿فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا.

(٣) في ب: فهكذا ينبغي.

(٤) في ب: وهو الطين المشوي.

(٥) في ب: لعنة الله.

(٦) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين.

في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفدها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرة التي يجريها على عبادته مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليفة وأفناهم الله تعالى^(٤)، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريمهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعترفونه ويوحّدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرح حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله: ﴿٣١-٣٢﴾ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبَإِي: آلاء ربكما تكذبان** أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿٣٣﴾ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: تجدون منفذاً مسلماً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرته، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً! ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرؤساء والمزؤسون، والأغنياء والفقراء.

﴿٢٦-٢٨﴾ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبَإِي: آلاء ربكما تكذبان** أي: كل من على الأرض، من إنس وجن، ودواب، وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبعد ويبقى الحى الذي لا يموت ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يكرم أولياءه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليائه ويحلوته، [ويعظمونه] ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه، ﴿فَبَإِي: آلاء ربكما تكذبان.

﴿٢٩-٣٠﴾ **يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبَإِي: آلاء ربكما تكذبان** أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع خوائجهم، بحالهم ومقالتهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه إلهاج الملحّين، ولا طول مسألة السائلين، فيبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعمّ لطفه جميع الخلق في كل الآيات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العصاة، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وكرمه، وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها

على عباده^(١)، قال: ﴿فَبَإِي: آلاء ربكما تكذبان.

﴿١٧-١٨﴾ **رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ * فَبَإِي: آلاء ربكما تكذبان** أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، [وكل ما كان فيه] فهي تحت^(٢) تدبيره وربوبيته، وثناها هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاءً وصيفاً، ومغربها كذلك^(٣).

﴿١٩-٢١﴾ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبَإِي: آلاء ربكما تكذبان** المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصيب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والمالح به يطيب الهواء ويتولد الخوت والسماك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب، ولهذا قال:

﴿٢٤-٢٥﴾ **قُلْ الْجَوَارِ الْبُنَاتِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبَإِي: آلاء ربكما تكذبان**.

أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجوارى، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها آدميون، فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال: ﴿فَبَإِي: آلاء ربكما تكذبان.

(١) في ب: عليهم.

(٢) فالجميع تحت..

(٣) في ب: وثناهما هنا باعتبار مشارقتها شتاءً وصيفاً والله أعلم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وأنى الله الخلق.

أهل الجنة وجلسيهم عليها، وأنهم متكئون عليها، [أي: جلوس تمكن واستقرار [وزاحة]، كجلوس من الملوك على الأسرة، وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير، وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟! (٦)

﴿وجنى الجنتين دان﴾ الجنى هو الثمر المستوي أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يتاله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهن وجمالهن، وكما تحتجن لهم، وقصرن أيضاً طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصلاتهن، ﴿لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي: لم يطمئن قبلهن أحد من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب، متحجيات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن، ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبده، إلا أن يحسن إليه بالشواب الجزيل، والفوز الكبير، والتعظيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين، ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من فضة بنيانها وأنيتهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مدهامتان﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

﴿٦٦﴾ ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ أي: فوارتان، ﴿فيهما فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما، ﴿فيهن﴾ أي: في الجنات كلها ﴿خيرات حسان﴾ أي: خيرات

أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة.

﴿٤٣-٤٥﴾ ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴿فبأي: الآء ربكما تكذبان﴾ أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسخر الجحيم: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ فليتهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم (٣)، ﴿يطوفون بينها﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهيها ﴿وبين حميم آن﴾ أي: ماء خار جداً قد انتهى حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره، ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزاء المتقين الخائفين، فقال:

﴿٤٦-٤٦﴾ ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فبأي: الآء ربكما تكذبان إلى آخر السورة. أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمر به، له جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وبنيانها وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات، ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذواتا أفنان﴾ [أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة نعيم الظاهر والباطن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر] (٤) أن (٥) فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اللينة الكثيرة اللذيذة، أو ذوات أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه جمع فن، أي: صنف. وفي تلك الجنتين ﴿عينان تجريان﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون، ﴿فيهما من كل فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿وزوجان﴾ أي: صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للنبوع الآخر، ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ هذه صفة فرش

﴿٣٥-٣٦﴾ ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم (١)، فقال: ﴿يرسل عليكم شواظ من نار﴾ ونحاس فلا تنظران فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: يرسل عليكم﴾ لهب صافٍ من النار.

﴿ونحاس﴾ وهو اللهب، الذي قد خالطه الدخان، والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكم يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا يتاصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تخريفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتن عليهم (٢)، فقال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿فإذا انشقت السماء﴾ [أي] يوم القيامة من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانثرت نجومها، ﴿فكانت﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿وردة كالدهان﴾ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أي: سؤال استعمال بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾.

﴿٤١﴾ وقال هنا: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد

(١) في ب: في ذلك اليوم.

(٢) في ب: ذكر منه بذلك.

(٣) في ب: جزاء لهم على تكذيبهم.

(٤) زيادة من هامش: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: أي.

(٦) في ب: التي يباشرون.

الأخلاق حسان الأوجه، فجمعهم بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق، ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تبيان وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن [المخدرات] الحفريات،

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسَ قَبْلِهِمْ وَلَا جَانُ قَبَائِي: أَلَاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ * متكئين على رفرف خضر ﴿أَيُّ أَصْحَابِ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ، مَتَكَأَهُمْ عَلَى الرَّفْرِفِ الْأَخْضَرِ، وَهِيَ الْفَرْشُ الَّتِي فَوْقَ^(١) الْمَجَالِسِ الْعَالِيَةِ، الَّتِي قَدْ زَادَتْ عَلَى مَجَالِسِهِمْ، فَصَارَ لَهَا رَفْرَفَةٌ مِنْ وَرَاءِ مَجَالِسِهِمْ، لَزِيَادَةِ الْبَهَاءِ وَحُسْنِ الْمَنْظَرِ، وَ«عِيقْرِي حَسَنًا» الْعِيقْرِي: نِسْبَةٌ لِكُلِّ مَنسُوجٍ نَسَجًا حَسَنًا فَاحِرًا، وَلِهَذَا وَصَفَهَا بِالْحَسَنِ الشَّامِلِ، لِحَسَنِ الصَّنْعَةِ وَحُسْنِ الْمَنْظَرِ، وَنَعْوَمَةِ الْمَلْمَسِ، وَهَاتَانِ الْجَنَّتَانِ دُونَ الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيْنِ، كَمَا نَصَّ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وَكَمَا وَصَفَ الْأُولَيْنِ بَعْدَهُ أَوْصَافًا لَمْ يَصِفْ بِهَا الْآخَرَيْنِ، فَقَالَ فِي الْأُولَيْنِ: ﴿فِيهِمَا عِثَانٌ تَجْرِيَانِ﴾ وَفِي الْآخَرَيْنِ: ﴿عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ﴾. وَمِنْ الْمَعْلُومِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَارَةِ وَالنَّضَاجَةِ.

وقال في الأولين: ﴿ذواتنا أفنان﴾
ولم يقل ذلك في الآخرين.

وقال في الأولين: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ وفي الآخرين: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت:

وقال في الأولين: ﴿مَتَكِّينَ عَلَى
فَرْشٍ بَطَانَتُهُا مِنْ اسْتَرْقٍ وَجُنَى الْجَحْتِ
دَانٌ﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين، بل
قال: ﴿مَتَكِّينَ عَلَى رُفْرِفٍ خَضِرٍ
وَعَقْرَى حَسَانٍ﴾

وقال في الأولين، في وصف
نساءهم وأزواجهم: ﴿ففيهن قاصرات

الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴿١﴾ وقال في الآخرين ﴿٢﴾ ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأولين^(٢): ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فدل ذلك أن الأولين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين.

و مجرد تقدیم اولین علی
الأخرین، يدل علی فضلها.

فبهذه الأوجه يعرف فضل الأبرار
على الآخرين، وأهما معدتان
للمقربين من الأنبياء، والصديقين،
وخواص عباد الله الصالحين، وأن
الآخرين معدتان لعموم المؤمنين، وفي
كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين
رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر
على قلب بشر، وفيهن ما تشهيه
الأنفس وتلد الأعين، وأهلها في غاية
الراحة والرضا والطمأنينة وحسن
المأوى، حتى إن كلًّا^(٢٧) منهم لا يرى
أحدًا أحسن حالًا منه، ولا أعلى من
نعيمه [الذي هو فيه].. ولما ذكر سعة
فضله وإحسانه، قال: ﴿تبارك اسم
ربك ذي الجلال والإكرام﴾ أي: تعظم
وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر،
والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن،

والله الحمد والشكر
والثناء الحسن

تفسير سورة الواقعة
[وهي] مكية

﴿١٦-١٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رحلت الأرض رجاً * وبست الجبال بساً * فكانت هباء منبثاً * وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمين ما أصحاب المينة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون

[illegible]

السابقون * أولئك المقربون * في جئات النعيم* يجبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي «ليس لوقعتها كاذبة» أي: لا شك فيها، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، وذلت عليها حكمته تعالى، «خافضة رافعة» أي: خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عِلين، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد. «إذا رجّت الأرض رجاً» أي: حركت واضطربت، «وئست الجبال بساً» أي: فنتت، «فكانت هباء منبثاً» فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، «وكنتم» أي: الخلق «أزواجاً ثلاثة» أي: انقسمت ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة، ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: «فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة» تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم، «وأصحاب المشأمة» أي: الشمال، «ما أصحاب المشأمة» تهويل لحالهم.

(۱) فی ب: تحت.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأخيرتين ويدو أنه سبق قلم.

(۳) فی ب: کل واحد منهم.

العين في الأثني، من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

﴿كأشبال اللؤلؤ المكنون﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، ف كذلك الحور العين، لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كائنات الأوصاف، جليات النعوت، فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر^(٣) ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلاماً يلغي، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاماً يؤثم صاحبه، ﴿إلا قِيلاً سلاماً سلاماً﴾ أي: إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسره للنفوس^(٤)، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين^(٥)، فقال: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ أي: شأنهم عظيم، وحالهم جسيم، ﴿في سدر مخضود﴾ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان [الرديئة] المضرة، يجعلون مكان ذلك الثمر الطيب، وللسدر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه، ﴿وطلح منضود﴾. والطلح معروف، وهو شجر [كبار] يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي، ﴿وماء مسكوب﴾ أي: كثير

مخلدون﴾ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة وقضاء حوائجهم، ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، ﴿كانهم لؤلؤ مكنون﴾ أي: مستور، لا يناله ما غيره، مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أستانهم، ويدورون عليهم بآية شراهم ﴿بأكواب﴾ وهي التي لا عرى لها، ﴿وأباريق﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وكأس من معين﴾ أي: من خمر لذيذ المشرب، لا آفة فيها، ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي: لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خمر الدنيا رأس شاربها.

ولاهم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخم الدنيا.

والحاصل: أن جميع^(٦) ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة، كما قال تعالى: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا.

﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه، ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي: جنس من لحمه أرادوا، وإن شأوا مشوياً، أو طيبخاً، أو غير ذلك.

﴿وحور عين﴾ كأشبال اللؤلؤ المكنون﴾ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها^(٧)، وحسن



المقربين﴾ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثلة من الأولين﴾ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

﴿١٤﴾ ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متآخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، ﴿على سرر موضونة﴾ أي: مرمولة بالذهب والفضة، واللؤلؤ والجوهر، وغير ذلك من [الخلي] الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿متكئين عليها﴾ أي: على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار. ﴿مقابلين﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم.

﴿١٧﴾ ﴿يطوف عليهم ولدان

(١) في ب: كل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ضخام الأعين.

(٣) في ب: القلب.

(٤) في ب: للقلوب.

(٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.

وعدد كثير من الآخرين.

﴿٤١-٤٨﴾ «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحيم * وظل من محموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو أباؤنا الأولون».

المراد بأصحاب الشمال [هم:] أصحاب النار، والأعمال المشؤومة، فذكر [الله] لهم من العقاب، ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم «في سموم» أي: ريح حارة من خر ناز جهنم، يأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق، «وحيم» أي: ماء حار يقطع أمعاءهم، «وظل من محموم» أي: لهب نار يختلط بدخان، «لا بارد ولا كريم» أي: لا برد فيه ولا كرم، والمقصود أن هناك الهم والغم، والحزن والشرب، الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده. ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء، فقال: «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين» أي: قد ألهمهم دنياهم، وعملوا لها، وتغنموا وتمتعوا بها، فآلهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا العرف الذي ذمهم الله عليه، «وكانوا يصرون على الحنث العظيم» أي: وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة [غير مغفورة].

وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: «إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو أباؤنا الأولون» أي: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا تراباً وعظاماً؟ [هذا من المحال] «أئنا لمبعوثون أو أباؤنا الأولون» قال تعالى جواباً لهم ورداً عليهم^(١): «قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم»، أي: قل إن مقدم الخلق ومتأخرهم،

من العيون والأنهار السارحة، والمياه المتدفقة، «وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة» أي: ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع في وقت من الأوقات، وتكون ممنوعة [أي: متعسرة] على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناوله العبد على أي: حال يكون، «وفرش مرفوعة» أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله. «إنا أنشأناهم إنشاءً» أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء، «فجعلناهم أبكاراً» صغارهم وكبارهم، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهن «عرباً أثرباً» ملازم لهن في كل حال، والعروب: هي المرأة المتحبة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجهالها [ومحبتها]، فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنفحات المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحاً وسروراً، وإن برزت^(٢) من محل إلى آخر، امتلأ ذلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأثراب اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فنبشأوهم عرب أثراب، متفقات مؤلفات، راضيات مرضيات، لا يحزن ولا يحزن، بل هن أفراح النفوس، وقررة العيون، وجلاء الأبصار، «لأصحاب اليمين» أي: معدات لهم مهينات، «ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين» أي: هذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين،

(١) في ب: وإن انتقلت.

(٢) في ب: قال تعالى في جوابهم.



الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليفة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.

«ثم إنكم أيها الضالون» عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى، «المكذوبون» بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد، «لأكلون» من شجر من زقوم» وهو أقيح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحاً، وأبشعها منظرأ، «فمالمثلونها» والبطون» والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة - الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم.

هذا الطعام الذي يدفعون به الجرع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

وأما شرابهم، فهو بشن الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون شرب الإبل الهيم أي: العطاش، التي قد اشتد عطشها، أو [أن الهيم] داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء.

«هذا» الطعام والشراب «نزلهم» أي: ضيافتهم «يوم الدين» وهي

وبأي سبب ذهبت، فتقولون: ﴿بل نحن محرومون﴾ فاحدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكماله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿أفرايتم الماء الذي تشربون﴾ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴿لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه، وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة، ومن نعمته أن جعله عذبا فرائاً تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً مكروهاً للنفوس. لا ينفع به ﴿فلولا تشكرون﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿٧١ - ٧٤﴾ ﴿أفرايتم النار التي توروون﴾ أنتم أنشأتم شجرها أم نحن المنشؤون ﴿نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمبشرين﴾ فسيح باسم ربك العظيم. وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقرهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشؤوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفئوها وأخذوها.

﴿نحن جعلناها تذكرة للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار النعيم، ﴿ومتاعاً للمبشرين﴾ أي: [المتبعين أو] المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافرين بذلك أعظم من غيره، ولعل

للتناسل، ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال^(١) بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أن القادر على ابتداء خلقكم، قادر على إعادةكم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ ﴿أفرايتم ما تحرثون﴾ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهون﴾ إنا لغرمون ﴿بل نحن محرومون﴾ وهذا امتحان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والابابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصلحتهم، التي لا يقدرون أن يحصرها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقرهم بمنته، فقال: ﴿أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نمتوه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حياً حصيداً وثماراً نضجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين، فقال: ﴿لو نشاء لجعلناه﴾ أي: الزرع المحرث وما فيه من الثمار ﴿حطاماً﴾ أي: فتاتاً متحطماً، لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فظلمتم﴾ أي: فضررتم بسبب جعله حطاماً، بعد أن تعبت فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تفكهون﴾ أي: تستدمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون: ﴿إنا لغرمون﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابنا مصيبة اجتاحتنا.

ثم تعرفون بعد ذلك من أين أنتم،



الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وأزروها على ضيافة الله لا أوليائه.

قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ خالدون فيها لا يبعثون عنها حولا.

ثم ذكر الدليل العقلي على البعث، فقال: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل إنه على كل شيء قدير، ولهذا ويختم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿٥٨ - ٦٢﴾ ﴿أفرايتم ما تمنون﴾ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين﴾ على أن نبذل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أي: أفرايتم ابتداء خلقكم من المني الذي تمنون، فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها من الذكر والأنثى، وهدى كلا منهما لما هنالك، وحبيب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب

ولا يخفى، بل يصدح به ويعلن.
وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ أي: تجعلون مقابلة مئة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسدها وموليها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم.

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حيثئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون، ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أي: فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إن كنتم صادقين﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردّها إلى موضعها، فحيثئذ إما أن تقرّوا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم.

﴿٨٨-٩٦﴾ ﴿فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار.

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فأما إن كان﴾ الميت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا

مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكتون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله^(٢)، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم^(٣) على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه، ﴿لا يمسسه إلا المطهرون﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمس إلا المطهرون، وأن أهل الخبيث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلّت الآية بتبيينها^(٤)، على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل أن الآية خير بعمى النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربي بها عباده، إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً، وما يجب عليهم أن يقوموا به^(٥)، ويعلموه ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تحتفون وتدلّسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به

السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكّره لهم بدار القرار، فلما بين من نعمه ما يوجب الشناء عليه من عباده وشكره وعبادته، أمر بتسبيحه وتحميده^(١)، فقال: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده بقلبك ولسانك وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا يُنسى، ويُطاع فلا يُعصى.

﴿٧٥-٨٧﴾ ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم﴾ إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * فلو لا إذا رزقكم أنكم تكذبون * فلو لا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حيثئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلو لا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي: مساقطها في مغاربا، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الجواهر الدالة على عظيمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظم هذا القسم به، فقال: ﴿وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم﴾ وإنما كان القسم عظيماً، لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعبراً لا يمكن حضرها، وأما القسم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه، ﴿في كتاب مكنون﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكتون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن

(١) في ب: وتعظيمه.

(٢) في ب: لوحه ورسائله.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لها.

(٤) في ب: تبييناً.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن

يقوموا به.

المحرمات والمكروهات^(١) وفضول المباحات، ﴿فَذِهِ لَهُمْ رُوحٌ﴾ أي: راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، ﴿وَرِيحَانٌ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المأكول والمشرب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام^(٢).

﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَتَخَفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾.

وقد أول قوله^(٣) تبارك تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أن هذه البشارة المذكورة، هي البُشْرَى في الحياة الدنيا.

[وقوله]: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، و [إن] حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم، ﴿فَذِهِ يَأْتِيهِمْ أَمْثَلُ الَّذِي أَتَا نَارُ الْإِبْرِيمَ﴾ أي: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين، الذين

سلموا من الذنوب الموبقات.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى، ﴿فَنُزِّلُ مِنْ هَيْمٍ﴾ وتصلية جحيم ﴿أي: ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ﴾ يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي ذكره الله تعالى، من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها وشرها، وتفاصيل ذلك ﴿لَهُمْ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون له^(٤)، فحمدوا الله تعالى على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

تفسير سورة الحديد [وهي] مدنية

﴿١-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ

السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴿٤﴾ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَسُعَةِ سُلْطَانِهِ، أَنْ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ النَّاطِقَةِ وَالصَّامِتَةِ وَغَيْرِهَا، [وَالْجَوَامِدِ] تَسْبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا، وَتَنْتَهِزُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَأَنَّهَا قَابِتَةٌ لِرَبِّهَا، مُنْقَادَةٌ لِعِزَّتِهِ، قَدْ ظَهَرَتْ فِيهَا آثَارُ حُكْمَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم اقتدار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره، ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء، ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء، ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والسرائر والخفايا، والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من حب وحيوان ومطر،

(١) في ب: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

(٢) في ب: فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه.

(٣) في ب: فسر.

(٤) في ب: مشاهدون لحقيقته.

وغير ذلك.

﴿وما يخرج منها﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الملائكة والأقمار والأزاق.

﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك.

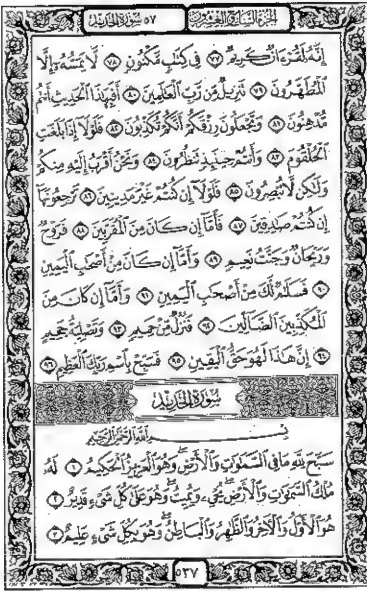
﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ كقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾.

وهذه المعية، معية العلم والاطلاع، ولهذا تواعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم، ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبداً، يتصرف فيهم بما شاء من أواصره القدرية والشرعية، الجارية على الحكمة الربانية، ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ من الأعمال والععمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويمجزي المحسن بياخسنانه، والمسيء بإساءته.

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي: يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدؤون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار، والنهار على الليل، ويداول بينهما، في الزيادة والنقص، والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول، وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد، الذي

أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ أي: بما يكون في صدور العالمين، فيفوق من يعلم أنه أهل لذلك، ويغفل من يعلم أنه لا يصلح لهاديته^(١).

﴿٧-١١﴾ ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين * هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم * وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير * من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم * يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله، من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها، لينظر كيف يعملون، ثم لما أمرهم بذلك، رغبهم وحشهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب، فقال: ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله، لهم أجر كبير، أعظمه [وأجله] رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعدّه الله للمؤمنين والمجاهدين، ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان، وعدم المناع منه، فقال: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم دأغ دعا إلى الله يدعوكم، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته،



والتبعية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين، ومع ذلك، من لطفه وعنايته بكم، أنه لم يكف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات، ودلّكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات، فهذا قال: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ أي: ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به^(٢)، وأنه حق اليقين، ﴿ليخرجكم﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة.

﴿من الظلمات إلى النور﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان، وهذا من رحمة بكم ورأفته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض﴾ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهو طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا، ﴿و﴾ الحال أنه ليس لكم شيء، بل ﴿الله ميراث السماوات والأرض﴾ فجميع الأموال تستقل من أيديكم أو تنقلون

(١) كذا في ب، وفي أ ونخذه من يعلمه لا يصلح.

(٢) في ب: على صحة جميع ما جاء به.



٥٧

عنها، ثم يعود الملك إلى ملكه تبارك وتعالى، فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجاً، واعتز الإسلام عزاً عظيماً، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجرأ وثواباً لمن يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد

يتوهم منه نقص وقبح في المفضول، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم]، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كلاً منكم على ما يعلمه من عمله، ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له، فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة عجلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزء الحسن، ولذلك قال:

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ يشاركهم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * فالיום لا يوخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ما واقع النار هي مولاكم وبئس المصير * يقول تعالى - مبيناً لفضل الإيمان واغتياب أهله به يوم القيامة - : ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ أي: إذا

كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحيثئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ فله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب [محبوب]، ونجوا من كل شر ومرهوب، فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به^(١)، وهم قد طغى نورهم ويقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ ﴿قيل﴾ لهم: ﴿ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾ أي: إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿فضرب﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بسور﴾ أي: حائط منيع، وحصن حصين، ﴿له باب باطنه فيه الرحمة﴾ وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحاً: ﴿ألم نكن معكم﴾ في الدنيا نقول: ﴿لا إله إلا الله﴾، ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟

﴿قالوا بلى﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم [في الظاهر] مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية [صادقة] صالحة، بل ﴿فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم﴾ أي: شككتهم في خبر الله الذي لا يقبل شكاً، ﴿وغرتكم الأماني﴾ الباطلة، حيث^(٢) تمنيت أن تنالوا مثال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، ﴿حتى

(١) في ب: يمشون بنورهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: التي.

جاء أمر الله ﷻ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة.

﴿وغيركم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فاطمأنتم به، ووثقت بوعده، وصدقت خبره، ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ فلو افتديتم بمثل الأرض ذهباً ومثله معه، لما تقبل منكم، ﴿وما أكرم النار﴾ أي: مستقركم، ﴿هي مولاكم﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها، ﴿وبئس المصير﴾ النار.

[قال تعالى:] ﴿وأما من خفت موازينه﴾ فأمه هاوية * ﴿وما أدراك ما هيه﴾ نار حامية.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿إِلَّا يَأْنُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ * اعلّموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قدينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿لما ذكر خال المؤمنين والمؤمنات، والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك]، فقال: ﴿إِلَّا يَأْنُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

أي: ألم يحى الوقت الذي تلين به قلوبهم ^(١) وتخضع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ وهذا فيه الخث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿وَلَا

يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك ^(٣) سبب لقسوة القلب وجود العين.

﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرائع الله.

﴿١٨ - ١٩﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يَضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ * والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مذكراً لهم ^(٤) عند ربهم، ﴿يَضَاعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَلَهُمْ

(٤) في ب: ذخراً.

(٥) في ب: ما بين كل درجتين.

(١) في ب: أتم يأت.

(٢) في ب: الذي به تلين قلوبكم.

(٣) في ب: فإنه.



أجر كريم﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس.

﴿والذين آمنوا بالله ورسوله﴾ والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم البصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء.

[وقوله:] ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: «إن في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين ^(٥) كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»، وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم إلى الله تعالى.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان جل عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصاً

أذهبها^(٤) من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن، فتباً لمن أضحت هي غاية أميته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي: حال الآخرة، ما يغلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأموالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجراً على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحل من أحله^(٥) به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي: إلا متاع يتمتع به ويتفجع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغره بالله الغرور.

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومطابقتها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ والإيمان بالله ورسوله^(٦)، يدخل فيه أصول الدين وفروعه، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي: هذا

أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهم بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله^(١)، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل اليقظة وعُمَال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله]: ﴿وزينة﴾ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه. [وغير ذلك] ﴿وتفاخر بينكم﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولادة، وهذا مصداقه، وقوعه من تحبب الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله^(٢)، وإذا رأى من يكائره وينافسه بالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً يغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصروا همهم ونظرهم إلى الدنيا^(٣) جاءها من أمر الله [ما أتلفها] فهاجت وبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا زُوي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما



بالنفع بالمال في سبيل الله.

والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله [الإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم] فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المخرمات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهو لاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، وبين غايتها وغاية

(١) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم.

(٢) في ب: إلى ذلك.

(٣) في ب: همهم ونظرهم.

(٤) في ب: فأذهبها.

(٥) في ب: من أخله عليه.

(٦) كذا في ب، وفي أ: ورسوله.

﴿والميزان﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والذين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنائيات والقصاص والحدود [والمواريث وغير ذلك]، وذلك ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعددها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدرع وغير ذلك.

﴿ومنافع للناس﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والآلات والآلات الحث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ أي: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضرورياً.

﴿إن الله قوي عزيز﴾ أي: لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يتلى أولياءه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى في هذا (٣) الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،

إذا حولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة.

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين، اللذين كل منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخلق الذميمة بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقنأهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويثنى ويعظم.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة وربانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاؤوا به وحقيقته.

﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، ما ينفعهم في دينهم ودنياهم،

الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم (١)، من أعظم منته على عباده وفضله. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده (٢).

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويقولون إن الله غني الحميد﴾ يقول تعالى غيراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنه أئنفدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبتوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمخت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلهم أن يكون ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نقوده ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بظن وأشر، لعلهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومثته، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثم

(١) في ب: وأن ثواب الله بالأجر الجزيل، والثواب الجميل.

(٢) في ب: أحد من خلقه.

(٣) في ب: بهذا.

وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله .

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً ، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما ، فقال : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ أي : الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام ، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين ، ﴿ فمنهم ﴾ أي : ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿ مهتد ﴾ بدعوتهم ، منقاد لأمرهم ، مسترشدين بهم .

﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي : خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء^(١) ، كما قال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

﴿ ثم قفينا ﴾ أي : أتبعنا ﴿ على آثارهم برسلاً وقتينا ﴾ يعيسى ابن مريم ﴿ خصص الله عيسى عليه السلام ؛ لأن السياق مع النصارى ، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام ، ﴿ وآتيناه الإنجيل ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة ، ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ الآيات .

ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً ، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام .

﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ والرهبانية : العبادة ، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة ، ووظفوها على أنفسهم ، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها ، بل هم الذين يتزعمون بها من تلقاء أنفسهم ، قصدهم بذلك رضا الله

تعالى ، ومع ذلك ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أي : ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها ، فقصروا من وجهين : من جهة ابتداعهم ، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم .

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم ، ومنهم من هو مستقيم على أمر الله ، ولهذا قال : ﴿ فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ أي : الذين آمنوا آمنوا بمحمد ﷺ ، مع إيمانهم بعيسى ، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ .

﴿ ٢٨ - ٢٩ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ لثلاث يعلم أهل الكتاب ألا يقدرّون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ وهذا الخطاب ، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام ، يأمرهم أن يعملوا بيقضى إيمانهم ، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه ، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿ كفلين من رحمته ﴾ أي : نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين ، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ .

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم ، وهذا الظاهر ، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين ، ظاهره وباطنه ، أصوله وفروعه ، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم ، أعطاهم الله ﴿ كفلين من رحمته ﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان ، وأجر على التقوى ، أو أجر على امتثال الأوامر ، وأجر على اجتناب النواهي ، أو أن الثنية المراد بها تكرار الإتياء مرة بعد أخرى .

﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ أي : يعطيكم علماً وهدىً ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل ، ويغفر لكم السيئات .

﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ فلا يستكثر^(٢) هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم ، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض ، فلا يغلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك . [وقوله] ﴿ لثلاث يعلم أهل الكتاب ألا يقدرّون على شيء من فضل الله ﴾ أي : بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً ، واتقى الله ، وآمن برسوله ، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم^(٣) بأنهم لا يقدرّون على شيء من فضل الله أي : لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة ، فيقولون : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ ويتمنون على الله الأماني الفاسدة ، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ ، المتقين لله ، لهم كفلان من رحمته ، ونور ، ومغفرة ، رغماً على أنوف أهل الكتاب ، وليعلموا ﴿ أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ من اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله ، ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الذي لا يقادر قدره] .

تم تفسير سورة الحديد ،
والله الحمد والمنة ، والحمد لله

تفسير سورة قد سمع الله وهي مدنية

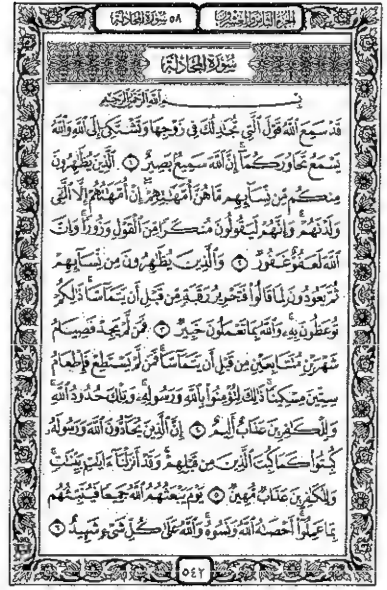
﴿ ١ - ٤ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور ﴾ الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير

(٣) في ب : لأجل أن يكون عند أهل

الكتاب علم .

(١) في ب : طاعة رسله .

(٢) في ب : فلا يستغرب كثرة .



الوقوف فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿وللکافرين عذاب الیم﴾

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار يختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال: ﴿من نسائهم﴾ فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهاراً، بل هو من جنس تحریم الطعام والشراب، تحب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علّقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سمّاه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿ما هن أمهاتهم﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن يتنادى زوجته ويسمّيها^(١) باسم محارمه،

كقوله: «يا أمي»، «يا أختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تحب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجرى في كفارة الرقية، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن^(٢) كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قبله الله، بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدهى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿إطعام ستين مسكيناً﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿إن الذين يخادون الله ورسوله كبِتوا كما كبِت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين﴾ مخاداة الله ورسوله: مخالفتها ومعصيتها خصوصاً في الأمور الفظيعة، كمخاداة الله ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء الله.

وقوله: ﴿كبِتوا كما كبِت الذين من قبلهم﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم، جزاء وفاقاً.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين، ﴿وللكافرين﴾ بها ﴿عذاب مهين﴾ أي: يهينهم ويذلهم، كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم. ﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾

فينبئهم بما علموا أحصاه الله وتسوه والله على كل شيء شهيد * ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابِعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴿يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق جميعاً﴾ فيقومون من أجدالهم سريعاً فيجازيهم بأعمالهم ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا ﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك.

﴿والله على كل شيء شهيد﴾ بالظواهر^(٣) والسرائر، والخبائيا والحقايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ثم قال تعالى:

﴿٨-٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعمدون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحبك به الله ويقولون في أنفسهم جهنم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير * يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ النجوى هي التناجى بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة،

(٢) في ب: إذا.

(٣) في ب: على الظواهر.

(١) في ب: ويدعوها.



الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فإذ لم تفعلوا﴾ أي: لم يبن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وتاب الله عليكم﴾ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فأقيموا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وآتوا الزكاة﴾ المفروضة [في أموالكم] إلى مستحقها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، [ولهذا قال بعده: ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله [وطاعة] رسوله بامتثال أوامره واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الله^(١).

والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي: وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿١٤ - ١٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ * أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تفني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون *

تعملون، يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة، أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديباً لهم وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ، فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأظهر أي: بذلك يكسر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جعلتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً على الخير والعلم، فلا يبالى بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في الواجد للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيّق عليه الأمر، بل عفا عنه وسأغه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو

استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين، من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾.

فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً، لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون^(٢) أنهم ليسوا مؤمنين، فجاء هؤلاء الحونة الفجرة الكذبة، أن الله أعد لهم عذاباً شديداً، لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يسخط الله^(٣)، ويوجب عليهم العقوبة واللعنة، ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي: ترساً ووقاية، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فيسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلوكه أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم، ﴿فلهم عذاب مهين﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لأياته، أهانهم بالعذاب الرمدي، الذي لا يفتّر عنهم ساعة ولا هم يُنظرون، ﴿لن تفني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ فلا تدفع^(٤) عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من الشواب، ﴿أولئك أصحاب النار﴾ المأزموں لها، الذين لا يخرجون عنها، و﴿هم فيها خالدون﴾ ومن عاش على شيء ماب عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يموهون على

(٣) كذا في ب، وفي أ: يَسْخَطُهُ.

(٤) في ب: أي لا تدفع.

(١) في ب: حدود الشرع.

(٢) في ب: والحال.

المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً، حلفوا الله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء، يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ الذين خسروا دينهم وديارهم وأنفسهم وأهلهم.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿إن الذين يمحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين﴾ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز، هذا وعد ووعد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حيدة، ولا راية له منصوره.

ووعد لمن آمن به وبرسله، وأتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريد.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا

عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ يقول تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان^(١) ولوازمه، من حبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك:

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي النفس وتلد الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية^(٢).

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُرَوِّد لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان^(٣) وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله، بحمد الله وعونه وتسديده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً

(٢) في ب: ولا وراه.

(٣) في ب: لمن نبذ.



تفسير سورة العنكبوت [وهي] مدنية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه الله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيومهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ إلى آخر القصة.

هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد [لوقة] بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض،

(١) في ب: إيمانه.



وسؤل لهم الشيطان الذي كتب عليهم، فاتمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أياكم يأخذ هذه الرحى فيصعد فيلقها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما همتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الغور إليه من ربه بما هموا به، فنقض مبرعاً، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم تشعر بك، فأخبرهم بما همتم به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن أخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».

فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي لؤي سلولاً: «أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتتصرم قريظة وحلفاؤكم من غطفان».

وطمع رئيسهم حبي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه،

ونهبوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصروهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم ما حلت إيلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حبي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها، وتذره عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله^(١)، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي^(٢)، الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ

من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه، [أخرج بقيتهم منها].

﴿ما ظننتم﴾ أيها المسلمون ﴿أن يخرجوا﴾ من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزمهم فيها.

﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ فأعجبوا بها وعزمهم، وحسبوا أنهم لا يئالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقد رآه تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي: من الأمر والباب، الذي لم^(٣) يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى ﴿قذف في قلوبهم الرعب﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عُدُو ولا عُدَّة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يحسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، وأطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو غدول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال^(٤)، فأتاهم أمر سناوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فآزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً، لا حيلة لهم ولا منعة معه^(٥)، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حلت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيمهم على إخراج ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جبنوا على أنفسهم، وضاروا من أكبر عون عليها، ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي: البصائر النافذة، والعقول الكاملة، فإن في هذا معبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم

(٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه

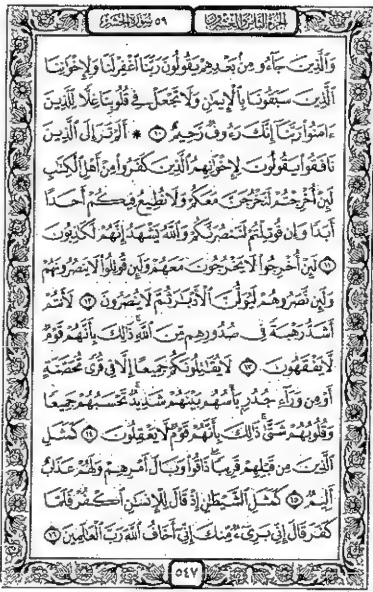
فصار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لا.

(٤) في ب: كان وبالأعلى عليه.

(١) في ب: لعظمته.

(٢) في ب: عسير.



عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ^(١) لا بخصوص السبب، فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظر بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكير فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يرداد^(٢) العقل، وتنشور البصيرة ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى، فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأظم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وعادوها وخابروها وسعوا في معصيتهما، وهذه عادته وسنته فيمن شاقه «ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب».

ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك^(٣) إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه، إنه بإذنه تعالى، وأمره «وليخزي الفاسقين» حيث

سلطكم على قطع نخيلهم وتحريقها، ليكون ذلك نكالا لهم، وخزيا في الدنيا، وذلا يعرف به عجزهم التام، الذي ما قدروا على استنقاذ نخيلهم الذي هو مادة قوتهم. واللينة: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاها، فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله في الدنيا، ثم ذكر من انتقلت إليه أمراهم وأمتعتهم، فقال: «وما أفاء الله على رسوله منهم» أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير.

﴿ف﴾ إنكم يا معشر المسلمين «ما أوجفتكم» أي: أجلبتكم وأسرعتم وحشدتم، «عليه من خيل ولا ركاب» أي: لم تتعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل

قذف الله في قلوبهم الرعب، فأتاكم صفاً عفواً، ولهذا قال: «ولكن الله يسلط رسوله على من يشاء والله على كل شيء قدير» من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه^(٤) تمتنع، ولا يتعزز من دونه قوي. وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال، كهذا المال الذي بُرئوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسمي فيئاً، لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلى المسلمين الذي لهم الحق الأوفر فيه، وحكمه العام، كما ذكره الله في قوله:

﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ عموماً، سواء أفاء الله في وقت رسوله أو بعده، لمن يتولى من بعده أمته^(٥).

﴿قلله وللرسول ولذي القربى

واليتمى والمساكين وابن السبيل﴾ وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال،

في^(٦) قوله: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل».

فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام: خمس لله وللرسول يصرف في مصالح المسلمين [العامه]، وخمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يسمون [فيه] بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم^(٧)، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «في بني عبد المطلب: [إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام]».

وخمسة لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ، وخمس للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء

(١) في ب: العبرة بعموم المعنى.

(٢) في ب: يكمل العقل.

(٣) كذا في ب، وفي آ: به.

(٤) في ب: عليه.

(٥) في ب: سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمته.

(٦) في ب: وهي.

(٧) كذا في ب، وفي آ: حين تعاقدت قريش وعداوتهم.

والهجرة.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حين أثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جياعاً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح، ومن رُزق الإيثار فقد وقى شح نفسه ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقى العبد شح نفسه، منحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً متقاداً، منشرحاً بها صدره، وسمحت نفسه بتركه ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس، تدعو إليه وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته، فهذان^(١) الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين^(٢).

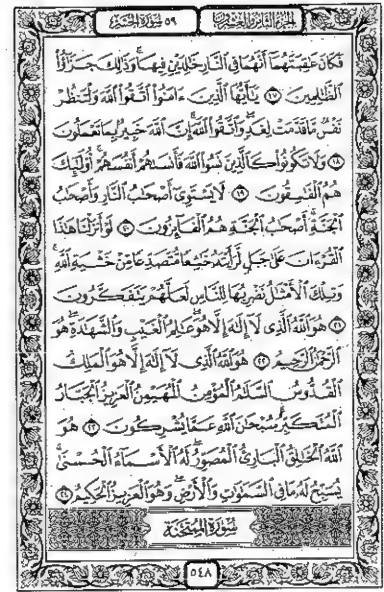
وحسب من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم، ويأتهم بذاهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المهاجرين

الموجب لجعله تعالى الأموال أموال الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمألوفات، من الديار والأوطان والأحباب والخلائ والأموال، رغبة في الله ونصرة لدين الله، ومحبة لرسول الله، فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدق بالجهد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وأووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحر والأسود، وتبوؤوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موثلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدين تأوي إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً فشيئاً، وينمو قليلاً قليلاً، حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا لمحبتهم لله ورسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يجدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصمهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة



المقطع بهم في غير أوطانهم.

ولنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء المعينين لـ ﴿كَي لَا يَكُونَ دَوْلَةٌ﴾ أي: مدوالة واختصاصاً ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ فإنه لو لم يقدره، لتداولته الأغنياء منه ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها غمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من ترك التقوى، وآثر اتباع الهوى.

﴿٨٥﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب

(٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين.

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء.

الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك ^(١)، أنكم - أيها المؤمنون - «أشد رهبة في صدورهم من الله» فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع.

«ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

«١٤» «لا يقاتلونكم جميعاً» أي: في حال الاجتماع «إلا في قري محصنة أو من وراء جدر» أي: لا يشنون لقتالكم ^(٢) ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القري، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذا ذلك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، «بأسهم بينهم شديد» أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا أفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الأفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: «نحسبهم جميعاً» حين تراهم مجتمعين ومظاهرين.

«و» لكن «قلوبهم شتى» أي: متباغضة متفرقة مشتتة.

«ذلك» الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر «بأنهم قوم لا يعقلون» أي: لا عقل عندهم، ولا لب، فإنهم لو

كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملة، بل من أجله، ترفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام.

وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: «لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً» أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوفنا، «وإن قوتكم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون» في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجن يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد غيره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال، فقال: «لئن أخرجوا» من ديارهم جلاء ونفياً «لا يخرجون معهم» لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم.

«ولئن قوتلوا لا ينصرونهم» بل يستولي عليهم الحين، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أخرج ما كانوا إليهم.

«ولئن نصرهم» على الفرض والتقدير ^(٣) «ليولن الأدبار ثم لا ينصرون» أي: ليحصل منهم

والأنصار «يقولون» على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان»

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين ^(٤)، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره ^(٥)، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: «سبقونا بالإيمان» دليل على المشاركة في الإيمان ^(٦)، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحق عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يجب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على

(١) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين.

(٢) في ب: لقليله وكثيره.

(٣) في ب: المشاركة فيه.

(٤) في ب: بالوعد.

(٥) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل.

(٦) في ب: حملهم على ذلك.

(٧) في ب: على قتالكم.

كانت لهم عقول، لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.

مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعازنة ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ [وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون] ﴿الآية

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم يتفقهوا ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا «بذراً» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار، ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودغاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاها ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و ﴿قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغفر عنك مثقال ذرة من الخير، ﴿فكان عاقبتهم﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أنهما في النار

خالدين فيها﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ الذين اشتروا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم ونحل عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغاياته ونهايته، فالتقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لقد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرّاً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيته من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجهد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة

العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدوها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين من الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينتخبوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا ينجيهم كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والغنى السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم^(١) ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحشهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواضع القرآن أعظم الموعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم.

النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف^(١) لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحبه على مكارم الأخلاق، ويحاسب الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكمال العظمة، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه^(٢) فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، ويعموم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [أذكر] عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقراء مدبرون.

﴿القدوس السلام﴾ أي: المقدس

السلام من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجّد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿المؤمن﴾ أي: المصدق لرسوله وأنبيائه بما جاؤوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، ﴿الجبار﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، ﴿المتكبر﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سبحان الله عما يشركون﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده، ﴿هو الله الخالق﴾ لجميع المخلوقات ﴿البارئ﴾ للمبررات ﴿المصور﴾ للمصنورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، ومع ذلك، فكلها حسنى أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسناتها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسأله بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون،



ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير سورة الحشر،
فله الحمد على ذلك،
والثقة والإحسان

تفسير سورة الممتحنة [وهي] مدنية

﴿١ - ٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وأستنتهم بالسوء ودوا لو تكفروا ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير﴾ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله

(١) كذا في ب وفي أ: وألها تكلفاً.

(٢) في ب: غيره.



﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كله القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

فلما أعرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقسمت به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأئى دين، وأئى مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا وإلى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟! ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِي﴾ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله^(٣)، فاعملوا بمقتضى هذا، من موالة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله^(٤)، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويتغنون به رضاه.

﴿تَسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!، فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي: موالة الكافرين بعدما حذركم الله منها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تنبيهاً للمؤمنين على عداوتهم، ﴿إِنْ يَتَّقُواكُمْ﴾ أي: يجودوكم، وتسنع لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ

النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لمة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومنافض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقى من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو الله وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعها النصر والموالة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يزيد به الخير، ويأمره به، ويحث عليه؟! وما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلّال على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق^(٢)، يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم

من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون * ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قریش^(١) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم لا [شكاً و] نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر

(١) في ب: إلى المشركين من أهل مكة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: مجرد رد الحق.

(٣) في ب: وابتغاء رضاه.

(٤) في ب: هذا من أعظم الجهاد في سبيله.

كل كثير، ويوجب له الاكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطرباً إلى ذلك غاية الاضطراب.

﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، **﴿فإن الله هو الغني﴾** الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه]، **﴿الحميد﴾** في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخير تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة^(٣) الإنسانية ترجع، فلا تأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، ف **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾** سببها رجوعهم إلى الإيمان، **﴿والله قدير﴾** على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، **﴿والله غفور رحيم﴾** لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾** وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب**

بدعاء ربي شقياً، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾**.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: **﴿ربنا عليك توكلنا﴾** أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينقنا ودفع ما يضرنا، وثقتنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿واليك أنبنا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فنبتستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك^(١)، **﴿ربنا لا نجعلنا فتنه للذين كفروا﴾** أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعونا عما يقدر عليهم من أمور الإيمان، ويبتنون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، **﴿واغفر لنا﴾** ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قضرنا به من المأمورات، **﴿ربنا إنك أنت العزيز﴾** القاهر لكل شيء، **﴿الحكيم﴾** الذي يضع الأشياء مواضعها، فيعزتك^(٢) وحكمتك انتصرتنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الخث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: **﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾** وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من **﴿كان يرجو الله واليوم الآخر﴾** فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه

أعداء ظاهرين **﴿وبسطوا إليكم أيديهم﴾** بالقتل والضرب، ونحو ذلك.

﴿والستهم بالسوء﴾ أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، **﴿وودوا لو تكفروا﴾** فإن هذا غاية ما يزيدون منكم.

فإن احتججتهم وقلتم: نوال الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً، **﴿والله بما تعملون بصير﴾** فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم، قد كان لكم يا معشر المؤمنين **﴿أسوة حسنة﴾** أي: قدوة صالحة وائتمام بفتحكم، **﴿في إبراهيم والذين معه﴾** من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، **﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله﴾** أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: **﴿كفرنا بكم وبلاد﴾** أي: ظهر وبان **﴿بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾** أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك **﴿أبداً﴾** ما دمت مستمزين على كفركم **﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾** أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانتقلت مودة وولاية، فلكم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام ببلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، **﴿إلا﴾** في خصلة واحدة وهي **﴿قول إبراهيم لأبيه﴾** آزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: **﴿لا أستغفرن لك و﴾** الحال أي لا **﴿أملك لك من الله من شيء﴾** لكنني أدعو ربي عسى أن لا أكون

(١) في ب: ما يزلنا إليك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك.

(٣) في ب: والمودة.

المقسطين ﴿١﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلّتهم في هذه الحالة، لا مخذور فيها ولا مفسدة^(١)، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

[وقوله: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾ أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولن قام به، ﴿وأخرجوكم من دياركم وظاهروا﴾ أي: عاونوا غيرهم ﴿على إخراجكم﴾ نهاكم الله ﴿أن تولوهم﴾ بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس بثقل للمشركين، فلم ينهاكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الأدمين، وغيرهم.

﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولياً تاماً، صار^(٢) ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿١١-١٠﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجموهن إلى الكفار لا هن حل لهن ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ولا تمسكوا بمعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم

حكيم ﴿٣﴾ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فأتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً، [مطلقاً] يدخل في عمومته النساء والرجال، فأما الرجال، فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء، فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من إيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار، ﴿لا هن حل لهن ولا هم يحلون لهن﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح خيتنن على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تمسكوا بمعصم الكوافر﴾ وإذا نهى عن الإمساك

بمعصمتها^(٣)، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿واسألوا ما أنفقتم﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم^(٤) إلى الكفار، وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج مقوم، فإذا أسد مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم^(٥)، ﴿والله عليم حكيم﴾ فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة^(٦).

وقوله: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فعاقبتهم فأتوا الذين ذهبت أزواجهن مثل ما أنفقوا﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهن إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنمة بدل ما أنفق^(٧).

﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام. ﴿١٢﴾ ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبأيمنهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «بأيعة النساء» اللاتي [كن] يبأيعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

(٧) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنمة بدل ما أنفق.

(٥) في ب: وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضحه.

(٦) في ب: فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

(١) في ب: ولا تبعة.

(٢) في ب: كان ذلك.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بمعصمها.

(٤) في ب: زوجاتهم.

بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لم تقولون ما لا تفعلون ﴿أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم مثلوثون به ومتصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللنهاي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

﴿٤﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليم لهم كيف يصنعون وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفاً متراصاً متساوياً، من غير خلل يقع (٨) في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإزهاق العدو وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه، ورتبهم في مواقفهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم

أصحاب القبور﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. ﴿قد يشسوا من الآخرة﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم (٥)، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله: ﴿كما يشس الكفار من أصحاب القبور﴾ حين أفصوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر (٦)، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يشسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخت الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يشس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصف [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره، وذلل جميع الخلق (٧) له تبارك وتعالى، وأن جميع من في السماوات والأرض يسبحون

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبایعنه، والترمضن هذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير (١)، وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن ﴿لا يشركن بالله شيئاً﴾ بأن (٢) يفردن الله [وحده] بالعبادة.

﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ كما يجري نساء الجاهلية الجلاء.

﴿ولا يزني﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين ببهتان﴾ يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴿والبهتان﴾ الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن (٣)، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهم [لك] في النهي عن النجاسة، وشق الثياب، وخش الوجوه، والدعاء بدعاء (٤) الجاهلية.

﴿فبايعهن﴾ إذا التزمين بجميع ما ذكر.

﴿واستغفر لهن﴾ الله عن تقصيرهن، وتطبيبا لحواظرهن، ﴿إن الله غفور﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين، ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يشسوا من الآخرة كما يشس الكفار من

(١) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن.

(٢) في ب: بل.

(٣) في ب: مع أزواجهن.

(٤) في ب: بدعوى.

(٥) في ب: وشركهم.

(٦) في ب: وشاهدوا.

(٧) في ب: الخلق له.

(٨) في ب: يحصل.

الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قالوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هذا سحر مبين﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أثبت من شمس النهار، يجعل ساحراً بيتاً سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم^(٥) من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾ ويبين له ببراهينه وبياناته، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم نهي ولا برهان، خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يرذون بها الحق، وهي^(٦) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة^(٧) نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهتهم كل سبب يتوصلون^(٨) به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

وصاروا بمنزله من ينفخ عین

مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يقول تعالى خيراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأناكم عن الشر، [وأيدني بالبراهين الظاهرة]، وما يدل على صدقي، كوني ﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوّة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعيسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء^(٩)، يصدق بالنبي السابق، ويمبشّر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فلما جاءهم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿البينات﴾ أي: الأدلة الواضحة،

لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [أي: ﴿واذ قال موسى لقومه﴾ موبخاً لهم على ضيغهم، ومقرعاً لهم على أذيتهم، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لم تؤذوني﴾ بالآقوال والأفعال ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانقياد^(١٠) بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجرأة والزيف عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فلما زاغوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدتهم ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يخلق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا^(١١) لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلماً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال^(١٢) والزيف الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

﴿٩-٦﴾ ﴿واذ قال عيسى ابن

(١) في ب: والقيام.

(٢) في ب: ليس.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.

(٤) في ب: كسائر الأنبياء.

(٥) في ب: أبلغ.

(٦) كذا في ب، وفي أ: التي.

(٧) في ب: وإظهار.

(٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.

الشمس بفيه^(١) ليظفئها، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقذح فيها.

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للمدين الإسلامي، الحسي والمعنوي، فقال، **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾** أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

﴿ودين الحق﴾ أي: الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهي سلامة من الشر والفساد^(٢) فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكراً، ازداد به فرحاً وتبصراً.

﴿ليظفئه على الدين كله﴾ أي:

ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلججه ويلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقرم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم

ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم.

﴿١٠-١٤﴾ **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾** * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين * يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأبدينا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين * هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال **﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾**

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله^(٣)، فلماذا قال: **﴿وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾** بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفعون ما تيسر من



أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك، ولو^(٤) كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها، فإنه **﴿خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** فإن فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانسراحه.

وفي الآخرة الفوز^(٥) بشواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: **﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾** وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي: من تحت مساكنها [أو قصورها] وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، **﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾** أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وخسنت بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل

(١) في ب: ومثلهم كمثل من يفتح عين الشمس.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وترك للنواهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد.

(٣) في ب: التي من أجلها الجهاد في سبيله.

(٤) في ب: وإن كان.

(٥) في ب: والخير الأخروي بالفوز.

في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله»^(٥)

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [أي: بالآقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على إقامته]^(٦) تنفيذه على الغير، ونجهاً من عانده ونايذه بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، وتعلّم كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]. ثم هيج الله المؤمنين بالاقتراء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: قال لهم عارضاً ومنهضاً^(٧)، من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي ويخرج مخرجي؟

فابتدروا الحواريون، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، ﴿فَأَمْسَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين، ﴿وَكُفِرَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ فلم يتقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ أي: قويناهم ونصرتناهم عليهم.

﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عليهم قاهرين [لهم]، فأنتم يا أمة محمد

الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهّر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جملتها، أن الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها^(٨)، ونظر إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هنامهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بالمها، وسرورها^(٩) بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبعثون عنها حولاً، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَى تَحِبُّونَهَا﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: ﴿نَصْرُ مِنَ اللَّهِ﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، [إذا قام غيرهم بالجهاد]^(١٠) فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ



عليين، يترءأهم أهل الجنة كما يترءأ الكوكب الدرّي في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواسفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يذركوه حتى يتزروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يشني عليه عباده^(١١)، وتبارك

(١) في ب: أحد من خلقه.

(٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة.

(٣) في ب: وفرحها.

(٤) زيادة من هامش ب.

(٥) في ب جاء بدلاً من هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - فقال: أعدّها عليّ يا رسول الله، فأعدّها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) رواه مسلم.

(٦) في ب: تنفيذه.

(٧) في ب: قال لهم منبهاً.

كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم. تمت والله الحمد (١)

تفسير سورة الجمعة [وهي] مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾ أي: يسبح الله وينقاد لأمره، ويتألهه ويعبده، جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع ممالكه وتحت تدبيره، ﴿القدوس﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿العزيز﴾ القاهر للأشياء كلها، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة مما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿٢﴾ ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويعهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء،

فبعث الله فيهم رسولا منهم، يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يتلو عليهم آياته﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿ويزكيهم﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي: علم القرآن (٢)

وعلم السنة، المشتغل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتركية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهذه المؤمنين (٣)، فقله عليهم بعثه هذا الرسول ﷺ أكمل نعمة، وأجل منحة، وقوله: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ أي: وامتن على آخرين من غيرهم أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم أي: فيمن باشر (٤) دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل، فكل المعنيين صحيح، فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً ولا سدى، بل ابتهج فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز والسعادة الأبدية.

(١) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.

(٢) في ب: علم الكتاب.

(٣) في ب: وقادة المتقين.

(٤) كذا في ب، وفي أ: باشرُوا.

(٥) في ب: ويعملوا بها.



﴿٥-٨﴾ ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ يشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين * قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر الله منته على هذه الأمة، الذين ابتهج فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد وهم الأمة الأمية الذين فاخروا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون، ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى، وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بما فيها (٥)، وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارا



من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود^(١)، الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع عميد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسار وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: لا يرشدكم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء الله: ﴿فتمنوا الموت﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا

التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن آمنوه، وكذبهم^(٢) إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون بطلان ما هم عليه وفساد، ولهذا قال: ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ من الذنوب والمعاصي التي يسترحشون من الموت من أجلها، ﴿والله عليم بالظالمين﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون^(٣) منه [غاية الفرار]، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

﴿٩-١١﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وإذا رآوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازيين * يأمر تعالى عبادة المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العبدو الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: ﴿وذروا البيع﴾ أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ذلكم خير لكم من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من أكد الفروض. ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على

الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة، ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لعلكم تفلحون﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿وإذا رآوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو و [تلك] التجارة، وتركوا الخير، وتركوك قائماً، تحط بالناس، وذلك: [في] يوم جمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة غير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المنجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب، ﴿قل ما عند الله﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة ربه.

﴿خير من اللهو ومن التجارة﴾ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت خير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق، فإن الله خير الرازيين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة: منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضتان^(٤) يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد

(٣) في ب: بل يفرون.

(٤) في ب: فريضة.

(١) في ب: علماء أهل الكتاب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.

نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذلك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تقويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين (١)
يوم الجمعة، وذن من لم يحضرهما، ومن
لازم ذلك الإصابت لهما.
ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على
عبادة الله، وقت دواعي النفس حضور
اللهو [والتجارات] والشهوات، أن
يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما
لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة،

وَلِلّٰهِ الْحَمْدُ وَالشَّانُ (٢)

تفسير سورة المنافقين (٣)
ملنية

﴿١٦-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرحيم إذا جاءك المنافقون قالوا
نشهد أنك لرسول الله والله يعلم
إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين
لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة
فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما
كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم
كفروا فطبع على قلوبهم فهم
لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك
أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم
كأنهم خشب مسندة يحسبون كل
صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم
قالتهم الله أنى يؤفكون * وإذا قيل
لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله
لنؤزوا رؤوسهم رأيتهم يصدون وهم
مستكبرون * سواء عليهم أعتفرت
لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله
لهم إن الله لا يهدي القوم
الضالين * لما قدم النبي ﷺ المدينة،
وكثر المسلمون في المدينة واعتز

الإسلام بها^(٤)، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليبقى جاههم، وتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قُلُوا﴾ على وجه الكذب: ﴿شَهِدُوا إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ﴾ وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإن ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي: ترساً
يترسون بها من نسبتهم إلى النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم،
وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم،
﴿إنهم سوء ما كانوا يعملون﴾ حيث
أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر،
وأقسموا على ذلك وأوهبوا صدقهم،
﴿ذلك﴾ الذي زين لهم الشقاق ﴿وب﴾
سب ﴿إنهم﴾ لا يشتون على الإيمان.

[illegible]

(١) كذا في ب، وفي أ: الخطبة.

(۲) فَمِنْ بَيْنِ يَمَنِ اللَّهِ وَعَوْنَهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(٣) كذا في النسختين.

(٤) في ب: وكثر الإسلام فيها وعز.

(۵) وفي ب: وضعف قلوبهم وريجها.



سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم قلن يغفر الله لهم، وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ (٧-٨) إن الله لا يهدي القوم الفاسقين.

﴿٧-٨﴾ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة والرسولة للمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه واتئلافهم، ومساعدتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعيمهم الفاسد:

﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ فأنهم - بزعيمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجائب، أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على

خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور^(١)، ولهذا قال الله ردأ لقولهم: ﴿والله خزائن السماوات والأرض﴾ فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيتهم.

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كذب الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم^(٢) وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال القائل: «غذ كلبك يأكلك»^(٣)

وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل بزعمة أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن معه^(٤) هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا النافق، فلماذا قال [تعالى]: ﴿والله العزة والرسولة للمؤمنين﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار [هم] الأذلاء. ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [ذلك] فلذلك زعموا أنهم الأعزاء، اغتراراً بما هم عليه من الباطل، ثم قال تعالى:

﴿٩-١١﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير

بما تعملون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن حبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على حبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: يلهه ماله ولده، عن ذكر الله ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ للسعادة الأبدية، والتعيم القيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ وقوله: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾ يدخل في هذا، النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات^(٥)، ونفقة الزوجات، والممالك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبدل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿وما رزقناكم﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى، لم يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء^(٦) مما رزقهم الله الذي يسره لهم^(٧) ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول﴾ متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي بحال: ﴿رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾ أي: لأندرك ما فرطت فيه، ﴿فأصدق﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وأكن من الصالحين﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال والتعني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ المحترمة لها ﴿والله

(٧) في ب، مما رزقهم. ويسره ويسر أسبابه.....

(٤) في ب: ومن اتبعه.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة.

(٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء.

(١) في ب: بالحقائق.

(٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم.

(٣) في ب: سئن كلبك.

خبير بما تعملون» من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين،
ولله الحمد

تفسير سورة التغابن [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير * هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير * خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير * يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور» هذه الآيات [الكريمات]، مشتملات على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته تعالى، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسييح من في السماوات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام، وأسده من النعم.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريده، وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، «والله بما تعملون بصير» فلما ذكر خلق الإنسان المكلف المأمور المنهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: «خلق السماوات

والأرض» أي: أجمعهما، [وجمع] ما فيهما فأحسن خلقهما، «بالحق» أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، «وصوركم فأحسن صوركم» كما قال تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا. «وإليه المصير» أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذي أولاكموه^(١)، هل قمتم بشكره، أم لم تقوموا بشكره؟ ثم ذكر عموم علمه، فقال: «يعلم ما في السماوات والأرض» أي: من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة. «ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور» أي: بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبائيا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليمًا بذات الصدور، تعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿٥-٦﴾ «ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد» لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يعرف ويعبد، وينبذل الجهد في مرضاته، وتحتب مساحطه، أخبر بما فعل بالأمم السابقين، والقرون الماضية، الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءهم الرسل^(٢) بالحق، كذبوهم وعاندوهم، فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها، «ولهم عذاب أليم» في [الدار] الآخرة، ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال: «ذلك» النكال والويل، الذي أحللتنا بهم

بأنهم «كانت تأتيهم رسلهم بالبينات» أي: بالآيات الواضحات، الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، فقالوا: «أبشر يهودنا» أي: فليس لهم فضل علينا، ولاي شيء خصهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرى: «قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده» فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلًا للمخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها «فكفروا» بالله «وتولوا» عن طاعة الله، «واستغنى الله» عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضيالهم شيئًا، «والله غني حميد» أي: هو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الرجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿٧﴾ «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعن ثم لنتيئن بما عملتم وذلك على الله يسير» يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزأهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، «وذلك على الله يسير» فإنه وإن كان عسيرًا، بل متعذرًا بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت^(٣) على إحياء ميت [واحد]، ما قدروا على ذلك.

وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون».

﴿٨﴾ «فأمّنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير» لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم] موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة

(٣) كذا في ب، وفي أ: اجتمعوا.

(٢) في ب: رسلهم.

(١) في ب: أولاكم.

والشقاء، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه^(١)، وسماء الله نوراً، فإن النور^(٢) ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهم، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي^(٣)، «والله بما تعملون خبير» فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿٩ - ١٠﴾ «يوم يحمكم يوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير» يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، ويتبهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلاق، ويؤفغ أقوام إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتعلة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: «ذلك يوم التغابن».

أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلاق، ويغيب المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء،

وأهمهم هم الخاسرون، فكانه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: «ومن يؤمن بالله» [أي: إيماناً تاماً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ويعمل صالحاً] من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده. «يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار» فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحب إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، «خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم» والذين كفروا وكذبوا بآياتنا: أي: كفروا [بها] من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبيّنات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

«أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير» لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

﴿١١ - ١٣﴾ «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتهم فإنما على رسولنا البلاغ المبين * الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون»

يقول تعالى: «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله» وهذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد في قضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله [تعالى]، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله

قلبه، فاطمأن ولم يتزعج عند المصائب، كما يجري لمن^(٤) لم يهد الله قلبه، بل يزيقه الله الشيات عند ورودها^(٥).

والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب^(٦)، كما قال تعالى: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. هذا ما يتعلق بقوله: «ومن يؤمن بالله يهد قلبه» في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به من^(٧) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام ببلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله^(٨)، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يشبههم الله^(٩) في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأصل الشيات: ثبات القلب وصبره، وبقائه عند ورود كل فتنة، فقال: «ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله: «وأطيعوا الله وأطيعوا

(٨) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله.

(٩) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه ثبت المؤمنين.

(٤) في ب: ممن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عندها.

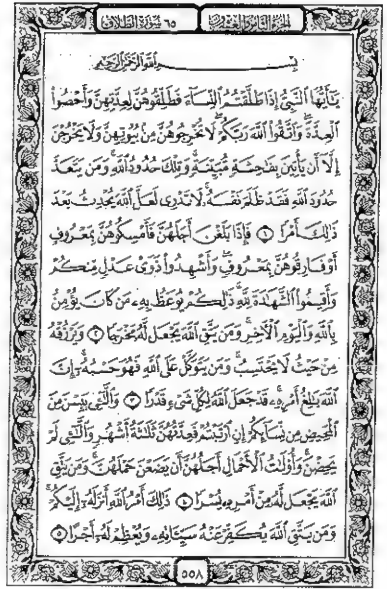
(٦) في ب: من الأجر العظيم.

(٧) في ب: وهو.

(١) في ب: الإيمان به، ورسوله، وكتابه.

(٢) في ب: لأن النور.

(٣) في ب: النواهي.



﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات، ﴿العزيم﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير التغابن [والله الحمد]

تفسير سورة الطلاق [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴿يقول تعالى غاطباً لنبيه ﷺ وللْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ أي: أردتم طلاقهن ﴿ف﴾ التمسروا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.

بل ﴿طلقوهن لعدتهن﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بيّنة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب بتلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو

تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

ثم رغب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إن تقررصوا الله قرصاً حسناً﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿يضاعفه لكم﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿و﴾ مع المضاعفة أيضاً ﴿يغفر لكم﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾.

﴿والله شكور حلیم﴾ لا يعاجل من عساه، بل يمهل ولا يهمل، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾. والله تعالى شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويمجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، ونساء^(١) بالتكاليف الثقيل، ومن ترك شيئاً لله، عوفضه الله خيراً منه.

طلقها في طهر وطىء فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين و [لا] يتضح بأي: عدة تعدت، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً، فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، [وحقها في النفقة ونحوها]. فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه [للزوج]^(٢)، وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها، وقوله: ﴿واتقوا الله ربكم﴾ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات، ف ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ مدة العدة، بل يلزم من بيوتهن^(٣) الذي طلقها زوجها وهي فيها.

﴿ولا يخرجن﴾ أي: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها، فلأن^(٤) المسكن يجب على الزوج للزوجة^(٥)، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه.

وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة. ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لحاظها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها^(٦)، وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع

(٦) في ب: عليها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: يجب للزوجة عليه.

(١) في ب: وأنواع التكاليف.

(٢) زيادة من هامش: ب.

(٣) في ب: بل تلزم بيتها.

للفتنة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن، **﴿وتلك حدود الله﴾** [أي: التي حددها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ومن يتعد حدود الله بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها، فقد ظلم نفسه] أي: بخسها حظها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة. **﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾** أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة: فمتها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرجة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحكم: أنها مدة التريض، يعلم براءة زوجها من زوجها. وقوله: **﴿فإذا بلغن أجلهن﴾** أي: إذا قاربن انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج بخيراً بين الإمساك والفراق. **﴿فأمسكوهن بمعروف﴾** أي: على وجه المعاشرة [الحسنة]، والصحية الجميلة، لا على وجه الضرر، وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، **﴿أو فارقوهن بمعروف﴾** أي: فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من ماله.

﴿وأشهدوا﴾ على طلاقها ورجعتها **﴿ذوي عدل منكم﴾** أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سداً لباب الخصامة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه. **﴿وأقيموا﴾** أيها الشهداء

﴿الشهادة لله﴾ أي: انتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله وحده^(١)، ولا تراعوا بها قريباً لقربته، ولا صاحباً لمحبتها، **﴿ذلكم﴾** الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود **﴿يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾** فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوجب له ذلك^(٢) أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما تمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان عن قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله لعدم الموجب لذلك، ولما كان الطلاق قد يقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالى بتقواه، وأن^(٣) من اتقاه في الطلاق وغيره، فإن الله يجعل له فرجاً ومخرجاً.

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طليقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ فيه^(٤)، فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعة يتمكن فيها من مراجعة النكاح^(٥)، إذا ندم على الطلاق، والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يشيبه في الدنيا والآخرة.

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والأصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعاتها، واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه

(١) في ب: وجه الله تعالى.

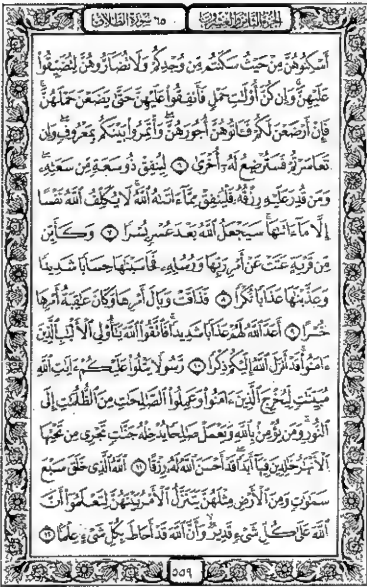
(٢) في ب: فإن الإيمان بالله، واليوم الآخر يوجب لصاحبه.

(٣) في ب: ووعد من.

(٤) في ب: ولا طهر أصابها فيه.

(٥) في ب: يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح.

(٦) في ب: لا يتمكن من استداركها.



المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يمكنه استداركها^(٦) والخروج منها.

وقوله: **﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به.

﴿ومن يتوكل على الله﴾ أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويشق به في تسهيل ذلك **﴿فهو حسبه﴾** أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي [العزیز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له، فلهذا قال تعالى: **﴿إن الله بالغ أمره﴾** أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه **﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾** أي: وقتاً ومقداراً، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿٥٤﴾ **﴿واللاني يثن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن**



ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف، **﴿وإن كن﴾** أي: المطلقات **﴿أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضمن حملهن﴾** وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائناً، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضمن حملهن^(٣)، فإذا وضعن حملهن، فيما أن يرضعن أولادهن أو لا، **﴿فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن﴾** المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المثل، **﴿وأنتمروا بينكم بمعروف﴾** أي: ليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الاعتبار بالمعروف، يحصل فيه^(٤) من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى، وما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما^(٥) ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير^(٦).

فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمخاصمة^(٧)، وينصح على ذلك. **﴿وإن تعاسرتم﴾** بأن لم تتفقوا^(٨) على إرضاعها لولدها، فلترضع^(٩) له أخرى غيرها **﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتن بالمعروف﴾** وهذا حيث كان الولد يقبل لثدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا لثدي أمه، تعينت لإرضاعه،

أجلهن **﴿أي: عدتهن﴾** أن يضمن حملهن **﴿أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حيثئذ بالأشهر ولا غيرها﴾** **﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾** أي: من اتقى الله تعالى، يسر له الأمور، وسهل عليه كل عسير. **﴿ذلك﴾** أي: الحكم الذي بينه الله لكم **﴿أمر الله أنزله إليكم﴾** لتمشوا عليه، [وتأتمروا] وتقوموا به وتعظموه.

﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

﴿٦٧ - ٦٩﴾ **﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضمن حملهن فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾** لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق بما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاهما سيجعل الله بعد عسر يسراً **﴿تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان﴾** بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره، **﴿ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن﴾** أي: لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن، على وجه لا يحصل عليهن

ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضمن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً * لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء، ذكر تعالى العدة، فقال:

﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يرج رجوعه، فإن عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر، مقابلة حيضة.

﴿واللائي لم يحضن﴾ أي: الصغار اللائي لم يأتين الحيض بعد، والبالغات^(١) اللائي لم يأتين حيض بالكلية، فإنهن كالأيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللائي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾** [وقوله]: **﴿وأولات الأحمال**

(١) في ب: أو البالغات.

(٢) في ب: إسكانهن.

(٣) في ب: إلى وضع الحمل.

(٤) في ب: فيها.

(٥) في ب: بينهما.

(٦) في ب: الذي لا يحصل في الغالب إلا مقروناً بالبغض فيتأثر من ذلك شيء كثير.

(٧) في ب: والمنازعة.

(٨) في ب: بأن لم يتفق الزوجان.

(٩) في ب: فترضع له أخرى.

ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه^(١)، عيّن تعالى على وليه النفقة، فلما ولد، وكان يمكن^(٢) أن يتقوت من أمه ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقاً لقوته، ثم قدر تعالى النفقة، بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لَيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي: لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء. ﴿وَمَنْ قَدَرُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي: ضيق عليه ﴿فَلَيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق. ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلاً بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يسراً﴾ وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً.

﴿٨-١١﴾ ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَثَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذِبْنَاهَا عَذَابًا نَكْرًا﴾ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً * يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسول أن كثرتهم وقوتهم، لم تنفعهم^(٣) شيئاً، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من

العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم في الآخرة عذاباً شديداً، ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين، ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والعصية، إلى نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن [به]، ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾ من الواجبات والمستحبات.

﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ [أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون].

﴿١٢﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [ثم أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد وعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى، وعبودوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون] [تم تفسيرها والحمد لله]

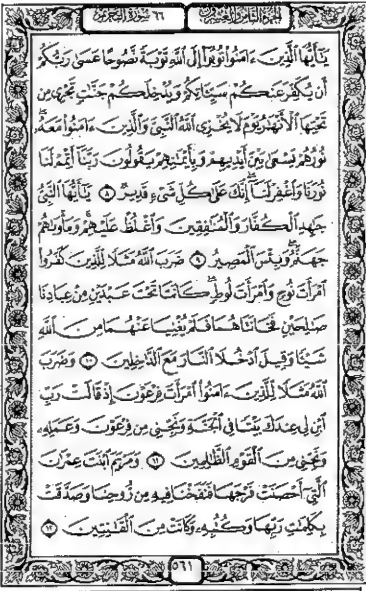
تفسير سورة التحريم [وهي] مدنية

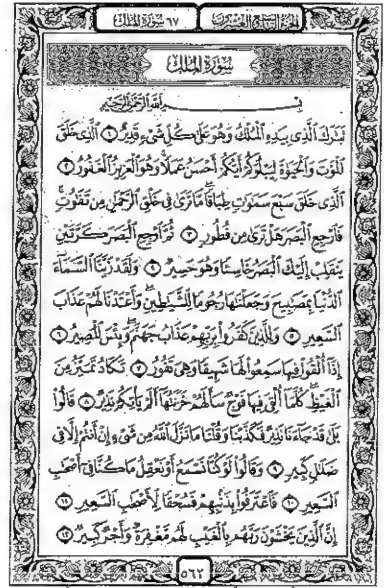
﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم * وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما تبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنباك هذا قال نبأني العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكم وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير * عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات فانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً * هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ، حين حرم على نفسه سريره «مارية» أو شرب العسل، مراعاة لحاظ بعض زوجاته، في قصة مغرورة، فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات ﴿يا أيها النبي﴾ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

(١) في ب: لا خروج له منه.

(٢) في ب: يتمكن.

(٣) في ب: تغن عنهم.





﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه^(٥)، فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول^(٦)، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة]، وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك﴾ أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يبق^(٧) عليه الأمر، ولم يكن مضطراً إليكن، فإنه سيلقى^(٨)، ويبدله الله أزواجاً خيراً منك، ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، ﴿تائبات﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، ﴿تائبات وأبكاراً﴾ أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﴿فيما يحب﴾، فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، يادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا

أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿والله مولاكم﴾ أي: متولي أموركم، ومزبيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة إيمانكم، لتبرأ ذممكم، ﴿وهو العليم الحكيم﴾ الذي أحاط بعلمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[وقوله]: ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمأ منه ﷺ وحلمأ، ف ﴿قالت﴾ له: ﴿من أنبأك هذا﴾ الخبر الذي لم يخرج مناً؟ ﴿قال نبأني العليم الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، [وقوله]: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما^(٩) قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه، ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ أي: تعاونا^(١٠) على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن،

﴿تبغى﴾ بذلك التحريم مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ﴿هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان:﴾

﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾^(١١) أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل إيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة^(١٢) بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طبابت ما أحل الله لكم ولا تعتدوا﴾ إلى أن قال: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتم﴾

فكل من حرم حلالاً عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يميناً بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث

(١) في ب: فقال تعالى ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾ وهذا عام في جميع إيمان المؤمنين.

(٢) في ب: وما به تكفر.

(٣) في ب: أن قلوبكما.

(٤) في ب: تتعاون.

(٥) في ب: أنصاره.

(٦) في ب: وغيره أن يناوئه فهو مخذول.

(٧) في ب: لا يضيّق.

(٨) في ب: سيجد.

الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿٦٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: يا من آمن بالله عليكم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

﴿٦٧﴾ ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بالزأما أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهية اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل [والأولاد] بتأديبهم وتخليصهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل^(١) تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

وصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ كما قال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾. ﴿عليها مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ أي: غليظة أخلاقهم، عظيم^(٢) انتهارهم، يفزعون بأصواتهم، ويخيفون^(٣) بمرأهم، ويهتتون أصحاب النار بقوتهم، ويمتثلون^(٤) فيهم أمر الله، الذي حتم عليهم العذاب^(٥) وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، واتقاهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا

لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ [أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه].

﴿٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوَنُّوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَدْخُلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُجْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَورَهُمْ يُسَمَّىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز بالفلاح، حين يسمى المؤمنون يوم القيامة بتور إيمانهم، ويمشون بضياؤه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفت الأنوار، التي تعطي المنافقين، ويسألون الله، أن يتم^(٦) لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما^(٧) معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه^(٨) والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة [عليهم ودعوتهم] بالموعظة الحسنة^(٩)، وإبطال

ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله ويتقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ له، وأما المرتبة الأولى، فتكون بالتي هي أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله وحزبه [عليهم وأ] على جهادهم وقتالهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنَبْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة وتنجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴿١٠﴾ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴿١١﴾ هذان المثالان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيد شيئاً، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً مع قيامه بالواجب عليه.

فكان في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا يتفعلن شيئاً مع الإساءة، فقال:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفرش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه

(١) في ب: وفيمن يدخل.

(٥) في ب: بالعذاب.

(٢) في ب: شديد.

(٦) في ب: يتم.

(٣) في ب: ويزعجون.

(٧) في ب: بما.

(٤) في ب: ويفقدون.

(٨) في ب: إلا وجه الله.

(٩) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحجة

والموعظة الحسنة.

ملء الدنيا، ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي: كل واحدة فوق الأخرى، وليس طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لوها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أجزائها، قال:

﴿فارجع البصر﴾ أي: أعددها إليها، ناظراً معتبراً ﴿هل ترى من فطور﴾ أي: نقص واختلال، ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسنها، فقال:

﴿٥٠-١٠﴾ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير﴾ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير.

أي: ولقد جئنا ﴿السماء الدنيا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بمصابيح﴾ وهي النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لو لا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة

هي كمال العلم والعمل .
تمت والله الحمد

تفسير سورة الملك [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ أي: تغاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض.

وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴿أي: أخلصه وأصوبه، فإن^(١) الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سيتقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن اتقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿الغفور﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنبأوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستريح عيوبهم، ولو كانت

بغياً، ﴿فلم يغنيا﴾ أي: نوح ولوط ﴿عنهما﴾ أي: عن أمرأتيهما ﴿من الله شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾.

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتنة، ولهذا قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». [وقوله: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿ففنفخنا فيه من روحنا﴾ بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم عليه السلام، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، [ولهذا قال] ﴿وكانت من القانتين﴾ أي: الطائعتين لله، المداومتين على طاعته^(١) بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال الحمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصديقية:

(١) في ب: أي المداومين على

طاعة الله.



نذير * ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير * هذا تهديد ووعيد لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿أمنتكم من في السماء﴾ وهو الله تعالى، العلي على خلقه.

﴿أن يحسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ بكم وتضطرب، حتى تلتفكم وتهلككم (١)

﴿أم أمتكم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: عذاباً من السماء يحصبكم، ويستقيم الله منكم ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي: كيف يأتيكم ما أنذركم به الرسل والكتب، فلا تحسبوا أن أمتكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فتستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الزمان (٢) أو قصر، فإن من قبلكم، كذبوا كما كذبت، فأهلكهم الله تعالى، فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿١٩﴾ ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن (٣) في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقضيه حكمته.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور * أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو وتفور﴾ يقول تعالى للعتاة الثافرين عن أمره، المعرضين عن الحق:

﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ أي: ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المزمع المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبده، لم يتفعوه مثقال ذرة، على أي عدو كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفه.

﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرازق النعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لجوا﴾ أي: استمروا في عتوكم؟ أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿وتفور﴾ أي: شرود عن الحق.

﴿٢٢﴾ ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ أي: أي الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر قد اتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فيمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿٢٣ - ٢٦﴾ ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ قل هو

وأخفى، ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من البشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحاب الجلية، والمقامات النبيلة.

﴿١٥﴾ ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذللها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، فامشوا في مناكبها﴾ أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً، وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿١٦ - ١٨﴾ ﴿أمنتكم من في السماء أن يحسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أم أمتكم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف

(٣) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها.

(٢) في ب: الأمد.

(١) في ب: حتى تهلكوا وتلفوا.



براءة نبيه محمد ﷺ عما نسب إليه أعداؤه من الجنون، فنفى عنه الجنون^(١)، بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منّ عليه بالعقل الكامل، والرأي: الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنعام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وإن لك لأجراً﴾ أي: عظيماً، كما يفيد التنكير، ﴿غير محنون﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، ولهذا قال: ﴿وانك لم لي خلق عظيم﴾ أي: عالياً به، مستعالياً بخلقك الذي منّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين [عائشة - رضي الله عنها -] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾ ﴿فما رحمة من الله لنت لهم﴾ [الآية]، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم

الأخلاق، و [الآيات] الحائثات على الخلق العظيم^(٢)، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً لنا، قريباً من الناس، مجبياً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقصاه، جابراً لقلب من سأل، لا يجرمه، ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذ بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ أي: بكم المفتون، وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس [وشر الناس]^(٣) للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلواهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.

و ﴿هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وهذا فيه تهديد للمضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿٨-١٦﴾ ﴿فلا تطع المكذبين﴾ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴿ولا تطع كل حلافٍ مهين﴾ ﴿هماز مهين﴾ عتل بنميم ﴿مناع للخير معتد أثيم﴾ عتل بعد ذلك زنيماً ﴿أن كان ذا مال وبنين﴾ إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير

الأولین ﴿منسّمه على الخرطوم﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿فلا تطع المكذبين﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالطبع لهم مُقتدٌ على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وإن كان كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال: ﴿ودوا﴾ أي: المشركون ﴿لو تدهن﴾ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو بالفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿فيدهنون﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما بضاده، وعيب ما يناقضه، ﴿ولا تطع كل حلافٍ﴾ أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو ﴿مهين﴾ أي: خسيس النفس، ناقص الهمة، ليس له همة^(٤) في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة. ﴿هماز﴾ أي: كثير العيب [للناس] والظعن فيهم^(٥)، بالغية والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿مشاء بنميم﴾ أي: يمشي بين الناس بالبنيمة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، ﴿مناع للخير﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿معتد﴾ على الخلق في ظلمهم، في الدماء والأموال والأعراض^(٦) ﴿أثيم﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿عتل بعد ذلك﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس غير متفاد للحق ﴿زنيماً﴾ أي: دعي، ليس له أصل و [لا] مادة

(١) في ب: عنه ذلك.

(٢) في ب: على كل خلق جميل.

(٣) زيادة من هامش ب.

(٤) في ب: ليس له رغبة.

(٥) كذا في ب، وفي أ: في الناس.

(٦) في ب: يظلمهم في دماءهم

وأموالهم وأعراضهم.

ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقيح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زنة أي: علامة في الشر يعرف بها. وحاصل هذا، أن الله تعالى نبى عن طاعة كل خلاف كذاب، خسيس النفس، سبىء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» أي: لأجل كثرة مثاله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كله، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم تواعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سينميه على خرطوم^(١) في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿١٧ - ٣٣﴾ «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتُنْثَوْنَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ» إلى آخر القصة يقول تعالى: «إِنَّا بَلَوْنَا هَؤُلَاءِ الْمَكْدُونِينَ بِالْخَيْرِ وَأَمْلَلْنَاهُمْ، وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِمَا شِئْنَا مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ، وَطُولِ عَمَرٍ، وَنَحْنُ ذَلِكَ، مِمَّا يَوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، لَا لِكِرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا، بَلْ رُبَّمَا يَكُونُ اسْتِدْرَاجاً لَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ»^(٢)، فاعتراهم بذلك نظير

اعتراهم أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وأن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، [وأنه] ليس ثم مانع يمنعه منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويأدرهم إليها.

﴿٣٤﴾ «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ» أي: عذاب نزل عليها ليلاً «وَهُمْ نَائِمُونَ» فأبادهما وأتلفها «فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ» أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، وهذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: «اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ» فانطلقوا قاصدين له^(٣) «وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ» فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون: «لَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ» أي: يكرروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافة، خوفاً أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء. «وَعُدُّوا» في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة «عَلَى حَرِّ قَادَرِينَ» أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها، «فَلَمَّا رَأَوْهَا» على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، «قَالُوا» من الحيرة والانزعاج. «إِنَّا لَضَالُونَ» [أي: تائهون] عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوا، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة، فـ «قَالَ أَوْسَطُهُمْ» أي: أعدلهم وأحسنهم طريقة: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ» أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة،

فلولا استئذنتهم قلتم: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، وجعلتم مشيتكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى، فقالوا «سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة، «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامِؤْنَ» فيما أجروه وفعلوه، «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ» أي:

متجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، «عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ» فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤله.

قال تعالى مبيناً^(٤) ما وقع: «كَذَلِكَ الْعَذَابُ» [أي:] النذيري لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وأثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه.

﴿٣٥﴾ «وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ» من عذاب الدنيا «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» فإن من علم ذلك، أوجب له الانزعاج عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب^(٥).

﴿٣٤ - ٤١﴾ «إِنْ لِّلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * أَفْنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْفِرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَسُوءَ تَحْكُمُونَ * سَلَامٌ أَيْمٌ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ» يخبر تعالى بما أعدده للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع

(٥) في ب: كل سبب يوجب العقاب

ويحرم الثواب.

(٣) في ب: لها.

(٤) في ب: معظماً.

(١) في ب: على الخرطوم.

(٢) في ب: من حيث لا يعلمون.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي: ليس لنفوسهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد جدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم خال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والخزع، والحكم الشرعي، يُقابل بالقبول والتسليم، والالتقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب في البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أنهم يلقون لكي تخف بهم، فوقع الفرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم، [وقوله] ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم، بأن قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فاستجاب الله له، وقذفه الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأثبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِنْ

يَسْجُدُونَ لِلَّهِ، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار والمنافقون لیسجدوا فلا یقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده، وعبادته وهم سالون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزجج القلوب عن المقام على المعاصي، و [يجب] التدارك مدة الإمكان.

ولهذا قال تعالى ﴿٤٤-٥٢﴾ ﴿فَلْذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِنْ بَالَعَهُمُ الْعَرَاءُ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَنِبْ ربه فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، ف ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغترون ويستمروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ^(٤).

التعظيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعال لا تقتضي أن يجعل المسلمين^(١) القانتين لربهم، المتقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضاعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه^(٢) فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتحيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها^(٣).

﴿٤٣-٤٢﴾ ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السَّجْدِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْمَقُهم ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعَوْنَ إِلَى السَّجْدِ وَهُمْ سَالُونَ﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من اللقالق [والزلازل] والأهوال ما لا يدخل تحت الرسم، وأتى البارز لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحيث يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا

(١) في ب: المتقين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

(٣) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدر بها، ولا يكون زعيماً فيها.

(٤) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

صرعى ﴿أي: هلكني موتى﴾، ﴿كانهم أعجاز نخل خاوية﴾ ﴿أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض، فهل ترى لهم من باقية﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

﴿٩-١٢﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾ ﴿فبعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾ ﴿إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية﴾ ﴿لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ ﴿أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين، عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البينات، ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلموا وعلوا، وجاء من قبله من المكذبين، ﴿والمؤتفكات﴾ ﴿أي: قرى قوم لوط، الجميع جاؤوا بالخاطئة﴾ ﴿أي: بالفعلة الطاغية، وهي الكفر والتكذيب، والظلم والمعادنة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش (٨) والفسوق، ﴿فبعصوا رسول ربهم﴾ وهذا اسم جنس أي: كل من هؤلاء كذب (٩) الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع ﴿أخذة رابية﴾ ﴿أي: زائدة على الخد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم، ومن جملة أولئك، قوم نوح، أغرقهم الله في اليم حين طغى الماء على وجه الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿في الجارية﴾ وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحدوا الله واشكروا الذي نجاهم

خاوية ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ ﴿الحاقة﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، وغيبات الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كثره من قوله: ﴿الحاقة﴾ ﴿ما الحاقة﴾ ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ فإن لها شأنًا عظيمًا، وهو لا جسيماً، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل] (٣)، ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما (٤) أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: ﴿كذبت ثمود﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقزع الخلق بأحوالها، وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوه إلى عبادة الله [وحدته]، فكذبوه، وكذبوا بما أخبر (٥) به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل (٦). ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم، ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ ﴿أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]، ﴿عاتية﴾ [أي: عتت على خزائنا، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح، ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ ﴿أي: نخسنا وشرأ فظيعة عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿فترى القوم فيها

بالعراء﴾ ﴿أي: لطرخ في العراء، وهي الأرض الخالية وهو مذموم﴾ ولكن الله (١) تغذته برحمته، فنبذ وهو مدح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فاجتباه ربه﴾ ﴿أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فجعل من الصالحين﴾ ﴿أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة﴾ ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أي: يصيبوه (٢) بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أفراً، بحسب ما تروحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارة «مجنون»، وتارة «ساحر»، وتارة «شاعر».

قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ ﴿أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم. تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الحاقة وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ﴿الحاقة﴾ ﴿ما الحاقة﴾ ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل

(٧) في ب: هو.

(٨) في ب: المعاصي.

(٩) في ب: كذبوا.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ومما.

(٥) في ب وأنكروا ما أخبر به.

(٦) في ب: العاجل.

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبوهم.

(٣) من هامش أ.

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومجة أن يطعم الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾ أي: دونكم كتابي فاقرووه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب، والذي أُرسلني إلى هذه الحال، ما مَنَّ الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ أي: أيقنت، فالظن - هنا - [بمعنى] اليقين، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي: جامعة لما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿في جنة عالية﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿قطوفها دانية﴾ أي: ثمرها وجنائها، من أنواع الفواكه، قرية، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾ أي: من كل طعام لذيق، وشراب شهيق، ﴿هنيئاً﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر ولا منغص.

وذلك الجزء حصل لكم ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة^(٣) - من صلاة، وصيام، وصدقة، وحب، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله، وإنابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لتعيمها، وأصلاً لسعادتها.

﴿٢٥ - ٣٧﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه * خذوه فخلوه * ثم

واضحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عرجاً ولا أمتاً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها، وتبي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها.

﴿والمملك﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائها﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمتهم.

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد، والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يومئذ تعرضون﴾ على الله. ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ لا من أجسادكم وأجسادكم^(٢)، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاة عراة غرلاً، في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية * وهؤلاء هم أهل السعادة، يُعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيامهم، تمييزاً لهم، وتنوياً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم،

حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال: ﴿لنجعلها﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها، لكم ﴿تذكرة﴾ تذكركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكر بأصله.

وقوله: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله^(١).

﴿١٣ - ١٨﴾ وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ لما ذكر ما فعله تعالى بالمكذبين لرسوله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ إذا تكاملت الأجساد نابثة، ﴿نفخة واحدة﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ أي: فتنت الجبال

(١) في ب: وتفكرهم بآياته.

(٢) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم.

(٣) هكذا في المخطوطتين وقد جاءت جملة: (وترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة). وتفصيل تلك الأعمال قصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك. في الطبقات السابقة، وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.



﴿إنها لظي * نزاعة للشوى﴾ أي : للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها^(١).

﴿تدعوا﴾ إليها^(٢) * من أدير وتولى * وجع فأوعى﴾ أي : أذبر عن اتباع الحق وأعرض عنه ، فليس له فيه غرض ، وجع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها ، فلم ينفق منها فإن النار تدعوهم إلى نفسها ، وتستعد للالتهاب^(٣).

﴿١٩ - ٣٥﴾ إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير متوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسان والمحرور * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لعاهون * والذين هم بشهاداتهم قانمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك في جئات

مكرمون * وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية ، أنه هلوع . وفسر الهلوع بأنه : ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض ، أو ذهاب محبوب له ، من مال أو أهل أو ولد ، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله ، ﴿وإذا مسه الخير متوعاً﴾ فلا ينفق عما آتاه الله ، ولا يشكر الله على نعمته وبره ، فيجزع في الضراء ، وينتفع في السراء . ﴿إلا المصلين﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف ، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله ، وأنفقوا مما خولهم الله ، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا .

وقوله : ﴿في وصفهم﴾ الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أي : مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها . وليسوا كمن لا يفعلها ، أو يفعلها وقتاً دون وقت ، أو يفعلها على وجه ناقص . ﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ من زكاة وصدقة ﴿للسائل﴾ الذي يتعرض للسؤال ، والمحرور وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه ، ولا يفتن له ، فيتصدق عليه . ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أي : يؤمنون بما أخبر الله به ، وأخبرت به رسله ، من الجزاء والبعث ، ويتيقنون ذلك ، فيستعدون للأخرة ، ويسعون لها سعيها . والتصديق بيوم الدين ، يلزم منه التصديق بالرسول ، وبما جاؤوا به من الكتب .

﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي : خائفون وجلون ، فيتركون لذلك كل ما يقرهم من عذاب الله . ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أي : هو العذاب الذي يخشى ويجذر .

﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ فلا يطؤون بها وطأ محرماً ، من زنى ، أو لواط ، أو وطء في دبر ، أو حيض ، ونحو ذلك ، ويحفظونها أيضاً من النظر

إليها ومسها ، عن لا يجوز له ذلك ، ويتركون أيضاً ، وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة .

﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي : سرياتهم ﴿فإنهم غير ملومين﴾ في وطئهن ، في المحل الذي هو محل الحزث ، ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي : غير الزوجة وملك اليمين ، ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي : المتجاوزون لما أحل الله إلى ما حرم الله ، ودلت هذه الآية على تحريم [نكاح] المتعة ، لكونها غير زوجة مقصودة ، ولا ملك يمين .

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي : مراعون لها ، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها ، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه ، كالتكاليف السرية ، التي لا يطلع عليها إلا الله ، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق ، في الأموال والأسرار ، وكذلك العهد ، شامل للعهد الذي عاهد عليه الله ، والعهد الذي عاهد عليه الخلق ، فإن العهد يسأل عنه العبد ، هل قام به ووفاه ، أم رفضه وخانه فلم يقم به؟

﴿والذين هم بشهاداتهم قانمون﴾ أي : لا يشهدون إلا بما يعلمونه ، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان ، ولا مجابي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه ، ويكون القصد بها^(٤) وجه الله .

قال تعالى : ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ .

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ بمدادومتها على أكمل وجوها ، ﴿أولئك﴾ أي : الموصوفون بتلك الصفات ﴿في جئات مكرمون﴾ أي : قد أوصل الله لهم من الكرامة والتعظيم المقيم ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

(٢) في ب : تدعو إلى نفسها .

(٣) في ب : القصد بإقامتها .

(١) في ب : أي : النار التي تلتظي تنزع

من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة .

تعالى أنه أرسله^(٥) إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً لهم من عذاب الله الأليم، خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، وعذبهم عذاباً سرمدياً، فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: **﴿يا قوم إني لكم نذير مبين﴾** أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بياناً شافياً، فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما يأمرهم به^(٦)، فقال: **﴿أن أعبدا الله وأتقوه﴾** وذلك بإفراده تعالى بالوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب، والنفوذ بالشواب، **﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾** أي: يتمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى أي: مقدر [البقاء في الدنيا] بقضاء الله وقدره [إلى وقت محدود]، وليس المتاع أبداً، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: **﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾** لما كفرتم بالله، وعاندتم الحق، فلم يجيبوا للدعوت، ولا اتقوا لأمره، فقال شاكياً لربه: **﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾** فلم يزدهم دعائي إلا فراراً^(٧) أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، **﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾** أي: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا، غفرت لهم، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم، ونفوراً عن الحق، **﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾** حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام، **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق وبغضاً له، **﴿وأصروا﴾** على كفرهم وشركهم، **﴿واستكبروا﴾** على

والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: **﴿وننشككم فيما لا تعلمون﴾** **﴿وما نحن بمسبوقين﴾** أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده، فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله **﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾** أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا **﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾** فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم. ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم^(٨) الذي يوعدون، فقال: **﴿يوم يخرجون من الأجداث﴾** أي: القبور، **﴿سراعاً﴾** مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها **﴿كانهم إلى نصب يؤفصون﴾** أي: [كانهم إلى علم] يؤمون ويسرعون^(٩) أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي. والالتواء لنداء النادي، بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام، بين يدي رب العالمين. **﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾** وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفتلتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل، هو يومهم **﴿الذي كانوا يوعدون﴾** ولا بد من الوفاء بوعد الله [تمت والحمد لله].

تفسير سورة نوح عليه السلام وهي مكية

﴿١-٢٨﴾ **﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك﴾** إلى آخر السورة لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، فأخبر

وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم^(١٠)، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

﴿٣٦-٣٩﴾ **﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾** عن اليمين وعن الشمال عزين **﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾** كلا إنا خلقناهم مما يعلمون^(١١) يقول تعالى، مبيناً اغترار الكافرين: **﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾** أي: مسرعين **﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾** أي: قطعاً متفرقة، وجماعات متوزعة^(١٢)، كل منهم بما لديه فرح.

﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ بأي: سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر، والجحود برب العالمين، ولهذا قال: **﴿كلا﴾** [أي: ليس الأمر بأمانتهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم].

﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي: من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿٤٠-٤٤﴾ **﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾** على أن تبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين **﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾** يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يؤفصون **﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾** هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغارب، وللشمس والقمر

(١) في ب: وحفظ حقوقهم وأماناتهم.

(٢) في ب: متنوعة.

(٣) في ب: اليوم.

(٤) في ب: ويقصدون.

(٥) في ب: أنه أرسل نوحاً.

(٦) في ب: وأمرهم بأصل ذلك.

الحق ﴿استكباراً﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد.

﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ أي: بمسمع منهم كلهم، ﴿ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾ كل هذا حرص ونصح، وإيتائهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود^(١)، ﴿فقلت استغفروا ربكم﴾ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها.

﴿إنه كان غفاراً﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم بمغفرة الذنوب، وما يترتب عليها من حصول الثواب، وإنقاذ العقاب.

ورغبهم أيضاً بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي: مطراً متتابعاً، يروي الشعاب والبهاد، ويحيي البلاد والعباد. ﴿ويسدكم بأموال وبنين﴾ أي: يكثر أموالكم التي تذكرون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي: لا تحافون الله عظمة، وليس الله عندكم قدر، ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ أي: خلقاً من بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق^(٢)، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

واستدل أيضاً عليهم بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: ﴿ألم تتروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ أي:

كل سماء فوق الأخرى، ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ لأهل الأرض ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾.

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم، يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى، ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ حين خلق أبائكم آدم وأنتم في صلبه، ﴿ثم يعيدكم فيها﴾ عند الموت ﴿ويخرجكم إخراجاً﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور، ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي: مبسطة مهية للارتفاع بها، ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ فلولا أنه بسطها، لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون على ظهرها.

﴿قال نوح﴾ شاكياً لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد: ﴿إنهم عصوني﴾ فيما أمرتهم به ﴿واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً﴾ أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملا والأشراف الذين لم تزددهم أموالهم ولا أولادهم إلا خساراً أي: هلاكاً وتقويتاً للأرباح، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟! ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي: مكراً كبيراً بليغاً في معاندة الحق.

﴿وقالوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لا تذرنا آلهمك﴾ فدعوههم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آبائهم الأقدمون، ثم عينوا آلهم، فقالوا: ﴿ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يقوث ويعوق ونسراً﴾ وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا، زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم، لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا

رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤسائهم للتابعين لهم، أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة^(٣).

﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق، ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتهم إياهم بحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالاً أي: فلم يبق محل لنجاحهم ولا لمصالحهم، ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال:

﴿عما خطيئاتهم أغرقوا﴾ في اليوم الذي أحاط بهم ﴿فأدخلوا ناراً﴾ فذهبت أجسادهم في الغرق، وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئتهم، التي أتاهم نبيهم نوح ينذرهم عنها، ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ يدور على وجه الأرض، وذكر السبب في ذلك، فقال: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يسلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح - عليه السلام - ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جزم أن الله استجاب دعوته^(٤)، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿رب اغفر لي ولوالدي ولن دخل

(١) في ب: بكل طريق يظن به حصول المقصود.

(٢) في ب: ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق.

(٣) في ب: هذه الأصنام.

(٤) في ب: فلهذا استجاب الله له دعوته.

بيتي مؤمناً^(١) خص المذكورين لتأكد حقهم وتقدير برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ولا ترد الظالمين إلا تبارك أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح عليه السلام [والحمد لله]

تفسير سورة قل أوحى إلي [وهي] مكية

﴿١ - ٢﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً^(٢) يهدي إلى الرشد فأمتنا به ولن نشرك بربنا أحداً^(٣) أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للناس ﴿أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ صرفهم الله [إلى رسوله] لسماع آياته، لتقوم عليهم الحجة، [وتتم عليهم النعمة] ويكونوا نذراً^(٤) لقومهم.

وأمر الله رسوله، أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا، فهموا بمعانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً﴾ أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

﴿٢﴾ ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فأمتنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى، [المتضمنة لترك الشر] وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد

واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والالف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة، ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ أي: تعالت عظمته وتقدس أسماؤه، ﴿فما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ فعلموا من جد الله وعظمته، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولداً، لأن له العظمة الكمال^(٥) في كل صفة كمال، واتخاذ صاحبة والولد ينافي ذلك، لأنه يضاد كمال الغنى.

﴿وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً﴾ أي: قولاً جائراً عن الصواب، متعدياً للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهو وضعف عقله، وإلا فلو كان رزياً مطمئناً لعرف كيف يقول.

﴿٥﴾ ﴿وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَن تَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي: كنا مغترين قبل ذلك، وغرنا القادة^(٦) والرؤساء من الجن والإنس، فأحسننا بهم الظن، وظنناهم^(٧) لا يتجرون على الكذب على الله، فلذلك كنا قبل هذا على طريقهم، فاليوم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه^(٨)، وانقذنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس^(٩) يعارض الهدى.

﴿٦﴾ ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزع^(١٠)، فزاد الإنس الجن رهقاً أي: طغياناً وتكبراً، لما رأوا الإنس

يُعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير في زادوهم يرجع إلى الجن ضمير الواو^(١١) أي: زاد الجن الإنس ذعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد يخوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه».

﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي: فلما أنكروا البعث، أقدموا على الشرك والظن بها.

﴿وَأَنَا لَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: آتيناها واختبرناها، ﴿فوجدناها ملئت حرساً شديداً﴾ عن الوصول إلى أرجائها [والاندنو منها]، ﴿وشهباً﴾ يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإننا كنا نتمكن من الوصول إلى خير السماء.

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعَ لِلسَّمْعِ﴾ فتتلقف من أخبار السماء ما شاء الله، ﴿فمن يستمع الآن يجحد له شهاباً﴾

(١) في ب: منذرين لقومهم.

(٢) في ب: والجلال.

(٣) في ب: عزتنا السادة والرؤساء.

(٤) في ب: وحسناتهم.

(٥) في ب: سلكتنا طريقه.

(٦) في ب: من الخلق.

(٧) في ب: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزع، ويعبدونهم.

(٨) في ب: ويحتمل أن الضمير وهي الواو يرجع إلى الجن.



وعرفنا هدايته وإرشاده، أثر في قلوبنا ف **﴿أمنّا به﴾**.

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا: **﴿فمن يؤمن بربه﴾** إيماناً صادقاً **﴿فلا يخاف بخصاً ولا رهقاً﴾** أي: لا نقصاً ولا طغياناً ولا أذى يلحقه ^(١)، وإذا سلم من الشر حصل له الخير، فالإيمان سبب داع إلى حصول كل خير وانتفاء كل شر.

﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ أي: الجائر، العادلون عن الصراط المستقيم.

﴿فمن أسلم فالولك محروا ورشدا﴾ أي: أصابوا طريق الرشد، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها، **﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾** وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنهم **﴿لو استقاموا على الطريقة﴾** المثل **﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾** أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنهم ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم. **﴿لنفقتهم فيه﴾** أي: لينتخبهم فيه ونمتحنهم، ليظهر الصادق من الكاذب.

﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾ أي: من أعرض عن ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه ويتق له، بل غفل عنه ولهي، يسلكه عذاباً صعداً أي: شديداً بليغاً.

﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكافة لعزته، **﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾** أي: يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن كاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا عليه لبيداً أي: متلبدين متراكمين، حرصاً على سماع ما جاء به من الهدى.

﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، مبيناً حقيقة ما تدعو إليه:

﴿رسدا﴾ أي: مرصداً له، معدداً لإتلافه وإحراقه أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً، من خير أو شر، فلهذا قالوا: **﴿وأننا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا﴾** أي: لا بد من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم، أن هذا الأمر يريد به الله، ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدياً مع الله.

﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك﴾ أي: فساق وفجار وكفار، **﴿كنّا طرائق قدا﴾** أي: فرقاً متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون.

﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله، فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه، **﴿وأنا لما سمعنا الهدى﴾** وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم،

﴿إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذ المشركون من دونه.

﴿قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشدا﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء.

﴿٢٢﴾﴾ **﴿قل إني لن يمجري من الله أحد﴾** أي: لا أحد أستجير به يتقني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضرراً ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله شيئاً [إن أراد به سوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، **﴿ولن أجد من دونه ملتحدا﴾** أي: ملجأ ومتصراً **﴿إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾** أي: ليس لي منزلة على الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا ^(٢) تقوم الحجة على الناس.

﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا﴾ وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها التصوص الآخر المحكمة.

وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة.

﴿حتى إذا رَأَوْا ما يوعدون﴾ أي: شاهدوه عياناً، وجزموا أنه واقع بهم، **﴿فسيعلمون﴾** في ذلك الوقت حقيقة المعرفة **﴿من أضعف ناصراً وأقل عددا﴾** حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذا يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة، **﴿قل﴾** لهم إن سالوك [فقالوا] «متى هذا الوعد؟» **﴿إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا﴾** أي: غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله، **﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا﴾** من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب، **﴿إلا**

(١) في ب: فقالوا: **﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخصاً ولا رهقاً﴾** أي: من آمن به إيماناً صادقاً فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه.

(٢) في ب: ودعوة خلقه إليه وبذلك.

له القلوب، وتفرح به أولو الألباب،
وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به
أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن لاجتماع
الرسول ﷺ، وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة، قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأن الرسول محمداً ﷺ، إذا كان لا يملك لأحد نفعاً ولا ضرراً، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والغلط^(٣) اتخاذ من هذا وصفه إلهاً [آخر] مع الله.

ومنها: أن علوم الغيب قد
انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من
الخلق، إلا من ارتضاه الله وخصه^(٤)
بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة قل أوحى إلي،
ولله الحمد^(٥)

تفسير سورة المزمل
[وهي] مكية

﴿١١-١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ * قُمْ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا * نَصْفَهُ أَوْ اقْصُ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَوْقَوْمٌ قِيلًا * إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا * الْمَزْمِلُ : المتغطي بشيابه كالمدثر ، وهذا

وفي هذه السورة فوائد كثيرة:
منها: وجود الجن، وأنهم مكلفون
بأمور مكلفون منهيون، مجازون
بأعمالهم، كما هو صريح في هذه
السورة.

ومنها: أن رسول الله ﷺ رسول
إلى الجن، كما هو رسول إلى
الإنس^(٢)، فإن الله صرف نذر الجن
ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا
قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفةهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به، فحين ابتدأت بشائر نبوته، والسماء مغرورة بالنجوم، والشياطين قد هربت عن أماكنها، وأزعجت عن مرصدها، وأن الله رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشدًا، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض، ما تتهجج

(١) في ب: من غير أن تقر به الشياطين فلا.

(۲) فی ب: مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس.

(٣) في ب: من الخطأ والظلم.

(٤) في الف : واختصاصه :

(۵) فی ب: تم تفسیرها والحمد لله رب العالمین.

(٦) في: فاعتراه عند ذلك.

(V) فم ب: علم أذية قومه.



وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿تَمَّ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم قدر ذلك، فقال: ﴿نُصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ﴾ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكير، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتبها له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه. ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن^(٣) القلب واللسان، وتقل الشواغل،

ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود^(٣)، ولهذا قال: ﴿إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: تردداً على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه التفرغ التام، ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وَتَبَيَّنْ لَهُ تَبَيُّنًا﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدي من رضاه.

﴿وَبِالشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشرق والمغرب لكلهما، فهو تعالى رب المشرق والمغرب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومديره. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فَاتَّخِذْ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومديراً لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عمومياً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل^(٤) من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونهم ويسبون ما جاء به، وأن يحضي على أمر الله، لا يصده عنه صداد، ولا يردده راد، وأن يهجرهم هجراً جيلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم^(٥) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره

بجدالهم بالتي هي أحسن. ﴿وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أمهلتهم، وقوله: ﴿أُولِي النِّعْمَةِ﴾ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا غَافِلٌ﴾ ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿إِنْ لَدَيْنَا أَنْكَالٌ وَجَحِيمٌ﴾ وطمعاً ذا غصة وعذاباً أليماً ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً﴾ أي: إن عندنا أنكالا، أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب^(٦)، ﴿وَجَحِيمًا﴾ أي: ناراً حامية وطمعاً ذا غصة، وذلك لمرارته وبشاعته، وكرهه طعمه وريحه الخبيث المبتسن، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً مفزعاً، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتِ﴾ الصم الصلاب ﴿كَثِيبًا مَهِيلاً﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهاء المنثور.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ فمضى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً يقول تعالى: أهدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفراعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه،

(١) في ب: حصول.

(٢) في ب: عليه.

(٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد.

(٤) في ب: وفعل المشق.

(٥) في ب: بل يعاملهم.

(٦) في ب: على ما يغضب الله.

فأخذه الله أخذاً وبيلاً أي: شديداً بليغاً.

هذا الموضع، أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين.

﴿١٧- ١٨﴾ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منقطر به كان وعده مقعولاً * أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمزعه، العظيم قدره ^(١)، الذي شيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتتقطر به السماء وتنثر به نجومها * كان وعده مقعولاً * أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال: ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ أي: يعلم بمقاديرهما وما يمضي منهما ويبقى.

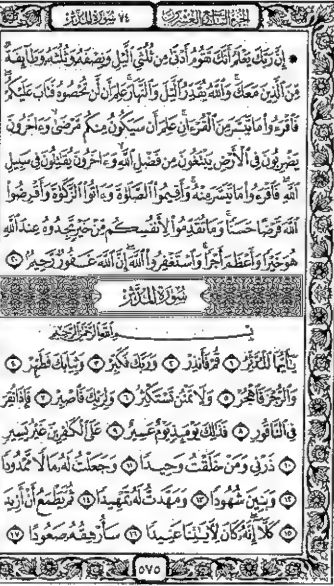
﴿علم أن لن محصوه﴾ أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباهاً وعناء زائداً أي: فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدّر أو نقص، ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ أي: عما تعرفون وما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً، فإذا فتر أو كسل أو نعنس، فليستريح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

﴿١٩﴾ [إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً] [أي: إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأحواله ^(٢)، تذكرة يتذكر بها المتقون، وينجز بها المؤمنون، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: طريقاً موثقاً إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾ يشق عليهم صلاة ثلاثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض المتسهل عليه ^(٣)، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصلاة قائماً عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها [وله أجر ما كان يعمل صحيحاً]. ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكفوا عن الناس ^(٤) أي: فالسافر، حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية.

﴿٢٠﴾ [إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن محصوه فاقروا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم] ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل، أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في

وكذلك ﴿آخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه﴾ فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفاً للصحيح القيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه



الأول.

وتخفيفاً للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك ^(٥)، فإنه أيضاً يراعي ما لا يكلفه، فله الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين ^(٦) من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودينامهم.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال:

﴿وأقيموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ أي: خالصاً لوجه الله، من نية صادقة، وتشبهاً من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

(٦) في ب: حيث لم يجعل علينا في الدين.

(٤) في ب: ويتكفوا عنهم.

(٥) في ب: أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره.

(١) في ب: خطره.

(٢) في ب: وأحوالها.

(٣) في ب: ما يسهل عليه.

المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصاً في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

﴿والرجز فاهجر﴾ يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها وما نسب إليها من قول أو عمل. ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها^(٤)، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتكثر^(٥) بتلك المنّة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنّة، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وأنس [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطي أحداً شيئاً، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

﴿ولربك فاصبر﴾ أي: احتسب بصبرك، واقصديه وجه الله تعالى، فامتثل رسول الله ﷺ لأمره، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله^(٦) من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنّة على الناس - بعد منّة الله - من غير أن يطلب منهم

يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمل^(٧)

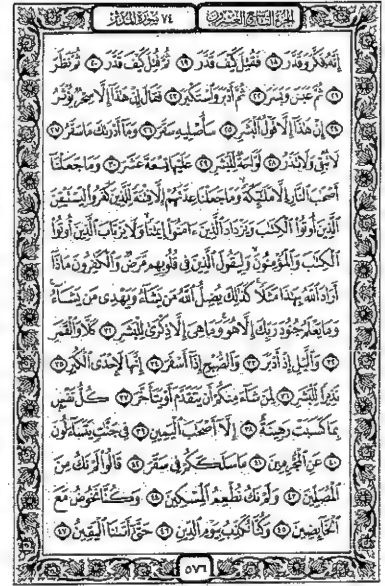
تفسير سورة المدثر [وهي] مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر﴾ تقدم أن المزمل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ، بالاجتهاد في عبادة الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بإعلان الدعوة^(٨)، والصدع بالإنذار، فقال: ﴿قم﴾ [أي] بجِد ونشاط ﴿فأنذر﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال النذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه، ﴿وربك فكبر﴾ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصيدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

﴿وثيابك فطهر﴾ يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفاسد، والمنقصات من شرك ورياء، [ونفاق]، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عبادته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب



وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، ووا حسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، ووا غوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينتجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها^(٩).

فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار، فمتى لم

(١) في ب: أرحم بها من نفسها.

(٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله.

(٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.

(٤) في ب: صغارها وكبارها.

(٥) في ب: فتستكثر.

(٦) في ب: وهجر كل ما يبعد من دون الله وما يبعد منه.



يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر. هذه الآيات، نزلت في الوليد بن المغيرة معاند الحق، والمبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذمًا لم يذمه^(٤) غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أحرى، فقال: «ذري ومن خلقت وحيداً» أي: خلقتك منفرداً، بلا مال ولا أهل، ولا غيره، فلم أزل أنميّه وأربيّه^(٥)، «وجعلت له مالا ممدوداً» أي: كثيراً «و» جعلت له «بنين» أي: ذكورا «شهوداً» أي: دائماً حاضرين عنده، [على الدوام] يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستنصر بهم.

«ومهدت له تمهيداً» أي: مكنته من الدنيا وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على^(٦) ما يشتهي ويريد، «ثم» مع هذه النعم والإمدادات «يطمع أن أزيد» أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا. «كلام» أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذلك لأنه «كان لآياتنا عنيداً» أي: معانداً، عرفها ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم يتقبلها ولم يكفه أنه أعرض وتولى عنها، بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها، ولهذا قال عنه: «إنه فكر» [أي: في نفسه، وقدر] ما فكر فيه، ليقول قولاً يبطل به القرآن.

«فقتل كيف قدر» ثم قتل كيف قدر. لأنه قدر أمراً ليس في طوره، وتصور على ما لا يناله هو [لا] أمثاله، «ثم نظر» ما يقول، «ثم

على ذلك^(١) جزاء ولا شكوراً، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة^(٢)، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

«٨- ١٠» «فإذا نقرني الناقور» فذلك يومئذ يوم عسير* على الكافرين غير يسير* أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق^(٣) للبعث والنشور. «فذلك يومئذ يوم عسير» لكثرة أهواله وشدائده «على الكافرين غير يسير» لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبراز.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: «يقول الكافرون هذا يوم عسر».

«١١- ٣١» «ذري ومن خلقت وحيداً» وجعلت له مالا ممدوداً* «وبتين شهوداً» ومهدت له تمهيداً* ثم يطمع أن أزيد* كلامه كان لآياتنا عنيداً* سأرقه صعوداً* إنه فكر وقدر* فقتل كيف قدر* ثم قتل كيف قدر* ثم نظر* ثم عبس وبسر* ثم أدبر واستكبر* فقال إن هذا إلا سحر يؤثر* إن هذا إلا قول البشر* سأصليه سقر* وما أدراك ما سقر* لا تبقي ولا تذر* لواحة للبشر* عليها تسعة عشر* وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من

عيس وبسر* في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضاً له، «ثم أدبر» أي: تولى «واستكبر» نتيجة سعيه الفكري والعقلي والقولي، أن قال: «إن هذا إلا سحر يؤثر» إن هذا إلا قول البشر* أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشر الأخيار، بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سخار، فتباً له، ما أبعد من الصواب، وأخراه بالحضارة والتباب!

كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين! أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه كلام المبدئ المعيد^(٧). فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى: «سأصليه سقر» وما أدراك ما سقر* لا تبقي ولا تذر* أي:

(١) في ب: أن يطلب عليهم بذلك.

(٢) في ب: وصبر لربه أكمل صبر، فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة.

(٣) في ب: الخلائق.

(٤) في ب: لم يذم به غيره.

(٥) في ب: أربيّه، وأعطيّه.

(٦) في ب: وحصل له.

(٧) في ب: على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى.



لا تبقي من الشدة، ولا على المعذب شيئاً إلا وبلغته، ﴿لَوَاحِيَةٌ للبشر﴾ أي: تلوحهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقربها.

﴿عليها تسعة عشر﴾ من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ وذلك لشديتهم وقوتهم.

﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعدابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة تكاليفهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، [كما قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾] ويحتمل أن المراد: أننا أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب، ويدل على هذا، ما ذكر بعده في قوله: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقيهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جلية، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في

كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلاً لهذه الفوائد^(١) الجلية، ويميزاً للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة ونفاق. ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ وهذا على وجه الخيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إلا هو﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب، ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أي: وما هذه الموعظة والتذكير مقصوداً به العتب واللعب، وإنما المقصود به، أن يتذكر [به] البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركوه.

﴿٣٢-٥٦﴾ ﴿كلا والقمر﴾ والليل إذا أدبر * والصبح إذا أسفر * إنها لإحدى الكبر * نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر * كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين * فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حرم مستنفرة *

فرت من قسورة * بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة * كلا بل لا يخافون الآخرة * كلا إنه تذكرة * فمن شاء ذكره * وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ ﴿كلا﴾ هنا بمعنى: حقاً، أو بمعنى «ألا» الاستفاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه والمقسم عليه قوله: ﴿إنها﴾ أي: النار ﴿لإحدى الكبر﴾ أي: لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة، فإذا أعلمناكم بها، وكنتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء متاكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدينه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر [عما خلق له] عما يحبه الله [ويرضاه]، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ الآية.

﴿كل نفس بما كسبت﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر، ﴿رهينة﴾ بها موقوفة بسنتيها، قد ألزم عتقها، وغل في رقيتها، واستوجبت به العذاب، ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم لم يرتكبوا، بل أطلقوا وفرحوا ﴿في جنات يتساءلون﴾ عن المجرمين. أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي: حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟

فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطلعون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: «ما سلككم في سقر؟» أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي: ذنب استحققتموها؟ فـ ﴿قالوا لم نك من

المصلين * ولم نك نطعم المسكين* فلا إخلاص للمعبود، [ولا إحسان] ولا نفع للخلق المحتاجين.

«وكنا نخوض مع الخافضين» أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق، «وكنا نكذب بيوم الدين» هذا آثار الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو نخل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسنائر الخلق.

فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد^(١) «حتى أتانا اليقين» أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حيثئذ عليهم الخيل، وأنسد في وجوههم باب الأمل، «فما تنفعهم شفاعا الشافعين» لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم^(٢).

فلما بين الله مآل المخالفين، ورهب بما^(٣) يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: «فما لهم عن التذكرة معرضين» أي: صادين غافلين عنها.

«كأنهم» في نفرتهم الشديدة منها «همز مستنفرة» أي: كأنهم همز وحش نفرت فنفر بعضهم بعضاً، فزاد عدوها، «فرت من قسورة» أي: من صائد ورام يريددها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون دعاوى الكبار. في «يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشورة» نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الآليم، فإنهم

جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال: «كلا» أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، «بل لا يخافون الآخرة» فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى.

«كلا إنه تذكرة» الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة، «فمن شاء ذكره» لأنه قد بين له السبل، ووضح له الدليل.

«وما يذكرون إلا أن يشاء الله» فإن مشيئته^(٤) نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرة، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية، الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته، «هو أهل التقوى وأهل المغفرة» أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر،
ولله الحمد^(٥)

تفسير سورة القيامة [وهي] مكية

﴿١-٦﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * يحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه * بل يريدهم أن نسوي بنيانه * بل يريدهم أن يسأل أياهم يوم القيامة» ليست «لا» [ها] هنا نافية،

[ولا زائدة] وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح.

فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم، «ولا أقسم بالنفس اللوامة» وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُميت «لوامة» لكثرة تردددها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت^(٦)، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء.

ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال: «يحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه» بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: «قال من يحيي العظام وهي رميم»؟ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله: «بلى قادرين على أن نسوي بنانه» أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقع] ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب^(٧) بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

(١) في ب: الباطل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم.

(٣) في ب: وبين ما يفعل بهم.

(٤) في ب: فإن مشيئة الله.

(٥) في ب: تمت والله الحمد والمنة.

(٦) في ب: على ما فعلت.

(٧) في ب: لأن إرادته وقصده التكذيب.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال :

﴿٧-١٥﴾ ﴿فإذا برق البصر﴾

وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره.

أي : إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم ، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى : ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ مهطعين مقتعي رؤوسهم لا يتردد إليهم طرفهم وأفتدتهم هواء * وخسف القمر * أي : ذهب نوره وسلطانه ، وجمع الشمس والقمر * وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى ، فيجمع الله بينهما يوم القيامة ، ويخسف القمر ، وتكور الشمس ، ثم يقذفان في النار ، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران ، ليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين .

﴿يقول الإنسان﴾ حين يرى تلك القلائل المزعجات : ﴿أين المفر؟﴾ أي : أين الخلاص والفرار مما طرقتنا وأصابنا^(١) ؟

﴿كلا لا وزر﴾ أي : لا متلجأ لأحد دون الله ، ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ لسائر العباد ، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع ، بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله ، ولهذا قال : ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ أي : بجميع عمله الحسن والسيئ ، في أول وقته وآخره ، وينبأ بخبر لا ينكره ، ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي : شاهدا ومحاسباً ، ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ فإنها معاذير لا تقبل ، ولا تقابل ما يقرر به العبد^(٢) ، فيقرر به ، كما قال تعالى :

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيب﴾ .

فالعبد وإن أنكر ، أو اعتذر عما عمله ، فإنكاره واعتذاره يقيدانه شيئاً ، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل ، ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه : ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ .

﴿١٦-١٩﴾ ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه * كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي ، وشرع في تلاوته عليه ، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ ، وتلا مع تلاوة جبريل إياه ، فنهاه الله عن هذا ، وقال : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى بك إياه﴾ .

وقال هنا : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ * ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه ، ويجمعه الله في صدره ، فقال : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ فاحرص الذي في خاطرك ، إنما الداعي له حذر القوات والنسيان ، فإذا ضمنه الله لك ، فلا موجب لذلك .

﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي : إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله^(٣) إليك ، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه . ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي : بيان معانيه ، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه ، وهذا أعلى ما يكون ، فامتثل ﷺ لأدب ربه ، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا ، أنصت له ، فإذا فرغ قرأه .

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم ، أن لا يبادر المتعلم العلم قبل أن يفرغ من^(٤) المسألة التي شرع فيها ، فإذا فرغ منها سأل عما أشكل عليه ، وكذلك إذا

كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان ، أن لا يبادر برده أو قبوله ، حتى يفرغ من ذلك الكلام ، ليتبين ما فيه من حق أو باطل ، وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه .

وفيها : أن النبي ﷺ كما بين للأمة الفاظ الوحي ، فإنه قد بين لهم معانيه .

﴿٢٠-٢٥﴾ ﴿كلا بل تحبون العاجلة﴾ * وتذرون الآخرة * وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة * وجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي : هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تحبون العاجلة﴾ وتسعون فيما يحصلها ، وفي لذاتها وشهواتها ، وتؤثرونها على الآخرة ، فتذرون العمل لها ، لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة ، والإنسان مولع بحب العاجل ، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم ، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها ، كأنكم لم تخلقوا لها ، وكان هذه الدار هي دار القرار ، التي تبذل فيها نفائس الأعمار ، ويسعى لها آتاء الليل والنهار ، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة ، وحصل من الخسار ما حصل .

فلو أثرتم الآخرة على الدنيا ، ونظرتهم للعواقب نظر البصير العاقل لأنجحتهم ، وريحتهم ريحاً لا خسارة معه ، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه .

ثم ذكر ما يدعو إلى إشار الآخرة ، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها ، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أي : حسنة بهية ، لها رونق وتور ، مما هم فيه من نعيم القلوب ، وبهجة النفوس ، ولذة الأرواح ، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي : تنظر إلى ربها^(٥) على حسب مراتبهم : منهم

(١) في ب : والفكاك مما طرقتنا وألم بنا .

(٢) في ب : بل يقرر بعمله .

(٣) في ب : إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك .

(٤) في ب : أن لا يبادر المتعلم للعلم قبل أن يفرغ المعلم .

(٥) في ب : أي ينظرون إلى ربهم .

خلق الإنسان هذه [وطوره إلى] الأطوار المختلفة ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ بلى إنه على كل شيء قدير .

تم تفسير سورة القيامة ، والله الحمد والمنة ، وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤ هـ .

المجلد التاسع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين .

تفسير سورة هل أتى على الإنسان وهي مكية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نتليه فجعلناه سمياً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴿ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها﴾ .

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل ، وهو الذي قبل وجوده ، وهو معدوم بل ليس مذكوراً .

ثم لما أراد الله تعالى خلقه ، خلق [أباه] آدم من طين ، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿من نطفة أمشاج﴾ أي : ماء مهين مستقذر ﴿نتليه﴾ بذلك ، لنعلم هل يرى حاله الأولى ، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه ؟

فأنشأ الله ، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة ، كالسمع والبصر ، وسائر الأعضاء ، فأتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده .

ثم أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، وهدهد الطريق الموصلة

ولكن القضاء والقدر ، إذا حتم وجاء فلا مرد له ، ﴿وظن أنه الفراق﴾ للدنيا .

﴿والتفت الساق بالساق﴾ أي : اجتمعت الشدائد والتفت ، وعظم الأمر وصعب الكرب ، وأريد أن تخرج الروح التي ألقت البدن^(٤) ولم تزل معه ، فتساق إلى الله تعالى ، حتى يجازيها بأعمالها ، ويقررها بفعالها .

فهذا الزجر ، [الذي ذكره الله] يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ، ويزجرها عما فيه هلاكها .

ولكن المعاند الذي^(٥) لا تنفع فيه الآيات ، لا يزال مستمراً على بغيه وكفره وعناده .

﴿فلا صدق﴾ أي : لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿ولا صلي﴾ ولكن كذب ﴿بالحق في مقابلة التصديق﴾ ، ﴿وتولى﴾ عن الأمر والنهي ، هذا وهو مطمئن قلبه ، غير خائف من ربه ، بل يذهب ﴿إلى أهله يتمطى﴾ أي : ليس على باله شيء ، توعده بقوله : ﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى ﴿وهذه كلمات وعيد ، كررها لتكرير وعيده﴾ ، ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول ، فقال : ﴿أحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ أي : معطلاً^(٦) ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يُشأب ولا يُعاقب ؟ هذا حسان باطل ، وظن بالله غير ما يليق بحكمته .

﴿ألم يك نطفة من مني يمى﴾ ثم كان ﴿بعد المنى﴾ علقه^(٧) أي : دماً ، ﴿فخلق﴾ الله منها الحيوان وسواه أي : أتقنه وأحكمه ، ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ * أليس ذلك الذي

من ينظره كل يوم بكرة وعشيا ، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة ، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وجماله الباهر ، الذي ليس كمثل شيء ، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم وحصل لهم من البذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه ، ونضرت وجوههم ، وازدادوا جالاً إلى جلالهم ، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم .

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة : ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ أي : معبسة ومكدرة^(٨) ، خاشعة ذليلة ﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي : عقوبة شديدة ، وعذاب أليم ، فلذلك تغيرت وجوههم وعيست .

﴿٢٦ - ٤٠﴾ ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ وقيل من راق ﴿وظن أنه الفراق﴾ والتفت الساق بالساق ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ فلا صدق ولا صلي ﴿ولكن كذب وتولى﴾ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى ﴿أحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ * ألم يك نطفة من مني يمى ﴿ثم كان علقه فخلق فسوى﴾ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ يعظ تعالى عباده ، بذكر حال المحتضر عند السياق^(٩) ، وأنه إذا بلغت روحه التراقي ، وهي العظام المكتنفة لشجرة النجر ، فحيث يشد الكرب ، ويطلب كل وسيلة وسبب ، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة ، ولهذا قال : ﴿وقيل من راق﴾ أي : من يرقيه ، من الرقية ، لأنهم انقطععت آمالهم من الأسباب العادية ، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية^(١٠) .

(١) في ب : كدرة .

(٢) في ب : بذكر المحتضر حال السياق .

(٣) في ب : فتعلقوا بالأسباب الإلهية .

(٤) في ب : أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته .

(٥) كذا في ب ، وفي أ : التي .

(٦) في ب : أي مهملاً .

(٧) في ب : والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم .

إلى الله^(١)، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه منها، وأخبره بما له إذا سلكتها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكركم لنعمة الله عليه، قانتم بما حملة الله من حقوقه، وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك.

ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال:

﴿٤ - ٢٢﴾ **﴿إنا أعددنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً﴾** * **﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾** إلى آخر الثواب أي: إنا هيئنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتحزأ على المعاصي **﴿سلاسل﴾** في نار جهنم، كما قال تعالى: **﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوها﴾**.

﴿وأغلالاً﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها.

﴿وسعيراً﴾ أي: ناراً تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها أبدانهم، **﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، ليذوقوا العذاب﴾** وهذا العذاب دائم لهم أبداً، يخلدون فيه سرمداً.

وأما **﴿الأبرار﴾** وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم^(٢)، واستعملوها بأعمال البر، أخبر أنهم **﴿يشربون من كأس﴾** أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور أي: خلط بكافور، ليبرده ويكسر حذته، وهذا الكافور [في غاية اللذة]، قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا،

فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أيها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة^(٣).

كما قال تعالى: **﴿في سدر مخضود﴾** وطلع منضود^(٤) وأزواج مطهرة^(٥) لهم دار السلام عند ربهم وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين^(٦).

﴿هيناً يشرب بها عباد الله﴾ أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاذه، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيراً، أنى شأؤوا، وكيف أرادوا، فإن شأؤوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي: جهة يرونها من الجهات الموقنات.

وقد ذكر^(٧) جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال: **﴿يوفون بالنذر﴾** أي: بما ألزموا به أنفسهم الله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب^(٨) عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى، **﴿ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾** أي: منتشرأفاشياً، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك، **﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾** أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم، **﴿مسكيناً وييتماً وأسيراً﴾**.

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: **﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾** لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً^(٩) أي:

لا جزاء مالياً، ولا ثناء قولياً. **﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً﴾** أي: شديد الجهمة والشر **﴿قمطيراً﴾** أي: ضنكاً ضيقاً، **﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾** فلا يجزهم الفزع الأكبر، وتلقاهم الملائكة [هنا يومكم الذي كنتم توعدون].

﴿ولقاهم﴾ أي: أكرمهم وأعطاهم **﴿نضرة﴾** في وجوههم **﴿وسروراً﴾** في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن، **﴿وجزاهم بما صبروا﴾** على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلة، فلم يتسخطوها، **﴿جنة﴾** جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص، **﴿وحريراً﴾** كما قال [تعالى]: **﴿وليباسهم فيها حريراً﴾** ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه.

﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين، **﴿لا يرون فيها﴾** أي: في الجنة **﴿شمساً﴾** يضرهم حرها، **﴿ولاً زمهرياً﴾** أي: بزداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلذذ به الأجساد، ولا تألم من حر ولا برد.

﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريباً ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان^(١٠) **﴿بآنية من فضة﴾** وأكواب كانت قواريراً * قوارير من فضة^(١١) أي: مادتها من فضة،

(١) في ب: الطريق الموصلة إليه وبينها.

(٢) في ب: أعمالهم.

(٣) في ب: الموجودة في الدنيا تنعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة.

(٤) في ب: ثم ذكر.

(٥) في ب: الذي هو غير واجب.

(٦) في ب: **﴿ويطاف عليهم﴾** أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة.

الجارية، والرياض المعجبة، والطيور المطربة [المشجبة]، ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس.

وعنده من الزوجات، اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سروراً، ولذة وحبوراً، وحوله من الولدان المخلدين، والخدم المؤيدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة.

ثم علاوة ذلك ومعظمه، الفوز برؤية (٣) الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين، فسبحان الملك

المالك، الحق المبين، الذي لا تنفذ خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية

لأوصافه، فلا نهاية لبره وإحسانه، **﴿عليهم ثياب سندس خضر﴾** أي: قد جللتهم ثياب السندس والاستبرق

الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج (٤)، والاستبرق: ما رق منه.

﴿وحلوا أساور من فضة﴾ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإنائهم، وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولاً، لأنه لا أصدق منه قليلاً ولا حديثاً.

وقوله: **﴿وسقاهم ربهم شرباً طهوراً﴾** أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

﴿إن هذا﴾ الجزء الجزيل والعطاء الجميل **﴿كان لكم جزاء﴾** على ما أسلفتموه من الأعمال، **﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾** أي: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن

[وهي] على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة، من صفاء جوهرها، وطيب معدنها، على صفاء القوارير.

﴿قدروها تقدير﴾ أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر ربيهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف برهم (١).

ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذتهم، فأتهم على ما قدروا في خواطرهم، **﴿ويسقون فيها﴾** أي: في الجنة، من كأس، وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق، **﴿كان مزاجها﴾** أي: خلطها **﴿زنجبيل﴾** ليطيب طعمه وريحه.

﴿عيناً فيها﴾ أي: في الجنة، **﴿تسمى سلسبيل﴾** سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿ويطوف﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشرايبهم وخدمتهم.

﴿ولدان مخلدون﴾ أي: خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، **﴿إذا رأيتهم﴾**

منتشرين في خدمتهم **﴿حسبتهم﴾** من حسنهم **﴿لؤلؤاً منتوراً﴾** وهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدماتهم

الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون على مساكنهم، آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم، **﴿وإذا رأيتم﴾**

أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم (٢). **﴿رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾** فتجد الواحد منهم، عنده من

القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والشمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار

(١) في ب: لم تكفهم لربهم.

(٢) في ب: أي رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل.

(٣) في ب: برضا.

(٤) في ب: ما غلظ الحرير.

(٥) في ب: لا بد أن تكون معصية الله لأنهم لا يأمرن.

(٦) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله.



حصره.

وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة **﴿إننا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾** فيه الوعد والوعيد، وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر على ذلك.

ولهذا قال: **﴿فاصبر لحكم ربك﴾** ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً (١) أي: اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق.

﴿ولا تطع﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك **﴿أثماً﴾** أي: فاعلاً إثماً ومعصية ولا **﴿كفوراً﴾** فإن طاعة الكفار والفجار والفاسق، لا بد أن تكون في المعاصي، فلا يأمرن (٥) إلا بما تنهوا أنفسهم.

ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله (٦)، والإكثار من ذكره، أمره الله بذلك، فقال: **﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾** أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك، الصلوات

على الهدى ﴿أعد لهم عذاباً أليماً﴾^(١) [بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان،
ولله الحمد والمنة^(٢)

تفسير سورة المرسلات وهي مكية

﴿١٥-١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والمرسلات عرفاً * فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشرأ * فالفارات فرقأ * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع * فإذا التجوم طمست * وإذا الجبال نسفت * وإذا الرسل أقتت * لأي: يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين * أقسم تعالى على البعث والجزاء بالأعمال^(٣)، بالمرسلات عرفاً، وهي الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدريّة وتبدير العالم، وبشؤونه الشرعيّة ووجهه إلى رسله.

و ﴿عرفاً﴾ حال من المرسلات أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فالعاصفات عصفاً﴾ وهي [أيضاً] الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف، أو: أن العاصفات، الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها، ﴿والناشرات نشرأ﴾ يحتمل أنها الملائكة^(٤)، تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي يُنشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها، ﴿فالملقيات ذكراً﴾ هي الملائكة، تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي

﴿٢٨﴾ ثم استدلل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نحن خلقناهم﴾ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وشددنا أسرهم﴾ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:

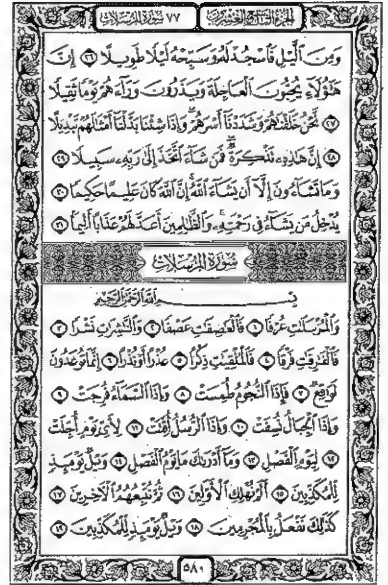
﴿بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿إن هذه تذكرة﴾ أي: يتذكر بها المؤمن، فيستفع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: طريقاً موصلاً إليه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو التفرع عنها، مع قيام الحجة عليهم^(٥)، ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئة الله نافذة، ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها.

﴿والظالمين﴾ الذين اختاروا الشقاء



المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة^(٦).

﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يُنا أيها المزمّل﴾ قم الليل إلا قليلاً الآية^(٧). [وقوله] ﴿إن هؤلاء﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول بعدما بينت لهم الآيات، وورعوا ورهبوا، ومع ذلك، لم ينفذ فيهم ذلك شيئاً، بل لا يزالون يؤثرون ﴿العاجلة﴾ ويطمنون إليها، ﴿ويدرون﴾ أي: يتركون العمل ويمهلون ﴿وراءهم﴾ أي: أسامهم ﴿يوماً ثقيلاً﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

فكانهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها.

(١) في ب: وذلك متضمّن لكثرة الصلاة.

(٢) في ب: أكمل الآيات نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه.

(٣) في ب: إقامة للحجة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(٤) في ب: تمت ولله الحمد.

(٥) في ب: على الأعمال.

(٦) في ب: يحتمل أن المراد بها الملائكة.

يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم، تلقية إلى الرسل، **﴿عذراً أو نذراً﴾** أي: إعداراً وإنذاراً للناس، تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف، وتقطع معذرتهم ^(١)، فلا يكون لهم حجة على الله.

﴿إنما توعدون﴾ من البعث والجزاء على الأعمال **﴿لواقع﴾** أي: محتتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

فإذا وقع حصل من التغيير للعالم والأحوال الشديدة ما يزعج القلوب، وتشدله الكروب، فتطمس النجوم أي: تتناثر وتزول عن أماكنها وتسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، وذلك اليوم هو اليوم الذي أقتت فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال:

﴿لأي: يوم أُجِّلْت﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتوهيل.

ثم أجاب بقوله: **﴿ليوم الفصل﴾** [أي: بين الخلائق، بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفرداً، ثم توعده المكذب بهذا اليوم، فقال: **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم، أخبرهم الله، وأقسم لهم، فلم يصدقوه، فاستحقوا ^(٢) العقوبة البليغة.

﴿١٦-١٩﴾ **﴿ألم نهلك﴾** الأولين * ثم تتبعهم الآخرين * كذلك تفعل بالمجرمين * **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما أهلكننا المكذبين السابقين، ثم تتبعهم بإهلاكنا من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من عذابه ^(٣)، فلم لا تعتبرون بما ترون

وتسمعون؟ **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** بعدما شاهدوا من الآيات البينات، والعقوبات والثلاث.

﴿٢٠-٢٤﴾ **﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾** فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * **﴿فقدنا نعم القادرون﴾** **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما خلقناكم أيها الأدميون **﴿من ماء مهين﴾** أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله **﴿في قرار مكين﴾** وهو الرحم، به يستقر وينمو **﴿إلى قدر معلوم﴾** ووقت مقدر، **﴿فقدنا﴾** أي: قدرنا وذبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

﴿فنعم القادرون﴾ [يعني بذلك نفسه المقدسة] حيث كان قدراً تابعاً للحكمة، موافقاً للحمد ^(٤).

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبيانات.

﴿٢٥-٢٨﴾ **﴿ألم نجعل الأرض كفافاً﴾** أحياء وأمواتاً * وجعلنا فيها رواسي شاخات وأسقيناكم ماء فراتاً * **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما امتننا ^(٥) عليكم وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها **﴿كفافاً﴾** لكم، **﴿أحياء﴾** في الدور، **﴿ وأمواتاً﴾** في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومتمته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وسترأ لهم، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها.

﴿وجعلنا فيها رواسي﴾ أي: جبلاً

الأنفلك من قلوبهم، فجعلنا في قرار مكين، إلى قدر معلوم، فقدنا نعم القادرون، ولم نعد للمكذبين، أن جعلنا الأرض كفافاً، أحياء وأمواتاً، وجعلنا فيها رواسي شاخات وأسقيناكم ماء فراتاً، وويل يومئذ للمكذبين، أنما توعدون، من البعث والجزاء على الأعمال، لواقع، أي: محتتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب، فإذا وقع حصل من التغيير للعالم والأحوال الشديدة ما يزعج القلوب، وتشدله الكروب، فتطمس النجوم أي: تتناثر وتزول عن أماكنها وتسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، وذلك اليوم هو اليوم الذي أقتت فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال:

ترسي الأرض، لثلاث تمديد بأهلها، فبشيء الله بالجبال الراسيات الشاخات أي: الطوال العراض، **﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾** أي: عذباً زلالاً، قال تعالى: **﴿أفأريتم الماء الذي تشربون﴾** أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ مع ما أراهم الله من النعم، التي انفراد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالكذب.

﴿٢٩-٣٣﴾ **﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾** انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب * **﴿إنها ترمي بشرراً كالقصر﴾** كأنه جمالة صفر * **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** هذا من الويل الذي أعد [للمجرمين] للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: **﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾** ثم فسر ذلك بقلوبه: **﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾** أي: إلى ظل نار جهنم، التي تتمايز في

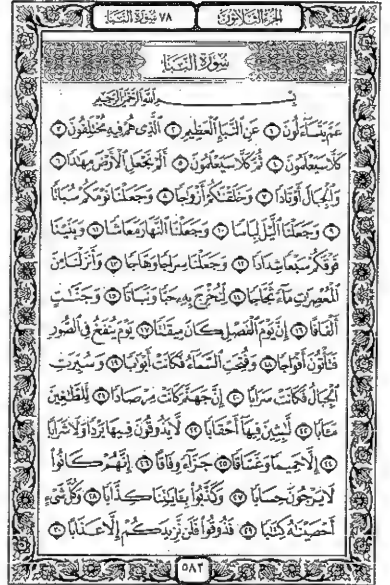
(١) في ب: أعذارهم.

(٢) في ب: فلذلك استحقوا.

(٣) في ب: عقابه.

(٤) في ب: لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد.

(٥) في ب: أمانتنا.



خلاله ثلاث شعب أي: قطع من النار
أي: تتعاوره وتتأوبه وتجتمع به.

﴿لا ظليل﴾ ذلك الظل أي:
لا راحة فيه ولا طمأنينة،
﴿ولا يغني﴾ من مكث فيه ﴿من
اللهب﴾ بل اللهب قد أحاط به، يمتنة
ويسرة ومن كل جانب، كما قال
تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار
ومن تحتهم ظلل﴾.

﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم
غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾.

ثم ذكر عظم شر النار، الدال على
عظمتها وفضاعتها وسوء منظرها،
فقال:

﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ كأنه
جمالة صفر، وهي السود التي تضرب
إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن
النار مظلمة، لهبها وجزمها وشرورها،
وأنها سوداء، كريمة المراءى^(١)، شديدة
الحرارة، نسأل الله العافية منها [من
الأعمال المقربة منها].

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾

﴿٣٥ - ٤٠﴾ هذا يوم
لا ينطقون ﴿ولا يؤذن لهم
فيعتذرون﴾ ويل يومئذ للمكذبين *

هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين *
فإن كان لكم كيد فكيدون * ويل
يومئذ للمكذبين * أي: هذا اليوم
العظيم الشديد على المكذبين،
لا ينطقون فيه من الخوف والوجل
الشديد، ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾
أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا:
﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا
معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾.

﴿هذا يوم الفصل جمعناكم
والأولين﴾ لفصل بينكم، ونحكم بين
الخلائق، ﴿فإن كان لكم كيد﴾
تقدرون على الخروج من ملكي،
وتنجون به من عذابي، ﴿فكيدون﴾
أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما
قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن
استطعتم أن تنفذوا من أقطار
السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون
إلا بسلطان﴾.

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل
الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم،
ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم
كذبهم في تكذيبهم ﴿ويل يومئذ
للمكذبين﴾

﴿٤١ - ٤٥﴾ إن المتقين في ظلال
وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا
واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إنا
كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذ
للمكذبين * لما ذكر عقوبة المكذبين،
ذكر ثواب^(٢) المحسنين، فقال: ﴿إن
المتقين﴾ [أي: للتكذيب، المتصفين
بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم
وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا
بأدائهم الواجبات، وتركهم
الحرمان].

﴿في ظلال﴾ من كثرة الأشجار
المتنوعة، الزاهية البهية. ﴿وعيون﴾
جارية من السلسبيل، والرحيق
وغيرهما، ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي:
من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم:
﴿كلوا واشربوا﴾ من المأكول الشهية،

والأشربة اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: من
غير منغص ولا مكدر، ولا يتم
هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب
من كل آفة ونقص، وحتى يجزوا أنه
غير منقطع ولا زائل، ﴿بما كنتم
تعملون﴾ فأعمالكم هي السبب
الموصل لكم إلى هذا النعيم^(٣) المقيم،
وهكذا كل من أحسن في عبادة الله
وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿إنا
كذلك نجزي المحسنين﴾ * ويل يومئذ
للمكذبين * ولولم يكن لهم من هذا
الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفى به
حرماناً وخسراناً^(٤).

﴿٤٦ - ٥٠﴾ كلوا وتمتعوا قليلاً
إنكم مجرمون * ويل يومئذ
للمكذبين * وإذ قيل لهم اركعوا
لا يركعون * ويل يومئذ للمكذبين *
فبأي: حديث بعده يؤمنون * هذا
تهديد ووعد للمكذبين، أنهم وإن
أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا
باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم
مجرمون، يستحقون ما يستحقه
المجرمون، فستقطع عنهم اللذات،
وتبقى عليهم التبعات، ومن إجرامهم
أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف
العبادات، وقيل لهم: ﴿اركعوا﴾
امتنعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب
يزيد على هذا؟!!

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ومن
الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب
التوفيق، ويجرمون كل خير، فإنهم إذا
كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو
أعلى مراتب الصدق واليقين على
الإطلاق.

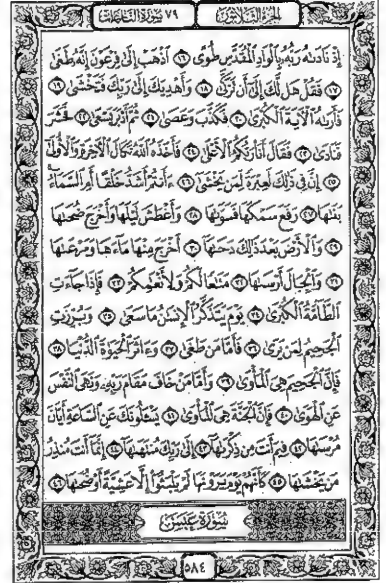
﴿فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾
أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم
عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام
كل مشرك كذاب أفاك ميين؟
فليس بعد النور المبين إلا دياجي

(٤) في ب: حزناً وحرماناً.

(٣) في ب: إلى جنات النعيم.

(١) في ب: كريهة المنظر.

(٢) في ب: ثواب.



جلودهم، ولا ما يدفع ظلمهم.
﴿إلا هيماً﴾ أي: ماء خاراً، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، **﴿وغساقاً﴾** وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية البئس، وكرامة المذاق، وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم ووفقاً على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليهم، لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: **﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾** أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للأخرة.

﴿وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ أي: كذبوا بها تكديباً واضحاً صريحاً وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وكل شيء﴾ من قليل وكثير، وخير وشر **﴿أحصيناه كتاباً﴾** أي: كتبناه ^(٣) في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أننا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: **﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾**.

﴿فذوقوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والحزني الدائم **﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾** وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].

هيماً وغساقاً * جزاء وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاباً * وكل شيء أحصيناه كتاباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويحجده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله **﴿ميقاناً﴾** للخلق **﴿ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾** ويجري فيه من الزعازع والقلال ما يشيب له الوليد، وتنزعج له القلوب، فتبصر الجبال، حتى تكون كالهباء المبثوث، وتشق السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يبور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعددها للطاغين، وجعلها مشوى لهم ومأبأ، وأنهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرة، و **﴿الحق﴾** على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.

وهم إذا وردوها ^(٢) **﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً﴾** أي: لا ما يبرد

﴿٣١-٣٦﴾ **﴿إن للمتقين مفازاً﴾** * حدائق وأعناباً * وكواعب أتراباً * وكأساً دهاقاً * لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً * جزاء من ربك عطاء حساباً * لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال: **﴿إن المتقين مفازاً﴾** أي ^(٤): الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه ^(٥) فلهم مفاز ومنجى، وبُعْد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم **﴿حدائق﴾** وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية، في الشار التي تنفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق.

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس **﴿كواعب﴾**: وهي: النواهد اللاتي لم تنكسر ثديين من شبابهن، وقوتن، ونضارتن ^(٦).

﴿والأتراب﴾: اللاتي على سن واحد مقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب ^(٧).

﴿وكأساً دهاقاً﴾ أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين، **﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾** أي: كلاماً لا فائدة فيه **﴿ولا كذاباً﴾** أي: إثماً.

كما قال تعالى: **﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾** إلا قليلاً سلاماً سلاماً.

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل [من فضله وإحسانه] **﴿جزاء من ربك﴾** لهم **﴿عطاء حساباً﴾** أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها ^(٨).

(١) في ب: وتنشق.

(٢) في ب: فإذا وردوها.

(٣) في ب: أثبتناه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين.

(٥) في ب: عن معصيته.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم ينكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها.

(٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب.

(٨) في ب: وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته.

يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها].

﴿٢٧ - ٣٣﴾ «أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاهها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم» يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لنكري البعث ومستعدي إعادة الله للأجساد:

﴿أنتم﴾ أي البشر «أشد خلقاً أم السماء» ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر «بناها» الله، «رفع سمكها» أي: جرمها وصورتها، «فسواها» بإحكام وإتقان يحير العقول، ويذهل الألباب، «وأغطش ليلها» أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، «وأخرج ضحاها» أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد^(٣) الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿والأرض بعد ذلك﴾ أي: بعد خلق السماء «دحاهها» أي: أودع فيها منافعها.

وفسر ذلك بقوله: «أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها» أي: ثبتها في الأرض.

فدخى الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات [الكريمة].

وأما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى: ﴿قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ إلى أن قال: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا

والأولى * إن في ذلك لعلبرة لمن يخشى﴾ يقول [الله] تعالى لنبيه محمد ﷺ: «هل أتاك حديث موسى» وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه.

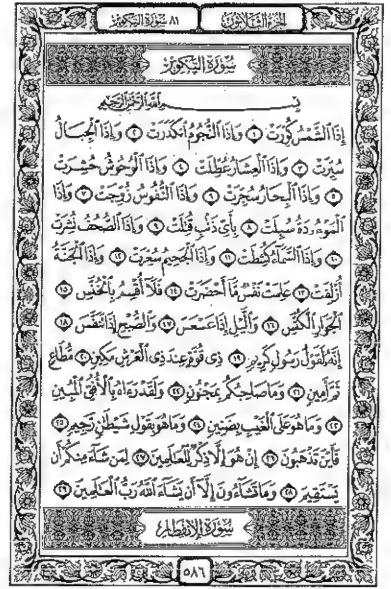
أي: هل أتاك حديثه «إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى» وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء^(١) فقال له: «أذهب إلى فرعون إنه طغى» أي: فانه عن طغيانه وشره وعصيانه، يقول لين، وخطاب لطيف، لعله «يتذكر أو يخشى»

﴿فقل﴾ له: «هل لك إلى أن تزكى» أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه.

﴿فتخشى﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون عما دعاه إليه موسى.

﴿فأراه الآية الكبرى﴾ أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي بتعديدها «فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين» ﴿فكذب﴾ بالحق «وعصى» الأمر، «ثم أدبر يسمي» أي: يمتهد في مبارزة الحق ومحاربته، «فحشر» جنوده أي: جمعهم «فنادى» فقال لهم: «أنا ربكم الأعلى» فاذعنوا له، وأقروا بباطله حين استخفهم، «فأخذه الله نكال الآخرة والأولى» أي: صارت عقوبته^(٢) دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة، «إن في ذلك لعلبرة لمن يخشى» فإن من



وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف [واستولت عليهم] الحسرة.

يقولون أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: «إذا كنا عظاماً نخرة» أي: بالية فنانا.

﴿قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾ أي: استبعدوا أن يعيهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً [منهم] بقدرة الله، وتحزوا عليه.

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: «فإنما هي زجرة واحدة» ينفخ فيها في الصور.

فإذا الخلائق كلهم «بالساهرة» أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويميزهم.

﴿١٥ - ٢٦﴾ «هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * أذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسمي * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة

(١) في ب: وابتعثه بالوحي واجتباء.

(٢) في ب: أي جعل الله عقوبته.

(٣) في ب: فانتشر.

طائعين^(١).

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسن، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزء^(٢)، فقال:

﴿٣٤ - ٤١﴾ «فإذا جاءت الطامة الكبرى * ويرزت الجحيم لمن يرى * فأما من طفئ * وأثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى * أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة، فحيث يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه [وكل يحب عن حبيب]. و «يتذكر الإنسان ما سعى» في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغتم ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

«ويرزت الجحيم لمن يرى * أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد، قد برزت^(٣) لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

«فأما من طفئ * أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

«وأثر الحياة الدنيا» على الآخرة،

فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

«فإن الجحيم هي المأوى» [له] أي: المقر والسكن لمن هذه حاله، «وأما من خاف مقام ربه» أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه. فنهى نفسه عن هواها الذي يقيد^(٤)ها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصاذين عن الخير، «فإن الجنة» [المشتملة على كل خير وسرور ونعيم] «هي المأوى» لمن هذا وصفه.

﴿٤٢ - ٤٦﴾ «يسألونك عن الساعة أتيان مرساها * قيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» أي: يسألك المعتنون المكذبون بالبعث عن الساعة متى وقوعها و «أيان مرساها» فأجابهم الله بقوله: «قيم أنت من ذكراها» أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال: «إلى ربك منتهاها» أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: «يسألونك عن الساعة أتيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغته يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون»^(٥).

«إنما أنت منذر من يخشاها» أي:

إنما نذراتك [نفعها] لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها.

وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه الحكيم عنه [تحت] والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة عبس وهي مكية

﴿١ - ١٠﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى» وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعاً في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال: «عبس» [أي: في وجهه] «وتولى» في بدنه، لأجل مجيء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: «وما يدريك لعله» أي: الأعمى «يزكى» أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

«أو يذكر فتنفعه الذكرى»؟ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل^(٦) بتلك الذكرى.

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات» وصواب ذلك ما أثبت.

(٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزء.

(٣) في ب: هيئت.

(٤) في ب: الذي يصدها.

(٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة (أ) ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأتتمتها.

(٦) في ب: فيتنفع.

الأشجار الكثيرة الملتفة، «وفاكهة وأبنا» الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان، من تين وعنب وخوخ ورماني، وغير ذلك.

والأب: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: «متاعاً لكم ولأنعامكم» التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم، أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل الجهد في الإجابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

﴿٣٣-٤٢﴾ «فإذا جاءت الصاخة» يوم يقر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبه وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه * وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قفرة * أولئك هم الكفرة الفجرة» أي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الأسماح، وتنزع لها الأفتدة يومئذ، مما يرى الناس من الأحوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال، «يفر المرء» من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، «من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبه» أي: زوجته وبنيه * وذلك لأنه «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» أي: قد أشغلت نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحيث ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء، فوجوههم [يومئذ] «مسفرة» أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم، «ضاحكة مستبشرة * ووجوه» الأشقياء «يومئذ عليها غبرة * ترهقها» أي: تغشاها «قفرة» فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خيز، وعرفت شقاءها وهلاكها.

«أولئك» الذين بهذا الوصف «هم الكفرة الفجرة» أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآيات الله، وتجروا على محارمه.

«بأيدي سفرة»: وهم الملائكة الذين هم [السفراء بين الله وبين عباده، كرام] أي: كثيري الخير والبركة، «بررة» قلوبهم وأعمالهم.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال تعالى: «قتل الإنسان ما أكفره» لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه، وسواه بشراً سوياً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

«ثم السبيل يسره» أي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهذه السبيل، [وبينه] وامتنحه بالأمر والنهي، «ثم أماته فأقبره» أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض، «ثم إذا شاء أنشره» أي: بعثه بعد موته للجزاء، فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه هذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهن - مع هذا - لا يقوم بمتامره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكير في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره له، فقال: «فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صبينا الماء صباً» أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة، «ثم شققنا الأرض» للنبات «شقاً * فأنبتنا فيها» أصنافاً مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة، والأقوات الشهية «حياً» وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها، «وعنباً وقضباً» وهو القث، «وزيتوناً ونخلًا» وخض هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها، «وحداثاً غلباً» أي: بساتين فيها

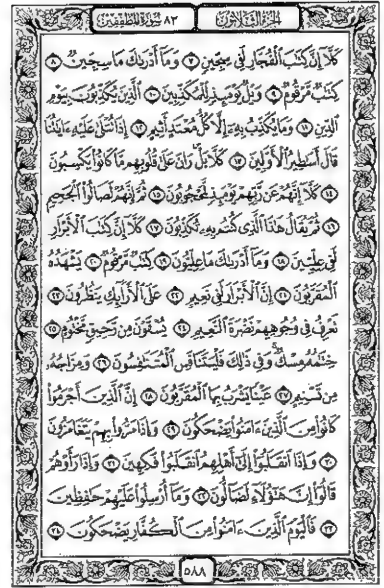
وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فأقبالك على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك منك^(١)، هو الأليق الواجب، وأما تصديقك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة»، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

﴿١١-٣٢﴾ «كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام برة * قتل الإنسان ما أكفره * من أي: شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره * كلا لما يقض ما أمره * فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صبينا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حياً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلًا * وحداثاً غلباً * وفاكهة وأبنا * متاعاً لكم ولأنعامكم» يقول تعالى: «كلا إنها تذكرة» أي: حقاً إن هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذلك «فمن شاء ذكره» أي: عمل به، كقوله تعالى: «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها، فقال: «في صحف مكرمة * مرفوعة» القدر والرتبة «مطهرة» [من الآفاق] عن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي

(١) في ب: مفتقراً لذلك مقبلاً.



لها سيران:

سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك^(١)، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها.

فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم^(٢) الكواكب السيارة وغيرها.

«والليل إذا سمس» أي: أدبر، وقيل: أقبل، «والصبح إذا تنفس» أي: بانت^(٣) علائم الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس، وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن^(٤) وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال: «إنه لقول رسول كريم» وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: «وإنه لتنزيل رب العالمين» نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه،

وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه، «ذي قوة» على ما أمره الله به.

ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فاهلكهم.

«عند ذي العرش» أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها، «مكين» أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

«مطاع ثم» أي: جبريل مطاع في المألا الأعلى، لديه^(٥) من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه، «أمين» أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حُدَّ له، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة. والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل.

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال: «وما صاحبكم» وهو محمد ﷺ «يمجنون» كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال، التي يريدون أن يطفؤوا بها ما جاء به ما شاؤوا وقدروا عليه، بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

«ولقد رآه بالأفق المبين» أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البين، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

«وما هو على الغيب بضنين» أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم

يزيد فيه أو يقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشخ بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأجباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاره أن يكون من تلاميذهم.

«وما هو بقول شيطان رجيم» لما ذكر جلاله كتابه^(٦) وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأنشئ الله عليهما بما أنشئ، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال: «وما هو بقول شيطان رجيم» أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه، «فأين تذهبون» أي: كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون [وأرذل] وأسفل الباطل؟ هل هذا إلا من انقلاب الحقائق.

«إن هو إلا ذكر للعالمين» يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والردائل [والأمثال]، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة، يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

«لمن شاء منكم أن يستقيم» بعدما

(١) في ب: مع سائر الكواكب والفلك.

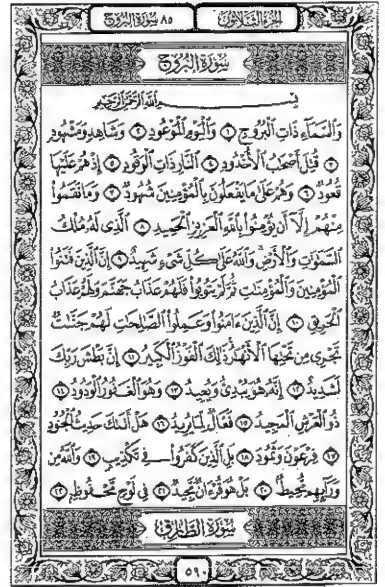
(٢) في ب: الكواكب.

(٣) في ب: بدت.

(٤) في ب: أقسم الله عليها لقوة سند القرآن.

(٥) في ب: لأنه.

(٦) كذا في ب، وفي أ: جلالته.



تفسير سورة المطففين وهي مكية (١)

١٦ - ٦ * **بسم الله الرحمن الرحيم**
ويل للمطففين * الذين إذا اكْتَالُوا على
الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو
وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك
أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم
يقوم الناس لرب العالمين * **ويل** *
كلمة عذاب، ووعد (٢) * **للمطففين** *
وفسر الله المطففين بقوله (٣) * **الذين إذا**
اكْتَالُوا على الناس * أي: أخذوا منهم
وفاء عما ثبت لهم قبلهم يستوفونه
كاملاً من غير نقص.
«وإذا كالوهم أو وزنوههم» أي:
إذا أعطوا الناس حقهم، الذي
لِلنَّاسِ (٤) عليهم بكيل أو وزن،
«يخسرون» أي: ينقصونهم ذلك، إما
بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء
المكيال والميزان، أو نحو ذلك، فهذا
سرقة [لأموال] الناس (٥)، وعدم
إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعد (٦) على الذين
يبخسون الناس بالمكيال والميزان،
فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة،

أولى بهذا الوعيد من المطففين.
ودلت الآية الكريمة، على أن
الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له،
يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من
الأموال والمعاملات، بل يدخل في
[عموم هذا] (٧) الحجج والمقالات، فإنه
كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن
كل واحد [منهما] يحرص على ما له من
الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما
لخصمه من الحجج (٨) [التي
لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه
كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا
الموضع يعرف إنصاف الإنسان من
تعصبه واعتساده، وتواضعه من كبره،
وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق
لكل خير.

ثم تواعد تعالى المطففين، وتعجب
من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه،
فقال: **«ألا يظن أولئك أنهم**
مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم
الناس لرب العالمين» فالذي جزأهم
على التطفيف عدم إيمانهم باليوم
الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم
يقومون بين يدي الله، يحاسبهم (٩) على
القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك
وتابوا منه.

٧ - ١٧ * **«كلا إن كتاب الفجار**
لفي سجين * وما أدراك ما سجين *
كتاب مرقوم * ويل يومئذ
للمكذابين * الذي يكذبون بيوم
الدين * وما يكذب به إلا كل معتد
أثيم * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير
الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما
كانوا يكسبون * كلا إنهم عن ربهم
يومئذ لمحيوبون * ثم إنهم لصالوا
الجحيم * ثم يقال هذا الذي كنتم به
تكذبون» يقول تعالى: **«كلا إن كتاب**
الفجار» [وهذا شامل لكل فاجر] من
أنواع الكفرة والمنافقين، والفاستقين

«لفي سجين» ثم فسر ذلك بقوله:
«وما أدراك ما سجين * كتاب
مرقوم» أي: كتاب مذكور فيه
أعمالهم الخبيثة، والسجين: المحل
الضيق الضنك، و «سجين» ضد
«عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار،
كما سيأتي.

وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل
الأرض السابعة، مأوى الفجار
ومستقرهم في معادهم.

«ويل يومئذ للمكذابين» ثم بين
المكذبين بأنهم **«الذين يكذبون**
بيوم الدين» أي: يوم الجزاء، يوم
يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

«وما يكذب به إلا كل معتد على
محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

«أثيم» أي: كثير الإثم، فهذا
الذي يحمله عدوانه على التكذيب،
ويحمله [عدوانه على التكذيب ويوجب
له] كبره رد الحق، ولهذا **«إذا تتلى عليه**
آياتنا» الدالة على الحق، و [على]
صدق ما جاءت به رسله، كذبا
وعاندها، **«وقال»**: هذا **«أساطير**
الأولين» أي: من ترهات المتقدمين،
وأخبار الأمم الغابرين، ليس من
عند الله تكبراً وعناداً.

وأما من أنصف، وكان مقصوده
الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم
الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة
القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله
حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل
الشمس للأبصار (١٠)، بخلاف من ران
على قلبه كسبه، وغطته مغاضيه، فإنه
محبوب عن الحق، ولهذا جوزي على
ذلك، بأن حجب عن الله، كما
حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله،
«ثم إنهم» مع هذه العقوبة البليغة
«لصالوا الجحيم» ثم يقال لهم توبيخاً

(١٠) في ب: ثم يبينهم بقوله.

(١١) في ب: وصار لبصائرهم بمنزلة
الشمس للأبصار.

(٦) في ب: وعيناً.

(٧) في ب: يدخل في ذلك.

(٨) في ب: الحجة.

(٩) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله
فيحاسبهم.

(١) في ب: وهي مدنية.

(٢) في ب: وعقاب.

(٣) في ب: بأنهم.

(٤) في ب: لهم.

(٥) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس.

وجزاء المؤمنين^(٤)، و [ذكر] ما ينهوا من التفات العظم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهنزون بهم، ويضحكون منهم، ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، اختقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف على بالهم، **﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم﴾** صباحاً أو مساءً **﴿انقلبوا فكهي﴾** أي: مسرورين مغتبتين^(٥)، وهذا من أعظم^(٦) ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن^(٧) في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجوراً على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: **﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾** أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين لمزين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على ريمهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم، قال تعالى: **﴿فاليوم﴾** أي: يوم القيامة، **﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾** حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفكرون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة **﴿على الأرائك﴾** وهي السرر المزينة، **﴿ينظرون﴾** إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟

فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم^(٨) في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم، **﴿تعرف﴾** أيها الناظر إليهم **﴿في وجوههم نضرة النعيم﴾** أي: بهاء النعيم^(٩) ونضارته ورونقه، فإن توالي اللذة والسرور^(١٠)، يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجة.

﴿يسقون من رحيق﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة والأذها، **﴿مختوم﴾** ذلك الشراب، **﴿ختامه مسك﴾** يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك.

ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة، **﴿وفي ذلك﴾** النعيم المقيم، الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله، **﴿فليتنافس المتنافسون﴾** أي: يتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه، فهذا أول ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأخرى ما تراجعت للوصول إليه فحول الرجال.

﴿٢٧-٢٨﴾ ومزاج هذا الشراب من تسنيم، وهي عين **﴿يشرب بها المقربون﴾** صرفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، ومموجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿٢٩-٣٦﴾ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهي * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وما أرسلوا عليهم حافظين * فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون * لما ذكر تعالى جزاء المجرمين

وتقريعاً: **﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾** فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبخ، واللوم.

وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغويه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا من بعض^(١١) عقوبات الذنوب.

﴿١٨-٢٧﴾ **﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾** وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها، وأفسحها وأن كتابهم المرقوم **﴿يشهده المقربون﴾** من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء، ويُنوّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى، و **﴿عليون﴾** اسم لأهل الجنة، فلما ذكر كتابهم، ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن، **﴿على الأرائك﴾** أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسن.

﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من

(٦) في ب: وهذا أشد.

(٧) في ب: مع الأمن.

(٨) في ب: حين رأوهم.

والمسرات والأفراح.

(٤) في ب: المحسنين.

(٥) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين.

(١) في ب: من أعظم.

(٢) في ب: أي بهاء.

(٣) في ب: فإن توالي اللذات

نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق وهي مكية

﴿١٥-١﴾ **بسم الله الرحمن الرحيم إذا السماء انشقت * وأدنت لربها وحقت * وإذا الأرض مدت * وألقت ما فيها وتخلت * وأدنت لربها وحقت * يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثوراً * ويصلى سعيراً * إنه كان في أهله مسروراً * إنه ظن أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيراً** يقول تعالى مبيناً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إذا السماء انشقت﴾ أي: انقطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها.

﴿وأدنت لربها﴾ أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاحت لخطابه، وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومددها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صافصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً.

﴿وألقت ما فيها﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وتخلت﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجهه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون

على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وأدنت لربها وحقت﴾ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل إن كنت سعيداً، أو بالعدل إن كنت شقيماً^(١).

ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وهم أهل السعادة.

﴿٨﴾ **فسوف يحاسب حساباً يسيراً** وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى] له: ﴿إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا سترها لك اليوم﴾.

﴿وينقلب إلى أهله﴾ في الجنة ﴿مسروراً﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالشواب، ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ أي: بشماله من خلفه^(٢).

﴿فسوف يدعو ثوراً﴾ من الحزني والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا ﴿كان في أهله مسروراً﴾ لا يخطر البعث على باله، وقد أساء، ولم^(٣) يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿١٦-٢٥﴾ **فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقاً عن طبق * فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكتفون * والله أعلم بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم * إلا**

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس، الذي هو مفتتح الليل، ﴿والليل وما وسق﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها، ﴿والقمر إذا اتسق﴾ أي: امتلاً نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لتركبن﴾ [أي]: أيها الناس ﴿طبقاً عن طبق﴾ أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً، ثم ميمراً، ثم يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم، ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي: لا يخضعون للقرآن، ولا يتقادون لأوامره ونواهيه، ﴿بل الذين كفروا يكتفون﴾ أي: يعاندون الحق بعدما تين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً، لا حيلة فيه، ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ أي: بما يعملونه وينوونه سراً، فالله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشرية سروراً أو غماً.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان [به].

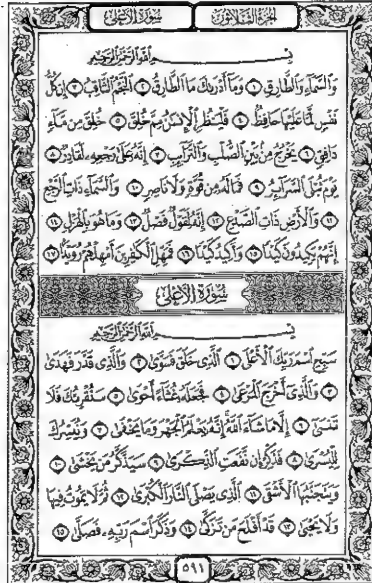
ومن الناس فريق هداهم الله، فأمنوا بالله، وقبلوا ما جاءهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أي: غير

(١) في ب: جزاء بالفضل أو العدل، بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعقوبة إن كنت شقيماً.

(٢) في ب: من وراء ظهره.

(٣) في ب: ولا.



العزة التي فخر بها كل شيء، وهو حيد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

«الذي له ملك السماوات والأرض» خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه^(٣)، «والله على كل شيء شهيد» علماً وسمعاً وبصراً، أفلا خاف هؤلاء المتمردين على الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم عماليك لله^(٤)، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجاز لهم على فعالهم^(٥)؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى^(٦) عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: «إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق» أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه

لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد.

«وشاهد ومشهود» وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أي: مُبْصِر ومُبْصَر، وحاضر ومحضور، وراء ومزني.

والمقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة، وقيل: إن المقسم عليه قوله: «قتل أصحاب الأخدود» وهذا دعاء عليهم بالهلاك. و «الأخدود»: الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قوماً كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فرادوهم للدخول^(١) في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدوداً [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: «قتل أصحاب الأخدود» ثم فسر الأخدود بقوله: «النار ذات الوقود» إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إقائهم فيها، والحال أنهم ما تقموا من المؤمنين إلا خصلة^(٢) يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له

مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

تم تفسير السورة والله الحمد

تفسير سورة البروج وهي مكية

﴿١- ٢٢﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير * إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدى ويعيد * وهو الشفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ * والسماء ذات البروج * أي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

«واليوم الموعود» وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي

(١) في ب: على الدخول.

(٢) في ب: حالة.

(٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء.

(٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتمردين عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم عماليك لله.

(٥) في ب: مجازيهم عليها.

(٦) في ب: والجاهل في عمى وضلال.

والله لا معاون لإرادته، ولا مانع له مما أراد.

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين، ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجدي لديهم العظات، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أي: قد أحاط بهم علماً وقدره، كقوله: ﴿إِنْ رِبِّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ ففيه الوعيد الشديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره. ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم، ﴿فِي لُوحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة

تفسير سورة الطارق وهي مكية

﴿١- ١٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النُّجُومُ الثَّاقِبُ * إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصُّدُوعِ * إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُويًا﴾ يقول [الله] تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النُّجُومُ

ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها، كانت عذاباً على أهلها، وهو تعالى الودود، الواؤد لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فله الحمد والشناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه! ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر، يكون «المجيد» نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع، فإن «المجيد» نعت لله^(٣)، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿فَعَالٌ لَمَّا يَرِيدُ﴾ أي: مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وليس أحد فعلاً لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئاً، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع،



وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة. ولما ذكر عقوبة الظالمين، ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذي حصل به الفوز^(١) برضا الله ودار كرامته.

﴿إِنْ يَبْطِشْ رَبُّكَ لِشَيْءٍ﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام [لقوية] شديدة، وهو بالمرصاد للظالمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيَعِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك^(٢)، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفروها وأناب.

﴿الْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب،

(١) في ب: حصل لهم الفوز.

(٢) في ب: فلا يشاركه في ذلك مشارك.

(٣) في ب: فإنه يكون نعتاً لله.



وتصير الأمور علانية، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ يَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾^(٢)، ﴿وَلَا نَاصِرَ خَارِجِي﴾^(٣) ينتصر به، فهذا الْقَسْمُ على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

ثم أقسم قسماً ثانياً على صحة القرآن، فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّدْعِ﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأقدار والشؤون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلٍ فَصْلٍ﴾ أي: حق وصدق، يَبَيِّنُ واضح.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفضل بين الطوائف والمقاتلات، وتنفصل به الخصومات.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المكذابين للرسول ﷺ، وللقرآن ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل، ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإن الآدمي أضعف وأحققر من أن يغالب القوي العليم في كيد، ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوِيدًا﴾ أي: قليلاً، فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة سبح وهي مكية

﴿١٩-١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَ ثَغَاءَ أَحْوَى * سَتَقَرْنُكُ فَلَا تُنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى *﴾

الشاقب ﴿أي: المضيء، الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات﴾ فينفذ حتى يرى في الأرض، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب. وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها^(١)، فيرى منها.

وسمي طارقاً، لأنه يطرق ليلاً، والمقسم عليه قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: فليستدبر خلقته ومبدأه، فإنه خلوق ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب. يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها. ويحتمل أن المراد المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس [به] ويشاهد دفته، هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل، بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أردت الأنثى، لقال: ﴿مِنْ بَيْنِ الصَّلبِ وَالثَّديين﴾، ونحو ذلك، والله أعلم.

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزاء]، وقد قيل: إن معناه، أن الله على رجح الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهذا - وإن كان المصنى صحيحاً - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ففي الدنيا، تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للناس، وأما في القيامة، فيظهر برُّ الأبرار، وفجور الفجار،

ونيسرك لليسرى * فذكر إن نفعت الذكرى * سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيا * قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصل * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى * يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنی العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم^(٤)، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي: أتقنها وأحسن خلقها، ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهْدَى﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي: أنزل من السماء ماء فأنبث به أنواع^(٥) النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان^(٦)، ثم بعد أن

(١) في ب: وينفذها.

(٣) في ب: من خارج.

(٥) في ب: أصناف.

(٤) في ب: بمعناها العظيم الجليل.

(٦) في ب: وجميع الحيوانات.

(٢) في ب: أي من نفسه يدفع بها



المنقص المكدر الترائل على الآخرة،
[والآخرة خير وأبقى] وللاخرة

خير من الدنيا في كل وصف مطلوب،
وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء،
والدنيا دار فناء، فالؤمن العاقل
لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع
لذة ساعة، بترحة الأبد، فحب الدنيا
وإثارها على الآخرة رأس كل خطيئة،

﴿إن هذا﴾ المذكور لكم في هذه السورة
المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار
المتحسنة ﴿لפי الصحف الأولى﴾
صحف إبراهيم وموسى اللذين هما
أشرف المرسلين، سوى النبي محمد
صل الله عليه وسلم.

فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها
عائدة إلى مصالح الدارين، وهي
مصالح في كل زمان ومكان.

تم تفسير سورة سيع، والله الحمد

تفسير سورة الغاشية وهي مكية

﴿١٦-١٧﴾ بسم الله الرحمن
الرحيم هل أتاك حديث الغاشية *
وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة *
تصلى نارا حامية * تسقى من عين
آنية * ليس لهم طعام إلا من ضريع *
لا يسمن ولا يغني من جوع * وجوه
يومئذ ناعمة * لسمعها راضية * في
جنة عالية * لا تسمع فيها لأغية *
فيها عين جارية * فيها سرر
مرفوعة * وأكواب موضوعة *
ونمارق مصفوفة * وزرابي مشوطة *
يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها
من الأحوال الطائفة، وأنها تغشى
الخلائق بشدائدها، فيجازون
بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين:
فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

حصل من الذكرى جميع المقصود أو
بعضه.

ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع
الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في
الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن
الذكرى مأموراً بها، بل منهاياً عنها،
فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين:
منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون، فقد ذكرهم بقوله:
﴿سيدذكر من يخشى﴾ الله تعالى، فإن
خشية الله تعالى، وعلمه بأن سيجازيه
على أعماله^(٥)، توجب للعبد الانكفاف
عن المعاصي^(٦) والسعي في الخيرات.

وأما غير المنتفعين، فذكرهم بقوله:
﴿وتجنبها الأشقى﴾ الذي يصلى النار
الكبرى، وهي النار الموقدة، التي تطلع
على الأنفذة، ﴿ثم لا يموت فيها
ولا يحيى﴾ أي: يعذب عذاباً أليماً،
من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم
يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال
تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا
ولا يخفف عنهم من عذابها﴾.

﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي: قد فاز
وربح من طهر نفسه ونقاها من الشر
والظلم ومساوئ الأخلاق، ﴿وذكر
اسم ربه فصلى﴾ أي: اتصف
بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له
ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً
الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا
معنى الآية الكريمة، وأما من فسر
قوله: ﴿تزكى﴾ بمعنى أخرج زكاة
الفطر، وذكر اسم ربه فصلى، أنه صلاة
العيد، فإنه وإن كان داخلاً في اللفظ
وبعض جزئياته، فليس هو المعنى
وحده.

﴿بل تؤثر الحياة الدنيا﴾ أي:
تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها

استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى
نباته، ووضوح عشب، ﴿فجعلهم غشاء
أحوى﴾ أي: أسود أي: جعله هشياً
رميماً، ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا
امتن الله بأصلها ومنشأها^(١)، وهو
القرآن، فقال: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾
أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من
الكتاب، ونوعيه قلبك، فلا تنسى منه
شيئاً، وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده
ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه
علماً لا ينساه، ﴿إلا ما شاء الله﴾ مما
اقتضت حكمته أن ينسكه لمصلحة
بالغة، ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾
ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي:
فلذلك يُشرع ما أراد، ويحكم بما
يريد^(٢)، ﴿ونيسرك لليسرى﴾ وهذه
أيضاً بشارة كبيرة^(٣)، أن الله يسر
رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره،
ويجعل شرعه ودينه يسراً^(٤).

﴿فذكر﴾ بشرع الله وآياته ﴿إن
نفعت الذكرى﴾ أي: ما دامت الذكرى
مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء

(١) في ب: ومادتها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد.

(٣) في ب: أخرى.

(٤) كذا في ب، وفي أ: يسيراً.

(٥) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال.

(٦) في ب: الانكفاف عما يكرهه الله.

(٧) في ب: بعد.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار: ﴿ووجوه يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خاشعة﴾ من الذل والفضيحة والحزي.

﴿عاملة ناصبة﴾ أي: تابعة في العذاب، تجرُّ على وجوهها، وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله]: ﴿ووجوه يومئذ خاشعة﴾ عاملة ناصبة في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباءً منثوراً، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها^(١)، ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تصلى ناراً حامية﴾ أي: شديداً حرها، تحيط بهم من كل مكان، ﴿تسقى من عين آتية﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ فهذا شراهم.

وأما طعامهم، فـ ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ لا يسمن ولا يغني من جوع، وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخساسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير، فوجوههم يوم

القيامة ﴿ناعمة﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور، ﴿لسعيها﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله، ﴿راضية﴾ إذ وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً، فحمدت عقيده، وحصل لها كل ما تتمناه، وذلك أنها ﴿في جنة﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عالية﴾ في محلها ومنزلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنزلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿تظوفها داتية﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول، بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لا تسمع فيها﴾ أي: الجنة ﴿لاغية﴾ أي: كلمة لغو وباطل، فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى، وذكر نعمه المتواترة عليهم، و [على] الآداب المستحسنة^(٢) بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب، ويشرح الصدور.

﴿فيها عين جارية﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا، وأنى أرادوا.

﴿فيها سرور مرفوعة﴾ و «السرور» جمع «سرير»، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطنية.

﴿وأكواب موضوعة﴾ أي: أوإن ممثلة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم،

يطرف بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿ونمارق مصفوفة﴾ أي: وسائد من الحرير والاستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والالتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويصقوها بأنفسهم.

﴿١٦﴾ ﴿وزرائي مبثوثة﴾ والزراي [هي]: البسط الحسنان، مبثوثة أي: مملوءة بها بمجالسهم من كل جانب.

﴿١٧ - ٢٦﴾ ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ وإلى السماء كيف رفعت ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ وإلى الأرض كيف سطحت ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ لست عليهم بمضطر ﴿إلا من تولى وكفر﴾ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴿إن إلنا إياهم﴾ ثم إن علينا حسابهم ﴿يقول تعالى حقاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحده: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذلكلها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ ببيتة باهرة، حصل بها استقرار الأرض^(٣) وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي: مدت مدأً واسعاً، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلاق^(٤) على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنين فيها، وسلوك الطرق الموصلة^(٥) إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك

(١) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

(٢) في ب: الحسنة.

(٣) في ب: الاستقرار للأرض.

(٤) في ب: العباد.

(٥) في ب: طرقها.

الشديدة، والعتو والتجبر، ﴿التي لم يخلق مثلها﴾ أي: مثل عاد ﴿في البلاد﴾ أي: في جميع البلدان ﴿في القوة والشدّة﴾، كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿وتمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ أي: وادي القرى، نحنوا بقتوم الصخر، فاتخذوها مساكن، ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ أي: [ذي] الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما ثبتت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وأذا عباد الله، في دينهم ودنياهم، ولهذا قال: ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً وسوط عذاب، ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ لمن عصاه (٥) يمهله قليلاً، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿١٥ - ٢٠﴾ ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن﴾ وأما إذا ما ابتلاه فقدّر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴿كلا بل لا تكرمون اليتم﴾ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴿وتأكلون الثراث أكلاً لماً﴾ وتحبون المال حباً جماً ﴿يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا ﴿قدر عليه رزقه﴾ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله

واقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر (٤) لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها، صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما رزى الشيطان أحقر ولا أدر منه في يوم عرفة، لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة، مستحقة لأن يقسم الله بها.

﴿والليل إذا يسر﴾ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمثون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿هل في ذلك﴾ المذكور ﴿قسم لذي حجر﴾ أي: [لذي] عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٦ - ١٤﴾ ﴿ألم تركب فعل ربك يعاد﴾ أرم ذات العماد ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ الذين طغوا في البلاد ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿إرم﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذات العماد﴾ أي: القوة

النقل والعقل والحس والملاحظة، كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيط إنما يتأفي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة (٢)، فيكون كروياً مسطحاً، ولا يتأني الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ أي: ذكر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشّرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم، مسلطاً موكلاً بأعمالهم، فإذا قتت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ فذكر القرآن من يخاف وعيد.

وقوله: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ أي: الشديد الدائم، ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي: رجوع الخلق (٣) وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفجر وهي مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والفجر﴾ وليال عشر ﴿والشفع والوتر﴾ والليل إذا يسر ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمراً ظاهراً مهُمّاً، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل

(١) في ب: كثير.

(٢) في ب: الخلائق.

(٥) في ب: لمن يعصيه.

(٢) في ب: الذي هو كبير جداً واسع.

(٤) في ب: وأنه تعالى هو المدبر.

له، فرد الله عليه هذا الحساب: بقوله ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل من نَعَّمْتُهُ في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق، ابتلاء من الله، وامتحان يمتحن به العباد، ليري من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك فينقله إلى العذاب الويل.

وأيضاً، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه. فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحَاضِرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لا يحضر بعضكم بعضاً على إطعام المحاويع من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثُ﴾ أي: المال المخلف ﴿أَكْلَالًا﴾ أي: ذريعاً، لا تقون على شيء منه.

﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا﴾ أي: كثيراً شديداً، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَوَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تَحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

﴿٢١ - ٣٠﴾ ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ يقول يا ليتني قدمت حياتي ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَمْدُحُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ ولا يوثق وثاقه أحد ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ ارجعي إلى ربك واضية مرضية ﴿فَادْخُلِي فِي

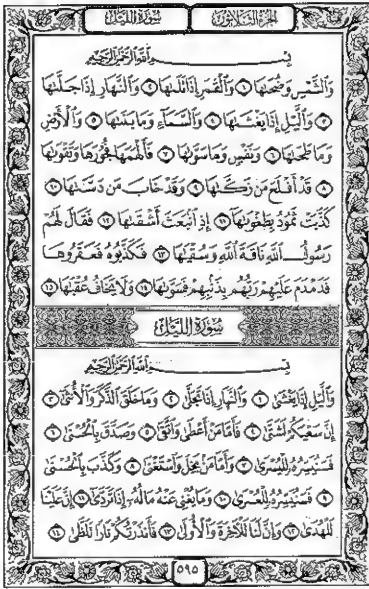
عبادي﴾ وادخلي جنتي ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس [كل] ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللذات، بياق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعاً صافصفاً لا عوج فيه ولا أمت.

ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم، صفاً صفاً أي: صفاً بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفاً، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار، ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل.

فإذا وقعت هذه الأمور ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ فقد فات أوانها، وذهب زمانها، يقول متحسراً على ما فرط في جنب الله: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدِمْتُ حَيَاتِي﴾ الدائمة الباقية، عملاً صالحاً، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يا ويلتي ليتني لم آخذ فلاناً خليلاً.

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها^(١)، وفي تميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَمْدُحُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له، ﴿وَلَا يُوَثِّقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين، وأما من اطمأن إلى الله وآمن به وصدق رسله، فيقال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة [إلى] حبه، التي قرت عينها بالله. ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ الذي رباك بتعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من



أوليائه وأحبابه ﴿واضية مرضية﴾ أي: راضية عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وادخلي جنتي ﴿وهذا مخاطب به الروح يوم القيامة، ومخاطب به في حال الموت^(٢) [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد^(٣) مكية

﴿١ - ٢٠﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد * والليد وما ولد * لقد خلقنا الإنسان في كبد * ألمحسب أن لن يقدر عليه أحد * يقول أهلكت ما لا ليدي * ألمحسب أن لم يره أحد * ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين * فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة * أولئك أصحاب اليمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة ﴿بهذا البلد﴾

(٣) في ب: سورة البلد.

(٢) في ب: وقت السياق والموت.

(١) في ب: السعي في كمالها



فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجذبهم داعياً ولا نجياً.

﴿فسواها﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة^(٦) ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي: تبعها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت لله الحمد

تفسير سورة الليل وهي مكية

﴿١- ٢١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سميعكم لشنئى فأمّا من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فستيسره للميسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فستيسره للميسرى إن علينا للمهدي وإن لنا للأخرة والأولى فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصالها إلا الأشقي الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزي * إلا ابتغاء

قد مدت من ورائها، لثلاث تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة [والحمد لله].

تفسير سورة الشمس وضحاها وهي مكية

﴿١- ١٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فأنزلها فنجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها كذبت ثمود بطغواها إذ أنبعث أشقاهما فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة، على النفس المقلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال:

﴿والشمس وضحاها﴾ أي: نورها، ونفعا الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أي: جلى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً. فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام^(١) لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه قباطل. ﴿والسماء وما بناها﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبنائها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنائها، الذي هو غاية ما يقدر من الأحكام والإتقان والإحسان، ونحو ذلك قوله: ﴿والأرض وما طحاها﴾ أي: مداها ووسعها، فتمكن

وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقة بالإقسام بها^(٢)، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل [والحركة] والتغير والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه^(٣) آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وقد خاب من دساها﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالردائل، والدنو من العيوب والافتراق للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسها.

﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعتوها على رسل الله^(٤)، ﴿إذ أنبعث أشقاهما﴾ أي: أشقى القبيلة، [وهو] «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمره فأقر لهم.

﴿فقال لهم رسول الله﴾ صالح عليه السلام مخذراً: «ناقة الله وسقياها» أي: احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بشتى لبنها أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحاً فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴿عقباها﴾ أي: دمر عليهم وعصمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من

﴿والشمس وضحاها﴾ أي: نورها، ونفعا الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أي: جلى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً.

فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام^(١) لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه قباطل.

﴿والسماء وما بناها﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبنائها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنائها، الذي هو غاية ما يقدر من الأحكام والإتقان والإحسان، ونحو ذلك قوله: ﴿والأرض وما طحاها﴾ أي: مداها ووسعها، فتمكن

(٥) في ب: على رسولهم.

(٦) في ب: في العقوبة.

(٣) في ب: يحق الإقسام بها.

(٤) في ب: على ما هي عليه.

(١) كذا في ب، وفي أ: وانتظام.

(٢) في ب: أوجه.

العقائد الحسنة، ﴿فستيسره للعسرى﴾ أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

﴿وما يغني عنه ماله﴾ الذي أطغاه واستغنى به، وبخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح^(٤).

وأما ماله [الذي لم يخرج منه الواجب] فإنه يكون وبلاً عليه، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئاً.

﴿إن علينا للهدى﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه، يوصل إلى الله، ويؤدي من رضاه، وأما الضلال، فطريق مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ ملكاً وتصرفاً، ليس له فيهما مشاركون، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين، ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾ أي: تستعر وتتوقد، ﴿لا يصلاحها إلا الأشقي﴾ الذي كذب بالخبر ﴿وتولى﴾ عن الأمر.

﴿وسيجزيها الأتقى﴾ الذي يؤتي ماله يتزكى، بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب^(٥)، قاصداً به وجه الله تعالى، فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأها،

بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي له^(٦) ببقائه، ويتنفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها، ويضمحل باضمحلالها؟

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى، بهذا الوصف، ولهذا فصل الله تعالى العاملين، ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فأما من أعطى﴾ [أي] ما أمر به من العبادات المالية، كالزكوات، والكفارات، والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة، والصوم ونحوهما.

والركبة منهما، كالحج والعمرة، [ونحوهما] ﴿واتقى﴾ ما نهي عنه، من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وصدق بالحسنى﴾ أي: صدق بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه، من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فستيسره للعسرى﴾ أي: تسهل عليه أمره، ونجعله ميسراً له^(٧) كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وأما من بخل﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿واستغنى﴾ عن الله، فترك عيوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى زبها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه، ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من



وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿والليل إذا يغشى﴾ [أي: يعم] الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب، والنهار إذا تجلى للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ إن كانت «ما» موصولة، كان إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه^(٨) خالق الذكور والإناث، وإن كانت مضدنية، كان قسمياً بخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكراً وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ هذا [هو] المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها المكلفون لتفاوت تفاوتاً كثيراً، وذلك

(١) في ب: بكونه.

(٢) في ب: العمل له.

(٣) في ب: أي يسر له أمره، ونجعله سهلاً عليه.

(٤) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح.

(٥) في ب: والأدناس..



رباك ورعاك، بل لم يزل يريك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وما قلا﴾ ك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفى الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً، إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج^(٢) الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبل، فقال: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي^(٣)، ويمكن له الله دينه، وينصره على أعدائه، ويسدد له أحواله، حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل^(٤) إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنعم، وقرة العين، وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله^(٥) [الخاصة] فقال: ﴿ألم يبدك يتيماً فأوى﴾ أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيدته الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووقفك لأحسن الأعمال والأخلاق.

وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبداً لله، لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقي^(١) عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهذه الآية، وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن الله ورسوله المنة على كل أحد، منه لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿إلا ابتغاء وجهه ربه الأعلى﴾ * ولسوف يرضى * هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الضحى وهي مكية

﴿١- ١١﴾ * بسم الله الرحمن الرحيم والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فأوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث * أقسم تعالی بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا سجد وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ

﴿ووجدك عائلاً﴾ أي: فقيراً ﴿فأغنى﴾ بما فتح الله عليك^(١) من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وأواك ونصرك وهذاك، قابل نعمته بالشكران.

[ولهذا قال]: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي: لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، وأصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

(٧) في ب: لا يصدر منك كلام للسائل.

(٤) في ب: ما وصل.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الأحوال.

(٦) في ب: فأغناك الله بما فتح عليك.

(١) في ب: بقيت.

(٢) في ب: درجات.

(٣) في ب: درجات.

فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك تمت والله الحمد.

تفسير سورة التين وهي مكية

﴿١-٨﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والتين والزيتون * وطور سين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين * ﴿التين﴾ هو التين المعروف، وكذلك ﴿الزيتون﴾ أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿وطور سين﴾ أي: طور سيناء، محل نبوة موسى ﷺ، وهذا البلد الأمين * وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد ﷺ. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات (١) وأشرفها.

والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً أو باطناً شيئاً، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللغو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسفل الأمور، وسفاسف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين أي: أسفل النار، موضع العصابة المتمردين على ربهم، إلا من آمن بالله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فلهم﴾

﴿الذي أنقض﴾ أي: أنقل ﴿ظهيرك﴾ كما قال تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾. ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الشئاء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان والإقامة والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلی الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جرى نبياً عن أمته.

وقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً ﴿بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخبره، كما قال تعالى: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً».

وتعريف «العسر» في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير «اليسر» يدل على تكراره، قلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له.

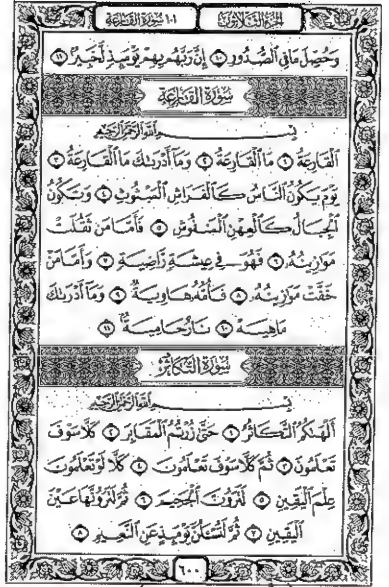
ثم أمر الله رسوله أصلاً، والمؤمنين تبعاً، بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي: إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوق، فاجتهد في العبادة والدعاء.

﴿وإلى ربك﴾ وحده ﴿فارغب﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عبادتك (١).

ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿فإذا

(٢) في ب: أفضل الأنبياء وأشرفهم.



﴿وأما بنعمة ربك﴾ [وهذا يشمل] النعم الدينية والدنيوية ﴿فحدث﴾ أي: أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك وهي مكية

﴿١-٨﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهيرك * ورفعنا لك ذكرك * فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب * يقول تعالى - مختصاً على رسوله -: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: توسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقاً حرجياً، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطاً.

﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي: ذنبك

(١) في ب: دعواتك.



فامتنع، وقال: «ما أنا بقارىء» فلم يزل به حتى قرأ. فأنزل الله عليه: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾** عموم الخلق، ثم خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه **﴿من علق﴾** فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يديره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسول إليهم^(١)، وإنزال الكتب عليهم، ولهذا ذكر^(٢) بعد الأمر بالقراءة، خلقه^(٣) للإنسان.

ثم قال: **﴿اقرأ وربك الأكرم﴾** أي: كثير الصفات واسمها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم^(٤). و **﴿علم بالقلم﴾** علم الإنسان ما لم يعلم فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وسر له أسباب العلم. فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم، فله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرון لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق، ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً، طغى وبغى، وتحير عن الهدى، ونسى أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان. يقول الله لهذا المتمرّد العاني: **﴿أرأيت﴾** أيها الناهي للعبد إذا صلى **﴿إن كان﴾** العبد المصلي **﴿على الهدى﴾** العلم بالحق والعمل به، **﴿أو أمر﴾** غيره **﴿بالتقوى﴾**.

فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادّة لله والمحادّة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

بذلك المنازل العالية، و **﴿أجر غير ممنون﴾** أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبداً لا يزول، ونعيم لا يحوّل، أكلها دائم وظلها، **﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾** أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفري شيء مما أخبرك به، **﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾** فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يشابون ولا يعاقبون؟

أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون. تمت والله الحمد.

تفسير سورة اقرأ [وهي] مكية

﴿١-١٩﴾ **﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾** خلق الإنسان من علق **﴿اقرأ وربك الأكرم﴾** الذي علم بالقلم **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾** كلا إن الإنسان ليطغى **﴿أن رآه استغنى﴾** إن إلى ربك الرجعى **﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾** **﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾** أو أمر بالتقوى **﴿أرأيت إن كذب وتولى﴾** ألم يعلم بأن الله يرى **﴿كلا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية﴾** ناصية كاذبة خاطئة **﴿فليدع ناديه﴾** سندع الزبانية **﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾** هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ.

فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ،

﴿أرأيت إن كذب﴾ الناهي بالحق، **﴿وتولى﴾** عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ **﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾** ما يعمل ويفعل؟

ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: **﴿كلا لئن لم ينته﴾** عما يقول ويفعل **﴿لنسفن بالناصية﴾** أي: لتأخذن بناصره، أخذاً عنيفاً، وهي حقيقة بذلك، فإنها **﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾** أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

﴿فليدع﴾ هذا الذي خلق عليه العقاب^(٥) **﴿ناديه﴾** أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليعينه على ما نزل به، **﴿سندعوا الزبانية﴾** أي: خزنة جهنم، لأخذ عقوقته، فلينظر أي: الفريقتين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعده به من العقوبة، وأما حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغي إلى هذا الناهي ولا يتقاد لنهيه، فقال: **﴿كلا لا تطعه﴾** [أي:] فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين، **﴿واسجد﴾** لربك **﴿واقترب﴾** منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تؤدي من رضاه وتقرب منه.

وهذا عام لكل ناه عن الخير ومنهي

(٥) في ب: العذاب.

(٣) في ب: بخلقه.

(٤) في ب: بأنواع العلوم.

(١) في ب: بإرسال الرسل.

(٢) في ب: ولهذا أتى.

هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه * يقول تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: [أمن] اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم.

﴿مُنْفَكِينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين (٥) إلا كفراً.

﴿حتى تأتيهم البينة﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فسر تلك البينة فقال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: أرسله الله، يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاباً يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويذكهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مَطْهُرَةً﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي: أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق عن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك بيد من ضلّاهم وعنادهم، فإنهم ما تفرّقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبينة﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذالتهن، لم يزدنهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد، فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿اللَّهُ﴾ مخلصين له الدين ﴿أَي:﴾

﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خير من العمل في ألف شهر [خالية منها]، وهذا مما تتحير فيه (٣) الألباب، وتندش له العقول، حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمراً طويلاً، نيفاً وثمانين سنة.

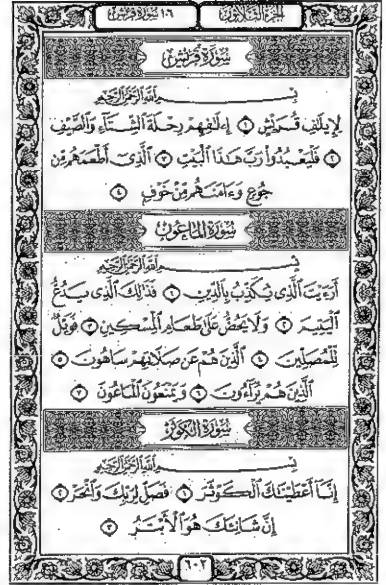
﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ أي: يكثّر نزولهم فيها ﴿من كل أمر﴾ سلام هي ﴿أي:﴾ سائلة من كل أفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، ﴿حتى مطلع الفجر﴾ أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلع الفجر (٤).

وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتاره، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة.

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان، رجاء ليلية القدر [والله أعلم].

تفسير سورة لم يكن وهي مدنية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ فيها كتب قيمة ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك



عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهي رسول الله ﷺ عن الصلاة، وعبث به (١) وأذاه. تمت والله الحمد

تفسير سورة القدر وهي مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إنا أنزلناه في ليلة القدر * وأدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هي حتى مطلع الفجر * يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وذلك أن الله [تعالى]، ابتداءً بإنزاله (٢) في رمضان [في] ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكراً.

وسميت ليلة القدر، لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريّة.

ثم فتح شأنها، وعظم مقدارها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ أي: فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم،

(٥) في ب: الأوقات.

(٤) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من غروب الشمس إلى طلع الفجر.

(١) في ب: وعذبه.

(٢) في ب: ابتداءً بإنزال القرآن.

(٣) كذا في ب، وفي أ: به.

الآشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَحْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [وروجدوا ما عملوا حاضراً].

وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

تفسير سورة العاديات وهي مكية

﴿١- ١١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والعاديات ضبحاً * فالمريرات تدمجاً * فالمريرات صبحاً * فائرن به نفعاً * فوسطن به جمعاً * إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد * أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور * وحصل ما في الصدور * إن ربهم بهم يومئذ لخبير * أقسم الله تبارك وتعالى بالخليل، لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة، ما هو معلوم للخلق.

وأقسم [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿والعاديات ضبحاً﴾ أي: العاديات عدواً بليفاً قوياً، يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العدو^(٥). ﴿فالمريرات﴾ يحوفرن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿قدحاً﴾ أي: تقدح^(٦) النار من صلابة حوافرها [وقوتهن] إذا عدون، ﴿فالمريرات﴾ على الأعداء ﴿صبحاً﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحاً، ﴿فائرن به﴾ أي: بعدونهم وغارتهم ﴿نفعاً﴾ أي: غباراً، ﴿فوسطن به﴾ أي: يراكمهن ﴿جمعاً﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم. والمقسم عليه قوله: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ أي: لمنوع للخير الذي

تفسير سورة إذا زلزلت^(٢) وهي مدنية

﴿١- ٨﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان ما لها * بأن ربك أوحى لها * يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره * غير تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تنزل وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء وعلم^(٣).

فتندك جنباتها، وتُسوى تلالها، وتكون قاعاً صاففاً لا عوج فيه ولا أمّ.

﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ أي: ما في بطنها، من الأموات والكثور، ﴿وقال الإنسان﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظماً لذلك: ﴿ما لها؟ أي: أي شيء عرض لها؟﴾

﴿يومئذ تحدث الأرض أخبارها﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [أي] وأمرها أن تغير بما عمل عليها، فلا تعصي لأمره^(٤).

﴿يومئذ يصدر الناس﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم ﴿أشتاتاً﴾ أي: فرقاً متفاوتين. ﴿ليروا أعمالهم﴾ أي: ليرى الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويرى جزاء موفراً.

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره * وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر

قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿حنفاء﴾ أي: معرضين [ماثلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخص الصلاة والزكاة، [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿ليعبدوا الله مخلصين﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وذلك﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دين القيمة﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، ﴿خالدين فيها﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون، ﴿أولئك هم شر البرية﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة، ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات ﴿ذلك﴾ الجزاء الحسن ﴿للمن خشى ربه﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته^(١).

[تمت والحمد لله]

(٥) في ب: عذوها.

(٦) في ب: تنقدح.

(٣) في ب: ومعلم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا مستعصي.

(١) في ب: بما أوجب عليه.

(٢) في ب: الزلزلة.

تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿فأما هاهوية﴾ أي: مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملائمة كما قال تعالى: ﴿إن عذابها كان غراماً﴾.

وقيل: إن معنى ذلك، فأمدماغه هاهوية في النار أي: يلقي في النار على رأسه.

﴿وما أدراك ما هي﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: ﴿نار حامية﴾ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

تفسير سورة الهالك التكاثر وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الهالك التكاثر﴾ حتى زرت المقابر ﴿كلا سوف تعلمون﴾ ثم كلا سوف تعلمون ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ لترون الجحيم ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴿يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقديم محبته على كل شيء: ﴿الهالك﴾ عن ذلك المذكور ﴿التكاثر﴾ ولم يذكر التكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المتفخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى^(٥).

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] حتى زرت المقابر ﴿فانكشف لكم حيلكم الغطاء، ولكن

بذلك، الجزاء بالأعمال^(٤)، الناشئ عن علم الله وإطلاعه.

تفسير سورة القارعة وهي مكية

﴿١١-١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم القارعة﴾ ما القارعة ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ يوم يكون الناس كالفرش المنفوش ﴿وتكون الجبال كالعنقوش﴾ فاما من ثقلت موازينه ﴿فهو في عيشة راضية﴾ وأما من خفت موازينه ﴿فأما هاهوية﴾ وما أدراك ما هي ﴿نار حامية﴾ ﴿القارعة﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تفرغ الناس وترزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿القارعة﴾ ما القارعة ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ يوم يكون الناس ﴿من شدة الفزع والهول، كالفرش المنفوش﴾ أي: كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض، والفرش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول، وأما الجبال الصم الصلاب، فتكون ﴿كالعنقوش﴾ أي: كالصوف المنفوش، الذي بقي ضعيفاً جداً، تطير به أدنى ريح، قال تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ثم بعد ذلك تكون هباء منسوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء، ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فهو في عيشة راضية﴾ في جنات النعيم. ﴿وأما من خفت موازينه﴾ بأن لم

عليه لربه^(١) فطبيعة [الإنسان] وجيلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بإداء الحقوق، ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك، لا يحجده ولا ينكره، لأن ذلك أمر بين واضح. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿وإنه﴾ أي: الإنسان ﴿الحب الخير﴾ أي: المال ﴿لشديد﴾ أي: كثير الحب للمال.

وحبه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق^(٢) ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة، ولهذا قال حائلاً له على خوف يوم الوعيد:

﴿أفلا يعلم﴾ أي: هلاً يعلم هذا المغتر ﴿إذا بعثر ما في القبور﴾ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم.

﴿وحصل ما في الصدور﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها] ما استتر في الصدور من كمان الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿إن ربه بهم يومئذ خبير﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها. وخص خبره^(٣) بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد

(١) في ب: لله عليه.

(٢) في ب: على رضا ربه.

(٣) في ب: خبرهم.

(٤) في ب: المراد بهذا الجزاء على الأعمال.

(٥) في ب: وليس المقصود منه وجه الله.

بعدهما تعذر عليكم استثنائه .

ودل قوله : ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْقُبُورَ﴾ أن البرزخ دار مقصودة منها النفوذ إلى الدار الباقية^(١) ، لأن الله سماهم زائرين ، ولم يسمهم مقيمين .

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال^(٢) ، في دار باقية غير فانية ، ولهذا توعدهم بقوله : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي : لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب ، لما ألهاكم التكاثر ، ولبادرتهم إلى الأعمال الصالحة .

ولكن عدم العلم الحقيقي ، صرّكهم إلى ما ترون ، ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي : لتردن القيامة ، فلترَوُنَّ الجحيم التي أعدها الله للكافرين .

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي : رؤية بصرية ، كما قال تعالى : ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ .

﴿ثُمَّ لَنَسَآلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي تنعمت به في دار الدنيا ، هل قمت بشكره ، وأديت حق الله فيه ، ولم تستعينوا به على معاصيه ، فيعصمكم نعيماً أعلى منه وأفضل .

أم اغتررت به ، ولم تقوموا بشكره ؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله ، فيعاقبكم على ذلك ، قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذِينَتُمْ طِبَاطِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الآية .

تفسير سورة العصر [وهي] مكية

﴿١- ٣﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا

بالصبر * أقسم تعالى بالعصر ، الذي هو الليل والنهار ، على أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر ، والخاسر ضد الربح .

والخاسر مراتب متعددة متفاوتة :

قد يكون خساراً مطلقاً ، كحال من خسر الدنيا والآخرة ، وفاته النعيم ، واستحق الجحيم .

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض ، ولهذا عزم الله الخسار لكل إنسان ، إلا من اتصف بأربع صفات :

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به ، ولا يكون الإيمان بدون العلم ، فهو فرع عنه لا يتم إلا به .

والعمل الصالح ، وهذا شامل لأفعال الخير كلها ، الظاهرة والباطنة ، المتعلقة بحق الله وحق عباده^(٣) ، الواجبة والمستحبة .

والتواصي بالحق ، الذي هو الإيمان والعمل الصالح أي : يوصي بعضهم بعضاً بذلك ، ويحثه عليه ، ويرغبه فيه .

والتواصي بالصبر على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى أقدار الله المؤلمة .

فبالأمرين الأولين يكمل الإنسان^(٤) نفسه ، وبالأمرين الآخرين يكمل غيره ، ويتكامل الأمور الأربعة ، يكون الإنسان قد سلم من الخسار ، وفاز بالربح [العظيم] .

تفسير سورة الهمة وهي مكية

﴿١٩- ٢٠﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ويل لكل همزة لمزة * الذي جمع مالا وعنده * يحسب أن ماله أخلده * كَلَّا لَيَنْبُذَنَّ فِي الْخُطْمَةِ * وما أدراك ما الخطةمة * نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة * إنا عليهم مؤصدة *

في عميد ممددة * ويل * أي : وعيد ، وويل ، وشدة عذاب * لكل همزة لمزة * الذي يهزم الناس بفعله ، ويلزمهم بقوله ، فالهمزة : الذي يغيب الناس ، ويظعن عليهم بالإشارة والفعل ، واللباز : الذي يعيهم بقوله .

ومن صفة هذا الهماز اللماز ، أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والقبطة به ، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ، ونحو ذلك ، ﴿يَحْسِبُ﴾ بجعله ﴿أَن مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ في الدنيا ، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله ، الذي يظن أنه ينمي عمره ، ولم يدرك أن البخل يقصف الأعمار ، ويحرب الديار ، وأن البر يزيد في العمر .

﴿كَلَّا لَيَنْبُذَنَّ﴾ أي : ليطرحن ﴿فِي الْخُطْمَةِ﴾ وما أدراك ما الخطةمة : تعظيم لها ، وتهويل لشأنها .

ثم فسرها بقوله : ﴿نَارَ اللَّهِ الْمَوْقُودَةَ﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿الَّتِي﴾ من شدتها ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَفئِدَةِ﴾ أي : تنفذ من الأجسام إلى القلوب .

ومع هذه الحرارة البليغة هم عيونون فيها ، قد أيسوا من الخروج منها ، ولهذا قال : ﴿إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ أي : مغلقة ، ﴿فِي عَمِيدٍ﴾ من خلف الأبواب ﴿مَمْدُودَةٌ﴾ لئلا يخرجوا منها ﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ .

[نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية] .

تفسير سورة الفيل وهي مكية

﴿١- ٥﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * فجعلاهم بحجارة من سجيل .

(٣) في ب : بحقوق الله وحقوق عباده . (٤) في ب : العبد .

(١) في ب : الآخرة .

(٢) في ب : على الأعمال .

الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي ﷺ

ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ يَرَاوُنَ﴾ أي: يعملون الأعمال لأجل رياء الناس.

﴿٧﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي:

يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به^(٧).

فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة، الخث على إكرام^(٨) اليتيم، والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها] في جميع الأعمال. والخث على [فعل] المعروف وبذل الأمور الخفيفة، كعارية الإناء والدلو والكتاب، ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فصل لربك وانحر ﴿إِنْ شِئْتَ كُنَّا أَبَدًا﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عتاً عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته، ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له «الكوثر»، ومن الحوض^(٩).

طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، أنيته كنجوم^(١٠) السماء في

ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: ليوحده ويخلصوا له العبادة، ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة، وخص الله بالربوبية البيت^(١١)، لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون [وهي] مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ﴾ فذلك الذي يدع اليتيم ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ فويل للمصلين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ الذين هم يرآءون ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يقول تعالى ذاماً لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ﴾ أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً، ولا يخشى عقاباً^(١٢).

﴿وَلَا يَحْضُ غَيْرَهُ﴾ على طعام المسكين ﴿وَمَنْ يَابِ أَوَّلُ أَنَّهُ بِنَفْسِهِ لَا يَطْعَمُ الْمَسْكِينِ﴾ فويل للمصلين ﴿أَي: الْمُلتزمون^(١٣) لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مقوتون لأركانها^(١٤)، وهذا عدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم^(١٥)، وأما السهو في

كعصف مأكول﴾ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخراجه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاؤوا بجمع لا قبل للعرب به، من الحشة واليمن، فلما انتهروا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أي: متفرقة، تحمل حجارة حممة من سجيل، فرمتهم بها، وتبعث قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، [وقصتهم معروفة مشهورة] وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهابات دعوته، ومقدمات^(١٦) رسالته، فله الحمد والشكر.

تفسير سورة لإيلاف قريش وهي مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لإيلاف قريش﴾ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف ﴿قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب.

فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي: سفر أرادوا،

(٩) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض

الذي يقال له: الكوثر.

(١٠) في ب: عدد نجوم السماء.

(٥) في ب: مخلون بأركانها.

(٦) في ب: الذم والوعيد.

(٧) في ب: يبذل والسماح به.

(٨) في ب: إعطام.

(١) في ب: أدلة.

(٢) في ب: الربوبية باليت.

(٣) في ب: يخاف.

(٤) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون.

دين ﴿ كما قال تعالى ﴾: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾. ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾.

تفسير سورة النصر وهي مدنية (٢)

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾. في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا البشيرة، وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر الله رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين (٣)، ويزداد عند حصول التيسير بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾. وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين ويعددهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمرا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاههم الله (٤) بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل.

[ومع هذا] فلهذه الأمة، وهذا الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا

كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظما بعدها أبدا.

ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال: ﴿ فصل لربك واتحر ﴾. خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات.

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي التحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النجاش، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

﴿ إن شأناك ﴾ أي: مبغضك وذامك ومتنقصك ﴿ هو الأبر ﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.

وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

تفسير سورة الكافرون

﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قل يا أيها الكافرون ﴾ * لا أعبد ما تعبدون ﴾ * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ * ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ * لكم دينكم ولي دين ﴾. أي: قل للكافرين معلنا ومصرحاً ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهراً وباطناً.

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ لعدم إخلاصكم لله في عبادته (١)، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة، ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً.

ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿ لكم دينكم ولي

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم لله.

(٢) في ب: وهي مكة.

(٣) في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين.

(٤) في ب: فابتلوا.



يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به.

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تحتم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك.

فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد وينتهي للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجيده صلوات الله وسلامه عليه.

فكان ﷺ يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي».

تفسير سورة تبت [وهي] مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم تبت يدأ أبي لهب وتب ﴾ * ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾.

ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد * أي: ﴿قل﴾ متعوذاً ﴿أعوذ﴾ أي: ألبأ والوذ، واعتصم ﴿برب الفلق﴾ أي: فالفلق الحب والنوى، وفلق الإصباح.

﴿ومن شر ما خلق﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن، وحيوانات، فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها، ثم خص بعدما عم، فقال: ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ أي: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية.

﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ أي: ومن شر السواحر، اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدنها على السحر.

﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ والحاسد: هو الذي يجب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتجج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشر، عموماً وخصوصاً.

ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه [ومن أهله].

تفسير سورة الناس

وهي مدنية^(١)

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة والناس﴾ وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها وماؤها، الذي من فتنته وشره، أنه

زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مبد، وعلى كل، ففي هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامراته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا يبد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تفسير سورة الإخلاص

[وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ أي: ﴿قل﴾ قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، ﴿هو الله أحد﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنی، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿الله الصمد﴾ أي: المقصود في جميع الخواتج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الخليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه ﴿لم يلد ولم يولد﴾ لكمال غناه، ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

تفسير سورة الفلق

[وهي] مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب *



ناراً ذات لهب * وامراته حمالة الخطب * في جدها حبل من مسد * أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين، ولا حية للقرابة - قبَّحه الله - فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة، فقال:

﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أي: خسرت يداه، وشقي ﴿وتب﴾ فلم يربح، ﴿ما أغنى عنه ماله﴾ الذي كان عنده وأطغاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به، ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وامراته حمالة الخطب﴾.

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تعاونا هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً ﴿من مسد﴾ أي: من ليف.

أو أنها تحمل في النار الخطب على

يقط من رحمته إلا القوم الضالون .
وصلى الله وسلم على رسوله محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين ، صلاة
وسلاماً دائماً متواصلين أبداً
الأوقات ، والحمد لله الذي بنعمته تتم
الصالحات .

تم تفسير كتاب الله بغونه وحسن
توفيقه ، على يد جامعته وكتابه ،
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله
المعروف بابن سعدي ، غفر الله له
ولوآلديه وجميع المسلمين ، وذلك في
غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين
وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ

وبيئها ، ويريد أن يجعلهم من حزيه
ليكونوا من أصحاب السعير ،
والوسواس كما يكون من الجن يكون
من الإنس ، ولهذا قال : ﴿ من الجنة
والناس ﴾ .

والحمد لله رب العالمين أولاً
وآخرأ ، وظاهراً وباطناً .

ونسأله تعالى أن يتم نعمته ، وأن
يعفو عنا ذنوباً لنا حالت^(١) بيننا وبين
كثير من بركاته ، وخطايا وشهوات
ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته .

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير
ما عنده بشر ما عندنا ، فإنه لا يأس
من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا

يوسوس في صدور الناس ، فيحسن
[لهم] الشر ، ويرهم إياه في صورة
حسنة ، وينشط إراداتهم لفعله ، ويقبح
لهم الخير ويضطهم عنه ، ويرهم إياه في
صورة غير صورته ، وهو دائماً بهذه
الحال يوسوس ويخنس أي : يتأخر إذا
ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه .

فينبغي له أن [يستعين و] يستعيد
ويعتصم برؤية الله للناس كلهم .

وأن الخلق كلهم داخلون تحت
الربوبية والمملك ، فكل دابة هو أخذ
بناصيتها .

وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا
تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي
يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والمملك ، فكل دابة هو أخذ

بناصيتها . وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي

يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والمملك ، فكل دابة هو أخذ

بناصيتها . وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي

يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والمملك ، فكل دابة هو أخذ

بناصيتها . وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي

يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والمملك ، فكل دابة هو أخذ

بناصيتها . وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي

يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والمملك ، فكل دابة هو أخذ

بناصيتها . وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي

يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والمملك ، فكل دابة هو أخذ

بناصيتها . وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي

يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والمملك ، فكل دابة هو أخذ

بناصيتها . وبألوهيته التي خلقهم لأجلها ، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم ، الذي

يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم

(١) في ب : ذنوبنا التي حالت .

(٢) في ب : ووقع الثقل في شعبان ١٣٤٥ ربتا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم .

الملاحق

١- أصول وكمليات من أصول التفسير وكملياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢- تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان.

1. *Chlorophyll a* (Chl a)

2. *Chlorophyll b* (Chl b)

3. *Chlorophyll c* (Chl c)

أصول وكتليات

من أصول التفسير وكتلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن^(١)

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب». وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لاتزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن، أنه يدعوا إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين.

ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقِه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضاً أيامه في الأمم، ووقوع المثالات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن من تفرد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لاتصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيزَ وحقق وُجد شراً وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير، إذا فهمت ما دلّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لاتتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخير إلا به،

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم، وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة للاتقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص؛ كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسوله وأوليائه ونزاهم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يصاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات؛ أنه إذا وضح الحق وظهر ظهوراً جلياً، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما، وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم. وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا يذنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المتفعلون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهي نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلم رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج يذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع^(١)].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة. والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه. العدل، هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دماهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق، هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك. حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾، ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -

الحكمة والقوام فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي .
 والإسراف والتبذير، مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة .
 المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفقه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه .
 الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام .
 مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة .
 النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي .
 القرآن، كله مُحكمٌ، وأُحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابه، من جهة اتفاده في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاده .

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني . ومحكمه، واضح مبين صريح في معناه، إذا رُذِّ إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه .
 معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا .
 ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة، واللفظ، والتأييد .
 الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العباد، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله .
 ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار .
 الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب والمكاسب . والخبيث ضد ذلك .

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١) .

النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير .

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة .
 وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدنيوية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك .

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المتفكرون بالآيات . هو: الذي يفهم، ويعقل الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حَجِرْ، وَلُبْ، ونُهِى، لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره .

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها .

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل .
 لفظ «الأمة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به «الطائفة من الناس» وهو الغالب . ويراد به «المدّة»،

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، وتمامها يتضح مراده، وتمامها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تَنَفَقُوا وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تَنْمُتُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ .

ويراد به «الدين» و«الملة»، ويراد به «الإمام» في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُذِّيَ بِ«على» كان معناه العلو والارتفاع، «ثم استوى على العرش».

وإن عُذِّيَ بِ«إلى» فمعناه قصد، كقوله: «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات».

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمُلَ»، كقوله تعالى «ولما بلغ أشده واستوى».

«التوبة» ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة، فنقول:

قد تكرر اسم «الرب» في آيات كثيرة.

و«الرب»: هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم. وأخص من هذا تربيته لأصفياه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم. ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

«الله»: هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

«المملك، المالك»: الذي له المملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

«الواحد، الأحد»: وهو الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك. ويجب على العبيد توحيده، عقلاً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفردته بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

«الصمد»: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضرورتها وأحوالها، لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

«العليم، الخبير»: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

«الحكيم»: وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون». فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

«الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب».

هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية.

والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه. وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته.

«السميع» لجميع الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

«البصير» الذي يُبصر كل شيء وإن دقَّ وصغر، فيبصر ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. ويُبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السموات السبع. وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

«الحميد» في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

«المجيد، الكبير، العظيم، الجليل» وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى. وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله، والخضوع له والتذلل لكبريائه.

«العفو، الغفور، الغفار» الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالعفوان والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوهِ ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾.

«التواب» الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

«القدوس، السلام» أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المنزه عن جميع العيوب، والمنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال «ليس كمثله شيء» «ولم يكن له كفواً أحد» «هل تعلم له سمياً» «فلا تجعلوا لله أنداداً».

فالقدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتهى ثبت الكمال كله.

«العلي الأعلى» وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر. فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى. وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

«العزیز» الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

«القوي، المتين» هو في معنى العزيز.

«الجبار» هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لا ذ به ولجأ إليه.

«المتكبر» عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

«الخالق، الباري، المصور» الذي خلق جميع الموجودات وبرأها وسوّاها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

«المؤمن» الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ما جاؤوا به.

«المهيمن»: المطلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً.

«القدير» كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سوّاها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون»، وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد.

«اللطيف» الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا واليوطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخبير» وبمعنى «الرؤوف».

«الحسيب» هو العليم بعباده، كافي المتركلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليها.

«الرقيب» المطلع على ما أكتنه الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

«الحفيظ» الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

«المحيط» بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً.

«القهار» لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

«المُقيت» الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

«الوكيل» المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أوليائه، ففسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلاً كفاه «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور».

«ذو الجلال والإكرام» أي ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجلود، والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفياه، الذين يجلوته ويعظمونه ويحبونه.

«الودود» الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودأ وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه.

«الفتاح» الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدريّة، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفة ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي يتألون بها خير الدنيا والآخرة «فما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده».

«الرزاق» لجميع عباده، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البرّ والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاض بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

«الحكم، العدل» الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره «إن ربي على صراط مستقيم».

«جامع الناس» ليوم لاريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا تترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرّق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

«الحَيُّ القيُّوم» كامل الحياة والقائم بنفسه، القيُّوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، «الحَيُّ»: الجامع لصفات الذات، و«القيُّوم» الجامع لصفات الأفعال.

«النور» نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدأته، وهو الذي أثار السموات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

«بديع السموات والأرض» أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

«القباض الباسط» يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

«المعطي، المانع» لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمتنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

«الشهيد» أي: المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

«المبدئ، المعيد» قال تعالى: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده»، ابتداء خلقهم ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم ليجزى الذين أحسنوا بالحسن، ويجزي المسيئين بإنساءتهم. وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

«الفعال لما يريد» وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريده يفعلُه بلامانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عون، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، لإرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

«المغني، المقتني» فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته. كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة. المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

«الحليم» الذي يدرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتهم كي يثوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

«الشاكر، الشكور» الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة،

تقرب الله منه أكثر.

«القريب، المجيب» أي: هو تعالى القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص، من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسليده. ومن آثاره الإجابة للداعين، والإنابة^(١) للعبدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشريعته، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوي تعلقهم به طمعاً ورجاء وخوفاً.

«الكافي» عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

«الأول، والآخر، والظاهر، والباطن».

قد فسرها النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً، فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

«الواسع» الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يُخصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

«الهادي، الرشيد» أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منية إليه متقدة لأمره. وللرشيد معنى بمعنى الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

«الحق» في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق. ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾.

﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين آمين.

(١) كذا في الأصل ولعلها: (الإنابة) والله أعلم.

1997-1998

The University of Chicago Press is pleased to announce the publication of the first volume of the new series, "The History of the United States," by the late Professor of History, Dr. [Name]. This volume, "The United States, 1789-1865," is a comprehensive history of the United States during the period of the American Revolution and the early years of the nation. It covers the political, social, and economic developments of the time, and is written in a clear and accessible style. The volume is available in paperback for \$19.95 and in hardcover for \$39.95.

For more information, please contact your local bookseller or write to the University of Chicago Press, 505 East 57th Street, Chicago, IL 60637.

THE UNIVERSITY OF CHICAGO PRESS

The University of Chicago Press is pleased to announce the publication of the second volume of the new series, "The History of the United States," by the late Professor of History, Dr. [Name]. This volume, "The United States, 1865-1914," is a comprehensive history of the United States during the period of the Reconstruction and the early years of the 20th century. It covers the political, social, and economic developments of the time, and is written in a clear and accessible style. The volume is available in paperback for \$19.95 and in hardcover for \$39.95.

For more information, please contact your local bookseller or write to the University of Chicago Press, 505 East 57th Street, Chicago, IL 60637.

The University of Chicago Press is pleased to announce the publication of the third volume of the new series, "The History of the United States," by the late Professor of History, Dr. [Name]. This volume, "The United States, 1914-1945," is a comprehensive history of the United States during the period of the World War and the early years of the 20th century. It covers the political, social, and economic developments of the time, and is written in a clear and accessible style. The volume is available in paperback for \$19.95 and in hardcover for \$39.95.

For more information, please contact your local bookseller or write to the University of Chicago Press, 505 East 57th Street, Chicago, IL 60637.

The University of Chicago Press is pleased to announce the publication of the fourth volume of the new series, "The History of the United States," by the late Professor of History, Dr. [Name]. This volume, "The United States, 1945-1997," is a comprehensive history of the United States during the period of the World War and the early years of the 20th century. It covers the political, social, and economic developments of the time, and is written in a clear and accessible style. The volume is available in paperback for \$19.95 and in hardcover for \$39.95.

For more information, please contact your local bookseller or write to the University of Chicago Press, 505 East 57th Street, Chicago, IL 60637.

THE UNIVERSITY OF CHICAGO PRESS

The University of Chicago Press is pleased to announce the publication of the fifth volume of the new series, "The History of the United States," by the late Professor of History, Dr. [Name]. This volume, "The United States, 1997-1998," is a comprehensive history of the United States during the period of the World War and the early years of the 20th century. It covers the political, social, and economic developments of the time, and is written in a clear and accessible style. The volume is available in paperback for \$19.95 and in hardcover for \$39.95.

For more information, please contact your local bookseller or write to the University of Chicago Press, 505 East 57th Street, Chicago, IL 60637.

The University of Chicago Press is pleased to announce the publication of the sixth volume of the new series, "The History of the United States," by the late Professor of History, Dr. [Name]. This volume, "The United States, 1998-1999," is a comprehensive history of the United States during the period of the World War and the early years of the 20th century. It covers the political, social, and economic developments of the time, and is written in a clear and accessible style. The volume is available in paperback for \$19.95 and in hardcover for \$39.95.

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أثنى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقته للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وفهماً، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿٢٤٣﴾ «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوفاء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فراراً من الموت، فلم ينجمهم الفرار، ولا أغشى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك.

ولكن ذلك، بفضلته وإحسانه، وهو لا زال فضلته على الناس، وذلك موجب لشكرهم. نعم الله بالاعتراف بها وصرافها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلًا متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين.

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الأعداء، وجبناً عن لقائهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد، وترهيباً من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئاً «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم».

﴿٢٤٤-٢٤٥﴾ «وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم» من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون» جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وبحث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله

كان على الزوجة، أن تربص حولاً كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول، لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشر، على وجه التحريم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم، حولاً كاملاً، جبراً لخطأها، وبراً بميتهم، ولهذا قال: «وصية لأزواجهم»، أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يتوصوا بزوجه، ويمتعوها ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا خرج عليها، ولهذا قال: «فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن»، أي: من التجميل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللاحقة بها.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ «وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين» كذلك بين الله لكم آياته لمليكم تعقلون» لما بين في الآية السابقة، إمتاع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يتمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق، إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم ينم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره. وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء. ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: «حقاً على المتقين»، والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

﴿٢٣٨-٢٣٩﴾ ثم قال تعالى: «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين» فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمتتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون» يأمر تعالى بالمحافظة «على الصلوات» عموماً، وعلى «الصلوة الوسطى» وهي العصر خصوصاً.

والمحافظة عليها: أدائها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: «وقوموا لله قانتين»، أي: ذليلين مخلصين خائبين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

﴿٢٣٩﴾ وقوله: «فإن خفتم» حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسيح، وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصولاً، «رجالاً» ماشين على أرجلكم.

«أو ركبانا» على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: «فإذا أمتتم فاذكروا الله» تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً، الإكثار من ذكر الله، شكره له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم آخر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم».

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً»، وأن الأمر

﴿سميع﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليهم﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها.

وأيضاً، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليهم، هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمددهم بمعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على الثقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخراً، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالشفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق مناً ولا أذى، ولا مبطلاً ومقصراً.

﴿٢٤٦﴾ ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ إلى آخر القصة. يقصن الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليزغبوا في الجهاد، ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم المواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والتاكليين خسروا الأمرين.

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة: تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يظلموا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً؛ ليقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقاتل مقال.

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم

الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وأنه عيّن لهم نبيهم طالوت ملكاً، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغفروا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالاً﴾.

فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليكم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والتجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

﴿٢٤٨﴾ ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقتناعهم بما ذكره؛ من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إن آية ملكه أن يأتيتكم التابوت فيه سكية من ربكم ببقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾، وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾، فحينئذ سلموا واتفقوا.

﴿٢٤٩﴾ فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم، ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهيم، ما يحتاج إلى تمييز الضاير من الناكل، فقال: ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ تمرّون عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿فمن شرب منه فليس مني﴾، أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره، وفوق جزعه، ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ لصدقه وصبره، ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾، أي: فإنه مسامح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا﴾ أي: التاكليون أو الذين عبروا:

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

فإن كان القاتلون هم التاكليين، فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القاتلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بمعونه وتأييده، ونصره، فثبتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وقتل داود﴾ و﴿جالوت﴾ وحصل بذلك الفتح والتصر على عدوهم.

﴿وآتاه الله﴾، أي: داود ﴿الملِكَ والحكمة﴾ الثيرة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

﴿٢٥١﴾ ثم بين تعالى، فائدة الجهاد فقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ باستيلاء الكفرة والفجار، وأهل الشر والفساد.

﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

﴿٢٥٢﴾ فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحياً من الله، مطابقاً للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن التاكليين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيتعبون طويلاً.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء، أنه ينبغي للأمير للجيش،

المهد صبيّاً، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وأيدهم بروح منه﴾، لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر.

وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيده الله بإعانه ومؤازرته، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخير عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك مقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانقياد لهم، لما أتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم اتحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى، يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسيباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيتته منافع ولا معارض ولا معاون.

﴿٢٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ يحث الله المؤمنين على النفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حذف المعمول، يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم، بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أي شيء من الدالة على التبعية، فهذا مما يدعوه إلى الإنفاق.

ومما يدعوه أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند الله في يوم لا تفيد

أن يتفقدوها عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، تضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيذه، أو خوف الضرر بصحته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور الناس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله الثبوت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزيمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، نكس أكثرهم، وشبهه هذا قوله ﷺ: «أسألك الرضا بعد القضاء» لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس، هو الرضا الحقيقي.

﴿٢٥٣﴾ وقوله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر الباري أنه قاوت بين الوسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل، واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات.

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخصّ عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً، وعبيده صدقاً، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكلّم الناس في

فيه المناوضات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتنقطع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا، وهم في الغرفات آمنون﴾، ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمه على الكفر، والفسق، والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿٢٥٥﴾ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه ﴿الله﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فالهوية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه ﴿الحي﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن ﴿القيوم﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدتها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقاها.

ومن كمال حياته وقيوميته، أنه

﴿لَا تَأْخُذْهُ سَنَةٌ﴾، أي: نَعَّاسٌ ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك لجميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيد لله متساوون، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، فكل الوجهاء والشعفاء عبيد له ممالك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم. ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، له ملك السماوات والأرض، والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضى إلا توحيده، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلية، التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.

ومع ذلك ف ﴿لَا يُؤْوِدُهُ﴾، أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب،

وذلت له الرقاب.

﴿الْعَظِيمُ﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحته القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبراً متفهماً، أن يستلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من شرور الشيطان.

﴿٢٥٦﴾ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكناله رقبول القطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعاده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماضٍ مع النبر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي. فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقبوله ضعيف، لفظاً ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما نهى عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره -، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح،

حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته. ويؤخذ القسم الثاني، من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكاً أبدياً، ومُعَذَّبٌ عذاباً سريدياً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما أكتنه الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.

﴿٢٥٧﴾ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا بإيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافية، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والنقص، والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذف فيها من نور الوحي والإيمان، ويسرهم ليسرى، ويجنبهم المعسر.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولأهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلمهم إلى رعية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فأضلّوهم وأشقّوهم، وحرّموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرّموهم السعادة، وصارت النار مشواهم، خالدين فيها مخلدين.

اللهم تولنا فيمن توليت. ﴿٢٥٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ يقص الله علينا من آباء الرسل والسالفين، ما به تبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام، حيث حاش هذا الملك الجبار، وهو نمرود^(١) البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكاً، ولا إشكالاً، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره ملكه وأطغاه، حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحداً من الرسل، سوى محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال إبراهيم مناظراً له: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾، أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهاة: ﴿أنا أحيي وأميت﴾، وعني بذلك أنني أقتل من أردت قتله، وأستقي من أردت استبقاه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وخدعة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردّها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بأجلها، بأسباب رطبها ويغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً، ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم - ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر﴾، أي: وقف، وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقلاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود، بطرد دليله إن كان صادقاً، وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه.

فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكروه إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.

﴿٢٥٩-٢٦٠﴾ ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء. فقال: ﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبث مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى خمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم تكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطشن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيّاً وإعلم أن الله عزيز حكيم.

هذان دليان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحداً أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مرّ على قرية قد دمرت تدميراً، وخرت على عروشها، قد مات أهلها وخرت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾، أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه خمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: ﴿كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بل لبث مائة عام﴾، والظاهر أن هذه المجاورة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عياناً، ليقتنع بها، فيعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾، أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب -

خصوصاً ما ذكره المفسرون: أنه فاكهة وعصير - لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله، مائة عام، وقيل له: ﴿انظر إلى خمارك﴾، فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظماً نخرة.

﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾، أي: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض، بعدما تفرقت وتمزقت، ﴿ثم نكسوها﴾ بعد الالتئام ﴿لحماً﴾، ثم تعيد فيه الحياة.

﴿فلما تبين له﴾ رأي عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه، ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾.

فاعترف بقدرة الله على كل شيء، وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت خماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى، هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل، مؤمن أو نبي من الأنبياء، إما عزيز أو غيره، وأن قوله: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾، يعني: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خراباً، وأن الله أماته، ليبريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق، وأنها عمرت في هذه المدة، وتراجع الناس إليها، وصارت عامرة، بعد أن كانت دامرة - فهذا لا يدل عليه اللفظ، بل يتأني، ولا يدل عليه المعنى.

فأي آية وبرهان، يرجع اليلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشاهد، تعمر قرى ومساكن، وتخرّب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته، وإحياء خماره، وإبقاء طعامه وشرابه، لم يتعفن ولم يتغير.

ثم قوله: ﴿فلما تبين له﴾ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

﴿٢٦٠﴾ وأما البرهان الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أولم تؤمن﴾ ليزيل الشبهة عن خليله.

﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿يلى﴾، يا رب، قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنتك تحيي الموتى، وتجازي العباد، ولكن أريد

أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين.

فاجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قال: فخذ أربعة من الطير﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فصرهن إليك﴾ أي: ضمنهن، واذبحهن، ومزقهن.

﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادهن، يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

فجعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودهنهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائهن، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخض الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفوس المبطلّة، فجعلنهن متعدّدات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نجاهن عنه كثيراً، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الخيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعته سلطانه، وتمايم عدله وفضله.

﴿٢٦٦-٢٦٢﴾ مثل الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حية أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴿الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصول إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

وبلي ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.

وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة

دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومضالج متنوعة، فكان الجزاء من جنس العمل.

ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمتفقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية مروانها، فلا يتبعون المنفق عليه مئاً منهم عليه، وتعداداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية.

فهؤلاء ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تتاله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، فنفس عنهم المكروه الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

﴿٢٦٣﴾ ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني غني﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المنفق مئاً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو: الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتبار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة، عن أساء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطى، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشرّاً.

فالخير المحض - وإن كان مفضولاً - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤدي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحق والجهل.

﴿والله﴾ تعالى ﴿غني﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عبادته.

﴿حليم﴾ مع كمال غناه، وسعة عطايه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافهم ويرزقهم، ويدبر عليهم خيره، وهم يبارزون له بالمعاصي.

﴿٢٦٤-٢٦٦﴾ ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقيمرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴿أريد أحذركم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمتفق ابتغاء وجهه، ولم يتبع نفقته مئاً ولا أذى، وللمن أتبعها مئاً وأذى، وللزاني.

﴿٢٦٥﴾ فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾، أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كمثل جنة بربوة﴾، وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها عزيز.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل ظل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا ﴿أنت أكلها ضعفين﴾، أي: متضاعفاً.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل القابل بأعلى المنازل.

﴿٢٦٦﴾ وأما من أنفق لله، ثم أتبع نفقته مئاً وأذى، أو عمل عملاً، يأتي بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلب عليها فاحترقت، وهو الريح الشديدة ﴿فيه نار﴾، وله ذرية ضعفاء، وهو

ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أفزع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أيود أحدكم﴾، إلى آخرها بالاستفهام المستقر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإنتاج ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة - وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه - فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يراي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أثبت كما تثبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالبحر، الذي أصابه الوبال الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلباً.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة. ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿٢٦٧-٢٦٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمسوا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾ * الشيطان يندكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يندكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض،

من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة التقدين، والعروض كلها، المعدة للبيع والشراء، والخارج من الأرض، من الحبوب والثمار، ويدخل في عمومها القرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الذون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والمنتوع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزى عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المنتوب.

﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾، فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المتفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لتفهمهم ومخض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشعرك عباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

﴿٢٦٨﴾ فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعين:

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا، فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب المعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿واسع عليم﴾، أي: واسع الصفات، كثير الهيات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿٢٦٩﴾ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ لما ذكر أحوال المتفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، ويتناول بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه.

والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم. ﴿إلا أولو الألباب﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في الثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس».

﴿٢٧٠-٢٧١﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ * إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المتفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمتنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصار، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

﴿٢٧١﴾ وأخبر أن الصدقة إن أبداه المتصدق، فهي خير، وإن أخفاها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وفي قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فائدة لطيفة، وهي أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع، تدل على مراعاة المصلحة، فزبما كان الإظهار خيراً، لحصول الأمانة والافتقار، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمران:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والشواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي، بتكفير السيئات.

﴿والله بما تعملون خبير﴾، فيجازي كلاً بعمله، بحسب حكمته.

﴿٢٧٢﴾ «ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا ينفسكم وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقون من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فيبد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقاً، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتركية للمؤمنين،

ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص... وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿٢٧٣-٢٧٤﴾ «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم» الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رأهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾، فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطراباً، لم يلحقوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما انصرفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

﴿٢٧٤﴾ ومع ذلك، فالإتفاق في طرق الإحسان وعلى المحابيح حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

فإن الله يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربات.

وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾، أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: «إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيقبلها الجبار بيده، فيريها لأحدكم كما يريي أحدكم فلهو حتى يكون مثل الجبل العظيم».

﴿٢٧٥-٢٨١﴾ «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما

البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» * يمحى الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فذنوا بخرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله، من الخيرات، وما يكفر عنهم، من الذنوب والخطيئات، ذكر الظالمين أهل الربا والمنعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين، عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم لا يقومون من قبورهم، إلى يوم بعثهم ونشورهم. ﴿إلا كما يقرم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾، أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة، وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾، فنجموا - بجزاءهم - بين ما أحل الله، وبين ما حرم الله، واستباحوا بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم، فقال: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾، بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فانتهى﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فله ما سلف﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وأمره إلى الله﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته، فإله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿ومن عاد﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لأكل الربا ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان.

عليهم * وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتننها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم.

احتوت هاتان الآيتان، على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها قواعد كثيرة.

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمته، فكله جائز؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان.

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المعاملات وخلو الإجازات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً، فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون. وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى، والأوقاف، والكلاء، والأمناء، وقد يقارب الزوج، كما إذا كان الحق متمحضاً للعبد، فقد يقوى الزوج وقد يقوى الاستحياب، بحسب الأحوال المتقضية لذلك.

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى.

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يخيل مع أحدهما لقربة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما، وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك، فليحسب الكاتب بين الناس هذه الأمور، ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل، معروفاً بالعدل، لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معترفاً عدلاً عند الناس رضى، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلها بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق.

الناس بأخذ الربا * ولا تظلمون * يحسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملاته سائلة، فله ما سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملاته موجودة، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة، فقد تجرأ على الربا.

وفي هذه الآية، بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة، وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب إنظارهم.

﴿٢٨٠﴾ ولهذا قال: ﴿وإن كان ذر عسرة نظرة إلى ميسرة﴾، أي: وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن ينظره إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح، أن يوفي ما عليه.

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو خير له، ويهون على الغد، التزام الأمور الشرعية، واجتناب المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مثقال ذرة، كما ختم هذه الآية بقوله:

﴿٢٨١﴾ ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون﴾.

﴿٢٨٢-٢٨٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها، وانتفاء موانعها، وليس فيها حجة للخوارج، تغيرها من آيات الوعيد.

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان، من النار. ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار، إن لم يتب منها.

﴿٢٧٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه يمحى مكاسب المرابين، ويربي صدقات المتفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيد، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتنال أمره.

فالمتجرى على الربا، يعاقبه بنقص مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة، ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾.

﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾، وهو الذي كفر نعمة الله، وجحد مئة ربه، وأثم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية، أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء، ثانياً من المآثم والذنوب.

﴿٢٧٧﴾ ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا، وهي قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، الآية، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم، وإساءة عليهم.

﴿٢٧٨﴾ ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه، ويدروا ما بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصّر عليه، من حرباً لله ورسوله.

﴿٢٧٩﴾ ثم قال: ﴿وإن تبتم﴾ يعني من المعاملات الربوية.

﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾

للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب، ولا بالشهيد، بأن يدعى في وقت أو حالة، تضرهما.

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمعاملين، وأن يضار الشهود والكاتب، فإنه أيضاً نهى للكاتب والشهيد، أن يضار المتعاملين أو أحدهما.

وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكاتب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم، وتحميلهم ما لا يطيقون، ف«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»؟

وكذلك على من أحسن وفعل معروفاً، أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلية بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة، حيث وجبت، لأنه حق أوجه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: «ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا»، وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم، يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة، أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكاتب بقوله: «كما علمه الله»، ومع هذا: «فمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته».

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكاتب، فسوق بالإنسان، فإن السوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص، ويتعاضد، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون»، بل قال: «فإنه

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المديونات، فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعاً حاضراً، فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرة وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن، أو تعذر، أو تعسر، فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، بيوع الإدارة، وبيوع الدين، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة، فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق، وأقواها، وليس فيها ما يتاني ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين.

في باب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين، ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين، قائمة مقام الرجل الواحد، في الحقوق الدينية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه، تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً، وقوة حافظة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته، فذكره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير لقوله: «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى»، ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد، لم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمضى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء، والألفاظ المعبّرة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام، اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة، فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابه حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: «ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله».

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب، هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصفره، أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه. ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق، التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب، ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين، والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه، في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمنتته في معاملة، وفوّضته فيها، فقله في ذلك مقبول، وهو نائب متبايك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين يشوب متبايهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر، أولى بالقبول، واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله، ولا يبخص الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباطنين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجليلة والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقضها.

فسوق بكم) فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه، فإنه يحصل به من الفسوق، بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ أن تقوى الله، وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يجعل لكم فرقاناً﴾، أي: علماً تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمته أيضاً، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى، حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

﴿٢٨٣﴾ ومنها: مشروعية الوثيقة بالحق، وهي الرهن والضمانات، التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل براً أو فاجراً، أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق، وإنقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن، أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً، تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضاً، فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فرهان مقبوضة﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمُرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المُرتهن، صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولا أنه يقل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، ولا شهود، لقوله: ﴿فإن آمن بعضكم بعضاً، فليؤد الذي اتّمن أمانته﴾، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال، من عليه الحق، أن يتي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من اتّمن معاملته، فقد عمل معه معروفاً عظيماً، ورضي بدينه وأمانته، فيتأكد على من عليه الحق، أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وأمثالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه، الذي رضي بأمانته، ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة، وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها، كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق، وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه، وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضراً وسفراً - فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهيد.

وختم الآية بأنه ﴿عليم﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بمحوم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه ﴿إنه كان للوابسين غفوراً﴾.

ويعذب من يشاء، وهو المصّر على المعاصي، في باطنه وظاهره.

وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو، عما حدث به العبد نفسه، ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تحدث بها النفوس، التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير، وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿ما في أنفسكم﴾، أي: استقر فيها وثبت، من العزائم والأوصاف.

وأخبر أنه ﴿على كل شيء قدير﴾، فمن تمام قدرته، محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿٢٨٥ - ٢٨٦﴾ ﴿امن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أخذ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرنا ربنا وإليك المصير﴾ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ ثبت عنه ﷺ

أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفته، أي: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا﴾، الآية.

وأخبر في هذه الآية، أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول العظيمة، وبجميع الرسل، وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنع من آمن ببعض، وكفر ببعض، كمحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة.

وفي قرآن المؤمنين بالرسول ﷺ، والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين.

وفيه أنه ﷺ مشارك للأمة في توجه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾، هذا التزام من المؤمنين، عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضموون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات، وما ارتكبه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت».

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً، ومن أفرادهم، إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخاة في الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحميلهم من المشاق، والآصار، والأغلال، ما حمله على من قبلهم، ولم يحميلهم فزق طاعتهم، وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فتسأل الله تعالى، بأسمائه وصفاته، وبما من به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك، وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ، في

غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لنقص العلم، ونقص المعرفة.

فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكماً، ويقولون: ﴿أما به كل من عند ربنا وما يذكر﴾ للأمور النافعة، والعلوم الصائبة ﴿إلا أولوا الألباب﴾، أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا، من غلامه أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه، من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الرواية، والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾: إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعين الوقوف على ﴿إلا الله﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام، كان العطف أولى، فيكون هذا مدحاً للراشخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى متحرفين ومستقيمين، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان، فقالوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾، أي: لا تملأها عن الحق إلى الباطل.

﴿بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة﴾، تصلح بها أحوالنا ﴿إنك أنت الوهاب﴾، أي: كثير الفضل والهيات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراشخين، أنهم يسألونه أن لا يزيع قلوبهم، بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات آخر الأسباب التي بها تزيع قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم، كقوله: ﴿فلما زاعوا أزاع الله قلوبهم﴾، ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾.

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

فالمعنى إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق، فصدف عنه، ورأى الباطل فاختاره، ولاد الله ما تولى لنفسه، وأزاع قلبه، عقوبة له على زيغ، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأثارة بالسوء، والله أعلم.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ هذا

﴿٥٥﴾ ومن تمام قنوميته تعالى، أن علمه محيط بالخلقات ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ حتى ما في بطون الحوامل.

﴿٦٦﴾ فهو ﴿الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، متنقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿٧٨﴾ هو الذي أنزل عليك التلوات بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بدم ﴿الحكيم﴾ في خلقه وشرعه.

﴿٧٨ - ٨٠﴾ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات من أم الكتاب وآخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أما به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ يخبر تعالى عن عظمتهم، وكمال قنوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشبهه غيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردا، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيف، وانحراف، لسوء قصدهم، يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة، وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراشخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها في

العبادات، وفي حقوق الله تعالى. وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم، وتوجه الذم.

وأما وجوب ضمان المتلفات، خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإتيان بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان، والعمد.

تم تفسير سورة البقرة، والله الحمد والثناء، وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ﴿من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ ﴿ألم﴾ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

﴿٢ - ٣﴾ فأخبر تعالى أنه ﴿الحي﴾ كامل الحياة، ﴿القيوم﴾ القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق، الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصدق من جاء بها من المرسلين.

وكذلك ﴿أنزل التوراة والإنجيل﴾. ﴿٤﴾ ﴿من قبل﴾ هذا الكتاب ﴿هدى للناس﴾.

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق، من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير، والشواب العاجل والآجل.

﴿إن الذين كفروا بآيات الله التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله﴾ لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴿ممن عصاه﴾.

الراستخون في العلم، أهل العلم، والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الرسائل التي يحبها الله، أن يتوسل العبد إلى ربه، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه، بحصول الثواب الكامل، واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله، طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصيه، ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبيل الخيرات، وعلى الفقراء، وأهل الحاجات، وبالإستغفار، خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿١٨﴾ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله، وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين، أصله وقاعدته، توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده، بصفات العظمة والكبرياء، والمجد، والعز، والقدرة، والجلال، ونبهت الجود، والبِر والرحمة، والإحسان، والجمال، وبكمال المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق، أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الشئ عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسيفة، كله قسط وعدل.

﴿قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله﴾، فتوحيد الله، ودينه، وجزاؤه، قد ثبت

بحسب الأنساب الحنية - الأمر بالعكس. ﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿زِنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ * قُلْ أَوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لَلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أخبر تعالى في هاتين الآيتين، عن حالة الناس في إيتار الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم، والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس رُتبت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم، ومبلغ علمهم، وهي - مع هذا - متاع قليل، منقضى في مدة سيرة.

فهذا ﴿متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

﴿١٥﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم خير من هذه اللذات، فلم أصناف الخيرات، والتعظيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولهم الأزواج المطهرة، من كل أفة ونقص، جميلات الأخلاق، كمالات الخلائق، لأن الشئ يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات، مستلزم لوضفها بالكمالات.

﴿والله بصير بالعباد﴾ فيسر كل منهم لما خلق له، أما أهل السعادة، فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض، فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمثون بها، ويتخذونها قراراً.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْر لنا ذُنُوبَنَا وَنَنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ أي: هؤلاء

من تمتة كلام الراستخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء، واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعده، وذلك يستلزم موجه ومقتضاه، من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء، أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، للذين هما أساس الخيرات.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لما ذكر يوم القيامة، ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسول الله، لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم، لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ وعجل لهم العقوبات الدنيوية، متصلة بالعقوبات الآخروية.

﴿والله شديد العقاب﴾، فلماكم أن تستهينوا بعقابه، فيهن عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وهذا خبر ويشى للمؤمنين، وتخويف للكافرين، أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثل ولا نظير.

وجعل الله تعالى ما وقع في «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق، وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم، وفئة الكافرين، يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزمهم بإذن الله، ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل لكان -

معدودة حدودها بحسب أهوائهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم، حيث قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هَوْدًا أَوْ نَصَارَى﴾، ومن المعلوم أن هذه أمانتي باطلة، شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله واقتروا عليه، زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغترروا بذلك، وترأى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف يكون حالهم - إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا، وجرى عدل الله في عباده، فهناك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿٢٦٦-٢٧﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً، وغيره تبعاً - أن يقول عن ربه، معلناً بقدرته بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق، والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

فليس الأمر بأمانتي أهل الكتاب، ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره، ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

﴿٢٧﴾ ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا، ما ينقص من هذا، ليقيم بذلك مصالح خلقه.

ويخرج الحي من الميت، كما يخرج الزرع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر، والميت من الحي.

كما يخرج الحبوب والنوى، والزرع والأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذي

شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة، فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك، أن يقول ويعلمن: أنه قد أسلم وجهه، أي: ظاهره وباطنه، لله، وأن من اتبعه كذلك، قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم، من أهل الكتاب، والأميين، أي: الذين ليس لهم كتاب، من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم، والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَيَكْفُرُوا بِعَذَابِ اللَّهِ بَلْ لَيْسَ لَهُمْ دِينًا أَلْتُمُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجنابة العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق وهم الرسل، وأئمة الهدى، الذين يأمرهم الناس بالقسط، الذي اتفقت عليه الأديان والعقول.

﴿٢٢﴾ ﴿فَهَؤُلَاءِ قَدْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

﴿٢٣-٢٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ ذلك بأنهم قالوا لن تمشنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء * الذين أوتوا نصيباً من الكتاب * و * يدعون إلى كتاب الله الذي يصدق ما أنزله على رسله.

﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ عن اتباع الحق، فكانه قيل: أي داع دعاهم إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع، وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً

ثبوتاً لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين، والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر، من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبعون، وفي هذا من الفضل والشرف، وعلو المكانة، ما لا يقادر قدره.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: الدين الذي لا دين له سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿الإسلام﴾، وهو الانقياد لله وحده، ظاهراً وباطناً بما شرعه على ألسنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فمن دان بغير دين الإسلام، فهو لم يدين الله حقيقة، لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على ألسنة رسله.

ثم أخبر تعالى، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا، فاتحرفوا عنه عناداً وبغياً، وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغى والكفر بآيات الله، هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾، أي: فليتنظروا ذلك فإنه آت، وسيجزئهم الله بما كانوا يعملون.

﴿٢٠﴾ ﴿فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلِ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد

يخرج المتضادات، بعضها من بعض، وقد انتقدت له جميع العناصر^(١).

وقوله «بيدك الخير»، أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يضاف إلى الله تعالى، لا وصفاً، ولا اسماً، ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر، كله داخل في القضاء والقدرة، فلا يقع في ملكه إلا ما شاء، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: «بيدك الخير والشر»، بل يقال: «بيدك الخير». كما قاله الله، وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهم محض، ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: «وترزق من تشاء بغير حساب»، وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي يُنال بها رزقه كقوله: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه».

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق، إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

﴿٢٨﴾ «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير» هذا نهي من الله، وتحذير للمؤمنين، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم.

«ومن يفعل ذلك» التولي، «فليس من الله في شيء»، أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، كقوله تعالى: «ومن يتولهم منهم فإنه منهم».

وقوله: «إلا أن تتقوا منهم تقاة»، أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين، فلکم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة، لا في التولي الذي هو محبة القلب، الذي

تتبعه النصرة.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾، أي: فخافوه واخشوه، وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد، وقد أخذ بنواصيهم، وإليه يرجعون وسيصرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاه، على غيره بالشواب الجزيل، ويعاقب الكافرين، ومن تولاهم بالعذاب الويل.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير» يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد» يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد، أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء، في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه، فهو العظيم القدير على كل شيء، الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

﴿٣٠﴾ ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضاً، داعياً آخر إلى مراقبتهم وتقواه، وهو أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم - حينئذ - من خير وشر - محضرة.

فحينئذ يغطى أهل الخير، بما قدموا لأنفسهم، ويحضر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن ينهم وبينه أمداً بعيداً.

فيذا عرف العبد أنه ساج إلى ربه، وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه، ويلقي سعيه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة، التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: «ويحذركم الله نفسه»، وذلك بما يبيد لكم من أوصاف عظمته، وكمال عذابه وشدة نكاله، ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف رحيم.

ومن رآفته ورحمته، أنه خوف العباد،

وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: «ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون»، فرآفته ورحمته، سهلت لهم الطرق، التي ينالون بها الخيرات، ورآفته ورحمته، حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق، التي تفضي بمالكها إلى الجحيم.

﴿٣١ - ٣٢﴾ «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم» قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين» هذه الآية هي الميزان، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلمة محبة الله، اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعتها وجميع ما يدعو إليه، طريقاً إلى منجته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك، أحبه الله، وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه، فكانه قيل: ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتهما؟

﴿٣٢﴾ فأجاب بقوله: «قل أطيعوا الله والرسول» باستثال الأمر، واجتناب النهي، وتصديق الخير، «فإن تولوا» عن ذلك، فهذا هو الكفر، والله «لا يحب الكافرين».

﴿٣٣ - ٣٤﴾ «إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم» إلى آخر القصة.

الله تعالى من عباده أصفاء، يصطفيهم ويختارهم، ويضع عليهم بالفضائل العالية، والتعوت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كمال الرجال، الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير، تسلسل في ذرائعهم وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا

(١) قدم الشيخ - رحمه الله - هذا الجزء من الآية، وقد آثرت إبقاءه على ما هو عليه، مع التنبيه إلى هذا التقديم.

من أجل منته وأفضل مواقع جوده وكرمه. ﴿وَاللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فلما قرر عظمة هذه البيوت، ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال، من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران، قالت - متضرعة إلى ربها، متقربة إليه بهذه القرية التي يحبها، التي فيها تعظم بيته وملازمة طاعته - ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بطني محرراً﴾، أي: خادماً لبيت العباد، المشحون بالمعبدنين.

﴿فتقبلني﴾ هذا العمل، أي: اجعله مؤسساً على الإيمان والإخلاص، مشمراً للخير والثواب، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلما وضعتها قالت رب إنني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى.

كان في هذا الكلام، نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرنا بناء على أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فنجبر الله قلبها، وتقبل الله نذرنا، وصارت هذه الأنثى، أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد، أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نبأاً حسناً﴾، أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلاً.

وهذا من منة الله على العبد، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين. ﴿٣٧ - ٣٩﴾ ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا، حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلاكد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به.

إذ ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ وهو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازماتها لمحرابها، ﴿وجد عندها رزقاً﴾، هيئاً معداً.

﴿قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير

حساب﴾.

فلما رأى زكريا هذه الحال، وألبر واللفظ من الله بها، ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد، على حين اليأس منه، فقال: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يشرك ببيحيى مصداقاً بكلمة من الله، اسمه أي: الكلمة التي من الله عيسى ابن مريم.

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم، تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم، والتصديق له، والشهادة له بالرسالة. فهذه الكلمة من الله، كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وقوله: ﴿وسيداً وحسوراً﴾، أي: هذا المبشر به وهو يحيى، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم: «والحضور»، قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهرة له في النساء، وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين.

﴿ونبياً من الصالحين﴾، الذين يلغوا في الصلاح ذروته العالية.

﴿٤٠﴾ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامراتي عاقر؟ ﴿٤١﴾ فهذا مانعان، فمن أي طريق - يا رب - يحصل لي ذلك، مع ما يتنافى ذلك؟!.

﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾، فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأشبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاضى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة، ما بلغت.

﴿٤١﴾ قال رب اجعل لي آية﴾ ليحصل السرور والاستبشار، وإن كنت - يا رب - متيقناً مما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطيف.

﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾، ﴿و﴾ في هذه المدة «أذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار»، أول النهار

وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا، مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير، والمرأة العاقر.

وكونه لا يقدر على مخاطبة الآمين، ولسانه منطلق بذكر الله، وتبجيحه، آية أخرى.

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر الله، وأكثر من الذكر والتسبيح بالشايات والإبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران، على زكريا، فإن ما من الله به عليها، من ذلك الرزق الهنيء، الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهينه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالنسب والمسيب، ولكنه يقدر أموراً محبوبة على يد من يحبه، ليرفع الله قدره، ويعظم أجره.

﴿٤٢﴾ ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة والكمال، مبلغة عظيماً، فقال تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك﴾، أي: اختارك، ووهب لك من الصفات الجليلية، والأخلاق الجميلة.

﴿وطهرتك﴾ من الأخلاق الرذيلة، ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾، ولهذا قال ﷺ: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

﴿٤٣﴾ فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك، لتغتبط بنعم الله، وتشكر الله، وتقوم بحقوقه، وتشغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يا مريم انتني لربك﴾، أي: أكشري من الطاعة، والخضوع والخشوع لربك، وأديمي ذلك «واسجدي واركعي مع الراكعين»، أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به، وبرزت، وفاقَت في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله المميز الحكيم، لا يتعلم من الناس - قال تعالى -: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾، حيث جاءت بها أمها،

ويعطيه النبوة.

﴿٤٩﴾ ﴿و﴾ يجعله ﴿رسولاً﴾ إلى بني إسرائيل، ويؤيده بالآيات العينية، والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أنّي قد جئتكم بآية من ربكم﴾ تدلّكم أنّي رسول الله حقاً.

وذلك ﴿أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمه﴾، وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينيه، ﴿والأبرص﴾، وأحيي الموتى بإذن الله، وأنشئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن كنتم ذلك المذكور ﴿آية﴾ لكم إن كنتم مؤمنين. ومصداقاً لما بين يدي من التوراة، فأئده الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة، والذين الذي جاء به، وأنه دين التوراة، ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين، لخالف ما جاء به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه. وأيضاً فقولوه: ﴿ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾، أي: ولأخفف عنكم بعض الأصناف، والأغلال.

﴿٥١﴾ ﴿فأتقوا الله وأطيعوا﴾: إن الله ربي وربكم فاعبدوه، وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل، عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعتهم.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود.

﴿٥٢﴾ ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ والاتفاق على رد دعوته، ﴿قال﴾: نادياً لبني إسرائيل على مؤازرته ﴿من أنصاري إلى الله﴾، قال الحواريون، أي: الأنصار.

﴿نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون﴾، وهذا من مئة الله عليهم، وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين، الإيمان به، والالتقاء لطاعته،

فاختصموا إياهم بكتفها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصاب القرعة زكريا، رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها، فتقصها على الناس، وإنما الله نباك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة، والبعث وغيرها من الأصول الكبار.

﴿٥٥﴾ ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾، أي: له الوجاهة، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلاهم درجة، وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

ومن تمام هذه البشارة أنه: ﴿يكلم الناس في المهدي﴾، فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأمه وبالمخلوق، ﴿و﴾ كذلك يكلمهم ﴿كهلاً﴾، أي: في حال كهولة، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهدي، فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراهنه أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته، فيه نفعه العظيم للمخلوق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم، في وحيه، وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو ﴿من الصالحين﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحيه، وألستهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

﴿٤٧﴾ ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾، وهذا من الأمور المستغربة ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه لا ممانع لإرادته.

﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ ويعلمه الكتاب، أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس،

والنصرة لرسوله.

﴿٥٣﴾ ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول﴾، وهذا التزام تام للإيمان، بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله.

﴿فأكتنا مع الشاهدين﴾ لك بالوحدانية، ولتليك بالرسالة، ولديك بالحق والصدق.

﴿٥٤﴾ ﴿أما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مكروا﴾ بعيسى ﴿ومكر الله﴾ بهم، ﴿والله خير الماكرين﴾، فاتفقوا على قتله وصلبه، وشبه لهم شبه عيسى.

﴿٥٥﴾ ﴿فقبضوا على من شبه لهم به، وقال الله لعيسى: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾. فرفعه الله إليه، وظهره من الذين كفروا، وضلوا من قتلوه، طائفتين أنه عيسى، وبأوا بالاثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم، في آخر هذه الأمة حكماً عادلاً، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويتبع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون.

وقوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾، المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به، ونصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمه محمد ﷺ، فكانوا هم أتباعه حقاً، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ. ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾، الآية.

ولكن حكمة الله عادلة، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين، نصرة الله النصر المبين، وأن من ترك أمره وتنهيه، ونبذ شرعه، وتجرأ على معاصيه، إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء، ﴿والله عزيز حكيم﴾.

وقوله: ﴿ثم إلي مرجعكم، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

﴿٥٦-٥٧﴾ فقد بين ما يفعله بهم، فقال: ﴿فأما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾: وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفهم أجورهم والله لا يحب

الظالمين.

اتضح لهم الحق، ولكن العناد والتعصب منعهم منه.

مسلمون، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخرها.

وهذا الجزء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف، من جميع أهل الأديان السابقة. ثم لما بعث سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ونسخ رسله، الرسالات كلها، ونسخ دينه، جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين، من الهالكين.

﴿٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿ذلِكَ نَحْلُوهَ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾. أي: هذا القرآن العظيم، الذي فيه نبأ الأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات، وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿٥٩-٦٢﴾ وإن مثل عيسى عند الله كممثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * لما ذكر قصة مريم وعيسى وأيهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية، فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه، وكذب عيسى ﷺ، فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذها إلهاً، شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحق منه، فإن خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك، فاتفق البشر كلهم، على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى، بكونه خلق من أم بلا أب، دعوى من أبطل دعاوى.

﴿٦٠﴾ وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه، أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم﴾، وكان قد قدم على النبي ﷺ وقد نصارى نجران، وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله، حيث زعموا إلهيته.

﴿٦١﴾ فوصلت به وبهم الحال، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، بأن يحضر هو وأهله وأبنائه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى، أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم - إن يباهلوه - هلكوا، هم وأولادهم وأهلهم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المودة والمهادنة.

فأجابهم ﷺ ولم يرحبهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الانتعاز عن المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

﴿٦٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات، وأذعنت له سكان الأرض والسموات.

ومع ذلك فهو ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها^(١).

﴿٦٤﴾ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، الآية.

ويقرأ بها في الركعة الأخيرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبنية على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية.

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا.

﴿٦٥﴾ ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

﴿٦٥-٦٨﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجِرُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجِرُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين * كانت الأديان كلها، اليهود والنصارى، والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم، يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به، محمد ﷺ وأتباعه، وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ.

وأما اليهود والنصارى، والمشركون فإبراهيم بريء منهم، ومن ولايتهم، لأن دينه، الحنيفية السمحة، التي فيها الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين.

وأما دعوى اليهود والنصارى، أنهم على ملة إبراهيم، فقد علم أن اليهودية والنصرانية، التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل.

فكيف يحاجون في هذا الأمر، الذي يعلم به كذبهم واقتراؤهم؟! فهب أنهم جاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يعلم فساد دعواهم.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، فكلما قوي إيمان العبد، تولاها الله بلطفه، ويسره ليسرى، وجنبه العسرى.

﴿٦٩-٧٤﴾ ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلَوْنَكُمْ وَمَا يُضْلَوْنَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يا أهل الكتاب لم تكفروا بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل

(١) لم يفسر - رحمه الله - الآية الثالثة والستين، وقد قام النجار بإضافة تفسيرها من عنده.

ذلك، ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم وسوء مغيبهم.

﴿٧٩-٨٠﴾ «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدبسون» ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴿أي: يمنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر، فكيف، وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!﴾

هذا من الممنوع، لأن حاله وما هو عليه، وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص، تقتضي العبودية الكاملة، والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران، حين تبادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر، أن قالوا: أئماننا - يا محمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبين الباري انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿٨١-٨٢﴾ «وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين» فيمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم، من الكتاب والحكمة، المقضي للقيام التام، بحق الله وتوفيقه، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم، بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع، أنهم يؤمنون به، وينصرونه.

فأقرروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم، قد اتفقت وتاهلوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق، بالإيمان،

الكثير، يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة، يخونك في أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة، فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: «ليس علينا في الأميين سبيل»، أي: ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» أن عليهم أشد الحرج، فجمخوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك، ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال تعالى: «بلى»، أي: ليس الأمر كما قالوا.

فإنه «من أوفى بعهد واتقى»، أي: قام بحقوق الله، وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقى، والله يحبه.

أي: ومن كان بخلاف ذلك، فلم يف بعهد وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله، فإن الله يمتقه، وسيجازيه على ذلك أعظم النكال.

﴿٧٧﴾ «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، فيختارون الحظاظ القليل من الدنيا، ويتوسلون إليها بالإيمان الكاذبة، والعهود المتكثرة، فهؤلاء «لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»، أي: قد حق عليهم سحق الله، ووجب عليهم عقابه، وحرما ثوابه، ومنعوا من التزكية، وهي التطهير.

بل يردون القيامة، وهم متلبثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب العظام.

﴿٧٨﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً هم محرفون لكتاب الله، «يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب»، وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة في

وتكتمون الحق وأنتم تعلمون» وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار واكفروا. آخروه لعلهم يرجعون» ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» هذا من منة الله على هذه الأمة، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينسعون المكدرات الخبيثة.

فقال طائفة منهم: «آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار»، أي: أوله، وأرجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يحبهم، ولا يوافق الكتب السابقة، لم يرجعوا.

هذا مكبرهم، والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل، يختص به من يشاء، فخصكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم. ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق، إذا وصلت حقيقته إلى القلوب، لم يزد صاحبها - على طول السدى - إلا إيماناً و يقيناً.

ولم تزد الشبهة، إلا تمسكاً بدينه، وحمداً لله، وثناء عليه حيث من به عليه. وقولهم: «أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم»، يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المتكررة، الحسد والبغى، وخشية الاحتجاج عليهم.

كما قال تعالى: «وإذا كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق»، الآية.

﴿٧٥-٧٦﴾ «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً» ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» بلى من أوفى بعهد واتقى فإن الله يحب المتقين» يخبر تعالى عن أهل الكتاب، أن منهم طائفة أمناة، بحيث لو أمنته على قناطير من القود، وهي المال

والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم، فهذا دينهم الذي أخذ الله عليهم، وأقروا به واعترفوا.

فمن تولى عن اتباع محمد، ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحججة والبرهان، على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسولهم، الذين يزعمون أنهم أتباعهم، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿٨٣-٨٥﴾ «أغفِر دين الله يبعثون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون» قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والتبوت من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين * قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسول، وأنها هي الفرض السوجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها، فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه، ورغب عنه، فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأبحار والزهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟ أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين.

﴿٨٦-٩١﴾ «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الضالين» أولئك جزأؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدون فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم * إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملة الأرض ذهباً ولو افتدى به

أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين * يعني: أنه يبعد كل البعد، أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه، وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم، ناكسين ناكسين؛ لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس، وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فكرهه، والباطل فأثره، فوالله الله ما تولى لنفسه.

فهؤلاء «عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» خالدون في اللعنة والعذاب «لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون» إذا جاءهم أمر الله لأن الله، عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد، التائبين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لغيرهم، فإن الله يغفر لهم ما قدوموه، ويغفو عنهم ما أسلفوه.

﴿٩١﴾ «ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزد إلا كفراً حتى مات على كفره، فهؤلاء هم البضالون عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولن يذلوا ملة الأرض ذهباً ليقفروا به، لم ينفعهم شيئاً، فعذاباً بالله من الكفر وفروعه.

﴿٩٢﴾ «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم» يعني: لن تنالوا وتدركو البر، الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها.

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سمحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورفقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووقعه أعمالاً وأخلاقاً، لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا

الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأولى والأخرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره، فإن الله به عليم.

وسيجزي كل متفق، بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

﴿٩٣-٩٤﴾ «كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون» من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنسبة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

نكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا أشياء يسيرة جرمها إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة، فيها من التحريمات التي نسخت، ما كان حلالاً قبل ذلك شيء كثير.

قل لهم - إن أنكروا ذلك - «فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم.

وهذا من أبلغ الحجج، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للنق، فهو الواجب، وإن أبى ولم يشق بعد هذا البيان، تبين كذبه واقتراؤه، وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿٩٥﴾ «قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً، وقد بين في هذه الآيات، من الأدلة على صحة رسالية محمد ﷺ، وإبراهيم دعوته، وبطلان ما عليه المتحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله، وردوا دعوته، فقد صدق الله في ذلك، وأقنع عباده على ذلك، بإبراهيم وحجج، تتصنع لها الجبال، وتخضع لها الرجال.

عظيم ﴿ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته، وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله النسب بينهم وبينه، وهو دينه، وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة.

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتبع هذه الحالة، والسبب الأخرى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم، بأن يتصدي منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿ يدعون إلى الخير ﴾ وهو الذين، أصوله، وفروعه وشرائعهم.

﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

﴿ وينهون عن المنكر ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبيئات، الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، فتفرقوا واختلوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل

النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - ويخ المصاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصددهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿ ١٠٠ - ١٠١ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴿ لما أقام الحجج على أهل الكتاب، ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم، خريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن - والله الحمد - أنتم - يا معشر المؤمنين - بعداً من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله، الذي هو دينه - يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بنجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية، وأفضل مطلوب.

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾، أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، ﴿ فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾، وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿ ١٠٢ - ١٠٥ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿ ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب

فنعين عند ذلك على الناس كلهم، اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة.

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.

﴿ ٩٦ - ٩٧ ﴾ ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴿ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتتنوع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنفلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الأمن^(١) الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً ودينياً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات العبادية، والتي مستحدث.

وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به، فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين، ومن كفر، فإن الله غني عن العالمين.

﴿ ٩٨ - ٩٩ ﴾ ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ قل يا أهل الكتاب لم تصدقوا عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴿ لما أقام، فيما تقدم، الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك، يعرفون

(١). مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم: الأمين وقد غيّرت الكلمة في المطبوع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله.

وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سييء، وبغى من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١٠٦-١٠٧﴾ ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم، ويسمى هذا العذاب الأليم، فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون.

يعبر تعالى، بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وامتلأوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى، يدخلهم الجنة ويفيض عليهم أنوار الكرامات، وهم فيها خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة، الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيئاً وأنهم يويخون، فيقال لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فكيف احترمت الكفر على الإيمان؟!

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلَوُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾. والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور، يشي تعالى، على ما قصه على نبيه من آياته، التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعد لهؤلاء من الثواب، وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله، وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم ينقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحداً بغير ذنبه، أو يحمل عليه وزر غيره.

ولما ذكر أنه له الأمر والشرع، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والبطان، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، فيجازي المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بعصيانهم.

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة بين عباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدورية والأحكام الشرعية،

والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة.

ومن سواه من المخلوقات، محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿١١٠-١١١﴾ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأذيبار ثم لا ينصرون. هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس، نصحاء، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليماً، وإرشاداً، وأمرأ بالمعروف، ونهيأ عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان.

وأن أهل الكتاب، لو آمنوا بسبل ما أنتم به، لاهتدوا وكان خيراً لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير، فهم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك، فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، ولا قتلوا قلوبهم، لولوا الأذيبار، ثم لا ينصرون.

وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين، ولوا الأذيبار، ونصر الله المسلمين عليهم.

﴿١١٢﴾ ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَشَقَّقُوا إِلَّا فِي حَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلّة، فهم خائفون أينما تشقّقوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

أو ﴿يَحْبِلُ مِنَ النَّاسِ﴾، أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، كما شوهد

خالهم سابقاً ولاحقاً، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى، وتمييزهم لهم كل سبباً^(١).

﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ﴾، أي: قد غضب الله عليهم، وعاقبهم بالذلّة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، أي ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغى وعناد.

تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيتهم وعدوانهم، وكفرهم وتكذيبهم للرسل، وجناباتهم الفظيعة.

﴿١١٣-١١٥﴾ ﴿لَيْسَ سَوَاءَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمنون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه. والله عليم بالمتقين. لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب، بين حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهو الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والمسارة إلى الخيرات، قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها، وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه، من خير قليل أو كثير، فإن الله تعالى سيقبله، حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص، ﴿فَلَنْ يَكْفُرُوهُ﴾، يعني: لن يتكر ما عملوه، ولن يهدر.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾، وهم الذين قاموا بالخيرات، وتركوا المحرمات،

(١) قد يشكل - على القارئ - هذا التوضيح إذ هو عن ملك اليهود لفلسطين مع أن الشيخ ألف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجملة الموضوعية بين القوسين المركبتين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين من كتابته التفسير، والله أعلم.

لقصد رضا الله، وطلب ثوابه.

﴿١١٦-١١٧﴾ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» مثل ما يتفقون في هذه الحياة الدنيا. كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» بين تعالى: أن الكفار، الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله، أنه لا ينقذهم من عذاب الله. منقذ، ولا ينفعهم نافع، ولا يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم، التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره، لا تفيدهم شيئاً، وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا، لنصر باطلهم، ستضمحل.

وأن مثلها «كمثل» حرث أصابت «ريح» شديدة «فيها صر»، أي: برد شديد، أو نار محرقة، فأهلكت ذلك الحرث، وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما ظلموا أنفسهم.

وهذه كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ».

﴿١١٨-١١٩﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْنِي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيط قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور إن تمسبكم حسنة تسؤكم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما تعملون محيط» هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار، واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء، يسرون إليهم، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين، فوضح لعباده المؤمنين، الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألوكم خبالاً، أي: هم حريصون غير مقصرين، في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم، وقللت ألسنتهم، وما تخفيه صدورهم، من البغضاء والعداوة، أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم.

فإن كانت لكم فهم وعقول، فقد وضح الله لكم أمرهم.

وأيضاً، فما المزعج لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحسانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب، وأشرف الرسل، وأنتم تذلون لهم من الشفقة والمحبة، ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم، وهم لا يحبونكم، وهم يذاهبونكم وينافقونكم، فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم، عضوا عليكم الأنامل، من شدة الغيظ والبغضاء لكم ولدينكم.

قال تعالى: «قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ»، أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسؤكم، وتموتون بغيظكم، فلن تدرؤا شفاء ذلك بما تقصدون.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ بَذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فلذلك بين لعباده المؤمنين، ما تطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿إِنْ تَمَسَّكْمْ حَسَنَةٌ﴾ عز ونصر وعافية وخير «تسؤهم، وإن تصبكم سيئة» من إدالة العدو، أو حصول بعض المصائب الدنيوية «يفرحوا بها»، وهذا وصف العدو الشديد عداوته.

لما بين تعالى شدة عداوتهم، وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة، أمر عباده المؤمنين بالصبر، ولزوم التقوى، وأنهم إذا قاموا بذلك، فلن يضرهم كيدهم أعدائهم شيئاً، فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم، التي يكيدونكم فيها.

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى، أنهم لا يضرؤنكم شيئاً، فلا تشكوا في حصول ذلك.

﴿١٢١-١٢٢﴾ «وَإِذْ غَدَرَتِ مِنْ أَمْلَكِ تَبَوَّءَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. وَذَلِكَ يَوْمَ «أَحَد» حِينَ خَرَجَ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ، حِينَ وَصَلَ الْمُشْرِكُونَ - بِجَمْعِهِمْ - إِلَى قَرِيبٍ مِنْ «أَحَد». فَتَرَّلَهُمْ ﷺ سَازِلَهُمْ، وَرَتَبَهُمْ فِي مَقَاعِدِهِمْ، وَنَظَّمَهُمْ تَنْظِيماً عَجَبِيًّا، يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ رَأْيِهِ وَبِرَاعَتِهِ الْكَامِلَةِ فِي فَنُونِ السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ، كَمَا كَانَ كَامِلاً فِي كُلِّ الْمَقَامَاتِ.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة، لكن تولاهما الباري بلفظه ورعايته وتوقيه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إذا توكَّلوا عليه، كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم، في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها، وجوب التوكَّلِ وأنه على حسب إيمان العبد، يكون توكُّله، والتوكُّل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منفعته، ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم في «أحد» وما جرى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره، ونعمته عليهم يوم «بدر» ليكونوا شاكرين لربه، وليخفف هذا هذا، فقال: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة» في عددكم وعددكم، فكانوا ثلاثمائة، وبضعة عشر، في قلة ظهر، ورثائة سلاح، وأعداؤهم يناهزون الألف، في كمال العدة والسلاح.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكِرُونَ﴾ الذي أنعم عليكم بنصره.

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مبشراً «لِلْمُؤْمِنِينَ» شيئاً لجنتانهم: «أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ» بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا، أي: من حملتهم هذه بهذا الوجه.

﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، أي: معلمين علامة الشجعان.

واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة، مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم، أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين.

ويدل عليه قوله: «وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»، وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد، بل يعتمد على الله.

وإنما الأسباب وتوفرها، فيها طمأنينة للقلوب، وثبات على الخير.

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين﴾، أي: نصر الله لعباده المؤمنين، لا يعدو أن يكون قطعاً لطرف

اللازمة، كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر، يغفر للتائبين، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

تم الجزء المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن بخط مؤلفه عبد الرحمن الناصر بن سعدي ٩ ربيع أول ١٣٤٣. غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ووليّه المجلد الثاني أوله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا

وهؤلاء الذين دعوت عليهم، أيها الرسول، أو استعبدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم، ووقفهم للدخول في الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك هداهم الله فأسلموا.

وإن شاء عذبهم، فإنهم ظالمون، مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يخبر تعالى، أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء، فيغفر له، ويخذل من يشاء، فيعذبه.

﴿والله غفور رحيم﴾ فمن صفته

من الكفار، أو ينقلبوا بغيتهم، لم ينالوا خيراً، كما أرجعهم يوم الخندق، بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين، أرجعهم الله بغيتهم خائنين.

﴿١٢٨﴾ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت ريعيته، وشج في رأسه، جعل يقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا ريعيته»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربهم، مديونون لا مديونون.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يخبر تعالى، أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء، فيغفر له، ويخذل من يشاء، فيعذبه.

﴿١٣٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالرِّبَا زَوْجًا بَازِيًّا أَوْ ضِعْفًا بِضِعْفٍ أَنِ تُؤْكِلُوا بِغُلَامٍ كَذِبًا لَا يَعْلَمُ لَكُمْ يَوْمَ تَأْكُلُونَهَا﴾

﴿١٣١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَكُمْ يَوْمَ تَبْذَرُونَ فِيهَا مَصْرَفًا لِّمَن لَّمْ يَكُنْ مَحْزُومًا يَوْمَ تَحْمِلُ أَرْصَالُهُمْ عَمَلَكُمُ الْمَصْرُوفَ﴾

﴿١٣٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَكُمْ يَوْمَ تَبْذَرُونَ فِيهَا مَصْرَفًا لِّمَن لَّمْ يَكُنْ مَحْزُومًا يَوْمَ تَحْمِلُ أَرْصَالُهُمْ عَمَلَكُمُ الْمَصْرُوفَ﴾

فهرس أسماء السور

٦٩٢	تفسير سورة يس	٣٩	تفسير سورة الفاتحة
٧٠٠	تفسير سورة الصافات	٤٠	تفسير سورة البقرة
٧٠٩	تفسير سورة ص	١٢١	تفسير سورة آل عمران
٧١٧	تفسير سورة الزمر	١٦٣	تفسير سورة النساء
٧٣١	تفسير سورة المؤمن (غافر)	٢١٨	تفسير سورة المائدة
٧٤٤	تفسير سورة فصلت	٢٥٠	تفسير سورة الأنعام
٧٥٢	تفسير سورة الشورى	٢٨٣	تفسير سورة الأعراف
٧٦٢	تفسير سورة الزخرف	٣١٥	تفسير سورة الأنفال
٧٧١	تفسير سورة الدخان	٣٢٨	تفسير سورة براءة (التوبة)
٧٧٥	تفسير سورة الجاثية	٣٥٧	تفسير سورة يونس
٧٧٩	تفسير سورة الأحقاف	٣٧٦	تفسير سورة هود
٧٨٤	تفسير سورة القتال (محمد ﷺ)	٣٩٣	تفسير سورة يوسف
٧٩١	تفسير سورة الفتح	٤١٢	تفسير سورة الرعد
٧٩٩	تفسير سورة الحجرات	٤٢١	تفسير سورة إبراهيم
٨٠٣	تفسير سورة ق	٤٢٩	تفسير سورة الحجر
٨٠٨	تفسير سورة الذاريات	٤٣٥	تفسير سورة النحل
٨١٣	تفسير سورة الطور	٤٥٣	تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء)
٨١٨	تفسير سورة النجم	٤٦٩	تفسير سورة الكهف
٨٢٣	تفسير سورة اقترت (الانشقاق)	٤٨٩	تفسير سورة مريم
٨٢٨	تفسير سورة الرحمن	٥٠١	تفسير سورة طه
٨٣٢	تفسير سورة الواقعة	٥١٨	تفسير سورة الأنبياء
٨٣٧	تفسير سورة الحديد	٥٣٢	تفسير سورة الحج
٨٤٣	تفسير سورة قد سمع الله (المجادلة)	٥٤٧	تفسير سورة المؤمنون
٨٤٨	تفسير سورة الحشر	٥٦١	تفسير سورة النور
٨٥٤	تفسير سورة الممتحنة	٥٧٧	تفسير سورة الفرقان
٨٥٨	تفسير سورة الصف	٥٨٩	تفسير سورة الشعراء
٨٦٢	تفسير سورة الجمعة	٦٠٠	تفسير سورة النمل
٨٦٤	تفسير سورة المنافقون	٦١١	تفسير سورة القصص
٨٦٦	تفسير سورة التغابن	٦٢٦	تفسير سورة العنكبوت
٨٦٩	تفسير سورة الطلاق	٦٣٦	تفسير سورة الروم
٨٧٢	تفسير سورة التحريم	٦٤٦	تفسير سورة لقمان
٨٧٥	تفسير سورة الملك (تبارك)	٦٥٣	تفسير سورة السجدة
٨٧٨	تفسير سورة ن (القلم)	٦٥٧	تفسير سورة الأحزاب
٨٨٢	تفسير سورة الحاقة	٦٧٤	تفسير سورة سبأ
٨٨٥	تفسير سورة سأل سائل (المعارج)	٦٨٤	تفسير سورة فاطر

٩٢٩	تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك (الشرح)
٩٢٩	تفسير سورة التين
٩٣٠	تفسير سورة اقرأ (العلق)
٩٣١	تفسير سورة القدر
٩٣١	تفسير سورة لم يكن (البيئة)
٩٣٢	تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة)
٩٣٢	تفسير سورة العاديات
٩٣٣	تفسير سورة القارعة
٩٣٣	تفسير سورة الهاكم التكاثر (التكاثر)
٩٣٤	تفسير سورة العصر
٩٣٤	تفسير سورة الهمزة
٩٣٤	تفسير سورة الفيل
٩٣٥	تفسير سورة لا يلاف قريش (قريش)
٩٣٥	تفسير سورة الماعون
٩٣٥	تفسير سورة الكوثر
٩٣٦	تفسير سورة الكافرون
٩٣٦	تفسير سورة النصر
٩٣٦	تفسير سورة تبت (اللهب)
٩٣٧	تفسير سورة الإخلاص
٩٣٧	تفسير سورة الفلق
٩٣٧	تفسير سورة الناس

٨٨٨	تفسير سورة نوح
٨٩٠	تفسير سورة قل أوحى إلي (الجن)
٨٩٢	تفسير سورة المزمل
٨٩٥	تفسير سورة المدثر
٨٩٨	تفسير سورة القيامة
٩٠٠	تفسير سورة الإنسان (الدهر)
٩٠٣	تفسير سورة المرسلات
٩٠٦	تفسير سورة عم (النبا)
٩٠٨	تفسير سورة عبس
٩١٠	تفسير سورة التكويد
٩١٢	تفسير سورة الانقطار
٩١٤	تفسير سورة المعطفين
٩١٥	تفسير سورة الانشقاق
٩١٨	تفسير سورة البروج
٩١٩	تفسير سورة الطارق
٩٢٠	تفسير سورة سبح (الأعلى)
٩٢١	تفسير سورة الغاشية
٩٢٣	تفسير سورة الفجر
٩٢٤	تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد (البلد)
٩٢٦	تفسير سورة والشمس وضحاها (الشمس)
٩٢٦	تفسير سورة الليل
٩٢٨	تفسير سورة الضحى